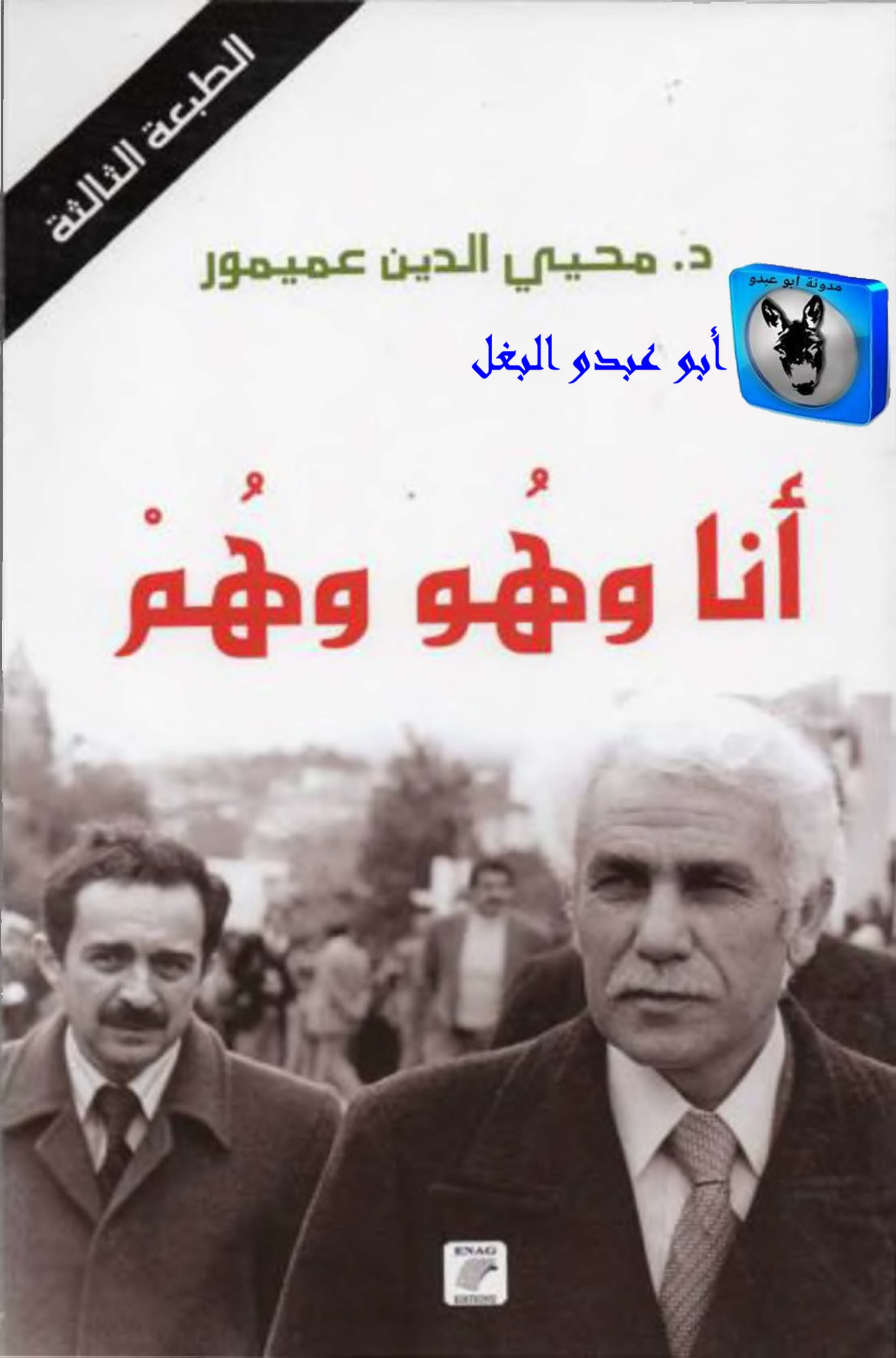

الطبعة الثالثة
د. محيي الدين عميمور
مدونة ابو عبدو
أبو عبدو البغل
أنا وهُو وهُمْ
ENAG
EDITIONS

أنا ..وهوَ...وهُم

الإيداع القانوني :
ردمك :

دكتور محي الدين عميمور

أنا .. وهوَ .. وهُم

موفم للنشر

الإهداء

إلى نفسي

فقد أتعبَتْ جسمي النحيل لأنها كانت أكبر منه وأقوى، ففرضت عليّ تحديات ومواجهات أرهقتني وجعلت حياتي غالبا معارك متواصلة، تكسرت فيها النِّصال على النِّصال، وكنت أسقط ولكن لأقف من جديد. لكن الغربة كانت دائما قدري.

***

وإلى قراء عاديين ومواطنين بسطاء

أدركوا معاناتي وفهموا مشاكلي وتفهموا التزاماتي فلم يكلفوني من أمري عُسرا وتعاملوا معي، كواحد منهم يحمل أضعاف أثقالهم

***

وإلى فتاة في ربيع العمر، لا أعرفها. كانت مع صديقاتها في مسرح الهواء الطلق المكتظ لمشاهدة مسرحية عادل إمام

كانت ورائي عندما كنت أهم بالجلوس على الأرض لمتابعة المسرحية وذلك في الأسابيع التي تلت مغادرتي لموقعي في الحكومة، ورأتني أفتح منديلي لأفترشه حيث لم تكن هناك كراسي أو وسائد، فأوقفتني، ودهشت. وخشيت أن أكون مصدر إزعاج لها ولرفيقاتها، فرحت أحاول الابتعاد ولكنها استوقفتني وهي تنزع سترة كانت تضعها على كتفيها لتفرشها على الأرض حيث كنت سأجلس، تقديرا ومحبة خالصة، ولم أعرف عنها شيئا بعد ذلك اليوم.

***

وإلى قائل البيت المشهور

ألقاه في اليم مكتوفا وقال له : إياك إياك أن تبتل بالماء

محي الدين عميمور

مقدمة الطبعة الثانية

هذه هي الطبعة الثانية التي تنجز في حدود سنة من صدور الطبعة الأولى، وقد رايت ان اسجل هنا عددا من الملاحظات التي أتصور انها ذات قيمة بالنسبة للقارئ ولعلي ارى لها نفس القيمة بالنسبة للتاريخ.

اول الملاحظات أن هذه الطبعة ما كانت لتصدر لولا الرعاية الكريمة للسيدة خالدة تومي وزيرة الثقافة، التي عتبت عليّ إصدار الطبعة الأولى بدون علمها وخارج إطار فعاليات "الجزائر عاصمة الثقافة العربية"، وهو أمر صحيح لكنني قلت لها انني لا آسف له ولا اعتذر عنه، فقد قصدت ذلك تفاديا لأي حرج، خصوصا وقد كنت، طائعا مختارا متطوعا، واحدا من المجموعة التي كانت من مستشاري الوزيرة خلال نشاطات السنة، وبطلب كريم منها.

ويجب هنا أن أسجل الجهد الذي بذلته مجموعة المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية "موفم" تحت إشراف مديرها العام، الأخ مسعودي، والذي سيكون من الجحود أن أتناسى اهتمامه ومتابعته، وهو ما يجعلني أضيف لقائمة من أشعر نحوهم بالامتنان السيدة نوارة والسيد يحياوي وتقنيي المؤسسة الذين لن أتمكن من إيراد أسمائهم جميعا.

وهنا تأتي الملاحظة الثانية.

فقد كانت آخر سطور مقدمة الطبعة الأولى رجاء حارا لكل من شهدوا المراحل التي تناولها الكتاب قلت فيه: اكتبوا... صححوا... استكملوا... لا تنتظروا وفاة الشهود لتدلوا بشهادتكم، وسأكون مستعدا لإدراج كل تصويب أو تعديل، مع نسبته لصاحبه".

ثم كررت نفس الرجاء عند تقديم الكتاب في المكتبة الوطنية تحت رعاية الدكتور أمين الزاوي وبحضور نخبة كبيرة من المثقفين والديبلوماسيين.

والذي حدث هو أنني أصبت بخيبة أمل كبيرة تجاه الحجم الهزيل من ردود الفعل، وكنت أرى أن هناك كثيرون كان يُمكنهم إثراء الشهادات التي يرويها من عاصروا الأحداث، وتضيف معلومات وآراء إلى ما يفلت من ذاكرتهم، ليكون كل ذلك مادة خصبة للمؤرخين الذين سيتناولون كتابة فترة لعلها من أخصب سنوات الجزائر.

وباستثناء الأخ محمد عباس وكذلك الأخ محمد الصالح حمريط، الذي وافاني بملاحظات مكتوبة أخذتها هنا بعين الاعتبار وسيجدها القارئ في صفحة التصحيحات، فإن البعض أعطاني ملاحظات شفوية معظمها كان يفتقد ما كان يمكن أن يدعم صدقيته، أي معلومات موثقة بالتواريخ مزودة بأسماء الحضور.

وكنت أطلب من محدثي أن يسجل ما يقوله في ورقة تلزمه أمام قارئ الكتاب الذي يتوجب علي أن أحيطه علما بصاحب التعليق أو التصويب، ولكنني كنت أواجه بما لا أحب ان اسميه شرخا في الشجاعة الأدبية وافضل أن أعتبره كسلا فكريا تتميز به المجتمعات التي لا تعرف حضارة الكتابة وتظل أسيرة النقل الشفوي

وكانت هناك تعليقات مبتسرة من نوع .. لقد ظلمت فلانا أو نسيت فلانا، وكان هناك من غضب لأنني لم أستعرض ما يُثبت وجوده، وكأنني ادعيت بأنني كاتب تاريخ حياة لكل من حدث أن تقاطع طريقهم مع طريقي أو من وُجدوا أمامي في ظروف مختلفة.

وكان أسوأ ما سمعته من ملاحظات هي تلك التي كان يُعاجلني بها، على هامش لقاءات اجتماعية أو ثقافية، بعض الذين قرءوا الكتاب بآذانهم، وسمعوا عنه من بعض من يخالطونهم ممن توقفوا عند سطور أو فقرات وعزلوها عن الإطار العام الذي وردت فيه، فكانوا أقرب لمن يسير على طريقة .. ويل للمصلين.

ولقد حاولت أن أعرف منهم المزيد عن الفقرات المعنية، ولكن الإجابات كانت دائما عموميات ترتبط غالبا بعنعنة لا تشير إلى مصدر محدد، وتبدأ بكلمة ..."وقيل".

لكنني أسجل اعتزازي بكثيرين ممن لم يألفوا القراءة باللغة العربية، أسعدني انهم قرءوا الكتاب باهتمام، رغم ما واجهتهم به الصفحات الأولى من صعوبة ناتجة عن قلة الممارسة، وهي صعوبة تضاءلت مع إصرارهم الكريم على مواصلة القراءة.

ولعلي أقول هنا، وبدون اي استعلاء، لكل من طلبوا مني ترجمة الكتاب إلى الفرنسية لكي يقرأه من اصطلح على تسميتهم بالمفرنسين، بأنني لا أستطيع أن أكتب الكتاب مرتين وبلغتين مختلفتين، وبأنني بذلت في إعداد الكتاب كل ما يمكنني، كمثقف، بذله من جهد، وعلى القراء الجزائريين الراغبين في الاطلاع أن يبذلوا جهدا مساويا في قراءته، وهو ما حدث فعلا بالنسبة لكثيرين، ولقد صنعت الطعام ولست مستعدا لكي أمضغه ثم أضعه في فم من يريد، وربما دفعته أيضا بأصبعي لأطمئن إلى انه ابتلعه.

وقد قيل لي أنني أخسر بهذا عددا لا بأس به ممن يهمهم الأمر في مستويات متفاوتة من المسؤولية السياسية أو الثقافية، وأجبت بأن هذا لا يعنيني في شيئ، ويكفيني اعتزازا بأن كثيرين ممن لم يألفوا القراءة بالعربية التهموا صفحات الكتاب، وهو ما أراه دعما لعملية التعريب التي كنت واحدا من الذين حملوا لواءها منذ استرجاع الاستقلال.

ولعلي أوجه هنا شكرا خاصا للعقيد علي تونسي، المدير العام للأمن الوطني، فقد كان الوحيد الذي ارسل لي رسالة شكر مكتوبة عندما وصلته نسخة من الكتاب، واعترف هنا بأن هناك كثيرين لم أهدهم الكتاب لأنهم لم يقوموا بالأمر نفسه عندما سبق أن أهديت لهم كتبا أخرى، وربما باستثناء الرئيس غلام إسحق خان، رئيس جمهورية باكستان الإسلامية، الذي تلقيت منه رسالة شكر رسمية عندما أهديت له "الانطباعات".

والواقع أن عدد من أهديتهم هذا الكتاب تناقص مقارنة بالكتب الماضية لأنني كنت اكتشفت بأن معظم من أهديتهم كتبي قبل ذلك لم يتفضلوا بقراءتها، ربما من منطلق عدم الاهتمام بكل ما هو "بو بلاش".

وهاهي اليوم الطبعة الثانية، وسأظل مستعدا لأي تصويب يتفضل به الرفاق، وسأورده حيث أستطيع وعندما أستطيع.

واختم بالقول ... " لا يكلف الله نفسا إلا وسعها".

الجزائر ديسمبر 2008

الرئيس يتابع بعض كتاباتي حول الشأن العام، منذ الثمانينيات على الأقل، ولم تطل المحادثة طويلا فقد تساءل بشكل بدا عابرا: "ياخي راك معانا ؟

وقلت للرئيس، بصعوبة من لا يجرؤ على إطالة الكلام، بأنني معه بالطبع، وعند عودتي إلى منزلي رحت أحاول أن أسترجع كلمات الحوار، الذي كنت فيه تقريبا مجرد مستمع، ولم أتذكر كلمات بعينها أو جمل كاملة، لكنني فهمت بأن الرئيس سيستدعيني للعمل في موقع معين له علاقة بالإعلام، ولعله يكون موقعي القديم في رئاسة الجمهورية، وهو ما كان تردد كثيرا عبر الأفواه، فأخذت أرتب في ذهني الأفكار التي سأناقشها معه حول المهمة، واسترجع في الوقت نفسه مسيرتي الطويلة في مجال الثقافة والإعلام، وعندما كنت أتابع نشرة التليفزيون على الثامنة مساء سمعت تشكيلة الحكومة الجديدة برئاسة الأخ علي بن فليس، وفوجئت بوجود اسمي فيها كوزير للاتصال والثقافة.

وأحسست بمشاعر متناقضة أهمها الدهشة، لأنني لم أتصور أن تعتبر مكالمتي مع رئيس الجمهورية موافقة نهائية على تحملي مسؤولية معينة، وربما كان سبب الدهشة هو تذكري ما حدث عندما طلب مني الرئيس هواري بومدين عبر عدد من الأصدقاء في ديسمبر 1970 أن أعمل إلى جانبه، وترددت نحو ستة شهور، حسمتها في مايو 1971 عندما أتيح لي أن أتحدث مع الرئيس

وعندما أعود بالذاكرة إلى الخلف أتصور بأن هذا قد يكون صحيحا، فالذي حدث أن الرئيس لم يستقبلني عند عودتي من المهمة كما لم يستقبلني قبل ذلك عند مغادرتي للجزائر للقيام بها (وعزوت هذا بنوع من الغرور يكشفه المثل الشائع "أبعث حكيما ولست في حاجة لتوصيته") وكنت سعيدا لأن الجزائر لم تتدخل في الشأن السوداني، مما إعطاني الإحساس بأن تقريري قرأ بعناية. وارتبطت هذه المهمة بتصريح نسب إلي في القاهرة عن قيام الجزائر بوساطة بين العراق والكويت وهو ما لم يكن صحيحا، وأبلغني مدير الديوان أنه بذل جهدا كبيرا لمحو أثر القضية من نفس الرئيس (وأعترف أنني سألت نفسي كثيرا عن صحة ما ينقل لي عن الرئيس كما تساءلت كثيرا عن خلفيات الصحفي الذي وضع على لساني ما لم أقله، وهو ما سيتكرر فيما بعد خلال زيارة إلى بغداد، وخشيت، من كثرة تساؤلي أن أكون أصبت بالبارانويا) وفي نهاية الأسبوع الثالث من أوت 2000 قدم رئيس الحكومة آنذاك، الأخ أحمد بن بيتور، استقالة حكومته، وفي اليوم التالي مباشرة كلف الرئيس عبد العزيز بو تفليقة مدير ديوانه علي بن فليس بتشكيل الحكومة، وأعلن عن ذلك في وسائل الإعلام، وقال لي رئيس الحكومة الجديد أنه كان بجانب الرئيس عندما تلقيت مكالمته.

مباشرة، لأحدد مطالبي التي رأيت أنها تضمن مقدرتي على تلبية متطلبات الموقع [3].

وكانت المطالب ثلاثة، أولها أن أعمل معه مباشرة وبدون وسيط وأن يحاسبني شخصيا إذا كان هناك ما يتطلب ذلك، وثانيها أن أقول له رأيي حتى ولو اختلف مع رأيه، وثالثها أن أحتفظ بحريتي في الحركة فيما يتعلق بمجال نشاطي، وهو ما تم فعلا، وحدث نفس الشيء تقريبا في 1979 عندما طلب مني الرئيس بن جديد أن أواصل عملي في نفس الموقع الذي شغلته مع الرئيس الراحل نحو ثمان سنوات، ورويت له بالضبط ما حدث معه، وتفهم الرئيس الجديد طلبي وقبله ضاحكا، وأظن أنه كان يتابع خطواتي مع الرئيس بومدين ويقيم مسيرتي معه والتزامي بالانضباط الكامل والسرية المطلقة في كل ما يتعلق بالرئيس، فقد كان يزورني في مكتبي ونتحدث في كل شيئ إلا قضايا المؤسسة التي أعمل بها، ولم يسمع مني كلمة واحدة عن أي قضايا تتعلق بعملي مع رئيس الجمهورية، وأظن أنه توقف كثيرا عند هذا الأمر عندما تحمل مسؤوليته الرئاسية.

لكن ذلك لم يحدث مع الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، الذي لم أكن قد تحادثت معه إطلاقا بعد مكالمة هاتفية مطولة قبل الانتخابات الرئاسية كان هو المبادر بها، وكان مدخلها لوم من "سي عبد القادر" لأنني لم أقم بدعوته للحفل الذي قدمت فيه آخر كتبي آنذاك ".. سفيرا زاده الخيال"، بالإضافة إلى أحاديث

---

3 - كان المألوف منذ بداية التسعينيات أن يكون وزير الاتصال ناطقا رسميا باسم الحكومة، وكان آخر من عهد له بهذه المهمة حمراوي حبيب شوقي، ولم يكلف من جاء بعده من الوزراء الأربعة بها، وكان الأمر كذلك معي ومع من خلفني وهو محمد عبّو، الذي قال مولود حمروش في تصريح صحفي بأن الذي رشحه هو العربي بلخير مدير ديوان الرئيس، وكنت أعرف العلاقة بين الاثنين والتي ترتبط بصداقات إماراتية كريمة، وقيل أن الوزيرة التي خلفته وهي السيدة خليدة تومي كانت من اختيار الرئيس، وبأن رئيس الحكومة لم يستشر في التعديل، وقد أعود إلى هذا في حينه، لكنني ألاحظ هنا أن خليدة كلفت بمهمة الناطق الرسمي لفترة ثم نزعت عنها وقسمت الوزارة لتحتفظ هي بالثقافة، وعدنا ثانية إلى التذبذب بين الثقافة والإعلام ... أسف ... الاتصال، وكلف بوزارة الاتصال الأخ بوجمعة هيشور لكنه استدعي لمهمة أخرى بعد عدة شهور، وظلت الوزارة بدون وزير لأكثر من سنة ثم عين على رأسها الأخ الهاشمي جيار الذي لم يبق طويلا إذ خلفه الأخ عبد الرشيد بو كرزازة، أي أن الوزارة تعاقب عليها سبع وزراء في نحو سبع سنوات.

عابرة في بعض الاستقبالات الدبلوماسية، غير أنني لم أحمل همًا كبيرا من عدم الاتفاق مع الرئيس على إستراتيجية العمل المطلوب، فقد تصورت أن الرئيس يعرفني ويعرف أسلوبي أفكاري، وليست هناك ضرورة لتكرار ما حدث مع الرئيس بو مدين والرئيس الشاذلي، وأتصور أن هذا كان أخطر أخطائي، فقد تجاهلت مثالا مصريا شعبيا يقول : الذي أوله شرط يكون آخره نور.

وأتساءل اليوم وبعد كل هذه السنوات : "هل كان أمامي اختيار آخر إلا القبول والتسليم ؟"

وبعد تسعة أشهر وستة أيام وعدة ساعات، أي في يوم الأربعاء 23 مايو 2001 دق جرس الهاتف الخاص في مكتبي بالوزارة، وقال لي الرئيس بصوت هادئ .. وبالفرنسية : سأخلي وزارة الاتصال والثقافة :

Je vais libérer le ministère de la communication et de la de culture

وتنفست الصُعداء لأنني عانيت كثيرا عبر أكبر وضعية غربة عشتها طوال حياتي، ولم تكن أيامي فيها متعة أو نزهة وظيفية أو أداء هادئا لمهمة وطنية عادية، ثم إنني لم أكن سعيت للمنصب حتى أغضب لفراقه، ولعله دهش وأنا أجيبه، فورا وبهدوء أرجو ألا يكون قد فضح إحساسي بالراحة ".. أمرك..."، وتوقفت عند المفارقة الطريفة وهي أنني عينت بالهاتف وعُزلت بالهاتف، ولم أتمكن من أن أقول رأيي لا في البداية ولا في النهاية، ولم أسأل عن أمر قمت به أو عن آخر لم أعره بالا.

ولم أتوقف عند ما قاله البعض عن التعديل الوزاري الذي اقتضى خروجي وأبو جرة سلطاني (حماس) بأنه محاولة للحفاظ على التوازن الجهوي داخل الحكومة، نتيجة انسحاب وزيري التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية، وهو الحزب البربري اللائكي المنافس لجبهة القوى الاشتراكية العريقة في منطقة القبائل الكبرى، وذلك إثر الاضطرابات "المُفبركة" التي عرفتها المنطقة.

لكنني لم أفاجأ بالقرار وإن أدهشني توقيته وأسلوبه، وواصلت القيام بمتطلبات عملي الوزاري في انتظار صدور الإعلان الرسمي، وقبل أن ينتهي

الشهر بثت وكالة الأنباء الجزائرية الخبر الذي وصلها من رئاسة الجمهورية، واطلعتُ عليه في مكتب المدير العام للتلفزة الجزائرية، حيث كنت أتابع أحداث العاصمة، بعد أن كنت قمت بزيارة للمسرح الوطني الذي تعرض لحجارة متظاهرين حركتهم النزعات البربرية في هجوم "تتري" على العاصمة الجزائرية، ظاهرها طرح انشغالات جهوية بعضها عادل وإن كان وجوده لا يقتصر على منطقة بعينها، وكثير منها مزايدات لانتزاع مكاسب غير شرعية، وكان وراء التظاهرات جماعات من دعاة النزعات البربرية في منطقة القبائل الكبرى.

واتصل بي الوزير الجديد الأستاذ محمد عبّو ليطلب مني بكل أخوة تأجيل تسليم المهام لارتباطات عائلية خاصة، واضطررت للقبول وواصلت عملي بدون أن أخبره بأنني لم أتسلم المهام من أحد، فالذي كان قبلي كان مجرد مسير للأمور اليومية. وكان أطرف ما حدث أن موظفة "نشطة" في ديواني استدعت عددا من الأشخاص من اختيارها لتولي الأمور المرتبطة بالوزير الجديد، بهدف السيطرة عليه منذ اللحظات الأولى، وكان من بينهم سائق ومسؤول تشريفات، واضطررت يومها إلى إظهار مخالبي وأنيابي لكي أفهم الموجودين في الديوان بأن الدكتور عميمور قادر على التحول في لحظات إلى مستر هايد.

وفهم كلٌ حدوده فالتزمها وسارت الأمور على ما يرام، وطردتُ الدخلاء وحافظت على المجموعة الموجودة التي رأيت أنها أصلح للعمل وأقدر عليه، وسلمتها للوزير الجديد الأخ محمد عبّو.

وتسلم الأخ محمد عبّو مني الوزارة في حفل قصدت أن يكون في القاعة الشرفية، وتذكرت أنني تسلمت مهامي في قاعة جانبية، ولم يحضر رئيس الحكومة تسلمي ولا تسليمي.

وبعد أيام قليلة اتصل بي الرئيس هاتفيا ليبلغني أنه قرر إعادة تعييني في مجلس الأمة، وكانت لفتة جديرة بالتقدير، ردت بشكل مباشر على من أرادوا تصوير إنهاء المهام كعقوبة على تقصير أو تنديدا بقصور، وأتصور أنها لم تكن رسالة لي وحدي، لكن الذي أعد صيغة القرار حرص على ألاّ يكون التعيين لمدة جديدة، بل استخلافا لرئيس المجلس السابق البشير بو معزة، الذي

كان قد استقال، وهو ما يعني أنني سأستكمل ما بقي من الست سنوات التي بدأتها في عهد الرئيس اليمين زروال، وأن مرحلة الحكومة هي مرحلة بين قوسين[4].

وأحسست بأن الأيام تتتابع وتتسابق والأحداث تتسارع وتتصارع والذاكرة تفقد حدتها يوما بعد يوم، وتملكني الشعور بأن كل حدث يجب أن يُسجل ليتحمل كل مسؤولياته أمام التاريخ.

وهكذا قررت أن أحاول كتابة قصة الفترة التي قضيتها في وزارة الثقافة والاتصال، لأنها، رغم قصرها، تتضمن دروسا كثيرة يُمكن أن تستخرج منها، ليستفيد منها آخرون على مختلف المستويات.

وأعطيت لما أكتبه عنوانا مؤقتا هو .وزيرا زاده الخيال، على وزن كتابي: سفيرا زاده الخيال، ليحمل العنوان إلى القارئ، بالنسبة للكتاب الجديد، بعض ما حمله عنوان الكتاب السابق.

وعندما بدأت تجميع المادة الأولية ووضع كل شيء في إطاره الزماني والمكاني، أحسست بان كتابا كهذا ليس من حقه أن يبدأ من النهاية، فضلا عن أن يكون جمْعا لكتابات طريفة وأسرار تثير لعاب الفضوليين، أو يكون مجرد ذكريات وجدانية أتسلى بكتابة سطورها في ساعات فراغ، ليتسلى قارئ يتصفحها في ساعة فراغ، وأنا لا أرى في الكتابة تسلية ولا أريد أن تكون كتاباتي تسلية لأي كان.

ورحت أكوم أوراقي وملاحظاتي خلال مرحلة العمل الوزاري، وأجمع قصاصات الصحف التي تمكنني من احترام التواريخ والتأكد من دقة الذكريات، وهو عمل قمت به وحدي في أكداس الوثائق المكومة في مكتبي، والذي كانت

---

4 - بعد أن انتهت العهدة في 2003 أصدر الرئيس بوتفليقة قرارا بتعييني عضوا لعهدة جديدة، وكانت رسالة أكثر من واضحة، وكان ذلك على مشارف عقد مؤتمر حزب جبهة التحرير الذي عقد بعد ذلك ولكنه لم يكن أحسن من سابقه، وكان رد الرئيس رفضه حضور الجلسات أو بعضها ورفضه منصب رئيس الحزب مكتفيا بالصفة الشرفية، وهو ما كان رسالة واضحة من رجل يحسن هذا النوع من الرسائل (أنظر كتاب : لله وللوطن – موفم – الجزائر).

زوجي تلقي فيه بكل ما يعترض طريقها من كتب وصحف وملفات، حتى أصبح أقرب إلى المخزن منه إلى صومعة الفكر.

وهكذا حاولت أن أقوم بنظرة سريعة إلى الخلف، تضع القارئ أمام التسلسل التاريخي للوقائع والأحداث، ووجدتني أغوص في غياهب الماضي وأعتصر ذاكرتي لأبحث عن جذور الأحداث، ورحت أفتش في أوراقي عن معالم مكتوبة أكون قد وضعتها على الطريق، ووجدت بالفعل سطورا هنا وهناك، جعلتني أغير المنهج الذي بدأت على أساسه أكثر من مرة، إلى درجة أنني أخط هذه المقدمة وأغير تاريخ تعديلها وأنا لا أعرف على أي الدروب سأسير.

ورأيت، تبعا لذلك، ألا أمنع نفسي من أي تغييرات على أسلوب الكتاب، الذي قد يكون مختلفا عما انتويته في البداية نتيجة لحقائق جديدة أكتشفها أو ذكريات قديمة تستثيرها أحداث جديدة، ولهذا فإن عنوان الكتاب قد تغير أكثر من مرة، حيث ترددت بين اختيار تعبير بسيط من نوع :"من الطبّ إلى السياسة" وقد يكون شيئا مثل ..."شهادة للتاريخ"، وهو العنوان الذي يبدو أنني سألجأ له، إلا إذا انتصر عليه عنوان طريف اقترحه الأخ المدني حواس وهو "طالبا وطبيبا ومستشارا وعاطلا وسفيرا وبرلمانيا ووزيرا ...ودائما زاده الخيال، وهو طويل جدا ولكنه نبهني إلى أن المحتوى سيكون، في نهاية الأمر، أقرب إلى سيرة ذاتية، هكذا وقع اختياري على عنوان أكثر بساطة وصدقا، وهو : "أنا.. وهو.. وهم" إذا طُبع الكتاب في الجزائر وعلى عنوان آخر إذا طُبع في الخارج وهو : حدث في الجزائر، وأظل أسير إرادة الناشر.

ورأيت أن أخصص القسم الأول للعمل الإعلامي الذي قمت به مع الرئيس الشاذلي بن جديد، وفي حدود المتاح من الوقت والجهد والمعلومات لأعطي هذا الرجل الكبير، الذي ظلم كثيرا، حقه من التكريم والتقدير، برغم جروح أصابتني ولم يلتئم بعضها بعد، وسأؤكد بالحجة والدليل أن الشاذلي بن جديد استطاع أن يصبح، بإرادته وبمثابرته، رئيسا جديرا بالاحترام والتقدير، عندما توضع أمامه كل المعطيات المطلوبة لصياغة القرار ولا تحجب عنه المعلومات التي تبنى على أساسها بدائل الاختيار.

وأقول هنا أنني سأروي ما عشته بشكل مباشر، ولن ترضي البدايات البعض كما أن آخرين سيرفضون تقبل النهايات، لكنني على استعداد لكي أتراجع عن رأي أبديته أو حكم أصدرته إذا كان هناك من يستطيع إقناع القراء بخطئي أو تجاوزي، لكن الحقائق تظل هي الحقائق والمعلومة هي المعلومة.

وسوف تكون خاتمة العمل تناول مرحلة العمل الوزاري بعد مرور السنوات التي عبرت فيها الصحراء، (وسأعتبر كتابي عن باكستان جزءا من هذا العمل مما يعني أنني لن أكتب عنها من جديد، لكنني قد أضطر، نتيجة لحكم المادة، إلى تصور جزء ثاني منفصل يُخصص للمرحلة الوزارية، وهكذا يكون هذا الكتاب هو الكتاب الثاني الذي أعد مقدمته قبل أن أكتب مادته، وهو الكتاب الوحيد الذي أقوم بإعداده بدون أن أضع عنوانه كنقطة بداية للعمل فيه.

والواقع هو أن ما دفعني لهذا المركب الصعب هو يقيني بأن واقعة ما قد تبدو للنظرة السريعة أمرا عابرا أو حدثا يتيما، ولكن الغوص في أسرارها يكشف أن لها صلة بأحداث أخرى مرت، وربما بأحداث أخرى ستأتي، وهي تلك التي سوف أشير لها في الهوامش التي أعتذر مقدما عن توسعي فيها، وأحيانا إلى ما يقترب من المبالغة، وكان السبب هو رغبتي في أن أضع أمام القارئ كل المعطيات المرتبطة بحدث معين أو باسم معين، ملاحظا بأن القارئ غير المهتم يُمكن أن يكتفي بالنّص الأصلي ويتفادى الهوامش.

ولعل هذا الاهتمام هو الذي جعلني أعيد النظر في كل ما كتبته ما لا يقل عن عشرين مرة، كنت فيها أضيف وأعدل وأصحح وأسترجع أحداثا وأستكمل أخرى.

ولقد اكتشفت، عند الكتابة عن أحداث مررت بها أو مواقف واجهتها، أن هناك أمورا لم تتضح لي كل أبعادها عندما اجتزتها، وإذا كان من واجبي أن أسجل ما عشته في لحظة معينة بصدق ونزاهة وبدون محاولة لانتحال الحكمة بأثر رجعي، فإن من واجبي أيضا أن أسلط كل الأضواء التي توفرها تفاصيل بلغتني فيما بعد، مقترنة بكل ما ترتب عليها من تحليلات تصبح جزءا من الحدث نفسه.

وهكذا أخذت أتعامل مع كل حدث عشته أو رأيته أو ساهمت فيه كجزء مما يسمى في القاموس : المربكة Puzzle ، وهو ما يعني أنني رفضت أن أعطي لنفسي الحق في استبعاد أبسط التفاصيل التي عشتها، لمجرد أنني أستصغر حدثا معينا أو أسمح لنفسي بالحكم بعدم أهميته وأنا أرى في هذا ممارسة ما قد يعتبر كذبا بالحذف، وهو طريق مؤكد يقود إلى التضليل والتشويه .

وستكون شهادتي محاولة نزيهة لوضع كل حدث في إطاره، سواء عبر السطور أو في الهوامش أو بإشارات برقية أتركها للبيب، على أمل أن يستطيع آخرون استكمال ما لم أحط به علما.

ولن يكون الكتاب تقريرا مفصلا عن دهاليز السلطة وكواليسها، لمجرد أن هناك قضايا لا أعرف كل تفاصيلها وهناك أخرى أتصور أنها لا تهم القارئ، كما أن هناك قضايا لا يمكن الحديث عنها بالتفصيل المريح أو الممل، فنحن نخرج من فتنة رهيبة اختلطت فيها المعطيات، وتناقضت المواقف والمصالح والانتماءات، وهناك واجب التحفظ الذي تفرضه التزامات العمل في المواقع السامية للدولة، وإن كنت لن ألجأ إلى التستر إلا في القضايا بالغة الحساسية، التي قد تعتبر إفشاء لأسرار الدولة.

وقد يبدو هذا أمرا مزعجا لقارئ يريد أن يعرف كل شيء، بالباء والتاء كما يقال، لكنني أقول بدون مواربة أو مجاملة بأنني لست في حاجة لهذا القارئ، وأفضل عليه قارئي الأندلسي العريق الذي يفهم بالإشارة، والذي ألف أسلوبي وإسقاطاتي وتورياتي وبهلوانياتي اللفظية.

وإذا لم يكن القارئ الذي يفتح صفحات الكتاب من هذا النوع فأنصحه ألا يكمل القراءة، وأن يعيد الكتاب إلى مكانه في المكتبة، وينصح قرناءه بعدم شرائه.

أما القارئ الأندلسي فأتمنى له سياحة كريمة بين السطور.

ويبقى أن أقول ثانية، للأمانة، بأن نظرتي لكل الأمور هي نظرة ذاتية، وهو ما يعني أنني، وبالإضافة إلى اعترافي الصريح بأن ما أقوم به هو عمل وجداني بعيد كل البعد عن محاولة التأريخ (بالهمزة على الألف الوسطى) حتى ولو كان مساهمة في توفير المعطيات لكُتاب التاريخ، فإنني أؤكد ثانية بأنني أقوم بدور الشاهد الذي يكتفي بسرد الأحداث كما عاشها في موقعه، وباستعراض الآراء كما توصل لها بيقينه وبصيرته، وبإصدار الأحكام التي يبررها بما رآه وسمعه، ولقد قلت دائما بأنني ممن يرفضون اعتبار الذاتية تناقضا مع الموضوعية، بل أراها جزءا منها، وأملي أن تكون هذه السطور استمرار لنفس النهج الذي سرت عليه وأنا أخط مئات الآلاف من السطور عبر مسيرة طويلة، كان القلم فيها سلاحا ودرعا ومبضع جراح لا يمزق أنسجة الجسم إلا لينتزع منها الداء .

وأنا أحاول أن أستكمل هذا العمل بأسرع ما يُمكن حتى يقرأه من عاشوا الأحداث التي يتناولها، وخصوصا من وردت أسماؤهم في سياق الحديث أو في هوامشه، قبل أن يحم القضاء ويسبقهم القدر المحتوم، بعد عُمر طويل إن شاء الله.

لهذا أرفع رجاء حارا لكل من شهدوا تلك المراحل..

اكتبوا ... صححوا... استكملوا ... لا تنتظروا وفاة الشهود لتدلوا بشهاداتكم، وسأكون مستعدا لكل تصويب أو تعديل مع نسبته لصاحبه في الطبعة التالية إن شاء الله، وأعتذر مسبقا عن أي سهو أو تجاوز أو تقصير أو قصور، فكل ابن آدم خطاء، ولعلي أكون من التوابين.

والله ولي التوفيق.

سبتمبر 2007

دكتور م.عميمور



حكومة بومدين الأولى سنة 1965 يلاحظ وضع قايد أحمد وسيغارة البشير بومعزة



حكومة بومدين الأخيرة 1977

الفصل الأول
نظرة إلى الخلف ووقفة أمام الخلفيات

(1)

قضيت الساعات الأولى، منذ مكالمة رئيس الجمهورية وأنا كمن يسير خلال نومه، وعدت إلى منزلي وكأني أتجه له للمرة الأولى، فقد كنت أسير الدهشة مما حدث، وعجزت حتى عن تذكر نص العبارات التي قلتها أو سمعتها، وراحت الذكريات تتدافع في مخيلتي.

لم تكن فكرة وزارة الإعلام جديدة علي سمعي أو بعيدة عن تفكيري، والواقع أن اسمي كان يتردد كمسؤول عنها منذ السبعينيات، وبعد النجاح الذي حققته كمسؤول عن الإعلام برئاسة الجمهورية، وكان يتكرر بإلحاح غريب مع كل إشاعة تتردد حول أي تغيير وزاري مرتقب، إلى درجة أن بعض من شغلوا المنصب بالفعل كانوا يحسون تجاهي بمشاعر متناقضة، منها مشاعر كراهية أحار في وصفها لكن كان أكرمها وأنبلها ما قام به الأخ حمراوي حبيب شوقي[1].

---

1 – في نفس اليوم الذي أعلن فيه عن تعيينه وزيرا زارني حمراوي حبيب شوقي في منزلي، حيث كنت أواصل حياة التقاعد، وقال لي أنه توقع عند استدعاء رئيس الحكومة عبد السلام بلعيد له أنه سيستشيره فيمن يعين على رأس الوزارة، وقال لي حمراوي بود لن أنساه له، أنه كان يعتزم اقتراح اسمي على عبد السلام (ولست أدري من أشار على بلعيد باختيار حمراوي وإن كنت أرفض ما تردد عن نزعة جهوية) وفوجئ بتكليفه بالوزارة. ولقد حرصت، عند تحملي مسؤولية الوزارة أن أظل وفيا لذلك الموقف النبيل.
وعندما شاركت في مؤتمر وزراء الإعلام العرب حرصت علي أن يرافقني الحبيب شوقي، وقلت لمن استقبلوني أنني أصطحب الوزير السابق، ولو كنت أعرف من هو الوزير المقبل لاصطحبته أيضا، وبغض النظر عن الفكاهة فقد كنت أريد أن أسجل أمام الزملاء مفهومي، كمسؤول جزائري، للتواصل بين المسؤولين، وكسبت الجزائر صورة إيجابية عبر النكتة

ولا أنكر أن إغراء الموقع داعبني أكثر من مرة، وعلى وجه التحديد عندما كنت أحس بأن الجهد الكبير الذي أبذله يُنسب غالبا لآخرين، أو عندما كنت أرى أن مشاريع كثيرة كان يمكن تحقيقها أو أخرى كان يجب إلغاؤها لو كنت أملك القرار الأول بالنسبة للقطاع، وسواء كان ذلك في عهد الرئيس هواري بومدين أو الرئيس الشاذلي بن جديد.[2]

وكان لسمي يقفز أمام كثيرين إذا جرى الحديث عن القطاع، وكان يحلو للعقيد آوشيش أن يناديني "غوبلز"، وهو وزير إعلام له قيمة متميزة أيا كان رأينا فيما قام به، فهو لم يكن يجمع بين ثقة القائد وعبقرية الشخصية وحجم الإمكانيات ولكنه كان مؤمنا بمهمته ملتزما بالقضية التي يدافع عنها، وإلى الدرجة التي جعلته يقتل زوجه وأطفاله وينتحر عندما سقط المجتمع النازي الذي وهب نفسه له.

وأتصور أن هذا الالتزام هو من أول وأهم صفات رجل الإعلام.

وأتذكر الأيام التي سبقت تكوين آخر حكومات الرئيس الراحل هواري بومدين في 1977 [3]، الذي كان يتعرض لحجم كبير من الضغوط الرهيبة وهو

العابرة، وقد كررت وزيرة الثقافة خليدة تومي نفس الأمر معي عندما تولت الوزارة فدعتني إلى مرافقتها لاجتماع وزراء الثقافة العرب في مسقط عام 2007 .

2- من الأشياء التي حزت في نفسي عجزي عن إيقاف تعريب كل من النصر (الشرق) والجمهورية (الغرب) والذي حول صحيفة الشعب اليا إلى صحيفة جهوية تتركز على الوسط وهكذا تبعثر قراء العربية.

3 - الرئيس الثاني للجمهورية، والاسم هو اسمه الثوري وهو من الشرق الجزائري، جاهد في الغرب الجزائري فاختار اسما مركبا لاثنين من أولياء المنطقة، وهو صورة رائعة للعصامي بامتياز، تميز بذاكرة رهيبة وبذكاء حاد ارتبطا بخجل كبير على المستوى الشخصي وعرف بزهده وتقشفه إلى درجة أنه سُمي "الجندي الراهب"
كانت دراسته الأولية في مدارس قالمة في الشرق الجزائري حيث ولد ثم انتقل إلى قسنطينة حيث درس في زاوية الكتانية، ثم سافر إلى مصر في بداية الخمسينيات والتحق بالدراسة في الجامع الأزهر وكان يدرس، في الوقت نفسه، في مدرسة ليلية (وتعرفت عليه عن بعد في هذه المرحلة) وعندما قامت الثورة التحق بها وتدرج في مراتبها خصوصا عند ارتباطه بالعقيد بو صوف حتى أصبح في بداية الستينيات رئسا لأركان جيش التحرير ثم انتقل إلى الحدود الشرقية حيث أشرف على بناء الهيكل الجديد للجيش مستعينا بخبرة عدد من الضباط الجزائريين الذين فروا من الجيش الفرنسي، وتناقض في بدايات 1962 مع الحكومة المؤقتة

يحاول الوصول بالسفينة السياسية إلى مرفأ مؤتمر حزب جبهة التحرير الوطني، ليعيد فيه تنظيم كل شيء طبقا لمعطيات السبعينيات وآفاق الثمانينات، وهو الوعد الذي كنت سمعته منه ونشرته بعد ذلك، والذي كان يجعل من مؤتمر الحزب نقلة نوعية، ويبدو أن آخرين سمعوه وفهموا ما يُمكن أن يعنيه، وربما كانت انتكاسة الجزائر نتيجة لكون البعض لم يفهموا ما كان يجب أن يفهموه[4].

يومها، وكنت مستشارا في رئاسة الجمهورية، جاءني أحد كبار أعضاء مجلس الثورة في مكتبي بالدور الثاني من المبنى الذي كنا نسميه : "الطنب الصغرى" (وكانت الطنب الكبرى تشير إلى المبنى الذي يوجد فيه مكتب الرئيس أما أبو موسى فهي مقر إقامته، والإشارة واضحة للجزر الإماراتية)

كان العقيد أحمد بن شريف مجاهدا بالغ الطيبة والبساطة، وكان عضوا في مجلس الثورة وقائدا عاما للدرك الوطني، وقبل أن يجلس عاجلني بقوله أنه كان يتحدث مع الرئيس، وأنه اقترح عليه أن يعهد لي بوزارة الإعلام والثقافة، وأن الرئيس هز رأسه بما فهم منه الموافقة.

التي قامت بعزله ولكنه كان يحتفظ بعلاقات متواصلة عبر مساعده عبد العزيز بو تفليقة مع الزعيم الجزائري أحمد بن بله الذي كان آنذاك سجينا في فرنسا وأطلق سراحه مع وقف إطلاق النار وكان في الوقت نفسه عضوا في الحكومة المؤقتة برغم غيابه، وأقيم حلف بين بن بله، وبو مدين الذي أصبح المسؤول الأول للجيش، لكن الحلف بدأ ينهار مع مؤتمر الحزب في 1964 وتم انهياره في يونيو 1965 باستيلاء بومدين على السلطة إثر تكوين بن بله لميليشيات عسكرية.

ويعتبر بومدين باني الدولة الجزائرية الحديثة التي أرادها استكمالا لدولة الأمير عبد القادر، وتألقت الجزائر في عهده دوليا وجهويا وحقق للبلاد ترسيم الحدود شرقا وغربا، وطرح في الأمم المتحدة مطالبة حركة عدم الانحياز بنظام اقتصادي جديد، وعرفت الجزائر في عهده استقرارا كبيرا وتقدما متزايدا خصوصا في مجال التعليم والتصنيع والممارسة الديموقراطية التي بدأت بالانتخابات البلدية لكنه لم يحقق إنجازات تذكر في مجال الزراعة، وتوفي في ديسمبر 1978 عن عمر يناهز السادسة والأربعين إثر مرض صاعق.

4 - أنظر للمؤلف : "أيام مع الرئيس بو مدين" دار اقرأ - بيروت 1995 (دار موفم - الجزائر - 2000) وكذلك "نظرة في مرآة عاكسة "(موفم - 2001) وقبلها م..دين .. التجربة والجذور (دار الأمة -أحمد نعمان)

وكان واضحا أن ضيفي ينتظر أن يلهج لساني بالشكر والثناء، لكنني، في رد فعل تلقائي، قلت له وهو يستعد للجلوس بأن الوزارة لا تهمني كثيرا، فظل واقفا ورمقني بنظرة يمتزج فيها الشك مع التساؤل والاستنكار..وربما.. بعض الغضب، وغيرت الموضوع بسرعة، وبعد دردشة سريعة حاولت فيها، ونحن وقوف، تلطيف الرد بالقول بأنني أفضل العمل بأسلوب الغواصة لأنه أقرب إلى طبيعة البَحّار السابق الذي كنته، ولا أحب العمل تحت الأضواء، خوفا لا تواضعا.

وخرجت مع الرجل الطيب لأودعه خارج المبنى تقديرا له، فقد أحسست بأنني، في حرصي على ألا يكون لأحدٍ فضل عليّ يُطلب مني يوما أن أدفع ثمنه، كنت فظا في الرد.

وأتصور أنني لم أعين في ذلك المنصب أيامها لسببين رئيسين، أولهما أنني كنت أقوم بعمل بالغ الأهمية، كمستشار مهمته الأساسية هي رعاية الصورة الجماهيرية لرئيس الجمهورية وتنفيذ توجهاته الإعلامية، وهو عمل كواليسي أحببته، وتمرست عليه، وأعطيت فيه، على ما أتصور، نتائج هامة، ساعدني في إنجازها عدد من الرفقاء الذين كانوا يشغلون مناصب مختلفة في إطار العمل الإعلامي.

وكنت أتصور أن الرئيس لن يجازف بتغيير مسؤول ناجح للإعلام في رئاسة الجمهورية، حتى ولو بدا أن في التغيير ترقية (وقد أبلغني محمد الصالح يحياوي يوما، بعد وفاة بو مدين، أنه اقترح اسمي كوزير، فأجابه الرئيس بقوله : "فلان ؟..إنه شأني"، ولم أسمع من الرئيس ما يُشير إلى ذلك لكنني أعرف أنه كان يتلقى اقتراحات بالنسبة للمراكز السامية، ولم يكن يُحبّ أن يقترح له أحد ترقية واحد من معاونيه).

أما السبب الثاني فكان الحرص على التوازنات التي واكبت اختيارات الرئيس لآخر حكوماته، والتي أعلن تشكيلها على مرتين، في يومين متتاليين،

مما يبرز الصعوبات التي كان الرئيس يعاني منها في تكوين الحكومة، والحرص على عدم إغضاب أقرب الرفقاء، ضمانا لتحقيق الهدوء على الساحة السياسية بما يمكنه من التفرغ لإعداد مؤتمر الحزب، الذي بدأت أهميته تتزايد لديه، بعد تزايد إحساسه بأن الأمور قد تفلت من يده، وكان مما يدل على ذلك عدد من الخطب الهامة التي ألقاها في قسنطينة[5] (الشرق) وتلمسان (الغرب) وتيزي وزو (الوسط) يحذر فيها من الانحرافات والآفات الاجتماعية التي بدأت في البروز نتيجة لتزايد حركية التنمية الوطنية وللثغرات الموجودة في تنظيمات الدولة، وما يمكن أن تشكله البيروقراطية الإدارية من أخطار بتحالفها مع الطبقة الطفيلية الجديدة التي تتشكل تدريجيا من بعض موظفي القطاع العام الذين يحظون بتغطية عملية من بعض كبار المسؤولين، ومنهم من قد يغريه بريق المال فيحاول استعمال السلطة لاجتذاب مال يبحث عن غطاء سلطوي.

ولقد كان مؤتمر حزب جبهة التحرير الوطني الهاجس الأكبر للرئيس منذ سقوط طائرة الفيتنام.

وكنت أنا ممن تمسكوا بالولاء الرئاسي ولم أكن محسوبا على فريق أو اتجاه يلزمني بولاءات أفقية، وبقيت دائما كذلك، وسنكتشف إلى أي درجة كنت مصيبا أم مخطئا.

ولعبت البورجوازية الصغيرة والشرائح الطفيلية المُتسللة دورا بالغ الخطورة عبر بعض المصاهرات العائلية المدبرة والسهرات الليلية الصاخبة والتحالفات المالية المشبوهة، وأتصور أن تحالفها مع "الطلقاء" ونتائج دفعة لاكوست" كلفت الجزائر كثيرا.

5- كان خطاب قسنطينة هو الوحيد الذي راجعه معي الرئيس بومدين، ولتصور أن صياغتي لأفكاره كانت وفية بحيث لم يراجع معي ثانية أي خطاب مرتجل (وكلمة "مرتجل" فيها تجاوز كنت شرحته بكلمات بسيطة تعني أن مواد الخطاب الذي يسمى مرتجلا تعد سالفا على شكل نقاط يستوعبها المتحدث ويضعها أمامها لهيكلة حديثه بدون أن يقرأ منها بطريقة السرد، فالخطاب إذن هو مرتجل شكلا، أما الارتجال بدون إعداد فهو خطأ جسيم).

ورفع بو مدين شعار "لا جمع بين الثورة والثروة"، ربما لكيلا يقع في فخ شعار كان قد هاجمه في منتصف الستينيات، أي شعار التطهير، الذي كان الرئيس أحمد بن بله يرفعه، والذي كان واحدا من عناصر الصراع مع الرئيس الأسبق، ومن هنا بدت التعيينات الحكومية التي أجراها الرئيس بو مدين في 1977 وكأنها تحمل قدرا كبيرا من التنازلات التي تطلبتها التوازنات.

ولإبراز ثقته في شخصي وفي إدراكي للمهمة، كلفني الرئيس بالتوجه إلى مقر وزارة الإعلام لأشرف، مع وزيرها الجديد [6]، على إعداد البلاغ النهائي لتشكيل الحكومة، ويبدو أن هذا بقي في ذاكرة رضا مالك، وكان، على خلفية عقدٍ قديمة وترسبات لم أكن أعرف عنها شيئا، بداية للتنافر معه، وهو ما صبّ الزيت على ناره عدد من مساعدي الوزير المزمنين في الوزارة، والذين كانوا يسممون الأجواء بينها وبين مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية.

---

6 – قيل أن الذي اقترحه هو عبد السلام بلعيد، حيث كان الرئيس يساومه على تقسيم وزارة الصناعة والطاقة التي كان يتولاها وجعل منها دولة داخل الدولة (وبدون أن أعني هنا أي مفهوم قدحيّ، ولكنه تسجيل لواقع عشناه جميعا) إلى ثلاث وزارات، الطاقة والصناعة الثقيلة ثم الصناعات الخفيفة، التي اقترحها على عبد السلام، على أن يكون كل من وزير الطاقة ووزير الصناعة الثقيلة من تلاميذه المحسوبين عليه، وهكذا تم تعين سيد أحمد غزالي للطاقة ومحمد الياسين للصناعة الثقيلة، وقيل أن الضغوط جاءت من عبد العزيز بو تفليقة بالنسبة لرضا مالك ولمصطفى لشرف (الذي عين وزيرا للتربية، ولقد حدثني بو تفليقة قبل توليه الرئاسة بمرارة عن الأول)
وكنت قلت للرئيس بو مدين، الذي سألني رأيي فيه، إنه مثقف قد يصلح كمستشار (قلت حرفيا أنه يشبه موسوعة توضع في خزانة الكتب لتستشار عند الضرورة) ولكنه لا يصلح للوزارة، ورد علي بو مدين ردّا بدا غاضبا، وإن كنت لا أتصور أنه غضب فعلا من تعليقي، وبعد نحو سنتين، وبعد وفاة الرئيس، قرأت في مذكرات كتبها بو مدين بخط يده عن مشاريعه المستقبلية اسم "لشرف"، معزولا ومرشحا لإحدى السفارات.
أما رضا مالك فقد تمت تصفيته في المؤتمر الخامس، وحاولت أن أشعره بالتضامن معه خلال عبوره للصحراء فزرته وأهديت له بعض كتبي، وقال لي بعدها أنه لا يتفق معي في عدد من الأمور، وتوقفت عن زيارته عندما لم يقم برد الزيارة.
وحدث في 1987 أن توجهت إلى مكتب الأخ إسماعيل حمداني الأمين العام لوزارة الخارجية آنذاك لتجديد جواز سفري، وجاء ذكر رضا مالك فقلت له كنت أتمنى لو رُشح لأحد المناصب الدولية ضمن حصة الجزائر، وقال لي حمداني أنه لا يملك حق اتخاذ قرار كهذا.
وتتوالى السنون ويصبح رضا مالك بعد أحداث 1991 وزيرا للخارجية وكان حمداني مثلي مُحالا على التقاعد، فكلمني هاتفيا ليذكرني بما قلته له في الثمانينيات وعلق قائلا : ترى هل يتذكرك رضا اليوم كما تذكرته، والواقع أننا اكتشفنا أن الرجل كان غير الرجل بعد أن اختار الخط الاستئصالي وكشف عن انتمائه الحقيقي.

(2)

وراحت الذكريات تتدافع في مخيلتي والسيارة تحملني من عيادة طبيب الأسنان إلى بيتي في المرادية، وهو البيت المتواضع الذي أسكنه منذ أكثر من ثلاثين عاما، ولم أغيره أو لم أتمكن من تغييره رغم أنني كنت أعتبره، منذ دخلته للمرة الأولى، مجرد مسكن مؤقت.

في تلك المرحلة كانت الدولة تملك عددا كبيرا من المساكن كانت مخصصة لالتزامات الدولة ولاستقبال الضيوف، وعلى رأس هذه المساكن فيللا زيرالدة (وهي فيللا متواضعة في وسط غابة كبرى كانت مكانا مفضلا للرئيس بو مدين يقضي فيها عطلاته، حيث كان يمارس رياضته المفضلة وهي الصيد في الغابات المجاورة، وتم تحديثها في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد حتى أصبحت قصرا فاخرا، أصبح المقر الثانوي لرئيس الدولة ومقرا للرؤساء الضيوف) وفيللا عزيزة بشارع البشير الإبراهيمي (ونزل بها الرئيس الشاذلي في شهور ولايته الأولى ثم وضعت بعد سنوات تحت تصرف الرئيس محمد بو ضياف، وورثتها أسرته بعد مصرعه لتجعل منها مقرا لمؤسسة بو ضياف) وفيللا النخلات (Les Palmeries) وسكنها الرئيس بو مدين وزوجه في سنواته الأخيرة وإليها نقل من موسكو وفيها أصيب بحالة الغيبوبة التي لم يخرج منها، وقد أعطيتِ الدار لجمعية تعنى بالأطفال المعوقين، وما زال هناك من الشخصيات من يطمع في الاستيلاء عليها، وأنا أرى أن ذلك يدخل في إطار محو آثار الرئيس الراحل، لأن دارا كهذه كان يجب أن تتحول إلى متحف يجمع آثاره.

ولعل البعض يتصور، وأنا أتحدث عن محاولة محو آثار الرئيس بو مدين، أنني أعاني نوعا من البارانويا، وهؤلاء أحيلهم لمدخل قصر الأمم، الذي كان على شكل خيمة مبطنة من الداخل بالقيشاني الأزرق وعُرفت بوقوف الرئيس أمامها لاستقبال وتوديع الرؤساء والملوك في المؤتمرات الدولية التي احتضنها

القصر، وحلا للبعض أن يقوم بتجديدها فهُدم المدخل وبني مكانه شيئ أقرب إلى القلعة يتناقض مع الهندسة العربية الإسلامية التي زرعها في الجزائر المهندس المصري مصطفى موسى عند بنائه لقصر الأمم في عهد الرئيس الأسبق أحمد بن بله.

ولن أشير للحجم المالي الكبير الذي أنفق في العملية.

ولن أشير أيضا إلى غرفة مكتب الرئيس القديم والتي أصبحت، بعد تحديث مبنى الرئاسة، جزءا من قاعة انتظار مجلس الوزراء، ولا إلى أثاث المكتب الذي وجدته في الفيللا المقابلة لوزارة الدفاع القديمة، والتي وضعت بعد ذلك تحت تصرف مؤسسة "مصف الاستحقاق الوطني"، وكانت هناك فيللا مصطفى رايس (السكن الرسمي لبعض مديري ديوان الرئيس) وتقع في شارع سويداني بو جمعة في مواجهة فندق الجزائر (سان جورج سابقا[7]) وفيللا جنان المبروك في منطقة عين بنيان وكانت تجرى فيها مباحثات رئاسية للخروج من زحمة العاصمة، وقيل لي أنها أعطيت لإطار سام، كدور أخرى لا أعرف عددها أو مواقعها، وكثير منها تم التنازل عنه طبقا لقانون التنازل عن أملاك الدولة[8].

والمهم أنني خرجت من كل ذلك صفر اليدين لأن الحصول على فيللا كان يفرض أن تطلبها من راعيها أو المتحكم في مصيرها، وهو ما رأيت فيه،

---

7 – بُني الفندق في سنة 1889 على بعض أنقاض قصر قديم من الطراز العربي المغربي، ما زالت بعض جوانبه قائمة، وعرف الفندق مع الحرب العالمية الثانية كنزل فخم لكبار زوار الجزائر، وكان ممن نزلوا في الفندق بعد ذلك ونستون تشرشل والجنرال أيزنهاور والجنرال شارل دوغول، وعقدت فيه مؤتمرات تاريخية هامة، وتعرض للقنبلة الألمانية ثم أعيد ترميمه وافتتح ثانية في 1948 ، وكان كل هذا من أسباب عدم اقتناعي بتغيير الاسم.

8 – كان قانون التنازل عن أملاك الدولة لفائدة المواطنين واحدا من إنجازات عهد الرئيس الشاذلي بعد أن رفض الرئيس بومدين إصداره لخوفه من احتمالات التلاعب، حيث كان المفروض أن يخصص العقار للسكن العائلي وألا يُباع قبل فترة زمنية محددة، وألا يُسمح بشراء غيره من أملاك الدولة، ولكن نظرة إلى قائمة ملاك المنازل الفاخرة التي تؤجر بالعملة الأجنبية (التي تودع في الخارج) للبعثات الدبلوماسية وللشركات الأجنبية توضح الكثير.

وببعض التزيد، نوعا من الرشوة قد يفرض علي يوما أن أبادله بثمن مناسب، وأنا لم أكن أملك إلا ولائي المطلق للمسؤول الأول الذي منحني ثقته.

والواقع أنه كانت هناك عشرات الفيللات والشقق تحت تصرف وزارة الخارجية ووزارة الطاقة ووزارات أخرى، تم توزيعها في مراحل متتالية على الأنصار، ومن بينها قصور حقيقية، كما كانت هناك فيللات أخرى تحت تصرف عدد من وزارات السيادة، من بينها فيللا على الشريف التابعة للخارجية وفيللا "إيدليس" التابعة للأمن الوطني في منطقة بن عكنون، والتي حافظ عليها الأمن الوطني طويلا وخصصها للضيافة، ولكن سلطة عليا انتزعتها منه في العام الماضي، وسمعت في مستوى الأمن كلاما عن وشايات تحدثت عن إساءة استعمالها، وكانت هناك مبان أخرى تابعة لوزارة الثقافة وبعضها من مباني التراث، وسأتناول الحديث عن بعضها فيما بعد، وأحدها كان مُحاذيا لقصر الشعب وملحقا به، استولى عليه الأمين العام في نهاية السبعينيات ثم أخرج منه.

وكان من حق كثيرين أن يسعوا للاستفادة المشروعة، لكن المؤكد هو أن الذين رفضوا التحالفات الأفقية وتمسكوا بالولاء الرأسي ظلوا دائما في مساكنهم المتواضعة، وكانوا غالبا يتفاخرون بذلك، تظاهرا أمام أسرة تتهمهم بالمبالغة أحيانا وبقلة الحيلة في معظم الأحيان، ولا أنكر هنا أنني، ومن منطلق ألاّ أشغل الرئيس بمشاكلي الشخصية أو أشعره بأنني أطالب بثمن للوفاء والولاء، وهكذا لم أطرح الأمر على أي من الرئيسين بو مدين والشاذلي، لكنني أعترف اليوم بأنني أحس ببعض الندم.

ولست أدري أيهم كان سيكون أكثر حماسا لي من الآخر، ولكنني على ثقة من أن أيا منهما لن يتردد عن إعطاء التعليمات اللازمة.

والمهم هو أن أغلبية تلك المساكن الفاخرة تم اقتسامها وتوزيعها، وكان الحصول على واحدة من تلك المساكن عبر تنازل الهيئة التي تملكها مرتبطا أساسا بالعلاقات الوثيقة جدا بالمسؤول الأول عنها، وهكذا تمكن الأذكياء من

الاستفادة بمساكن بعضها يُثمّن اليوم بعشرات المليارات، ومعظمهم لا يقطنونها بل يؤجرونها للسفارات وللشركات الأجنبية ويقبضون المُقابل خارج الوطن بالعملات الأجنبية، ويقطنون في الوقت نفسه بيوتا مؤجرة من الدولة للموظفين، أي بتسهيلات خاصة[9].

ورحت أسترجع سنواتي الأولى في رئاسة الجمهورية، والصراعات التي واجهتها ووضعية الغربة التي عشتها والانتصارات التي حققتها والعثرات التي كبوت فيها والسهام التي تعرضت لها.

---

9 -عندما سمع الأخ محمد الشريف مساعدية رحمه الله في السبعينيات بأنني أبحث عن سكن ملائم اصطحبني في سيارته إلى مبنى تابع للحزب مُعربا عن استعداده لكي يتنازل لي عنه، وكان في البيت نحو عشرين غرفة، وقلت له بصدق أنني لا أستطيع أن أشغل بيتا كبيرا كهذا (وقد جهز البيت فيما بعد وأعطي للرئيس الأسبق أحمد بن بله)و عندما وصلت في 1983 إلى حالة من اليأس بعد فشلي في الحصول على سكن مناسب بدون مقابل سياسي أو بعيدا عن التزامات ولاء أفقي لرفضه توجهت غاضبا لمكتب العربي بلخير، الذي كان آنذاك أمينا عاما لرئاسة الجمهورية في الولاية الأولى للرئيس الشاذلي بن جديد، وطرحت أمامه الأمر فقال لي بكل هدوء أنه لا يملك مسكنا يعطيه لي، ولكنه على استعداد لكي يوقع لي تنازلا عن أي مسكن تابع للرئاسة يكون شاغرا تماما.
وخرجت بنفس الغضب من مكتبه فوجدت أمامي العقيد (اللواء فيما بعد) عبد الله بلهوشات رحمه الله، الذي سألني مداعبا عن سبب غضبي، ولما شرحت له الأمر راح يبحث في جيوبه بما بدا لي أنه يحاول أن يسخر من الأمر كله، ثم فاجأني بإخراج قصاصة صغيرة أعطاها لي قائلا بأنها عنوان تابع للرئاسة وشاغر منذ مدة طويلة.
وكان العنوان المكتوب فيلا بالابيار، بجوار مقر السفير العراقي، وسارعت إلى مكتب العربي وكأنني أجرّ أسدا من ذيله، فنظر بهدوء للورقة ثم قال : بالفعل : هي مسكن شاغر الآن، وسأوقع لك التنازل عنه، لكن أحبك أن تعرف أنه في الأصل موضوع تحت تصرف وزير الخارجية الأسبق بوتفليقة (الذي كان يعيش حالة المنفى الاختياري في الخارج.) وكنت سمعت عن الوضعية السيئة التي يعيشها الرجل، والغربة المرّة التي يجتازها، والتي دفعت يوما مخرجا سينيمائيا التهم أموال الدولة الجزائرية ليقول علنا بأنه يصاب بالملل من زيارات الوزير الأسبق، الذي كنت أعرف عزة نفسه وكرمه ورعايته لأنصاره أيام تألقه، ولم أكن من المقربين له.
وقلت للعربي بأنني أرفض أن أخذ مسكنا كان تحت تصرف مناضل لا يستطيع اليوم الدفاع عن نفسه.
والطريف هو أن البيت أعطي في نفس العام (1983) لسفير سابق كلف بتلويث سمعة عدد من رجال الرئيس الراحل، واشترى البيت بثمن بخس في إطار قانون التنازل عن أملاك الدولة، ثم قام بتجهيزه على نفقة الوزارة التي عين على رأسها مقابل الخدمات التي قدمها للنظام، ويقال أنه باعه فيما بعد بعشرات أضعاف الثمن الذي اشتراه به، ومات إثر مرض عضال، والغريب أن البيت بدا والعياذ بالله منحوسا فلم يستطع أحد أن يقطنه واضطر من اشتراه بعشرات أضعاف السعر الأصلي (ولا أبالغ) إلى هدمه، ربما ليقيم مكانه مبنى جديدا.

ولقد كانت السنوات الأولى بالغة الصعوبة، فقد كنت عديم الخبرة في الشؤون الإدارية محدود التجربة في النشاطات السياسية، ووجدت نفسي في وضعية غربة كاملة للمرة الرابعة في حياتي.

ويفرض عليّ السياق أن أعود إلى الوراء لكي أسهل الأمر على القارئ.

■ ■ ■ ■

كانت الغربة الأولى في بداية الخمسينيات، وكانت غربة جغرافية وذلك عندما ذهبت من عنابة في الشرق الجزائري إلى مصر للدراسة، مراهقا في منتصف العقد الثاني من العمر.

وقطعت المسافة من عنابة إلى تونس بالقطار ثم بحافلة متهالكة من تونس إلى طرابلس، ثم سافرنا بما يُشبه "الأتوستوب" من طرابلس إلى بنغازي، وكانت أصعب المراحل لأنها تمتد 1050 كم جرداء قاحلة، ثم كانت مرحلة أقل إرهاقا من بنغازي إلى كابوتزو (وهي نقطة الرقابة الليبية الحدودية واسمها الآن أم السعد، ومنها إلى السلوم حيث أخذنا القطار إلى الإسكندرية ثم القاهرة أخيرا.

وكان عدد الطلبة الجزائريين، والخمسينيات تبدأ عقدها، في حدود الخمسين، معظمهم يدرس في الجامع الأزهر، بجانب عدد محدود يدرس في الأقسام الأدبية لبعض الجامعات المصرية كدار العلوم، وكانت أهمية التسجيل في الأزهر هو "الجراية" التي تعطى للطلبة، وقيمتها جنيهان، يُضاف لها جنيهان أيضا تقدمها القنصلية الفرنسية لرعاياها الدارسين في الأزهر، والأزهر وحده.

وكان هذا أمرا غريبا لا علاقة له بالمعطيات التاريخية التي تقول بأن الجامع بناه الفاطميون القادمون من بلاد المغرب العربي، وكان تفسيره الحقيقي أن الدراسة في القسم العام للأزهر كانت بعيدة عن الدراسات العصرية التي يُمكن أن تسبب القلق للغربيين، ولم نكن عشنا آنذاك تداعيات تفجيرات نيويورك التي خلقت الذعر من كل ما يُنسب أو ينتسب للإسلام.

وعرفت القاهرة في الثلاثينيات والأربعينيات علماء جزائريين كان من بينهم الشيوخ إبراهيم طفيش ومحمد الخضر بن الشيخ الحسين (الذي أصبح شيخا للأزهر في بدايات ثورة يوليو) والهلالي عميمور وإسماعيل جغري والأمين المدني وأخيه أحمد المدني، وكذلك الفضيل الورتلاني (الذي ارتبط اسمه بانقلاب اليمن بقيادة عبد الله بن الوزير) والتف معظم هؤلاء حول رائد الكفاح المغربي آنذاك الأمير عبد الكريم الخطابي عندما لجأ إلى مصر، وأصبح مُلهم النشاط في مكتب المغرب العربي ومرجعية نضال الشمال الإفريقي، لكن الورتلاني كان أكثر ارتباطا بالإخوان المسلمين.

وكان راعي الطلبة الجزائريين هو مناضل حزب الشعب الأستاذ الشاذلي المكي، الذي اعتمدته الجامعة العربية كممثل للجزائر في القاهرة، والذي يعود له الفضل الأول في رعاية الطالب محمد بو خرّوبة (الرئيس الراحل هواري بومدين) الذي وصل إلى مصر في بدايات 1951 وربما 1952، كما أن للأستاذ الشاذلي فضل رعايتي شخصيا وإنقاذي من الدراسة الدينية التي أرادها لي الوالد، وذلك بتشجيعي على الدراسة لإعداد الشهادات المطلوبة للجامعة المصرية.

والتحقت بالدراسة المدنية ولكنني ظللت سنوات على ارتباط عضوي بالأزهر الذي كان يوفر لي الجنيهين، وتمكنت من توفير ثمن المسكن شهورا طويلة كنت أنام فيها داخل رواق المغاربة بالجامع نفسه وعلى الحصير الذي تشاركني فيه جيوش من البق، وأذهب يوميا على قدمي إلى مدرسة خليل أغا بشارع الملك فاروق (الجيش فيما بعد) لأعد لنيل شهادة الباكالوريا، استعدادا لمسيرة السنوات السبع في كلية الطب، ولأقيم صداقات مع تلامذة المدرسة في إطار فرقة الكشافة، مكنتني من مواجهة وضعية الغربة الجغرافية والعائلية.

وأذكر عندما ذهبت في اليوم الأول لمدرسة خليل أغا حاملا الأوراق التي زودني بها الأستاذ الشاذلي، ودخلت، جهلا، من باب المعلمين، وطلبت من

الحارس أن يدلني على مكتب الناظر (المدير، وكان الناظر أيامها شخصية عظيمة النفوذ مهابة الجانب) ظن الرجل البسيط أنني، لجرأتي، من أقارب الناظر فأدخلني على مكتبه حيث وقفت أمامه لحظات كان خلالها يتفحصني جيدا، وقدمت له أوراقي فسألني وهو لا يُخفي دهشته من وقوفي وحيدا أمامه: لماذا لم يأت والدك معي؟

وقلت له أنه ليس هنا، إنه بعيد، وعاد الأستاذ المليجي، رحمه الله، يسألني وهو يركز بصره علي: ... "بعيد؟ كم يعني؟ عشرة كيلو؟ مائة كيلو؟، وأجبت بهدوء : حوالي أربعة آلاف كيلو، وخلت الرجل تجمد في مقعده، وعاجلني بالسؤال : أنت لست مصريا؟ وقلت أنني من الجزائر. وعاد يسأل : وأنت هنا في مصر وحدك ؟ وأجبت بالإيجاب، وأحسست بأن عيني الناظر قد أصابهما بعض الاحمرار، فاستدعى الساعي وكلفه بأن يرعى كل شؤوني ويضمن بأن يتم التسجيل في أحسن الظروف، وكانت قصة الطفل الذي لا يتجاوز طوله 150 سنتيمترا أعجوبة العجائب في بلد كان آنذاك يعتبر الابتعاد عن البيت 200 كيلومتر سفرا بعيدا، يُودع فيه المُسافر بحرارة وتصاحبه دموع وشهقات ومأكولات من كل نوع.


الوالد شابا وشيخا

ولأنني كنت فاشلا في الرياضة البدنية بكل أنواعها فقد كانت الكشافة هي المجال الذي "تفرعنت"فيه، ثم أصدرت مجلة حائط كنت أكتبها بنفسي، وكأنها كانت إشارة من القدر إلى أن اهتمامي بالعمل الصحفي سيجعل منه قدري المستقبلي، ومن حسن الحظ أنني ركزت على جانب الهواية حتى لا تطغى على جهدي الدراسي، ولهذا كنت متفوقا بحمد الله.



الشيخ البشير الابراهيمي محاطا ببعض طلبة البعثة – إلى الخلف على اليسار محي الدين عميمور



الشيخ يتحدث إلى طلبة البعثة في مقرها بالمعادي عام 1952



الكاتب إلى اليسار
في رحلة كشفية
إلى الأهرام 1953



حول بعض الأساتذة في مدرسة خليل أغا 1953

وراح الطلبة يتحركون في كل المجالات، رغم الظروف المعيشية السيئة، ولعل واحدا من أهم عناصر التحريض كانت أغنية "بساط الريح" للفنان المرحوم فريد الأطرش، والتي يتغنى فيها بمراكش وتونس متناسيا الجزائر، وهكذا راح كل منا ينشط في مجاله للتعريف بالجزائر، وهو جهد كان محدود الأثر، إلا في مجالات معينة ومن بينها المعاهد الدراسية ومجال حركة الإخوان المسلمين.

وتنقلت بين أكثر من فندق متواضع ومسكن من المساكن التي تستقبل الطلبة الأغراب عندما كانت طلائع بعثة جمعية العلماء المسلمين الجزائريين قد وصلت إلى مصر في بداية الخمسينيات، وتفضل رئيس الجمعية الشيخ محمد البشير الإبراهيمي[10] رحمه الله فأمر بضمي إلى البعثة بترشيح من ممثل الجمعية في القاهرة، الأستاذ أحمد بيوض رحمه الله، الذي كان في الوقت نفسه ممثلا لحزب البيان، وبتزكية من المرحومين إسماعيل جغري والفضيل الورتلاني، وكانا صديقين للوالد قبل انتقاله النهائي للجزائر واستقراره في عنابة في بداية الخمسينيات، وبعد أن مثل المغرب العربي في لجنة عروبة القدس، وهو ما أورده الأستاذ أكرم زعيتر في برنامج متلفز عُرض مؤخرا.

---

10 - محمد البشير الإبراهيمي هو خليفة الشيخ عبد الحميد بن باديس على رأس جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، من العلماء الذين عاشوا سنوات في المشرق حيث كان يلقي دروسه في المسجد الأموي بدمشق، وأصدر جريدة الشهاب إلى جانب بن باديس، وارتبط سياسيا بالجناح المعتدل في الحركة الوطنية (حزب البيان والمنتخبين المحليين) والتحق في بداية الخمسينيات بمصر حيث ارتبط مع حركة الإخوان المسلمين، وعندما اندلعت الثورة واصل نداءاته من أجل دعم الشعب الجزائري ولكنه رفض الاعتراف بقيادة جبهة التحرير الوطني التي كان يمثلها في مصر ثلاثي بقيادة أحمد بن بله، وساءت علاقته مع النظام المصري الذي كان يؤيد بن بله عندما تفجر الصراع بين حركة الإخوان والرئيس جمال عبد الناصر، وانفض طلبة بعثة جمعية العلماء من حوله ليرتبطوا ببن بله ويكونوا البعثة الجزائرية الحرة، التي انضم كل أعضائها للثورة بعد ذلك على مراحل متتالية.
وكان الشيخ خطيبا مفوها ورجل علم وفقه، واستطاع في البداية أن يحظى باحترام القيادة المصرية حيث استقبله الرئيس جمال عبد الناصر صحبة الأساتذة الفضيل الورتلاني والعربي التبسي، ولعل ابنه الدكتور أحمد طالب شارك في إحدى اللقاءات، وسأشير لجوانب من دوره في موقع آخر.

وعشت مرة أخرى غربة جديدة إذ كان طلبة البعثة أكبر مني سنّا، وتبعا لذلك تعرضت للاضطهاد غير المباشر من معظمهم، ولم تتحسن وضعيتي نسبيا إلا بعد التحاق بعض من يقترب سنهم من سني، مثل سعد الدين نويوات والمدني حواس، وكان التحاقي بالبعثة نقطة فاصلة في تاريخ حياتي، وهو ما يجعلني دائما أحس بالامتنان للشيخ البشير الإبراهيمي والشيخ الفضيل الورتلاني والشيخ إسماعيل ولكل من أوصى بي خيرا [11].

وهكذا أصبح طلبة القاهرة موزعين على تجمعين أولهما طلبة البعثة والثاني ما أطلق عليه اصطلاحا طلبة الأزهر، حتى بالنسبة لمن لم يكن يدرس في الجامعة الإسلامية، مثل المرحوم مولود قاسم الذي عرفنا بعد استرجاع الاستقلال فقط أن اسمه الكامل هو مولود قاسم نايت بلقاسم [12]، بعد أن أصبح، رحمه الله، يُصر عليه ويتمسك به عندما ارتقى سلم المسؤوليات في الدولة، وكان يهاتفني بغضب عندما كنت أكتفي في بلاغاتي بالاسم الذي ألفناه.

ومع مجيء بعثة الجمعية بدا أن اتفاقا عُقد بين جمعية العلماء وحركة الإخوان المسلمين كان عرّابه المرحوم الورتلاني، وتم بموجبه إدماج كل طلبة البعثة في الخلية التابعة لمنطقة سكنهم في "المعادي"، وفتحت الحركة أبوابها

---

11 – بعد ذلك بعقود وعندما عُرف اسمي كشخصية سياسية حاول أحد الزملاء القدامى إقناعي بأنه كان صاحب الفضل في إلحاقي بالبعثة، التي كان لها فضل دخولي للمجتمع الجزائري، ولم أصدقه بالطبع لأنني كنت أعرف وضعيته الحقيقية آنذاك، وأعترف أنني كنت أخافه لأنني كنت أخشى أن يبلغ قيادة البعثة، التي كانت تعطيه منحة إضافية كان يتستر عليها، بأنني أدخن.

12 – مولود قاسم من مواليد أقبو وكان موسوعة علمية وثقافية، درس أساسا في القاهرة حيث عرفه الرئيس بو مدين وأعجب به، وعمل في مكتب جبهة التحرير في ألمانيا خلال الثورة ثم في وزارة الخارجية حينا بعد استرجاع الاستقلال، واستدعاه الرئيس، الذي كان يعطف عليه كثيرا، ليعمل مستشارا في الرئاسة ثم عين وزيرا للأوقاف حيث عهد إليه الرئيس بتنظيم ملتقيات الفكر الإسلامي، ورغم عصبيته التي كانت بدون حدود فقد رأيته دائما أمام بومدين وديعا هادئا، وعمل مستشارا بعد ذلك إلى جانب الرئيس الشاذلي بن جديد، لكن تألقه لم يعد بنفس البريق حتى بعد أن عين رئيسا للمجلس الأعلى للغة الوطنية، وأحس كثيرون أنه عانى من عقدة ذنب بعد أحداث 1980 التي لم يتمكن من التصدي لها إلى جانب الرئيس، ويدعي كثيرون أنه كان يحب العربية ويكره المعربين، ووقعت له مشاكل عديدة مع عدد من مشايخ الجمعية الذين كانوا يهابونه لأنه يتحدث باسم الرئيس.

للشيخ البشير ليدعو عبر منبرها لنصرة الجزائر، بعد أن اصطدم بعلماء الأزهر خلال حوار لم يستسغه العلماء ورأوا فيه تطاولا على مقام سام لم يسبق أن قام به أحد.

وفي تلك المرحلة بدأت المشاكل بين الطلبة والقنصلية الفرنسية على شكل اعتصام تم فضه بهدوء، وكان من أهم عناصره قضية المنحة التي تعطى للطلبة الفرنسيين (أي نحن)، وأذكر أن سلطات القنصلية تعاملت معنا في المرة الأولى برفق إلى أن تم إخراجنا جميعا من المقر، لكن المرة الثانية لم تكن كسابقتها، وكان الرئيس الراحل يُذكرني بذلك ضاحكا ومتنكرا الأيام الماضية ويقول أنه اشترك معنا لتجسيد تضامنه فهو لم يكن معنيا بالأمر[13].



مصالي الحاج

وكان الشاذلي المكي قد دعّم نفوذه في مصر بتنظيمه زيارة رئيس حركة الانتصار للحريات الديموقراطية "مصالي الحاج" للقاهرة، وأذكر أن الشاذلي

---

13 - كان بو مدين هو الوحيد الذي لا يتلقى المنحة لأنه رفض التوجه لتسجيل اسمه في القنصلية الفرنسية حيث اعتصم الطلبة للمرة الثانية داخل القنصلية للاحتجاج على وضعيتهم المعيشية، فقد كانوا يتلقون جنيهين فقط كمنحة (عشرين دينارا) وكنت شاركت في الاعتصام الأول وشارك بو مدين في الاعتصام الثاني.

قدمني له كطالب مجتهد فانحنى بقامته الطويلة ليقبلني وليبهرني بلحية كثة زادته وقارا على وقار.

وشهدت مصر في 1952 ثورة 23 يوليو التي تحمسنا لها جميعا ورحنا نُتابع مسيرتها بكل ما في شبابنا من حيوية متدفقة، ونتابع في الوقت نفسه التغيرات التي عرفها مكتب المغرب العربي في العام التالي وأدت إلى حلول ممثل جديد لحركة الانتصار محل الشاذلي المكي، هو المرحوم محمد خيضر، وتغيرت التحالفات فارتبط الشاذلي على الفور بالشيخ الإبراهيمي وممثله في القاهرة، الذي كان في الوقت نفسه ممثلا لعباس فرحات.

وبدأنا نسمع اسما جديدا لمناضل لم يكن أحد منا قد عرفه أو التقاه ويُدعى أحمد بن بله.

وفي العام التالي بدأت تتردد إشاعات عن صراعات بين الرجل الذي عرفناه قائدا للثورة المصرية، وهو اللواء محمد نجيب، وضابط سام كان العقل المُفكّر للثورة ويدعى جمال عبد الناصر.

ودُعي ممثلون عن الطلبة العرب (وكانت التسمية المستعملة آنذاك هي الطلبة الشرقيين) لإفطار رمضانيّ في نادي الضباط بالزمالك، ولست أذكر كيف تم اختياري من بين طلبة البعثة، أنا والزميل محمد الهادي حمدادو، لحضور الإفطار، الذي أذكر من بين حضوره أيضا زميل من طلبة الأزهر هو الأستاذ مسعود الطويل، المحامي في وهران اليوم، وأذكر أنني آنذاك كنت أصدر في المدرسة الثانوية مجلة حائط أسبوعية حملت للمرة الأولى عنوان "انطباعات".

ورحت أخوض بين جموع الطلبة وأنا أبحث عن الرئيس محمد نجيب لمصافحته إلى أن وجدت نفسي أقف وراء ضابط طويل القامة، وعندما حاولت تخطيه التفت فجأة إلى الخلف، وفوجئت بأنه "البكباشي" جمال عبد الناصر، الذي لاحظ حيرتي فمد يده في بساطة آسرة ليسألني عن اسمي وعن بلدي

وأجبته بشكل آلي، وجاء من يدعونا إلى موائد الإفطار فوجدت نفسي على يمين الضابط المصري الكبير، ويفصلني عنه طالب لبناني خلته سيقتلني وهو يُضطر إلى الانحناء إلى الأمام ثم إلى الخلف لأواصل ثرثرتي مع عبد الناصر، وأقول له أننا في حاجة إلى حصص إذاعية موجهة إلى المغرب العربي عبر صوت العرب، وهو يستمع في صبر جميل ويلح علي لكي أتناول إفطاري.

ووقف الصاغ (الرائد) صلاح سالم بعد انتهاء الإفطار ليفتتح حفلا ساهرا، بدأه بالقول أن مصر قررت بث برنامج إذاعي خاص موجه للمغرب العربي، وهو ما أعطاني الإحساس بأن القرار اتخذ في نفس الليلة وفي نفس المكان، مما جعلني أشعر بالتقدير الكبير للقائد المصري وبنوع من الغرور وأنا أتصور بأنني كنت وراء الأمر.

آنذاك كان لإنخالنا، شبه القسري، حركة الإخوان المسلمين فائدة كبيرة، حيث تعلمنا الكثير عن أساليب الدعوة وطرق التنظيم والعديد من القضايا السياسية، واكتسبنا حصانة خاصة تجاه كل محاولات الاحتواء، وكانت كثيرة، ولعلي أذكُر أن أول مرة سمعت فيها عن "التطور المادي للتاريخ"، وهو أساس الماركسية، كان في مقر الجماعة، وعلى لسان المرحوم الأستاذ سيد قطب، الذي أعدم بعد ذلك في الستينيات نتيجة اتهامه بالعمل ضد نظام الحكم، ولم ينجح بومدين في إنقاذه من حبل المشنقة، حيث أوفد وزير الخارجية عبد العزيز بو تفليقة ليتوسط لدى عبد الناصر.

وأذكر هنا أن الحديث تناول يوما في الثمانينيات هذه القضية، وسألني سي عبد القادر (الرئيس بو تفليقة) عن نظرتي لسيد قطب وكان ردّي تساؤلا عن أي سيد قطب يعني، وفي مواجهة دهشته قلت له بأن هناك قطب المفكر الرزين صاحب "في ظلال القرءان" وهناك قطب بعد تعذيبه في سجون النظام، عندما أصدر كتابه الانقلابي الشهير"معالم على الطريق" الذي قيل أنه تأثر فيه بفكر أبي الأعلى المودودي، وفي مرحلة معينة لاحظنا بأن الرفاق في خلية الإخوان

بدعوا يدعوننا صراحة للتعاطف مع الرئيس محمد نجيب، ويحرضوننا ضد جمال عبد الناصر الذي سيبيع مصر للبريطانيين ! كما قالوا (وكانت تلك مرحلة اتفاقية الجلاء التي وقعها عبد الناصر مع الوزير البريطاني أنتوني ناتنغ)

واجتمعنا في مقر البعثة، وعلى بعد أمتار من مكتب المغرب العربي، لنبحث الأمر، واتخذنا قرارنا بالانسحاب الجماعي من الإخوان المسلمين حتى لا نُقحم في شأن مصري داخلي، وأدى هذا إلى توتر الأمور بين غالبية الطلبة وقيادة البعثة، التي كنا في صراع معها حول عدد من المعطيات الداخلية، وهكذا تقرر إرسال ثلاثة منا إلى الجزائر في العطلة الصيفية لعام 1954 لشرح الأمر لقيادة الجمعية، وكان الثلاثة هم سعد الدين نويوات ومحمد الهادي حمدادو والعبد الضعيف.

واستقبلنا في قسنطينة الشيخ خير الدين، وكان معه الأخ محمود حمروش[14] والشهيد أحمد رضا حوحو، لكن الحديث مع الشيخ كان حوارا للطرشان، وعرفنا فيما بعد أن مكتب القاهرة بادر بإرسال مبعوث كانت مهمته أن يُسفه مُقدّماً كل طروحاتنا، وهكذا عدنا إلى القاهرة في أكتوبر نجر أذيال الخيبة، وكنت شخصيا قد فررت من عنابة بعد أن نصح أحد الأصدقاء والدي بذلك (والواقع أنني قضيت فترة الصيف في عنابة وأنا أشيد بالثورة المصرية، ويبدو أن هناك من كان يُتابعني بدون أن أشعر) وهكذا سافرت إلى تونس بالقطار، غير أن الشرطة الفرنسية أنزلتني في مدينة سوق أهراس لأقضي الليل فيها على أن أعود في الغد إلى عنابة بنفس القطار، وفي صباح اليوم التالي، وبشجاعة لا أعتقد أنني ما زلت أملكها، تصرفت عكس ما طلبته مني الشرطة الفرنسية وركبت القطار المتجه إلى تونس، حيث التقيت بالأخ حمدادو، ثم واصلنا الطريق معا إلى القاهرة براً وعبر ليبيا.

---

14 - هو شقيق السيد مولود حمروش رئيس الحكومة الأسبق، وكان هو الذي ذكرني بهذا وبمن حضر اللقاء.

وأثناء غيابنا في الجزائر قام الطلبة باعتصام ثان في القنصلية الفرنسية بالقاهرة لكن نهايته لم تكن كنهاية الأول، واستُدعيت الشرطة المصرية لإخراج الطلبة الذين راحوا يتدافعون في كل مكان، وكان من بينهم محمد بو خروبة، الذي ألقي عليه القبض بفضل الأسلوب المصري المبتكر الذي يُكتفى فيه بالصراخ وراء من يجري (حرامي... أي.. سارق) وهنا يتكاتف كل المواطنين للإمساك به.

وألقى أحد البوابين أمام الطالب الفارّ بالكرسي الذي كان يجلس عليه فوقع على الأرض ليمسك به أكثر من "فاعل خير!" وليقضي ساعات في قسم الشرطة إلى أن أخرجه المرحوم الشاذلي المكي.

وعشنا محاولة اغتيال جمال عبد الناصر، وهو ما تلاه وترتب عليه حل الإخوان المسلمين وتعرضهم للملاحقة، مما أكّد صحة قرارنا بالابتعاد عنهم، ولكن ذلك كان إيذانا ببداية التوتر مع قيادة الجمعية، ثم قامت الثورة والتففنا حول أحمد بن بله، وتزايد التوتر بين قيادة الجبهة وقيادة الجمعية.

وحاول عبد الناصر إنقاذ الموقف خوفا على الثورة الوليدة، وتولّى العملية في الأيام الأولى من نوفمبر ضابط المخابرات المكلف بالملف الجزائري المرحوم العقيد فتحي الديب، الذي عقد اجتماعا في منزله وُقعت على إثره وثيقة يقال أن محاورها الرئيسية كانت من أفكار الشيخ الفضيل، الذي أصر على استعمال اسم جبهة تحرير الجزائر (بدلا من جبهة التحرير الوطني) وكان عنصر التلفيق واضحا في الأمر، لأنه لم يكن على أرض الواقع الجزائري تنظيم مُقاتل ينتمي لهذا الاسم، وأشير لجيش التحرير الوطني باسم جيش التحرير "الجزائري" وهو أمر بعيد عن الواقع، وهكذا ماتت الجبهة يوم ولادتها، وأصبح البلاغ وسيلة لما بدا آنذاك متاجرة سياسية.

وكثف طلبة البعثة الحرة تحركاتهم النضالية في المجالات الطلابية، وكانت البعثة نواة لتكوين رابطة الطلبة الجزائريين في منتصف الخمسينيات، وكان من

بين أهم نشاطاتها، وبجانب نشاطات أفرادها في المؤسسات التعليمية، مشاركتها في مؤتمر للشباب المسلم نظمه المؤتمر الإسلامي بقيادة البكباشي أنور السادات، الذي كلف باحتواء النشاط الإسلامي بعد حلّ الإخوان المسلمين.

وشارك الزميلان محمد الهادي حمدادو والمرحوم رشيد النجار باسم الجزائر في مؤتمر الشباب الإسلامي في باكستان، ثم شاركنا معا في المؤتمر الذي عُقد في مدينة بورسعيد في يوليو 1955 حيث رُفع العلم الجزائري رسميا للمرة الأولى. وأقيم أول احتفال بذكرى الاحتلال الفرنسي للعاصمة الجزائرية، أعطينا فيه الكلمة لممثل جبهة التحرير الوطني المناضل حسين أيت أحمد، الذي ألقى خطابا ناريا اضطر القنصل الفرنسي في بور سعيد إلى الانسحاب وهو يصرخ: (C’est une déclaration de guerre)





العلم الجزائري
مرفوعا رسميا للمرة
الأولى في معسكر
شباب العالم
الاسلامي في
بورسعيد 1955

وتولى أعضاء من البعثة الجزائرية الحرة قيادة أهم مواقع النشاط في المعسكر، وكان الأمر الغريب هو أن المكلف بالإعلام ورئيس تحرير صحيفة

المعسكر الحائطية، التي حملت اسم "أوراس"، كان طالبا يستعد لدخول كلية الطب، وهو كاتب هذه السطور، الذي لم يكن يعرف آنذاك أن الأيام تخبئ له مفاجأة الانحراف من العمل الطبي إلى النشاط الفكري السياسي، وكان من بين الرفقاء عبد الحميد بو وذن ورشيد النجار وعبد اللاوي، ومحمد الهادي حمدادو الذي كلف بأمن المعسكر.



إلى اليمين الكاتب بجوار مجلة الحائط التي أعدها في المعسكر

وشيئا فشيئا بدأ عناصر البعثة الحرة يتولون تمثيل الجزائر في المناسبات الدولية.

وفي نفس العام تعمق الشرخ بين البعثة الخارجية للجبهة من جهة وممثل الحركة الوطنية وقائدها مصالي الحاج السابق المرحوم الشاذلي المكي من جهة أخرى، فقد عاد الشاذلي، المتحالف مع أحمد مزغنة الذي لحق به في القاهرة، إلى ارتباطه مع مصالي الحاج، الذي رفض هو الآخر الاعتراف بقيادة الجبهة، وكان مؤتمر باندونغ في 1955 هو نقطة اللاعودة بين الاتجاهين، فقد أوقفت

السلطات المصرية، بطلب من أحمد بن بله، كلا من الشاذلي ومزغنة وهما يتجهان إلى إندونيسيا، وانفردت جبهة التحرير الوطني بتمثيل الجزائر، وجلس في مقعدها حسين آيت أحمد وبجانبه محمد يزيد (أو سي امحمد.. كما كان يُحب أن يُنادى.. رحمه الله).

وزاد النفور بين ممثلي جبهة التحرير الوطني وقيادة الجمعية التي أضعفها تحالفها السابق مع قيادة الإخوان المسلمين، ومكنها ثري سعودي يسمي الشيخ سرور الصبان من الاتصال بالقصر الملكي في الرياض، وغادر الشيخان مصر نهائيا إلى السعودية بعد أن فقدا حرية الحركة التي يريدانها.

والتحقت جمعية العلماء بجبهة التحرير الوطني في 1956، ويُقال أن ذلك حدث بضغط كبير من الشهيد الشيخ العربي التبسي، الذي اغتالته يد الاستعمار بعد ذلك في ظروف لم تتضح تماما كان من نتيجتها أنه دُفن في مكان مجهول، وكان هو المقصود في مقدمة مجلة الجيش التي حملت توقيع الرئيس الراحل هواري بو مدين في 1974، ووجه فيها التحية لشهيد ليس له قبر يُزار[15].

---

15 – لأن ما يُكتب هنا هو شهادة للتاريخ أعترف اليوم بأنني كاتب تلك المقدمة وكان الشهيد الشيخ العربي التبسي (الذي قتله الاستعمار ولم يُعرف قبره) أمام ناظري وأنا أعدها وبجانبه رفيقنا الشهيد محمد الطاهر زعروري، الذي كان من طلبة معهد بن باديس ومن أوائل طلبة الجمعية في القاهرة، ومن قيادات البعثة الجزائرية الحرة التي انفصلت عن بعثة الجمعية والتفت حول بن بله في بداية الثورة، وكنا نسكن معا في الظاهر مع الأخ عبد الحميد بو وذن، وشارك في مجمل النشاطات الطلابية قبل اندلاع الثورة وبعده وكنت أسميه المُنظم لأنه كان يتولى تنظيم اللقاءات الطلابية، ووضع نفسه في 1955 تحت تصرف المكتب العسكري الذي كان يتولاه الدكتور التيجيني الهدام، وتلقى تدريبات عسكرية في عدد من المراكز المصرية من بينها أنشاص ثم التحق بجيش التحرير الوطني وحدثت مجموعة من الأحداث لا أملك معلومات وافية عنها، وحوكم وأعدم ولم يعثر (آنذاك) على رفاته ولكنها وجدت بعد ذلك، ودفنت، كما قال لي الوزير خوذري وهو من أقاربه، في غاسيرة، وأكد لي أن رفيقنا عبد الكريم عباس أعدم أيضا في الناحية الشرقية، وبالتالي فإن الشهيدين هما من المُعربين الذين تمت تصفيتهم في ظروف غير واضحة، ربطها البعض بتداعيات مؤتمر الصومام الذي كان نقلة نوعية في الثورة الجزائرية ولكن كثيرين ما زالوا على يقين من أنه لم يحقق الإجماع نظرا لما بدا من سيطرة للاتجاه الفرانكوفوني العلماني، وكان الذي كتب برامجه وتوصياته المرحوم عمار أوزغان وهو شيوعي معروف بإشراف من الشهيد عبان رمضان.

وكان من نتيجة الصراع بين التيار القومي بقيادة عبد الناصر والتيار الديني الذي كانت تدعمه المملكة العربية السعودية (حيث لجأ كثيرون من المشارقة ممن اختلفوا مع نظم بلدانهم القومية) أن تأثرت العلاقات الآنية والمستقبلية بين قيادة جبهة التحرير الوطني المتحالفة مع عبد الناصر وقيادة التيار الديني الذي كان يرفع لواءه آنذاك البشير الإبراهيمي والفضيل الورتلاني.

وكان المشكل الحقيقي أن النفور تواصل بعد استرجاع الاستقلال، وبعد شهر عسل قصير ألقى خلاله الشيخ الإبراهيمي واحدة من أروع خطبه بمناسبة افتتاح مسجد كيتشاوة في 1963، وحدث الطلاق بين الاتجاهين بالبيان الذي أصدره الشيخ البشير في 1964 ضد سياسة الرئيس الأسبق أحمد بن بله، وقيل أن وراءه الشيخ خير الدين والشيخ العباس والشيخ عبد اللطيف سلطاني، رحمهم الله (ويُقال أن تولي الشيخ أحمد توفيق المدني وزارة الأوقاف كان وراء غضب الشيخ سلطاني على وجه التحديد، لأنه كان يُريد المنصب لنفسه) وكانت النتيجة تحديد إقامة الشيخ البشير إلى أن توفاه الله، وسجل بو مدين تحديه لأحمد بن بله بأن سار في جنازته وبجواره الدكتور أحمد طالب.

▪ ▪ •

قامت الثورة الجزائرية مع حصولي على البكالوريا العلمية وبتقدير جيد، وحُولتُ للدراسة في جامعة الإسكندرية فيما يُسمى السنة الإعدادية التي تدرس في كلية العلوم، وساهمتُ في نشاط الأسر الجامعية ونشطت الكثير من حفلاتها، ولكن فكري ظل مشدودا إلى القاهرة حيث تركت بقية الزملاء في البعثة الحرة، وعرفت عند ذهابي إلى القاهرة في إحدى العطلات أن الزملاء يلتحقون تباعا بجيش التحرير الوطني، وطلبت من الزميل عبد الحميد بو وذن أن يُحدد لي موعدا مع بن بله وهو ما حدث في مقهى الأمريكيين بشارع طلعت حرب (سليمان باشا سابقا)، لكن الرئيس الأسبق، عندما عرف أنني أدرس الطب،

نصحني بألا أتسرع، وقال إن الجيش في حاجة إلى أطباء وليس في حاجة لجنود، لكنني لم أقتنع وأنا أرى الزملاء يسافرون مجموعة إثر مجموعة[16].

والتقيت في القاهرة واحدا من أبناء جيش التحرير مع عدد من رفقائه أرسلوا للالتحاق بالكليات العسكرية وهو الأخ (اللواء فيما بعد) محمد علاّق الذي حاول أن يقنعني بالاستمرار في الدراسة، وكرر لي تقريبا ما كنت سمعته من الأخ (الرئيس الأسبق) أحمد بن بله، لكنني لم أقتنع، وكانت ملحمة جميلة بو حيرد من أهم أسباب تمسكي بالانقطاع عن الدراسة والالتحاق بجيش التحرير.

....

كان من أول المنضمين إلى الثورة، فيما أعرف، محمد بو خروبة الذي غادر مصر على متن اليخت "دينا" [17]، وقاسم زيدور، طالب الآداب بالقاهرة الذي سبقه إلى الدخول بأسلوب لا أعرفه، وكان من أول شهداء الطلبة من مجموعة المشرق العربي كله، وربما نجد هنا السبب في أن طلبة المشرق الذين يعتزون بيوم 19 مايو (الذي شهد الإضراب الطلابي الجزائري في عام 1956) يرفضون الاعتراف به كيوم للطالب لأنه يحمل شبهة تأخر الطلبة عن الالتحاق بالكفاح المسلح نحو سنتين، في حين أن الطلبة كانوا في طليعة الكفاح.

وهناك من يرى أن لهذا دخل بالجدل الذي ثار حول خلفيات ووقائع الإضراب كما سبق أن قلت، وهل كان ذاتيا أم بتوجيه من قيادة الجبهة، ومن الشهيد عبان رمضان على وجه التحديد، أو بالاستنتاجات التي ترتبت عن ذلك القول والتي ادعت بأن الإضراب مكن طلبة المدارس الفرنسية من الإمساك بعنان العمل السياسي والدبلوماسي بينما ترك العمل العسكري لمن بدعوا القيام

---

16 – أذكر بأنني أكتفي بوضع علامات على الطريق التي أسير عليها للوصول إلى مراحل لم أتحدث عنها من قبل، أما تفاصيل هذه المراحل فقد ضمها أكثر من كتاب، من أهمها : "التجربة والجذور و "نظرة في مرآة عاكسة"

17 – كان يقول لي ضاحكا "لعلي الوحيد الذي انضم إلى الثورة على متن يخت ملكي"، وكان اليخت بالفعل مملوكا للملكة دينا ملكة الأردن الأولى.

به في مطلع الثورة، ومعظمهم من طلبة المدارس الدينية وأبناء جمعية العلماء والزوايا وبعض المدارس المزدوجة، وهي مقولة يصب في تيارها اختيار أعضاء الوفد الجزائري في مباحثات إيفيان بعد ذلك، ولم يكن من بينهم مُعرّب واحد، حتى من وزراء الحكومة المؤقتة مثل أحمد توفيق المدني وعبد الحميد مهري أو من الطلبة الذين ارتبطوا بالعمل الدبلوماسي مثل بن قاسي والمنور مروش في القاهرة أو عبد الله شريط ومحمد الميلي في تونس وغيرهم، وأتصور أن هذا من بين النقاط التي يتوجب على المؤرخين دراستها وتحليلها، بدون أن يكون الهدف تنديدا بهذا أو انتقادا لذاك، لكن الأمانة أساس لعذرية التاريخ.

وبين عام 1955 و 1956 تحركت المجموعة الثانية من طلبة البعثة الحرة للانضمام للثورة المسلحة، ومن بينهم الشهيد محمد الطاهر زعروري وسعد الدين نويوات ومحمد الهادي حمدادو ورشيد النجار والمدني حواس وعبد الحميد بو وذن وعبد الكريم عباس(الذي استشهد فيما بعد) وزرقان، وكذلك الأخ محمد صباغ من خارج البعثة، وذلك بعد فترة تدريبية في المعسكرات المصرية، كما يشهد في الوقت نفسه إعداد طلبة القاهرة لمجموعة كشفية من ثلاثة أشخاص للمشاركة في المعسكر الكشفي العربي الثاني في الإسكندرية، بعد أن رفضت السلطات الفرنسية التصريح بسفر وفد كشفي من الجزائر، وكان الطلبة هم أحمد ذراعو وعبد القادر بن قاسي وكاتب هذه السطور، الذي تولى قيادة المجموعة وحمل علمها في الاستعراض الافتتاحي، وقابل باسمها الرئيس جمال عبد الناصر في اليوم التالي مباشرة لتأميم قناة السويس.

ورُفع العلم الجزائري رسميا على المعسكر بعد تعقيدات أمكن حلها بمزيج من المناورات والمضاربات، حيث كان رأي قائد المعسكر أن الجزائر لم تصبح بعد دولة، وهكذا حرضنا ضده قيادات كشفية هددت بالإضراب عشية زيارة عبد الناصر للمعسكر، وكان هذا كافيا لإصابة القائد عزيز بكير بالذعر، وما زلت أحتفظ بذلك العلم إلى يومنا هذا.



المرحوم الأستاذ أحمد
توفيق المدني وأمامه
ثلاثي الكشافة في
الاسكندرية يوليو 1956



البعثة الجزائرية الحرة – إلى اليمين بالبيجاما الشهيد محمد الطاهر زعرور

وتوالت الأحداث، فقد أوقفت السلطات الفرنسية في منتصف أكتوبر السفينة "آتوس" وهي تحمل الأسلحة من مصر إلى الجزائر، واعتقل بحارتها ومن بينهم الزميلان حمدادو وصباغ، ثم حولتْ فرنسا يوم 22 أكتوبر الطائرة المغربية التي كانت تقل زعماء جبهة التحرير الأربعة وهم في طريقهم من المغرب إلى تونس (وكان الزعماء أربعة والركاب خمسة لكن أحدا لم يتوقف آنذاك عند العدد، وتغنت الأناشيد بالأحرار الخمسة) وسمعنا الكثير فيما بعد عن تواطؤات ومؤامرات وراء الأمر.

وفي 29 أكتوبر حدث الغزو الثلاثي لمصر، وكان مفاجئا لدرجة أن أولى الطلعات الجوية على القاهرة كانت في نفس اللحظات التي كنت أتلقى فيها من نائب الرئيس المصري حسين الشافعي رحمه الله درع مشاركة الوفد الجزائري في معسكر أبي قير الكشفي، وهو الدرع الذي احتفظت به نحو أربعين عاما ثم سلمته رسميا لقيادة الكشافة الإسلامية، ولم أتلق إلى يومنا هذا إيصالا بالاستلام.

وينضم جل الطلبة الجزائريين إلى الحرس الوطني المصري إثر العدوان الثلاثي، وكانت مساهمتهم بشكل عام مساهمة رمزية، تزامنت مع تشديد الكفاح الجزائري في الداخل لتؤكد الإيمان بوحدة المصير، واستفاد جلّ الطلبة من تدريب عسكري كان عونا لكثير منهم فيما بعد.

ويشهد عام 1957 التحاق المجموعة الثالثة من طلبة القاهرة بجيش التحرير الوطني، وتم توزيع المجموعة إلى فريقين وكان نصيبي أن أُرسلتُ إلى منطقة جنوب الصحراء الجزائرية للمساهمة في تحقيق حلم كبير هو خلق بؤرة توتر في أقصى الجنوب الجزائري ثم التحرك منها نحو عين صالح في الشمال، ووجدت أمامي هناك شباب الضفادع البشرية الذين كان بن بله قد أعدهم للقيام بهجومات في بحور الشمال، لكن القيادة الجديدة أرسلتهم إلى بحور الرمال.

وكان الحلم الكبير وهما أكبر، ولكنه ترك بصمات على مسيرة النضال.

وانتهت مرحليا فترة الكفاح الطلابي بالنسبة لنا لتبدأ فترة الكفاح العسكري والسياسي، لكن آثار الماضي ظلت حية في النفوس تترجمها المواقف والتحالفات.

* * *

كنت من أفراد المجموعة الثالثة التي التحقت بجيش التحرير الوطني بعد أن انقطعت عن الدراسة، وهكذا عشت الغربة الثانية وكانت غربة نضالية، فقد كنا جميعا غرباء بالنسبة لقيادة المجموعة، ولبعض عناصرها ممن كانوا يهزءون منا ويسموننا "لي كيروط" (أي جماعة القاهرة)[18].

وكان قائد المجموعة الكومندان إيدير يتعامل معنا باستعلاء واضح، وقال لنا واحد ممن التقيناهم، وكان شبه أمي بتعالٍ غريب: "جئتم اليوم بعد أن أحسستم بأن الاستقلال على الأبواب" (في 1957 !).

لكن جماعتنا تمكنت بحمد الله من إثبات وجودها وإبراز رجولة أفرادها، وخلقت صداقات دائمة لمجرد أن رفقة السلاح هي قاعدة أمتن العلاقات، وكان من الرفقاء الأخوة محمد مفتاحي (الذي توفي في زلزال الأصنام عام 1980) ومحمد طالب وحمودي والشايب وحسين صحابي[19] (الذي استشهد فيما بعد) وإدريس حاجب وأحمد ذراعو ومنور مروش، وكان هناك أيضا من المُجاهدين القدامى علي سواعي ومصطفى الأكحل ونور العموري رحمهم الله، وميلود عينوز والدكتور بن عثمان والدكتور العربي بن وطبيب الأسنان أوشارف

---

18 - تم تجنيدنا على يد العقيد عمر أو عمران في القاهرة، الذي اختار من بيننا، ربما على أسس ارتآها، عددا أرسله إلى الكلية العسكرية في دمشق، أما نحن فقد وضعنا كجنود تحت إمرة الرائد (أو الكومندان .كما كان يحب أن يسمى) إيدير، الذي كان فرّ من صفوف الجيش الفرنسي منذ شهور معدودة.

19 - كان صحابي بسيطا جدا وكنت أعابثه أحيانا مما كان يثير ضحك مجموعتنا، وقلت له مرة بأن الطائرة التي تحلق فوقنا هي طائرة تصوير وليست طائرة قنبلة فخرج من مخبئه وراح يصلح من شأنه ملابسه لتكون صورته لائقة، وكانت نكتة بالطبع يذكرني بها المجاهد الأخ الشايب حتى يومنا هذا.

ومعاوية، وكذلك مجموعة الضفادع البشرية، ومنهم من قضى ومنهم من ينتظر.

وتعرفنا هناك بالشيخ محمد الصالح الصديق الذي كان يتحفنا بأحاديثه الدينية.

وقنبلت الطائرات الفرنسية خلال هذه المرحلة موقع "إيسيين" الليبي، ظنا منها أنه يؤوي عناصر من مجموعتنا كانت قد هاجمت قافلة فرنسية تنقل التموين من غات الليبية إلى جانيت الجزائرية، وحرص الأشقاء فيما بعد على تمجيد الحدث بطريقة ساقية سيدي يوسف التونسية.

ثم اختتمت مرحلة الصحراء بما يُشبه الإجهاض بعد ذلك، وحُولنا جميعا إلى الولاية الأولى حيث التقينا بالعقيد العموري رحمه الله ومعه الأخوين محمد ملوح وعلي شكري رحمه الله.

وكانت تلك غربة ثانية.

• • •

وكانت الغربة الثالثة غربة عائلية وعلمية.

فقد عدت إلى القاهرة في ظروف معقدة اختلط فيها الأمر على العقيد عمران رحمه الله فحسبني من مجموعة الضفادع البشرية، ولم يستطع العقيد بن عودة أن يتخذ قرارا قد يكون ضد إرادة عمران، وقد لستعرضُ ذلك بالتفصيل يوما، لكن المُهم هو أنني أكملت دراستي في القاهرة في 1963 وحصلت على شهادتي الطبية من جامعة عين شمس وعدت إلى الجزائر، وكانت العائلة تقطن دائما في مدينة عنابة، على بعد نحو 600 كم شرق العاصمة، التي لم أكن أعرف فيها أحدا على الإطلاق، وتزايدت غربتي عندما رفضت السلطات الطبية اعتماد شهادتي الطبية، حيث كانت الشهادات غير الفرنسية ترفض آليا بحجة عدم وجود معادلات لها، وقيل لي في عنابة أن المستشفى محجوز للأطباء الألمان الذين لا يشركون معهم جزائريين.


على الحدود الليبية الجزائرية – أغسطس 1957


مجموعة القاهرة مع بعض الضفادع البشرية في الولاية الأولى 1958

وأتذكر هنا أن الدكتور علواش، الذي كان مديرا للصحة الجهوية في العاصمة، قال لي بتعالٍ مفتعل ورصانة لا تقل افتعالا بأنه لا يُمكن قبول طبيب يحمل الباكالوريا وحدها، وحاولت إفهامه بأن كل الدبلومات الجامعية الأدبية في المشرق تسمى "ليسانس" بينما تسمى الديبلومات الجامعية العلمية "باكالوريوس"، وقدمت له ضمن ملفي شهادات بالعربية وبالفرنسية وبالانغليزية تثبت عدد سنوات الدراسة والمواد التي تمت دراستها، وكلها لا تقل إن لم تزد عمّا يُقدم في الجامعات الفرنسية.

وحاولت أن أستعين آنذاك، وباقتراح من الأخ رشيد النجار رحمه الله، بالأستاذ عبد المجيد مزيان رحمه الله، المستشار في ديوان الرئيس بن بله، وسمعت كلاما طيبا، وتمكنت من لقاء وزير الصحة الدكتور النقاش، الذي استقبلني في مكتبه بقصر الحكومة بدون قميص وبفانلة صيفية بيضاء لا تنسى.

واقترح عليّ الدكتور علواش، لحلّ المشكلة، أن يُنظم لي امتحان صوري بجامعة الجزائر أعطى إثره الدبلوم الطبي الجزائري، ولم أعرف ما إذا كان ذلك فخا أم حلا، ورفضت بالطبع لأنني رأيت في الأمر سابقة ستجني على كل من سوف يدرسون الطب في المشرق العربي، بالإضافة إلى أن مجرد القبول يعني اعترافي بأن دبلوم القاهرة ذا مستوى أقل.

وعثرت على أحد الأطباء المصريين من زملاء جامعة عين شمس، كان يعمل في مستشفى مصطفى الجامعي وهو الدكتور إبراهيم خضير، فاستضافني في المسكن الذي كان يقيم به داخل المستشفي (في الدور الثاني من قسم الجراحة الذي يحمل اليوم اسم المرحوم البشير منتوري) وكان ذلك بعد أن نضب القدر المحدود من المال الذي كان يُمكنني من المبيت في فندق "ريجينا" بشارع مصطفى بن بولعيد، وهو شارع ضئيل خلف الولاية، يتناقض مع قامة بن بو العيد النضالية العظيمة.

وتذكرت في لحظة عابرة أن على رأس الجيش رجل كان من طلبة القاهرة، فاتجهت فورا إلى مقر وزارة الدفاع القديمة (الأمانة العامة لرئاسة الحكومة حاليا) في شارع سويداني بوجمعة، حيث استقبلني قائد البحرية محمد بن موسى رحمه الله ومعه عبد الله دباغ، وهو واحد من الضفادع البشرية، الذي ذهب معي إلى الدكتور محمد أمير، مدير الخدمات الطبية في الجيش الوطني الشعبي، وأتصور بأنه أبلغ وزير الدفاع العقيد هواري بومدين بطلبي.

والذي حدث هو أنني بدأت العمل كطبيب للبحرية بعد أيام، وعلى وجه التحديد في 15 نوفمبر 1963[20]، واخترت هذا السلاح لأنه سلاح ناشئ ولأنني أعرف من رجاله كثيرين من بينهم قدامى الضفادع البشرية وضباط البحرية من خريجي الإسكندرية ومن بينهم شعبان غضبان، وكان هناك طبيب مصري منتدب من البحرية المصرية.


فحص أحد البحارة الأميرالية 1964.

20 – في سنة 1963 كنت أختتم سنة التدريب العملي في مستشفى الدمرداش بالقاهرة عندما وصل العقيد بو مدين إلى القاهرة في زيارة رسمية على رأس وفد من وزارة الدفاع الوطني، وكنت من بين الشباب الذين استقبلوا الوفد حيث التقيت عددا من الضباط ممن كنت أعرفهم، ولم أكن رأيت بو مدين منذ 1955، ولست أدري كيف لحقت به وهو يصعد إلى غرفته في مقر إقامته بقصر الطاهرة وقلت له وأنا على بعد عدة أمتار ... "مساء الخير يا سي بو مدين"، وتوقف لحظات فوق السلم ليلتفت نحوي ثم يقول لي ببساطة، وباستعمال اسمي الذي كان واضحا أنه لم ينسه : "أهلا محي الدين، واش راك ؟" ونزل الدرجات الثلاث ليصافحني وتحدثنا حديثا قصيرا لخصت له فيه مسيرتي منذ 1955، وظللت أذكر للرئيس الراحل أنه تذكر اسمي بعد كل تلك السنوات.



محافظا سياسيا للبحرية الجزائرية.



احتفال في الأميرالية بحضور العقيد بومدين وعلى يمينه الطاهر زبيري.
عميمور واقفا إلى اليسار



في ميناء الأميرالية واختير موقع المصور لتكون القدم فوق مستوى فرقاطة فرنسية.

المحافظ السياسي للبحرية
يخطب في الجنود في الاحتفال
بالخامس يوليو 1965.

طبيبا في البحرية

وواصلت البحث عن زملاء القاهرة، وكان أول من التقيته بو زيان التلمساني ومحمد الهادي حمدادو ورشيد النجار ثم المدني حواس بعد ذلك، وبدأت شيئا فشيئا في محاولة خلق رابطة جديدة، تواجه غربة أخرى كان كل منا يحس بها وهي الغربة اللغوية، إذ كانت كل الإدارات تقريبا تعمل بالفرنسية، وكل المصالح يُسيرها الطلقاء وبقايا الإدارة الفرنسية، أما المجاهدين فتجدهم غالبا كسعاة أو سائقين أو حجاب[21].

كانت حصيلتي من اللغة الفرنسية محدودة جدا ولغتي العربية متأثرة باللهجة المشرقية، التي أصبحت تستثير عداء كثيرين بعد الاستقبال الهائل الذي حظي به الرئيس جمال عبد الناصر في الجزائر، والذي كان نقطة انطلاق العداء الواضح لكل ما هو عربي، ومشرقي على وجه التحديد [22].

وكانت الغربة في تلك المرحلة التي بدأت فيها عملي كطبيب للبحرية الجزائرية تتلازم أيضا مع غربة علمية أكثر خطورة وتأثيرا، إذ وجدت نفسي معزولا عن المراجع الطبية باللغة الانجليزية، وبعيدا عن الأساتذة الذين يمكن

---

21 - في بدايات وجودي في العاصمة التي لم أكن أعرفها قبل استرجاع الاستقلال حاولت الاتصال برفقاء القاهرة فذهبت إلى جريدة الشعب التي كان يديرها أحد طلبة القاهرة السابقين، وكنت أرسلت له مقالات من القاهرة لم ينشرها، ولم أتمكن من لقائه، إذ طلب من الساعي إبلاغي بأنه مشغول، وكان هو نفس الطالب الذي ذهب، من منطلق تضامن جهوي، إلى مطار القاهرة لاستقبال الرئيس الأسبق أحمد بن بله عند زيارته الأولى للعاصمة المصرية بعد إطلاق سراحه، وقبل توليه مسؤولياته، وأشار الرئيس علي كافي لتفاصيل هذه القضية في كتابه الذي يصور أحداث تلك المرحلة، التي تناولت بعض تفاصيلها في "نظرة في مرآة عاكسة".

وكان الوحيد الذي استقبلني يومها في الإذاعة هو الأخ نور عبد القادر، بعد أن أساء استقبالي آخر كان يعمل كخطاط في التلفزة ثم أصبح مكلفا بالأرصاد الجوية، إذ قال لي حرفيا بتعال غريب : "نعرفكم أنتم جماعة القاهرة"، ولكنه حاول التقرب مني فيما بعد لصداقة كانت بيني وبين زميلنا القديم أخيه عيسى، الذي زارني فيما بعد بمكتبي في الرئاسة وقمت بتقديمه للرئيس بو مدين، الذي كان يعطف على الرفاق القدامى ويسأل عنهم.

22 - قال لي الأخ أحمد بودربة في القاهرة، التي كان قد زارها في إطار الاستعداد لمؤتمر طبي يُعقد في الجزائر، تعلم الفرنسية جيدا، لو تحدثت في الجزائر بالعربية هكذا لاحتقروك، ولم أنس أبدا هذا التعبير، وتذكرته بسرور بالغ بعد ذلك بسنوات عندما كان بو دربة واليا في عنابة، وكان يجلس بجانبي في مأدبة عشاء أقامها على شرف الرئيس بو مدين، ولا يكف عن سؤالي عن معاني مُعينة كان يُريد معرفتها بالعربية، إحساسا منه أن هذا يُدخل السرور على قلب الرئيس.

أن أتلقى منهم التوجيهات العلمية، ومحروما من زملاء أجد لديهم روح الأسرة الجامعية الواحدة، ويُمكن أن ألجأ لهم بحثا عن تشجيع معنوي أو زاد علمي أو معلومة تثري ما عرفته خلال مرحلة الدراسة.

ووضعت كل ثقلي لإثراء رصيدي من الفرنسية وبجهد شخصي، مكنني من خلق صداقات مع بعض عناصر الوسط الطبي، لكنني لم أتوقف كثيرا عند قضية اللهجة المشرقية التي لم أجعل منها، ما كان ينتظره البعض، عقدة نقص تضاعف من شعوري بالغربة وتطمئن القلقين من طموحي.

وكانت هناك وضعيات غربة فرعية كتلك التي واجهتها وأنا أقيم إدارة الخدمات الطبية في البحرية بدون خبرة إدارية عملية، وفي مواجهة العديد من العراقيل من بعض الضباط الذين كانت تزعجهم الثقة التي أحظى بها من القيادة، أو عندما قمت بتكوين المحافظة السياسية معتمدا على الروح الوطنية والحس السليم وما أتيح لي عبر مسيرة الحياة من ثقافة عامة، وكتبت، بالخط الكوفي، عبارة "البحرية الجزائرية" على مشروع قبعة الجنود، ومازالت الكلمتان إلى يومنا هذا على مقدمة القبعات.

وكانت البحرية الوطنية مجالا تنفستُ فيه كل طاقاتي للعمل، فقمت بتعريب الوثائق الطبية على غير إرادة مديرية الصحة العسكرية التي كانت تريد توحيد كل الوثائق (وكانت بالطبع على حق ولكن المشكل كان في قصُر العملية على الفرنسية وحدها وهو ما رفضته وطبقت مبدأ الازدواجية) وقمت في الوقت نفسه بتعريب لوحات المرور في الشوارع الداخلية بمقر الأميرالية (ولقد وجدت بعض اللوحات بعد سنوات وسنوات على حالها كما تركتها)

وبعد عدة شهور قضيتها في ضيافة الدكتور إبراهيم خضير أصبحت لي شقة في شارع أول نوفمبر تحولت شيئا فشيئا إلى شبه نادي تلتقي فيه مجموعة من رفقاء السلاح آنذاك ومن بينهم أساسا علي تونسي وخالد نزار ومحمد تواتي وعبد الرحيم ستوتي، وكان نادي الكورنيش نقطة لقائنا.



في نادي الكورنيش للضباط مع محمد الصالح يحياوي وخالد نزار والأكحل عياط



سهرة في الكورنيش مع علي تونسي (الغوثي) وعبد الرحيم ستوتي

وكنا نلتقي في نادي الضباط بالكورنيش إثر انتهاء كل منا من أداء واجباته في موقع عمله، وينضم إلينا أحيانا آخرون من رتب مختلفة كان من بينهم العقيد محمد الصالح يحياوي الذي عاد إلى الجيش بعد 19 جوان، وكان له فضل كبير بعد ذلك في حصولي على تصريح العيادة الطبية.

وبدأتُ كتاباتي في مجلة الجيش حيث كنت أعد ملفا طبيا باللغة العربية يحمل توقيعي الكامل، وأضيف إلى ذلك مقالا شهريا يحمل عنوان انطباعات، كنت أذيله بالتوقيع الرمزي (م..دين) وشاركت في العديد من النشاطات التي تجاوزت مهامي الطبية ومن بينها مرافقة الملازمين مسعود بزة وشربال رحمهما الله في أحد أيام 1964 لتسلم مبنى الأميرالية من الضابط الفرنسي الذي كلف بذلك.[23]

وكان من أهم ما شاركت فيه آنذاك هو وجودي في إطار لجنة التحقيق التي مثلت الجانب الجزائري في قضية انفجار الباخرة المصرية "نجمة الإسكندرية" في عنابة خلال شهر يوليو 1964.[24]

وقمت بتنظيم حفلات سينيمائية في الهواء الطلق اعتمادا على شاحنة بث الأفلام التابعة لوزارة الإرشاد القومي، آنذاك، وكنت أقترض الأفلام العربية من مركز الإعلام المصري، وكان من الأفلام التي قمت بعرضها في الديكور العربي الرائع للأميرالية فيلم الناصر صلاح الدين، حضره وزير الدفاع العقيد هواري بومدين، وتحمل واحدة من خطبي كمحافظ سياسي للبحرية.

---

23 - رغم أهمية الحدث التاريخي فقد رفض قائد البحرية تسلم القاعدة لأن الضابط الفرنسي ليس هو زميله قائد البحرية الفرنسية، ولتصور أنه تلقى تعليمات بذلك من وزير الدفاع، وهذا يُعطي صورة عن إحترام البروتوكول الذي يفرضه منطق الدولة.

24 - كنت تحدثت بالتفصيل عن القضية في كتابي "أيام مع الرئيس بو مدين" (موفم) وأهم عناصرها هي أن سفينة مصرية تحمل أسلحة قديمة كانت مخزونة في مصر انفجرت في ميناء عنابة مخلفة خسائر كبيرة، وعرف أن هناك محاولات غامضة جرت لتكون الباخرة أمام مدينة الجزائر يوم انفجارها الذي تزامن مع انفجارات أخرى، وكان يمكن أن يحدث انفجارها نتائج كارثية على قلب العاصمة، وبالذات منطقة القصبة، ولفت النظر أن تاريخ الانفجار كان يوم الاحتفال بالثورة المصرية، وكان التصور أن الانفجار يندرج في إطار تخريب العلاقات الجزائرية المصرية.

ونظمت أول حملة دعاية للبحرية عبر لقطات سينيمائية في الجريدة الناطقة وكذلك بعض الصحف، وأذكر من بينها عنوانا على غلاف صحيفة الجزائر الأحداث تحت صورة لضابط البحرية أوعلي يقول " Cet officier d'allure britannique est algérien

وليس سرّا أن أقول أن ذلك النشاط كان يجد تشجيعا من قائد البحرية (ولا أعرف هل كان لوزير الدفاع دور في ذلك أم لا) ولكن بن موسى كان يقول لي أنه يعتز بكفاءتي، وإلى الدرجة التي جعلته يكلفني بإعطاء زوجه دروسا بالإنغليزية.

لكن هذا ارتبط بالعيب الأكبر الذي لم أنجح في التخلص منه وهو ارتباطي بالولاء الرأسي ورفض أي تحالفات أفقية قد تخل بذلك الولاء، وهكذا، وبمجرد غياب قائد البحرية في بعثة دراسية مطولة بالاتحاد السوفيتي، بدأت المضايقات من قيادتي المباشرة التي كان يقمعها القائد الغائب، وربما كان من أسباب المضايقات التي سمعتها من أحد الضباط أن مرتبي كطبيب كان أعلى من مرتبه.

لكنني وجدت دعما كبيرا من النقيب رشيد بن يلس الذي تولى القيادة بعد بن موسى كما وجدت تعاطفا من عدد من الضباط ما زلت أذكر منهم الملازم (اللواء فيما بعد) شعبان غضبان.

وواجهت المضايقات التي تزامنت معها مضايقات كثيرة تلقيتها من مدير الخدمات الطبية آنذاك، والذي كان يُفضل التعامل مع الممرضين متعاليا على الأطباء، ولم يكن هناك في الجيش كثيرون آنذاك، فقد كان هو وأنا والصيدلي زهير العيادي رحمه الله في صيدلية البليدة، وكان هناك بشكل جزئي في البداية الدكتور زرداني رحمه الله، ثم انضم آخرون، ولكنني كنت أول أطباء البحرية الجزائريين.



الرئيس بن بلة يستمع إلى شرح عميمور بعد انفجار نجمة الاسكندرية
إلى اليسار العقيد بومدين



الرئيس يعطي تعليمات لوالي عنابة عبد الحميد ابراهيمي وعميمور إلى يمينه

وكان من أهم أسباب النفور بيننا قضية الرتب العسكرية، فقد كان هو نقيبا وبالتالي فلم يكن يسمح بوجود نقيب آخر، ورفضت أنا رتبة الملازم لأنني كنت أرى نفسي من السابقين، وطلع علينا باقتراح رتبة "طبيب ضابط" ورفضت بالطبع.

وصبرت على كل المضايقات حتى منتصف الستينيات، عندما صدر قرار رئاسي بفتح العيادات الخاصة، فقررت الخروج من الإطار العسكري بعد أن عملت شهورا في قيادة منطقة العاصمة، وقدمت استقالتي من مديرية الصحة العسكرية، وسعدت برسالة تقدير تلقيتها من الرائد عبد الرحمن بن سالم، الذي كنت عملت تحت إمرته في الشهور الأخيرة التي قضيتها في الجيش.

ووجدت أمامي الدكتور علواش مرة ثانية وكان قد أصبح أمينا عامّا للوزارة، وتشنج تماما في قضية إعطائي التصريح بفتح العيادة.

واضطررت أن ألجأ إلى عدة تدخلات على مستويات عالية كان أهمها تدخلات من العقيد عباس مدير الأكاديمية العسكرية بشرشال، الذي عرف بالمشكل عن طريق أحد أقربائه الأخ محمد برغام، وكذلك من الأخ يحياوي، وأثمرت الضغوط على الدكتور التيجاني هدام وزير الصحة، لكنني وجدت الدكتور علواش مرة ثالثة أمامي، حيث كان هو الذي يتولى تنفيذ تعليمات الوزير، وهكذا حصلت على التصريح بفتح العيادة ولكنه نصّ على أنه لا يُسمح لي بالحصول على عيادة في إطار الأملاك الشاغرة كبقية الأطباء الذين تخرجوا من غير المنطقة العربية، وكان هذا انتقاما واضحا من الأمين العام ويمثل الجو العام في مستوى الوظيف العمومي الذي يُسيطر عليه أبناء الفكر الفرانكوفيلي.

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

MINISTERE DE LA DEFENSE NATIONALE

QUARTIER GENERAL

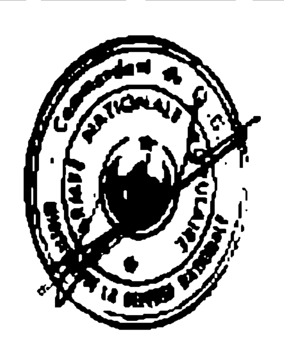
N° [illegible]/Q.G.

Alger, le 6 Novembre 1965

ATTESTATION de RECONNAISSANCE

A l'occasion du Départ du Docteur AMIMOUR Mohieddine, Médecin Chef de la Place d'Alger, qui quitte sa fonction pour recevoir une nouvelle affectation, le Commandant BENSALEM Abderrahmane, Commandant du Quartier Général du Ministère de la Défense Nationale et les unités de la Place d'Alger, lui exprime ses regrets et sa profonde satisfaction pour la bonne marche du service sanitaire et la bonne organisation entreprise, durant la période du mois d'Août 1965 au 31 Octobre 1965 à l'Infirmerie de Garnison.

LE COMMANDANT BENSALEM Abderrahmane



تحية تقدير من الرائد عبد الرحمن بن سالم للدكتور محي الدين عميمور بمناسبة انتهاء مهامه.

MINISTERE DE LA SANTE PUBLIQUE

REPUBLIQUE ALGERIENNE DEMOCRATIQUE ET POPULAIRE

Le Ministre

DIRECTION DE LA SANTE PUBLIQUE

Sous-Direction de la Santé

N° 7 [illegible]/SDS/2. AB.-

ALGER, le 3 JANVIER 1966

— DECISION —

LE MINISTRE DE LA SANTE PUBLIQUE ET DE LA POPULATION,

VU le diplôme de Médecin et de chirurgie (M.B.B.CH.) de l'Université de AIN CHAMS (Egypte) délivré le 31.8.63 à Monsieur le Docteur ALIMOUR Mohieddine EL-HILLALI.

VU que l'intéressé a servi au titre du service civil du 1/11/1963 au 31/10/1965, en qualité de Médecin de l'Armée Nationale Populaire à ALGER.

VU la demande de l'intéressé en date du 5/11/1965.

LE MINISTRE DE LA SANTE PUBLIQUE ET DE LA POPULATION,

- DECIDE -

ARTICLE 1er.- Monsieur le Docteur [illegible] Mohieddine EL-HILLALI est autorisé à s'installer à titre privé à ALGER.

ARTICLE 2.- Cependant aucune jouissance de cabinet médical " Bien Vacant" ne peut lui être attribuée.

P. Le Ministre de la Santé Publique

Signé: Dr. [illegible]

التصريح بفتح عيادة طبية مع الحرمان من الحق
في استعمال عيادة شاغرة مما هجره الفرنسيون



العقيد عباس



الوالد في حفل ديبلوماسي

واضطررت إلى فتح العيادة في الشقة التي كنت أقطنها في أول نوفمبر، وكانت شهورها الأولى معاناة حقيقية لطبيب شاب محدود الخبرة في مواجهة أطباء يملكون العمق المهني بفضل صلاتهم بالمستشفيات وارتباطهم ببعضهم البعض.

لكنني تمكنت بفضل الله من مواجهة التحدي، وأصبحت عيادتي، وبعد سنوات من المعاناة التي تناقصت شيئا فشيئا، من أكثر العيادات نجاحا في العاصمة الجزائرية، ووضعت بصماتي على أسلوب تعاملي فكانت تذاكر الأدوية هي الأولى التي تتوج بسم الله الرحمن الرحيم ويكتب الاسم باللغتين.

وأعددت ملفا لكل مريض أستقبله، وكان هذا قليل الحدوث في السنة الأولى، فقد كنت أنتظر أياما وأياما قبل أن يطرق بابي مريض، بمن فيهم بعض (أقول...بعض) الزملاء من طلبتنا السابقين في الوطن العربي، الذين لم يبدءوا في دخول عيادتي إلا عندما رأوا بعض الأجانب يترددون عليها، وبدأ الجمهور يتعرف شيئا فشيئا على "الطبيب العربي اللي يده مليحة"، وكان هذا من توفيق الله [25].

وربما ساهم في تزايد نشاط العيادة وجود عدد كبير من المدرسين القادمين من مختلف مناطق الوطن العربي وخصوصا من مصر، وحدثت هنا نادرة غريبة أعتقد أن علي أن أشير لها.

فقد واصلت كتاباتي في مجلة المجاهد بعد مجلة الجيش وكانت المرحلة التي يجتازها الوطن العربي بالغة الحساسية، خصوصا بعد هزيمة جوان 1967، وأعترف أن بعض مقالاتي، والتي كنت أوقعها دائما بالرمز م..دين، كانت تحمل نقدا مريرا لممارسات القيادة المصرية آنذاك، وهو ما دفع بعض مسؤولي

---

25 – أقام الوزير المنتدب للدفاع اللواء عبد الملك قنايزية أول أمس (5 يوليو 2007) حفلا على شرف قدامى الجيش بمناسبة عيد الاستقلال في نادي الضباط الجديد، وجاءني شيخ من المدعوين ليسألني عمّا إذا كنت أتذكره، واعتذرت له بضعف ذاكرتي، فقال لي أنه كان قد اصطحب زوجه إلى عيادتي في الستينيات بعد أن قال له زميل بأنها تعاني من ورم ليفي، وذكرني بأنني قلت له بأن حرمه حامل، ثم أضاف.. وكانت بالفعل حاملا وولدت طفلا هو اليوم طبيب، ولقد كنت أقول عنك دائما بأن يدك مليحة". وكان هذا فعلا من فضل ربي.

السفارة المصرية، الذين كانوا يعرفون الشخصية الحقيقية للكاتب، إلى أن يطلبوا من المدرسين المصريين عدم التعامل مع الدكتور فلان لأنه من جماعة المخابرات الجزائرية.

وعرفتُ ذلك من مدرس مصري كان جاءني يوما قبيل إفطار رمضان ليطلب مني أن أرافقه إلى منزله حيث كانت زوجه في حالة سيئة، وقد فعلت على الفور، وهو ما لم ينسه المدرس الكريم.

لكن نشاطي في عيادتي الخاصة اتسم في البداية بتزايد الغربة العلمية، لتعدد الحالات المرضية مقارنة بالحالات المحدودة في الجيش، وبالطبع فلم يكن هناك زملاء يمكن أن أتواصل معهم سواء في المستشفيات أو في العيادات الخاصة، ولم يكن هناك أي اتصال بيني وبين الجامعة الجزائرية باستثناء عدد محدود من الأساتذة كان بعضهم يتعامل معي في البداية بنوع من الاستعلاء يخفيه الأدب وتغلفه اللياقة، ولم يكن هناك بالطبع أي تواصل علمي مع جامعة عين شمس.

ولم تكن هناك أي مجلات علمية باللغة الانغليزية تمكنني من تجديد معلوماتي، إلى أن أسعفني الرفيق القديم الأخ عبد القادر بن قاسي، والذي كان يعمل في إطار بعثتنا الدبلوماسية في نيويورك، بفتح اشتراك لي في مجلة "جاما" (JAMA) دفعه، رحمه الله، من جيبه.

ثم اشتركت في مجلات طبية فرنسية من بينها مجلة المُمارس (Revue de Praticien) ومجلة (Le Concours Médical) وأخذت في تطوير حصيلتي العلمية والدوائية عن طريق أمرين، أولهما اللقاءات المنتظمة مع ممثلي شركات الأدوية الذين ساعدوني على تحسين لغتي الفرنسية وإطلاعي على كل الجديد والقديم في مجال الأدوية، وهو ما أفادني من ناحيتين، الأولى التعرف على الجوانب العلاجية والثانية الحصول على عينات مجانية كنت أوزعها على زبائني (ومازال بعضهم وبعض أولادهم يذكرني بذلك حتى اليوم) أما الأمر الثاني فهو فتح قنوات طبية مع عدد من الأخصائيين الجزائريين والفرنسيين،

كان أساسه التزامي بوضعية الطبيب العام الذي لا يحاول تجاوز مستواه، ويقوم بتحويل المرضى الذين يحتاجون إلى عناية متخصصة إلى الطبيب المتخصص مع رسالة مفصلة تستعرض الحالة وتقدم، باحترام، بعض الآراء.

وكنت أحرص على ألا أتلقى أجرا من المريض حتى لا يضطر إلى دفع أجرين، وهو ما عُرف فيما بعد وكان أمرا مُشرفا بالنسبة لي، وكان هذا أمرا جديدا على الساحة الطبية.

وكان من بين الأخصائيين الذين سُعدت بالتعامل معهم الأساتذة البشير منتوري وعلي العقبي وغالب الجيلالي وزيدي مالك وجيلالي رحموني والعازيب وديب ومن الفرنسيين روش ومواسان.

وكان الأخير متخصصا في الأمراض الصدرية ويعمل بمستشفى بني مسوس، وكان ، بعد أن لاحظ جدية رسائلي التي كان المرضى يحملونها إليه، يُتحفني بردود مفصلة أفادتني كثيرا في عملي رغم أنني لم أكن أعرفه معرفة شخصية، وقررت ذات يوم أن أزوره فذهبت إلى المستشفى وطلبت من الممرض إبلاغه بأن فلانا يريد رؤيته، وخرج مواسان بلحيته الكثة بعد دقائق وأخذ يُدير بصره في قاعة الانتظار التي كان بها عدد من الأشخاص، ومر ببصره عليّ بدون أن يتوقف، وهنا خاطبته باسمه مُقدما نفسي فأخذني من يدي ودخل بي إلى مكتبه وهو يقول ضاحكا : "من رسائلك انتظرت أن أرى طبيبا عجوزا من أبناء المدرسة القديمة".

وشيئا فشيئا عرفت عيادتي إقبالا هاما من مواطني منطقة القصبة وباب الواد الذين أعطوني حجما هائلا من الحب والتقدير.[26]

---

26 – تجلي ذلك بعد أن التحقت برئاسة الجمهورية حيث بادرت قسمة الحزب بترشيحي لأول المجالس النيابية في عام 1977، وقال لي الرئيس بو مدين يومها أنها رسالة فهمها جيدا، ولكن البعض قالوا بأن الترشيح كان مجاملة للرئيس، وهو ما سُمع الرد عنه مرة ثانية عندما رشحت مرة ثانية في انتخابات 1987، وكنت يومها أعيش وضعية تهميش بعد أن تعرضت وآخرين للتصفية من قيادة الحزب ومن مسؤوليات الدولة، وهو ما يجعلني أحمل تقديرا لا حدود له لسكان القصبة وباب الوادي والذين أثبتوا أنهم رمز للوفاء في زمن الجحود.

وظللت متمسكا بأسلوبي في الالتزام بوضعية الطبيب المُمارس، وتحويل الحالات التي تتطلب علاجا خاصا إلى الأخصائيين، وفي الوقت نفسه ضمنت دخلا إضافيا عن طريق اتفاق خاص مع الغرفة التجارية التي كان يرأسها الأخ الهاشمي العربي، الذي كان يُردد في كل مكان بأنني الطبيب الوحيد الذي نجح في علاجه، وكان، مشكورا، ذا فائدة دعائية كبيرة لي.

وكانت هناك صداقة أفادتني كثيرا وهي الصداقة مع صيدلي الحي الأخ بلحرش، الذي تعرف، عبر الوصفات الدوائية التي كنت أعطيها للمرضى، على نظرتي العلاجية، والتي كانت ترتكز على عدم الإكثار من الأدوية واختيار أبسطها وأقلها سعرا. وكان الرجل الفاضل يضيع وقتا كبيرا في إقناع المريض بمنطقي العلاجي، في مرحلة كان المريض يتصور أن العلاج الشافي يجب أن يتضمن عددا هاما من الحُقن، وعدد من الفيتامينات من بينها ب 12 ، وهو ما وقفت ضده بضراوة.

ثم، وطبقا للنظام السائد، كنت أقوم بمناوبات ليلية في مصحة "ديوراندو" في باب الواد، أعطتني الفرصة لأظل على اتصال بالمستشفيات، كما سعدت خلالها بالتعامل مع الأخ عز الدين محمصاجي مدير المصحة، الذي تفهم تماما رفضي لغير الحالات العاجلة، وخصوصا بعض الأشخاص الذين ينتهزون فرصة السعر الزهيد للفحص الطبي، والذي كان 12 دينارا تقتسم بين المصحة والطبيب، لمحاولة الحصول على شهادة بالتغيب عن العمل، أو لتطعيم الأبناء، وظللت أقطن العيادة، إلى أن أسعفني الأخ عبد الرحمن شريط رحمه الله، الذي كان أمينا عاما لوزارة التربية، بشقة في بن عكنون، بعد أن أبلغه بالمشكلة الأخ سعد الدين نويوات، ولكليهما أسجل شكري وتقديري.

لكن مرحلة العيادة التي التهمت النصف الثاني من الستينيات شهدت نشاطا من نوع آخر، فقد كان التصريح الذي أعطي لي، وطبقا للنظام الجديد الذي كنت ممن كتبوا عنه وطالبوا به في مجلة الجيش، كان يقضي بأن أعمل نصف اليوم في إحدى مؤسسات الدولة.

واخترت أن أعمل في المراقبة الصحية على الحدود، حيث كلفت بالمركز الطبي في مطار العاصمة، وكان مما شجعني على ذلك وجود الدكتور حاج حمدي رحمه الله مديرا للمراقبة، وكنت على علاقة طيبة معه خلال فترة البحرية.

وكان العمل في المطار فرصة التقيت فيها أكثر من مرة بشكل عابر مع الرئيس بو مدين، الذي كان يلحظ وجودي بجوار القاعة الشرفية في الحالات التي كانت تفرض وجودي كالتحركات الرسمية، وكان يسألني أحيانا عن بعض ما أنشره من رسائل للقراء (وهو ما أكّد لي أنه كان يُتابع ما أكتبه)

وأتذكر أنه طلب مني يوما النص الأصلي لرسالة كنت نشرتها لأحد المواطنين.

ولأن عملي كان يتلخص في المُراقبة الصحية على الحدود فقد كان يتضمن إجراء التلقيحات المطلوبة للمسافرين، وإعطاؤهم الشهادة الدولية المطلوبة.

وأتذكر هنا بعض المواقف التي مررت بها، وكانت لها أهميتها وطرافتها في الوقت نفسه.

فقد جاءني يوما الأخ إسماعيل حمداني، وكان أمينا عاما مساعدا للرئاسة، ليطلب مني شهادة دولية للتطعيم ضد الجدري، وقلت له أن ذلك سيتم بعد أن يتلقى التلقيح اللازم، وفعلا خضع لرأيي وأكبرتُ فيه ذلك، خصوصا عندما أكد لي، ولم نكن على علاقة سابقة، بأنه يقدر موقفي وعملي.

وبالفعل، لم أعط يوما شهادة بدون تلقيح حقيقي، رغم بعض الضغوط "الأخوية" التي كنت أتعرض لها، لكن كان هناك استثناء واحد ووحيد.

فقد كنت كتبت مقالا أنتقد فيه الشيخ أحمد حماني، رحمه الله، الذي أطال في خطبة بمناسبة المولد النبوي، ولكنه ردّ عليّ بقسوة دفعتني إلى تعليق لا يقل قسوة.

وحدث وأنا أشرف على عملية سفر الحجاج، وكان هذا من التزامات عملي، أن وجدت أمامي الشيخ، الذي لم يكن يعرفني معرفة شخصية، وكان قد نسي بطاقة التطعيم الدولية في منزله، وبالطبع فقد رفض مساعدي أن يسمح له بالسفر، وتدخلت أنا لأسأله بكل أدب عمّا إذا كان يؤكد لي أنه تلقى التطعيم اللازم، وأكد لي الرجل الفاضل ذلك، وقلت له أنني أقبل شهادته وأعطيته شهادة دولية بالتطعيم، وعرفته بنفسي وأنا أرافقه إلى الطائرة فأدخل يده في جيبه ليخرج حزمة أوراق قال لي عنها : "إقرأها ومزقها"، وكانت تعليقا مطولا على مقالي، نسي أن يُرسل به إلى الصحيفة.



عملية الحج لعام 1970



الحديث مع حاجة

وكتبت يوما مقالا أعلق فيه بحدة على فتاة كانت تقدم برنامجا في السهرة الإذاعية، رأيت أنه "ناعم" أكثر من اللازم، وقلت بأن عليها أن تنقص قليلا من ذلك لأن الشيطان شاطر، والمعنى واضح.

وفوجئت بالفتاة تأتيني يوما إلى العيادة، وبدون أن تعرفني شخصيا، وذلك بتوصية من إحدى الصديقات للحصول على شهادة طبية، وعرفتها عندما قالت بأنها أحلام مستغانمي، فجاذبتها أطراف الحديث لأصل بها إلى برنامجها الإذاعي وردود الفعل التي تلقاها.

وانهالت الفتاة الجميلة، التي أصبحت فيما بعد أديبة كبيرة، بالشتائم على كاتب اسمه م..دين، لا تعرفه، ولكنه انتقدها بقسوة لا مبرر لها، وبالطبع استمعت لها بكل هدوء، وعندما ودعتها عند باب العيادة قلت لها بهدوء: "إنك كنت بين يدي م..دين، وصُعقت بالطبع، ولكنها كانت بداية صداقة جميلة.

غير أن من أهم ذكريات المطار هي ما عشته في آخر سنوات العمل به، أي عام 1970، وكانت سنة عمّ فيها وباء الكوليرا وظهرت حالات في بلدان كثيرة حولنا جعلتني أشعر بذعر رهيب، وأتخيل ما الذي يمكن أن يحدث لو دخلت حالة واحدة من مطار الجزائر، الذي يتولى القسم الطبي فيه طبيب مُعرب، وجافاني النوم ليالي طويلة لم أكن أجد فيها لمن أشكو وحدتي وغربتي إلا للعلي القدير.

وأبلغت الحاج حمدي بأنني سأعلن الطوارئ، فترك لي الأمر قائلا: "إنهم في الوزارة يعتمدون عليك" (ولست أدري لماذا كان، رحمه الله، يتصورني إنسانا قوي النفوذ) وأشرف على تنفيذ حالة الطوارئ الثلاثي الذي كان يتحمل أهم المسؤوليات في المطار، ويضم عبد الرحمن بو راوي مدير شرطة المطار وعبد الرزاق سعدي، رحمه الله، مدير الجمارك.

وهكذا، وبناء على طلبي، شددنا الرقابة على كل القادمين من المناطق التي أعلن عن وجود وباء فيها، وكان من بين عناصر الرقابة التأكد من وجود بطاقة التطعيم ضد الكوليرا، وحرق كل المأكولات التي يصطحبونها معهم، وأتذكر هنا كيف كنا نحرق حتى زجاجات الفودكا التي كان يحملها معهم بعض السوفييت، وهي مبالغة لم يكن لها من مبرر إلا حالة الذعر التي كنت أعيشها شخصيا، وجعلتني أغلق عيادتي وأظل في المطار طوال النهار وجزءا كبيرا من الليل.

وأذكر هنا أن قضية الكوليرا تزامنت مع عقد مؤتمر للمحامين العرب في الجزائر، وفوجئت ببعض القادمين من مناطق أعلن فيها عن وجود الوباء يصلون بدون شهادات تطعيم دولية.

وأسقط في يدي، ثم اتخذت قرار إقامة منطقة حجر صحي في المطار، الذي لم يكن قد عاش هذه التجربة، وهو ما تم في حدود عدة ساعات أقيم فيها الحجر في أحد المباني، الذي لم يكن مؤهلا، للأمانة، لكي يؤدي المهمة المطلوبة بكل شروط الراحة الضرورية.

واتصلت بي تشريفات الرئاسة طالبة الإفراج عن الوفود الرسمية، وأجبت من اتصل بي (وكان الأخ رشيد خلواطي) بأنني لن أسمح بخروج أحد لا يحمل بطاقة التطعيم إلا بعد مرور خمسة أيام على الأقل، وعلى من يريد إخراجهم من الوفود أن يأتي لإخراجهم بنفسه، أو يُرسل لي مكاتبة رسمية بذلك.

ولم يحدث لا هذا ولا ذاك، ولست أدري هل سمع الرئيس بو مدين بالأمر أم لا، لكنني واصلت أداء المهمة بالأسلوب الذي ارتأيته، ولم تعرف الجزائر حالة كوليرا واحدة بفضل الله.

وربما زاد هذا من يقين الحاج حمدي بأنني شخصية مهمة.

وتحضرني هنا حادثة طريفة، فقد كان من بين أعضاء الوفود التي "استضفناها" رغم أنفها في الحجر الصحي محام عراقي خفيف الدم (وكنت أنا وبو راوي وسعدي لا نفارق ضيوفنا إلا لساعات قليلة ونسهر معهم لمؤانستهم) وفي اليوم السادس حمل أمتعته واتجه نحو باب الخروج برفقتنا، وكان من بين ما يحمله معه بعض ما تبقى معه من "الغريبية" والحلويات العراقية، ورفضنا أن يخرج بها، فحاول أن يقنعنا بأنها نظيفة وليست ملوثة، ثم جلس على الأرض وراح يأكل الحلويات.

وتركناه إلى أن أكمل ووقف ليتجه نحو باب الخروج، وعندها قلت له إنه تناول الآن مواد غذائية مشبوهة وعليه أن يعود إلى الحجر ليقضي خمسة أيام، وهي المدة الرسمية لظهور علامات المرض.

وكاد الرجل ينفجر بالبكاء، وبعد أن عصرناه جيدا وأفهمناه أن الجزائر لا تصلح فيها سياسة الأمر الواقع، تركناه يخرج لأننا كنا على يقين من أن وضعيته لا تحمل أي خطر.

وفي آخر أيام شهر مايو 1971 تركت العمل الطبي في المطار إلى الأبد وأغلقت عيادتي الخاصة لأبدأ عملي في اليوم التالي بالرئاسة (وهو ما يجد القارئ تفاصيله في بعض كتبي السابقة)

وكانت أخطر غربة عانيتها هي الغربة السياسية الإدارية، عندما اختارني الرئيس بو مدين مستشارا برئاسة الجمهورية، وكان علي أن أثبت وجودي معتمدا على المولى عز وجل وعلى الدعم الفعلي من رئيس الدولة، وفي جو وظيفي لم يكن لي فيه حلفاء من أي نوع وعلى أي مستوى كان.

وكان التحدي الرئيسي هو بناء شيئ من لا شيئ، في جوٍّ يسوده تنافر واضح، يحجمه الانضباط الوظيفي الذي يفرضه وجود مسؤول أول بحجم الرئيس بو مدين، وكان علي أن أقيم تنظيما إداريا يستجيب لحاجات الرئيس الإعلامية، وهو ما تطلب جهدا هائلا ومحاولات يومية متواصلة لخلق التوازن بين الصلابة والمرونة، بحيث لا تصبح الصلابة تصلبا والمرونة ميوعة.

في تلك المرحلة كان منسق النشاط الرئاسي هو الرائد عبد المجيد أعلاهم، وهو ممن ترعرعوا شبابا في كنف الجيش الفرنسي، ثم فروا منه على دفعات متلاحقة وانضموا لجيش التحرير، وكانوا يتسمون، في معظمهم، بالكفاءة على المستوى المهني، وبالانضباط على المستوى العسكري، وبالتضامن المطلق على المستوى الفردي.

وعلا شأن عبد المجيد في تسيير شؤون البروتوكول الرئاسي بفضل ثقة الرئيس بو مدين، مما جعل كثيرين يعتبرونه والد البروتوكول الرئاسي، واستفاد كثيرا عندما أطلق الرئيس يده في شؤون التنظيم، وخصوصا فيما يتعلق بتكوين اللجان الخاصة بالاحتفالات والتظاهرات الكبرى، وزاد نفوذه بعد إنهاء مهام الأمين العام السابق لرئاسة الجمهورية الرائد جلول خطيب في نهاية الستينيات إثر قضية مطار اللد، وحل محله الرائد طبيب محمد أمير، الذي كنت عرفته مديرا للخدمات الطبية العسكرية[27]، وهكذا كانت أهم المراكز الإدارية المؤثرة المحيطة برئيس الدولة من العسكريين أو المرتبطين بما كان يطلق عليه جيش

---

27 – نفس المراجع السابقة بالنسبة للتفاصيل التي رأيت عدم التوقف عندها، بالإضافة إلى كتاب م.ـنين، التجربة والجذور (دار الأمة) والذي تناولت فيه تفاصيل احتفالات 1972 ومشاكلها.

الحدود، وكان المدنيان الوحيدان إسماعيل حمداني الأمين العام المساعد وأحمد حوحات مستشار الشؤون الزراعية.

وربما كنت في هذا الجو نغمة نشاز.

وراح كل منا يحاول التعرف على حدود إمكانيات الآخرين ويطمئن إلى المحافظة على صلاحياته، وحدثت مجموعة من المشاكل مع الأمين العام، لكن مشاكل أخرى أمكن السيطرة عليها في العلاقات بيني وبين مدير التشريفات، بفضل مرونتي من جهة وبفضل ذكاء الرجل وإدراكه لحجم الثقة التي أحظى بها من الرئيس من جهة أخرى، ولا بد من الاعتراف بأن بعض تلك المشاكل كان ناتجا عن طبيعة العمل نفسها، فقد انتزعتُ من التشريفات كل ما يتعلق بالتنظيم الإعلامي وتوجيه الصحفيين وإعداد معظم النصوص الرئاسية المتعلقة بالنشاطات، ثم أصبحتُ جزءا من كل اللجان التي تكلف بالنشاطات الوطنية ويرأسها مدير التشريفات فعليا أو رسميا، وكان مجال نشاطي هو الثقافة والإعلام والعلاقات العامة المرتبطة بهذا المجال، وكانت علاقاتي مع الرئيس مباشرة، وحرصت أن تظل كذلك.

وكان من النشاطات التي كشفت مؤهلاتي التنظيمية احتفالات العيد العاشر للاستقلال في 1972، والتي رأس لجنتها شريف بلقاسم وقمت فيها بتنظيم الجوانب المتعلقة بالنشاط الفني والثقافي.

وساهمت في تنظيم المؤتمر الرابع لحركة عدم الانحياز في 1973، الذي ترأس لجنته التحضيرية عبد العزيز بو تفليقة، وهكذا تمكنت من أن أصبح طرفا رئيسيا في كل صور النشاط الرئاسي[28].

---

28 - كان من أهم أخطائي ترفعي عن وضع الرئيس في الصورة بالنسبة لكل إنجازاتي ونشاطاتي، انطلاقا من تصوري بأنني أقوم بواجبي لا غير، لكنني فيما بعد، وعبر تصرفات من بعض عناصر المجموعة المحيطة بالرئيس، وصلت إلى اليقين بأنه كان هناك تعتيم على الكثير مما كنت أقوم به بعيدا عن أنظاره.
وسنجد في التقرير النهائي، الذي تولى إعداده أحد المثقفين العاملين معنا بصفته الإدارية، أن اسمي غير موجود إطلاقا، رغم أنني كنت المسؤول المباشر عن التنظيم الإعلامي، الذي كان يرأس لجنته المرحوم محمد الشريف مساعدية، في حين وضع المثقف اسمه لمجرد أنه ألقى محاضرة حول موضوع المؤتمر.

وكما يحدث في صورة التلفزة تجمدت صورة في ذاكرتي أعادتني إلى ذات يوم من شتاء 1977، بعد نحو سبع سنوات من بدء عملي برئاسة الجمهورية، ولعل السبب إحساس دفين بأن ذلك اليوم كان بداية التحولات الكبرى التي لم ندركها إلا بعد فوات الأوان.

(3)

كانت الساعة تقترب من السابعة مساء عندما تلقيت في منزلي مكالمة هاتفية من مدير التشريفات الرئاسية آنذاك، السيد مولود حمروش[29]، تبلغني بأن مبعوثا خاصا للشيخ زايد آل نهيان سيصل إلى الجزائر على متن طائرة خاصة، ويطلب مني أن أسرع إلى مطار الجزائر لاستقباله واصطحابه إلى فندق الأورلسي، ثم التعرف على طبيعة مهمته ليمكن تقديم المعلومات الضرورية للرئيس بو مدين قبل استقبال المبعوث، ولم يكن ذلك أمرا مألوفا لأن زيارة أي مبعوث خاص كانت تسبقها اتصالات تحدد تفاصيل الوصول، وذلك قبل وقت كاف يسمح بالاستعداد والأعداد للزيارة.

وعادة كان السفير المعني هو صلة الوصل بيننا وبين سلطات بلاده عبر الخارجية.

واتجهت إلى المطار وأنا ألعن الأساليب الارتجالية التي يدفع ثمنها، غالبا، بعض من يتحملون مسؤوليات معينة بالقرب من المسؤول الأول، وتتحملها

ولقد عانيت كثيرا في البداية من التعامل مع عبد المجيد بكل وزنه ونفوذه مقارنة بالقادم الجديد الذي لا يكاد يعرفه أحد، ولكنني أسكت عن ذلك اليوم لأنه انتقل إلى رحاب الله، ولست ممن يتحدثون عن رجل لا يستطيع أن يفند ما يقال عنه، مع اعترافي بكفاءته وقدراته.

29 - خلف مولود حمروش المرحوم عبد المجيد أعلاهم بعد التعديل الحكومي في 1977، والذي عين فيه عبد المجيد أمينا عاما لرئاسة الجمهورية، وسيصبح وزيرا للسياحة في عهد الرئيس الشاذلي، حيث سهر على إنشاء الفيلات الجديدة في نادي الصنوبر، في مواجهة الفيلات التي أنشأها مصطفى موسى في منتصف الستينيات، ويذكر لعبد المجيد أنه غير اسم فندق "سان جورج" إلى "الجزائر" و"أليتي" (وهو اسم الفرنسي الذي كان يمتلك الفندق في العهد الاستعماري) إلى "السفير"، ولم أستسغ شخصيا ذلك التغيير. ولم يعتبر كثيرون أن توزير عبد المجيد ترقية له، خصوصا وقد أرسل بعدها سفيرا إلى موسكو، وتوفي في التسعينيات.

معهم عائلاتهم، حيث تنعكس سلبا على حياتهم الشخصية، فمن التي تصدق زوجها عندما يحاول إقناعها بأنه خارج ليلا في مهمة سرية [30].

ومازلت أشعر بالقشعريرة وأنا أتذكر، اليوم وبعد أكثر من ثلاثة عقود، كيف كنت أقود سيارتي بسرعة مجنونة وتحت الأمطار الغزيرة، حتى لا ينتظر الضيف طويلا، وعندما وصلت إلى المطار، الذي يبعد نحو عشرين كيلومترا عن وسط العاصمة الجزائرية، أبلغتني مصالح الشرطة بأن مبعوثا خاصا وصل بالفعل على متن طائرة خاصة، وبأنه فضل الاتجاه مباشرة إلى فندق الأوراسي، الذي كان أفخر فنادق الجزائر.

وعدت أدراجي إلى العاصمة تحت الأمطار المتهاطلة لأتوجه إلى الفندق.

وعندما دخلت إلى غرفة المبعوث الخاص كانت تنتظرني أكثر من مفاجأة، فقد كان المبعوث شابا لا يتجاوز الثلاثين من العمر، أنيقا تبدو عليه آثار بحبوحة العيش، وكان يحرك في يده كأسا من الويسكي تتراقص فيه عدة قطع من الثلج، وكانت المفاجأة الكبرى هي أنه لم يكن مبعوثا للشيخ زايد كما قيل لي، فأوضحت له بأنني مستشار برئاسة الجمهورية، وبأنني مكلف بأن أبحث معه كل التفاصيل التي تتعلق بمهمته لتوضع أمام الرئيس قبل الاستقبال، فعرفني باسمه كاملا، وأخبرني بأنه يعمل وكيلا لأعمال أحد الشيوخ في الخليج، وبأنه صهر شقيق حاكم عربي مرموق، وقد أرسله الشقيق لمقابلة الرئيس لأمر خطير وعاجل لن يبوح به لغير الرئيس.

وأمضيت ليلتي في محاولة العثور على أي معلومات عن الحاكم العربي وعن أسرته، وقدمت للرئيس بو مدين، صبيحة اليوم التالي، تقريري الشفوي

---

30 - كانت كل تحركاتي تتم في نطاق السرية المطلقة ولم تكن عائلتي تعرف إلى أين أتجه، خصوصا عندما يتعلق الأمر بالتحركات في إطار الرحلات الرئاسية، حيث كانت زوجي تسمع الخبر من وسائل الإعلام مع بقية المواطنين.
وكنت أرى في هذا عنصر انضباط أولا وعامل حماية للأسرة، بإبعادها تماما عن كل ما يتعلق بنشاطاتي المهنية، وهو ما كان يخلق لي مشاكل داخلية كثيرة في البداية، ثم تفهمت الأسرة خلفياتي بعد أن تمت تصفيتي في منتصف الثمانينات، ولم تتعرض عائلتي لأي إزعاج لأن الجميع كان على يقين بأنها لا تعرف شيئا عن تحركاتي.

عن الأمر كله (ثم أرسلت له عبر الأمانة العامة لرئاسة الجمهورية، وحسب الأسلوب المتبع، تقريرا كتابيا) وكان مما قلته للرئيس أنني لست أرى نفسي مؤهلا للتباحث مع هذا المبعوث، والذي يتطلب، في تصوري، تعاملا أمنيا، وبالتالي فأنا غير متحمس لاستقباله على أعلى مستويات الدولة، على الأقل قبل التأكد من حقيقة شخصيته.

وقرر الرئيس أن يُستقبل المبعوث أولا من قبل الأمين العام لرئاسة الجمهورية، ولم أحضر اللقاء بل تهربتُ منه، لكنني لاحظت أن الأمين العام لم يُصرّ على مشاركتي، ولا أعلم، إلى يومنا هذا، هل كان ذلك بتوجيه من الرئيس بو مدين بناء على ملاحظتي، أو برغبة من عبد المجيد، الذي أراد أن ينفرد بمعرفة التفاصيل، وهو تصرف مألوف في معظم مستويات السلطة، وينبثق من فكرة أن الاحتفاظ بمعلومة ما يعطي وضعية خاصة لمن يتعامل مع الرئيس.

واتصل بي الزائر هاتفيا بعد استقباله من قبل الأمين العام، الذي كان قد أبلغني بأن الزائر لم يكشف عن طبيعة مهمته وأصر على لقاء الرئيس، وكان مصابا بخيبة أمل كبرى عندما قيل له بأن جدول نشاطات الرئيس لا يسمح بأي استقبالات، وأبلغني بأنه سيزور الجزائر مرة أخرى عندما يسمح وقت الرئيس باستقباله، لأن الأمر بالغ الأهمية والخطورة.

واتفقنا على أن نظل على اتصال هاتفي حتى يمكن تحديد الموعد سلفا قبل وصوله، وهو ما حدث بالفعل في البداية، حيث اتصل بي "المبعوث" هاتفيا أكثر من مرة، من جنيف ثم من باريس، وكنت أجد الأعذار لعدم تحديد الموعد بالاتفاق مع الأمين العام، الذي تحمل مسؤولية ملف القضية.

وفي آخر مكالمة هاتفية طلب مني المبعوث أن أسافر للقائه في باريس ليسلمني وثائق تتعلق بالمهمة التي لم تتم، ووضعت الأمر أمام الرئيس مؤكدا أنني ما زلت أرى أن يتولى القضية مسؤول أمني مؤهل، ثم اقترحت أخيرا أن يسافر أحد كبار العاملين معي للقائه، وكأن الأمر يتعلق بمهمة إعلامية، ويتم

في اللقاء تسلم الوثائق المشار لها، على أن يتم ذلك في جو من الحذر وبدون أي حوار.

وحددت اسما يعرفه الرئيس شخصيا، واستقبله الأمين العام ليحدد له المطلوب من المهمة، ولكنني لم أعلم باللقاء إلا بعد حدوثه وبشكل يقترب من الصدفة، وأثار هذا دهشتي غير أني لم أعلق فقد كنت سعيدا بالابتعاد عن الأمر كله، لمجرد أنني أفر من التحركات التي يكتنفها الغموض.

وسافر الزميل الذي كلف بالأمر إلى باريس ليقدم، بعد عودته، عرضا كاملا عن اللقاء للأمين العام، ولم أعرف منه إلا انبهاره بالمستوى المادي الذي وجد عليه المبعوث، وقال لي بأنه لم يتسلم أي وثائق، وبقيت أنتظر نص التقرير عن المهمة، لأحوله إلى الأمانة العامة حسب المألوف، ولم يصلني النص، ثم علمت أن الأمين العام طلب ألا تعطى أي معلومات عن هذه القضية لأي أحد.

وكان أمرا بالغ الغرابة، لكنني لم أتوقف عنده طويلا، فقد ألفت لعبة التكتم على المعلومات.

ويسقط الرئيس بومدين فريسة لمرض غامض اسمه "فاندستروم"، ويختار أن يُنقل إلى موسكو، ويُعاد قبل أن يتم شفاؤه، ليسقط في الغيبوبة، ثم ينتقل إلى رحاب الله وتنفرط عقدة بعض الألسن.

وبعد سنوات وسنوات تغيرت فيها الأمور بأكثر من مائة درجة، أفلت لسان مساعدي بجملة رهيبة، بدا على الفور أنه ندم على قولها، فقد قال بأن مهمة المبعوث الخاص الحقيقية كانت تحذير الرئيس بو مدين من أنه سيتعرض لعملية اغتيال تتم بأسلوب جديد قد يستعمل أشعة من نوع خاص، وبأن الأمين العام طلب منه أن يعتم على الأمر كله وبأن يسلمه مباشرة تقرير المهمة.

ومرة أخرى لم أتوقف عند الأمر، لكن لفت نظري أن المساعد حظي بترقية هامة حيث أرسل في مهمة دبلوماسية تواصلت نحو عشر سنوات، مثل فيها الجزائر في ثلاثة بلدان عربية وإسلامية بصفة متتالية. ويجب أن أقول هنا للأمانة أنه كان يستحق تلك الترقية لسابق جهاده.

وبدأت سلسلة من الأحداث لم أكن أتوقعها.

(4)

دق سائقي "علي زرقوق" جرس المنزل في حدود الثامنة صباحا يوم الأربعاء السابع والعشرين من ديسمبر 1978 وما أن فتحت الباب حتى بادرني بالقول: الرئيس توفي. [31]

وهكذا كان السائق هو الذي أبلغ المسؤول الأول عن الإعلام برئاسة الجمهورية بوفاة الرئيس، الذي كان للأمانة قضية وقت، فقد وصلتنا الإشاعات بأن التجارب تجرى على تشييع الجنازة في بعض الثكنات العسكرية، وهذا، وحده، يرسم صورة عن سير الأمور منذ سقط الرئيس في قبضة المرض القاتل، وفرض علينا تعتيم لا يتصوره عقل ولا يقبله منطق، اللهم إلا منطق الصراع على السلطة.

كنا آنذاك أربعة مستشارين برئاسة الجمهورية، أحمد حوحات وبلقاسم نابي ومحمد يعلا وأنا، وربما كان نابي قد أبلغ ببعض المعلومات من عبد المجيد، بحكم أنهما ينتميان إلى منطقة جغرافية واحدة، لكننا لم نبلغ رسميا بوجود الرئيس خارج الوطن.

وبدأت برقيات وكالات الأنباء تطرح التساؤلات، ويعاود طرحها عليّ رجالُ الصحافة الوطنية والدولية، والتي نجحتْ، بحمد الله، في خلق شبكات

31- الغريب هنا أنني كنت حلمت في نفس الليلة بأن المصباح الذي يضيء الشارع أمام بيتي قد انطفأ فجأة، ورغم أن كل أحلامي رمزية وكنت أعرف مرض الرئيس فلم أربط بين الحلم والحدث إلى أن أبلغني السائق.

واسعة من الاتصالات معها، ولم يكن أمامي، في غياب المعلومات الصحيحة، إلا الصمت، وكان إعلان وفاة الرئيس بو مدين نهاية مريرة للفترة الكئيبة التي بدأت منذ نهاية سبتمبر 1978، إثر عودة الوفد الرئاسي من دمشق بعد المشاركة في القمة الثانية لدول الجبهة القومية للصمود والتصدي.[32]

وأتذكر هنا أنني، في بداية سبتمبر، كنت قررت أن أقضي أياما للراحة في محطة استشفائية في تشيكوسلوفاكيا، واتصل بي مولود حمروش هناك هاتفيا ليسألني عمّا إذا كنت سأشارك في رحلة دمشق، وبدا لي السؤال غريبا فسألته عن رأيه، فقال ببساطة .. الأمر متروك لك.

ولم أعرف أبدا ما إذا كان سؤال مولود مجرد مبادرة منه أو أنه كان نتيجة لتساؤل من الرئيس الذي كان يعرف عن غيابي، وأهمية هذه القضية هي أن ذلك التغيب كان سيجعل من رحلة دمشق، وهي أخر رحلات الرئيس بو مدين قبل مرضه الذي أجهز عليه، الرحلة الوحيدة التي لا أشارك فيها منذ بداية السبعينيات، ولا أجد هنا مبررا لتعليقات أكثر [33].

---

32 - عقدت القمة الأولى في طرابلس الليبية مباشرة بعد الزيارة التي قام بها الرئيس المصري أنور السادات لإسرائيل، وضمت الجبهة ليبيا والجزائر وسوريا واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية، كما كان العراق موجودا ولكنه كان يتصرف بنوع من المزايدة ترجمها تعبير رائع للرئيس حافظ الأسد قال فيه ساخرا من تصلب العراق : الذي لا يريد أن يزوج ابنته لشخص ما يضاعف من قيمة المهر الذي يطلبه، وقضينا ساعات ونحن ننتظر تعليمات لم تصل من السيد النائب صدام حسين في بغداد إلى السيد طه يسين رمضان الذي كان يمثل العراق في طرابلس، وكان بومدين لا يخفي تشاؤمه من الرد العراقي، وكان الغريب أن العراق لم يكن في القائمة الأولى للبلدان التي أوقفت مصر علاقاتها معهم، وتم إضافة الاسم إلى برقية الوكالة بعد نحو ساعة، وكان أمرا غريبا، ولم يجرؤ أحد آنذاك على تصور دلالاته الحقيقية، وألقى الرئيس في دمشق تحليلا رائعا عن القضايا العربية استغرق أكثر من ساعة وتناول فيه الجوانب الإستراتيجية للصراع بعمق وبصيرة واضحة جعلت واحدا من رؤساء الوفود، ولعله ياسر عرفات، يقول عندما أعطيت له الكلمة : لم يبق ما يقال بعد أن تكلم "المعلم".

33 - تذكرت فيما بعد أن الرئيس طرح علي خلال الرحلة إلى سوريا سؤالا يتعلق بعجز بيت من الشعر تلا علي صدره، حسب طريقته المألوفة في إبلاغي بآراء معينة، وبدت عليه خيبة أمل كبيرة عندما فشلت في الرد.

وأجدني اليوم على شبه يقين من أنه أراد أن يقول لي شيئا حول المرض، لكن صدر البيت نفسه ضاع مني.

واختفى الرئيس بعد عودته من سوريا، التي غادرها بعجلة لم تخطئها العين والأذن.

والواقع أن الملامح الأولى للشعور بدأت عندما فوجئ الجميع بمسؤول الجهاز التنفيذي للحزب، محمد الصالح يحياوي، يفتتح أشغال مؤتمر الاتحاد الوطني للنساء الجزائريات في 29 سبتمبر، والذي كان المفروض أن يفتتحه الرئيس بو مدين، الحريص، منذ انطلاقة المرحلة الجديدة للحزب في 1977، على أن يشرف بنفسه على تنظيم مؤتمرات المنظمات الجماهيرية، وهي، طبقا للخطاب السياسي آنذاك، مشتل الحزب وقاعدته الجماهيرية، وهي مادته المستقبلية لإقامة الأجنحة السياسية التي ستتبلور إلى أحزاب تنبثق من رحم جبهة التحرير الوطني وفي إطار ثوابت الوطن والثورة، أو هكذا فهمت.

ومرت أيام بدون أن يقول لنا أحد ماذا حدث بالضبط، وسألت عبد المجيد أعلاهم، الذي أجابني باستخفاف بدا مفتعلا قائلا : أن "من حق الرئيس أن يصاب بنزلة بردية كبقية مخلوقات الله".

ولست أحب أن يبدو ذلك بأكثر من أنه قد يكون دليلا على أن عبد المجيد كان مُحرجا، وبدا لي أنه، هو نفسه، لم يكن يعرف شيئا ذا بال.

ومع دخول الأسبوع الثاني من أكتوبر بدأ صبري ينفذ، فطرحت الأمر على الأمين العام مرة تلو المرة، وبإصرار يتزايد مع الضغوط التي كنت أتعرض لها من المحيط، ومع تزايد المرارة التي كنت أحس بها تجاه الوضعية التي عشتها منذ سفر الرئيس على عجل إلى موسكو، كما عرفنا فيما بعد.

ثم رحت أطرح الأمر على عدد من رجال مجلس الثورة الذين كانوا يترددون على مكتب الأمين العام لرئاسة الجمهورية (وكان الدكتور أحمد طالب وزير الإعلام آنذاك في موسكو مع الرئيس، وربما كان السبب هو شعور

بومدين أنه قادر على التبسط مع طبيب أكثر منه مع أي مسؤول آخر، وهو التفسير الذي سمعته من طالب شخصيا)[34]

ولعلي أقول، للأمانة، بأن الأمين العام نفسه ربما كان واقعا تحت تأثير ضغوط يمكن تخيلها، انطلاقا من أن حقيقة المرض الذي كان يعاني منه الرئيس لم تكن معروفة في البداية، وبالتالي فقد كان هناك أمل في أن يتمكن الرئيس من العودة إلى أرض الوطن قبل أن يحس أحد باختفائه.

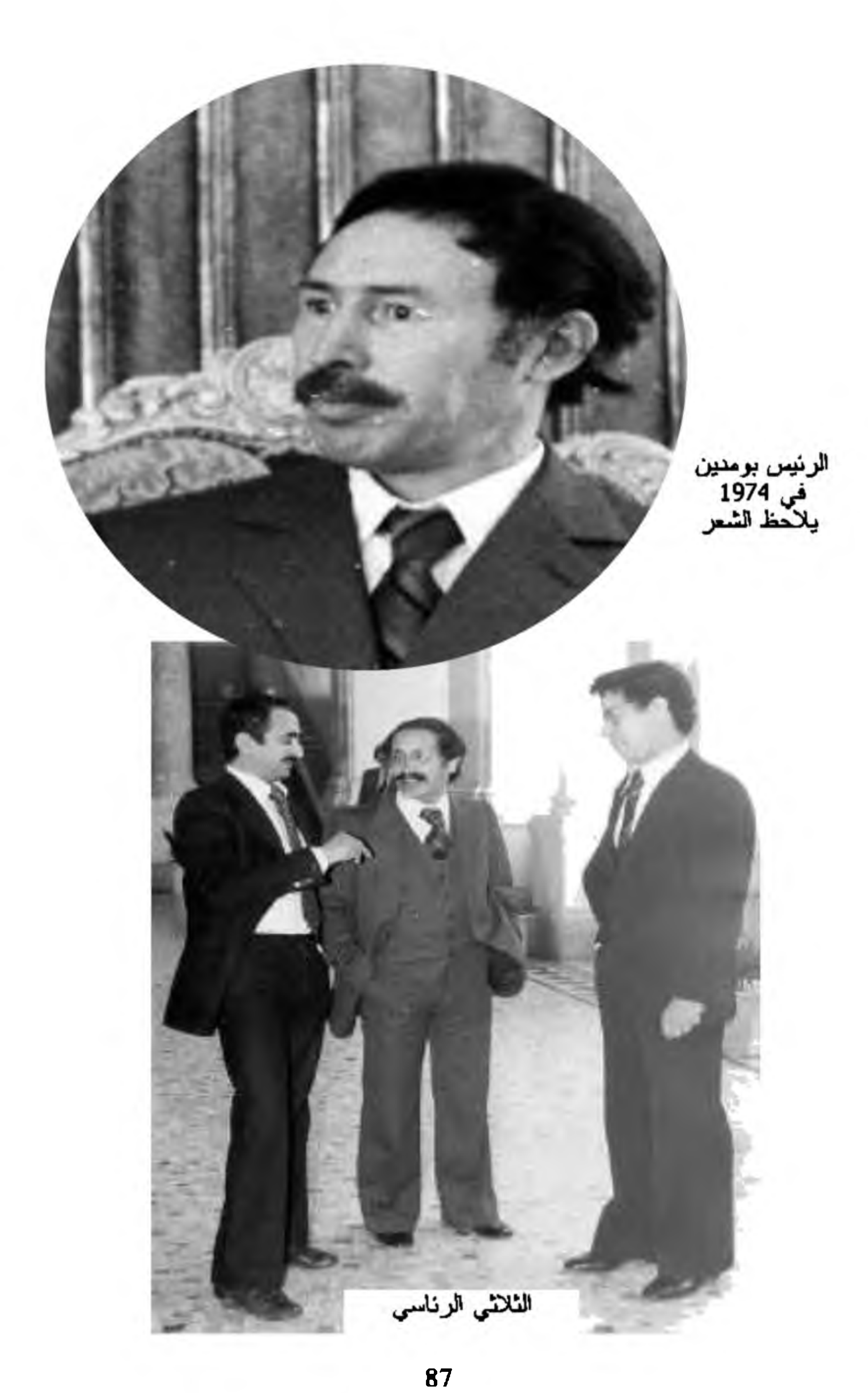
ويجب أن نتذكر هنا أن أسلوب السرية الذي تميزت به الثورة كان لا يزال يفرض منطقه وخلفياته على الجزائر المستقلة، إضافة إلى يقين كثيرين بأن الانفراد بالمعلومات جزء من السلطة.

ويجب أن يكون واضحا هنا أنني لا أشكو وضعية عشتها وأعترف أنني عانيت منها، لكنني كنت أعرف أيضا أن طبيعة النظام كانت تفرض أن تحدث الأمور كما حدثت، ولهذا أكتفي برسم صورة الوقائع كما عشتها، وهو ما أراه حقا وواجبا، لعل هناك من يملك تفسيرها بأحسن مما أفعل.

* * *

34 - كان طالب أحد اثنين أبلغهما الرئيس بمرضه منذ البداية، وكان الأول هو عبد العزيز بو تفليقة، وقال لي طالب أن الرئيس استدعاه ليقول له أنه يطرح عليه أمرا بصفته الطبية، وأذكر هنا بما كنت كتبته بعد عودتي من زيارة رسمية مع الرئيس إلى أديس أبابا، حيث قلت في "التجربة والجذور" (دار الأمة – الجزائر) بأنني غير راض تماما عن نوعية الرعاية الطبية للرئيس، وصارحت بذلك الدكتور محمد أمير، الذي قال لي، بحزم واضح يؤكد أنه يملك السلطة الكاملة والتفويض المطلق في هذا الميدان، : "مهمتك مع الرئيس سياسية أما الطب فهناك مكلفون به".

وتروي أرملة الرئيس الكثير من أوجه القصور في رعاية الرئيس خلال مرضه الأخير، وبدون أن أؤكد ذلك أو أنفيه، فإنه يذكرني بالساعات الأخيرة للرئيس المصري جمال عبد الناصر.



الرئيس بومدين
في 1974
يلاحظ الشعر

الثلاثي الرئاسي



مجموعة الرئاسة

كنا خلال سبتمبر نلتقي يوميا في الرئاسة لنتبادل ما نتلقاه من أخبار أو إشاعات، وكان أول ما لاحظناه في الأيام الأولى اختفاء كل من مولود حمروش، المدير العام للتشريفات، وعبد الملك كركب مدير الأمن الرئاسي، وعرفنا فيما بعد أنهما رافقا الرئيس، ثم لحقت بهما زوجة الرئيس، وعرفنا أن تعليمات صدرت بمنع سفر أي مسؤول لعيادة الرئيس (وقيل آنذاك أن قائد الدرك العقيد أحمد بن شريف كان يعتزم ذلك، وتحدث البعض عن آخرين من بينهم العقيد قاصدي مرباح).

ولأنني كنت ثالث المجموعة الرئاسية في كل تحركات الرئيس فقد كان هناك تساؤل في البداية عن سبب عدم سفري إلى موسكو مع الرفيقين، وكان الرد أن سفر الرئيس كان لسبب عاجل، وبأن الأمل السريع في عودته فرض تقليل حجم الوفد الرئاسي، ولم أجد الأمر مقنعا.

لكنني كنت أصر على ضرورة إذاعة أي شيئ عن الرئيس لإيقاف سيل التكهنات والإشاعات، وبعد اتصالات متعددة مع موسكو تم افتعال لقاء بين بو مدين وبريجنيف في منتصف أكتوبر، وأخذت عنه لقطات تليفزيونية طلب مني أن أراجعها قبل بثها مع خبر يتحدث عن زيارة يقوم بها الرئيس إلى العاصمة السوفيتية، وكان الهدف الرئيسي التأكيد بأن الرئيس على قيد الحياة، وبأنه ليس مشلولا كما روجت بعض الإشاعات، وأخذنا، أحمد حوحات وأنا، ندير التسجيل المتلفز مرة تلو المرة في مكتبي، علّ الصور تعطينا إجابة عن تساؤلاتنا.

وعاد إليّ من جديد الشعور بالغربة، ومرت الأيام ثقيلة كئيبة، خاصة بالنسبة لمسؤول كان يُفترض أن يكون في طليعة من يعرفون، لكن هناك، في مكان ما، من كانوا يحرصون على أن تظل المعلومات محصورة في إطار ضيق جدا، وهذا هو ما أدى فيما بعد إلى الاعتقاد بأن هناك من كان يعرف بأن أيام الرئيس باتت معدودة، فأخذ بالتالي يُعدّ، أو يستعد، للخلافة.

وكان الاحتفال بيوم اندلاع الثورة في أول نوفمبر حدثا وطنيا يحرص الرئيس بو مدين على الاحتفال به بصورة رسمية وشعبية، وبالتالي فقد كان

الطابع المميز للاحتفالات الاهتمامَ الكبير الذي يعطيه الرئيس لذلك اليوم، بترؤسه لكل التظاهرات التي يتم تنظيمها، ومن بينها الاستعراض العسكري الكبير في شارع جيش التحرير والحفل الرسمي الكبير الذي كان يقام في قصر الشعب.

ولهذا كان الجميع يترقبون حلول أول نوفمبر 1978 باهتمام بالغ ومتزايد، مع تزايد الإشاعات حول مرض رئيس الجمهورية، وكانت أول دلالة على خطورة وضعيته قضاؤه أول نوفمبر وحده في موسكو، وتزايدت الإشاعات يوما بعد يوم ولم يكن هناك، بالنسبة لي، ما يمكن عمله.

الرئيس غائب إذن، ولكن كيف كانت تسير الأمور في البلاد.

ببساطة، كما كانت تسير أثناء زيارة الرئيس لولايات الوطن، حيث الاتصال مستمر ومتواصل بين عدد من كبار المسؤولين من جهة والأمين العام لرئاسة الجمهورية من جهة أخرى والذي يقوم بدور الجسر بين الرئيس وكبار المسؤولين المعنيين.

وكانت قمة الجهاز السياسي الحاكم في البلاد، من الناحية النظرية على الأقل، هي مجلس الثورة، الذي تقلص عدد أعضائه، بالوفاة أو بالابتعاد أو الاستبعاد، من 26 عضوا إلى ثمانية[35].

وكان مجلس الثورة يجتمع بدعوة من الرئيس لدراسة القضايا بالغة الحيوية، كما كانت هناك اجتماعات مشتركة مع مجلس الوزراء لبحث المشاريع

---

35 - لاحظت، عند زيارتي لوهران، في عهد الرئيس بومدين، صورة مركبة ذات دلالة، وذلك في نادي ضباط الجيش، إذ كانت الصورة رسما يجمع بين الرئيس بومدين والشاذلي بن جديد.
ولم أكن أتخيل يوما أن الثاني سيخلف الأول، لكنني بعد ذلك كنت أتساءل عمن يقف خلف إعداد تلك الصورة غير المألوفة، والتي كانت الوحيدة من نوعها، وكان البعض ينظر لها بنوع من عدم الجدية.

الكبرى للتنمية أو القضايا ذات الأهمية الوطنية الخاصة مثل إعداد الميثاق الوطني أو الدستور أو الثورة الزراعية أو التسيير الاشتراكي للمؤسسات، وتميزت الحكومة في عهد بومدين بالاستقرار، إذ لم تزد التعديلات الحكومية عبر نحو 13 سنة عن ثلاثة، كان آخرها في 1977، وهو تعديل عانى فيه بومدين الكثير للحفاظ على الانسجام على المستوى القيادي، وليتمكن من التفرغ لأهم حدث كان يعد له، وهو مؤتمر الحزب، الذي كان يريده انطلاقة جديدة للبلاد، وهكذا حملت التعيينات حرصا على التوازنات المطلوبة.

وكانت أصداء الصراع واضحة، خصوصا مع الطيبي العربي وزير الزراعة، الذي رفض تعيين وزيري دولة لمساعدته في إدارة قطاع معقد، كانت حالته تتدهور يوما بعد يوم[36].

وكما سبق أن قلت كلفني الرئيس بالتوجه إلى وزارة الإعلام لأشرف، مع وزيرها الجديد ، على إعداد البلاغ النهائي لتشكيل الحكومة، الذي نشر على يومين متتاليين، مما كان دليلا على حدة الصراعات القائمة، وقيل أن بعضها اعتمد على منطلقات جهوية.

وكانت قمة القرار السيادي تضم عددا محدودا، ممن يرتبطون بشكل مباشر مع الرئيس ويتولون مسؤوليات حيوية مباشرة، سواء كانوا أم لم يكونوا أعضاء في مجلس الثورة أو في الحكومة، وكان للعقيد قاصدي مرباح دور بالغ الأهمية إلى جانب الرئيس، حيث كان له مكتب خاص في مبنى رئاسة الجمهورية، وأعطاه ذلك وزنا متميزا على الساحة الوطنية، لدرجة أنه كان، عند استقبال بعض رؤساء الدول في مطار العاصمة، يقف بين أعضاء الحكومة بل وأحيانا قبل كثيرين منهم، ومن الذي يستطيع من رجال البروتوكول أو غيرهم أن يلفت نظر مرباح إلى أنه مجرد مدير مركزي بوزارة.

---

36 - كان الكثيرون يتساءلون كيف لم يستطع بو مدين بكل قوته أن يحسم الصراع، وأنا شخصيا أتصور أن الرئيس كان يريد أن يتفادى كل ما يمكن لأن يوحي بأنه يتخلص من رفاقه، وكان يريد أن تتطور الأمور بشكل سلس إلى أن يُعقد مؤتمر الحزب فيضع كل شيئ في نصابه، وهذا سبب رئيسي لتشكيك البعض في سبب وفاته قبل المؤتمر.

ولقد كان كثيرون يخطبون ودّ مرباح بشكل واضح لا أتصور أنه كان يخفى على الرئيس [37]، ولعلي أزعم بأن هذا هو السبب الحقيقي في أن بو مدين لم يختر وزيرا للدفاع، سيصبح بالضرورة وزيرا من الدرجة الأولى، لأن البشر هم البشر وهو ما قد يخلق حساسيات كثيرة عند كثيرين، قد يكون من بينهم وزراء مدنيين يعتبرون من أقرب المقربين، ولا أتصور أن السبب هو ما تصوره البعض بأنه خوف من حدوث انقلاب أو تمرد يقوده وزير الدفاع، لأن الرئيس كان يمسك بيده كل السلطات الموزعة، بدون انفراد، بين يدي قادة النواحي العسكرية ومديري الإدارات المركزية في وزارة الدفاع، ومن بينهم أعضاء في مجلس الثورة، وجرت دراسة جادة لتجربة 1967 وأحداث العفرون.

أما على مستوى المستشارين، فمنهم من كان مكلفا بقطاع معين ومهام خاصة ككاتب هذه السطور، أو مكلفا بقضايا معينة، مثل الثورة الزراعية التي كلف بها أحمد حوحات، [38] أو ملف العلاقات مع حركات التحرير الذي تولاه

---

37 - كان مرباح من الأسس التي اعتمد عليها نظام الرئيس بو مدين، حيث ساهم في حماية الجزائر من مؤامرات كثيرة كانت تحاك ضدها عبر المسيرة الطويلة، ولعب دورا بالغ الأهمية في تولية الرئيس الشاذلي بن جديد، وقتل خلال العشرية الدموية ببشاعة في ظروف لم تتضح بعد، وأشهد للرجل، وهو في دار الحق، أنه كان يحترم الرجال ولم يعرف عنه أنه استغل وضعيته في الاستهانة بأي مسؤول يحترم نفسه، وأذكر له، عندما أصبح أمينا عاما لوزارة الدفاع الوطني في أول عهد الشاذلي أنه أرسل للرئيس مشروع مقال افتتاحي لمجلة الجيش بمناسبة عيد الاستقلال، أعدته مجموعة عمل في وزارة الدفاع، وحول الرئيس المشروع إليّ لدراسته ولتخاذ اللازم بشأنه، وقمت بتحليل النص طبقا لما ارتأيته، وبعد نشر النص المعدل التقيت مر باح في فندق "الأوراسي" فعاتبني على مبدأ إجراء تغييرات في نص وزارة الدفاع، وقلت له على الفور بأنني أتفق معه، لكن النص يصبح نص رئاسة الجمهورية بمجرد تسلم الرئيس له وتسليمه لي في إطار عملي، وبالتالي فأنا الوحيد الذي يملك الحق في تقديم النص إلى الرئيس طبقا لما يراه. وتقبل الرجل الفاضل هذا الرأي بهدوء وانتهى الأمر عند هذا الحد.

38 - لم أقرأ له سطرا واحدا حول الثورة الزراعية بعد وفاة بو مدين وتعالي الانتقادات لها، كما لم يشارك في أي ندوة تناولت الموضوع، واختار وضعية التقاعد بعد إنهاء مهامه ككاتب دولة خلال الولاية الأولى للرئيس الشاذلي، ونفس الأمر ينطبق على كل من ارتبطت أسماؤهم بالثورة الزراعية، وخصوصا من استفادوا منها سياسيا أو ثقافيا، وكانت صورتهم تملأ كل وسائل الإعلام وهم يتغنون بها . أنظر الجزائر : الحلم والكابوس .

سليمان هوفمان ثم عبد المجيد بن قدادرة [39]، كما كان هناك مستشارون بدون مهمة ثابتة ولمدد محدودة، مثل الحاج يعلا وبلقاسم نابي، وانضم لهم برتبة وزير الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، بعد تنحيته من وزارة الإعلام في التعديل الوزاري الأخير.[40]

وكان الأمين العام لرئاسة الجمهورية هو محور التوصيل الفعلي بين الرئيس وكبار مسؤولي الدولة، وغالبا باستثناء المسؤولين من أعضاء مجلس الثورة، وبالطبع مع كبار العسكريين.

وبدأ هذا الوضع مع الأمين العام الأول بعد 1965، العقيد جلول خطيب، الذي كان يد الرئيس في الشؤون الرئاسية، والذي لم يشفع له قربه من بومدين، فأبعده نهائيا عن المسؤوليات الكبرى منذ هبطت الطائرة التي كانت تقله وعروسه في مطار إسرائيلي، لسوء تخطيط الرحلة، وظل عدة أسابيع في قبضة الإسرائيليين [41].

وأسندت مهمة الأمانة العامة للدكتور محمد أمير، الذي كان يشغل منصب المدير العام للصحة العسكرية، وفي عهده أخذ منصب الأمين العام صورة تنظيمية أكثر وضوحا فيما يتعلق بالشؤون الإدارية للرئاسية، وأكثر وجودا فيما يتعلق بالممارسة الحكومية، وذلك باستكمال تنظيم الرئاسة من جهة، وبتقنين رئاسة الأمين العام لمجلس الأمناء العامين للحكومة، الذي كان يعقد بعد اجتماع مجلس الوزراء، ويستعرض المعطيات التنفيذية للقرارات المتخذة، ثم بمنحه

39- كان عبد العزيز بلخادم آنذاك نائب مديرا بالرئاسة للعلاقات مع حركات التحرير.
40 - يزعم خصوم الدكتور طالب أنه، على عكس ما يعتقد كثيرون، كان يحمل كرها كبيرا للرئيس بو مدين، منذ استبعده الرئيس في منتصف السبعينيات من المشاركة في إعداد الميثاق الوطني وأشرك خصمه محمد الصديق بن يحيى، ثم عندما أخرجه من وزارة الإعلام وأعطاه منصبا ما رأى فيه موقعا شرفيا، ولم ألمس ذلك الزعم في علاقاتي معه، وقد كان مما يثير اهتمامي عند دخولي لمكتب طالب في الرئاسة أنني كنت أجده منكبا على الكتابة في سجل كبير، واستنتجت أنه يدون مذكراته أولا بأول، وقد صدر الجزء الأول منها في عام 2006
41 - كثيرون يرفضون قبول هذه النظرية ويشككون في القضية كلها، ومنهم من رأى فيها تخلصا من جلول، ومما يضعف من هذه النظرية أن أحدا لم يكن يتوقع رد الفعل الباتر للرئيس.

مهمة توقيع إذن الخروج بالنسبة لكبار موظفي الدولة، بعد أن كانت من صلاحيات وزارة الداخلية، وكان وجودي فرصة لتعريب الكثير من الوثائق، بفضل رعاية الرئيس أساسا واهتمام الدكتور أمير بتنفيذ أوامره.

وكان عبد المجيد أعلاهم هو منسق كل التحركات الرئاسية، حيث كان يقوم بما يشبه دور مدير الديوان، وكان حريصا على التوازنات المختلفة بالنسبة للتيارات المتصارعة تحت سطح الماء، وقادرا على الاستفادة منها، وعندما كلف بمنصب الأمين العام أخذ المنصب بعدا جديدا، فقد كان عبد المجيد قبل ذلك هو الذي يرأس اجتماعات العمل مع السلطات المحلية عند الإعداد لزيارات الرئيس الميدانية، وكان هو المحرك الرئيسي لعمل اللجان المكلفة بتنظيم الاحتفالات الوطنية، أيا كان رئيس اللجنة.

وكان بالتالي هو الشخصية الرئاسية التي تعامل معها مباشرة كل ولاة الجمهورية، وهو ما يفسر تزايد دور الأمين العام كجسر بين الرئيس وبقية أجهزة الدولة، وهو وضع لم يكن يُرضي كثيرين، لأنه يعطي للأمين العام وضعية تكاد تكون وضعية رئيس الحكومة، وهكذا كان من المنطقي أن يحاول الأمين العام لعب دور متزايد الأهمية في غياب الرئيس، حيث كان هو الذي يبلغ كل مسؤول تعليمات الرئيس الموجود في موسكو، وبالتالي فإن كل كلمة يقولها ستعتبر كلمة الرئيس [42].

42 - حدثت أزمة كبيرة بين عبد المجيد ومحمد صالح يحياوي المكلف بجهاز الحزب آنذاك، كنت أشرت لها في كتاب "التجربة والجذور (دار الأمة – الجزائر) وملخصها أن عبد المجيد تحدث هاتفيا إلى يحياوي ليبلغه غضب الرئيس من تقاعس الحزب في الدفاع عن إجراءات اتخذت يومها في حق بعض أصحاب المخابز، وكان ذلك في شهر رمضان من عام 1978، ورد يحياوي غاضبا بأنه ليس من حق الأمين العام أن ينقل كلاما من هذا النوع، وبأن الحزب ليس بوقا لأحد. ونقل عبد المجيد ذلك فورا للرئيس الذي غضب واستدعى يحياوي هاتفيا (كما قال لي شخصيا) ولكن يحياوي رفض التوجه للرئاسة خلال ساعات الصيام، وقال ذلك للرئيس، الذي تنازل فغير موعد اللقاء إلى ما بعد الإفطار، وعندها عرف يحياوي، كما أبلغني فيما بعد، أن بعض المصالح الأمنية كانت ترسل للرئيس خلال شهر رمضان، ويوميا، كيسا مليئا بقطع الخبز التي تحتوي على مسامير أو حجارة أو قاذورات، وهو ما استثار غضب الرئيس الذي كان يردد بغضب شديد بأن المواطن في رمضان يعيش على الخبز والحليب، وكل تلويث لهاتين المادتين على وجه الخصوص هو عمل إجرامي، وكان هذا وراء التأميمات

(5)

بدأت متاعب الرئيس بشكل مزعج كمتاعب بولية، واختير لعلاجه طبيب جزائري متخصص في المسالك البولية، وأعطت صور الأشعة ما يمكن أن يعتبر ورما في المثانة.

ولقد أشرت إلى هذا لأقول بأن متاعب الرئيس الصحية كانت قد بدأت قبل أن يسافر، في سبتمبر 1978، إلى دمشق للمشاركة في القمة الثانية لدول الجبهة القومية للصمود والتصدي، ولقد عُرف هذا بأكثر من شهادة مباشرة، وأهميته هي التأكيد بأن مرض بومدين لم يبدأ مع مؤتمر دمشق، وهو يلغي صدقية ما تردد من أن الرئيس كان، خلال تلك القمة، ضحية لاغتيال بأسلوب مبتكر، استعمل أشعة معينة وجهت للرئيس، وإذا كان الأمر قد حدث بالفعل بهذه الطريقة فلعله حدث في القمة الإفريقية التي عقدت في الخرطوم خلال شهر يوليو من نفس العام، رغم أنني لا أملك دليلا واحدا مقنعا على ذلك[43].

وغادر الرئيس الجزائر إلى موسكو بعد أن رفض الذهاب إلى أي عاصمة أوروبية، وظل هناك نحو شهر ونصف، والمهم هنا أنه، ورغم سوء حالته وضعفه الشديد، لم يكن يحس أبدا بأن الأمل مفقود في شفائه، بل على العكس من ذلك كان يقضي وقته في التفكير في الخطوات التي سيتخذها بعد عودته، وكان من أهمها اتخاذ إجراءات أكثر حزما فيما يتعلق بتأثير سلطة المال على دوائر الحكم، ومن بينها تحويل مسؤولين عسكريين ومدنيين إلى وضعية التقاعد (وهو ما قرأته شخصيا بخط الرئيس في كراسة كان الرئيس الشاذلي بن جديد

التي مست بعض المخابز، ودفعت أحد أصحابها للانتحار ، ويدعي البعض أن تقارير من ذلك النوع كانت تستهدف الإخلال بالتوازن النفسي للرئيس.

43 - كنت أجلس خلف الرئيس عندما تكاثر أمامه المصورون، وأتذكر أنني تعرضت لإغماءة قصيرة إثر خروجي من مقر الاجتماع، وأعتقد أن ذلك كان نتيجة لحرارة الطقس، وأسجل الأمر لمجرد أنه حدث. ويروي عبد الملك كركب مدير الأمن الرئاسي في حديث متلفز عن الساعات الأخيرة للرئيس أن أهم ما لفت نظره في مؤتمر قمة الخرطوم أن الرئيس كان بالغ العصبية، وهو ما قد يوحي بأن شيئا معينا قد حدث.

قد عرضها عليّ بعد ذلك بعدة شهور) وعندما رخص الأطباء السوفييت للرئيس بالعودة إلى الجزائر في الأسبوع الثاني من نوفمبر حدد الرئيس بنفسه مراسيم الاستقبال، حيث حرص على أن يكون الوصول إلى مطار بو فاريك العسكري، وبحضور أقل عدد من المسؤولين وبدون تصوير، وكان هو الذي أعد سيناريو الوصول بخط يده، في الكراس الصغير[44].

ونزل الرئيس من الطائرة بصعوبة بالغة حيث كانت قدماه منتفختان، ولدرجة أنه لم يستطع لبس حذائه المعتاد، ونقل على الفور إلى آخر فيلا رئاسية كانت قد وضعت تحت تصرفه بعد زواجه بسنوات، وهي دار النخيل (Les Palmeries) في شارع البشير الإبراهيمي (وحولت بعد وفاة الرئيس إلى مقر لإحدى الجمعيات، تماما، كما حدث مع مكتبه وقاعة استقباله).

وخصصت فيلا "عزيزة" المقابلة لها لمجموعة طبية سوفيتية [45].

وروى لي مصور الرئيس التلفيزيوني محمد عوايطية أن الرئيس سأله عني بعد أن أدار رقم الهاتف الخاص ذي الرقمين واستمع إلى الرنين برهة ثم أغلق الخط [46].

---

44 – قرأت ذلك بنفسي في كراسة عرضها عليّ الرئيس الشاذلي بن جديد بعد توليه مسؤولياته الرئاسية، قائلا بأن العقيد مرباح سلمها له على أنها مذكرات الرئيس بو مدين في موسكو (أو جزء منها) وكان يريدني أن أؤكد له أن الخط هو خط الراحل، وهو ما حدث، حيث أعددت له مذكرة دراسية عن الموضوع كله، مؤكدا مصدر الخطه وقد ندمت لأنني لم أصور المذكرات، وكان ذلك لخشيتي من أن يسيء الرئيس الجديد فهم تصرفي في مرحلة كان كل منا يحاول التعرف أكثر على الآخر..

45 – كلام كثير يدور حول قصور عناية السوفييت، لا أنفيه ولا أؤكده، ويبدو أن السوفييت سمحوا بعودة الرئيس بعد أن أدركوا أن الحالة ميئوس منها، وقد تردد هذا بعد سنوات، لكن الذي لم يكن معروفا آنذاك هو درجة معرفة الحقيقة عند المسؤولين الجزائريين، ومعرفة من هم هؤلاء المسؤولين على وجه التحديد.

46 – كان الهاتف ذو الرقمين يربط الرئيس مباشرة بعدد محدد من المسؤولين السامين، وكان الهاتف يربط نفس المسؤولين أفقيا، ولكن عرفا جرى بأن يستعمل المسؤول أجهزة الهاتف الأخرى ليظل الخط الخاص مقصورا على استقبال مكالمات الرئيس، الذي عودنا على أن يترك الجرس ليدق مرتين ثم يغلق الخط، وهو ما يستنتج منه المستمع أن الرئيس هو الذي كان يطلبه، فيحاول طلبه إذا كان لم يلحق به.

والمهم هنا هو أنني لم أر الرئيس على الإطلاق منذ عودتنا من دمشق.

ويعلن في نهاية الأسبوع الثالث من نوفمبر عن نقل الرئيس إلى مستشفى مصطفى الجامعي إثر وقوعه في غيبوبة، وتجند الجزائر أكبر عدد من الأطباء الدوليين لعلاج الرئيس، بما بدا وكأنه خوف من اتهام بالتقصير، ولم يضف أحد منهم، على الأقل علانية، شيئا جديدا لما كنا نعرفه، وكان من بينهم البرفيسور WANDENSTROME، الذي أطلق اسمه على مرض الرئيس، الذي قيل أن ممن أصيبوا به الرئيس الفرنسي الأسبق جورج بومبيدو، مع ملاحظة فارق السن الكبير بين الرئيسين.

ويخيم على مقر رئاسة الجمهورية في المرادية صمت رهيب، وبدا الجناح الذي كنا نسميه "الطنب الكبرى" كأنه مخبر أخطبوطي تمتد له أكثر من ذراع في بعض المقرات القيادية، كان أكثرها غير معروف لنا، نحن العاملين في الرئاسة، وإذا كان عملنا في مديرية الإعلام قد سار على النحو المألوف، مع تركيز أكبر في نشراتنا اليومية على متابعة ردود الفعل الدولية، فإن عمل المستشارين ومن يزورونهم من بعض كبار المسؤولين كان تجسيدا لعملية ضرب الأخماس في الأسداس، وأدركت يومها ما معنى أن تكون هناك سلطة حقيقية وسلطة ظاهرية، وهو ما قلته لحوحات، الذي كان يردد التعبير أكثر من مرة في اليوم بما يجسد الاستغراب والدهشة، ثم ذكرني به بعد نحو عشرين سنة.

وكان من أكثر التعليقات دلالة قول دبلوماسي معتق هو امحمد يزيد رحمه الله (وأضع ألفاً قبل الميم لأنه كان يصر عليها في حياته، لتعني خلفية إصراره على أن يكتب اسمه بالفرنسية بوضع فاصلة بعد حرف"M" لتنطق مرتبطة بحرف "h" بعدها، أي هكذا M'hamed، وأعتقد أن المعنى واضح) بأن "الجماعة في الرئاسة (أي نحن في الطنب الصغرى) وصلوا إلى اليقين بأن النهاية قريبة، ففي البداية كانوا يبحثون عن المعاجم الطبية لفهم طبيعة المرض، ولكنهم اليوم عاكفون على دراسة مواد الدستور" (لتصور ما الذي سيحدث بعد الوفاة)

أما الطنب الكبرى فقد كانت تشهد اجتماعا مستمرا ومفتوحا لأعضاء مجلس الثورة، دعا إليه في اليوم الأول الأمين العام لرئاسة الجمهورية، مع محاولة بدت كأنها اتجاه لتثبيت وضع جديد يجعل منه منسق المجلس أو شيء من هذا القبيل، ولكن مراكز قوة أخرى فرضت نفسها على الأوضاع.

وفيما بعد بدأت متاعب عبد المجيد عندما حدث أنه تصرف تلقائيا خلال اجتماع لأعضاء مجلس الثورة، وكأنه هو الذي يرأس الاجتماع، ودُعيَ المرحوم رابح بيطاط بعدها لترؤس الاجتماعات.

ولم يسمح بزيارة الرئيس في المستشفي لغير الأقربين من أعضاء الأسرة، وظلت حرم الرئيس بجواره معظم الوقت، أما فيما يتعلق بالمسؤولين، ففيما أعرف لم يتجاوز العدد خمسة أشخاص من أهمهم عبد العزيز بو تفليقة وقاصدي مرباح.

ولم يعد سرا أن هناك على مستوى قمة الأحداث تكتلان رئيسيان بارزان، يضم أولهما عبد العزيز بو تفليقة[47] ومعه عبد المجيد أعلاهم وأخرين ويضم الثاني أساسا محمد الصالح يحياوي [48].

---

47 – أقرب المقربين للرئيس بو مدين منذ لقائهما على الحدود الجزائرية المغربية وأصغر وزراء الخارجية في العالم ومن أطولهم بقاء في الموقع، ويعتبره كثيرون مهندس تغيير 19 يونيو 1965 الذي قام بعزل الرئيس أحمد بن بله. كان رائدا في جيش التحرير الوطني ويُعرف بالاسم الحركي "سي عبد القادر"، وكان صلة الوصل بين العقيد بو مدين والقادة التاريخيين في سجن أولنوا Aulnoy الفرنسي، وخصوصا أحمد بن بله، وعُين بعد استرجاع الاستقلال وزيرا للشبيبة ثم تولى وزارة الخارجية بعد اغتيال وزيرها الأول محمد خميستي، وكان لتجاه بن بله لعزله نقطة الانطلاق للانقلاب عليه، وترأس الجمعية العامة للأمم المتحدة في يوم اختير له أن يكون يوم عطلة يهودية، فلم تشارك إسرائيل في الانتخاب الذي يتطلب الإجماع، وتردد كثيرا أنه كان مرشحا لرئاسة الجمهورية بعد وفاة بو مدين ولكنه لم يتقدم رسميا لأن القيادة العسكرية رأت تقديم الشاذلي بن جديد، وصفي سياسيا في المؤتمر الخامس للحزب في 1983 بعد أن أوقف بتقرير من لجنة الانضباط عن عضوية اللجنة المركزية.
واستعاد وجوده في الحزب عبر المؤتمر الاستثنائي الذي عقد بعد أحداث أكتوبر 1988، واستغرق عبوره للصحراء نحو عشرين سنة، يجيد العربية والفرنسية وعُرف بذكائه الشديد وصبره الأشد.

48 – مجاهد من قياديي الولاية الأولى، ناضل في الحزب بعد استرجاع الاستقلال ثم أصبح عضوا في مجلس الثورة بعد تغيير يونيو 1965 وتولى قيادة الكلية العسكرية في شرشال إلى أن اختاره الرئيس بو مدين منسقا لجهاز الحزب مكلفا بإعداد المؤتمر، وكان من الوجوه التي

بعد شهور كنت أجلس في مكتب مدير التشريفات عندما دخل عبد العزيز بوتفليقة، وجلسنا نتجاذب أطراف الحديث إلى أن وصل الأمر لقضية مرض الرئيس بو مدين، وقال الرجل الذي كان أقرب المقربين إلى الرئيس، أنه يتصور أن مرض الرئيس بدأ في 1974، وكان على شكل سقوط في شعر الرأس اضطره إلى تغيير أسلوب تمشيط شعره، مما أثار أيامها تعليقات كثيرة، كان من بينها إشاعات انطلقت عن أنه كان ضحية لإطلاق الرصاص عليه، مما أصابه في رأسه (أنظر الصورة 85)[49].

والواقع أن الإشاعات عن محاولات لاغتيال بو مدين كانت كثيرة، ومن بينها ما سمعته من الرئيس الشاذلي بن جديد بعد سنوات عن محاولة جرت في منتصف السبعينيات لاغتيال الرئيس خلال رحلة صيد، دبرها مسؤول سام اتفق مع أحد المقربين من الرئيس لتنفيذها، لكن هذا انسحب في اللحظة الأخيرة، ورغم أنني لا أستطيع تأكيد أي من تلك الإشاعات فإنني أستطيع أن أقول أن قوى كثيرة، في الداخل والخارج، كانت ستشعر بالسعادة البالغة إذا اختفى الرئيس الجزائري.

كانت هناك قوى دولية تعمل لإعادة ترتيب الأوراق على الساحة العربية بعد حرب أكتوبر، لتعبيد الطريق نحو سلام أمريكي إسرائيلي في الشرق الأوسط، بعد أن ارتفعت عائدات النفط بما جعلها من أكبر الدول المنتجة قوة سياسية واجتماعية مؤثرة على الساحة العربية والإسلامية.

قدمت كمنافس لبوتفليقة في الانتخابات الرئاسية إثر وفاة بو مدين، ولكنه لم يكن مرشحا بالفعل، كما قال لي شخصيا، وهو معرب حتى النخاع ومثقف متميز.

49 - لم أجد أمامي ما يؤكد هذه النظرية، لكن ما أعرفه هو أن الرئيس قام في منتصف السبعينيات بتغيير أسنانه طبقا لطريقة أعتقد أنها كانت جديدة، وقد تم ذلك في مستشفى صغير تابع لمديرية الأمن الوطني، في شارع "لي غليسين"، أي بجوار البيت الذي كانت تقطنه والدة الرئيس، وهو ما سمعته من المدير العام السابق الهادي خديري شخصيا، الذي قال لي بأنه كان يرابط في العيادة إلى أن ينتهي الطبيب من عمله، وكان جراحا أجنبيا جرى إستحضاره لهذه المهمة، ولا أعرف اسمه أو جنسيته

وعُرف بو مدين بدوره الديناميكي في المؤتمر الإسلامي وفي حركة عدم الانحياز وفي منظمة الوحدة الإفريقية، وتحدث باسم دول العالم الثالث في الجمعية العامة للأمم المتحدة في 1975 للمطالبة بنظام اقتصادي دولي جديد (بدلا من هذا النظام الحالي الذي وُضع في غيابنا، كما قال في خطابه)

وبلغ من أهمية مشاركة الرئيس الجزائري في المؤتمرات الدولية والإفريقية بوجه خاص أن رؤساء كثيرين كانوا يعتبرون مشاركتهم ناقصة إذا لم يحظوا باللقاء مع الرئيس بومدين، الذين كان بعضهم يناديه بلقب "باترون"، وهو ما سمعته بنفسي.

وعلى الصعيد الداخلي يجب أن أذكر بأن منتصف السبعينيات شهد تحذيرات الرئيس بو مدين من الانحرافات التي تعرفها مسيرة الثورة، مما اضطره إلى وضع خط فاصل بين الارتباط بالثورة والبحث عن الثروة، وهو ما كان تحذير أوليا وعلنيا من أخطار تنامي طبقة طفيلية في الجزائر، على غرار ما حدث في مصر إثر الانفتاح الاقتصادي الذي شهدته السبعينيات بعد حرب أكتوبر 1973.

ولعل هذا، وكما سبق أن أشرت إلى ذلك، هو ما جعل بو مدين يسارع إلى إعداد الميثاق الوطني ليكون القاعدة الإيديولوجية لحزب جبهة التحرير الوطني، والذي عرض للاستفتاء الشعبي العام في 1976، ثم تعيينه محمد الصالح يحياوي في العام التالي مسؤولا تنفيذيا مكلفا بشؤون الحزب وبإعداد مؤتمر الحزب، الذي كان ينتظر منه أن يعيد ترتيب الأوضاع على الساحة الوطنية، بما يقلل من احتمالات سيطرة النظرة الفوقية على التنظيمات السياسية، وهو ما قاله لي الرئيس حرفيا عندما قلت له، بعد الانتخابات الرئاسية في 1976 بأن الشعب ينتظر منه أن يقوم بعملية تنظيف يتخلص فيها ممن يحسبون عليه ويسيئون له.

وهذا يذكرني بما وجدته في وثائقي عن تلك الفترة، حيث سجلت ما قاله لنا الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في مكتبه برئاسة الجمهورية بعد وفاة بو

مدين وقبل عقد مؤتمر الحزب، وكنا أربعة، أحمد حوحات وبلقاسم نابي المستشارين برئاسة الجمهورية، والشاذلي بن جديد، عضو مجلس الثورة ومنسق الجيش آنذاك، حيث قال طالب بأنه سمع من بو مدين أثناء وجوده في موسكو للعلاج (نوفمبر 1978) بأنه ينوي الإعداد للمؤتمر، بدون أي نية لإجراء تعديلات جوهرية تمس أعضاء مجلس الثورة (وهو ما يتناقض تماما مع ما كنت أسمع به وأحسه).

ولقد سجلت هذه الملاحظة بعد سماعي في نفس الأسبوع لخطاب ألقاه الدكتور طالب نفسه في غرب البلاد بعد ترشيح الشاذلي بن جديد لرئاسة الجمهورية، وهو الخطاب الذي قال فيه بأن بو مدين كان مصمما على عقد المؤتمر (في 1978) ليكون مؤتمر التصفية.

ويؤكد هذا ما رواه عبد المجيد أعلاهم، الأمين العام لرئاسة الجمهورية بعد ذلك، في برنامج متلفز حول الساعات الأخيرة للرئيس، أنه سمع منه، تعليقا على الاستعداد للمرحلة القادمة من حياة البلاد، أنه "يجب أن تسقط رؤوس".

ولعلي، وقد أشرت لوجود الرئيس بو مدين للعلاج في موسكو، أنتهز الفرصة لإشارة سريعة، قد أعود لتفاصيلها فيما بعد، وتتعلق بمذكرات الرئيس خلال مرضه، والتي قرأت صفحات منها بنفسي، والمهم هنا هو أن أؤكد ثانية بأنه لم يكن فيها ما يشير إلى إحساس بأن حالته ميئوس منها، بل على العكس من ذلك كانت السطور توحي بأن الرجل يعد نفسه لعودة يبدأ بها الانطلاقة الجديدة للبلاد.

(6)

أحدثت وفاة الرئيس بو مدين صدمة هائلة على الساحة الوطنية والجهوية والدولية، ونشأ وضع جديد، كان أهم دلالاته أنه كان اختبارا ناجحا لصلابة المؤسسات التي أقامها نظام الحكم المنبثق عن 19 جوان 1965، أي تأكيد شعار "الدولة التي لا تزول رغم الأحداث وزوال الرجال"، فقد تم انتقال السلطة بكل

هدوء، وتولى رئيس المجلس الوطني الشعبي، السيد رابح بيطاط، مهام رئاسة الدولة بعد الإعلان عن وفاة رئيس الجمهورية في جلسة حزينة عقدها المجلس الشعبي الوطني طبقا للمادة 117 من الدستور، والتي كان من غرائب الصدف أنها كانت مجموع تاريخ وفاة بو مدين، أي 27+12+78=117 .

وعملت بجانب رئيس الدولة طوال الفترة الانتقالية كلها، وارتبط هذا معي بتجربة مريرة لا أنساها، عندما كان علي أن أملي أول خبر رسمي يتعلق بنشاط رئيس الدولة، فقد كنت أعطي أخبار الاستقبالات الرئاسية بنفسي هاتفيا لوكالة الأنباء الجزائرية، وكنت أبدأ عادة هكذا .. "استقبل الرئيس هواري بو مدين رئيس مجلس الثورة والحكومة فلانا بن فلان ..الخ، ويكون الخبر بالنسبة للشؤون العسكرية .. استقبل الرئيس هواري بو مدين القائد الأعلى للقوات المسلحة ..الخ[50].

وعندما بدأت في إملاء خبر الاستقبال الذي أجراه رابح بيطاط .. قلت وكأنني إنسان آليّ : استقبل السيد رابح بيطاط رئيس الدولة (ولم أقل .. رئيس الجمهورية) ..الخ، لكنني، عندما أنهيت إملاء الخبر استوعبت وفاة الرئيس، وحدث لي ما حدث في الطائرة التي سقطت في الفيتنام و فقدنا الوفد الإعلامي، فبمجرد أن وضعت سماعة الهاتف حتى سقطت على مقعدي وأنا أبكي بكاء مريرا [51].

▪ ● ●

---

50 - لم يكن يعلن عن الاستقبالات الرئيس العادية لكبار مسـؤولي الحـزب أو لأعضـاء الحكومة أو لقيادات النواحي العسكرية، وكان التقليد أن يعلن عن استقباله للأمانات التنفيذية للمنظمات الجماهيرية ببلاغ أقوم بإعداده ويحمل استعراضا لأهم القضايا التي طرحت في اللقاء مع تحديد توجيهات الرئيس لكن الرئيس يستقبلهم عند ذهابهم وإثر عودتهم من مهام رسمية يكلفهم بها ويُعلن عن ذلك (أنظر : أيام مع الرئيس)

51- فيما بعد وعندما ألغي اعتبار 19 جوان عطلة سنوية تماشيا مع منطق المصالحة الوطنية بين الأجيال وبين كل الوطنيين انطلقت الألسنة الشجاعة جدا من عقالها لتدين ما كنا نسميه "التصحيح الثوري"، متناسية أن تجاوز مأساة الاختفاء المفاجئ للرئيس بو مدين يعني أنه صدق وعده بإنشاء دولة لا تزول رغم زوال الرجال.

ونقل جثمان الرئيس من مستشفى مصطفى إلى قصر الشعب، وأخطرنا في الرئاسة بالأسلوب الذي حدده أصحاب القرار لإلقاء النظرة الأخيرة على الجثمان، لكنني رفضت ذلك وحرصت على أن أتصرف مع الحدث كله وكأنني أقوم بعملي العادي لتغطية نشاط الرئيس.

وكنت أدرك أن هناك من قرر استبعادي بكل وسيلة ممكنة، وهو ما تأكد عندما حرص الأمين العام لرئاسة الجمهورية، بمبادرة منه أو بتعليمات مباشرة أو غير مباشرة ممن يملك القرار، على تنظيم التغطية التليفزيونية للموكب الجنائزي مباشرة مع المدير العام للتلفزة الوطنية عبد الرحمن الأغواطي، وبدون إبلاغي أو استشارتي، رغم أن هذا يدخل في صلب عملي.[52]

وكان لا بد، وقد تذكرت محاولات السبعينيات، أن أخوض المعركة بكل هدوء وبكل إصرار، معتمدا نفس الأسلوب الذي سرت عليه، وهو فرض الوجود عبر القيام بالواجب كاملا بكل كفاءة وفعالية، وبدون استفزاز لا طائل من ورائه أو تعنت في التوقف عند الصغائر، ولكن بدون تنازل عن الأولويات أو تغاض عن الكبائر.

وبينما كان موظفو الدولة يستعدون للتجمع في الساعة المحددة للتوجه نحو قصر الشعب كنت أنا قد وصلت إلى القصر، وتقريبا في نفس الوقت الذي كان الأمين العام يتجه نحو التابوت ليقف ترحما على الراحل، ووجدت نفسي أقف بجانبه، رغم أنني أحسست للحظات أنه كان يريد أن يظل وحيدا، لكنني تصرفت بدون تفكير وكأننا نعود سنوات إلى الخلف لاستقبال أوراق اعتماد سفير جديد.

---

52 - قيل أن من خلفيات محاولات الإبعاد هو أن اسمي ارتبط دائما بالأخ محمد الصالح يحياوي، الذي قدم آنذاك كخصم للأخ عبد العزيز بو تفليقة، لكنني أتصور أن الخلفية الحقيقية هي أن الأمين العام ومن يرتبط معهم كانوا يعتبرونني دائما دخيلا على المؤسسة، وبذلت محاولات كثيرة لتحجيمي في سنوات عملي الأولى في الرئاسة، وقد أشرت لبعضها وتجاهلت البعض الآخر، لمجرد أن معنيين كثيرين هم في دار البقاء.
والواقع أنني، وأنا أكتب هذه السطور، أحس بتمزق رهيب في وجداني، بين احترام ذكرى من لا يملكون دفاعا عن أنفسهم وبين الحقائق التي تصور كواليس الحياة السياسية خلال مرحلة بالغة الأهمية من حياة الأمة.



تابوت الرئيس بومدين موضوع في القاعة الكبرى لقصر الشعب



محي الدين
عميمور وعبد
المجيد أعلاهم أول
المترحمين على
جثمان الرئيس



عبد المجيد أعلاهم يودع الوفد الكويتي



عميمور يودع
الرئيس النميري



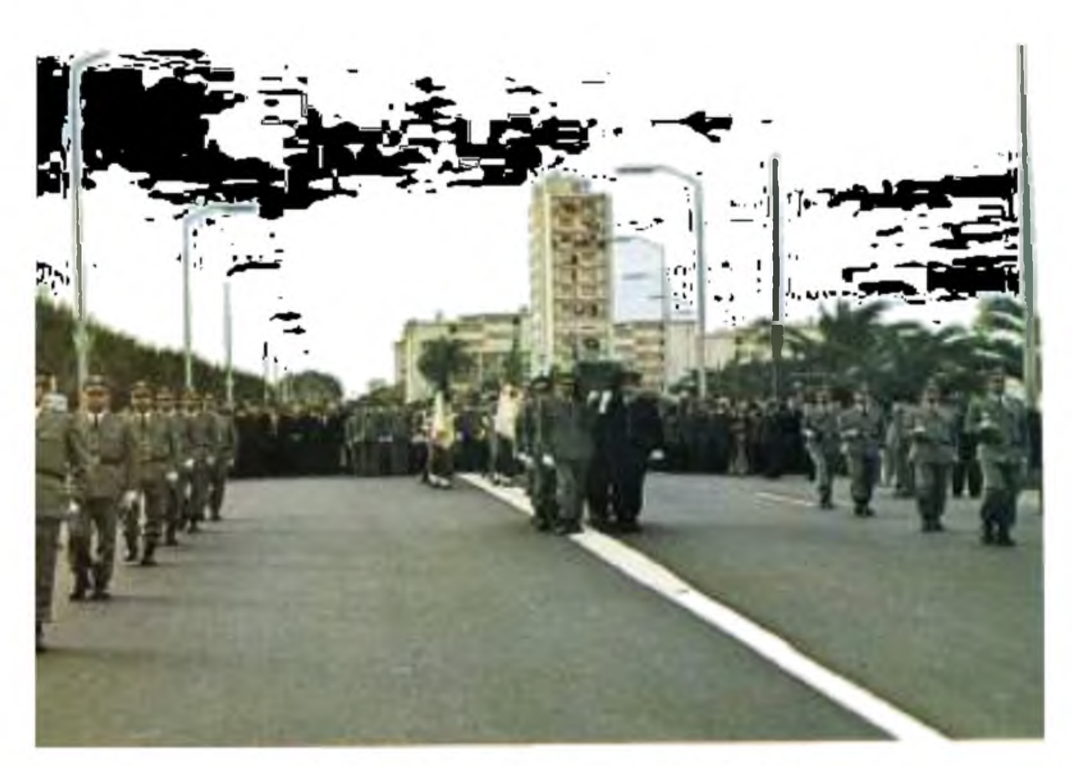
سهرة دينية على جثمان الرئيس بومدين



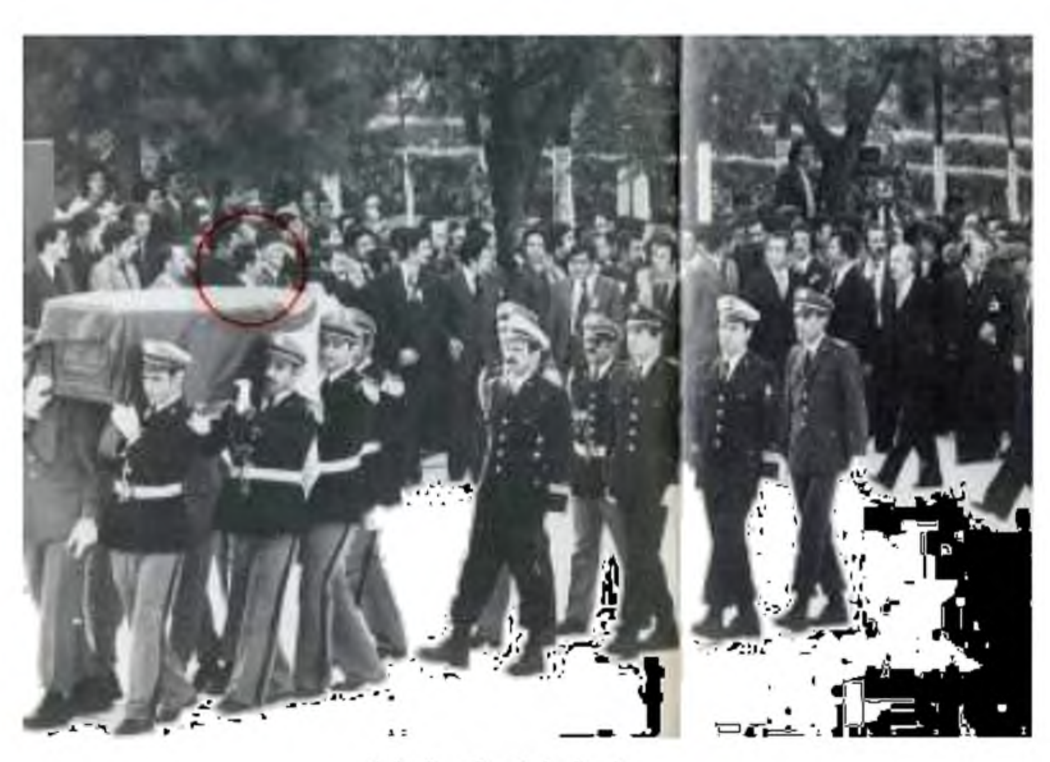
خروج التابوت من قصر الشعب (على اكتاف بيطاط، بن شريف، الشاذلي، يحياوي)



الجنازة أمام المسجد في ساحة الشهداء (عميمور إلى اليمين)



بداية الجنازة الرسمية على مشارف العالية



وصول الجثمان إلى العالية

كان التابوت مغطىً بتلال من الورود، وأمامه صورة الرئيس الرسمية، والتقط المصورون لنا عدة صور تذكارية، ثم أشرت لرفيقي لنترك المجال لغيرنا، وكان هناك من قال لي فيما بعد أنه كان يريد أن يظل وحده أمام التابوت، ثم يعمل على نشر الصورة في الصحف لتعطي إيحاءات ارتآها، وأخذت ذلك من باب تسميم الأجواء الذي ألفته من البعض، وانتحيت ركنا من أركان القصر حيث انفجرت باكيا، وتركت نفسي على سجيتها، إلى أن أحسست بأنني قادر على السيطرة على عواطفي.

ثم رحت أواصل عملي كالمعتاد في توجيه رجال الصحافة، وانزلقت بحكم ضغط المعزين في قصر الشعب إلى المساهمة مع رجال التشريفات في استقبال الجماهير الغفيرة التي تهاطلت على القصر بتلقائية رهيبة، ثم لاستقبال الضيوف الأجانب يوم تشييع الجنازة، وتنظيم عمليات التوقيعات في سجلات التعزية بالنسبة لكبار المعزين.

وحدث شيئ غريب، فقد كنت أبادر بالخروج مع بعض كبار المعزين لتوديعهم على باب القصر عندما ألاحظ غياب من يقوم بذلك، لكنني لاحظت أن أمراء الخليج كانوا يجدون دائما من يسارع إلى القيام بالواجب، ووجدت نفسي أقوم بتوديع النميري وضياء الحق وآخرون أقل أهمية.

وتقرر أن تكون الجنازة رسمية وشعبية في الوقت نفسه يوم الجمعة (بتنبيه من محمد عباس)، وربما بعد دراسة معمقة لجنازة الرئيس جمال عبد الناصر، كما بدأ إعداد خطاب التأبين الذي يلقيه أحد أعضاء مجلس الثورة، وكانت المعلومات التي ترددت آنذاك أن النص الرئيسي كان من إعداد علي بن محمد أساسا رحمه الله، وربما ساهم معه أحمد طالب، بينما استبعدتُ أنا من العملية تماما [53].

---

53 - خلال زيارة قمنا بها إلى البحرين في خريف 2002 قال لي محمد العربي ولد خليفة، كاتب الدولة السابق للشؤون الثقافية ورئيس المجلس الأعلى للغة العربية، بأنه هو الذي أعد النص الأصلي لخطاب التأبين، بطلب من الأخ عبد المجيد أعلاهم، ولم أخف أنني فوجئت بالأمر الذي سمعه معي عميد كلية الآداب بجامعة الجزائر حيث أن ما كنت سمعته هو أن النص أعده علي بن محمد ليتلوه محمد الصالح يحياوي.

وكان التصور أن يلقي يحياوي خطاب التأبين، بصفته مسؤولا تنفيذيا للحزب، وكان هذا أمرا منطقيا في بلد الحزب الواحد، لولا أنه يقدم يحياوي في صورة الخليفة المطلوب تثبيته، وربما، ولهذا السبب نفسه، ناور عبد المجيد وربما مرباح أيضا، بشكل بالغ الذكاء، ليتولى عبد العزيز بو تفليقة إلقاء النص التأبيني في المقبرة، وقد ألقاه بأسلوب رائع استقطب عواطف الجماهير التي كانت تتلقى الاحتفال على المباشر، وكان كثيرون يعيدون الاطلاع على شريط الخطاب المسجل في سنوات الردة.

وكانت الجنازة، على حد تعبير الرئيس الأسبق محمد بو ضياف، استفتاء شعبيا على شخص الرئيس الراحل، وقد دفعه هذا إلى حل حزبه المعارض وهو يقول ما معناه بأن رجلا يحبه شعبه كل هذا الحب لا بد أنه كان على حق.

وخلال الجنازة رفضت الركوب في السيارة المخصص للمستشارين في الموكب الجنائزي وفضلت الركوب، كعادتي في النشاطات الرئاسية، في سيارة الجيب التي كانت تسبق سيارة المصورين الصحفيين والتي تسبق بدورها سيارة الرئيس (أنظر الصورة أمام المسجد) ثم ساهمت في تنظيم وضع أكاليل الزهور هائلة العدد على القبر بعد أن خرج كل الرسميين، ثم ودعت الرئيس كما تعودت أن أودعه وهو على قيد الحياة، أي بوقفة "انتباه" لكنني أضفت هذه المرة قراءة الفاتحة، وكنت يومها من آخر الذين غادروا المقبرة[54].

وأتذكر هنا أمرا أرى أن من حقي بل ومن واجبي تسجيله.

فقد كنا ذهبنا، الأخ مولود حمروش، وأنا إلى مقبرة العالية عشية الجنازة لنطمئن على الترتيبات المتخذة، ولست أدري كيف لاحظتُ اتجاه الشمس المائلة

وبالنسبة لدروس جنازة عبد الناصر تم تجميع الوفود الرسمية في موقع يقع على بعد عدة مئات من الأمتار عن المقبرة، ولنتهي هناك التشييع الشعبي الذي بدأ من الجامع الكبير ورافق التابوت الموضوع على عربة مدفع تجره سيارة مدرعة، وبدأت الجنازة الرسمية بعيدا عن الجماهير الملتاعة والتابوت محمول على أعناق ضباط الجيش.
54 - أنظر : / .. دين : التجربة والجذور - دار الأمة - الجزائر.

إلى المغيب واستنتجت اتجاه الجهات الأربعة ثم لاحظت خطأ اتجاه أضرحة الأمير عبد القادر وكل قادة الثورة والمفروض أن يكون نحو القبلة، أي أن يكون رأس الضريح متجها نحو الجنوب الغربي، ووقفت مذهولا للحظات ثم كاشفت رفيقي بما أراه، فسألني بانزعاج : هل أنت متأكد مما تقول؟ وقلت له أمامك القبور وهاهو اتجاه الشمس.

ولا أعرف إن كان مولود قد استشار أحدا أم لا لكن اتجاه ضريح بو مدين وكل من دفنوا بعده كان في الاتجاه الصحيح وعكس بقية الأضرحة، وهو ما زلت ألاحظه اليوم في كل زيارة للعالية.

وهكذا ووري الرئيس بومدين الثرى، لكن المشاعر العاطفية التي صاحبت الحدث لم تمنع الكثيرين من تساؤلات كانت تتزايد يوما بعد يوم، وأصبحت، بعد الوفاة، هواجس حول المستقبل.

* * *

والمؤسف أنه، خلال الفترة العصيبة التي سبقت ثم تلت وفاة الرئيس، كان مصدر المعلومات الرئيسي بالنسبة للجميع، وربما باستثناء قلة كانت تمسك بخيوط الأحداث، هو وكالة الأنباء الفرنسية، التي كانت تقدم للعالم صورة الوضع في الجزائر، أو الصورة التي يريدها البعض عن الجزائر.

وبدأت ألاحظ أن بعض برقيات الوكالة الفرنسية كانت تبدو أحيانا وكأنها استنساخ لنص سلم لها لتنشره كما هو، وكانت معلوماتها أحيانا من الدقة بحيث يكاد يبدو وكأن مراسلة الوكالة في الجزائر فيرونيك ديكودو Véroniquc DECODU تعيش داخل مركز صنع القرار [55].

---

55 - تولت فيرونيك فيما بعد رئاسة قسم المغرب العربي في الوكالة، وأذكر يوم قولني مراسل وكالة الأنباء الفرنسية ما لم أقله في بغداد خلال زيارة الرئيس الشاذلي في 1980 أن بعض رفاقي في الوفد صدقوا المراسل، في حين أن فيرونيك كانت أقوى منهم بصيرة وذكاء ومعرفة بالجزائر، إذ عنفت مراسلها وقالت له بأن ما نقله لا يمكن أن يكون موقف الدكتور عميمور الذي تعرفه.
وكانت على حق، لأنها كانت تبحث عن الحقيقة وكان الرفاق على خطأ لأنهم نظروا للأمر بعين السخط.

وكان التساؤل المرير الذي كنّا نجتره صباح مساء في الطنب الصغرى : "من يزود الوكالة بهذه الأنباء؟" وتلا هذا تساؤل آخر عن نسبة المعلومات الموجهة فيما يسرب للوكالة، وعن الهدف الحقيقي من ذلك ؟"، وليس هذا مجال محاكمة الإعلام في الجزائر، ولكن الشيئ المؤكد هو أن رجال الإعلام أنفسهم لم يكونوا مسؤولين في المقام الأول، بل إن المسؤول الرئيسي هو محيط القرار السياسي.

وإذا كان انتقال السلطة إلى الوضعية الانتقالية تم بهدوء تام وباحترام كامل للدستور فإن الوضعية نفسها لا تنطبق على الإعلام، بعد أن غاب الرجل الذي تأكد اليوم أنه كان الوحيد الذي يدرك أبعاد الإعلام ومستلزماته، ولكن الوقت لم يمهله لخلق الميكانيزمات الضرورية لتأكيد حيويته في كل الأوضاع، خاصة بعد التغيير الوزاري في 1977، وبهذا كانت التغطية الإعلامية الوطنية بالغة السوء خلال مرض الرئيس ثم بعد وفاته.

ولأنني كنت أستمد قوتي من دعم الرئيس ومن تفهمه وإدراكه لكل المعطيات، فإنني وجدت نفسي مرة أخرى، خلال هذه الفترة، في وضعية غربة حادة، مكتوف اليدين معصوب العينين مكمم الفم، وعندما اختفى راعي مديرية الإعلام أصبحت آخر من يعلم، وتصور البعض أنها نهاية المديرية التي كان البعض خارج الرئاسة يتصور أنها في ضخامة مؤسسة الفضاء الأمريكية "نازا"، في حين أنها كانت مجموعة محدودة من المكاتب التي أثبتت وجودها بفضل عدد قليل من المناضلين والشباب.

وعشت مشاكل متعددة مع وزير الثقافة والإعلام آنذاك، وكان واقعا تماما تحت تأثير بعض معاونيه، ممن كانوا يخيفون كل وزير للقطاع من إخطبوط مديرية الإعلام بالرئاسة، ولكنني أعرف اليوم بأن هذا لم يكن كل شيئ، فقد كانت هناك خلفيات وأحكام مسبقة لم أكتشفها إلا عندما سطع نجم رضا مالك خلال مرحلة الفتنة، وأصبح محسوبا على الاتجاه الاستئصالي، وبرز تناقضه الاستراتيجي مع كل الذين يعتزون بالانتماء العربي الإسلامي، لصالح ما يسميه

العلمانيون الجدد "الإسلام الجمهوري". وسُجّل عليه خلال رئاسته للحكومة تجسيده لأفكار وتصرفات التيار الاستئصالي، وعبر عن ذلك بكلمته المشهورة والمشينة "على الخوف أن ينتقل إلى موقع الطرف الآخر"، بدلا من القول، وهو مسؤول عن جميع الجزائريين : على الخوف أن يختفي من البلاد كلها.

وكنت قد استطعت تكوين شبكة اتصالات إعلامية كبيرة خلال السنوات الماضية، وجعلتني العزلة التي فرضت عليّ أشعر بمرارة متزايدة، إذ كنت أضطر للتهرب من بعض الصحافيين الدوليين الذين كانوا يلجئون إليّ لفهم ما يحدث، وأدركت أن المطلوب هو محاولة تحجيم دوري على طريق إظهاري بأنني "شاهد ما شافش حاجة"، وبالتالي محو دوري في الماضي وإلغائه في الحاضر والقضاء على أي دور مؤثر في المستقبل.

لكنني لم أغلق بابي أمام الصحفيين، وكان منطلقي هو التعامل بنزاهة مع الوقائع ورفض الإجابة على أسئلة لا أعرف إجاباتها ولكن بالأسلوب الذي يعطي الشعور للسامع بموقف التحفظ لا بوضعية الجهل، ورأيت أن مجال التحليل السياسي يعطيني، بحكم دراسة خلفية المعطيات ومعرفة الساحة وبعض المعلومات المتناثرة، إمكانية تقديم الصورة المناسبة للصحفي، بحيث أحافظ على الوجهة التي أراها، كوطني، وأحارب التسريبات الإعلامية المغرضة بقدر الممكن.

وهكذا لم أحاول الدخول في سباق على بث الأنباء، سأكون الخاسر فيه على أي حال.

وكان الخط العام لتحليل الموقف كما كنت أقدمه هو كما يلي :

شهدت السبعينيات اختفاء قادة ثلاثة يمثلون الكثير بالنسبة لشعوبهم وللمنطقة بل وللعالم أجمع.

في بداية السبعينيات توفي جمال عبد الناصر.

وفي منتصف السبعينيات اغتيل الملك فيصل بن عبد العزيز.

وقبل أن تنتهي السبعينيات توفي هواري بو مدين.

وليس هذا هو مجال لاستعراض التطورات التي عرفتها مصر، مثلا، بعد وفاة عبد الناصر، لكن التساؤل الرئيسي كان عن التطورات التي يمكن أن تشهدها الجزائر بعد وفاة بو مدين، ومدى التمسك بالنهج الذي اختارته في السبعينيات، ومدى مقدرتها على دعم إيجابياته واستئصال سلبياته، وهو ما كان يُعدّ له بو مدين في مؤتمر الحزب الذي كان يستعد له.

وكان في هذا كله مجال خصب للتحليل والإسقاطات.

(7)

واصل مجلس الثورة اجتماعه المفتوح، بعد أن انضم للاجتماع رئيس الدولة، الأخ رابح بيطاط، الذي تقرر أن يترأس الاجتماعات، رغم أنه لم يكن عضوا [56].

وواصل الأمين العام للرئاسة مشاركته، ولكن سلطته حجمت.

وبدأت الصورة تتضح لي أكثر فأكثر وأنا أعيش، خلال يناير 1979، الجو الذي خلقته المعلومات الموجهة، والتي دفعت الجميع إلى توقع انفجار على الساحة الجزائرية، نتيجة للصراع الحاد بين بو تفليقة وأنصاره من جهة ويحياوي وأنصاره من جهة أخرى، طبقا للصورة التي ذاعت وشاعت، وما زالت بقاياها حية إلى يومنا هذا، ولم يكن سرا أن الجزائريين كانوا يطمحون إلى أن تنتقل السلطة في بلادهم إلى يد أمينة، بعيدا عن أي قلاقل وفي إطار الاحترام الكامل للدستور، الذي يحدد أن جبهة التحرير هي التي تختار المرشح لرئاسة الجمهورية.

56 – قال لي العقيد طاهر الزبيري عضو مجلس الثورة السابق أنه نادى في الستينيات باعتبار رابح بيطاط عضوا في مجلس الثورة، ولم يلق ذلك النداء قبولا جماعيا، وأحسست فيما بعد أن شيئا بقي في نفس بيطاط الذي كان يرى نفسه، كزعيم تاريخي، جديرا بعضوية المجلس، وقال يوما لبوتفليقة : لقد حصلت على عصا الماريشالية في أول نوفمبر 1954، وتصوري أن اختيار بومدين له كوزير دولة ثم تقديمه لتولى رئاسة المجلس الوطني الشعبي كان نوعا من الترضية وإحقاقا للحق.

ويعقد اجتماع لكبار الضباط في المدرسة التقنية التي يديرها العقيد العربي بلخير، يتم فيه اختيار العقيد الشاذلي بن جديد منسقا للجيش الوطني الشعبي، ويقدم بهذه الصيغة للمؤتمر ليتم اختياره أمينا عاما للحزب، وبالتالي مرشحا وحيدا لرئاسة الجمهورية، وكان هذا بداية دور سياسي متعاظم لقيادات المؤسسة العسكرية في تسيير سياسة البلاد.

وبدأ الشاذلي يتردد أكثر فأكثر على مقر رئاسة الجمهورية، حيث كنا نلتقي في مكتبي لساعات وساعات، كما كنّا نلتقي في مكتب الدكتور أحمد طالب، الموجود في نفس الدور بمنطقة الطنب الصغرى، وكنت بالطبع أحاول أن أعرف منه ما يمكن معرفته حول المعطيات المرتبطة بهذه القضية.

وحاولت في البداية أن أعرف من يحياوي نفسه موقفه، فقال لي أن الشاذلي جاءه، قبل المؤتمر الرابع بالطبع، يسأله عن رأيه فقال له "إذا كنت واثقا من قدرتك على تحمل المسؤولية فتقدم ونحن معك"، وسأله الشاذلي لماذا لا تتقدم أنت ؟ فأجاب بأنه لا يتوفر على الضمانات الكافية للنجاح".

ويضيف يحياوي بأن الشاذلي قال له بأن الجيش يضغط عليه لقبول الرئاسة، وتم الاتفاق بين الاثنين على التوجه لرابح بيطاط ليطلبوا منه التقدم للمنصب، على أن يُجرى تعديل دستوري يمكنه من ذلك، لكن بيطاط، والرواية دائما ليحياوي، "بدا مُحرجا، وقال لي بمحضر الشاذلي أن هناك إجماعا من الجيش على الشاذلي"[57].

---

57 - قيل أن صاحب الاقتراح باختيار الشاذلي بن جديد هو العقيد أحمد بن شريف، الذي سبق أن قلت أنه رشحني لوزارة الإعلام، وبن شريف ضابط سام ومجاهد صلب ورجل فاضل يتسم بالكرم والأريحية وهو ممن يُطلق عليهم رجال الخيمة الكبيرة، أي ملاذ الباحث عن الدفء بكل معانيه، كان ضابطا في الجيش الفرنسي وانضم مع عدد من مجموعته الجزائرية إلى جيش التحرير في 1957 حيث ساهم في تكوين رجاله عسكريا، والتزم مع العقيد بو مدين في صراعه مع الحكومة المؤقتة، وتولى قيادة الدرك الوطني بعد استرجاع الاستقلال فأعطاها كل طاقته، ودعم تصحيح يونيو 1965 ضد الرئيس بن بله وقد يكون اقتراح قائد الدرك الوطني السابق واردا، ولكن المؤكد أن هناك معطيات لم تعرف بعد، والطريف هنا هو أن بن شريف كان من أشرس خصوم بو تفليقة، ونقل عنه قوله بأنه سيحلق شاربه لو نجح

وسألت يحياوي بأسلوب مباشر عن احتمال ترشيحه لرئاسة الجمهورية، فقال لي حرفيا أنه ليس مستعدا لذلك، وأن علينا جميعا أن نضم صفوفنا خلف الشاذلي بن جديد.

وقد روى لي الرئيس رابح بيطاط بعد أن تخلص من أعباء الرئاسة قصة زيارة كل من الشاذلي ويحياوي له، لمحاولة إقناعه بترشيح نفسه لرئاسة الجمهورية، وعبر بيطاط، كما روى لي، عن تمسكه بنص الدستور الذي يمنع رئيس الدولة المؤقت من ترشيح نفسه، وردّ يحياوي بأنه من الممكن تعديل الدستور باقتراح من مجلس الثورة (وهو، للأمانة، اعتداء على الدستور) وقال بيطاط بأن الشاذلي ظل صامتا ولم ينبس ببنت شفة، ويواصل شهادته قائلا لي أنه "في اليوم التالي التقى يحياوي، الذي "عاتبه على عدم قبوله"، وكان رده بأن: "على يحياوي أن يعرف بأن الشاذلي نفسه زاره في اليوم السابق رفقة قاصدي مرباح، وأن الأخير عبر عن إرادة الجيش في التمسك بحرفية النص الدستوري، وبأن الشاذلي قال له حرفيا : إنني أعتبر تأييدك لي أمرا مفروغا منه"[58].

هذا في أن يكون رئيسا، ثم راحت أيام وجاءت أيام وعاش بو تفليقة وضعية نفي اختياري مرير، والتقيت يوما العقيد الذي كان يُتابع أحداث التسعينيات بألم شديد فقال لي لو عاد بو تفليقة فسأذبح له كبشا، ورجع بو تفليقة بالفعل، واستوقفني بن شريف وأنا أسير في الشارع يوما ليقول لي : أتتذكر ما قلته لك ؟ لقد ذبحت لعبد العزيز كبشا وأرسلت له كبشا آخر، وكان العقيد عضوا في مجلس الثورة منذ التصحيح وظل كذلك حتى 1977 حيث سُمّي وزيرا للبيئة وإصلاح الأراضي والمياه، ودعم الشاذلي بن جديد في بداية ولايته ولكن تم التخلص منه فيما بعد بواسطة لجنة الانضباط الحزبي ثم أجهز عليه مجلس المحاسبة التي انتقلت رئاسته إلى يد جديدة، لكن المؤكد هو أن القيادة العسكرية هي التي تحملت مسؤولية المناداة بالشاذلي رئيسا، وستعرف الساحة خلطا متعمدا بين دور بعض القيادات العسكرية ودور المؤسسة العسكرية نفسها، وسيرفع بعض المدنيين ممن يعرف عن بعضهم كره الملابس العسكرية شعار الدفاع عن المؤسسة للدفاع عن تلك القيادات والاستفادة الشخصية من تلك الوضعية، بينما سيتجاوز بعض العسكريين مهماتهم التي حددها الدستور، وسيؤدي ذلك إلى خلل رهيب في ميكانيزمات السلطة تتبعثر فيه المسؤوليات ويبرز بفضله الانتهازيون.

58- قال له حرفيا كما روى لي الرئيس بيطاط: "ياسي رابح.. الورقة انتاعك في جيبي"، وقد فشلت في إقناع الرئيس رابح بيطاط بكتابة مذكراته وعرضت عليه أن يمليها عليّ فرفض.

وقال لي بيطاط بأن بو تفليقة شجعه على التقدم لمركز الرئاسة ولكنه أجابه قائلا : "لقد تسلمت عصا الماريشالية يوم أول نوفمبر 1954، والواقع هو أنه لم يكن هناك من بين أعضاء مجلس الثورة من كان يستطيع تحقيق إجماع حول شخصه، فقد كان يحياوي مكروها من عدد من زملائه ولأسباب منها الموضوعي ومنها الذاتي، كما أن بو تفليقة كان يواجه بعداء حاد من بعض الأعضاء، لكن الغريب في هذه القضية هو أن اسم الشاذلي برز في باريس كرئيس للبلاد قبل أن نسمع عن ذلك في رئاسة الجمهورية في الجزائر.

والذي حدث هو أن عدد مجلة "المستقبل: التي يصدرها نبيل خوري في باريس نشرت على غلافها في الأسبوع الأول من شهر يناير 1979 صورة للعقيد في جنازة الرئيس بومدين بالملابس المدنية، وتحت الصورة كلمة واحدة، كانت : "الخليفة"، ويقال أن المجلة كانت تحظى برعاية خاصة من بعض المصالح الفرنسية، لكن السؤال.. من الذي كان من بيننا على علاقة بها ؟.

وتأكد لي آنذاك أن الحديث عن صراع بين مرشحين متناحرين كان يستهدف خلق حالة قلق عام والدعوة غير المباشرة لترشيح شخص ثالث، لعله يبدو أقل الجميع طموحا وأكثرهم مقدرة على جمع الشمل وضمان الاستقرار، ومن يمكنه أن يقوم بذلك غير من ارتضته المؤسسة العسكرية منسقا لها.

ولا أستطيع أن أجزم بأن اتفاق أعضاء مجلس الثورة كلهم على اختيار الرجل كان اقتناعا به، بل أتصور أنه كان أساسا قبولا بأمر واقع لا يمكن مجابهته بشكل مباشر، والمؤكد أن العقيد مرباح لعب دورا رئيسيا في هذا المجال، وكان ذلك بداية دور متزايد لقيادات المؤسسة العسكرية في اختيار المسؤولين السامين في الدولة، والذي وصل، في مرحلة معينة، إلى ترشيح الوزراء والأمناء العامين للوزارات والسفراء ومديري بعض المؤسسات، ثم في مرحلة أخرى دامية... رؤساء البلديات بل ورؤساء الأحزاب وجمعيات المجتمع المدني.

ولأن الملف الأمني جزء من ملف أي مرشح لأي منصب فإن القرار في نهاية الأمر لم يكن قرار المؤسسة بكل فروعها وإداراتها وإنما قرار الإدارة المكلفة بالتحقق من الملف[59].

وواصلت عملي بجوار رابح بيطاط خلال الأيام العصيبة التي تلت وفاة الرئيس، وبدأ العمل لعقد المؤتمر، الذي كان مطلوبا منه أن يختار الرئيس الجديد للبلاد عبر اختياره أمينا عاما للحزب.

والواقع أن عملية الاستعداد للخلافة بدأت قبل وفاة بو مدين، ويرى كثيرون أنها بدأت مع تسرب تفصيلات كثيرة في مستويات قيادية عن مرض الرئيس، في حين أن ألسنة السوء ترى أن الاستعداد بدأ قبل ذلك بكثير أو بقليل عند من كانوا يعرفون حقيقة الوضع الصحي للرئيس، وهو ما يطرح من جديد خلفيات مرض الرئيس الحقيقية. وكان السؤال المطروح هو كيف يمكن أن يتحقق انتقال السلطة بشكل يحترم الدستور ويحقق الإجماع الوطني ويضمن الاستقرار وعدم تعثر المسيرة.

وتعرف الأسابيع التي تلت وفاة الرئيس صراعا بين اتجاهين، أولهما يرى أن يتم ترتيب البيت وملء الفراغ الذي تركه بعقد مؤتمر للإطارات الوطنية، كتلك التي عُرف بها عهد بو مدين لدراسة القضايا الوطنية الهامة، خصوصا قبل قيام المجلس الشعبي الوطني في 1977، وكان عبد العزيز بو تفليقة من دعاة هذا الطرح، بتأييد عدد من أعضاء مجلس الثورة ممن ينسجمون مع وزير الخارجية، الذي كان أقرب الناس للرئيس الراحل، لكن آخرين وقفوا ضده بدرجات مختلفة من التشدد والالتزام، وكان أسوأهم بعض منافسيه السابقين،

---

59 - اجتمعنا في مكتب الأمين الدائم للمجلس الأعلى للأمن وكان آنذاك العقيد عباس بن غزيل وثالثنا وزير الإعلام الثاني في عهد الرئيس الشاذلي بن جديد، وكان محور الاجتماع اختيار مسؤولي أجهزة الإعلام الوطنية،وأخذ بن غزيل في تلاوة الأسماء مضيفا لكل اسم بعض المعلومات المتعلقة به، وعندما نطق تعبير : "الكفاءة المهنية" أوقفته قائلا بأن هذا دور المسؤول السياسي لا الأمني، وللأسف فإن الوزير المعني، وربما بحكم انتمائه السابق، رفض منطقي وأقر العقيد على موقفه، ورفضت أنا أن أستكمل معهم الاجتماع.

وعلى رأسهم شريف بلقاسم، ومنهم من انطلق في مواقفه من منطلق كره بو تفليقة شخصيا، وحافظوا على ذلك طوال السنوات التالية، حتى بعد اختياره رئيسا للمرة الثانية وتصرفوا معه بما جعلهم يفقدون مصداقيتهم السياسية على الساحة الوطنية، رغم أن بينهم رجال لا جدال في وطنيتهم، ولكن الكره الشخصي كان أكثر تأثيرا ولأسباب لا أزعم أنني أعرفها كلها.

وقد يكون للأمر علاقة بزواج الرئيس في النصف الأول من السبعينيات.

وكان من الخصوم من اتخذ موقف العداء من الرجل ولكنه تضامن معه بعد تصفيته في منتصف الثمانينيات، ومن بين هؤلاء العقيد أحمد بن شريف.

وكان هناك من كان يرى أن إطارات الدولة تضم عددا كبيرا من التقنيين والموظفين غير الملتزمين Commis de l'état، وهؤلاء ليس من حقهم أن يرسموا مستقبل البلاد.

وكانت هذه أهم مبررات الموقف الذي دافع عنه الجهاز الحزبي بكل ضراوة، انطلاقا من الوفاء للرئيس الراحل ومواصلة مسيرته، وهو موقف محمد الصالح يحياوي الذي ينادي بعقد مؤتمر لحزب جبهة التحرير الوطني، وفاء لإرادة الرئيس الراحل وللنهج الذي سطره، بالإضافة إلى أنه احترام للدستور، الذي ينص على دور الحزب في اختيار رئيس الجمهورية، حيث أن الأمين العام للحزب هو المرشح الوحيد لرئاسة الجمهورية.

وكان يحياوي، بعد أن اختاره الرئيس بو مدين مسؤولا تنفيذيا للحزب، قد تمكن من إقامة تنظيم حزبي يدين له بالولاء إلى حد كبير، استند فيه إلى عناصر اليسار المشهورة بالديناميكية، والتي كانت من الذكاء بحيث انخرطت في المسيرة تحت شعار "التأييد الناقد" (Le soutien critique) وهو ما يضمن الفوائد ويزيدها ويُنقص من المؤاخذات أو يُلغيها.

كما استراح يحياوي من أكبر خصومه وهو الحزبي العريق محمد الشريف مساعدية، الذي عين وزيرا للمجاهدين، والتف حوله في الحزب عدد من المثقفين المرموقين، كان من بينهم عناصر من مجموعة التربية والتعليم التي تخلص منها مصطفى لشرف، عندما نكبت به الوزارة في 1977 نتيجة لموازين القوة في تلك المرحلة، لكن الأمانة تقتضي القول بأن بعضهم كان أخطر عليه من أخطر أعدائه، خصوصا أولئك الذين كانوا يحرضونه على الشاذلي بن جديد، أو ينتزعون منه عبارات الاستهانة به، والتي كانت تنقل ساخنة للعقيد الذي يستعد لحمل الأمانة [60].

وكان مما يروج في ذلك الوقت أن المؤسسة العسكرية لا تؤيد يحياوي، وهي قد تتعاطف مع بوتفليقة ولكن نظرتها للاستقرار تفرض عليها دعم الاتجاه نحو عقد المؤتمر، الذي سيكون خمس أعضائه من العسكريين، وتقرر أن يحمل رقم (4) على أساس أن المؤتمر الأول كان مؤتمر الصومام والمؤتمر الثاني هو مؤتمر طرابلس 1962 والثالث هو مؤتمر الجزائر 1964، وانتصر هذا الاتجاه على اتجاه كان يرى أن يسمّى المؤتمر الأول لحزب جبهة التحرير الوطني، أي أن يعتبر مؤتمرا تأسيسيا للحزب، وكان في هذا الطرح بعض المنطق، حيث أنه يفترض أن جبهة التحرير الوطني الذي قادت الثورة كانت بالفعل جبهة تضم تيارات متعددة بل ومتناقضة، وأن دور هذه الجبهة انتهى بانتهاء وضعية الثورة المسلحة، ويجب أن يقوم اليوم حزب جبهة التحرير الوطني الذي يمكن أن يضم الكثيرين من عناصر الجبهة ولكن ليس بالضرورة كل من انتمى إليها، حيث أن هناك من ارتبط بالثورة مرحليا لأن الهدف الرئيس كان تحقيق الاستقلال، أما كنه هذا الاستقلال وماهيته فهو أمر آخر.

60 – أكد لي يحياوي شخصيا أنه ليس مرشحا وطلب مني أن أقف مع الشاذلي، وكان متخوفا من خطاب قيل أن بو تفليقة سيلقيه في المؤتمر وطلب إلينا أن نوقفه، وكان هذا أمرا غريبا رفضته إذ كيف نوقف عضو مجلس ثورة، وقلت لمحمد الصالح بكل أخوة أن هذا هو دوره بحكم المستوى.

غير أن هذا الاتجاه فشل في استقطاب الأغلبية الساحقة لأن الداعين له لم يستطيعوا تبرير الانسلاخ عن تجربة الثورة بما يفتح المجال رحبا أمام احتمال التعجيل بخلق أحزاب جديدة لمجرد اختلافات تاكتيكية تكون نتيجتها بعثرة جهود التنمية، كما أنهم فشلوا في الدفاع عن وجهة نظرهم في مواجهة الشحنات العاطفية لدعوات تواصل أسلوب الجبهة حتى يكون الحزب دائما تجسيدا للوسطية التي تجمع كل الوطنيين، وترفض وضع أي مرحلة من مراحل المسيرة الجزائرية بين قوسين، على أساس أن الثورة مستمرة وإن كان الكفاح المسلح قد انتهى، وهو ما رأيته منطقا سليما جديرا بالتأييد.

وتحمسنا جميعا لهذا الطرح، لكن ما لم نفهمه نحن في حينه هو أن حماس البعض للطرح الأول كان يخفي خلفية الحفاظ على مؤتمر الصومام كمحطة رئيسية في الثورة الجزائرية، إعدادا لمرحلة يُعتبر فيها الانطلاقة الرئيسية الوحيدة التي تَجُبّ ما قبلها. [61]

61 - تأكد هذا فيما بعد عندما تعالت صيحات تقول بأن المرجعية الأساسية لثورة التحرير ولدولة الاستقلال هي مؤتمر الصومام، وهو ما استثار الرئيس الأسبق أحمد بن بلـه، الـذي انتهز فرصة مشاركته في حصة تليفيزيونية عبر قناة الجزيرة لكي يدحض تلـك الادعـاءات علنا، ويصل إلى القول بأن مؤتمر الصومام انحرف عن مبادئ ثورة أول نوفمبر، وهـو مـا أثار عاصفة من التنديدات بالرئيس الأول للجمهورية، وصلت إلى حـد الابتـذال، وسـقطت الأقنعة.

الفصل الثاني
مرحلة جديدة أم جمهورية جديدة

(1)

تشكلت لجنة وطنية لإعداد المؤتمر تحت الرئاسة الرسمية للرئيس رابح بيطاط[1] رحمه الله، والرئاسة الفعلية للأخ محمد بن احمد عبد الغني رحمه الله، عضو مجلس الثورة ووزير الداخلية، وكان واضحا أنه تم اعتماد هذه الصيغة لكي لا يرأس اللجنة محمد الصالح يحياوي.

وكانت معرفتي بالعقيد الشاذلي بن جديد معرفة سطحية، حيث كنا نلتقي أثناء زيارات الرئيس الراحل إلى وهران، التي كان يجد نفسه فيها على راحته

---

1 – سي رابح من قيادات الثورة الأوائل والعضو الخامس في القيادة الأولى. ناضل في شبابه في حزب الشعب PPA ثم في المنظمة الخاصة.O.S التي أصبحت اللجنة الثورية للوحدة والعمل .C.R.U.A وكانت نواة جبهة التحرير الوطني، وكان أول قائد للولاية الرابعة (الجزائر العاصمة) وقبض عليه في 1955 ليحكم عليه بالأشغال الشاقة المؤبدة، وأصبح، رغم سجنه عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ثم في لجنة التنسيق والتنفيذ التي أنشئت بعد القبض على بن بله وزملائه الثلاثة، ثم عين، وهو في السجن دائما، كوزير دولة في الحكومة الجزائرية المؤقتة عام 1958، ولم يلتق مع زملائه الأربعة المختطفين إلا مع اقتراب وقف إطلاق النار حيث سراحه في اليوم التالي (20 مارس 1962) وارتبط مع محمد خيضر وأحمد بن بله في موقفهما من الحكومة المؤقتة، وتولى بعد الاستقلال شؤون المنظمات الجماهيرية في حزب جبهة التحرير الوطني، وعين نائبا لرئيس الوزراء في أول حكومات بن بله في سبتمبر 62 ليستقيل في 63 من الحكومة ومن المكتب السياسي وليرتبط مع العقيد بومدين الذي عينه في أول حكومته بعد تغيير 1965 وزيرا للدولة وزيرا للمواصلات، وظل في المنصب حتى 1977 حيث انتخب رئيسا للمجلس الوطني الشعبي، وليصبح رئيس الدولة لمدة شهر ونصف إثر وفاة بومدين، وظل يرأس المجلس حتى 1990 حيث استقال بعد خلافه مع مولود حمروش الذي رأس الحكومة بعد قاصدي مرباح، وانسحب من الحياة العامة إلى 1999 حيث التزم مع الرئيس عبد العزيز بوتفليقة، وعرف بالرزانة واستقلالية الرأي وبحسن تسيير المجلس الوطني بجانب خصال المجاهد الهادئ والمجامل إلا في الحق، ودفن في مقبرة العالية بالقرب من الأمير عبد القادر وبومدين وبقية قيادات الثورة.

بعيدا عن تعقيدات المشاكل السياسية، في ضيافة قائد الناحية العسكرية الثانية، صاحب الشعر الأبيض الذي جعلت البعض يسميه "جيف تشندلر"، لشبهه بالممثل المعروف، الذي كان معروفا بشعر أبيض لا يتناسب مع عدم تقدمه في السن [2].



الرئيس رابح بيطاط رئيس الدولة في المؤتمر الرابع



مع العقيدين الشاذلي ويحياوي في قصر الأمم.

2 - سنجد شيئا مشابها عند الاطلاع على حياة الرئيس جمال عبد الناصر، الذي كان يحس بالراحة في ضيافة نائب الرئيس أنور السادات.



الرئيس بومدين في زيارة الكاميرون (العقيد الشاذلي إلى اليمين)

كان العقيد معروفا ببساطته وبتواضعه وبانضباطه واحترامه للرئيس بو مدين، وقد عرفته أكثر خلال لقاءات الإطارات التي كانت تعقد في قصر الأمم ويحضرها كبار المسؤولين في الحزب والدولة، وتزايدت معرفتي به خلال مرض الرئيس، حيث كان يزورني في مكتبي من دون سابق إنذار، فندردش في أمور شتى، وأحاول من جهتي أن أعرف ما يدور في دهاليز القيادة، مع الحرص ألاّ أحرجه بأسئلة مزعجة، وكنت أستولي منه أحيانا على بعض السيغار الكوبي، كما كان يطلب مني أحيانا بعض تسجيلات عرائس "الموبيت شو" التي يحبها بعض أبنائه، كما قال لي.

وكان الرجل دائما يتعامل معي برقة بالغة ممزوجة بنوع من الاحترام، وأذكر أنني تأخرت يوما، خلال مرض الرئيس بومدين، خارج الرئاسة، فانتظرني في مكتبي أكثر من ساعة ونصف، ولدرجة أن المساعدين في السكرتارية أحسوا بحرج كبير، وعندما دخلت عليه معتذرا لتأخري لم يظهر أي ضيق أو تبرم، وقال إنه يتفهم التزاماتي، وربما كان أهم عنصر تميزت به علاقتي معه هو تعتيمي الكامل على كل ما يرتبط بتعاملي مع الرئيس بومدين، فرغم أننا كنا نتبسط معا، لكن لم يحدث أن رويت له يوما أي قضية تخص علاقاتي مع الرئيس، وتتناول تفاصيل عملي معه، استعراضا لعبقريتي! أو تأكيدا لجهودي الخلاقة، وأستطيع أن أزعم أن الرجل كان يتابعني بكثير من الاهتمام، وأشهد له أنه لم يحاول أبدا، كالبعض، إحراجي بأي سؤال أو تساؤل، لكنني أزعم أن تحفظي الدائم كان نصب عينيه بشكل مُلحّ وهو يخرج من المؤتمر مرشحا لرئاسة الجمهورية، وباحثا عن العناصر التي يمكنه أن يتعامل معها بكل ثقة، وفي إطار السرية التي يتطلبها هذا المستوى من المسؤولية.

وكنت قبل المؤتمر قد اتخذت قراري بالعودة لممارسة العمل الطبي، وقمت بالفعل باستعادة عيادتي من الطبيب الذي وضعتها تحت تصرفه خلال مرحلة العمل في رئاسة الجمهورية، وقمت بإعادة طلائها وإعدادها لتكون كما أحببتها دائما، لكنني، بعد اختتام المؤتمر، رحت أعيد حساباتي وأضرب

أخماسي في أسداسي وأتساءل عن الخطوة التي يجب أن أقدم عليها، وقد أصبحت عضوا إضافيا في اللجنة المركزية للحزب، بترشيح من رابح بيطاط، مما قلب كل برامجي، وهكذا رأيت أن أصرف النظر مؤقتا عن قراري، لأواصل العمل كمناضل وصل إلى مسؤولية القيادة الحزبية، وهو ما يعني ألا أتسرع وأن أتحمل مسؤولياتي إلى أن تتضح الأمور، وحسم الموقف اتصال هاتفي مع العقيد الشاذلي في وزارة الدفاع، قال لي فيه أنه يبحث عني وأن علي أن أتوجه على الفور إلى مكتبه في الوزارة، وهو ما حدث، واستقبلني بترحاب كبير، ورغم أن ملامحه كانت تدل على أنه يشعر بثقل المهمة لكنه لم يبدو مذعورا من تبعاتها، وبحيث أحسست للحظات أنه لا يقدر خطورة الوضعية.

وكان محور اللقاء دردشة عامة لم أخفِ فيها عنه خيبة أملي لاختياري مجرد عضو إضافي في اللجنة المركزية المنبثقة عن المؤتمر الرابع، وكنت، وما زلت أعتقد بأن جهودي في السنوات الماضية كانت تعطيني أسبقية على كثيرين تم اختيارهم كأعضاء أساسيين، وقلت له بمرارة ضاحكة : يبدو أنكم في القمة تفضلون الذين ينافقون.

كان تعبيرا جافا فظا عكس درجة الضيق الذي كنت أحس به، لكن الرجل ردّ عليّ بكل لطف قائلا : أنت تعرف الظروف، ولكن هذا على أي حال يجب ألاّ يؤثر عليك[3].

---

3 - كان سخطي في واقع الأمر على محمد الصالح يحياوي الذي وضع كل مساعديه المباشرين أعضاء أساسيين في اللجنة المركزية، ومن بينهم من لم يكن له نشاط حزبي أو وطني يعادل نشاطي، مع تأكيدي بأنهم كانوا، في مجموعهم، شبابا وطنيا، ولكن كان منهم من يتحمل مسؤولية إثارة التنافر بين يحياوي والرئيس، ومن ثبت أن وطنيته كانت طلاء براقا، وأصبح فيما بعد ممن يتموقعون في خنادق الفكر الاستئصالي الفرانكو شيوعي، انطلاقا من طموحات شخصية كما حدث في الانتخابات الرئاسية عام 2004، وكان يحياوي وراء تولي القواعد في الولايات ترشيح أعضاء اللجنة المركزية من بين أبناء الولاية، ولم يكن تعميم هذا على كل المناضلين الحزبيين أمرا منطقيا خصوصا بالنسبة للمناضلين الذين ولدوا، لظروف الاستعمار، خارج الجزائر، وبوجه خاص أولئك الذين كان عملهم في العاصمة يبعدهم عن القواعد، حيث أن وضعية عضو القيادة السياسية تختلف تماما عن وضعية عضو المجالس المنتخبة أو البرلمان، وربما كان عدم ترشيح يحياوي لي، وهو ما حاول نفيه مرارا، من

وحاولت أن أسبر غور الرجل وأعرف شيئا عن برامجه أو رغباته، لكنه لم يزد على أن قال لي بأنه يريدني إلى جانبه وبأنه يعتمد علي، وقلت له بكل أخوة وصراحة بأنه سيجدني دائما حيث يريدني، لكنني أريد أن أذكره بما قلته للرئيس بومدين، عندما طلب مني نفس الأمر في مايو 1971، إذ قلت أنني أطلب بأن يكون تعاملي مع الرئيس مباشرا، وبأن يكون من حقي أن أقول له : "لا" إذا لم أكن مقتنعا، مع استعدادي بالطبع للتنفيذ، وضحك الشاذلي وضحكت معه، واتفقنا على أن نلتقي ثانية لأطرح عليه تصوري لالتزامات المرحلة القادمة، وفي مقدمتها بالطبع إعداد الانتخابات الرئاسية.

وتعمدت أن أقول له أن اختياره هو بداية المطاف وهناك عمل كبير يجب أن يتم القيام به استعدادا للانتخابات الرئاسية، وطلبت منه أن يوافيني بعدد من صوره استعدادا لحملة الانتخابات.[4]

وعدت إلى منزلي لأعيش ساعات نهبا للقلق العميق، فقد أحسست أن التحدي الذي أواجهه اليوم هو تحد مصيري، يفوق كل التحديات التي عرفتها منذ ذهبت وحدي إلى القاهرة في مطلع الخمسينيات لأرسم ملامح المستقبل الذي أريد، ثم خلال الستينيات التي فرضت فيها وجودي على الساحة الطبية وجعلت لي مكانا على الساحة الأدبية، ثم في السبعينيات التي شهدت تحول

حسن حظي، إذ أنه كذب عمليا أقوالا رددها كثيرون كانت تحسبني من أنصار يحياوي، بل ومن عملائه، وكانت مشكلتي مع يحياوي هي أنني حرصت أن أكون صديقا وفيا، لا أكثر ولا أقل. وأذكر أنه عاب علي يوما انضباطي مع الرئيس الراحل وقال : أنت ملتزم مع ثورة أم ملتزم مع رجل ؟ وقلت له علي الفور : أنا ملتزم مع رجل وضع فيّ ثقته واختارني لكي أكون بجانبه، والذي حدث هو أن هذا الرجل يقود ثورة، وبالتالي ليس هناك تناقض.
ولا بد للأمانة من القول أن يحياوي كان مجاهدا صلبا ومثقفا واسع الاطلاع وعروبيا حتى النخاع، وكان من الذين يواجهون الرئيس بدون أي نفاق، لكنه كان لا يحتمل أن يواجهه أحد، ويفضل من يساير قراراته وتوجهاته.
وبعض هؤلاء كانوا سر هلاكه كما سيأتي، وبالتالي فقدت الساحة السياسية وطنيا عروبيا له وزنه وتأثيره.
4 - أرسل لي الصور فيما بعد على شكل ألبوم عائلي متواضع ، يؤكد أن الرجل كان بالغ البساطة في حياته.

الطبيب الناشئ إلى رجل إعلامي يعترف له الخصم قبل الصديق بالكفاءة والنزاهة والمقدرة.

لكنني لم أكن ساذجا لأتوقع الربيع الدائم، فقد عرفت أيامي كل الفصول.

وإذا كنت في تحديات السبعينيات، مثلا، مطمئنا إلى دعم الرئيس الذي اختارني للعمل بجواره، فإن هذا ليس مضمونا بعد وفاته إلاّ بتحقيق نجاح مرموق في القيام بالمهمة، مع الأخذ بعين الاعتبار أن الرئيس المرشح لا يملك معطيات القوة التي كانت لسلفه.

كان هواري بو مدين هو مؤسس الجيش وكان الشاذلي بن جديد أكبر أعضائه سنا ورتبة.

ولكن بو مدين كان هو الذي اختار الجيش أما الشاذلي فقد اختاره الجيش، وكان بو مدين هو الذي اختارني عن معرفة كاملة أما الشاذلي فيمكن القول أنه ورثني، وعلي أن أنتزع ثقته واحترامه.

وكان السؤال الأول الذي يجب أن أجد الإجابة عنه، وحدي ووحدي فقط، هو: "كيف أقدم الرجل للجماهير التي ستنتخبه رئيسا للجمهورية لمدة خمس سنوات ؟"

كان يقيني بناء على ما اكتسبته من خبرة إعلامية بأن المصادقة الجماهيرية الواسعة على مرشح جبهة التحرير هي أكثر من مضمونة، ولمجرد أن صدمة وفاة بومدين وما أحاط بها من ظروف وما نتج عنها من إشاعات خلقت حالة من القلق جعلت الشعب يجعل من تحقيق الاستقرار في ظل الشرعية أمله الرئيسي، وزاد من وضعية القلق ما سُرّب عمدا عن صراع بين أعضاء مجلس الثورة، وهو ما سيفرض على الجماهير التمسك بالشرعية عبر انتخاب رئيس تسنده القوى الحية في البلاد[5].

---

5 - تناقص عدد أعضاء مجلس الثورة الذي كان يتكون من 26 عضوا في جوان 1965 إلى ثمانية أعضاء، بو تفليقة ويحياوي وبن شريف وعبد الله بلهوشات وأحمد دراية والشاذلي بن جديد والطيبي العربي ومحمد بن أحمد عبد الغني، وكان المفروض أن ينتهي عمل المجلس مع عقد مؤتمر الحزب، وهو ما حدث للفعل.

لكن هل هذا يكفي؟

ذلك أن الاختيار الشعبي للقائد من موقع الخوف، أيا كانت بواعثه العاطفية ومبرراته المشروعة، هو إنجاز مرحليُّ الفائدة، قد لا يضمن تحقيق الاستقرار الحقيقي الدائم، الذي ينطلق من ثقة كاملة بقدرة القيادة الجديدة على مواجهة تحديات المرحلة، تكون في حد ذاتها تعبيرا عن إرادة سياسية للالتفاف حول الرئيس لتعطيه القوة الحقيقية التي تمكنه من تحمل مسؤولياته على الوجه الأكمل، وهكذا نخرج من منطق : اذهب أنت وربك فقاتلا، ولكن.. كيف يمكن تحقيق ذلك؟

هناك أيام معدودة تفصلنا عن موعد انتخابات كان المرشح الوحيد لها، طبقا لقواعد الحزب الواحد لها، هو أقل الناس شهرة بالمقارنة مع بعض زملائه في مجلس الثورة.

وإذا كان الرئيس الراحل زعامة تاريخية بقيت ملء السمع والبصر نحو عقد ونصف من الزمان، وانتزعت حب الأبناء وتقدير الأشقاء وفرضت وجودها على الخصوم والأعداء، فإن الرئيس الجديد هو رجل شبه مجهول لدى أبناء وطنه أنفسهم، فكرا واتجاها ومقدرة سياسية، ناهيك عن عدم وجود صورة

وكان المجلس الوطني مجمدا بقرار من الرئيس بن بله طبقا لقانون الطوارئ الذي أعلن إثر الهجوم المغربي على الحدود الجزائرية في 1963، ومع التصحيح الثوري أراد الرئيس في 1965، ضمان نوع من الشرعية لمجلس الثورة، كهيئة قيادية عليا للبلاد، فطلب من أعضاء المجلس الوطني التنازل عن صلاحياتهم لمجلس الثورة،

وقد تعددت أسباب تناقص عدد أعضاء مجلس الثورة، فهناك من خرج بإرادته للتفرغ للأعمال الخاصة بعد حصوله على قرض من الدولة، وهي وضعية صالح صوت العرب مثلا، أو عاد إلى عمله الأصلي مثل الدكتور يوسف الخطيب، وهناك من اختلف مع بو مدين ففر خارج الوطن مثل بشير بو معزة، أو لتخذ مواقف معارضة جعلته في وضعية التناقض المسلح مثل الطاهر زبيري، بكل ما ترتب على ذلك من حياة في المنفى، ومنهم من همش نتيجة لخلافات فكرية مثل قايد أحمد أو لممارسات شخصية مثل شريف بلقاسم، وهناك من انتقل إلى رحمة الله مثل سعيد عبيد وأحمد مدغري والعقداء عثمان وصالح سوفي وعباس.

ولقد كان بومدين حريصا على سمعة وكرامة أعضاء مجلس الثورة، بمن فيهم الذين اختلفوا معه، وقد أنبني يوما على دراسة قدمتها له أعدها، بطلب مني، مثقف كبير، اندفع في نقد بعض أعضاء القيادة ظنا منه أن هذا سيداعب عواطف الرئيس. وقال لي الرئيس يومها أن إهانة القيادة يمكن أن تكون طريقا نحو الاستهانة بها، وهذا عمل تخريبي للانضباط في الدولة، يمكن أن تكون له نتائج بالغة الخطورة في المستقبل على تصرفات المواطن.

دولية له أساسا، تنسجم مع صورة الجزائر الدولية، بل إن بعض زملائه لم يكونوا يأخذونه على محمل الجد، ومنهم من كان على يقين من أن الرجل أقل بكثير من المسؤولية التي سوف يتحملها[6].

ولم أنم ليلتين متواصلتين والسؤال يطرق فكري، وإحساسي بأهمية سرعة التحرك لا يعادله إلا يقيني بخطورة أي تسرع : كيف يمكن أن يتم إقناع الجماهير بأنها شريك فعلي في عملية الاختيار، وأن المشاركة ليست مجرد أداء لواجب انتخابي روتيني.؟

وقد يبدو هذا اليوم عملا سهلا بالنسبة للذين لم يعيشوا أجواء ما قبل الانتخابات الرئاسية في فبراير 1979، وربما استهان بإنجازه الذين يعتقدون بأن حصول الرئيس على نتيجة إيجابية في الاستفتاء هو أمر مفروغ منه، وبالتالي فلا داعي لتضخيم الأمور، فالصورة العامة عند كثيرين هي أن الرئيس يرشحه الشعب والجيش وسيتم انتخابه بدون شك، فلماذا نتفلسف ؟.

وكان هذا في تصوري خطأ جسيما في تقدير الأهمية المستقبلية لصنع الحدث، لأن المطلوب لضمان الاستقرار واستتباب الأمور لم يكن مجرد فوز الرئيس، بل خلق الإحساس لدى الجماهير بأنها كانت طرفا رئيسيا في عملية اختياره، التي تمت خطوتها الأولى في مجلس الثورة بعدم حصول شخص بعينه على الإجماع المطلوب، ثم تأكدت في اجتماع عسكري سري تحت رعاية مدير المخابرات، ثم "طبخت" في مؤتمر سياسي يحكمه منطق الحزب الواحد، وبقي أن يستكملها المواطنون، طبقا للدستور وأحكامه، عبر انتخابات تتسم بالوعي الكامل والحماس الصادق.

وهكذا كان زرع الإحساس بأن الاختيار كان تعبيرا عن اقتناع شعبي واسع هو مصدر القوة الرئيسي الذي سيمكن الرئيس من مواجهة كل الأعباء

6- كان من بينهم من يصرح بذلك أمام بعض أنصاره، وكان منهم من قال لي شخصيا بأن أمام الرجل ستة شهور، وكنت أذكرهم دائما بقصة كلوديوس الروماني والسادات المصري، ولكنه قصر النظر السياسي.

التي تفرضها مسؤوليته، وفي الوقت نفسه مواجهة الذين سيحاولون ابتزازه بالادعاء أنهم سبب فوزه[7].

كانت المؤسسة الحزبية تعد برامجها في الحملة الانتخابية بأسلوبها الخاص، الذي تمثل في عقد لقاءات شعبية ينشطها عدد من كبار المسؤولين، وتولى ولاة الجمهورية تأطيرها ووضع الإمكانيات اللازمة تحت تصرف منظميها، وقامت مصالح الأمن كل فيما يخصه بضمان الاستقرار العام في البلاد بما يشجع المواطنين على التوجه جماعيا إلى صناديق الاقتراع.

ورحت أنا أستعد للحملة الانتخابية عبر المؤسسات الإعلامية، ومن هنا تبدو أهمية الدعم الذي تلقيته من الرئيس رابح بيطاط لأستطيع تجاوز عرقلة بعض عناصر الوصاية الإعلامية.

وكان لا بد من إعداد خطة محكمة يقتنع بها الإعلاميون، لا تكون مجرد تنفيذ لتعليمات فوقية[8].

وقام رجال الإعلام الوطني بدور رائع تميز بحماس كبير وبقناعات ذاتية وبإحساس وطني فياض، وكان من معالم ذلك الدور التغطية المحكمة لمخطط العمل اليومي بالنسبة للشخصيات السياسية خلال الحملة الانتخابية، حيث رُسم للكثيرين منهم نقاط عمل واضحة في إطار البرنامج الذي خرج به المؤتمر الرابع والتوصيات الهامة التي أعدت عناصرها في مخبر اللجنة الوطنية للتحضير.

وحدث تكامل رائع تمكن فيه الإعلام من حسن استثمار المتحدثين في المهرجانات الانتخابية، وكان الإعلام الجزائري كما سبق أن قلت هو الآلة السياسية الرئيسية في البلاد.

---

7 - كانت هذه نقطة بالغة الأهمية، ولعل ما لم يتمكن البعض من تحقيقه في نهاية السبعينيات بفضل وجود عدد من الأصفياء حول الرئيس أمكن تحقيقه إلى حد كبير في نهاية الثمانينيات، بعد أن تمكن البعض من عزل الرئيس بعيدا عن معطيات اتخاذ القرار وإمكانيات صنع البدائل واحتمالات نتائج كل قرار.

8 - لا بد هنا من أسجل تقديري الكبير لرجال الإعلام الوطني الذين ساهموا في تلك العملية التاريخية، سواء في الإعلام المسموع أو المرئي أو المكتوب، ولقد كان الإعلام هو الحزب الحقيقي في الجزائر.

وكان أول ما تجب مراعاته عن إعداد ملامح الصورة الجماهيرية للرئيس المقبل هو الابتعاد عن تقديم نسخة جديدة للرئيس الراحل، وكان الشغل الشاغل بالتالي هو أن تكون صورة الشاذلي بن جديد الجماهيرية منسجمة مع قدراته الظاهرة للعيان، وألا تكون هناك أي عقدة تترتب عن أنه لم يكن من الوجوه المتألقة على ساحة الممارسة السياسية، وأن يكون من عناصر الصورة (Image de marque) بساطته في التعامل مع الضباط والجنود في وهران، وتفضيله للتعبيرات السهلة ..الممتنعة إن أمكن، وفي الوقت نفسه فإن الصورة لا يجب أن تصادر إمكانيات الرجل المستقبلية التي لا نعرفها، وقد لا تكون واضحة أمامه هو نفسه، تماما مثل أي إمكانيات كامنة لم توضع بعد على محك التجربة.

وكانت البداية العملية هي اختيار الصورة الفوتوغرافية التي ستستعمل كملصقات على الجدران وفي اللوحات الإشهارية لتواجه المواطنين صباح مساء، وبحيث تصبح جزءا من يقينهم وتصوغ نظرتهم للرجل الذي سيختارونه لرئاسة البلاد، بما يعطيهم الشعور أنهم هم أصحاب القرار الحقيقيون وليس زيدا أو عمرو من الناس، وليس هذه أو تلك من المؤسسات.

واستدعيت مصور الثورة الإفريقية زياني نور الدين الذي تآمرت معه على إعداد صورة بومدين لكي يضع تحت تصرفي، أكبر عدد ممكن من الصور الملونة وغير الملونة، والتي يمكن أن تصلح للملصقات الجدرانية، ولتكون، عند الضرورة، صورة رسمية مؤقتة [9].

---

9 - في بداية عملي في الرئاسة أحسست بأن عليّ أن أصنع صورة رسمية للرئيس ولكن من حولي نصحوني بألا أفكر في ذلك لأن الرئيس لا يجب الوقوف أمام آلة التصوير، فتواطأت مع زياني ليقف خلفي ولنا لتابع تسجيلا تليفزيونيا للرئيس وطلبت منه أن يلتقط أكبر عدد ممكن من الصور، وراح يوجهني وهو خلفي لأتحرك صعودا وهبوطا والرئيس يتابعني بعينيه إلى أن التقطت الصور وتم اختيار إحداها كصورة رسمية ولم يتدخل الرئيس في اختيارها (أنظر الصورة المرفقة ثم أنظر الصورة الرسمية على بطاقة البريد التي صدرت بعد وفاة بو مدين.



الصورة
الرسمية
المؤقتة للرئيس
الشاذلي بن
جديد



التحايل لالتقاط الصورة الرسمية للرئيس بومدين

وهكذا تم اختيار صورة غير ملونة أخذناها من إحدى جلسات المؤتمر، وكانت حادة الملامح عميقة النظرة، واخترت معها صورة ملونة يظهر فيها الشاذلي في وضعية أقرب إلى الاسترخاء.

وكانت الخطة في استعمال الصورتين في وقت واحد، أن يحس الناس أن للرجل أكثر من وجه، ولا يظن الناس أن وراء الوداعة ضعفا أو أن وراء قسوة الملامح جمودا في العواطف.

كان الهدف أن يرى الشعب في الرجل صورة رب الأسرة الذي يتحمل مسؤولياته بصبر وبحكمة، ولسان حاله يقول للناس .. : "لقد وليت عليكم ولست بخيركم"، ولكن صورته الجماهيرية يجب أن توحي أيضا بأنه القائد القادر على الحسم عند الضرورة. وكان من التعبيرات التي روجتها لدى بعض الصحفيين: " إذا رأيت نيوب الليث بارزة فلا تظنن أن الليث يبتسم.."، وكان كمال بلقاسم مدير تحرير الأحداث الجزائرية، الذي كان من الكتاب باللغة الفرنسية، يحاول التفنن في ترجمتها.

وفي أقل من أسبوع كانت الصورتان تغطيان الجزائر من شرقها إلى غربها ومن شمالها إلى جنوبها ومن داخلها إلى خارجها، وراحت بعض الوكالات الأجنبية تنقل صور احتشاد المواطنين أمام الملصقات للتعرف على ملامح رئيسهم المقبل.

وكان واضحا من الدردشة مع أقدم عقداء الجيش بأنه يتوفر على قدر كبير من الذكاء الفطري، الذي يمكن تطويره بهدوء، عبر استثارة الطموح الدفين وعدم إثارة ردود الفعل السلبية، خصوصا وأن أهم ما يُلاحظ فيما يبدو من ملامح شخصيته أنه لم يسمع بشيء اسمه عقدة النقص، وكنت أقول لنفسي: إن الرئيس بشر أولا وقبل كل شيئ، ولو أمكن إثراء قدراته لكان للجزائر في المرحلة القادمة رئيس في مستوى متطلباتها، يواجه السلبيات السابقة للمسيرة بالسلاح الرئيسي الذي يملكه وهو أنه لم يكن مسؤولا عنها بصفة مباشرة، وبأنه يتقدم للناس ببساطة رب الأسرة.

وكان السؤال الذي يلح عليّ كألم الأضراس: كيف يمكن صناعة صورة جماهيرية للرئيس الجديد، لا تبدو صورة مفتعلة أو كاذبة أو مبتذلة، وفي الوقت نفسه لا تكون منافسة ساذجة لصورة الرئيس بو مدين الجماهيرية، التي رسخت في الوجدان سنوات طويلة، وارتبطت بها أمجاد وإنجازات ؟.

وكان من شخصيات التاريخ التي يجب أن تكون نموذجا للهدف المطلوب "كليمنت آتلي" الذي خلف "ونستون تشرشل"، رغم أن "تشرشل" كان يسخر في السابق من كفاءته، ويقول في معرض الإساءة له.. : توقفت سيارة فارغة أمام مجلس العموم ونزل منها "مستر آتلي".

ومع ذلك كسب "آتلي" الانتخابات التي تلت الحرب العالمية الثانية مباشرة وأثبت بأنه رجل دولة.

وكان من الشخصيات أيضا هنري ترومان بعد روزفلت، حيث استطاع، رغم طغيان صورة سلفه وبفضل العمل الإعلامي الذكي، أن يملأ الفراغ ويواجه التحديات، وكان من أهمها انتزاع موطئ قدم في المنطقة العربية على حساب الإمبراطورية البريطانية بالدعم الذي قدمه لإسرائيل، بعد أن ارتبط اسمه بإلقاء القنبلة الذرية على هيروشيما وناغازاكي.

لكن صورة أخرى كان يجب أن تكون دائما نصب العين، لأخذ العبرة والعظة، وهي صورة أنور السادات بعد جمال عبد الناصر.

وكنت على يقين بأن إمكانيات الشاذلي لم تكن أقل من هؤلاء، بشرط أن يجد إلى جواره رجالا أكْفاء ونزهاء يضعون أمامه الوقائع بأهم معطياتها ويستعرضون البدائل بكل احتمالاتها، ولا يحاولون تخريب توازنه النفسي باستعراض مساوئ الآخرين، قادة سابقين أو رفقاء حاليين، أو إغراقه بالتفاصيل التي تزين له الفرار من عبء المسؤولية إلى وسائل الراحة التي توفرها إمكانيات السلطة.

وكانت الكلمة التي سيلقيها الرئيس المرشح في اختتام الحملة الانتخابية هي قمة التحديات في الأسبوع الأول من فبراير 1979، أسبوع الانتخابات الرئاسية.

كان المضمون قضية بالغة الأهمية، فالناس كانوا يريدون أن يعرفوا، من فم الرجل نفسه، ما هي اهتماماته وأسبقياته، ويتعرفوا، بالدليل المرئي والمسموع، على قدراته في الإقناع، ويطمئنوا، بالتعبيرات الواضحة، على التزامه بالسير على نهج الرئيس الراحل هواري بومدين، الذي عُقد المؤتمر الرابع تحت شعار الوفاء له والاستمرارية على نهجه.

لكن المضمون، على أهميته، لم يكن أقل أهمية من شكل الخطاب ولغته وكلماته وأسلوب إلقائه والحجم الزمني الذي سيستغرقه، وقبل هذا وذاك..توقيت البث.

وقضيت الليل ساهرا وأنا أكتب وأمزق وأخطط وألغي.

وبداية استقر رأيي على أن أعمل وحدي وأتحمل وحدي تبعات احتكار كل شيئ.

وكان إصراري على هذا يعود إلى عدة أسباب من أهمها إحساسي بضخامة المسؤولية التي كلفني بها المُرشح لرئاسة الجمهورية، ولكن، وللأمانة أيضا، روح التحدي التي سيطرت عليّ، وإلى درجة كادت تكون مرضا عصبيا، وهي الروح التي أبرر بها لنفسي نزعة سلطوية أعترف بها، ويمكن أن يفهمها كل من واجهوا ظروفا كتلك التي واجهتها.

لكن هناك أسبابا لا تقل أهمية، منها أن هناك من كانوا يستهينون بمقدرة الرجل، وبالتالي فإن مجرد وجود شخصية قيادية بارزة معروفة في عملية الإعداد للخطاب كانت ستحرم الرئيس المرشح من بريق تتطلبه مهمته المستقبلية، خصوصا عندما يسرب بعضهم الأنباء بالأسلوب المعروف عمن

وقف وراء الخطاب وأعد جمله وصاغ عباراته وألهم أفكاره، إلى غير ذلك مما برع فيه عدد من فراشات السياسة، وهو ما يفرض عليّ أن أذكر هنا بوجود الدكتور أحمد طالب في الرئاسة كمستشار، وهو رجل ثقافة وفكر يمتلك ناصية اللغتين، كما أذكر أيضا بوجود مولود قاسم وآخرين من بينهم بعض مساعدي محمد الصالح يحياوي، ويحياوي نفسه وهو مثقف متميز ومعروف، وكنت أرى أنني لم أكن شخصية معروفة على الساحة العامة، وكثيرون كانوا يرددون اسمي بدون أن يعرفوا ملامحي، حيث حرصت دائما على العمل الكواليسي، وبالتالي فليس هناك من يمكن أن يصدق أن لي دورا ما بجانب الرجل أو وراءه، على الأقل .. في بداية الانطلاقة.

ولعلي أضيف إلى كل ذلك خوفي من أن يفرض البعض على أسلوب الخطاب، بحسن نية أو بخلفيات مقصودة، بلاغياتٍ لا يتحملها لسان الرجل الذي لم يألف المحسنات البديعية والكلمات الضخمة، أو أن يدس في مضمون الخطاب براعم أفكار أو إشارات تخرج بالاتجاه عن خط الوفاء للمسيرة، وأجد نفسي مضطرا للمساومة في سبيل اقتلاع فكرة هنا أو تعديل تعبير هناك.

ولا أخفي سرا إذا قلت أن الهاجس الأكبر كان خوفي من نجاح البعض في إقناع المرشح باستعمال لغة غير العربية، على أساس أنه يتقن الفرنسية أكثر، أو على الأقل، تحبيب إليه المزاوجة بين لغتين، أو استعمال اللغة الدارجة[10] ، فتكون كارثة على اختيارات البلاد.

لكنني أسجل أن الرئيس المرشح أعطاني الحرية المطلقة في العمل، الذي تحملت مسؤولياته برهبة تتزايد مع اقتراب اليوم المعهود، وبقلق تشتد سياطه

---

10 - حاول بعض المسؤولين فيما بعد، وعلى رأسهم وزير للتخطيط ثم للوزير الأول إقناع الرئيس باستعمال العامية للاقتراب أكثر من للشعب، والابتعاد عن قراءة للخطب المكتوبة المملة، ولا أحب أن أتصور بأن للهدف الحقيقي له ولمن سبقه هو محاصرة المثقف الذي احتكر كتابة خطب الرئيس، لمجرد أن الرئيس يتحدث بالعربية.

مع هبوط الليل، عندما آخذ في كتابة النص ثم مراجعته ثم تخيل مكان إلقائه وخلفيات ديكوره..الخ.

(2)

كان القلق هو خبزي اليوم في السنوات التي تحملت فيها مسؤلياتي على مستوى رئاسة الجمهورية، لكن القلق الذي عشته في الأسبوع الأول من فبراير 1979 كان جحيما لم أعرف مثله قط، فقد كان يمكن لأي خطأ إعلامي يُرتكب في عهد الرئيس بو مدين أن يضيع في زحمة النشاطات الهائلة أو يُنسب لشخصي ولسوء تقديري، حيث أن مهمة مساعدي الرئيس هو أن يكونوا كضوابط التيار الكهربائي (Fusible) مهمتها أن تحترق حتى لا يصل التلف إلى مصدر الضوء.

وكانت صورة الرئيس بو مدين الجماهيرية صورة راسخة لا يهزها خطأ إعلامي.

ومع كل ذلك البريق الإعلامي فقد اهتزت صورة الرئيس بو مدين نتيجة لتعبير غاضب أفلت منه في الملعب الرياضي لمدينة سعيدة، وانتهزت الغربان تلك القضية فراحت تنعق في كل مكان.

واتخذت يومها قرارا لم أستشر فيه أحدا، بمن في ذلك الرئيس بو مدين شخصيا، وهو عدم إذاعة أي خطب مرتجلة على الهواء مباشرة، ومراجعة كل تصريحات الرئيس قبل بثها، انطلاقا من أن الرئيس هو بشر أولا وقبل كل شيء، وأن مهمة المساعدين هي مهمة أمنية بالمعنى الواسع، ومن عناصر الأمن حماية الصورة الجماهيرية للرئيس [11].

11- كانت البلاد آنذاك تعاني من نقص في بعض المواد الاستهلاكية، ومن بينها الزبدة (التي اختفت من منزل الرئيس أيضا) وانتهز بعض المهرجين وحملة شعار "التأييد الناقد" (Soutien critique) الفرصة ليرفعوا شعارات خلفيتها الحقيقية مهاجمة الاختيارات السياسية للرئيس وسلاحها المباشر هو استنفار القلق الشعبي، وهكذا كتب البعض على الجدران عبارة

وكان من كرم الرئيس بو مدين أنه لم يكن يراجعني في القرارات التي كنت أتخذها في مجال عملي، علما بأنني كنت أحرص على ألا أتجاوز حدود سلطتي أو أنتزع من سلطات الآخرين بما يضع الرئيس أمام وضعية تفرض عليه القيام بدور الحكم بين المسؤولين، وهو أسوأ ما يمكن أن يؤدي إليه تصرفُ مسؤولٍ غير مسؤول [12].

كان الامتحان الذي نواجهه هو كيف يمكن إلغاء نقاط الضعف عند المرشح لخلافة بومدين، بل وتحويلها بقدر الإمكان إلى نقطة قوة، وكانت قمة النجاح هي في اليقين الذي يجب أن يترسخ عند الأغلبية الساحقة بأن الرئيس القادم سيكون استمرارا للرئيس بو مدين، ولكن بأسلوب غير أسلوبه[13].

.. "لا زبدة إذن لا سيغار" (وكان الرئيس يدخن السيغار الكوبي الذي يتلقاه هدية من كاسترو) وتألم الرئيس من هذا التعبير وكان يقول بأن سلوته الوحيدة في التدخين لا تكلف الجزائر شيئا.

وكان الرئيس يغلي غضبا وهو يستعرض في خطابه خلفيات خصومه: "من لا تعجبه بلادنا فليبحث عن بلاد أخرى" وكانت فرصة للغربان لكي تواصل نعيقها، وتروح تردد بأن البلاد بلادهم وعلى الرئيس أن يغادرها إن أراد..

وبعد نحو ربع قرن، التقيت اللواء محمد تواتي فأبلغني بأن الرئيس، الذي كنت أسبق سيارته كالعادة،شاهد عبر نافذة السيارة كهلا يشرب الماء من جدول صغير بعد أن يقوم بتصفيته بقطعة قماش، وقال لي الجنرال تواتي، الذي كان يومها يرافق الموكب بصفته قائدا لأركان الدرك الوطني، بأن الرئيس أمر سائقه بالتوقف واتجه نحو الكهل ليتحادث معه، ثم عاد وهو يقول غاضبا ... أي نجاح يمكن أن نتفاخر به ونحن لم نوفر الماء الشروب لمواطن كهذا في قرية كهذه، وهل يدرك الباحثون عن الزبدة أن هناك أسبقيات كثيرة ما زالت تنتظر الإنجاز؟ وكان هذا، كما قال لي الجنرال، سر ثورة الرئيس ونرفزته في الخطاب، وهو ما أورده للأمانة.

12- كنت أقول دائما بأن قوة رجل الإعلام هي في حجم الثقة التي يحظى بها والتي تمكنه من حرية الحركة.

13 - سألت نفسي طويلا فيما بعد عمّا إذا كنت أحسنت التصرف، وخصوصا عندما تلقيت من الشاذلي بن جديد جزاء سنمار، ولكنني كنت أقول لنفسي أن ما قمت به كان يدخل في إطار العقد المعنوي بيني وبين حزب جبهة التحرير الذي شرفني باختياري عضوا في قيادته السياسية، وبغض النظر عن التفاصيل التي لا تهم أحدا غيري، كما أن ما قمت به كان استجابة للثقة التي وضعها فيّ المرشح لرئاسة الجمهورية، ولم يكن ممكنا أن أخون الثقة. وما يهمني أن أقوله هنا هو أنني كنت مقتنعا بكل ما قمت به، ولست أحس اليوم بأي ندم عليه، بدون أن أنفي أن وضعية التحدي التي عشتها ضاعفت من حماسي، وربما شابه بعض التسرع.

وهكذا تكونت الصورة الجماهيرية للرئيس المقبل، كصورة رجل عادي لا يزعم لنفسه عبقرية خاصة، حدث أن كان من نفس مدرسة بو مدين، أي مدرسة جيش التحرير، ومن رفاقه الذين تأثروا به ولم يتناقضوا معه وبالتالي يستطيع الحفاظ على نهجه، وهو يتصرف ببساطة كرب أسرة يعيش مشاكلها ويحس بمسؤوليته تجاه كل أفرادها، ويحدد مواقفه انطلاقا من الاختيار السليم للبدائل المطروحة، وباقتراب أكثر من المواطن لدرجة الألفة.

وكان هذا هو سبب الاتجاه منذ البداية إلى استعمال الاسم (الشاذلي) وليس اللقب (بن جديد) فالأول يكون من مقطعين والتقاطه وترديده في الهتافات العامة بالغ السهولة، وبالإضافة إلى هذا فإنه يختلف عن الرئيس الراحل الذي لم يكن الاسم الأول (الهواري) يستعمل في الهتاف له، وإنما الاسم الثاني، أي بو مدين (وكلاهما اسم ثوري حركي) وتوجت تلك الصورة الجماهيرية فيما بعد بتعبير الحكيم الإفريقي، الذي سُرّب في الطائف إلى مجلة "باريس ماتش"، وسأتعرض لهذا فيما بعد [14].

ومع مواصلة إلصاق صورتي الرئيس في كل مكان، وبالتعاون مع الأصدقاء في الإذاعة والتلفزة الوطنية تم إعداد برنامج وثائقي تليفيزيوني قصير يقدم مرشح جبهة التحرير لرئاسة الجمهورية، وكان من بين عناصر البرنامج استقباله لعدد من الأسرى الفرنسيين خلال حرب التحرير، وهي وثيقة أمدتنا بها المحافظة السياسية للجيش الوطني الشعبي، وكانت إحدى وثائق تليفيزيونية جزائرية ثلاث لم يرها الناس إلا بعد وفاة بو مدين [15].

14 - كنت بالغ الحزم مع بعض الوزراء الذين كان البعض منهم يحاول أن يمسك بذراع الرئيس أمام الكاميرا، أو يناديه في محفل عام باستعمال لقب "سي"، لإقناع الآخرين بأن العلاقة مع الرئيس هي أكثر من حميمية. وكسبت عداوات كثيرة تجمعت على سهامها فيما بعد.

15 - كانت الوثيقة الأولى لقطة تيليفيزيونية التقطت في بداية الاستقلال وتبين عجز بو مدين عن التحكم في دموعه وهو يستعرض أسماء بعض رفاقه الشهداء، وفي مقدمتهم العقيد لطفي، الذي كان يحمل له مودة خاصة وتقديرا كبيرا، وكانت الوثيقة الثانية هي حديثه التيليفيزيوني المطول باللغة الفرنسية مع المناضل الفرنسي فرانسيس جونسون، والذي أشرفت على إعداده في منتصف السبعينيات. (أنظر: أيام مع الرئيس هواري بومدين)

وكان لا بدّ من استكمال الصورة الجماهيرية للرئيس بصور صحفية لا تكتفي بالتركيز على نشاطاته الوطنية بل تقدمه أيضا كرب أسرة، وهو الجانب الذي لم نكن نشير إليه أساسا في حياة الرئيس بو مدين، وبإصرار منه، وتم إعداد تاريخ حياة مختصر أشار إلى بعض المفارقات الهامة في حياته، مثل إشرافه في الناحية العسكرية الخامسة على إنهاء وجود القواعد العسكرية في شرق البلاد ثم إشرافه كقائد للناحية الثانية على خروج الفرنسيين من قاعدة المرسى الكبير في الغرب الجزائري، وهي من أهم القواعد البحرية على الإطلاق في جنوب المتوسط.

وكان تتويج ذلك العمل كله كلمة المرشح على أمواج الإذاعة والتلفزة قبل الانتخابات، والتي كان المواطنون ينتظرونها بمزيج من الفضول والأمل والقلق.

كان يقيني أن خطاب الرئيس المقبل للبلاد، مضمونا وأسلوبا، والصورة التي سيخرج بها على الناس، لباسا ونظارة وديكورا وإضاءة، كل ذلك هو قنبلة موقوتة، إذ أنه هو الذي سيحدد صورة الرئيس الجماهيرية، وستكون خيبة أمل الشعب، الذي لم ينس بعد المواقف الخطابية للرئيس الراحل، خيبة أمل رهيبة يمكن أن تفسد كل شيئ.

وكنت سأكون الضحية الثانية لأي فشل، لأن الضحية الأولى سيكون الشاذلي نفسه.

واتخذت في بداية الأمر قرارا، استأذنت فيه المعني بالأمر، بعد أن شرحت له بعض المعطيات التي دفعتني إلى ذلك ومركزا على الجوانب التقنية، وهو أن يكون النص مسجلا وعلى شكل حوار، ويذاع عشية الانتخابات الرئاسية، ويمكن للمونتاج أن يصحح إصلاح أي انزلاق يمكن أن يحدث.

ومنحني العقيد السلطة التي جعلتني أقرر بأن يتم التسجيل في مقر إقامته، في فيلا عزيزة، انطلاقا من أن جو الألفة المنزلي سيعطى الهدوء النفسي المطلوب.

وتتالت ساعات كثيرة للبحث عن الأفكار المناسبة عن الأفكار ومحاولة صياغتها في أسهل أسلوب ممكن، لينسجم مع الصورة الجماهيرية البسيطة، والعميقة في الوقت نفسه، التي يجب أن يخرج بها المواطن إثر استماعه للخطاب الأول للرجل الذي سيرأس البلاد لخمس سنوات.

واستأذنت الرئيس بيطاط رحمه الله ثم ذهبت إلى مقر وزارة الدفاع، حيث كان الرئيس المرشح يمارس نشاطه وذلك لأبحث معه تصور السيناريو الذي سيقدم به الخطاب [16].

وكان أهم ما في هذا السيناريو أن يبدو الأمر للمتفرج وكأنه دردشة طبيعية، يخاطب المرشح فيها الجمهور عبر الصحفيين وبناء على أسئلتهما، وتم اختيار كلا من عثمان عامر وحراث بن جدو لإجراء الحوار، وهما من أحسن الإذاعيين، وكانت كل كلمة وكل حركة معدة سلفا.

وشرحت للعقيد الشاذلي الطريقة التي سنستعملها، ثم أخذت في تلاوة الأسئلة التي ستلقى ومشروع الإجابات التي سيرد بها، ثم قرأت النص مرة ثانية وبهدوء شديد، مراعيا الابتعاد عن الأسلوب الخطابي، وحريصا على تسكين آخر الكلمات ليبدو النص أقرب إلى العامية، ولم يكن هناك أي تعليق، بل كنت أنا أتوقف لأوضح لماذا اخترت تعبيرا معينا من دون سواه، أو لأوضح خلفية معنية تقف وراء تعبير آخر، وبالطبع فقد أعددت صورة من النص، مكتوبة بخط النسخ الواضح ومشكولة بالألوان، وتركتها للعقيد كي يستوعبها تماما،

---

16 – رفض الرئيس بيطاط أن يمارس صلاحياته خلال المرحلة المؤقتة من مكتب الرئيس بو مدين المعروف، واختار مكتبا صغيرا بجوار قاعة مجلس الوزراء القديمة، وكان هذا موقفا عاطفيا يثير التقدير.

وكان يستمع لي بهدوء وبجواره العقيد قاصدي مرباح، الذي لم يبد أي تحفظات أو ملاحظات [17].

وعندما استرجع اليوم، وبعد أكثر من ربع قرن، قصة ذلك الحوار وملابساته أحمد الله الذي هيأ لي من أمري رشدا، وحماني من ضباع كانت تنتهز الفرصة لتنهش لحمي، فقد كنت أمينا على المسؤولية التي كلفني بها الرئيس المرتقب للبلاد، بقدر ما كنت وفيا للمسيرة التي قطعتها مع الرئيس

---

17 - كان العقيد مرباح يتعامل معي باحترام كبير ولم يكن يناديني رحمه الله إلا بسي محي الدين، وذلك منذ عملنا معا في تنظيم المؤتمر الرابع لحركة عدم الانحياز، الذي احتضنته الجزائر في سبتمبر 1973، وكنت أيامها مجهولا تماما على الساحة السياسية، وكان علي أن أنظم التغطية الإعلامية ومن بينها حركة عدد من الصحفيين يتجاوز الألف وخمسمائة في حدود مائة وعشرين موقعا متوفرا في قاعة قصر الأمم ولجأت عندها إلى أسلوب مبتكر لم يتحمس له مسؤول التنظيم العام مدير المخابرات العسكرية في البداية، وكانت الخلفية تحميل مسؤولية اختيار الصحفيين للوفود نفسها، وتقسيم مجالات التغطية إلى مناطق تحمل أرقاما من واحد إلى أربعة، ثم إعداد عدد محدد من الشارات (Badge) في حدود العدد المصرح به من الصحفيين، وتحمل كل شارة رقما دالا على منطقة محددة في قاعة قصر الأمم، ولا يسمح للصحفي بالتحرك خارجها، وهكذا، وعن طريق حصة الشارات التي تسلم للوفود مباشرة، أمكن تحويل المطالبات الصحفية بالشارات من الطرف الجزائري إلى الطرف الضيف، وهذا بالإضافة إلى التسهيلات الأخرى التي تلقيت فيها دعما كبيرا من مصالح الدرك الوطني والأمن الوطني والأمن الرئاسي والعسكري، وكان التعامل مع رجال الإعلام في المؤتمر قدوة لكل المؤتمرات اللاحقة، رغم أنه أثار بعض المسؤولين الإعلاميين، فقد كلفت كبار مديري الأجهزة الإعلامية الجزائرية بأن يكونوا هم صلة الوصل مع بين الصحافة الأجنبية ورجال الأمن الجزائريين لإعطاء الصحفي الجزائري "برستيج" القرار، وأعطيت كلا منهم شارة صحفي لأنني رأيتها فرصة ليحس الجميع بقيمة شارة "صحفي" في الجزائر، خصوصا عندما يكون هو صاحب القرار، وأعتقد أنها كانت فكرة جيدة أتت أكلها، واستراح الجميع إلا واحدا أو اثنين من المسؤولين الإعلاميين أراد أن يتميز على رجال أكفاء مثل عبد الرحمن شريط والأزهري شريط وزروقي وغيرهم، ممن اخترتهم لتأطير الصحفيين فكانوا عازلا حكيما بين رجال الأمن والصحفيين الذين فتحت أمامهم كل الأبواب وإلى درجة أن بعض أعضاء الوفود جاءوني يطالبون بشارة صحفي بدلا من شارة مندوب، التي حصل عليها بعض الصحفيين من وفودهم على أمل أن تعطيهم "برستيجا" أكبر، واكتشفوا أنهم لا تعطيهم أكثر من حق الدخول إلى قاعة الأشغال، بعكس الصحفيين الذين كانوا يصولون ويجولون في كل مكان طبقا لأرقام الشارات التي يحملها كل منهم، حيث كان بعضهم قد تلقى من وفده أكثر من شارة وأصبح بالتالي قادرا على دخول أي موقع، وبالطبع تحت أنظار المكلفين بالرعاية وبالحماية، ومن هنا كان تنظيم التغطية الإعلامية سبقا لم يحدث له مثيل، وقلدته دول أخرى فيما بعد، والمهم هو أن مرباح أدرك منذ ذلك التاريخ أنني أعرف ما أتحدث عنه، وتغيرت نظرته لي من "معرب" متخلف، كعادة كثير من المسؤولين، إلى إطار سام يعرف مهمته ويتمتع بالكفاءة اللازمة لأدائها.

الراحل، ومن دون أي افتعال أو انفعال، وتقدم الشاذلي للرئاسيات في صورة الخلف الذي سيواصل ما بدأه السلف، سلاحه في ذلك إيمانه بربه وبوطنه وتمسكه بالمواثيق الأساسية للمسيرة الثورية واحترامه لدستور البلاد، وكان أسلوب خطابه مزيجا من الهدوء والبساطة والتواضع، بينما عكَسَ مضمونه مجموع المحاور التي ستكون بداية لحكمه.

وهكذا ركّز أولا على أن رئاسته هي استمرار للنظام الذي أقامه جوان 1965، أي أنه استمرار لنظام بو مدين.[18]، وكان هناك حرص على ترسيخ تعبير :"الاستمرارية"، التي تصل الشرعية الثورية بالشرعية الدستورية وتمنحها العمق التاريخي الذي يشكل أهم قواعد الاستقرار، انتظارا لمرحلة تقف فيها الشرعية الدستورية على قدميها بدون الاستناد على الشرعية الثورية ولكن بدون التنكر لها، وسيكون هذا دائما أهم الانشغالات عند إعداد خطب الرئيس وتدخلاته فيما بعد.

فلقد فقدت معظم الدول التقدمية، طبقا للتعبير السائد آنذاك، الكثير من عناصر الاستقرار بعيد المدى راسخ القواعد عندما استهانت بأهمية الحفاظ على استمرارية الدولة، ولقد وصل الأمر ببعض الدول إلى تغيير علمها الوطني أكثر من مرة في عقد زمني واحد، ولمجرد تغيير رأس النظام، وبدون مبرر حقيقي من تغيير سياسي عقائدي، وكانت ثالثة الأثافي، كما يقال، هو اتجاه النظام الجديد إلى اتهام من سبقوه بكل نقيصة، مما أدى إلى أزمة ثقة وطنية تفاقمت شيئا فشيئا مع اهتزاز صورة ومعالم مشروع المجتمع، الذي يشكل رأسمال أي نظام حكم.

ويكفي أن نلقي نظرة على روسيا بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، الذي بصق بعض قادته على ماضيه وعلى اختياراته ورجالاته، فأصبحت البلاد لمدة غير

18 – فكرت في البداية أن أستعمل تعبير "الجمهورية الثانية" الذي أعجبني رنينه ولكنني لم أستجب للإغراء، وفضلت استعمال تعبير "التغيير في إطار الاستمرارية"، وهو ما يعني أن الجمهورية مستمرة، خصوصا وأن بو مدين رفض استعمال التعبير بعد جوان 1965 .

قصيرة مثلا لا يحتذي به من قبل عقلاء، مقارنة بالصين التي ظلت وفية لمسارها ولرجالها، من كونفوشيوس إلى صن يات سن ثم ماو زي دونغ ودنغ زياو بنغ ومن جاء بعدهم، وبرهنت الصين بذلك على أن مأساة الاتحاد السوفيتي لم تكن الحزب الواحد أو النهج الشيوعي، بل إهانة الماضي وتجزئة التاريخ.

ومن هنا كان يجب أن شعار حكم الرئيس بن جديد هو: "التغيير في إطار الاستمرارية".

لكن المؤكد هو أنه كانت هناك مصالح متعددة تريد للتغيير أن يكون على حساب الاستمرارية.

(3)

تركت نص الحوار لدي العقيد الشاذلي في وزارة الدفاع الوطني لمراجعته، ورحت أستعد للتسجيل التليفزيوني الذي كان سيبث، عشية الانتخابات الرئاسية، يوم 7 فبراير 1979.

واخترت غرفة جانبية في فيللا عزيزة كان فيها مكتب محترم وكرسي مناسب (وهي قضية مهمة لأن الكرسي غير المناسب يعطي شعورا بعدم الراحة ينعكس على المتحدث) وجرت مراجعة الجوانب التقنية من ديكور وتجهيزات صوتية وإضاءة (والإضاءة أيضا عملية معقدة وإساءة إعدادها تنعكس على المتحدث فتصيبه بتوتر يؤثر على أدائه) وتوزيع للمواقع بين الصحفيين القديرين، عثمان عامر وحراث بن جدو، لتتحرك الكاميرا بينهما، ورأيت أن يستعمل العقيد نظارة ذات إطار سميك أسود.

وكنت مطمئنا قبل أن ندخل إلى المكتب بأن الرئيس يدرك تماما بأن المطلوب هو أن تبدو العملية وكأنها مرتجلة، خصوصا وقد جرى تفادي صياغة النص على شكل خطاب رسمي.

وعندما بدأ التسجيل، اسودت الدنيا في عيني، وأحسست بأننا مقبلون على كارثة.

كنت أقف وراء المصورين وعيني على العقيد، وكان منطقيا من الناحية الإنسانية أن يجد صعوبة في التصرف بشكل طبيعي أمام الكاميرا، ولا يظل مربوطا بالنص الموجود أمامه، فقد كان الموقف جديدا عليه وربما لم يكن الوقت كافيا للاستعداد، وكان وجها عثمان وحراث يبدوان كقناع موت شمعي، تتحرك فيه العينان بقلق لتتابع تحركاتي ونظراتي خلال التسجيل وحديثي الخافت مع الرئيس بعد انتهائه، حيث لم أتردد في أن أقترح على الرئيس أن نعيد التسجيل مرة ثانية لضمان وضوح الصوت، كما قلت له، ولم أكن راضيا عن التسجيل الثاني فطلبت إعادته مرة ثالثة.

وقبل الشاذلي كل هذا الإزعاج برقة بالغة وبتواضع جمّ، وكان رائعا في تجاوبه وتفهمه.

ومع كل التجاوب الذي لقيته والتفهم الذي أحسست به والتحسن في الأداء فلم أكن راضيا عن النتيجة النهائية، وكان يكفي أن أختلس نظرات لكل من عثمان بن عامر وحراث بن جدو لأحس بأنني محق في تشاؤمي، وفكرت جديا في إلغاء العملية كلها والاكتفاء بنص مكتوب تبثه وكالة الأنباء الجزائرية، وذلك بحجة عطب في أجهزة التسجيل، لكنني خشيت أولا من الأثر النفسي على الرجل الذي كنت أحس بأنه يبذل مجهودا هائلا للفرار من النص المكتوب (وهو أمر ليس سهلا حتى لمن مارسوا الخطابة لسنوات وسنوات) لكن عدم سماع صوت المرشح عشية الانتخابات سيهدد أركان الخطة الموضوعة منذ بداية الحملة الانتخابية، أي خلق الإحساس لدى الجماهير بالمشاركة الفعلية في اختيار رئيس عَرَفَتْــه وسَمِعَتْــه، وهي ضرورة حيوية لالتزامها المستقبلي معه[19].

---

19 - هذه تفاصيل كان يمكن أن نلغيها لأن هناك من قد يرى فيها إساءة للشاذلي بن جديد، وقد كان هذا رأي بعض الأصدقاء الذين استشرتهم، أو يرى البعض أنه تضخيم لدوري وهو

وبهدوء لا يعكس الإعصار الذي كان يعصف بكل جوارحي اقترحت على الرئيس أن ينزع النظارة (لكي أبعده عن الارتباط بالنص) ويتوجه للكاميرا بكلمة قصيرة مرتجلة تماما، وهو ما حدث بالفعل بعد فترة راحة قصيرة، ودام تدخله المباشر نحو دقيقتين.

ومساء نفس اليوم بثت التلفزة محتوى الحديث القصير الذي أدلى به مرشح جبهة التحرير الوطني لرئاسة الجمهورية الأخ الشاذلي بن جديد لوكالة الأنباء الجزائرية، وقدم مذيع التلفزة الجزائرية بصوته النص الكامل للحوار، أسئلة وأجوبة، والذي استغرق نحو خمسة دقائق، اختتمها قائلا : "وفي ختام حديثه قال المناضل الشاذلي بن جديد" .. وعلى الفور انطلق بث الكلمة المسجلة للرئيس.

ورأى الجزائريون للمرة الأولى منذ انتهاء المؤتمر الرابع رئيسهم المقبل واستمعوا لكلمته ولكنهم لم يتمكنوا من إشباع غليلهم حيث لم تتجاوز الكلمة دقيقتين.

وكان قصر التدخل وسرعته وجو الفضول الذي أثاره الديكور غير المألوف والنظارة ذات الإطار الأسود، التي نزعها الرئيس عند التوجه للجمهور...كل هذا ساهم في امتصاص اهتمام المشاهدين بل وإثارة فضولهم بجانب التخلص من أي ملاحظات سلبية مستمدة أساسا من عقد المقارنات مع الرئيس الراحل.، وهكذا، فما أن بدا الخطاب حتى انتهى، ولم يذع مرة ثانية، وبقي كل يحاول تذكر ملامحه.

ما لا أجرؤ عليه لأن كثيرون عاشوا معي هذا الدور وبعضهم ساهم فيه، لكنني تركتها عمدا لأبرز الجهد الكبير الذي بذله الرجل ليتمكن من تحمل الإرث الثقيل الذي وجده أمامه ولم يكن مستعدا له أو معدا لاجتياز عقباته، وكنت وما زلت أرى أن محاولة إخفاء الضعف المنطقي الذي كان يُعانيه في بداية ولايته سوف يحرمه حقه في التكريم والاحترام اللذين يستحقهما عن جدارة، بنجاحه في تطوير نفسه، ليصبح، كما عرفته، من خيرة رؤساء الوطن العربي ومن أكثرهم ذكاء ورجولة ووطنية.
وإذا رأى الرئيس فيما سردته أي إساءة فأنا أعتذر له، وأؤكد أنني أردت أن أمحو صورة روجها خصومه الذين استهانوا به، ولكنه أثبت قدرته على تحمل مسؤولياته وتقزيم أعدائه، ودخل هو إلى التاريخ بينما خرجوا هم منه.

كان ما شاهده الناس شيئا جديدا وصل بهم إلى اليقين بأنه ليس بالضرورة شيئا سيئا، لأن عناصر الاختلاف مع الأسلوب السابق كانت أكثر من واضحة، ولم يكن هناك من جرؤ على الادعاء بأن العملية فاشلة، وأحسست، عندما التقيت الرئيس في اليوم التالي، أنه كان مرتاحا.

وكان هذا في حد ذاته رسالة للجمهور ودرسا عميقا لي شخصيا.

والمهم هو أنني، في ذلك اليوم، ألقيت نظرة سريعة على برقيات وكالات الأنباء الأخيرة وأخذت قرصا مهدئا واستلقيت على فراشي محاولا انتزاع ساعات من الراحة استعدادا ليوم الغد، ولكنني غالبت النوم طويلا، إذ تنازعتني هواجس عدة، وكان السؤال الذي يطن في رأسي :

هل أحسنت صنعا بما فعلته ؟ وألا يمكن أن يعتبر ذلك، بشكل ما، تزويرا للحقائق وإخفاء للعيوب وراء أصباغ الماكياج الإعلامي ؟ ثم ..هل يستطيع الرجل التأقلم مع الالتزامات الجديدة، وهل سنتمكن دائما من إخفاء بعض مظاهر القصور إلى أن يتمكن من استيعاب متطلبات المنصب وضرورياته، وأولها أن يدرك، كما قلت له أكثر من مرة، أن هناك جانبا مسرحيا في أداء أي رئيس للدولة، وكنت أردد فيما بيننا كيف كان "الجنرال دوغول" يحفظ خطبه المكتوبة، وكيف كان هتلر يتمرن عليها أمام المرآة، ولكنه كان يقول لي ببساطة وأخوة : لا تنتظر مني أن أكون ممثلا، وكنت أجيبه بنفس البساطة .. وأنا لن أطلب ذلك، ولكنني أنتظر منك أن تساعدني بتحمل إلحاحي عليك.

وفيما بعد، وعندما آذنت شمس الشاذلي بن جديد بالأفول بعد أحداث أكتوبر 1988، ازداد عدد الخبراء في ادعاء الحكمة بأثر رجعي، خصوصا ممن هُمّشوا خلال الثمانينيات، وكان منهم أحد النجوم الصاعدة في نهاية السبعينيات، احتل يومها موقعا مرموقا لم يطل به المقام فيه طويلا، ثم اتخذ موقف المعارضة من الرئيس مع عدد من أبناء منطقته [20].

20 - أعترف، للأمانة، بأني أسأت لهذا الرجل الفاضل بدون أن أقصد ذلك، فقد طلب إلـيّ الرئيس أن أعلن عن انتهاء مهامه الوزارية في أحد أيام شهر رمضان، وكنـت أتصـور أن

قال لي أخونا، الذي لم يدخل مكتبي مرة واحدة خلال وجوده في موقع المسؤولية رغم صداقة وثيقة جمعتنا في الستينيات عندما كان رئيسا لقطاع عسكري، وذلك بمحضر مناضلين آخرين كان واضحا أنه يتجه لهم بالحديث ربما من باب الشعور بعقدة الذنب أو الرغبة في الانتقام ممن وضعه على هامش الممارسة السياسية، قال لي : "أنت المسؤول عن تحول الرجل إلى طاغية .... إنه لم يكن مؤهلا لحكم بلد مثل الجزائر، لقد أعطيته من القيمة أكثر مما يستحق، إنه صورة للجحود ولعدم الوفاء، أرأيت كيف تخلص منك وأنت الذي كنت دعامة رئيسية لحكمه."

كنت أستقبل الوزير السابق ورفاقه في بيتي عشية المؤتمر الاستثنائي الذي دعا إليه عبد الحميد مهري لجمع الشمل في أواخر الثمانينيات ورفض ضيوفي المشاركة فيه بحجة أنه يدعم السلطة التي يرفضونها، وكنت أتفق في الأمر مع رأي مهري.

وقلت له وأنا أوجه حديثي أيضا لكل السامعين، بأنني لم أكن وراء ترشيح الرئيس، الذي كان محدثي نفسه ممن تحمسوا لاختياره في البداية، ولقد تصرفت كمجرد مناضل حُمّلَ أمانة لم يسع لها وكان يجب أن يؤدي مسؤولياتها على أحسن وجه، وقمت بذلك عن اقتناع تام بما أفعله، ولم أطالب بمقابل، ولم أقلب الدنيا عندما أنهيت مهامي، فقد أعطِيتُ الوظيفة السامية ولم آخذ منها.

وفيما يتعلق بصلب الموضوع، فلا جدال أن الرئيس الشاذلي لم يكن سقراط أو أرسطو أو يوليوس قيصر أو نابليون، وهو لم ينسب لنفسه ذلك،

الرئيس قد أخطره بنهاية المهمة كالمعتاد، وعرفت بعد ذلك أن الرجل استمع إلى قرار عزله من شاشة التلفزة وهو يتناول طعام الإفطار مع أسرته.
وأعترف بأن هذا كان خطأ جسيما، لكن من الظلم أن أعتبر مسؤولا عنه. ولقد كانت مصيبتي في عملي آنذاك أن كل آثام البث الإعلامي كانت تنسب إلي، وكأن تخصصي هو أن أكون إسفنجة تمتص كل الأخطاء.
ورحم الله الوزير الأول الأسبق الأخ عبد الغني، الذي كان يقول لي كلما التقاني: "من حسن الحظ أنك موجود"، و تكرر الأمر حتى ملأني الشك فسألته عن خلفية ذلك التعبير فقال : "لأنك كبش فداء جاهز، فأي خطأ يحسب على عميمور".. وكانت نكتة لها معناها العميق ضحكت لها ، ولكنها كانت واقعا يوميا عانيت منه طويلا.

ولكنه كان مناضلا يملك المقدرة على تطوير نفسه واختيار أحسن البدائل المطروحة أمامه، وأتصور أن هذا هو الأمر الرئيسي المطلوب من القائد أو الرئيس، وأقول هذا عن علم ودراسة وتجربة، فمقتل المسؤول يكمن في محاصرته وحرمانه من البدائل الممكنة لأي قرار يتخذه، وممن يمكنهم اقتراح هذه البدائل، وبالتالي وضعه أمام اختيار واحد لا ثاني له، هو أساسا اختياراتهم هم، لمصلحة نظرتهم هم.

ولهذا نجح الرئيس عندما فتح الآفاق أمام كل الآراء وفشل عندما قبل الحصار المُخملي الذي فُرض عليه من بعض المساعدين والأصهار والأنصار.

ولقد كان الشاذلي بن جديد يملك قدرا كبيرا من الذكاء الفطري والتجربة العملية كما كان قادرا على أن يتعلم كل يوم شيئا جديدا وأن يضع كثيرين عند حدهم عندما بدا لهم يوما أن يتعاملوا معه بتجاوز لا يليق، وبالإضافة إلى كل هذا سنجد عبر الوقائع القادمة كيف أن الرجل يتمتع بإرادة فولاذية، وكان هذا كله المتاع الحقيقي لرجل يتحمل رئاسة بلد كالجزائر.

ولعلها فرصة أنتهزها لكي أقول بأن في رصيد الرجل إنجازات من حقه أن يفخر بها.

فبالإضافة إلى الإنجازات المادية كالطرق الدائرية حول العاصمة والمدن الكبرى هناك الإنجازات الإنسانية ومن بينها إقراره لحقوق التقاعد بالنسبة لكل المسؤولين السابقين، الذين أصبحوا يتلقون حقوقهم بشكل آلي من المؤسسة المكلفة بتقاعد القيادات العليا وإطارات الدولة.

ويدخل في رصيد الرئيس الشاذلي أيضا رفعه سقف الرتب العسكرية إلى رتبة اللواء لإعطاء الفرصة أمام شباب الجيش للارتقاء في مصاف الرتب العسكرية، وكذلك موقفه النبيل دفاعا عن العراق وتفاديا للضربة العسكرية، وهو ما كلفه أن يرفض بلد عربي نزول طائرته التي كانت قادمة من بغداد،

كذلك يُسجل له موقف الحكمة تجاه الحرب العراقية الإيرانية.

وكان عهد الرئيس الشاذلي هو الذي أقر اللباس الخاص للولاة، وأعتقد أن قدوتنا كانت تونس.

ولا بد أن يُسجل في قائمة الإنجازات إقرار وسام الاستحقاق الوطني، حتى وإن كان هناك من الأكفاء من لم يحصل على الوسام، الذي حصل عليه فيما بعد بعض الأجانب، وللأمانة فقد قال الرئيس للجنة المكلفة ببحث قضايا التكريم بأنه يُعطيهم الوقت الكافي لدراسة القوائم حتى لا يُظلم أحد، ولكن تسرعا حدث أدى إلى أن أعطيت الأوسمة لبعض من لا يستحقونها مقارنة بمن جرى نسيانهم عمدا أو جهلا، وكانت النتيجة أن كثيرين ممن منحوا الأوسمة أصبحوا لا يضعونها على صدورهم.

وهكذا مثلا رفضنا، أنا ومجموعة من المناضلين أتذكر من بينهم المدني حواس، تسلم شهادات تكريم منحت لنا باسم الرئيس لأننا رأينا أن في القائمة من لا يستحقون التكريم، بينما راح بعض المثقفين والفنانين يجرون نحو القاعة ويسجلون الامتنان الذي اتسم ببعض المبالغة من قبل البعض [21].

ولعلي استبقت الحديث لكنني خشيت أن تخذلني الذاكرة.

وعندما أنظر إلى الوراء أحس بأنني عملت مع الشاذلي بن جديد دائما من منطلق أن الرئيس لا يولد رئيسا، وآمنت بصدق المثل الذي يقول : الرجل بالرجال.

---

21 – بعد ذلك بنحو ثلاثة عقود، وفي غمرة حُمّى التكريمات التي كانت فرصة لإنفاق أموال كثيرة على احتفاليات تنسى إثر انتهائها، قلت لمثقف ووزير سابق يرأس مؤسسة سامية بأنني لا أرى مبررا لتكريمه شخصية معينة لم تنجز شيئا ذا قيمة مقارنة بكثيرين، وكان رده هو أنه تلقى تعليمات، من فوق، بذلك، وقالت لي السيدة زهور ونيسي أنها سمعت ذلك منه كما سمعه الدكتور محمد العربي الزبيري، ولا حول ولا......

(4)

مرت الانتخابات الرئاسية بنجاح في ظل اهتمام جماهيري لا يمكن وصفه بالحماس الفياض لكن لا يمكن أيضا أن يوصف بالبرود أو الفتور، وربما كان تعبير "الاهتمام" هو أصدق أوصافها.

وأدى رئيس الدولة رابح بيطاط والرئيس المرشح الشاذلي بن جديد الواجب الانتخابي في مدرسة المرادية، مرفوقين بالمسؤول المكلف بجهاز الحزب محمد الصالح يحياوي ووزير الداخلية محمد بن أحمد عبد الغني ومدير المخابرات العسكرية العقيد قاصدي مرباح، وكنت أرافق الرئيس المرشح مشيا على الأقدام في طريق العودة من مكتب الانتخاب وأفكاري تتجه إلى يوم التاسع من فبراير، عندما يؤدي الرئيس اليمين الدستورية [22].

كنت أسير على يمين الرئيس المرشح، وكان هناك عدد من الأطفال يلعبون أمام المدرسة، وهمست له بأن هناك مصوري صحافة، وبأن لقطة

22- منذ استعادة الجزائر لاستقلالها والنشيد الوطني يؤدى على أساس أربع « كوبليهات »، (قسما بالنازلات ـــ .. ثم : نحن جند .. ثم : نحن من أبطالنا .. وأخيرا : صرخة الأوطان .. حسب مطلع كل « كوبليه ») وهذا على أساس النص الذي أذيع للمرة الأولى من صوت العرب في منتصف الخمسينيات، ولم يكن أحد يتذكر الكوبليه الخامس، والذي كان الثالث في ترتيب النظم، ومطلعه: "يا فرنسا قد مضى وقت العتاب" ، حيث لم يُدرج في النص الرسمي ربما لاعتبارات سياسية آنذاك، واستمر تجاهله بعد استرجاع الاستقلال، من منطلق انتهاء وضعية العداء مع فرنسا، وليس هناك بلد في العالم يذكر اسم مستعمره السابق في نشيده الوطني، وأتصور أنه كان هناك سبب آخر تفادى الجميع الإشارة له، وهو أن صياغة هذا الكوبليه لم تكن في مثل شموخ بقية النشيد، وكان هناك من تساءل باستنكار .. : كيف يطلب الإنسان من عدوه أن يستعد لتلقي الجواب بعد أن مضى وقت العتاب؟.
لكن القضية طفت على السطح في منتصف الثمانينيات، حيث أوحي للبعض بالمطالبة باستعادة كوبليه (يا فرنسا..) بحجة عدم نسيان الماضي الاستعماري، لكنني كنت ممن نددوا بهذا لأن الفائدة التي سوف تجنى أقل بكثير من خطيئة العبث بالثوابت، نشيدا أو علما أو دستورا، وكان الرأي أن أي تغيير في النشيد، حتى لتحسينه، ليس له ما يبرره لأنه أصبح جزءا من التاريخ، والمساس به إخلال بقيمته الرمزية (والمارسلييز مثال لذلك) ويبدو أن هذا كان على وجه التحديد من خلفيات إرادة التغيير، وراح البعض بالفعل، بعد إضافة الكوبليه المذكور، يطالب بتخفيف النشيد وحذف كوبليه آخر يتناقض وجوده مع التعددية السياسية، وهو الكوبليه الذي يختتم بعبارة .. : "جبهة التحرير أعطيناك عهدا..فاشهدوا" .بل أن أصواتا ارتفعت في نفس المرحلة تطالب بتغيير النشيد أساسا، وأخذت اتجاهات بربرية في استحداث كلمات أخرى مبتذلة لموسيقى قسما نفسها، وهو ما كنت أخشاه.

للرئيس المقبل وهو يداعب الأطفال ستلقى قبولا جيدا عند المواطن، وكانت خلفيتي أن حجم المتوفر من صور الشاذلي محدود جدا.

ولم يتجاوب الشاذلي مع اقتراحي، وأحسست بأنه يريد أن يتفادى أي تصرف قد يبدو مسرحيا، وأكبرتُ فيه ذلك، وانتهزت الفرصة لأقول له بأنني سأرسل له نص القسم الدستوري، وأضفت ضاحكا بأنني أنتظر أن يحفظه عن ظهر قلب.

وكانت عملية أداء القسم مربوطة بنص في الدستور يحدد بأن أداء القسم يتم "أمام الشعب وبمحضر السلطات العليا في البلاد"، وكان هذا من أخطاء صياغة الدستور، لأن الديموقراطية المباشرة انتهت مع نهاية أثينا، ولا مجال لأداء القسم أمام عشرين مليونا من البشر في مكان واحد.

وأمكن إيجاد الصيغة المناسبة لترجمة روح الدستور في السبعينيات عندما تم بث أداء القسم من قصر الشعب مباشرة على أمواج الإذاعة والتلفزة، وبحضور كبار المسؤولين في الحزب والدولة، طبقا للتعبير الذي كنت أحرص على استعماله آنذاك في البلاغات الرسمية، وارتبط أداء القسم بأداء النشيد الوطني على مرتين، بحيث أنشد شباب الحرس الجمهوري الكوبليه الأول والثاني قبل أداء اليمين والكوبليه الثالث والرابع بعد أداء اليمين، وكانت هذه هي السابقة التي سرنا عليها في 1979.

ويبدو أن الرئيس الجديد كان يفكر في الميثاق الوطني، حيث تلعثم في بداية القسم وهو يحاول متابعة السطور، وذكر احترام الميثاق قبل احترام الدين الإسلامي، ومن حسن الحظ أنني كنت قد اتفقت معه على أن يعيد الجملة كاملة في حالة التلعثم، وهو ما مكنني من إجراء "المنتجة" اللازمة، وبث القسم في نشرة الثامنة مساء حسب الترتيب الدستوري، إذ لم يكن من المعقول أن يُعطي للبعض فرصة للقول بأن الرئيس يفضل الميثاق على الإسلام.



أمام مكتب
الانتخاب
في المرادية



بيطاط والشاذلي
والعودة إلى مقر
الرئاسة

والغريب أن أحدا لم يلاحظ الأمر، ورحت أسأل نفسي عمّا إذا لم أكن مريضا بمتابعة كل هذه التفاصيل التي لا يهتم بها أحد، ثم رحت أتساءل عمّا إذا لم يكن ما أفعله يدخل في نطاق التزوير، وكانت الإجابة بالنسبة لي أكثر من واضحة، فالثقة التي أحظى بها من المسؤول الأول للبلاد تحملني أمانة حمايته من الأخطار التي تدخل في صلب عملي السياسي والإعلامي، وصورة الرئيس الجماهيرية هي صورة الوطن كله، ومن غير المقبول أن يسمح بوجود شائبة يمكن أن تسيء للوطن.

ثم .. ألا يستعمل الرئيس الأمريكي نيكسون وبعض الرؤساء الآخرين المساحيق لتجميل صورتهم التليفزيونية ؟

لكن التساؤل الذي أقلقني بالفعل هو أثرُ عملية "المونتاج" تلك على الرجل نفسه، وعمّا إذا لم تكن إثارة لعقدة نقص من أي نوع، أو مبررا له لكي لا يبذل الجهد المطلوب، انطلاقا من أن هناك من سيتولى تقديم الصورة المناسبة، ولكن ذلك لم يحدث، في العهدة الأولى على الأقل، حيث واصل الرئيس الاستفادة من كل التجارب اليومية، وكان رائعا في تقبل كل ما يُشار به عليه لتحسين الأداء، وكانت بساطة الرئيس وتواضعه أكبر عون لي لكي أكون عند ثقته.

وهكذا، وخلال المرحلة التي كانت تغلي بالاتصالات وتتفجر بالتحالفات، كنت مشغولا بصقل الصورة الجماهيرية للرئيس الجديد، وقصرت اتصالاتي أساسا على رجال الإعلام، في الوقت الذي كان كثيرون ممن أعرف يقضون أيامهم ولياليهم في إقامة أو تمتين العلاقات التي تضمن لهم مواقعهم في المرحلة القادمة، التي كان يجري فيها إعداد قائمة الحكومة الجديدة.

وكنت أسرب في كل مكان، في الداخل والخارج، الأفكار التي أرى أنها تمكن رجال الإعلام من تقديم صورة الرئيس كما يجب أن يعرفها الناس، وهكذا كان أهم رفيق لي في تلك المرحلة هو الهاتف الذي كان يربطني بكل من أتصور أنه قادر على التأثير في أوساط الرأي العام، داخل الوطن وخارجه.



أمام ساحة الرئاسة الخارجية التي بنيت عليها قاعة مجلس الوزراء



ثلاثي الرئاسة،
التشريفات،
الاعلام، الأمن
معا دائما

ومرت ليلة العرس بسلام، وككل عرس ينصرف الناس في اليوم التالي إلى ترتيب حياتهم الجديدة، وتماما، وكما فعل رابح بيطاط، أبى الشاذلي بن جديد أن يبدأ عهدته باستعمال مكتب الرئيس بو مدين، وقيل الكثير حول هذا، ومن بينه أن للرئيس الجديد بادر بذلك سيرا على نهج بيطاط واحتراما للرئيس الراحل، ومن بينه أن الشاذلي لم يرد استعمال مكتب يرتبط بمكتب الأمين العام لرئاسة الجمهورية آنذاك، ومن بينه ما قاله لي بعد ذلك بنفسه من أنه كان مزروعا بالميكروفونات.

وفي هذه المرحلة تقلص دور الأمين العام لرئاسة الجمهورية، الذي لزم مكتبه في انتظار ما ستأتي به الأيام، وكان من أول نشاطات الرئيس استقبال ثلاثة مسؤولين طلب منهم أن يواصلوا العمل معه في نفس مواقعهم السابقة، وكنت واحدا منهم، لكنني كنت عمليا في تفكيري ولم أترك نفسي نهبا لأحلام قد تكون أوهاما إذا لم تتحول إلى كوابيس.

وكان يقيني إذ أنه إذا كان بو مدين قد اختارني للعمل معه بناء على معطيات ارتأها وجعلني أهجر مهنتي الأصلية وأغير مجرى حياتي فإن خليفته "ورثني" وآخرين في الجهاز الذي "آل إليه"، ولا يعرف كل خباياه، وبالتالي فربما كان اختياره لنا اليوم مبنيا على حاجة ظرفية قد تطول أو تقصر.

ومعنى هذا أنه كان عليّ أن أنتظر صراعات حول الموقع الذي أشغله، حيث أن هناك من يريد أن يكون واحد من رجاله في الموقع القريب من أذن الرئيس، وبوجه خاص في الموقع الذي يُمكن أن يؤثر فيه على لسانه، وأهم صفات الشخص المطلوب أن يكون أقل إزعاجا وأسلس قيادا وأضمن ولاء.

وكان يجب أن أدرك أن الرئيس لن يستطيع أن يوفر لي، في البداية على الأقل، نفس الحماية التي ضمنها الرئيس الراحل، ولأسباب من بينها طبيعة المرحلة التي جيئ به فيها إلى السلطة، ثم كان يجب أن أتوقع أن النفس الأمارة بالسوء قد تحبب إليه يوما ما بأن يتخلص من كل الذين رافقوا بداياته، ليضع

مكانهم من يكون هو صاحب الفضل عليهم وليس العكس، وبالتالي فإن هناك من المساعدين الجدد من قد يتفرغ لإعداد قائمة الأخطاء التي تسهل على الرئيس اتخاذ قرار البتر بما يجعل منه تحصيل حاصل لا يحتاج إلى تبرير أو حتى إلى تفسير، ناهيك عن الاعتذار [23].

وكان علي بالتالي أن أسبر غور المجموعة التي سيأتي بها الرئيس لشغل المواقع القيادية في المؤسسة، وعلى رأسها الأمانة العامة والأمانة الدائمة للمجلس الأعلى للأمن، بعد أن أبقى على مدير التشريفات ومدير الأمن الرئاسي والمستشار الإعلامي.

وكان انطباعي في الأيام الأولى التي بدأتُ فيها العمل مع الرئيس أنه رجل بسيط متفتح بالغ الذكاء، وكان من أهم ما أثار إعجابي هو إرادته الفولاذية في السيطرة على نفسه، وتأكد هذا عندما كان الشخص الوحيد الذي لا يغادر كرسيه في اجتماعات اللجنة المركزية للحزب إلا عند رفع الجلسة، بينما كان معظمنا يتسلل بين الحين والآخر خارج القاعة، وقد ترددت أقاويل كثيرة حول الرجل، وسمعت من لتهمه ببذاءة اللسان واحتقار العاملين معه، ويمكنني أن أشهد بعكس ذلك على طول الخط.

فطوال عملي معه بشكل مباشر، والذي تواصل خمس سنوات متتالية، لم أسمعه يتلفظ بكلمة نابية، بل كان يتميز بالرقة ودماثة الخلق، وعندما كان يستدعيني إلى مكتبه كان يستعمل تعبيرا معناه : .. فلان .. هل يمكنك أن تأتي ؟، وأذكر يوما أنه استدعانا، أهم المساعدين وأنا، وبمجرد دخولنا انفجر فينا غاضبا وقال : "أريد عندما أستدعي أحدكم أن يأتي معه بدفتر لتسجيل الملاحظات"، وقلت له، بسرعة وبحدة لم أقصدها، بأنني أعرف عملي جيدا،

23- تلقى كل العاملين مع الرئيس من وزراء وحزبيين أوسمة وطنية باستثناء من تمت تصفيتهم في المؤتمر الخامس، ومن المحزن أنني أحمل أوسمة أجنبية ولا أحمل وساما جزائريا باستثناء وسام جيش التحرير الوطني.

وأكملنا الحديث واستبقاني بعد خروج الزميل ليقول لي بهدوء: "لم أكن أقصدك أنت"، ولم أعلق.

والمؤكد أنه كان يحترم من يحترمون أنفسهم والعكس بالطبع صحيح، وإذا صح ما نسب له فلا بد أنه كان نتيجة لأن البعض كان ينحني أمامه ويتملقه، وقد سمعت الكثير عن تذلل البعض له [24].

وكنّا نلتقي مرات عديدة في الأيام التي تلت الانتخابات، خصوصا عند الاستعداد لدورة اللجنة المركزية الأولى للحزب، وكنت أنتهز الفرصة لاستعرض معه تصوري للمهام التي يمكن أن تقوم بها مؤسسة الرئاسة، كما كنت أسرد على مسامعه بعض التجارب التي عاشتها بلدان مرت بما يشبه مسيرتنا، وكنت أركز على سلبيات الثورة المصرية في عهد السادات وأسباب الانزلاقات التي حدثت.

وواصلت مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية إعداد النشرة اليومية، ولكنني رأيت ضغطها واختصارها وإضافة ملخصات بالفرنسية لتكون أقل إزعاجا للرجل الذي بدأت تنهال عليه الملفات.

وكان الواضح أن القوة الرئيسية على الساحة السياسية هي قوة المتحدثين باسم الجيش، وأفضل هذا التعبير على تعبير : المؤسسة العسكرية، لأن المؤسسة لم يكن لها، كمؤسسة، أي دور خارج الدور الذي يحدده لها الدستور، أو الدور الذي تتطلبه عملية التنمية الوطنية مثل شق الطرق وبناء القرى النموذجية، بينما كان الذين يتحدثون باسم الجيش أفرادا يمارسون أدوارا سياسية مرتبطة بسعي نظام الحكم إلى إحكام قبضته على مقدرات الأمور، ومنهم من أخذ، تبعا لذلك، حجما أكبر من حجم مهمته.

24- سمعت يوما أحد الوزراء يقول تعليقا على خطاب ارتجله الرئيس في مناسبة ما بأنه أرفع من مستوى ما يمكن أن يلقيه أساتذة الجامعة، ولم يكن الواقع كذلك، وكان أمثال هؤلاء هم الذين ظلموه ودفعوه لارتجال العبارة التي التصقت به وهي .."البلد الذي لا يعرف المشاكل ليس بلدا ، ونحن والحمد لله ليست عندنا مشاكل" .

كان هناك العسكريون من بقايا مجلس الثورة، وعلى رأسهم عبد الله بلهوشات وعدد ممن تربطهم صلات خاصة بالرئيس، على تباين توجهاتهم، ومن بينهم محمد عطايلية من الجيل المخضرم ومصطفى بلوصيف ورشيد بن يلس وبراهيم براهمية والعربي بلخير ونور الدين بن قرطبي من الجيل الأكثر شبابا، والذين عملوا مع العقيد الشاذلي في مواقع مختلفة، وكانوا سندا لترشيحه للرئاسة.[25]

وكان أقوى المتحدثين باسم الجيش آنذاك العقيد قاصدي مرباح، الذي يعود له الفضل الأول في انتزاع موقع الرئاسة للشاذلي بن جديد، ولكن العربي بلخير سيتخطى الجميع ليكون أقرب المقربين للرئيس، وستتم تصفية الآخرين على مراحل، كان أكثرها قسوة تصفية براهيم براهمية في منتصف الثمانينيات، والتي لا أعرف خلفياتها، وأكثرها مأساوية تصفية مرباح في التسعينيات، والتي لا يتحمل الشاذلي تبعاتها بأي حال.

وكانت أكثر التعبيرات إثارة لسخط الرئيس ما يتردد في بعض وسائل الإعلام الغربية والدولية من أنه كان مرشح تسوية، ولهذا كان يكرر كثيرا في خطبه المرتجلة تعبير : إنني لم أوقع على عقود مع أحد، وكثيرون تصوروا أنه يقصد بعض زملاءه في مجلس الثورة، لكنني أعتقد أنه كان يقصد كل من يمكن أن يطالبه بثمن تأييده.

فالقوة الأساسية التي تسنده هي الشرعية الدستورية المستندة إلى الشرعية الثورية والتي يحميها عنصران أولهما القوات المسلحة، بقدراتها التنظيمية

---

25 - روى لي الأحسن سوفي الذي كان وزيرا للعدل في أول حكومة للشاذلي بن جديد ولم يطل به المقام في الوزارة أنه سأل عبد العزيز بوتفليقة : كيف لم تتقدم للرئاسة وأنت أحق بها وتركتها لقمة سائغة للشاذلي ؟
وقال سوفي أن بوتفليقة أجابه قائلا : لقد فعلت ذلك والحراب في ظهري.
وروى لي محمد الصالح يحياوي بأنه كان هناك 3000 عنصر من الأمن يراقب العاصمة خلال وبعد مؤتمر الحزب، وتضمن أن يكون كل تحرك منسجما مع الخط الذي فرضته قيادتها، وأورد الرواية كما سمعتها ولتصور أن ذلك كان أمرا طبيعيا.

ورصيدها الوطني، والثاني نفور الجزائريين من أي مغامرة تهدد استقرار البلاد، ولقد روى لي الرئيس بعد ذلك وأكثر من مرة أنه كان يحس بشكل غامض، في حياة الرئيس بو مدين، أنه هو الذي سيتولى السلطة بعده، وروى لي، أكثر من مرة أيضا، حلما رآه وفهم منه ذلك المعنى، كما روى لي كذلك أن الرئيس الراحل استدعاه يوما ليقول له : "إذا حدث لي شيء فإنني أحملك أمانة استمرارية الثورة"، ولقد أشار إلى هذه الرواية أمام المؤتمر الخامس.

والمهم في كل هذا هو استقرار الشعور لديه بأنه في مكانه الطبيعي المشروع، وكان لهذا فائدة كبرى هي حمايته من أي عقدة نقص تخل بتوازنه وتدفعه إلى افتعال مواقف أو تصرفات تسيئ له.

وبعد حل مجلس الثورة خلال المؤتمر الرابع [26] تحول أعضاؤه إلى المكتب السياسي للجنة المركزية المنبثقة عن المؤتمر، ثم أضيف للمكتب آخرون من بينهم وزير الخارجية الجديد محمد الصديق بن يحيى، وقاصدي مرباح نفسه الذي عين فيما بعد أمينا عاما لوزارة الدفاع، والدكتور محمد أمير الذي عين وزيرا للعمل، كما كان في المكتب السياسي أقدم السجناء السياسيين في العهد الاستعماري وهو محمد السعيد معزوزي الذي كان وزيرا للعمل في حكومة بو مدين، وعبد السلام بلعيد الذي كلف باللجنة الاقتصادية في الحزب، وأحمد طالب الإبراهيمي الذي ظل في منصبه مستشارا برئاسة الجمهورية، ثم عفان جيلالي الذي لم يكلف بمنصب حكومي.

غير أن أقوى أعضاء المكتب السياسي كان محمد الصالح يحياوي، الذي كان قد تمكن من تدعيم نفوذه الحزبي خلال المرحلة التي عينه فيها بو مدين مسؤولا تنفيذيا مكلفا بجهاز الحزب، وكان رصيد يحياوي هو جهاده السابق، خصوصا وأنه لم يكن ممن مروا بمدرسة الجيش الفرنسي، وعرف بثقافته

26- كان حلّ المجلس خلال المؤتمر مقصودا ومبرمجا ليعني انتهاء المرحلة التي بدأت بالتصحيح الثوري في1965 وكان يحياوي هو من أعلن ذلك في المؤتمر.

العربية الإسلامية، وأعطاه هذا رصيدا خاصا عند المعربين، وبوجه خاص عندما احتضن رجال التربية والتعليم الذين صفاهم مصطفى لشرف في 1977[27].

وتمكن يحياوي من خلق جهاز حزبي يأتمر بأمره، وكان يريد جعل الحزب قوة سياسية أساسية على غرار أحزاب الكتلة الاشتراكية، تقود الجهاز التنفيذي، الذي اصطلح خطأ على الإشارة له بتعبير "الدولة، و"تعقلن" القوة النامية للجهاز الإداري ومؤسسات الصناعة لتندرج في خط الاختيارات الرئيسية للثورة، وليكون الحزب في الوقت نفسه قاعدة لبناء الطبقة السياسية ذات الوجود المؤثر البعيد عن إرادة القيادة العسكرية المباشرة، وهي، إن صحت، نظرة استراتيجية ثاقبة [28].

---

27 - كان يحياوي من خريجي معهد عبد الحميد بن باديس بقسنطينة، وهو من القليلين الذين يستعملون اللغة العربية فقط. في كل تدخلاتهم، ويسجل له ما بذله من جهود كبيرة لتعريب الأكاديمية العسكرية لمختلف الأسلحة بشرشال، أما مصطفى لشرف فهو مناضل كان كاتبا مغمورا، واستدعاه بو ضياف ليكلفه بعمل صحفي، وحدث أن كان من بين ركاب طائرة الزعماء التي اختطفتها المخابرات الفرنسية في أكتوبر 1956، والتي اصطلح على تسميتها بقضية الزعماء الخمسة، والواقع أن عدد الزعماء كان أربعة وهم أحمد بن بله وحسين آيت أحمد ومحمد بوضياف ومحمد خيضر، وكان الركاب خمسة، والخامس هو مصطفى لشرف، كما يكتب اسمه بالفرنسية،.
ولشرف من نتاج المدرسة الفرنسية مزدوجة اللغة وهو من خصوم العربية وممن يكرهون المعربين، خصوصا خريجي المشرق العربي، كراهية التحريم، لأنهم رفضوا اعتباره رائدا كما كان يأمل، وقد فرض اختياره على الرئيس بو مدين الذي كان مضطرا لخلق توازن بين الاتجاهات المتناقضة في آخر حكوماته، ليتفرغ لإعداد مؤتمر الحزب.
وقلت رأيي بصراحة للرئيس عندما سألني عن تثميني للرجل، واعتبرته قاموسا يلجأ له عند الضرورة

28- أتصور أن تعيين المجاهد يحياوي على رأس الحزب لم يكن أمرا اعتباطيا فالرئيس بو مدين، وهو خبير التوازن الاستراتيجي، كان يدرك أهمية الجيش في استقرار الحياة السياسية في البلاد، خصوصا والعديد من قياداته مجاهدون سابقون، ولعله خشي أن يُعتبر بناء الحزب تراجعا عن المنطق الجهادي الذي قامت عليه الشرعية الثورية فاختار قائد الكلية العسكرية ليكون هو رأس المؤسسة السياسية، واختاره معربا ليضمن التوازن مع المؤسسة الإدارية والاقتصادية، المفرنسة في معظمها، واختاره من الشرق الجزائري ليحقق التوازن مع أهم شخصيات مجلس الثورة من الغرب الجزائري ومن أهمهم بو تفليقة والطيبي العربي وأحمد بن شريف.

وربما كان هذا وراء رفض يحياوي تخصيص خُمُس أعضاء المؤتمر للقوات المسلحة، ورفضه فكرة مؤتمر الإطارات، وهو ما استثمره البعض لتأليب الجيش عليه، وبذل يحياوي كل جهوده خلال المؤتمر ليضمن مواقع متميزة لأنصاره، أو لمن ظن أنهم كذلك، وقد وجدت في أوراقي سطورا كتبتها يوم 31 يناير 1979 تقول بالحرف الواحد :

"في نهاية اليوم مررت بمكتب مدير التشريفات (مولود حمروش) ووجدت عنده اثنين من المستشارين، وكان يروي أنه سمع يحياوي يُعنِّف معاونيه صباح أمس (في كواليس المؤتمر) لأنهم تركوا الآخرين يُجْرون تعديلات في النصوص الأساسية، بما فيها القوائم النهائية لأعضاء اللجنة المركزية ، وقال حمروش وهو مغرق في الضحك : "أقسم معاونو يحياوي له بأغلظ الإيمان بأنهم ظلوا ساهرين حتى الثانية صباحا"، ثم أردف :"بالفعل كانوا ساهرين، ولكنهم كانوا يشربون الشاي، أما نحن فقد سهرنا حتى الخامسة صباحا، وعملنا ما كنا نود عمله" [29].

أما ما الذي تم عمله ؟ وبأمر من مَن ؟ ولمصلحة من ؟ ومن قام به بالضبط، فالعلم عند الله، لكن ما حدث بعد ذلك يمكن أن يعطي بعض الإجابات على السؤال.

كانت اتصالاتي في تلك المرحلة بمحيط القيادات السياسية محدودا، وكان هناك تنافس على اجتذاب معاوني الرئيس لهذا الطرف أو ذاك، وتقلصت لقاءاتي بيحياوي، ولم أعد ألتقيه إلا في الرئاسة عندما كان يأتي للقاء الرئيس، وكنت أحس بأنه يجتاز مرحلة صعبة من الناحية النفسية، وكان يقول لي بأن الرئيس يحاول التهرب مما اتفق عليه بالنسبة لتعيينه منسقا للحزب.

وتمكن يحياوي من زرع فكرة تعيين منسق للحزب، بعد أن فشل في إقرار منصب الأمين العام المساعد، ويزعم البعض أن قدوة يحياوي كانت صدام

29 - أكد لي يحياوي ذلك ضمنيا عندما عاتبته على عدم بذل جهوده لاختياري عضوا أساسيا في اللجنة المركزية.

حسين في العراق خلال حكم الرئيس البكر، والذين يقولون بهذا هم من كانوا يتصورون أن يحياوي سيتحين الفرصة للتخلص من الشاذلي.

وكنت أعرف بأن هناك من يعمل لدفع يحياوي لوضعية المجابهة مع الشاذلي فقلت له حرفيا بأن البلاد في حاجة لقيادة قوية وليس لرئاسة صورية، ولكنه أجابني بأن: "الشاذلي لن يتجاوز ستة شهور في الرئاسة"، وأجبته قائلا (وهو ما كنت سجلته يومها في مذكرة خاصة) أنت بنفسك طلبت مني ومن أصدقاء آخرين تأييد الشاذلي، وهناك من سيعمل على تحريض كل منكما ضد الآخر فكن حذرا، وكن مرنا، ولكن كل ذلك ذهب أدراج الرياح.

وكان ترسيخ يحياوي لنفوذه الحزبي محاولة لمواجهة زملائه في مجلس الثورة، خصوصا الذين كانوا يتناقضون معه فكريا ولكنهم لا يملكون القاعدة السياسية لمواجهته مباشرة، فيستعْدون عليه الرئيس المنتخب، الذي ناور آنذاك بذكاء كبير كان وصل إلى حد التهديد بأنه لن يرشح نفسه للرئاسة، مما أصاب البعض بذعر كبير من أن يجدوا أنفسهم بدون غطاء.

والمهم في كل هذا أن الشاذلي أخذ، شيئا فشيئا، يتصرف على أساس أنه الرئيس المنتخب من الشعب والأمين العام المنتخب من مؤتمر الحزب، وسيكون عدم تفهم يحياوي لنفسية الشاذلي بداية الشرخ بين الرجلين، وهو ما كنت نبهت إليه يحياوي أكثر من مرة مُحذرا من مغبة الاستهانة بالرئيس، ومذكرا إياه بقصة السادات مع رفاقه، لكن ما كنت أقوله كان يمحو آثارَه لغوُ بعض الذين كانوا يتجمعون حوله لمداهنته وإرضائه بالقول أنه صاحب الفضل في كل شيء، وقيل لي أنه أصبح ينتقد الرئيس علنا وفي حضور من كان يتصور أنهم خلصاؤه، ولكن التعليقات كانت تنقل بالتأكيد إلى من ينقلها للرئيس، وربما بإضافات تزيد من حدتها.

وهكذا خسرت البلاد إلى الأبد مناضلا صلبا، حيث لم تقم قائمة ليحياوي منذ أجبر على ترك منصبه الحزبي في بداية الثمانينيات كما سيأتي، وعاشت

البلاد أحادية سياسية ترهلت شيئا فشيئا إلى ان وصلت بها إلى الانفجار في أواخر الثمانينيات.

وبدأ الرئيس في تكوين صورة عامة عن شؤون الدولة، عبر الاتصالات الأولى التي أخذ يجريها مع عدد من المسؤولين. وكان في بداية ولايته يقطن فيلا "عزيزة"[30]، في انتظار أن ينتقل إلى المسكن الرسمي لرئيس الجمهورية، بعد أن تغادره أرملة الرئيس الراحل، التي كان يطلق عليها (في اللقاءات المغلقة) اسم .."؟؟؟؟"، وكان مجرد استعمال هذه الصفة دلالة عن نظرة الرئيس للأرملة، ولم أعلق، فقد كان لي رأيي ولكنني احتفظت به لنفسي تقديرا لحرمة الرئيس الراحل.

وكانت بعض الاتصالات الأولى صدمة للرجل، ومن بين من صدم فيهم مسؤولون في مستويات عليا، لعله كان ينظرُ لهم، وهو خارج العمل التنفيذي، بنظرة احترام كبير، ثم اكتشف كم تختلف الحقيقة من الداخل عمّا يراه الإنسان من الخارج.

وأذكر أنه استقبلني ذات يوم وكان يغلي غضبا، وعرفت منه أنه قد قيل له أن إطارا ساميا من العاملين معنا حاول دس اسم صديق له، ينتمي إلى ناحيته الجغرافية، في قائمة أعضاء اللجنة المركزية.

---

30 - في شارع البشير الإبراهيمي وأمام "دار النخيل" (إلي بالموري Les Palmeries) التي لم يستقر فيها بو مدين طويلا، وكانت "عزيزة" تستعمل لإقامة كبار ضيوف الجزائر وتتبع وزارة الدفاع أساسا، وفيها قمت بتسجيل جانب من حديث الرئيس بو مدين المتلفز مع فرانسيس جونسون، ثم قطنها الرئيس بو ضياف حتى اغتياله وتنازلت عنها الدولة لأسرته، وكان ذلك إثر مشكلة الإقامة التي كان يقطنها الفريق سعد الدين الشاذلي منذ لجوئه إلى الجزائر بعد اتفاقية كامب دافيد ، وكان آنذاك سفيرا لبلاده في البرتغال بعد بريطانيا(وكانت الإقامة في الأصل فيلا فخمة أقامها وزير سابق ونزعت منه لأن كل ما صُرف عليها كان من أموال الدولة، وتقع بجوار السفارة الأمريكية) وطمع في احتلالها بعض أقارب الرئيس المُغتال، فأبلغ الفريق بضرورة الخروج منها بأسلوب يبدو أنه كان فجا، ووضعت تحت تصرفه إحدى فيلات نادي الصنوبر، ولكن الرجل غضب، وأصر على العودة إلى بلاده حيث كان هناك حكم بالسجن أصدره الرئيس السادات في انتظاره، وقبل به بدلا من أن يُحس بأنه ضيف ثقيل في الجزائر.

وللأمانة فقد حاول الرئيس بو ضياف استبقاءه عندما سمع بالأمر ولكن الفريق أصر على موقفه.

وكان أعضاء اللجنة المركزية طبقا للقانون الأساسي مائتي عضو ينتخبهم المؤتمر، وعندما صوت المؤتمر على أعضاء اللجنة المركزية ككتلة مقترحة من الأمين العام كان من بين الأسماء المطروحة للتصويت إطار سام في جهاز الري، اقترحه، كما قيل، عضو في مجلس الثورة، ولكن القانون لم يكن يعطه حق العضوية، لأنه لم يحضر المؤتمر الرابع أساسا، وهكذا حذف اسمه من قائمة اللجنة المركزية التي أصبحت 199 عضوا [31].

قيل لنا أن زميلنا وهو يقدم لائحة أعضاء اللجنة المركزية النهائية للرئيس جعلها تضم مائتي عضو، ووضع فيها، مكان العضو غير المقبول، دبلوماسيا سفيرا لم يُصوت المؤتمر على اختياره، ولما سأله الرئيس عمّا إذا كان هذا الأمر ممكنا، رد قائلا : "ليس هناك مشكل" (وهو ما أكده لي الرئيس نفسه) وندد الجميع بتصرف زميلنا، الذي دافع عن نفسه قائلا بأن القائمة جاءته هكذا من الجهاز المركزي للحزب، "ولست مسؤولا عنها" (وهو ما أنكره مسؤولون في الجهاز الحزبي لكنني لا أجزم بصحة الإنكار ولا أتحمل مسؤولية رفضه)

وأجريت محاكمة أخوية للرفيق في مكتب الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، وبحضور كل المستشارين في الرئاسة ومن بينهم آنذاك بلقاسم نابي وأحمد حوحات ومحمد حاج يعلا، وقيل له إن وزره مضاعف لأنه خبيرنا القانوني، وقد تابع كل الأشغال مباشرة، ويعرف أن المساس بالقائمة خارج المؤتمر هو مساس بشرعية كل نتائج المؤتمر، ومع ذلك قال للرئيس : "ليس هناك مشكل"، فراح يحاول التبرير قائلا بأنه تصور أن الرئيس كان يسأل عمّا إذا كانت هناك قضايا أو مشاكل تمس شخص السفير، وقلت له يومها بأن الرئيس : "سألك كخبير دستوري لا كرجل أمن".

---

31 - أصبح وزيرا للري بعد نحو عشرين سنة في الحكومة الثالثة لعلي بن فليس، وخرج في الحكومة الرابعة.

وغضب زميلنا مني بعد صدور هذا الكتاب ونفى تماما ماورد هنا، وكنت سجلته في نفس الأسبوع.

لكنني، ومع مرور السنين، أفضل أن ألتمس للرفيق عذرا فيما قام به على أساس أنه كان يحاول تفادي أي فراغ في التشكيلة، وربما كان السبب في ثورة البعض عليه هو أن العضو المختار كان صديقا له ومن منطقته الجغرافية، وربما لأنه لم يستشر البعض في اختيار الاسم ليكسب دعمهم، لأن المؤكد أنه كان لكثيرين أسماء مقترحة لأنصار أو أزلام.

....

والواقع أن تصرفات بعضنا، وربما بحسن نية، كانت تجد تفسيرات تدين الاجتهاد وتحرم صاحبه حتى من الأجر الواحد، وأتذكر قصة ترجمة الميثاق الوطني من الفرنسية إلى العربية [32].

فقد كان الرئيس بو مدين قد طلب من أحد رفاقنا، بحكم أقدميته، تكوين مجموعة للترجمة وأعطاه بعض الأسماء، كنت في مقدمتها، فأضفت لها مساعدي في المديرية آنذاك محمد الهادي حمدادو، وكان معنا الأخ عبد الحميد مهري الذي استأذن في استدعاء واحد من كبار مساعديه لينضم لنا [33].

وقال رفيقنا أنه التزم أمام الرئيس باستكمال العمل خلال 15 يوما، فثرتُ عليه، لأن العمل كان كبيرا من ناحية الحجم وكبيرا أيضا من ناحية المحتوى والمضمون، إذ أن الميثاق سيكون الوثيقة الإيديولوجية للبلاد، والمفروض أن تكون لغته العربية من الإتقان بحيث توحي بأن النص كتب بها أساسا، طالما أن

---

32 - تولى تحرير الأبواب الخمسة الأولى للميثاق الوطني كل من محمد الصديق بن يحيى ورضا مالك ومصطفى لشرف، بإشراف مباشر وتوجيه محدد من الرئيس بو مدين شخصيا ووزيره للخارجية عبد العزيز بو تفليقة، أما الباب السادس والسابع الذي تناول قضايا الاقتصاد الوطني فتولى عملية التحرير أساسا مجموعة عملت تحت إشراف عبد السلام بلعيد. وكان عدم استدعاء أحمد طالب للمساهمة في الإعداد سببا في غضبه، وواحدا من مآخذه على الرئيس بو مدين، الذي حاول تلطيف الأمر فكلف وزير إعلامه بمتابعة المناقشات الجماهيرية حول الميثاق.

33- عند إشارته لهذه القضية في هوامش كتاب عن جبهة التحرير قال أنه استدعي للرئاسة لترجمة الميثاق الوطني، ويلاحظ الفرق بين استدعاء شخص للقيام بعمل ما واستدعاؤه للمساهمة في أدائه، بدون أن أتوقف عند شخص من قام بالاستدعاء، إذ قد يُفهم أنه الرئيس نفسه، وهو غير صحيح.

مجموعة التحرير بالفرنسية كانت أقدر على صياغة كل أفكار الرئيس حول كل القضايا المطروحة في الأبواب السبعة [34]، أو على الأقل هذا ما قيل لنا (وأعتقد أن النص الذي كتبته أنا بالعربية عن الإسلام كان أحسن من النص الذي كتبه مثقف ملاّكي بالفرنسية، وهذا بشهادة الهاشمي العربي الذي يتقن اللغتين).

والتقيت الرئيس بو مدين في اليوم التالي وسألني عما إذا كنّا بدأنا العمل، فأكدت له ذلك ولكنني قلت بأن المهلة التي التزم بها زميلنا ليست كافية، ووافق الرئيس على زيادة الفترة الزمنية قائلا بأن علينا أن نبذل قصارى الجهد، وهو ما أكدته للزميل إثر خروجي من مكتب الرئيس، وفوجئت بأنه أظهر تبرما كبيرا بذلك في حين كنت أنتظر العكس.

وباشرنا الترجمة، والتزمت أنا وزملائي بترجمة الفصول الأولى، وكنت أرسل للرفيق ما تتم ترجمته أولا بأول ليمكن أن نناقشه معا قبل الصياغة النهائية، وكان هذا هو أساس اتفاقنا، ليكون المشروع كله متقارب الصياغة، وبقيت أياما أنتظر أن يستدعيني لنلقي نظرة على العمل بأكمله.

وبعد نحو عشرة أيام حدث أن مررت بمكتبه فوجدت أمامه مجلدا أبيض ضخم الحجم مكتوب عليه بالعربية في المنطقة العلوية: "مجلس الثورة"، ثم في وسط الصفحة وبخط غليظ : "المشروع التمهيدي للميثاق الوطني" [35].

وشعرت بحجم كبير من الإحباط، فقد بذلنا جهودا متواصلة لإنجاز العمل الأولي في الوقت المحدد تقريبا، ولكن أخرين سبقونا إلى إنجازه وبشكل نهائي، ويبدو من شكل الغلاف ونوع الخط أنهم أحسنوا العمل وأتقنوه، وقبل ذلك .. سبقونا إلى إنجازه.

34- كثيرون لنتقدوا لجوء الرئيس بو مدين ومن بعده الرئيس بو تفليقة إلى كتابة نصوص أساسية باللغة الفرنسية، ولا بد للأمانة من أن نتذكر أن عدد القادرين على كتابة نصوص معينة بالعربية تتمتع بالعمق الاقتصادي والوعي السياسي كان محدودا، وكثيرون من رفاقنا كانوا أسرى للبلاغيات وللعبارات الطنانة، وكان مما يسهل الاعتماد على الكتابة بالفرنسية أن المحررين كانوا يمسكون ألسنتهم بعكس بعض المعربين.

35 – قدم المشروع فيما بعد باسم : "جبهة التحرير الوطني" وحذفت النسبة لـ "مجلس الثورة".

وغلبني الفضول لأعرف من هم هؤلاء الذي تفوقوا علينا، وسألت زميلنا الذي أجاب ببساطة : هل نسيت ..؟ إنها الترجمة التي أعددناها معا.

وشعرت بذعر شديد، وقلت له بأن ما قمنا به هو ترجمة أولية لا تعكس قيمة النص كاملة، لأنها كادت تكون ترجمة لفظية، ثم إن هناك تفاوتا في الأسلوب، وستكون هذه الترجمة مهزلة، فأجابني مطمئنا : لقد طلب الرئيس ترجمة باللغة العربية لنص المشروع في حدود 15 يوما، وأردت أن يحس بأننا نفذنا ما طلبه، وأنت ترى بنفسك أن العمل تام ومقدم في أحسن صورة.

وسألته قلقا : "لكن ماذا عن المحتوى ؟" فأجاب : "لا تقلق نفسك فبومدين لن يستعمل النص العربي وسيعتمد دائما على النص الفرنسي للتأكد من أنه ينقل أفكاره، أما النص العربي، فستكون أمامنا فرصة تحسينه، وعلى كل فلن يقرأه سوى يحياوي"، وقال هذا بأسلوب بدا لي أن فيه استهانة بيحياوي، وكنت أعرف أن المفرنسين يكرهونه لمجرد أنه معرب، وكان الغريب أن الإسلاميين كانوا يعتبرونه شيوعيا، ربما لأنه قرب عناصر من اليسار، خصوصا بالنسبة للعمال والشبيبة؟

ولم يرضني رد الزميل مع تفهمي لوجهة نظره، ولم أتردد في أن أعتذر للرئيس بأن الترجمة سيئة لضيق الوقت، ولكنني لم أبلغه بتفاصيل ما حدث، ومن حسن الحظ أنه أعطانا فرصة صياغة النص العربي من جديد، وهكذا كان النص النهائي مقبولا [36].

---

36 - كان هذا التصرف واحدا من أهم أخطائي، بالنظر إلى وضعية الصراع التي تعرفها القمم، والواقع هو أنني كنت أرى أن استعراض سيئات الزملاء أمام الرئيس يؤدي حتما إلى اختلال توازنه النفسي من كثرة ما يسمعه من سيئات، وقد يؤثر هذا على سلامة القرارات التي يمكن أن يتخذها في مجالات كثيرة، ولعل مما جعلني ألتزم بهذا قضية تأميم المخابز التي سبق أن أشرت لها وقضايا مماثلة سأشير لها في حينها، والمشكل أن كل الرفقاء لم يكونوا ممن يحترمون هذه القاعدة، وكنت بالتالي عرضة لسهامهم بدون أن أدري، بدون أن أستطيع التشكيك في نزاهتهم، وكنت أملك الدليل من تصرفاتهم نفسها، لكنني فضلت العفة ودفعت ثمنها.

وكان هذا الأسلوب في العمل صورة للإنجازات الصورية التي بدأ يقوم بها بعض المسؤولين لإرضاء الرئيس بالمظاهر الخارجية، وكان هناك من يحرص على كشف مظاهر الخداع التي بدأت تنتشر عبر كل المستويات، وكان آخرون يفضلون التستر، عفة أو جُبنا أو بعدا عن استثارة المشاكل، ولعل من لم يندد بالتقصير في حينه دفع الثمن غاليا عندما مُسحت فيه الموسى بعد ذلك.

ولأن الحديث كان عن الميثاق أتذكر أن الفصل الذي أذاقني الأمرّين في الترجمة كان الذي قام بتحريره مصطفى لشرف، بأسلوبه المعقد وجمله الطويلة.

(5)

كانت الأنظار كلها تتجه إلى الجزائر لمعرفة خطوات الرئيس الجديد، وكان الذين قدموا دعمهم للرئيس، اقتناعا أو لأنهم لم يجدوا اختيارا آخر، ينتظرون المكافأة ويسعون لها، وكان الجميع في انتظار الدورة الأولى للجنة المركزية التي قيل أنها ستفرز أعضاء الحكومة الجديدة.

وكانت أهمية هذه الدورة هو أنها ستضع ملامح العمل لكل الدورات القادمة، قانونا مكتوبا يصادق عليه أو تصرفا تلقائيا أو مدروسا يبادر به البعض فيصبح عرفا سائدا لأن أحدا لا يتقدم لتغييره، مجاملة أو تجاهلا أو مداراة [37].

وكان محمد الصالح يحياوي والمجموعة التي اختارها للعمل معه، والتي ضمت في معظمها مثقفين معربين ممتازين، تعد للاجتماع الأول من نوعه منذ 15 عاما، وكان من البنود مناقشة النظام الداخلي للحزب واللجنة المركزية

37- ألاحظ اضطراري أحيانا لاستعادة بعض المعطيات مما يفرض عليّ نوعا من التكرار، بعد استطراد يفرضه السياق وأبتعد به عن المحور الرئيسي، ولكنني أذكر بأن الكتاب أعد على مراحل، وأعتمد أساسا على الذاكرة.

والمصادقة عليهما، ثم مناقشة التعديل الدستوري وإعداد التوصية اللازمة بشأنه، وكان هدف التعديل استكمال بعض النقاط التي لم يشر لها دستور 1976، وخصوصا تعديل المادة 117 المتعلقة بوضعية الشغور، والتي لم تكن تشير إلى حالة العجز بالمرض.

لكن الدورة الأولى شهدت عددا من الممارسات الخاطئة، تواصلت وتزايدت إلى أن أصبحت هي العرف السائد، وكان المبرر دائما هو الحرص على ضبط الأمور وضمان عدم انفلات الانضباط.

وكان من بين هذه الأخطاء في تصوري الإعداد التعسفي المسبق لقوائم الأعضاء الذين ستتكون منهم لجان اللجنة المركزية، بل وتحديد رؤساء اللجان والمقررين ونواب الرؤساء سلفا، وكذلك نصوص الوثائق المعدة للعرض، والتي كانت تبدو وكأنها نصوص نهائية خصوصا عندما يتحمس لها واضعوها في مقر الحزب بقصر زيغود يوسف بمبالغة واضحة.

ولقد وصل بعض الحزبيين إلى التصرف بما يوحي بأن الجالس في مقر الرئاسة بالمرادية هو مجرد ممثل يؤدي دورا تكتب كل ملامحه في زيغود يوسف.

وكان الاستثناء الوحيد تقريبا ترك اختيار مكتب الدورة للرئيس الأمين العام للحزب، وغالبا ما كان الجهاز الحزبي يقترح الأسماء، وهكذا تبدو الأشغال أحيانا كقهوة يعاد تسخينها.

وأرسل الرئيس إليّ نص مشروع مختصر لكلمته الافتتاحية، وافاه به مكتب مسؤول الحزب، وفهمت أن الرئيس يريد أن يكون هذا تقليداً يُعمل به، بمعنى أن يكون النص الرئاسي، أو صيغته النهائية على أقل تقدير، معدة في الرئاسة، وهكذا راجعت النص ثم حولته إلى نقاط.

وكان المضمون عاديا، ولكنني أضفت بضع ملاحظات تشدد على الاستمرارية، على ضوء ما أتصوره كبرنامج مستقبلي يجسد شعار : "التغيير في إطار الاستمرارية"، وكان تصرّفي هذا فاتحة المشاكل مع الأخوة في زيغود يوسف ولم يزعجني ذلك لأنني رأيته أمرا طبيعيا، فأي تعديل أو تغيير يعني، بشكل آليّ، أن هناك نقصا في المشروع المقدم، وهو أيضا شيء طبيعي، لأن منطق الأمور يقول بأن الرئاسة تملك عناصر قد لا تتوفر عند المستويات الأخرى من المسؤولية، ولكن هذا يعني أيضا أن القرار النهائي هو لرئاسة الجمهورية، وهي رسالة واضحة [38].

وقد كان ممكنا أن "أفوّت" الأمر وأترك الخطاب كما هوَ ليلقيه الرئيس كما أريدَ له، ولا أثير المشاكل مع يحياوي، ولكن هذا كان سيتناقض، في رأيي، مع نزاهة المسؤولية، إذ يعني أنني سأقدم للرئيس، الذي كنت أعرف أنه يحترم رأيي، مادة أنا غير مقتنع بها مائة في المائة، وهو ما يعني أيضا أن أحدهم قد يسجل عليّ أنني قصرت في القيام بواجبي، ويتحول الأمر إلى ما يشبه الابتزاز.

وقد يأتي يوم يجري فيه دسّ فكرة معينة في خطاب الرئيس لتخدم فكرة معينة لسبب معين.

وهكذا استعملت صلاحياتي كما "أردتُ" أن أفهمها، وأجريتُ التعديلات اللازمة، وكمثال، فقد استعمل مشروع الخطاب المقترح تعبير : "استكمال الحزب لمؤسساته السياسية"، وهو ما لم يكن صحيحا بشكل مطلق، وكان من الخطأ أن ينسب قول كهذا للأمين العام للحزب، حيث أن أعضاء المكتب السياسي لم يتسلموا بعد مهامهم، ولم يكن تم تكوين اللجان الحزبية الدائمة.

38- زيغود يوسف هو واحد من أبرز شهداء الثورة في منطقة الشمال القسنطيني، وأطلق اسمه على المبنى الذي يحتله الجهاز الحزبي والذي كان قبل الاستقلال مقرا للمجلس الجزائري ثم احتضن المجلس الوطني التأسيسي ثم المجلس الوطني الأول، ثم مقرا للحزب ثم أصبح في مرحلة التعددية مقرا لمجلس الأمة.

وكان المشروع يتحدث عن المرحلة القادمة بصفتها "مرحلة تطبيق الميثاق الوطني"، وعَدّلتُها لتكون .."استكمال" تطبيق الميثاق، حيث من غير الممكن أن ينسى رئيس الجمهورية الخطوات التي تمت على طريق التطبيق، وعند الإشارة إلى طموحات المستقبل ركز المشروع على "الطموحات الشعبية" وهو ما بدا لي تعبيرا ديماغوجيا في اجتماع حزبي، ولكنه سيصبح أمرا إيجابيا إذا استكمل بالإشارة إلى طموحات "القاعدة النضالية للحزب". وبالنسبة لنظام تسيير الجلسة كان النص يتحدث عن "قرار" يتخذه رئيس الدورة لتسيير الأعمال، وهو دائما رئيس الجمهورية، وفضلت أن يستعمل الرئيس تعبير : .. "أرى" أن تسير أعمالنا على النحو التالي" ....

واقترح مستشارو الجهاز الحزبي ألا يسمح للأعضاء الإضافيين في اللجنة المركزية بعضوية مكتب الدورة، في حين أن المنطق كان يتطلب أن يكون بجوار الرئيس أحد الذي يعملون معه بشكل يومي مباشر، وكنت من بين المؤهلين لذلك، ولهذا قال البعض في الكواليس أنني أنا المقصود بهذا النص على وجه التحديد، وقال آخرون أنه إعداد لشخص معين يوضع خلف الرئيس.

والواقع أن الرئيس رد على ذلك بشكل واضح، إذ كان يستدعيني كثيرا إلى المنصة للتشاور أو لإبداء بعض الملاحظات ولإعطاء بعض التوجيهات.

ولقد ادعى البعض أن الفروق التي صححتها لم تكن فروقا جوهرية، وهذا أمر أرفضه، فقد كان في المشروع نوعا من الاستهانة بالرئيس، الذي لن يتوقف، في رأي من أعدوا المشروع، عند هذه الكلمة أو تلك، وذلك لكيلا أقول أنهم لم يدركوا أهمية كل كلمة توضع على لسان الرئيس، وكنت أريد من كل من يرسلون بمشاريع للرئاسة أن يدركوا أن كل كلمة ستخضع لرقابة مدققة، وهو ما سيكون له أهميته في بعض المشاريع التي كانت ترد من رئاسة الحكومة لتكون جزءا من الخطب الرسمية.

2

Les décisions prises : تحدثنا بصراحة واتخذنا قرارات ولكن

Insuffisant : هذا لا يكفي.

- Exécution - المهم التطبيق ... : وفي هم،

Le rôle de

هذا دور كل واحد منا في موقع عمله.

Le cong • يجب أن يكون واضحا أن المؤتمر القادم

هو مؤتمر المراجعة لا مؤتمر التراجع.

• يجب أن تتم المراجعة بكل موضوعية

وبدون آراء مسبقة.

35e anniv 8 mai • غدا سنحتفل بالذكرى 35 ليوم 8 ماي 45

ويجب أن تكون هذه الذكرى عهدا نقطعه

من جديد على أنفسنا لمواصلة المسيرة

نحو بناء المجتمع الاشتراكي.

نقاط لخطاب مرتجل

وتماما كما حدث مع مشروع كلمة الرئيس قمت بتحويل مشروع جدول الأعمال الذي اقترحه الأخوة في الحزب إلى شيء يشبه السيناريو السينيمائي، فقد كتبت كل الحركات والسكنات والملاحظات باستعمال الأقلام الملونة، وكان مضمون كل حركة يكتب باللون الأحمر، أما نص الكلمات التي ينطقها الرئيس فتكتب بالأسود، بالشكل التالي :

(يكتب باللون الأحمر) : يصعد الرئيس على المنصة ويحيي الحضور ثم يجلس في الكرسي الأوسط، ويدعو الجميع ثم يقول :

(تكتب باللون الأسود) الجلسة مفتوحة..

(باللون الأحمر) يتجه الرئيس إلى الحضور ويقول :

(باللون الأسود) أقترح عليكم مكتب الدورة للمصادقة

(باللون الأحمر) ثم يبدأ الرئيس في تلاوة أسماء أعضاء المكتب

(بالأسود) فلان وفلان وفلان وفلان ..

(بالأحمر) بعد المصادقة يدعو الرئيس أعضاء المكتب للالتحاق بمقاعدهم... الخ الخ

....

سيناريو، كأنه إعداد لعمل مسرحي، كان هدفه تسهيل مهمة المسؤول الأول في خرجته الحزبية الأولى، وبحيث لا يكون هناك تردد أو تلعثم أو فراغات زمنية لا يعرف فيها أحد ماذا سيحدث أو ما الذي يجب أن يحدث، ويلتفت هذا إلى ذاك، وتطوف على الوجوه علامات التعجب والتساؤل لتليها علامات الأسف والحسرة .. والتشفي.

وهكذا افتتح الرئيس جلسة الدورة الأولى يوم 6 مارس 1979 بالقاعة الكبرى بقصر الأمم، وكان من بين النقاط التي تم إعدادها أن تبدأ الأشغال بدعوة الرئيس الحضور للوقوف ترحما على روح الرئيس الراحل (وهي نقطة لم تكن واردة في المشروع الذي أرسل من قصر زيغود يوسف).

وكانت أهم قضايا الدورة، بعد اعتماد النظام الداخلي، دراسة قضية التعديل الدستوري، وكان رئيس اللجنة المكلفة بذلك الأخ عبد الملك بن حبيلص (الذي سيصبح أمينا عاما لرئاسة الجمهورية) وكان نائبه باقي بو علام، عضو المكتب السياسي (الذي سيصبح وزيرا للشؤون الدينية ثم للعدل) وكنت عضوا في اللجنة.

وكنت أتصور أن التعديل يجب ألا يتجاوز النقاط التي ثبتت الحاجة إليها، مثل المادة 117، وذكرت في تدخلي أمام اللجنة بأن الدستور الحالي ضَمِنَ اجتياز المحنة، وخصوصا بفضل عدم تقدم رئيس المجلس الشعبي لمرشح للرئاسة، وهو ما مكنه من القيام بدور بالغ الأهمية في صيانة استقرار البلاد وضمان الانتقال الهادئ للسلطة[39].

ووجدت في مذكراتي سطور كتبتها آنذاك تقول:

"تحدثت أول أمس مع أحمد طالب الإبراهيمي بحضور بلقاسم نابي، وكان طالب يرى ألا يُعدل الدستور الآن، لأن الأمر لا يستوجب العجلة، ويمكن أن نلجأ إلى الاستعانة بخبراء عالميين، خصوصا وأن الرئيس يشعر بحساسية من تعليقات بعض وسائل الإعلام الدولية التي تتحدث عن دستور "تفصيل" (Sur mesure)[40].

وكنت أتفق مع الدكتور طالب في طرحه من الناحية السياسية، ولكن المشكل كان أن قرار التعديل كان قد اتخذ، وكان علينا دراسة المضمون والأسلوب، ولعل من حقي أن أقول هنا أن الصياغة التي تقدمت بها للمادة 117 هي الصياغة التي أخذت بها اللجنة.

---

39 - كان هناك من حاول إلغاء هذا البند وعارضت ذلك بشدة فنقل الأمر إلى رابح بيطاط وكأنه محاولة للنيل منه، ومن حسن الحظ أن بيطاط رحمه الله أدرك الخلفية.

40 - كان للدستور الأول قد أعد في 1963 في عهد الرئيس بله، وجمد نتيجة للهجوم المغربي على الحدود الغربية، وكان للدستور الثاني هو دستور بو مدين في 1976. ولأننا استهنا بالأمر منذ البداية فسيكون لكل رئيس دستوره، وساعارض دستور 1996 بدون جدوى، خصوصا وأنه لم يحترم الميكانيزمات التي وضعها دستور 1989.

وكانت هناك نقطة أخرى أسجلها للأمانة التاريخية، وهي تحسب للرئيس الشاذلي.

ففي دردشة معه حول تعديل الدستور (الذي سيُكتفى فيه بمصادقة المجلس الشعبي الوطني عليه، بدون استفتاء عام، وهي سابقة بالغة الخطورة رغم أنه كان لها ما يبررها، حيث لم يحدث أي تغيير في جوهر الدستور، ولكنني وصلت فيما بعد إلى اليقين بأن أي مساس بالدستور، ولو لحذف فاصلة، يجب أن يمر باستفتاء شعبي) كان من بين ما قاله لي أنه يفضل لو أدرجت في الدستور مادة تحدد عدد الولايات الرئاسية بولايتين، وكانت فكرة رائعة، وكالعادة عرضتها في اللجنة كرأي شخصي، على أساس أن أعلن بأنها رأي الرئيس إذا حازت القبول، وفوجئت بمزايدات غريبة ذكرتني بقصة كبار المستشارين الذين راحوا يشكون للسلطان فيلَهُ الذي عاث في الأرض فسادا، ولما وقفوا أمامه ارتج عليهم فإذا بهم يطالبونه بأن يُراعي حالة الفيل المسكين النفسية ويقتني له له كلثوما (أنثى الفيل).

وحاولت تطوير الفكرة لكسب التأييد لها باقتراح تحديد المدة بولايتين "متتابعتين"، وهو ما يعني إمكانية ترشيح للمرة الثالثة ولكن بعد ولاية أو ولايتين لرئيس آخر، وفشل الاقتراح، وعلمت أن هناك من انتقد تدخلي أمام أحد رفقاء الرئيس، وهو العقيد الطاهر زبيري على وجه التحديد، وقال أحدهم للرئيس أنني أطلق اقتراحات غير مقبولة، وعندما تساءل الرئيس عن كنه تلك الاقتراحات وقيل له أنها عدد الولايات الرئاسية، قال، ذكره الله بكل خير: أنا الذي طلبت من فلان أن يطرح الفكرة"

وكان رد المسؤول الذي كان يحاور الرئيس (وصُفِّيَ بعد ذلك بسنوات) بأن هذا ضد الديموقراطية، لأنه اغتصاب لحق الشعب في اختيار رئيسه عدد المرات التي يريد.

وأعلن الرئيس في ختام الدورة عن تكوين الحكومة الجديدة وتوزيع المناصب الحزبية على أعضاء المكتب السياسي، وهكذا أعلن عن تعيين

يحياوي منسقا للحزب، ومحمد بن أحمد عبد الغني وزيرا أول مكلفا بوزارة الداخلية (التي شغلها منذ وفاة أحمد مدغري في منتصف السبعينيات) وعين محمد الصديق بن يحيى وزيرا للخارجية بدلا من بوتفليقة، الذي عين وزيرا مستشارا برئاسة الجمهورية [41]، ولكن الإدارة، لسبب ما، لم تخصص له مكتبا لممارسة صلاحيته كما خصص مكتب لأحمد طالب في آخر حكومات الرئيس بومدين.

وقيل يومها أن طالب كان يأمل في أن يحظى بمنصب وزير الخارجية على وجه التحديد، ولم أسمع منه ذلك بنفسي، لكن الذين ادعوا ذلك استدلوا برفضه فيما بعد لمنصب رئيس مجلس المحاسبة، رغم أنه بذل جهدا كبيرا في إعداد نصوصه مع المستشار، يومها، مصطفى عبد الرحيم، الذي كان أمينا عاما سابقا لوزارة السياحة، وهو ما أشهد بحدوثه [42].

وغادر رجل الحزب العتيد محمد الشريف مساعدية موقعه المؤثر، وهكذا خلا الجو ليحياوي في قصر زيغود يوسف، وكان هو الذي رشح عددا

---

41 – قال لي مدير التشريفات الرئاسية مولود حمروش، الذي أصبح عضوا إضافيا في اللجنة المركزية في المؤتمر الرابع مع عبد الملك كركب مدير الأمن الرئاسي، في إطار الحديث عن بو تفليقة : "هذا الرجل انتهى". وكان مولود يتقرب من المؤسسة العسكرية بصفته السابقة.

42 – أبلغني الرئيس يوما بأنه قرر تعيين الدكتور طالب كرئيس لمجلس المحاسبة، بعد أن أتم وضع هيكله واختصاصاته، وطلب مني أن أعلن ذلك، وهاتفت الدكتور لأحدد معه تفاصيل الصفة الوظيفية لاستعملها في البلاغ، ولكنه طلب مني ألا أذيع نبأ التعيين، ولم يكن هذا ممكنا بعد أن تلقيت أمرا واضحا من الرئيس، فرجوته أن يراجع الرئيس في الأمر، وانتظرت في مكتبي لتلقي أي تعليمات مضادة، ولم أتلق شيئا في حدود المدة التي يجب أن أعطي للخبر بعدها للوكالة. وغضب مني طالب ولكنني لم أكن أملك الحق في التصرف، وكانت هناك تعليقات كثيرة، كان أسوأها أن طالب أراد تصفية حسابات مع خصومه عبر مجلس المحاسبة، بشرط أن يكون بعيدا عن الأمر كله، وأتصور أن في هذا ظلم لمثقف في وزن الدكتور أحمد طالب.

ولعلي أرجح أن يكون السبب رغبته في وزارة الخارجية، التي عين فيها بالفعل بعد وفاة محمد بن يحيى في حادث الطائرة المعروف فوق الحدود التركية، وقيل أنه كان يأمل أن تحل قضية الصحراء الغربية على يديه فيسجل نصرا تاريخيا، لكن مروره بالوزارة لم يحقق الآمال التي عُقدت عليه رغم كفاءته وسابق نضاله، بالرغم من أن مروره بالوزارة عرف نشاطات هامة وسوابق متميزة، ويرى البعض أن سبب ذلك يكمن في افتقاده لمستشارين، وبالطبع فإن هذا كله مما يردده بعض من يدعون الحكمة بأثر رجعي، وكانت علاقاتي به تتأرجح بين التوتر والبرود.

كبيرا من أعضاء الحكومة، من بينهم وزير الإعلام والثقافة عبد الحميد مهري، وهو مناضل عريق ورجل فاضل وسياسي محنك، وكنت أتصور أن العلاقات بين الوزارة ومديرية الإعلام بالرئاسة ستدخل أخيرا في مرحلة انسجام وتوافق، لكن ذلك لم يحدث، لأن نفس الأشخاص في وزارة الإعلام واصلوا دورهم في تسمم الأجواء، كما سيأتي فيما بعد.

وكنت قد أعددت مضمون خطاب الاختتام، وركزت فيه على النقاط التي رأيت أن المواطنين والمناضلين يودون سماعها من الرئيس مباشرة، والتي كانت ترتبط بالأوضاع جديدها وقديمها، ولم استشر أحدا في إعداد النقاط التي كانت كما يلي :

- ▪ - الثورة تأخذ بعين الاعتبار ضمان الاستقرار بالنسبة للإطارات التي تقوم بواجبها على الوجه الأكمل، بحيث لا تتأثر هذه الإطارات بتغير المسؤولين في المستويات العليا (وكان هذا ردا على وضعية القلق التي كانت تعيشها إطارات في مجالات كثيرة، كما أنه توجيه للوزراء الجدد بعدم الانزلاق وراء التغيير لمجرد التغيير).
- ▪ - لا تسامح تجاه أي تهاون أو عبث بمصالح الدولة أو إهمال لمصالح المواطنين.
- ▪ - على اللجنة المركزية كقيادة سياسية أن تتحمل مسؤولياتها كاملة (وأهمية هذه النقطة هي التركيز على أن المكتب السياسي هو الهيئة التنفيذية للجنة المركزية وليس القيادة العليا للحزب، وبالطبع فإن أعضاء المكتب السياسي الذين أحسوا بأنني وراء هذه الفكرة لم يخفوا غضبهم)

وهكذا تكاثر عدد الذين يزعجهم وجودي بجانب الرئيس الجديد، ومن هؤلاء يحياوي نفسه، الذي فاجأته في ممر الطنب الكبرى يشكو للأمين العام

لرئاسة الجمهورية آنذاك، عبد المالك بن حبيلص، ما أسماه "تدخلات" الرئاسة في نشاطات عبد الحميد مهري كوزير للثقافة والإعلام[43].

وتوقفت لأسأل الصديق القديم عن ماهية التدخلات المزعومة، وفوجئ الاثنان وأحس يحياوي بالحرج، فتركته مع بن حبيلص[44].

---

43 – كان عبد الحميد مهري من كبار مناضلي الحركة الوطنية وعين وزيرا لشؤون المغرب العربي ثم للثقافة في الحكومة المؤقتة، ثم تولى مدرسة المعلمين العليا إلى أن عين أمينا عاما لوزارة التربية الوطنية التي أبلى فيها بلاء حسنا، ثم قربه منه يحياوي في مرحلة إعداد المؤتمر الرابع.
وروي أن عددا من أعضاء مجلس الثورة كانوا ضد تعيينه وزيرا، لأنه ارتبط بالحكومة المؤقتة التي تناقضت مع بو مدين وجماعة الأركان.وكان المفروض أن يعين وزيرا للتربية في 1977، ولكن الضغوط تزايدت على بو مدين لتعيين مصطفى لشرف، فاتصل الرئيس شخصيا بمهري ليقول له، مُطيبا خاطره، بأن دوره في المنصب الوزاري محفوظ، وليرجوه أن يساعد لشرف، ومن هنا نفهم أن تعيين مهري من قبل الشاذلي باقتراح من يحياوي لم يكن تعيينا عاديا، وتعمد الرئيس الشاذلي أن يرسلني برسالة واضحة لعبد الحميد تقول له بأن تعيينه ليس فضلا من أحد.
44 – روى لي مسؤول كبير أن يحياوي يقول لرئيس الجمهورية بأن عليه أن يستريح من عميمور، ولست أؤكد هذا ولكنني لا أجرؤ على نفيه، خاصة وأن بداية عهد الشاذلي شهدت تزايد التناقضات بيني وبين يحياوي، الذي يزعم البعض بأنه كان يريد أن يجعل مني طابوره الخامس في رئاسة الجمهورية.
وكان من نقاط الصدام رفضي إصدار بلاغ بتعيين أحد كبار مساعديه، وكان للأمانة، رجلا فاضلا، أمينا عاما للمكتب السياسي إلا إذا تلقيت تعليمات صريحة بذلك من الرئيس، بصفته الأمين العام للحزب، ولقد أكد لي الرئيس بعد ذلك أنه لم يصدر قرارا في هذا الصدد، وبأن القضية كلها كانت طلبا من محمد الصالح بأن يحضر علي بن محمد جلسات المكتب السياسي ليقوم بدور السكرتارية ، وتتضح بعض الخلفيات عندما نعرف أنني أنا الذي كان يُعد بيانات المكتب السياسي على ضوء توجيهات الرئيس وبناء على معلومات من أعضاء يكلفهم الرئيس بتزويدي بها، حسب اختصاصهم، وفهمت أن البلاغ الصادر عن رئاسة الجمهورية بتعيين أمين عام للمكتب السياسي ، وهو منصب غير موجود أساسا في نصوص القانون، كان سيكون ترسيخا لأمر واقع يريده منسق الحزب، وسأدفع أنا ثمنه، خاصة وأن هناك من كان يروج أنني من المحسوبين عليه، بل ومن عملائه.
وخسرت صداقة مساعد يحياوي، ونسيت أنا الأمر ولكن تأكد لي فيما بعد أنه لم ينس.
وكان قد كتب بعد استبعاده سلسلة مقالات على شكل قصة تحمل إسقاطات واضحة تمس بالرئيس، وسألني الهادي خديري عما إذا كنت أتابع الأمر وأجبته بالإيجاب، والذي حدث هو أنني وضعت الرئيس في الصورة وكان رأيي ألا يتخذ أي قرار بإيقاف المقالات لئلا تأخذ أكبر من حجمها، ووافقني الرئيس على ذلك، واستمر الأخ يكتب إلى أن مل الكتابة، ولم أبلغه أبدا بموقفي، وقد عُين في التسعينيات وزير للتربية والتعليم، ونصب له شرك بتسريب أسئلة البكالوريا فعُزل ثم عُين سفيرا في بلد عربي

وكنت أترك عملية نشر توصيات اللجنة المركزية للمؤسسة الحزبية، وأعترف أن هذا لم يكن كرما مني أو مناورة أو حتى تفاديا لردودالفعل السلبية من الحزب، وهو أمر وارد، ولكن لأسباب عملية منها عدم وجود العدد الكافي من المساعدين على مستوى مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية لإعداد الصيغة النهائية للتوصيات، بالإضافة إلى جانب آخر يتعلق بالمصداقية، حيث لاحظت أن بعض النصوص التي سلمت للنشر لم تكن مطابقة للنصوص المصادق عليها خلال الدورة.

وهكذا فضلت أن يتحمل رجال زيغود يوسف المسؤولية كاملة بالنسبة للنصوص المنشورة.

ووجدت نفسي، بحكم قربي من الرئيس وطبيعة مهمتي نفسها، في وضعية تفرض علي تزويد الصحفيين أولا بأول بالمادة الأساسية للعمل، وهي الأخبار المتعلقة باجتماعات اللجنة المركزية، حيث لم يكن هناك من كلف رسميا بهذا الأمر، وكان ذلك في تصوري مرتبطا بازدواجية مهمة الرئيس، وبالتالي فقد كنت مستشار الشاذلي بن جديد في كل نشاطاته.

وهكذا كانت أشغال الدورة الأولى للجنة المركزية بالنسبة لي بداية تنافر متزايد مع المؤسسة الحزبية، فقد كان هناك من حاول أن يفرض عليّ نوعا من التشاور بالنسبة للمواد الإعلامية المتعلقة بالدورة، خلفيته الوصول إلى حصر نشاطي في الجانب المتعلق بمهمة الشاذلي كرئيس للجمهورية، ويكون علي أن أتشاور مع مجموعة من مساعدي منسق الحزب فيما يتعلق بما يُنشر عنه بصفته الحزبية، وهم لا يملكون سلطة القرار النهائي وسيطلبون دائما الرجوع إلى المنسق، في حين أمتلك أنا الضوء الأخضر لاتخاذ القرار، وأتشاور مع الرئيس عندما أحس بضرورة ذلك.

وكان ذلك يعني ترك جانب من نشاط الرئيس لآخرين، وهو ما قد يعني احتمال تمرير مواد معينة أو حجب مواد أخرى من مضمون نشاطاته، وهو ما رفضته طولا وعرضا.

ولا بد من أن أعترف بأنه، بالإضافة إلى الجانب المتعلق بالمبدأ نفسه والمرتبط بالصراع على السلطة إذ من الذي يقبل وضع قيود على حركته تؤثر على فعاليته خصوصا في مجال الإعلام، فإن هناك جانبا آخر يرتبط بتعدد مهام الرئيس، ومنها مهمته كقائد أعلى للقوات المسلحة. [45]

(6)

واجهت، إثر تكوين الحكومة، مشكلة من نوع جديد قديم.

فبمجرد إعلان الأسماء اتصلت بكل أعضاء الحكومة للحصول على صورهم وعلى نبذة من حياتهم (وأرجو أن يكون واضحا هنا أن اختيار الوزراء لم يصحبه، في حدود ما أعرف، تقديم مُختصر معلوماتي مكتوب عنهم للرئيس، وإلا كنت نشرت مقتطفات منه).

واعتمد الاختيار على التوصيات، مع أخذ العلاقات السابقة بعين الاعتبار.

وراجعت تاريخ حياة الوزراء التي جاءتني، واختصرت بعضها وحذفت مكان الميلاد، فيما أردته أن يكون سابقة، وأخطرت الرئيس بذلك حتى أتحمل وحدي مسؤولية الوزر إن كان هناك وزر.

واتصل بي مساعدٌ مقرب للوزير الأول ليقول لي بأن "سي عبد الغني" يرغب في أن تكون الصورة المنشورة له صورة تجمعه مع رئيس الجمهورية أثناء حرب التحرير [46].

---

45 - أعتقد أن ما حدث مع العقيد مرباح وسبق أن أشرت له، يندرج في هذا الإطار، وألاحظ هنا أنني كنت أتحمل مسؤولية إصدار البلاغات عن الاجتماعات العسكرية طبقا لتعليمات محددة من الرئيس، حيث لم أكن أحضر تلك الاجتماعات أو اجتماعات المكتب السياسي أما بلاغات اجتماعات الحكومة فكانت تصدر عن الأمانة العامة.

46 - غير هذا المساعد فيما بعد ولاءاته وتنكر لعبد الغني بعد تنحية الوزير الأول من منصبه وتعيينه مستشارا بالرئاسة، وروي أنه كان ينتقد رئيسه السابق علنا وبصوت مرتفع ويقول "عليه أن يسكت وإلا.."

ولأنني كنت أحكم سيطرتي على كل ما يتعلق بالأخبار الرئاسية، فقد علمت بأن مكتب الوزير الأول قد أرسل الصورة المذكورة مباشرة لوكالة الأنباء الجزائرية.

وأبلغت الوكالة بأن كل شيء يتعلق بهذه القضية سيصلهم من مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية وقلت لمساعد الوزير بأن الاقتراح غير سليم، وليس في مصلحة الوزير ولا في مصلحة الرئيس، وقد تكون منطلقا لتنافر لا داعي له مع أعضاء آخرين في المكتب السياسي، وأبلغت الرئيس بالقضية فوافق على أسلوب تعاملي مع الأمر وطلب مني أن أظل على موقفي، وهو ما حدث بالفعل.

وعندما راجعت ما وصلني من نبذ حياة لاحظت أن تلك المتعلقة بالوزير الأول لم تصل، فطلبته هاتفيا لاستعجل وصول النص، وفوجئت بأنه رد عليّ بفظاظة لم أعهدها فيه، وقال بأن "كل شيء متوفر عندكم (في أجهزة الإعلام) وليس عندي ما أرسله لكم".

وأجبته بأدب وبحزم بأنني أقوم بواجبي كما أراه، وأنتظر أن يتفهم الجميع ذلك [47].

وتم النشر كما أردت، حيث كانت هناك صورة كبيرة للرئيس وصور متماثلة الحجم لكل الوزراء ابتداء بالوزير الأول، الذي أخذ مني موقفا منذ ذلك التاريخ.

وعلى غير المألوف سابقا ركزت على جانب الحياة العائلية وعدد الأبناء.

---

47 - أنا مستعد للاعتراف بأنني كنت متشددا في تنفيذ ما أراه صوابا، وهو ما استمطر علي السخط من كل جانب، وربما كان تمسكي بالولاء الرأسي وابتعادي عن كل ما يمكن أن يكون تحالفات أفقية أمرا مرتبطا بنظرتي للمسؤولية، خصوصا على مستوى رئاسة الجمهورية.
ولعل من أخطائي أنني لم أتعظ بتجربتي في البحرية الجزائرية، حيث انهار كل شيئ بمجرد غياب القائد الذي كنت أتعامل معه بولاء نموذجي، ولم أحاول الدخول في التنظيمات الشللية التي بدأت في التكون.

وكما جرت العادة في عهد الرئيس بو مدين فقد وضعت الأمين العام للحكومة وزميلنا السابق في الرئاسة، وبدون قصد معين، في آخر قائمة الوزراء، وعرفت بعد ذلك أنه غضب وحرص على أن يكون موقع اسمه في الجريدة الرسمية التي يشرف عليها قبل بعض الوزراء وكتاب الدولة، وأضاف، بين قوسين، تعبير : برتبة وزير [48].

ولم يضيع الزميل وقتا لكي يرد على ما اعتبره إنقاصا من شأنه، فعندما اقترحتُ على الأمين العام لرئاسة الجمهورية، وبحضوره، استعمال تعبير "مستشار الرئيس" بدلا من المستشار بالرئاسة" سأله عبد الملك عن رأيه (بأسلوب أوحى لي أنه كان هناك حوار سابق عني، اتسم بالسلبية تجاهي) فقال الزميل السابق بذكائه المعروف أن : تعبير مستشار الرئيس هو"أكثر حميمية"، ورد الأمين العام بأسلوبه الفلسفي الهائم في السحب بما معناه : أننا لسنا في مجال العلاقات الحميمية [49].

ولم أتوقف طويلا عند الأمر، حيث كان علي أن أستعد لما هو أهم، وهو خطاب الرئيس إلى الأمة، والذي ينص الدستور على إلقائه سنويا أمام المجلس الوطني الشعبي.

كان الرئيس بومدين قد ألقى خطابي الأمة لسنة 1977 وسنة 1978 في دورة الربيع، لكن التزام الرئيس الشاذلي بذلك التوقيت كان خطأ جسيما نظرا

48 - كان جلّ الذين أشرفوا على تأسيس الجريدة الرسمية ممن كانوا يعملون في المغرب خلال مرحلة الثورة، ولذ ا حرصوا على استيراد تسميات مغربية ظلت سائدة إلى يومنا هذا، مثل "غشت" للدلالة على شهر "أوت" .

49- لم يكن موقفي مقصودا بل سرت على التقليد السائر، وأعترف بأن الزميل كان على حق في غضبه لأنه يتقدم من ناحية الأقدمية بل والخبرة على كثيرين عينوا في مناصب وزارية، غير أن زميلنا لم يأخذ الأمر بما يتطلبه من تفهم، وتصور أنني تعمدت الإساءة له وهو أمر غير صحيح وهكذا بدأ في اتخاذ مواقف مضادة لي، وزعم البعض أنه، عند اختتام المؤتمر الخامس في الحزب في ديسمبر 1983 الذي كنت ممن تمت تصفيتهم فيه، قال علنا ومتشفيا : "جابها لو ربي"، ولا أجزم بذلك وإن كنت أرويه لمجرد أنه تناهى إلى سمعي.

لأن خطابا عن وضعية الأمة كان يتطلب جهدا كبيرا لإعداده وجهدا أكبر للتمكن من إلقائه.

ولأن الأمر كان من الخطورة بحيث لا يحتمل الاجتهادات الفردية فقد استشرت كثيرين من بينهم الأمين العام للحكومة والدكتور أحمد طالب، واتفقت كلمة الجميع أن الدستور لا يحدد الدورة التي يلقى فيها الخطاب الموجه للأمة، وبالتالي فيمكن تأجيل الخطاب إلى دورة الخريف، أي بعد نحو ستة شهور، رأيتها كافية ليستطيع الرئيس التحكم في أول خُطبه للأمة، والذي يبث مباشرة عبر التلفزة والإذاعة ويلقى في حضور السلك الدبلوماسي المعتمد.

لكنني اقترحت على الرئيس أن يوجه كلمة قصيرة للمواطنين، تكون فرصة لشكرهم ولوضع بعض المعالم لمسيرة المرحلة القادمة، وهو ما وافق عليه.

وتم إعدادها في أبسط جمل ممكنة، ليكون هذا هو طابع الشاذلي بن جديد الخاص، وركزت في البداية على شكر المواطنين، ثم استعرضت ما تم إنجازه في الأسابيع الماضية، ثم طرحت بعض الأفكار التي كان يجب أن تكون محور حديث الجميع، بصفتها تمثل فكر الرئيس الجديد ومشاريعه، وكانت الفكرة الأولى هي أن يطلب الرئيس من المواطنين "دراسة الميثاق الوطني" بعناية، لأنه "هو المرجع الأساسي الذي يجب أن نعتمده في تقويم الرجال والأعمال".

وقد ناقشت الرئيس في مضمون هذه الفكرة ووافق عليها، لتكون محور تجنيد كبير تقوم به الهياكل الحزبية وتعيد مرحلة المناقشات حول الدستور، وكانت خلفيتي أن أقيم حاجزا ضد أي محاولة لتغيير الاتجاه، تشبه ما حدث في عهد الرئيس السادات بعد وفاة عبد الناصر، وهكذا تكون عناصر الميثاق هي معالم الطريق، وكان على الرئيس أن يشرح الفكرة بأنه يريد، بتمسكه بالميثاق، التأكيد بأنه يريد أن يحاسِب (بكسر السين) ويحاسَب (بفتحها) على أساسه.

وكانت هناك فكرة أخرى لم أتوسع فيها، ولكن ما ورد كان كافيا للتجاوب مع الجماهير في قضية المحاسبة، حيث أكد النص أنه : "إذا كان التسامح قد فسر أحيانا على غير حقيقته فإنني أريد أن يكون واضحا بأنه لا تسامح تجاه الذين يخونون الأمانة".

ثم حرصت على ألا أعطي الفرصة لمن سيحاولون محاكمة المرحلة السابقة وإقناع الرئيس ببداية جديدة، يعلم الله إلى أين تقودنا، كما أنني لم أرد أن أغرق الرئيس في ديماغوجيات التطهير ومحاربة الفساد بما يحول الشارع إلى ما يشبه الملاعب الرومانية القديمة التي يلقى المتهمون في حلبتها للسباع، وهو ما يعني تزايد شهية الجماهير لعمليات انتقامية لا يعرف المرء أين تنتهي ومن سيدفع ثمنها.

وقلت للرئيس في تبرير هذا الموقف أن إخراج السيف عيب ورده إلى غمده عيبان، والقضاء على الفساد ، في تصوري، يجب أن يتم بهدوء، ولا يستعمل للتهييج بما يخيف إطارات الدولة، ولهذا كان تعبير : "لا تسامح تجاه خيانة الأمانة" تعبيرا يمكن أن يثير حماس الجميع بدون أن يثير قلقهم.

وبالطبع فإن الخطاب القصير أشار إلى الالتزامات الدولية مؤكدا بأننا : "سنسير دائما على الخط الذي رسمه الرئيس الراحل هواري بو مدين".

وكانت الكلمة، كما هو واضح، بالغة البساطة ولكنني أعتقد أنها لا تخلو من عمق، وكان الأسلوب بعيدا كل البعد عن البلاغيات الخطابية، فقد استعملت جمل قصيرة تسهل عملية القراءة، وسجل الخطاب على "كاسيت" بصوتي، مقروءا بهدوء وببطء، ثم أعدت النسخة التي سوف يقرأها الرئيس أمام التلفزة، وكانت مكتوبة بخط النسخ الأسود ومشكولة باللون الأحمر، وفصل بين الجمل بخط مائل أخضر يبرز مكان التوقف لالتقاط الأنفاس، ثم ختمت كل فقرة بنقطة سوداء واضحة لإبراز مكان الوقوف النهائي، الذي يتطلب بالضرورة تكييف الصوت عند الإلقاء ليوحي باختتام الفقرة.

وتم إعداد مكان للتسجيل في القاعة السفلية لمبنى اجتماعات الحكومة، حيث وضع مكتب رصين ووراءه، على الجدار، لوحة دائرية مذهبة تمثل شعار الجمهورية، وإلى يمين الرئيس كان العلم الوطني مرفوعا على صار أرضي، واقترحت على الرئيس وبلهجة الرجاء أن نقرأ النص معاً في مكتبه، لأنني أريد ضبط المدة الزمنية للخطاب، وأتصور أنه تفهم هذا العذر واستجاب لطلبي، وقمنا بتسجيل الخطاب، ثم استأذنته لإعادة التسجيل ثلاث مرات، لأسباب فنية تتعلق بقوة الصوت ووضوحه، وغيرت من أوضاع عدسة الكاميرا لأستطيع اختيار أحسن الفقرات المسجلة، وكان الخطاب الذي أذيع يوم 13 مارس جيدا ومؤثرا.

وسألني الأمين العام لرئاسة الجمهورية[50] عمّن يعد خطب الرئيس وقلت له بأنه أنا، ولم يُعلق.

وعلى هامش النشاطات السياسية المُكثفة عرفت الجزائر حدثا ثقافيا فريدا هو الزيارة التي قام بها الشاعر الكبير نزار قباني بدعوة من وزارة التعليم العالي في ربيع 1979، والتي كلفتُ باستقباله في المطار أحد الشباب من الصحفيين كما كُلف أحد الشعراء الجزائريين بمرافقته، لينزل في فندق "الأوراسي" الشهير، وفي اليوم الثاني أو الثالث لوصوله تلقيت من الشاعر الكبير مكالمة هاتفية، كانت في واقع الأمر صيحة استغاثة، وأسرعت إليه في الفندق فراح يحكي لي قصة وصوله إلى الجزائر حيث أرسل له صحفي شاب

---

50 – أضاع هذا الرجل فرصا هائلة على البلاد، إذ كان أول أمين عام مدني منذ 1965، وكان الرئيس يحبه ويعطف عليه فقد كان بصفة عامة رجلا طيبا هادئا ولم يعرف عنه أي مواقف حادة أو متميزة في الظروف الصعبة، لكنه ورغم خطورة الموقع الحساس الذي كان يشغله فقد بدا كمولا هلاميا يتلذذ بالبحث عن التعبيرات الفلسفية، مما جعل كثيرين يطلقون عليه اسم "سُقراط"، وكان غريبا أنه كان يغادر مكتبه لتناول طعام الغذاء كأي موظف في إدارة عادية، وكثيرا ما كان يترك موقعه بينما كان الرئيس في مكتبه أو في قاعة الاستقبال.
وقد حاولت أن أكون عونا له، ولكن هناك من دخل على الخط لإثارة الفتنة.

لم يتمكن من إدخاله عبر القاعة الشرفية لتخفيف إجراءات الوصول العادية، ولئن كان نجح بذكاء في إنقاذه من إجراءات الجمارك عندما قال للضابط : "هل تعرف أغنية عبد الحليم حافظ ... "رسالة من تحت الماء"؟.. هذا هو الشاعر الذي كتبها"، ومن حسن الحظ أن الجمركي كان من عُشاق عبد الحليم فرحب بالشاعر الكبير واصطحبه بنفسه خطوات نحو بوابة الخروج وهو يقول للصحفي : "هذا هو اللي يتنفس تحت الما".. وقال لي نزار ضاحكا : "تصوّر أنني دخلت إلى الجزائر تحت راية عبد الحليم ؟"

وشعرت بضيق نزار من فندق "الأوراسي" الضخم فقلت له بشكل عرضي أنني غير راض عن وجوده في هذا الفندق الذي يضيع فيه الإنسان وسوف أختار له مكانا مناسبا لشاعر، وكانت سعادته بذلك دليلا على صدق حدسي، وهكذا أمرت بتحويله إلى فندق "سان جورج" ذي الطابع الشرقي والموجود في قلب حديقة جميلة، وحاولت أنذاك أن أشغله بعدد من اللقاءات كان من بينها لقاء أسعده كثيرا وهو لقاء في دار مصطفى رايس ذات الطابع الأندلسي أو المغربي، دعوت له عددا كبيرا من المثقفين من بينهم وزراء ومثقفين.

ثم نظمت له زيارة إلى وهران، ولكنني لم أحسن اختيار الولاية التي كان على رأسها والٍ قيل لي فيما بعد أنه يقترب من الحنبلية في أحكامه، حيث استقبل الضيف في المطار، ولكنه ألقى على مسامعه خطبة طويلة عن ضرورة أن يُدرك الشاعر أن التغزل بالمرأة أمر لا يليق به[51].

51- كان تصرف الوالي مجردا من الذوق ، وحدث أن التقيت به بعد سنوات وكنت أيامها أعيش ما يُسمّى وضعية عيوز الصحراء بعد أن تمت تصفيتي من الرئاسة. وأراد الوالي، الذي كان عين قنصلا ثم أحيل على التقاعد، أن يتظاهر أمام عدد من الرفقاء الموجودين بنوع من الهيبة الوظيفية، فقال لي وهو يُذكرني بالأمر وقال لي بأنه كان يُفكر في تجاهل ما طلب منه، واضطررت للتخلي عن كلمات المجاملة التي أحب أن التزم بها لأقول للوالي بأنه كان عبدا مأمورا وبأنه لم يكن يملك قراره بعد أن تلقى مني شخصيا تعليمات بحسن ضيافة الشاعر الكبير، الذي عانى من قلة ذوقه، وويله لو لم يقم أنذاك بالواجب كما طلب منه، وهكذا اضطر الوالي السابق إلى التزام الصمت، فلم يكن يتوقع هذه الخرجة الحادة من قبلي، والواقع أنني كنت أواجه كثيرا بهذا النوع من التطاول الذي يُحاول أن ينتزع نوعا من القوة والهيبة أمام الآخرين، وكنت أتصرف معهم حسب حالتي النفسية.

وطيبت خاطر الشاعر بالطبع وطلبت تنظيم عدة ندوات شعرية له أذهله فيها استقبال الجمهور الجزائري من الجنسين، فقد امتلأت القاعة الأولى التي اختارتها وزارة التعليم العالي حتى كادت تنفجر من الزحام، وجرى تغييرها بسرعة إلى قاعة أخرى فاض عشاق نزار عبر طرقاتها وحتى حول مدخلها. وكان أروع ما أعتز به هو أن التسجيلات التي قدمتها التلفزة لاقت هوى في نفس الرئيس الشاذلي، الذي أعجب بالشاعر كل الإعجاب.

ولدى عودته إلى بيروت أرسل لي نزار رسالة رائعة كانت بداية سلسلة من الرسائل ظل يوافيني بها ردًا على رسائلي إليه، والتي واظبت في كل الظروف على كتابتها، حتى عندما عاش في لندن سنواته الأخيرة، وتعرض لهجومات عنيفة إثر قصيدته الرائعة : "المهرولون"

وقال لي في رسالته الأولى بتاريخ 19 أبريل 1979 :

"إقامتي القصيرة في الجزائر كشفت لي كم يستطيع رجل ما، أن يُغير مدينة.. أو بلادا بأكملها...بحرا..وجبالا.. وسماء .. ونجوما.. وأشرعة.

وأشهد أنك كنت أنت هذا الرجل، الذي رأيت الجزائر من خلال عينيه، وابتسامته، ورجولته، ومروءاته".

منشورات نزار قباني

بيروت

بيروت 19 - 4 - 1979

أخي الوزير الشاعر الدكتور محي الدين

أضع حقائبي على الأرض في بيروت، وأجلس للكتابة إليك.
ولا أظن أن الكتابة إليك سهلة. فكلما كبرت العاطفة، ضاقت مساحة الكلمة.

سيكون من تحصيل الحاصل، أو من النكات البايخة، أن أقول لك إنني شاكر. فكل هذه الكلمات شكليات وأشغال بطل.

المهم، أن إقامتي القصيرة في الجزائر، كشفت لي كم يستطيع رجل ما، أن يغيّر مدينة.. أو بلداً بأكمله حجراً.. وحجارة.. وسماء، ونجوماً.. وأشرعة
وأشهد أنك كنت هذا الرجل، الذي رأيت الجزائر من خلال عينيه، وانتباهاته، ورجولته، ومروءاته.

رحلتي إلى الجزائر كانت من أهم رحلاتي، فقد عدت وأنا أحمل إيماناً سحرياً.. وأشد إيماناً بالجزائر. فعندكم اكتشفت أبعاد حروفي الحقيقية، واكتشفت أبعاد هذه الأرض التي لا بد من التغلغل تحت أظافرها، للوصول إلى ينابيع العشق المطمورة في داخلها..
إلى الأصدقاء حباً وتحيتي. أما أنت فلك الحب دائماً..

أخوك
نزار قباني

رسالة نزار قباني

(7)

تولى الرئيس الشاذلي بن جديد مقاليد الأمور، ولاحظت أنه يتميز بالبساطة والتواضع، ولم يكن يبدو عليه الإحساس بأي عقدة أو بأنه يلبس رداء أكبر منه، وكان يؤكد دائما بأنه على استعداد لاكتساب معارف جديدة تؤهله لمهمته الجديدة، وكان التعامل معه سهلا فيما يتعلق برسم صورته الجماهيرية، وأبرز ما فيها ملامح رب الأسرة البسيط الهادئ.

وأصبحت خطب الرئيس الرسمية وتصريحاته الإعلامية في صلب التزاماتي، وواصلت التمسك باللغة العربية كلغة رسمية، وتجاوب هو معي، بينما كان هناك من يحاولون دفعه إلى التراجع عن ذلك واستعمال الفرنسية، وقد تكون لهم خلفيات فكرية ولكنني أفضل، احتراما، أن أعتبر خلفيتهم الرئيسة التخلص من المخلوق الذي يحتكر هذا المجال بكل ما يعنيه ذلك من وجوده الدائم بجانب الرئيس واحتكاره لمتابعة التغطية التليفيزيونية والإذاعية والصحفية لنشاطاته.

وبدأ الرئيس الشاذلي في ممارسة صلاحياته كرئيس للجمهورية في المكتب الذي كان يشغله الرئيس بو مدين، وذلك بعد إنهاء مهام عبد المجيد أعلاهم، رحمه الله، وتعيينه وزيرا للسياحة [52].

ويبدو أن الرئيس كان يتصور أنني غاضب لعدم إشراكي في الوزارة، ففي لقاء جمعني به، ودار الحديث فيه حول الإعلام، قال بكل رقة : أريدك أن تعرف أنك لم تكن بعيدا عن فكري وأنا أقوم بتشكيل الوزارة، ولكنني أردتك أن تظل بجانبي"، وقلت له، صادقا، أن ذلك لا يشغلني، وأحسست أنه استراح، ولقد

52 - كان هناك باب مزدوج يصل بين المكتبين وكان البعض يحبون أن يكون الطريق إلى الرئيس من خلاله، توددا للأمين العام أو لأنهم لا يملكون غير ذلك (أنظر : أيام مع الرئيس هواري بو مدين - دار اقرأ- بيروت).

أكد لي ذلك أن الرئيس رجل بالغ الحساسية، وكانت اللقاءات معه كانت تتم غالبا بناء على مكالمة هاتفية عبر الخط ثنائي الأرقام [53].

وكان أمامي الكثير مما يجب عمله، ومن بين ذلك استكمال عناصر تاريخ الحياة الرسمي للرئيس على أساس النص الذي كان قد أعد في وزارة الدفاع قبل الحملة الانتخابية، وإعداد الصورة الرسمية لرئيس الجمهورية، والتي توضع في مكاتب المسؤولين على كل المستويات عبر التراب الوطني وفي بعثاتنا الدبلوماسية في الخارج وتصنع منها نماذج للملصقات وأخرى لتوزع على من يطلبها موقعة من الشباب، وكنت وأنا أعد تصوري للصورة أسترجع في ذاكرتي المناورات التي قمت بها لإعداد الصورة الرسمية للرئيس الراحل، والتي اضطرتني إلى التحايل حتى أنجزت الصورة، التي استُعْمِلَتْ فيما بعد في الطابع التذكاري الأول والوحيد الذي صدر في الذكرى الأولى لوفاته [54].

وأعترف بأنني تحكمت في العملية كلها، وكان يجب أن أطمئن إلى أن النتيجة ستكون كما أحب، ولهذا توخيت، بحجم لا بأس به من المكر، ألا أشرك أحدا في التفكير، وحرصت على استعمال معطيات لن تتوفر لمن سيحاول نفس الأمر بعدي، ، ولتحمل الصورة الأصلية بصماتي.

---

53 - كان هذا الخط يربط الرئيس بعدد من كبار المسؤولين سواء في مكاتبهم أو في منازلهم، وكان هناك هاتف ثلاثي الأرقام يربط الرئيس بأعضاء الحكومة وآخر يربطه بوزارة الدفاع.

وكانت أهمية الهاتف ثنائي الأرقام أن المسؤول كان قادرا على الاتصال مباشرة بالرئيس بمجرد إدارة الرقمين، وفي السنة الثالثة لولاية الشاذلي أعطى أحدهم التعليمات للمدير المعني بالاتصالات السلكية واللاسلكية بتحويل كل الخطوط إلى البدالة (Standard)، وأصبح على مستعمل هذا الهاتف الخاص جدا أن يتصل بالرئيس عبر عامل البدالة، وقدمت القضية للرئيس على أنها محاولة لتخفيف عبء الاتصالات عليه، رغم أن عدد الذين كانوا يجرؤون على طلب الرئيس عبر الهاتف ثنائي الأرقام لم يكن يتجاوز عشرة من كبار المسؤولين.

وكان واضحا أن الهدف الحقيقي كان محاصرة الرئيس وعزله تدريجيا، كما سيتضح فيما بعد.

54 - أنظر : م .حين التجربة والجذور -دار الأمة - الجزائر - 1994 و أيام مع الرئيس بومدين - موفم 1999.

الصورة
الرسمية
للرئيس
الشاذلي (بدون
الكتابة السفلية)





طابع البريد التذكاري الوحيد للرئيس بومدين بصورته الرسمية

وكانت قدوتي في التصميم فكرة الصورة المائية لأوراق العملة.

ورحنا، أنا ومصور الثورة الإفريقية نور الدين زياني، ندرس أعدادا كبيرة من صور الرئيس ، ثم اخترت أحد العاملين في الرئاسة ممن يشبه لون بشرتهم لون بشرة الرئيس، وأجرينا عدة تجارب بالألوان، مزقنا فيما بعد أصولها وكل نسخها، وكان القرار النهائي أن يغلب اللون القاتم على الصورة كلها، ملابس وخلفية، ليكون وجه الرئيس أهم ما يجذب النظر إلى الصورة، بفضل اللون الأبيض للشعر، ويكون على يمين الرئيس ووراءه علم واضح الهلال الأحمر فوق اللونين.

وكانت الفكرة المستمدة من الصورة المائية للعملة وضع شعار الجمهورية الذهبي في الخلفية المظلمة وراء الرئيس وفوق مستوى رأسه، وتسلط عليه أضواء خافتة من جانب واحد تبرز تضاريس الشعار بشكل باهت يتعرف عليه فقط من يمعن النظر في الصورة [55].

والتقطنا عشرات الصور، وعرضت فيما بعد خمسا منها على الرئيس، قام باختيار إحداها وكنت أفضل أن يختار أخرى، ولكنني احترمت رغبته بدون أن أتنازل عن رأيي، حيث اخترت الصورة التي أحببتها لتخصص للملصقات

55- فات كل ذلك من جاءوا بعدي في المنصب عندما أعدت صورة الرئيس في ولايته الثانية بعد تصفيتي في 1984، كما فاتهم أن الرئيس، في الصورة التي صممتها في 1979، كان ينظر إلى يمين الكاميرا لا إلى عدستها، حتى لا يُكشف حول طفيف لم يكن ملحوظا للجميع، وكان المؤسف أن الجميع تصرفوا مع الصورة الجديدة من منطلق أن كله عند العرب صابون"، وهكذا استعمل نفس الوضع ونفس موقع العلم، بدون أن يبحث أحد عن شعار الدولة الموجود في صورة 1979، وهو ما جعلني أطرح على نفسي ألف تساؤل وتساؤل، عمّا إذا كانت مواقف التحدي التي واجهتها خلقت عندي نوعا من الجنون، جعلني أستطيب عذاب العمل بأسلوب ناحت التماثيل الصيني، الذي لا يرضى بأقل أن يبدو التمثال وكأنه يستعد للنطق) وأعترف باعتزاز أن صور رؤساء الجمهورية منذ نحو ربع قرن هي نفسها التي وضعت عناصرها في 1979، بينما كنت أفضل أن يكون لكل رئيس صورته الرسمية.

وإذا راجعنا صور الرؤساء الفرنسيين مثلا، وباستثناء بومبيدو، فإننا سنجد أنه كان لكل من شارل دوغول ولجيسكارد ولفرنسوا متران ثم لجاك شيراك، كان لكل منهم صورته الرسمية المتميزة، وكنت درست ذلك في حينه من خلال الصور الرسمية للرؤساء التي كنا نتلقاها بمناسبة زيارتهم للجزائر، وهو ما يعني أنني لم أكن أرتجل أو أتعنت بل كنت أخضع كل ما أقوم به لدراسة جادة، تحملني شخصيا أعباء كثيرة

الكبيرة، أما الصورة التي اختارها الرئيس فقد أسميتها الصورة الرسمية الأولى، حيث تحتل صورته أربعة أخماس ورقة الصورة، ويترك شريط سفلي أبيض أسفلها يشكل الخمس الباقي، يكتب فيه اسم الرئيس بالخط الكوفي، وتحته بخط الثلث صفته كرئيس للجمهورية وأمين عام للحزب، وكان هذا يحدث للمرة الأولى في جزائر الاستقلال، وكان بالتالي مصدرا لاعتزازي.

وكان لا بد من اللجوء إلى الذكاء المطلوب في ظروف كهذه فلم يُطلب من أي جهة بشكل مباشر رفع صورة الرئيس في الموقع المألوف خلف المسؤول المؤهل لوضعها[56]، بل اكتفيت بإبلاغ كل الوزارات والمؤسسات بأن بإمكانهم شراء الصورة الرسمية من مطبعة الثورة الإفريقية التابعة للحزب، وحرصت في البرقية التي أرسلت للجميع التنبيه بضرورة استعمال الحجم الرسمي (40× 60) وعدم تكبير الصورة بأي حال من الأحوال، وكان الهدف تفادي الأسلوب المألوف في الدول المتخلفة، والتي تضع في مكاتب الدولة صورا ضخمة لا تنسجم مع حجم المكاتب [57].

وبالطبع فقد كان هناك من انتقدوا الصورة الرسمية، وخصوصا فيما يتعلق بغلبة اللون القاتم عليها (وأدهشني أن بعض المنتقدين لم يلاحظوا، عجزا أو تعنتا، كيف أن وجه الرئيس كان هو، مع العلم الوطني، أول ما يجتذب النظر إلى الصورة، وهو أمر مقصود زادت من حبكته الفنية الخطوط البيضاء الطولية في بدلة الرئيس القاتمة). وبالطبع فإن أهم الانتقادات وأكثرها حدة جاءت من بعض

---

56 - المفروض أن وضع الصورة في المكاتب الإدارية ليس عملية فوضوية، فالصورة توضع خلف كل مسؤول مؤهل للحديث باسم الدولة، سواء كان رئيسا للحكومة وزيرا أو سفير أو واليا أو رئيسا لدائرة، كما توضع في مكاتب مديري المؤسسات الوطنية على اختلاف اختصاصاتها، وفي المكاتب التي يستقبل فيها الجمهور لقضاء مصالحه.
وما ينطبق على صورة رئيس الدولة ينطبق أكثر على العلم الوطني الذي لا يوضع خلف المسؤول إلا في مستوى رئيس الدولة ورئيس الحكومة والوزراء والسفراء والولاة ورؤساء المجالس المنتخبة.
وكانت المأساة في مرحلة معينة هي استعمال الصور والأعلام كيفما اتفق.
57- حدث هذا في الولاية الثانية ليثبت من جاءوا بعدي أنهم يحبون الرئيس أكثر، وكان الرئيس قد حلق شاربه.

العاملين في الحزب، حيث انتقدوا وضع لقب رئيس الجمهورية قبل صفته كأمين العام للحزب، وكنت أقول لهم بأن الأمة تسبق الحزب، كما قلت لأحدهم : أنت تقول هذا لأنك تعمل في الحزب، ولو كنت تعمل في الإدارة لتغير موقفك. وكان هناك من راح يسخر من وجود حرف الواو بين صفتي الرئيس والأمين العام للحزب، وربما كان على حق في ذلك، وهو ما تداركناه فيما بعد.

١ – [illegible]

أفكر في الرد على قضية تسمية

لقب رئيس الجمهورية مع الأمين العام [illegible]

[illegible]

[illegible]

الدكتور [illegible]

تحية أنت المحترم ...) إن أردت

أن تطلب من زميل آخر [illegible]

[illegible]

رسالة خطية من إسماعيل حمداني خلال جلسة اللجنة المركزية

وكان هناك من انتقدوا بحدة وجود الكتابة أسفل الصورة، ولم يتوقفوا عن انتقادها إلا عندما زار الرئيس الفرنسي فرانسوا متران الجزائر، ولاحظوا وجود اسمه تحت صورته الرسمية.

ولقد كانت تلك الصورة ناجحة إلى حد أنها أصبحت نموذجا لكل من أعدوا صور الرؤساء الأربعة الذين تعاقبوا على رئاسة الجزائر بعد الشاذلي بن جديد، لكنني كنت ممزقا بين الرضى عن النفس والسخط لأن أحدا لم يحاول بعدي أن يجدد ويخرج من الإطار الذي أصبح جامدا، ولعلي نسيت أنه كان يجب أن يكون هناك مستشار يفكر بأسلوبي ويلتزم بطريقتي في العمل.

وإذا حدث أن وُجد، ومثلي وخير مني كثيرون، فإن قصتي ستكون عبرة له، وسيكون عليه أن يُغلق فمه ويدع الأمور تجري في أعنتها.. إذا أراد أن يظل الطاعم الكاسي.

في هذه المرحلة كانت صورة بومدين موجودة في كل مكان، وطلع علينا أوفياء جدا للرئيس الجديد بدعوا ينتقدون بقاء صورة الرئيس الراحل لتناقض وجودها مع منطق الدولة [58].

ولأن كل ما أقوم به كان تحت بؤرة الضوء فقد بقيت صورة بومدين في مكتبي إلى أخر لحظة من وجودي في منصبي، وإن كان مكانها قد تغير فأصبح في الصالون الملحق بالمكتب، لتوضع صورة الرئيس بن جديد في مكانها الرسمي خلف المكتب، طبقا للعرف السائد.

---

58 - من بين هؤلاء الذين كانوا يتشدقون بمنطق الدولة من رفضوا بعد ذلك رفع صورة علي كافي مكان صورة محمد بوضياف بعد اغتياله، بحجة الوفاء له، ومن منطق الاستهانة بخلفه.
ومنذ أيام كنت في سكيكدة فروى لي أحد المسؤولين أن مندوب التشريفات في عهد الشاذلي بن جديد فوجئ برؤية صورة بومدين في مكتب الوالي فأمر بنزعها على الفور، ولم أكن سمعت بذلك في حينه.

وقلت للمتحدثين بأن هناك منطق الولاء ومنطق الوفاء، ولا تناقض بين الاثنين.

وتحملت مديرية الإعلام مسؤولياتها فيما يتعلق بالنشاطات الرئاسية، التي يجب أن تجعل من الرئيس محور الحركة السياسية في البلاد، وكان أول تحرك للرئيس خارج العاصمة زيارته في منتصف مارس إلى أقصى الجنوب الغربي للبلاد، وإلى بشار على وجه التحديد، حيث كانت فرصة لكي يُذكر الرئيس بموقف الجزائر من قضية الصحراء الغربية، وليؤكد بذلك أن القضية كانت وستظل اهتماما جزائريا ولم تكن موقفا شخصيا للرئيس الجزائري الراحل، وخلال هذه الزيارة ومن نفس المنطلق دشن الرئيس قرية فلاحية تحمل اسم بومدين، وهي قرية لم نسمع باسمها بعد ذلك.

وكانت أول زيارة قام بها رئيس أجنبي إلى الجزائر الزيارة التي قام بها الرئيس الليبيري الراحل تولبير، وكانت فرصة تدريبية للرئيس على مزاولة النشاطات الرئاسية، أهم ما فيها المودة التي تكونت بينه وبين الضيف، وجعلته فيما بعد يأخذ موقفا متجاوبا مع وجهة نظر الجزائر في عدد من القضايا الجهوية والدولية، وخصوصا الصحراء الغربية.

وكان من بنود برنامج الزيارة وضع إكليل من الزهور على ضريح الرئيس الجزائري الراحل، وانتهز البعض الفرصة للقول بأننا نسينا الأمير عبد القادر وبقية الشهداء وأصبحنا لا نتحدث إلا عن بو مدين، وكان واضحا في ذهني أن عملية التعتيم على الرئيس الراحل قد بدأت وبأن العاملين على هذا لن يفوتوا أي فرصة لاستثارة عواطف الرئيس السلبية، بمحاولتهم الإيحاء بأن هناك من يحاول أن يدفننا في الماضي.


استقبال الرئيس تولبير والعقيد القذافي في الجزائر


زيارة الملك حسين إلى عنابة

وتفاديا لأي لغط لا مجال له أصبحت أعطي الخبر بالشكل التالي : توجه رئيس الجمهورية الأمين العام للحزب إلى مقبرة العالية حيث ترحم على أرواح الشهداء ووضع إكليلا من الزهور على قبر الرئيس الراحل....الخ

وكان أسوأ ما في "العالية" القبر الرخامي الهائل الذي بني للرئيس الراحل، والذي اعترضتُ عليه في البداية لدى الأمين العام للرئاسة الأخ عبد المجيد أعلاهم رحمه الله، عندما احتفلنا بالذكرى الأربعين لوفاة الرئيس، ولكنه رد علي قائلا بأن الأمر تجاوزه، وهو أمر صحيح، إذ أن أرملة الرئيس كانت وراء بناء القبر الضخم الذي يتعارض مع بساطة بو مدين، وأقامت الدنيا وأقعدتها لكي يكون القبر أكبر من كل القبور الأخرى، بما فيها قبر الأمير عبد القادر [59].

وتواصلت النشاطات الرئاسية، وبدأت اجتماعات الرئيس بقيادات المنظمات الجماهيرية، وكانت فرصة له لكي يقترب من القضايا اليومية للمواطنين، وكان يجد أمامه، قبل كل اجتماع، أكبر حجم ممكن من المعلومات حول القضايا التي تهم موضوع الاجتماع، وبعض الأفكار التي يمكن أن تكون مضمون توجيهاته، وكنت بالطبع أتولى تحرير البيان الإعلامي عن اللقاء، بنفس الأسلوب المتبع في عهد الرئيس بو مدين، وكنت أحرص على الاتصال هاتفيا برؤساء تحرير الصحف لألفت انتباههم لبعض القضايا التي أشار إليها البلاغ، أو لأضعهم في بعض خلفيات اللقاء.

وتواصلت اجتماعات مجلس الوزراء برئاسة الشاذلي ومجلس الحكومة برئاسة الوزير الأول، وإن كانت فكرة الاجتماعات الدورية للأمناء العامين للوزارات قد توقفت.

---

59 - اعترفت الأرملة بذلك في حديث نشرته صحيفة النصر بقسنطينة، وعندما استشهد الرئيس محمد بو ضياف دفن بجوار الرئيس بو مدين، وقيل أن أسرته أبت أن يكون قبره أصغر من قبر بو مدين، وهو ما حدث بالفعل، وكنت على يقين من أنه لو استشير الراحلان لاختارا لحدا متواضعا عظمته تكمن في بساطته.
ولقد فكرت في أن أقترح إزالة كل القبور والاكتفاء بلوحات تحمل الاسم وتقام قبة على شكل ضريح جماعي، وضاعت الفكرة أدراج الرياح عندما برز الاتجاه لبناء مقام الشهيد.

والتقى الرئيس في أبريل ولاة الجمهورية، وكانت أمامه مجموعة من النقاط استعمل الكثير منها، ثم اجتمع بقيادة المجلس الوطني الشعبي، حيث انتهز الفرصة لتحية المجلس ورئيسه، وركزت جُلّ لقاءاته على مفهوم الاستمرارية، مع التأكيد بأن "البلاد لن تعرف انفتاحا من نوع انفتاح السادات".

والواقع هو أن حجم النشاطات التي كان الرئيس يقوم بها بدأت تؤكد الانطباع بوجود ديناميكية متزايدة على مستوى رئاسة الجمهورية، ولقي هذا ترحيبا كبير في الأوساط الشعبية.

ومع اقتراب شهر مايو كان هناك مشكل كبير في الانتظار.

فالاحتفال بعيد العمال كان بندا رسميا في النشاط السياسي للبلاد، من منطلق أن العمال هم إحدى القوات الخمس الحية للأمة، طبقا للبلاغيات السياسية آنذاك، واستدعاني الرئيس في الأسبوع الأخير من أبريل ليسلم لي مشروع خطاب أعد في زيغود يوسف ليلقيه في عيد العمال، وطلب مني أن أدرس الخطاب وأن أوافيه برأيي.

وكان النص، للأمانة، وافيا ممتازا، استعرض المسيرة وإنجازاتها، وأكد روح الاستمرارية مستدلا على ذلك بأن الإجراءات التي اتخذت مؤخرا كانت مبرمجة قبل وفاة الرئيس بو مدين.

وفكرت كثيرا، وعلى ضوء الفترة الزمنية المحدودة التي تفصلنا عن يوم الاحتفال، ثم استقر رأيي على أن أنصح بترك الاحتفال بأول مايو هذا العام لمنسق الحزب، وكنت في هذا أتجاوب مع ما أحسست أن الرئيس كان يريده بالفعل [60].

---

60 - قال لي الأخ محمد العربي ولد خليفة أنه هو أيضا الذي أعد مشروع الخطاب، وليس من كنت أظنهم من مساعدي بحيلوي آنذاك، وأورد الرواية كما سمعتها.

وكان من الإجراءات التي لاقت ترحيبا شعبيا كبيرا إلغاء رخصة الخروج من التراب الوطني والتي كانت قد فرضت إثر حرب 1967 مع إسرائيل، وقيل فيما بعد أن المحافظة عليها كانت لمحاربة النزيف المالي الذي بدأت البلاد تعاني منه، وتأكد أثره المخرب بعد نحو عقدين عندما تزايدت الاستثمارات العقارية الجزائرية في فرنسا .

وكانت الخلفية هي أن الفترة الزمنية القصيرة التي تفصلنا عن يوم إلقاء الخطاب لن تمكن الرئيس من استيعاب خطاب طويل دسم كالخطاب المقترح، والذي استعمل بلاغيات لم تكن من النوع المألوف في أحاديثه، وكان فرض الخطاب عليه تحديا غير لائق، وسيكون مهرجان العمال فشلا ذريعا يطعن في كفاءة الرئيس الجديد، وإن كان بعض خصوم يحياوي الألداء قد أشاعوا فيما بعد أن ذلك كان هو المطلوب، وهو قول يدل على سوء نوايا ليس هناك ما يبررها.

وهكذا تقرر أن يترأس منسق الحزب المهرجان الشعبي وسيتحدث باسم الرئيس.

وفي مساء 29 أبريل توجه ثلاثة مسؤولين حزبيين إلى دار الإذاعة والتلفزة حيث طلبوا تأمين البث المباشر للمهرجان، في حين أن العرف جرى على أن البث المباشر مقصور على المهرجانات التي يُنشطها رئيس الجمهورية شخصيا، وهكذا اتصل بي الأخ المدني حواس، الذي كان يملك من الثقافة والوعي والعمق النضالي ما يمكنه من وضع كل شيئ في مكانه، بدون تحيز أو مجاملة، وسواء تعلق الأمر بالرئيس أو بغير الرئيس.

ولم يتصل بي أحد من إطارات الحزب، كما أن يحياوي نفسه لم يكلف خاطره بالاتصال بي، على الأقل للاستفادة من خبرتي في هذا المجال، وكنت سأقدم له النصيحة التي يفرضها عليّ واجبي تجاه الوطن والحزب ثم تجاه الصداقة النضالية التي تجمعنا.

كنت أحترم يحياوي وأقدر جهاده ولا أنسى دعمه لي في بداية عملي الطبي ومقدمته الرائعة للجزء الأول والثاني من كتابي "انطباعات"، وكنت قلت له بأنه أول من يعلم أن الوضعية التي نجتازها تتطلب تقوية الإحساس العام بوجود قيادة قوية منسجمة على رأس البلاد، وبأن عليه ألاّ يتصرف بما يمكن أن يقدمه البعض لرئيس الجمهورية على أنه محاولة للانتقاص من سلطته أو الإساءة إلى هيبته.

وكان هناك أحساس بأن بعض من يحضرون بعض جلساته الخاصة يحاولون أن يدفعوا به إلى المواجهة مع الرئيس، بدافع سذاجة سياسية لا تستبعد أن هناك من كان يريد الإعداد للتخلص منه، ثم من آخرين يلتزمون بنفس النهج الفكري، استعداد لمرحلة الردة.

ولقد كانت مرحلة بدأت فيها اختراقات غريبة للصفوف، ولهذا لم أكن مجاملا في نقدي لبعض تصرفات محمد الصالح، ويعلم الله أن ذلك كان من منطلق الإحساس بأننا في خندق واحد[61].

ولم يحاول يحياوي الاتصال بالمدني حواس،رغم أنه من خبراء البث التليفيزيوني، مما أصابه بنوع من خيبة الأمل لأنه كان ينتظر أن يتصل به منسق الحزب شخصيا، بحكم الصداقة القديمة [62].

وكان هناك جانب ضاعف من حرج المدني هو أن أعضاء الوفد الثلاثي كانوا من زملائه السابقين، وهم من الإطارات الممتازة والنشطة، وهكذا اتصل بي فذكرته بقضية سعيدة، وبأنه أول من يعرف أخطار البث المباشر، فأجاب بأنه محرج، وقلت له فليتحمل كل مسؤولياته.

ونشرت صحيفة الشعب يوم 30 أبريل في الصفحة الأولى وبخط بارز نبأ ترؤس الأخ محمد الصالح يحياوي منسق الحزب للمهرجان الشعبي الذي سيقام بمناسبة أول مايو، ويحضره أعضاء القيادة السياسية في البلاد، وكان الحزب هو مصدر الخبر.

61- أذكر أنني طلبت منه يوما ألا يستعمل النظارات الغامقة عندما يتحدث للجمهور، ولكنه أجابني باستخفاف بأن للنظارات حكمة كبيرة، وكنت أرى أنها تخلق حاجزا بين المتحدث والمستمع، وتعطي للخطيب شكل المافيا.

62 - كنت أراجع أنا والمدني بعض خطب يحياوي عندما كان مديرا للأكاديمية العسكرية في شرشال، وكان الرجل يعبر لنا دائما عن احترامه وتقديره، برغم اختلافنا أحيانا عندما نحتج على المبالغة في المديح بالنسبة لبعض الخطب التي تلقى ترحيبا بالرئيس بو مدين ، وكان يقول إنها ضرورة تمرير الرسالة.
لكن هذا تناقض فيما بعد مع ما أصبحنا نسمعه منه عن بومدين.

وانتظم المهرجان في حدود الحادية عشرة صباحا في ساحة أول مايو وأمام دار الشعب، مقر الاتحاد العام للعمال الجزائريين، وألقى يحياوي خطابه الهام وهو يرتدي نظارته الغامقة، ووراءه عدد من مساعديه يرتدون نظارات مماثلة، بحيث بدا الأمر كمهرجان ينظمه آل كابوني في شيكاغو، وكان الانطباع سلبيا بمجرد النظرة الأولى.

وكان يحياوي خطيبا مفوها يمسك بناصية اللغة، مما جعل بعض المغرضين يتقولون بأنه كان يقصد استعمال الأسلوب الخطابي البلاغي، ليفرض على المستمعين عقد مقارنات تكون لصالحه على حساب رئيس الجمهورية، وهو ما لا أعتقد بصحته لأن يحياوى أرفع مستوى من ذلك.

لكن الشكل لم يكن أخطر القضايا، بل كان المثير للقلق مضمون الخطاب الممتاز، الذي كان معدا أساسا لرئيس الجمهورية، وربما تغلب الشعور بتأكيد الملكية الفكرية وأهمية الإنجاز البلاغي على صاحب أفكار النص أو من قاموا بصياغته، فنسوا أن مضمون الخطاب كان يجب أن يتغير بتغير من يقوم بإلقائه، مهما كانت روعة النص، وهكذا فعندما يقول رئيس الجمهورية بأن كل الإجراءات التي اتخذت كان قد تم الاتفاق عليها قبل وفاة الرئيس بو مدين يُفهم من هذا أنه كان شريكا في اتخاذ القرار.

أما عندما يقول هذا شخص آخر، أيّاً كان، فإن هناك من سيجد الفرصة ليقول بأن الخطيب أراد حرمان رئيس الجمهورية من فضل اتخاذ إجراءات لقيت قبولا حسنا عند الجماهير.

والواقع أن هذا هو ما حدث بالفعل، وأضيف إلى أكاذيب سمعتها بنفسي في مكتب الرئيس، عندما ادعى بعضهم أن منسق الحزب يستعمل سيارة مدرعة، وكان هذا آنذاك عيبا لا يجرؤ على ارتكابه أحد، وهو لم يكن صحيحا بالنسبة ليحياوي، الذي التقيته في اليوم التالي في مكتب مولود، وحذرته من أن هناك ردود فعل سلبية على خطاب الأمس، ولكنه أخذ حديثي على غير محمله،

وبدأت العلاقات تتوتر بيني وبينه، وساهم في زيادة التوتر بعض العاملين معه، ومنهم من انتقل إلى رحمة الله.

وتزايد التوتر إثر الاجتماع الذي ضم المحافظين الوطنيين للحزب، حيث ألقى الرئيس كلمة افتتاحية قصيرة ثم أعطى الكلمة لمنسق الحزب، الذي استعرض أهم النشاطات الحزبية.

وفوجئت عندما أبلغت هاتفيا من وكالة الأنباء الجزائرية، والتي كنت أتابع إرسالها برقية برقية، بأن الجهاز الحزبي أرسل لها ملخص كلمة المنسق، واصفا إياها بالكلمة التوجيهية [63].

وكان استعمال هذه الصفة في حضور الرئيس تجاوزا لا مبرر له، ولا أتصور أن يحياوي أمر به، وربما كان هناك من المساعدين من أرادوا أن يرفعوا من شأن قائدهم، بدون أن يدركوا أن الأرض مشبعة بالسوائل الملتهبة، وتنتظر عود الثقاب.

وأدركت الخطر الداهم، وبحكم مسؤوليتي عن بث ما يصدر عن الرئيس وما يقال في حضوره، ولحماية يحياوي نفسه والحرص على علاقته الإستراتيجية مع الرئيس، أصدرت تعليماتي للوكالة باعتماد النص الذي سأرسله لهم وسأستعمل فيه عبارة "كلمة الرئيس التوجيهية" و"تدخل منسق الحزب".

ولم تكن القضية في تصوري مجرد إخفاء الصراع على السلطة، ولكنها كانت محاولة لضمان الصورة القيادية المنسجمة للحزب والدولة، ولحماية يحياوي من شطحات بعض مساعديه، الذين ينسون أنه ليس من حق أحد أن يصدر توجيهات في حضور الرئيس، وبأن تعبيرات كهذه سوف تستغل لإيغار صدر الرئيس على منسق الحزب.

63- أعرف أنني هنا أؤكد ما كان يتردد من أنني كنت أتابع كل شيئ يتعلق بالنشاط الرئاسي وهي تهمة لا أنكرها فقد كان ذلك واجبي، ويعلم الله كم كان ذلك يحملني من أعباء ومشاق ويكلفني من خصومات وصراعات.

وبرغم ما كنت آخذه على يحياوي فقد كنت أؤمن بأن وجوده إلى جانب الرئيس هو أكثر من ضروري لأنه الوحيد القادر على مواجهة الثورة المضادة والاتجاهات التغريبية.

لكن المؤسف أنه لم يدرك ذلك، فثارت ثائرته واعتبر تصرفي تدخلا في شؤون الحزب، الذي كان بعض موظفيه يريدون، لاعتبارات شخصية، أن يجعلوا منه شيئا مثل "الفاتيكان" السياسي، انطلاقا من أن الحزب هو الحزب القائد والحاكم، وكنت أقول لكل هؤلاء بهدوء ولكن بحزم، أنني أتفق معهم في هذه النظرة ولكن عليهم أن يتذكروا أن رئيس الجمهورية هو المسؤول الأول للحزب.

وفي اليوم التالي بثت وكالة الأنباء الجزائرية نص تدخل المنسق أمام الرئيس في الجلسة الافتتاحية، بعد أن حُـــذفت منه صفة : "التوجيهية"، واعتبر البيان أن الاجتماع تم "تحت إشراف" الرئيس وليس "برئاسة الرئيس".

ومن حسن الحظ أن الرئيس لم يتوقف عند الأمر، وتجاهلته أنا تماما، ومن نفسي المنطلق الذي أشرت له، وكنت آمل أن يدرك المناضلون خطورة الانزلاقات في مرحلة النقاهة التي نجتازها.

وكان المتفق عليه هو أن يبدأ الرئيس الجلسة بعرض سريع عن النشاطات التي عرفتها البلاد، وخاصة فيما يتعلق بالاتصالات الدولية، بشكل يبدو فيه وكأن الرئيس "يفتح قلبه لمحافظي الحزب، ويطلعهم على معلومات لم تسبق لهم معرفتها، وهذا لإقامة رابطة حميمية بين الرئيس والمحافظين بجانب الرابطة العضوية"، وكان من بين الأفكار التي طرحها وأثارت ثائرة بعض رجال "الفاتيكان" السياسي قوله بأن "علينا، ونحن ننادي بالديموقراطية، أن نبدأ بممارستها داخل الحزب نفسه".

والواقع أن عدم وجود الديموقراطية كان من الأسباب التي مكنت البعض فيما بعد من القضاء النهائي على منسق الحزب وتشريد أنصاره، إلا الذين أعلنوا الولاء للخلف وتنكروا للسلف، ثم تزايدت الممارسات الخاطئة التي حولت الحزب إلى بيروقراطية حقيقية، وهكذا أصبح المبنى آيلا للانهيار.

وكانت هناك فكرة أخرى سيكون لها رنين شعبي، وإن كان بعض العاملين في الإطار الحزبي استقبلوها بنفور كبير، وهي قول الرئيس بأن "الاجتماعات السياسية يجب ألا تعقد على حساب الاقتصاد الوطني ومصلحة العمل، ويجب أن يعقد المناضلون اجتماعاتهم خارج ساعات الدوام الرسمي".

وكانت هناك فكرة ثالثة اعتبرها الهيكل الحزبي هجوما سافرا، وكانت تأكيد الرئيس على "ضرورة عدم التوسع في خلق الهياكل الحزبية، بما يمكن أن يؤدي إلى خلق بيروقراطية حزبية."

لكن بلاغيات منسق الحزب بدأت في إعطاء الفرصة لخصومه، ففي الندوة الثالثة للتسيير الاشتراكي للمؤسسات ألقى يحياوي خطابا افتتاحيا كان، للأمانة، خطابا ممتازا.

لكنني أنكر بالظروف التي كنّا نحياها والصراعات الظاهرة والخفية التي كانت تميز الحياة السياسية والمخططات التي كنت أتصور أنها تعد لنوع من الانحراف الساداتي، وهذا كله سيجد الثغرة التي يتسرب منها إلى كيان المؤسسة السياسية للبلاد، بإثارة الحساسيات بين رئيس الجمهورية وكل العناصر الوطنية التي تشكل السد الأول تجاه أي انحراف، وكان المنطق السليم يتطلب أن يحرص المسؤول الحزبي الثاني على عدم الظهور بمظهر المسؤول الحزبي الأول الذي يُزاحم رئيس الجمهورية، بل كان الذكاء يتطلب أن يكون نشاطه أقل بروزا من نشاط الرئيس، خصوصا وهو يعرف حجم خصومه من زملائه السابقين ومن الوجوه السياسية الصاعدة بجوار رئيس الجمهورية.

وكان المفروض أن يلقي منسق الحزب خطبه الهامة باسم الأمين العام للحزب، ويشير له عند الحديث عن التوجهات المستقبلية للبلاد، لكن أركان المؤسسة الحزبية الذين أحاطوا به كانوا يعملون، وبكفاءة لا جدال فيها، لكي يجعلوا منه نجم الموسم وكل موسم، بالتعبير السائد في الأوساط السينيمائية، وهكذا أعطوا الفرصة لخصومه لكي يوغروا عليه تدريجيا صدر الرئاسة، وأضيف إلى هذا حجم كبير من الدعايات المغرضة، اتهمت المؤسسة الحزبية بالمحسوبية والجهوية، وهو أمر فيه الكثير من التجني، وكان أحد مسؤولي الرئاسة من خصوم يحياوي يردد دائما، عند الإشارة للعاملين في زيغود يوسف، الآية الكريمة : "فليعبدوا رب هذا البيت الذي أطعمهم من جوع وآمنهم من خوف" [64].

وكان من خلفيات هذا التعبير، أن يحياوي ضم إلى الجهاز المركزي للحزب كل الذين صفاهم مصطفى لشرف في مذبحة التربية الوطنية، وكان ذلك موقف رجولة حقيقية، ودفاعا عن رجال العربية، الذين كان من بينهم رجال من أفضل الرجال.

وكان مأخذي الوحيد على بعضهم أنه، في إطار إظهار الامتنان لمنسق الحزب، يتناسون الوضعية المعقدة للبلاد، ويتصورون أن "تلميع" المُنسق على حساب رئيس الجمهورية هو رد للجميل.

وفي هذه المرحلة وفّى الرئيس بوعده في إنشاء مجلس للمحاسبة، تطبيقا للدستور وحتى لا يظلم إنسان بتهمة ظالمة، وفي الوقت نفسه حتى يتم الحفاظ على أموال الدولة.

---

64 – كان هو الذي أطلق فيما بعد عبارة : اللغة الفرنسية لغة وطنية ثانية"، ويدعي البعض أنه كان ممن ساهموا في خلق الفراغ حول الرئيس الشاذلي، وكان وراء الكثير من وضعيات التنافر داخل المؤسسة الرئاسية.

لكن الشيئ الذي لم نكن نعرفه هو أن هذا المجلس كان يُعَدّ لتصفية عدد من العناصر المرتبطة بالمرحلة السابقة، وسينطلق في نشاطه من ملفات لجنة الانضباط الحزبي، التي كان على رأسها واحد من جماعة22 التاريخية، وربما كان من بين من يدركون أهم الخلفيات الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي، الذي أعد النصوص القانونية لعمل المجلس ولكنه رفض رئاسته.

(8)

كانت الزيارة الأولى لقائد عربي للجزائر هي زيارة الزعيم اليمني المرحوم عبد الفتاح إسماعيل، الأمين العام للحزب الاشتراكي اليمني، والذي اختير لمرافقته الأخ محمد الصالح يحياوي، بصفته أعلى المسؤولين الحزبيين رتبة، وكان الغريب هو أن مصالح التشريفات الرئاسية كلفتني بمرافقة الوفد، وترسخ لديّ الظن (وليس كل الظن إثما) بأن هناك محاولة ما لربط اسمي مع اسم يحياوي في مناسبة واحدة، وكان من أهم مشاكلي خلال الزيارة الاستجابة لرغبة التشريفات اليمنية في توفير "كونياك" للضيف، الذي لا يستطيع أن يقضي سهرته إذا لم يكن هذا "الدواء" موجودا.

ولم أجد في تلمسان من يزودني بالمطلوب، وتولى أحد المسؤولين المحليين حل المشكل بإحضار المطلوب من وهران.

وكانت فرصة للحديث مع منسق الحزب الذي خرج لي بمشكل جديد، أثاره عندما وجدني أرسل للضيف ملف الصحافة الوطنية والدولية، مرفوقا بالنشرة اليومية التي تصدرها مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية، والتي تعد منها نسخة متميزة، تخصص للرئيس الضيف وتحمل اسمه على غلافها.

وكنا نرسل هذه النشرة إلى كل المسؤولين الجزائريين الذين يطلبونها، وتحمل كل نسخة رقما مميزا يوضع بشكل غير ملحوظ للنظرة المتسرعة، وذلك من منطلق متابعة مصير النشرات بعد قراءتها، ومنع إرسالها لمن يسربها لغير المؤهلين للاطلاع عليها.

وقال لي محمد الصالح بغضب أن النشرة لا تصله منذ مدة، وقلت له بأن هذا مستحيل، ومع ذلك فسأبحث الأمر، واتصلت هاتفيا من تلمسان بالشاب المكلف بأداء العمل وهو "بو رومة الحباسي"، فأكد لي أن النشرة ترسل لمنسق الحزب بانتظام، فطلبت منه إيقافها على الفور.

وبعد نحو أربعة أيام من عودتنا إلى العاصمة اتصل بنا أحد مساعدي يحياوي ليشكو من أن النشرة توقفت منذ أربعة أيام، وأربعة أيام على وجه التحديد، فأعطيت التعليمات بإعادة الإرسال، حيث تأكدت بأن النشرة كانت ترسل للحزب بشكل عادي ولم تتوقف إلا عندما أمرت بذلك، وعرفنا فيما بعد أن مصالح الإعلام في الحزب كانت تتلقى النشرة فتعيد ترتيب صفحاتها، وتغير الغلاف، وتحولها إلى نشرة تعدها خصيصا للمنسق، الذي تصور أن المادة الإعلامية أعدت بجهد من مساعديه، ولم يكن مستعدا لتصديق حقيقة ما حدث، ولم أعد مستعدا لإضاعة الوقت في إقناعه.

وأرجو أن يتضح من كل هذا كيف أن التفاهات التي كانت تغرقنا من كل جانب كانت تقابلها عمليات التخطيط والتنظيم المحكم للإطاحة بكل معالم مرحلة البناء والتشييد.

وسيكون لكل ذلك آثاره عندما تتم تصفية القادرين على مواجهة الردة.

وكانت الزيارة العربية الثانية للجزائر هي الزيارة التي قام بها العقيد القذافي، والتي كان من بين بنودها زيارة إلى تيزي وزو رافقه فيها الرئيس الشاذلي، تكريما للرئيس الضيف، وهو ما كان فرصة للقاء الرئيس مع السلطات المحلية للولاية، ووجد الرئيس أمامه بعض العناصر التي يمكن أن تكون من محاور اللقاء، ومن أهمها، والتي سلطتُ عليها الأضواء في البلاغ الذي أصدرته بعد اللقاء أن : "الخط العقائدي للجزائر أصبح واضحا بعد إقرار الميثاق الوطني بالمصادقة الشعبية، وهو ما يعني أنه لم يعد هناك مجال

للاجتهاد الفردي فيما يتعلق بالخط الإيديولوجي للبلاد"، وتصور البعض أن العبارة كانت موجهة أساسا للعقيد الضيف.

وكان من التعبيرات أيضا القول بأن: "الجيل الحالي هو صلة الوصل بين جيل نوفمبر والأجيال التي لم تعرف نوفمبر".

وكان من أهم الأفكار: "خلق مؤسسات وطنية تتنافس فيما بينها لصنع مادة واحدة، ضمانا لتحسين الجودة وزيادة الإنتاجية".

والواقع أن الرئيس تحمس لهذه الفكرة، وربما كانت من بين دوافعه للموافقة على إعادة هيكلة المؤسسات الوطنية، التي أصبحت، نتيجة للتنفيذ المشبوه أو الأحمق، تفتيتا لتلك المؤسسات وتحجيما لقياداتها وزيادة في التعقيدات البيروقراطية وإعدادا للتخلص من القطاع العام بشكل أو بآخر.

وكمثال بالغ البساطة، فإن تحويل الإذاعة والتلفزة الوطنية إلى أربع مؤسسات أدى إلى تضخم المؤسسة وفي حين ظلت الفرق الموسيقية والمسرحية تابعة للإذاعة وتقترضها التلفزة عند الضرورة مع دفع مقابلات مالية (CACHETS) فقد زادت عدد المناصب الإدارية بكل ما يتبعها من سكرتارية وحظائر سيارات تضاعف من مصاريف التسيير، وغالبا على حساب الإنتاج ونوعيته.

وكان تقسيم شركة الخطوط الجزائرية بعد ذلك (في 1983) مهزلة مُكلفة كان من حسن الحظ أن حدث تراجع عنها بعد عدة سنوات، وسيحدث شيئ مماثل لمؤسسة الإنتاج السينيمائي، بالإضافة إلى ما عرفته مؤسسات صناعة السيارات وغيرها.

وارتبطت زيارة العقيد القذافي إلى الجزائر كالعادة بالعديد من المشاكل، وفوجئت بأنه يتخذ مني موقفا بدا لي معاديا بدون سبب، اللهم إلا إذا كنت أذكره بالرئيس الراحل هواري بو مدين، الذي كان يتردد في أوساط كثيرة أنه كان مكروها من الزعيم الليبي، خصوصا يوم تسرب إلى القذافي نبأ هجوم حاد شنه

عليه بو مدين في اجتماع مغلق، وقال فيه : هذا رجل لا يفرق بين الدماء والحبر الأحمر، وجد السلطة في الشارع في عهد ملك ضعيف بحكم السن فالتقطها وادعى أنه قام بثورة، وقد حدث ذلك فعلا في لحظة غضب من الرئيس ولكنني عتمت عليه ومنعت نشره في التلفزة والإذاعة والصحافة المكتوبة، ولا أعرف من الذي نقل الأمر للعقيد [65]، وربما كان هذا من الأسباب التي دفعت البعض إلى القول بأن الوحيد الذي كان العقيد يحسب له ألف حساب هو بومدين.



وصول العقيد القذافي إلى حاسي مسعود

وأتصور أن الأمر كان يتعلق بواجب الاحترام من رئيس نحو آخر أقدم منه في المنصب، وإن كنت لا أنسى يوما ونحن ندخل قاعة الاجتماع في قاعدة حاسي مسعود أن الرئيس بو مدين حانت منه التفاتة للعقيد الذي كان يرتدي

65 - تفاصيل أخرى تجدها في : أيام مع الرئيس هواري بو مدين(موفم-الجزائر) ولقد سمعت بأذني رأسي العقيد يسأل الرئيس الشاذلي في قصر الشعب بلهجة باردة عمّا إذا كان قد احتفظ بالدكتور محي الدين في مجموعته الجديدة، ولست أعرف ما إذا كان العقيد عرف أنني سمعت ما قاله أم أنه قاله عمدا لأسمعه.

ملابسه العسكرية فرأي أنه يحمل مسدسه إلى جانبه وهنا قال له بضحكة حازمة: يا معمر (وكان الوحيد الذي كان يناديه دائما باسمه في حين كان العقيد يستعمل صفة الأخ) إننا لسنا داخلين لكي نحارب، إنزع سلاحك أولا، ونزع العقيد سلاحه بالفعل وهو يضحك.

وكان الرئيس الضيف قد طلب أن يلتقي بأكبر عدد ممكن من مناضلي حزب جبهة التحرير الوطني، وتذكر بعضنا ما حدث إثر وفاة عبد الناصر، واستنتج البعض أن العقيد تصور بأن وفاة بو مدين خلقت في الجزائر فراغا عقائديا، وربما .. قياديا، ويجب أن يملأ حرصا على الثورة.

وتم، بالتنسيق مع زيغود يوسف، إعداد اجتماع موسع للإطارات الحزبية الموجودة في العاصمة وما جاورها، وكانت هناك تعليمات واضحة ومحددة بعدم استحضار فرق التلفزة والتسجيل الصوتي، حيث أن الاجتماع داخلي مغلق، وعدم بث تفاصيل اللقاء على الجمهور الجزائري قد يُفسر كموقف عدائي، وسيطلب مساعدو الضيف بنسخ تبث عبر التلفزة الليبية التي يتابعها البعض في المناطق الحدودية، وسيشاهد المواطنون هنا وهناك كيف أن إطارات الجبهة تحولوا إلى تلاميذ أمام معلم يلقنهم ألف باء النضال، وكان الرئيس في الصورة بالنسبة للأمر كله.

وعرفت أن تفاصيل نقلت إلى العقيد بعد ذلك وبمبالغات لستعدائية، ولا أعرف من تطوع بذلك.

ولأن موعد الاجتماع كان الرابعة فقد طُلب من المناضلين التوجه إلى مقر الحزب في حدود الثالثة، وكنت أنا في مقر إقامة الضيف بقصر الشعب في الثالثة والنصف في انتظار المرافق الرسمي للعقيد القذافي وهو الأخ يحياوي، وبمجرد وصوله طلبنا من عناصر التشريفات الليبية، التي كان يرافقها السفير الفاضل عبد الفتاح النعاس، إخطار العقيد بأن الأخ يحياوي في انتظاره.

ومرّ الوقت ونحن وقوف والعقيد لم ينزل بعد من غرفته، وفي حدود الرابعة والربع طلبت من يحياوي أن يستريح في قاعة الاستقبالات الكبرى ورحت أتأكد من أن العقيد قد تم إخطاره، وهو ما أكده لي عبد الفتاح، الذي لحقني إلى قاعة الاستقبال لإبلاغ يحياوي شخصيا بذلك [66].

وتقترب الساعة من الخامسة ويبدأ منسق الحزب في التوتر ويقف لاستدعاء السفير الليبي مرة أخرى، وأطلب منه أن يترك الأمر لي، فهو بحكم منصبه ومسؤوليته لا يملك الحرية التي أملكها أنا في ارتكاب الأخطاء البروتوكولية [67].

وأقول للسفير الليبي بصوت عالٍ سمعه كل من يوجد في القاعة والممر المحاذي لها : "أمام الأخ القائد عشرة دقائق للنزول، وإلا اضطررت إلى إخطار المناضلين، الذين ينتظرون منذ ساعتين، أن سيادته تراجع عن اللقاء بهم"، ثم رجعت إلى القاعة رافضا الاستماع لأي رد.

وبعد نحو خمسة دقائق نزل العقيد بكل هدوء، وصافح منسق الحزب الذي خف لاستقباله، ونظر إليّ بطرف عينه، ثم سأل أحد مساعديه بصوت عالٍ : "ما هو برنامج ما بعد ظهر اليوم ؟"

وذهلتُ، ويجيبه مساعده الأول الأخ عبد المجيد القعود : "الأخوة الجزائريون طلبوا إعداد لقاء مع مناضلي الحزب"، ولم أتمالك نفسي فقلت موجها الكلام للعقيد وبصوت عالٍ أيضا : "أسف.. للتوضيح .. الاجتماع طلبه الجانب الليبي ووافقنا نحن عليه، والمناضلون ينتظرون منذ الساعة الثالثة".

---

66 – كان البعض يحاول الإيحاء بوجود علاقات خاصة بين العقيد وبين يحياوي، ربما انطلاقا من أن القذافي كان يسأل عنه في المطار وبشكل واضح إذا لم يجده في استقباله، ويطلب أن يلتقيه وحده، وكانت فرصة لخصوم يحياوي الذين نسوا أن رجلا في مستوى يحياوي وبتاريخه النضالي الطويل لا يُمكن أن يكون ولاؤه لغير الجزائر، في حين أنه كان من الطبيعي أن يكون له أصدقاء من بين الرؤساء الذين عرفهم في عهد بومدين.
ولا أضارب هنا على خلفيات العقيد القذافي.

67 – تذكرت أنذاك قضية مماثلة حدثت خلال زيارة الرئيس بو مدين إلى ليبيا، حيث تأخر العقيد نحو ثلاث ساعات عن موعد العشاء. أنظر : أيام مع الرئيس بومدين. (موفم – الجزائر)

ولم يبد على العقيد أنه سمع شيئا، ولم ينبس يحياوي ببنت شفة.

وتم اللقاء في جو تعتيم إعلامي قيل فيما بعد للعقيد أن مدبره هو كاتب هذه السطور، ولا أعرف ماذا قيل له أيضا، ولكن قائمتي السوداء عنده تضخمت، وسيكون هناك مكان للمزيد.

وكمثال، كان مقررا أن يقوم رئيس وزراء اليمن الشمالي بزيارة إلى الجزائر في بداية الأسبوع الثاني من شهر جوان قادما من ليبيا، وفي اليوم السابق للزيارة أصدرت، كالعادة، البلاغ الرئاسي بها.

وفي المساء علمت بأن المسؤول اليمني لن يصل في اليوم التالي لأن السلطات الليبية ألحت عليه في أن يزيد مدة زيارته لحضور الاحتفالات بعيد الجلاء، وتخيلنا حجم الضغوط التي مورست في آخر لحظة على رئيس الوزراء اليمني، وادعى البعض أنها كانت لمجرد مضايقة الجزائر، ولهذا تعمدت، في الخبر الذي أصدرته عن تأجيل الزيارة، الإشارة إلى السبب وهو إصرار الأشقاء على دعوة المسؤول اليمني لحضور احتفالات الجلاء عن ليبيا وبالتالي تأجيل سفره إلى الجزائر.

وتسربت الأخبار، وسُجلت نقطة أخرى ضدي.

وكانت الزيارة التالية للملك الأردني حسين بن طلال، وارتبطت ببعض المشاكل أيضا مع الجهاز الحزبي، فالذي حدث هو أنني، منذ بداية السبعينيات، وفي إطار الإعداد للزيارات الرئاسية والملكية، كنت أتولى عملية إعداد الشعارات التي تحملها اللافتات المعلقة عبر الشوارع الرئيسية وعلى واجهة المباني الرسمية التي يمر أمامها موكب الضيف، سواء في العاصمة أو داخل الوطن، وتسير هذه العملية جنبا إلى جنب مع طبع الصور الرسمية على شكل ملصقات كبيرة توزع مع اللافتات على كل البلديات المعنية بالزيارة.

وكان إعداد الشعارات عملية بالغة الصعوبة، إذ أنه، بالإضافة إلى الحرص على تفادي الشعارات البائخة، مثل الشعار المحايد "مرحبا بزوارنا الكرام"، لا بد من تحديد الهدف الذي نرجوه من الزيارة، ودراسة ملف العلاقات

الثنائية والمواقف الدولية للطرفين، ليمكن إرسال الرسائل التي يلتقطها مساعدو الضيف بمجرد الوصول إلى الجزائر، وتكون إعدادا للجو الذي يُصاغ فيه البيان المشترك عن الزيارة، وبالطبع فإن الشعارات يجب أن تبتعد عن إثارة القضايا التي ينفر منها الضيف لسبب أو لآخر.

وأذكر هنا أن لافتة أعددتها خلال زيارة القدافي إلى حاسي مسعود وكتب عليها " وحدة المغرب العربي طريق للوحدة العربية الكبرى" أثارت ثائرة الوفد الليبي، الذي كان يتصور، بناء على أدبيات الوحدويين العرب آنذاك، أن المغرب العربي شيء مثل الهلال الخصيب، سيئ الذكر.

وسبحان مغير الأحوال.

على النقيض من ذلك كان شعار "لا مزايدة ولا تفريط" من الشعارات التي لاقت هوى في نفس الوفد الأردني الذي رافق الملك الأردني حسين في زيارته الأولى للجزائر منذ تولى الرئيس الشاذلي.

وكانت قضية اللافتات مصدر توتر مع المحافظ الوطني للحزب لولاية الجزائر، حيث راح يلقي عليّ محاضرة، أخوية، في أن هذا هو دور الحزب القائد بصفته الموجه السياسي والعقائدي للبلاد.

ولم أختلف معه في الجوهر، وقلت له: رغم أنني جزء من قيادة الحزب، بوصفي عضوا في اللجنة المركزية، إلا أنني على استعداد لأترك لكم العملية كلها.

واكتشفت خلال الحوار أن العملية بالنسبة له تعني أن يرسلوا لنا قائمة بالشعارات التي يرونها، وعلينا نحن، في الرئاسة، أن نقوم بكتابتها على اللافتات القماشية ومراجعتها ثم القيام بوضعها حيث يجب أن توضع، أي أداء دور المنفذ الذي يأتي تحت دور البلدية، وقلت لمن حدثني بأن العملية متكاملة الجوانب، وعليهم أن يتحملوا كل مسؤولياتها، ونحن على استعداد لمعاونتهم عند الضرورة.

وأبلغت مديرية التشريفات الرئاسية بالأمر، ورحنا ننتظر القيام بالمطلوب.

وتقترب زيارة الملك حسين ولا يبدو أن هناك أي حركة في موضوع اللافتات، فاتصلت بمكتب المساعد الأول لمنسق الحزب، الأخ علي بن محمد، وأحطته علما بما حدث، لتأكيد قيام المحافظة بالمهمة، ثم اتصلت قبل الزيارة بيومين بمحافظ العاصمة ولكنه اعتذر عن عدم تمكنهم من القيام بالعملية، وقال لي حرفيا : "أنتم متعودون على القيام بهذه الأشياء ورجائي أن تواصلوا القيام بها".

وكان أمامي اختياران أولهما أن أعتمد على أن محاولة انتزاع العملية جاءت من محافظة الحزب، وبالتالي فلتتم الزيارة بدون لافتات، مما يعطيني الفرصة، عندما يُلاحظ القصور، لوضع النقاط على الحروف وفضح التقصير.

ولكن الشعور بأن عدم وجود لافتات الترحيب، بكل رسائلها ومضامينها، سيحسب على الجزائر لا على فرد بعينه أو مؤسسة بعينها جعلني أبتلع مرارتي وأطلق العملية من نقطة الصفر كالعادة.

وكان هذا من الأخطاء المتكررة التي ارتكبتها وندمت عليها، خصوصا وأنني لم أنكر كلمة واحدة للرئيس، حتى لا أزيد في تعكير الوضع مع المؤسسة الحزبية.

وتمر الزيارة على أحسن ما يكون، وأرافق الملك الضيف إلى عنابة، عضوا في الوفد الشرفي الذي رأسه الوزير الأول، وفي طائرة المستير الرئاسية روى لنا الملك كيف أنه أخطر الرئيس عبد الناصر بقرب قيام إسرائيل بضربة جوية حدد لها يوم 5 جوان 1967، وهو ما حدث بالفعل.

وكان أهم ما لاحظته خلال الزيارة الأدب الجم للعاهل الأردني في التعامل مع الجميع، بحيث كان يبدأ حديثه مع أي منا بقوله .. "يا سيدي ..".

وكانت الاحتفالات بالتاسع عشر من جوان حدثا هاما تحدثت عنه مطولا مع الرئيس، الذي كان مقتنعا بأن أول احتفال في عهده يكتسي أهمية كبيرة، وتوجه الرئيس إلى مقبرة العالية "للترحم على الشهداء ووضع إكليل من الزهور على ضريح الرئيس الراحل" (طبقا للصيغة التي بدأت في استعمالها) وبنفس المناسبة جرى الاحتفال الرسمي في حاسي رمل بانطلاق أشغال الأنبوب الغازي المتجه إلى إيطاليا عبر تونس.

....

وبعد أيام تلقى الرئيس للمرة الأولى أوراق اعتماد سفراء جدد.

وكانت هذه النشاطات كلها مناسبة للرئيس لكي يألف مسؤوليته الجديدة، كما كانت بالنسبة لنا فرصة للتعرف على أسلوبه وإمكاناته.

وبرغم ثقل العبء على مديرية الإعلام وكثرة النشاطات وتشابكها فإن الشباب تحملوا كل ذلك بحماس كبير، وتواصل إشرافي على النشاط الروتيني كإعداد النشرة اليومية صباحا ومساء، مع تطويرها لتكون مادتها متناول الرئيس على ضوء الوقت المتاح له.

وتواصل إعداد ملف الصحف والمجلات الرئاسية، وإن كنّا أضفنا إلى الملف عددا من المجلات التي تهم أسرة الرئيس، كما تواصلت كل العمليات المتعلقة باعتماد الصحفيين وتأطيرهم خلال النشاطات الرئاسية، وفي الوقت نفسه متابعة التغطية الإعلامية للنشاط الرئاسي عبر الصحافة المكتوبة والتلفزة والإذاعة، وكذلك عبر الوكالات والمجلات الأجنبية.

وبدأت في تطوير عملية لستقبال أخبار الأوروفيزيون Eurovision عبر أول صحن فضائي وضع في مؤسسة على الإطلاق، وكنت أستقبل المادة التليفيزيونية من مركز البث التليفيزيوني في مكتبي وفي الوقت نفسه كان هناك جهاز في مكتب الرئيس يستقبل ما أرسله له، سواء من برامج الأوروفيزيون أو من التسجيلات التي يهمه أمرها.

وفي الوقت الذي كنت أحرص فيه على زرع الحماس حولي كان هناك من ينصحني بعدم الاندفاع في تأييد الرجل..لأنه غير باق، وبالبحث عن تحالفات أكثر فاعلية ودواما..

وكنت أحتقر هذا النوع من النصائح، وربما كان أهم أثر لها هي أنها جعلتني أضاعف من حجم التزامي مع الرئيس، فقد أحسست أنه كاد يكون وحيدا في غابة مليئة بالضباع.

وأنا أعرف ما معنى أن يكون الإنسان وحيدا فقد عشت الوحدة والغربة طوال عمري.

وربما كان من إيجابيات هذه المرحلة، التي زار فيها الجزائر الرئيس السوري حافظ الأسد، أن منسق الحزب بدأ يشعر بحجم الحساسيات التي بدأت تتزايد ضده، وجعله هذا يلجأ، للمرة الأولى على ما أذكر، للاستشهاد بكلمات للرئيس، حيث أشار في زيارته لولاية بلعباس لما قاله الرئيس في المؤتمر الرابع، من أنه سيكون حيث يكون العمال والفلاحون.

الفصل الثالث
الخروج من الشرنقة

(1)

يمكن القول أن الأسابيع الأولى لرئاسة الشاذلي بن جديد شهدت نجاحا متميزا على مستوى النشاط الداخلي، ويبقى الآن أن ينطلق خارجيا ليشبع فضول كثيرين كانوا يريدون التعرف على خليفة الهواري بو مدين وعجم عيدانه ومعرفة عناصر قوته ونقاط ضعفه، وكان علينا، نحن الذين وضع فيهم الرئيس ثقته، أن ندعم كل عناصر القوة ونبرزها ونخفي كل نقاط الضعف أو نبررها.

وكان يجب أن يكون واضحا أن أهم أسلحة الحوار مع الأجنبي، أيّ أجنبي، هو التحكم في ملف العلاقات أولا، ثم الحرص على أن يتم الحديث عبر مترجم، وأهمية هذا هو أن تتاح للرئيس فرصة التفكير في الرد على سؤال الطرف الآخر أو إعداد سؤال مُضاد، بالإضافة إلى أن وجود مترجم، خصوصا إذا كان من المتمرسين بالنشاط الدبلوماسي، يُحقق إثراء الإجابة عند الضرورة أو تحمل مسؤولية عدم تفهم السؤال أو عدم وضوح الجواب[1].

وكان المؤتمر السادس عشر لمنظمة الوحدة الإفريقية على وشك الانعقاد في مونروفيا، وكنت متحمسا لمشاركة الرئيس لعدة أسباب، أولها أن لقاءه

---

1 – كان الأخ إدريس الجزائري ثروة حقيقية في مجال الترجمة، خصوصا بالنسبة للغة الانجليزية، وإليه يرجع فضل كبير في نجاح لقاءات الرئيس مع الرؤساء الأجانب الذين يستعملونها، وخصوصا في جولة الرئيس الإفريقية بعد ذلك، كما كان الأخ إسماعيل حمداني ذا فائدة كبيرة في هذا المجال، كما سيرد فيما بعد عند الحديث عن بعض اللقاءات مع الصحافيين الفرنسيين، ثم اللقاء مع فرانسوا متران في باريس.

الأول مع الرئيس تولبير السابق في الجزائر خلق بينهما مودة وانسجاما يجب استثمارها لتحقيق هدفين، أولهما ضمان تأييده في القضايا التي تهم الجزائر، وعلى رأسها قضية الصحراء الغربية، والثاني أن يكون طريقه للتعرف برؤساء إفريقيا الأنغلوفونية، وهو مكسب هام سيسهل للرئيس التعرف على دوره القيادي الجديد، خصوصا وأن القيادات الإفريقية آنذاك لم تكن تضم زعامات تاريخية يمكن أن يحس الرئيس الجديد أمامها بأي عقدة.

ويجب أن أنكر هنا بأن الرئيس الراحل هواري بو مدين درج على أن يصطحب معه في اللقاءات الدولية، وبصورة منظمة، عددا من أعضاء مجلس الثورة أو الحكومة، وكان هذا يعطي أعضاء القيادة الجزائرية فرصة متابعة الأحداث الدولية، بينما يعطي الرئيس نفسه فرصة خلق علاقات أكثر ودا مع من يشاركه رحلة تدوم أياما، وهو ما يمكنه أيضا من سبر أغوار أعضاء الوفد واحدا واحدا، ومعرفة ردود فعلهم تجاه ما يعيشونه معه، وكثيرا ما كانت قضايا الداخل تطفو على سطح الحوار في الزيارات الخارجية، خصوصا تلك التي يبدؤها الرئيس باستعراض الأوضاع في الجزائر.

وهكذا لم يكن الشاذلي بن جديد جديدا على المؤتمرات الإفريقية، التي أنكر أنه حضر منها لقاء كمبالا في منتصف السبعينيات، الذي شهد محاولة بو مدين الجمع بين أوغيستينو نيتو ووليم هولدن (لقطع الطريق على جوناس سافيمبي زعيم حركة يونيتا الانفصالية)، كما شهد لستعراضات عيدي أمين البهلوانية، وكان السفر فرصة تعرف فيها الشاذلي بن جديد عن كثب على الرئيس الليبي معمر القذافي، وقد اصطحبناه معنا عبر الأجواء المصرية التي كان متخوفا من عبورها نظرا لمشاكله مع الرئيس السادات، ورأى الشاذلي بنفسه كيف كان العقيد ودودا مع بومدين [2].

2- أنظر : أيام مع الرئيس بو مدين (موفم- الجزائر) وقصة تلك الرحلة في منتصف السبعينيات.



الرئيس بومدين والشاذلي في مؤتمر القمة بكمبالا



بومدين وأوغستينو نيتو رئيس أنغولا

وكان عدد من المبعوثين الجزائريين قد توجهوا إلى عدد من الدول الإفريقية حاملين رسائل من رئيس الجمهورية إلى قادتها، أعدها وزير الخارجية الجديد، محمد الصديق بن يحيى رحمه الله، الذي كان من الشباب الذين ارتبطوا بالدبلوماسية الجزائرية منذ بداياتها، وكان من أعضاء وفد محادثات إيفيان، وشغل بعد الاستقلال عدة مناصب من أهمها سفير الجزائر في موسكو، إلى أن استدعي في الستينيات لتولي منصب وزير الثقافة والإعلام، حيث عرف عهده بأكبر تظاهرة فنية إفريقية، كما عرف بالدعم الكبير الذي أعطاه لصحيفة "المجاهد"، الصحيفة الوحيدة الناطقة بالفرنسية آنذاك.

أما "الشعب" وهي الصحيفة الوحيدة الناطقة بالعربية آنذاك فلم تكن لها نفس الرعاية، وحتى عندما فكر بو مدين في الرفع من شأنها بتعيين أحد المناضلين على رأسها، أجهض بن يحيى العملية بذكاء كبير، فقد كان ينفر من حملة الثقافة العربية وخصوصا الذين تلقوا دراساتهم في المشرق، وهو يذكرنا في هذا بمصطفى لشرف، خامس الركاب في طائرة الزعماء الأربعة المختطفة في 1956.

....

والقصة تستحق أن تروى لأنها ستظهر تطور نظرة بن يحيى في سنواته الأخيرة للمعربين.

فقد حدث ذات يوم في نهاية الستينيات، وكنت أمارس عملي الطبي في عيادتي الخاصة، أن أبلغني الصديق المدني حواس، الذي كان يشغل منصب مدير الأخبار في الإذاعة والتلفزة الجزائرية، أن وزير الثقافة والإعلام محمد بن يحيى عرض عليه منصب مدير صحيفة الشعب، وأنه اعتذر له قائلا بأنه لا يملك أي خبرة في مجال الصحافة المكتوبة، حيث تخصص في العمل السمعي البصري.

وحدث، بعد أن استدعاني الرئيس بومدين في بداية السبعينيات للعمل معه كمستشار لشؤون الإعلام، أن أتيت يوما على ذكر اسم المدني (وكنت أنتهز

كل فرصة للتذكير بزملائنا خصوصا منهم من عرفوا الرئيس خلال الدراسة أو أثناء الكفاح الوطني، وكنت أرى في ذلك دعما لهم ولي).

وأحسست برد فعلي سلبي من جانب الرئيس، ثم علق قائلا بأن: "المعربين يفرون من المسؤولية"، وقال لي أنه : "عرض مسؤولية صحيفة الشعب على المدني فرفضها".

ولأنني كنت أعرف القصة فقد رويتها قائلا للرئيس أن بن يحيى لم يقل للمدني أن تلك هي رغبة الرئيس، وإلا لقبلها على الفور، وقلت للرئيس بأن المدني كان نزيها وصريحا مع الوزير.

وقد رويت القصة هنا لأعطي صورة عن تعامل الوزير مع المعربين، وكان أسلوب طرحه للأمر على المدني وسيلة لاستبعاده وتعيين أحد أنصاره، ممن يُحسبون على الفكر اليساري، ويسميهم المستغربون: عرب الخدمات Les Arabes de service.[3]

---

3 - مثقف ورجل فاضل على المستوى الشخصي ولكنه لم يتألق في المواقع التي شغلها، وأصبح في التسعينيات مديرا لديوان رئيس الدولة، حيث نظم للرئيس لقاء مع كبار الصحافيين في مصر خلال زيارة الرئيس لها، مازال إلى يومنا هذا موضع استهجان، وهو ما سمعه معي الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي في الكويت في ديسمبر 2004، ثم عيّن سفيرا للجزائر في بلد عربي، ولم يعرف عنه أي نشاط اجتماعي خلال عمله في الرئاسة أو محاولة للاتصال برفاقه أو فتح جسور بينهم وبين الرئاسة..

مع بن يحيى
في زيارة رسمية





المدني حواس والمرحومة مريم عصيور في منزلنا

وفي التعديل الوزاري الذي أجراه الرئيس بو مدين في بداية السبعينيات عُين محمد بن يحيى وزيرا للتعليم العالي، وكانت الخلفية، في تصوري، هي أن الجامعة أصبحت مشتلا لليسار، كما أن اتحاد العمال هي ساحة نشاطه، وبالتالي فإن اختيار بن يحيى كان مقصودا لكي لا تكون الجامعة مصدر قلاقل من أي نوع لنظام الحكم، هكذا بدون لف أو دوران، وسيتم القيام بإصلاح جامعي ربما كان له بعض الإيجابيات، لكنه لن يخلو من السلبيات الكثيرة، خصوصا وأن كثيرا من العاملين في وزارة التعليم العالي كانوا من أبناء المدرسة التغريبية ولم يكونوا، كالعاملين في وزارة التربية الوطنية، من أبناء المدرسة العربية الإسلامية الذين كانت أغلبيتهم من مدارس جمعية العلماء المسلمين أو من بعثاتها [4].

وكان من الأخطاء فكرة إقامة جامعة في كل ولاية جزائرية، بدلا من إقامة معاهد علمية متخصصة أو كليات، والفكرة الأولى تجعل ولاية ما تضم كل التخصصات، وهو ما لم يكن صائبا من الناحية العملية وخطيرا من الناحية السياسية، والثانية توزع التخصصات على الولايات المتجاورة، بحيث يختلط أبناء الولايات مع بعضهم البعض بشكل يقترب من الشكل الذي عرفته الخدمة الوطنية.

وبدون الدخول في تفاصيل كثيرة فإن الجامعة الجزائرية عرفت فشلا في التكامل بين المعربين في كليات العلوم الإنسانية والمفرنسين في الكليات العلمية، وسيحدث شرخ أكثر خطورة بين الاتجاهات اليسارية والتيارات الإسلامية، خصوصا عندما ازداد التعاطف القيادي مع اليسار الذي تم تجنيده في إطار نشاطات الثورة الزراعية.

---

4 - كان مما رواه لي الأخ محمد العربي ولد خليفة أن محمد الصديق بن يحيى قال له حرفيا "مهمتي هي أن أحقق الاستقرار في الجامعة"، وأتصور أن الاستقرار في الجامعة معناه البسيط هو تدجين الجامعة. لكن تقليم الأظافر السياسية للجامعة تم في اتجاه واحد هو المنتسب للانتماء العربي، ويؤكد ذلك الدور النشط خاصة للكليات العلمية في أحداث أبريل 1980 التي كشفت الغطاء عن النزعات البربرية الفرانكوفيلية.

وأصبحت الجامعة، نتيجة لبرنامج الإصلاح الجامعي الذي دجّن النشاط السياسي ليصبح مجرد رحلات مختلطة شبه ترفيهية ترفع شعار الثورة الزراعية، مدرسة ثانوية كبيرة لا تتوفر على مزايا المدرسة الثانوية، خصوصا من ناحية الانضباط، ولم تتمكن على الإطلاق من القيام بدورها كطليعة رائدة للأمة، وربما ضاعف الأسلوب المعماري لبعض الجامعات في تخريب الانتماء الحضاري للوطن بشكل غير مباشر، بل وفي إصابة الطلبة بأنواع متباينة من الإحباط، وهو ما نلمسه بوضوح في جامعة باب الزوار للتكنولوجيا، التي بنيت تحت إشراف المهندس العالمي "ني ماير"، وتفتقد كل معالم الجامعة، ناهيك عن أن تكون جامعة عربية جزائرية.

وأنا لا أتهم كل المسؤولين المباشرين، الذين لا يمكن الطعن في وطنيتهم، ولكنني أتهم بعض المستشارين الذين تسربوا إلى الحلقات الضيقة المحيطة بالمسؤولين على حصان اللغة الفرنسية وبدعوى الاختصاص، والذين تخصصوا في الإساءة لرجال التعليم العالي من المتعاونين العرب.

وكان محمد بن يحيى يحظى باحترام الشخصيات المدنية والعسكرية، ويعتبر من خبراء الدبلوماسية المرموقين، لكن علاقاتي به اتسمت بتحفظ يقف عند حدود الاحترام المتبادل، وكان هدوء الرجل ورزانته حماية للعلاقات من أي صدام، خصوصا وأن مجالاتنا كانت متوازية، وكان الملحوظ في بداية عهد الشاذلي بن جديد أن وزير الخارجية الجديد ينسج علاقات حميمية مع مدير التشريفات، كما ظل على علاقاته المتميزة مع مدير الأمن الوطني، واحتفظ بخطوطه مع بعض الذين عملوا معه في التعليم العالي، ومن بينهم أمينه العام وبعض العمداء، ومنهم من أصبح وزيرا للتعليم العالي [5].

---

5 – يدعي البعض بأنه، رغم ذكائه وثقافته، أخذ أكثر مما يستحق لمجرد أنه ينتمي لمدرسة التكوين الفرنسي، وتذكرت هذا إثر حوار جرى بيننا حول قضية الصحراء الغربية فاجأني فيه بالقول بأن خطأ الجزائر في التعامل مع القضية هو أنها لم تطالب بأرض على غرار المغرب وحصرت نفسها في إطار المناداة بالشرعية الدولية، وهو ما صدمني لأنني لم أسمعه يقول ذلك في حياة الرئيس بو مدين، وكانت الصدمة الثانية هي موقفه في مؤتمر كانكون حيث أعد للرئيس الشاذلي خطابا محوره العمل على إنهاء الجوع في العالم بحلول سنة 2000، وهو ما

غير أن ارتباط الشؤون الخارجية برئاسة الجمهورية كان يعني أننا سنلتقي يوما في عمل مشترك، وكان الاحتمال الأول، الذي استبعدناه نظرا للظروف التي سبقت الإشارة لها، هو خطاب الرئيس للأمة، حيث من المفروض أن تزودنا كل وزارة بالمادة الأساسية للنشاط الوزاري الذي سيتضمنه الخطاب الرئاسي، الذي تم تأجيله إلى دورة الخريف.

ولم يكن في الزيارات الدولية التي تمت مجال لأكثر من اللقاءات البروتوكولية، لكن مؤتمر القمة الإفريقي القادم سيكون محكا للعلاقات، وأرسل ملف القمة من وزير الخارجية إلى رئيس الجمهورية عن طريق مدير التشريفات، كما أرسلت مواد أخرى عن طريق الأمين العام لرئاسة الجمهورية.

ولم أتلق، وأنا مسؤول الإعلام برئاسة الجمهورية والمكلف بخطب الرئيس وبياناته وتصريحاته وبتزويد الصحفيين بكل التفاصيل المرتبطة بالتحرك الرئاسي، لم أتلق من وزارة الخارجية ورقة واحدة تسهل لي مهمتي، وكان واضحا أن هناك اتجاها لتهميشي في كل ما يتعلق بالعمل الخارجي.

ولم يكن أمامي إلا أن أعتمد على إمكانياتي الذاتية وعلى دعم الرئيس وتفهمه، بشرط ألاّ أرتكب خطأً يعطي الآخرين فرصة الشماتة أو التشفي، ولم يكن هذا بالأمر السهل في جو العلاقات الدولية المعقد، سواء في المشرق العربي بعد توقيع اتفاقيات كامب دافيد وقيام الثورة الإيرانية وتصاعد نذر التوتر مع العراق ، أو في المغرب العربي بوصول قضية الصحراء الغربية إلى طريق مسدود، أو في الشرق الأقصى حيث يتجه الاتحاد السوفيتي إلى "فيتنامه" في أفغانستان (طبقا لتعبير استعمله الرئيس الشاذلي بن جديد أمامي في حديثه مع بريجنيف).

رأيت فيه عملا ديماغوجيا، لعله انطلق من سحر خاص أريد لهذه السنة، والواقع هو أن أبناء المدرسة الفرنسية كانوا يهيلون الورود على زملائهم بعكس أبناء المدرسة العربية، وكان هذا واحدا من أهم أسباب تعثر التعريب.

في هذا الجو كله كنت أعتمد على نفسي بشكل يكاد يكون مطلقا، وقد يبدو الأمر نوعا من البارانويا، ولكن الواقع هو أنني كنت أعيش، مرة أخرى، وضعية غربية بالغة الحدة، فقد كنت معزولا تماما، وكان علي أن أخترق الحصار، وهكذا، وعلى ضوء الحوار مع الرئيس، أعددت تصريحا باسمه لوكالة الأنباء الجزائرية، أرسلت به قبل المغادرة وبدون استشارة وزارة الخارجية، فلم أكن أريد أن أتخذ خطوة قد تفسر للرئيس على غير ما أريد، أو تفرض عليّ سابقة قد أعاني منها في المستقبل.

وقال الرئيس في تصريحه بأن : "مشاركته شخصيا في المؤتمر هي تأكيد لعزم الجزائر مواصلة سياستها في سبيل دعم منظمة الوحدة الإفريقية" وبأنها "ستظل وفية لمبادئها ولتضحيات شهدائها، وستبذل كل الجهود لإنجاح مؤتمر القمة، مستلهمة في ذلك روح ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية وقراراتها، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ودعم استقلالها والسيطرة على ثرواتها الوطنية وتحقيق التقدم والازدهار لأبنائها" وبأن "الجزائر ليست طرفا في أي نزاع كان، وبأنها على استعداد للمساهمة في كل ما من شأنه أن يحقق السلام العادل"، واختتم التصريح بأن : "علينا أن نتفرغ للتصدي للمؤامرات التي تحاك في الشمال والجنوب لاستخلاف استعمار جديد بالاستعمار القديم".

وواضح أن هناك جهدا كبيرا في صياغة التصريح ولسببين رئيسين أولهما موضوعي، وهو أن هذا هو أول تصريح دولي للرئيس، ولا بد أن يكون قصيرا وعميقا وبسيطا ومنسجما مع أسلوبه وشخصيته، لتأكيد استمرارية سياستنا الخارجية كما صاغتها المواثيق الجزائرية.

أما السبب الثاني فهو توقع صواعق وزارة الخارجية التي لم تستشر في التصريح لا من قريب ولا من بعيد، والتي ستشعر، بعد صدوره عن مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية، أنها خسرت موقعا، وبالتالي ستحاول العثور على ثغرة تثبت خطأ التحليل أو العرض، وتبرر القول بأن المديرية تجاوزت حدود مهمتها وبشكل قد يسيء إلى المصالح العليا.

وكان من توفيق الله أن ردود الفعل العامة على التصريح، في الداخل والخارج، كانت إيجابية، وكان من ذكاء بن يحيى رحمه الله أنه فهم ذلك ولم يحاول جعله قضية خلافية.

وذهبنا إلى مونروفيا وكنا نعرف أن الملك الحسن الثاني لن يحضر المؤتمر.

كان على منصة مؤتمر القمة الإفريقي السادس عشر في مونروفيا الديلوماسي الجزائري نور الدين جودي، الذي كان آنذاك أمينا عاما مساعدا لمنظمة الوحدة الإفريقية، وكنت لقيته قبيل الافتتاح وتحدثنا حول حضور الرئيس الشاذلي وضرورة تسليط الأضواء على هذا الحضور.

وكانت الفكرة التي اقترحتها عليه هي أن تدعو منصة الرئاسة المؤتمرين إلى الوقوف دقيقة صمت وترحم على روح الرئيس الجزائري الراحل، وتقديم التعزية لخلفه وللشعب الجزائري، وهو ما حدث بالفعل، وكانت لحظات مشحونة بالتأثر، استقطب فيها الوفد الجزائري الأنظار، وبدت كتقديم للرئيس الجديد، وقال لي أحد الذين عرفوا بدوري في العملية: "أنت تريد أن تجني على نفسك فلماذا تجني على جودي ؟"

وحسب ما كان مقررا لم يُلق الرئيس خطابا خلال المؤتمر، وكنت قلت له، وهو يسألني عن رأيي، بأن أسلوبه يجب أن يعتمد المباحثات الثنائية، ليكون ذلك جزءا من صورته الجماهيرية، وحتى لا يُدفع دفعا للقيام بأمر ما بدون استعداد كامل له.

ومع اختتام المؤتمر وتأكيدا لنشاطه فيه أدلى وزير الخارجية بتصريح ركز فيه على مفهوم الجزائر للقضية الصحراوية، ومؤكدا تمسك الجزائر بحق تقرير المصير للشعب الصحراوي[6].

---

6 – أنظر الهامش السابق.

وسلّمَ تصريح بن يحيى مباشرة لمندوب وكالة الأنباء الجزائرية، وكأنه أراد أن يقول : "واحدة بواحدة، وتفهمت الأمر فلم أرد أن أجعل منه قضية، وإذا كنت توقفت عنده اليوم فلأنه يرسم صورة عن العلاقات في تلك المرحلة، ولأنه يؤكد أن الصراع السياسي لا يلغي روح المسؤولية، ولأن هناك تفاصيل أخرى عن العلاقة مع وزير الخارجية الراحل، أتركها لحينها.

واستعملنا، في طريق العودة إلى الجزائر وللمرة الأولى، طائرة الرئاسة الجديدة من طراز غرومان G-2، والتي كان رقمها حرفيْ (HB) إشارة إلى الحروف الأولى من اسم بو مدين[7].

وتوقفنا في كوتونو عاصمة البينين للتزود بالوقود، ولكننا اضطررنا إلى العودة لها ثانية بعد المغادرة نتيجة خلل في جهاز ضبط الأجنحة، وعشنا لحظات قلقة، وتم استدعاء البوينغ التي كانت قد سبقتنا وعدنا بها إلى الجزائر[8].

وكسابقة، أعطيت خبر الخلل الفني للصحفيين المرافقين، وقلت للرئيس أنني أريد أن يحس الناس بأن له أسلوبه الجديد في التعامل مع الإعلام، ولم يعترض فتركت للصحفيين حرية النشر.

....

وجاءت الرحلة الرئاسية الثانية وكانت إلى ليبيا للمشاركة في الاحتفالات بأعياد الفاتح من سبتمبر، وكان الوفد الرئاسي صغيرا، فلم يشارك محمد الصالح يحياوي لأسباب لم أعرفها، كما لم يشارك بن يحيى الذي كان في هافانا، للإعداد لمؤتمر قمة عدم الانحياز السادسة، ولم يدع أحمد طالب للمشاركة، ربما لتفادي الحساسيات مع وزير الخارجية.

---

7 – كانت هي الطائرة المشؤومة التي لقي فيها محمد بن يحيى مصرعه في مايو 1982 بين إيران وتركيا ومعه 13 من خيرة الدبلوماسيين الجزائريين، وكان هذا هو الحادث الثاني الذي يتعرض له بن يحيى بعد أن سقطت به طائرة المستير على أرض مالي قبل ذلك بعام، وكانت خسارة كبرى للجزائر وللدبلوماسية الجزائرية.

8 – عندما كان التنقل يتم باستعمال طائرة صغيرة، كانت هناك دائما طائرة من طائرات الخطوط الجوية الجزائرية ترافق الوفد الرئاسي ويستعملها الصحافيون ورجال التشريفات والأمن وموظفو الخارجية.

ويصدر تصريح قبل المغادرة يقول فيه الرئيس: "إن مشاركته شخصيا هي تعبير عن التقدير الذي يكنه الشعب الجزائري للشعب الليبي"، وبأن : "انتفاضة أول سبتمبر في ليبيا قامت في وقت كانت الأمة العربية تعيش حالة اليأس بعد هزيمة جوان، وكانت ثورة الفاتح بارقة أمل جديد أكدت بأن الأمة العربية تتوفر على طاقات ثورية هائلة وبأن الشعوب لا تهزم أبدا".

ولا تحتفظ الذاكرة لتلك الرحلة إلا بصورة الفوضى الكبيرة، والاستعراض الضخم الذي عشناه ونناب الجوع تنهش أمعاءنا، ثم حفل توزيع الأوسمة على القادة، ومن بينهم الشيخ زايد والملك حسين وعبد الفتاح إسماعيل، وكان يُنادى على المكرمين وكأنهم طلبة مدارس يتلقون مكافآت تشجيعية.

وشهد شهر سبتمبر الرحلة الثالثة للرئيس خارج الوطن، وكانت إلى كوبا للمشاركة في المؤتمر السادس لحركة عدم الانحياز، ولم أتلق دائما أي وثيقة من وزارة الخارجية، وتصورت أن ذلك كان بتعليمات من الوزير، ولكنني كنت سعيدا لأن القرار اتخذ بعدم إلقاء الرئيس لخطاب رسمي.

وللمرة الثالثة قمت بإعداد تصريح رئاسي، ركز على تحية كوبا، وعلى التأكيد بأن لقاء كاسترو سيكون فرصة لتدعيم الروابط بين الشعبين وتقوية التضامن بين الثورتين، وكان التصريح، الذي بثته الوكالة الجزائرية عند المغادرة، فرصة لكي تؤكد الجزائر وفاءها لالتزاماتها مستلهمة كفاح شعبنا.

وكان السفر إلى جانب الرئيس لمسافة طويلة فرصة للتأكيد بأن المؤتمر فرصة ليتعرف قادة العالم الثالث عليه وعلى أسلوبه في العمل وعلى أفكاره بالنسبة لأهم القضايا العالمية، وكان هناك يقين بضرورة الاهتمام بالمحادثات الثنائية مع استعمال المترجم دائما (وبدا الرئيس مهتما بالاستماع أكثر من الحديث، وهو ما ضاعف من إحساسي بمسؤولية كل كلمة أقولها بقدر ما زاد من حبي للرجل وتقديري له وقوى من عزيمتي على الالتزام معه، فرجل يُحسن الاستماع هو رجل حكيم، وإذا كان الحكيم في موقع القيادة فهو أمر يثير الاعتزاز والاحترام.)



الرئيس الشاذلي في كوبا



وفود أجنبية تحاول
التعرف على
الرئيس



أخبار المؤتمر



توديع الأمين العام للبوليزاريو بعد استقباله من قبل الرئيس (يلاحظ إبراهيم حكيم)

وأتصور أن نتائج المؤتمر كانت جيدة.

والواقع هو أن وجود بن يحيى كان مفيدا جدا بالنسبة للرئيس، حيث أتصور أنه وافاه بالكثير من نتائج مباحثاته مع الوفود وأعطاه الكثير من خبرته الديبلوماسية، وإن كنت صُدمت من تصرف نُسب إليه، وأرويه كما سمعته بدون تحريف.

فعندما عدت إلى العاصمة مررت بمكتب الدكتور أحمد طالب للدردشة معه، وكنت أحرص على ذلك في كل فرصة متاحة، لأن شعوري هو أنه كان يحس بمرارة كبيرة، وكنت أرى فيه شخصية ضرورية للنظام بالإضافة إلى أنه كان دمث الخلق طيب الحديث، وكنت أجده دائما منكبا على سجل كبير يكتب فيه ما أتصور أنه مذكرات.

وقال لي طالب أن عضو الوفد الأخ محمد السعيد معزوزي عضو المكتب السياسي كان يحس بالضيق لأن الرئيس لم يتناول الكلمة (وهو أمر صحيح لأن معزوزي صارحني بذلك، وكنت قلت له أن الرئيس اختار المحادثات الثنائية، بالإضافة إلى أنه لم يكن هناك نص مُعَدّ، ولا مجال للارتجال في لقاءات كبرى كهذه، فحتى كاسترو كان يلقي خطابه وعيناه تجولان في نص مكتوب أمامه)

غير أن طالب أضاف بأن معزوزي سأل وزير الخارجية عن سبب عدم إلقاء الرئيس لخطاب رسمي، فأجابه بأن الرجل : "عاجز عن الحديث باللغتين"، وأحسست بنفور كبير من بن يحيى، الذي كان يجب أن يقول شيئا آخر لزميله في المكتب السياسي، فالتعليقات من هذا النوع تتسرب إلى الشارع عبر الأهل والسكرتارية، وهي أمر يسيء للجميع.

والمهم هو أنني تمسكتُ دائما بالنصوص المكتوبة للخطب الرسمية، رغم عملية التثبيط التي كان يُمارسها معي بعض كبار المسؤولين، ومن بينهم وزير التخطيط الأخ عبد الحميد إبراهيمي، الذي كان يقول لي بصراحة يُشكر عليها أن الرئيس يرتاح أكثر للخطب المرتجلة.

وكنت أقول له ليس هناك من يستريح للخطب المكتوبة، ولكن التزامات الرئيس لا تسمح له بالارتجال، وأي ارتجال يجب أن يكون معدا بشكل مدروس.

إختتام الدورة الثالثة

- كانت دورة الحكمة والمسؤولية، والصراحة الكاملة.
- سطوحة المناقشات هي عموما ظاهرة صحية . والمهم هو أن تخرج اللجنة المركزية من كل دورة أكثر قوة وأكثر انسجاما
- قوة القيادة هي ضرورة حتمية ،وأي سعي لإضعاف القيادة السياسية أو المساس بهيبتها يجب أن نحاربها بكل الوسائل.
- شكرا على الثقة ، لكن بصراحة ، الثقة هي مسؤولية كبرى ولا بد من تعاون الجميع معي في كل المجالات.

Responsabilité

La Force de direction

Remerciement de la confiance

ذهب اشتى ريك فقاقو .

خطاب الرئيس في الدورة الثالثة

غير أن نقاط الماء المتساقطة يمكن أن تثقب الرخام، وتصورت أن ما لم أسمعه كان أكثر، حيث بدأت أشعر شيئا فشيئا بضيق الرئيس في كل مرة يكون عليّ فيها أن أقدم له خطابا مكتوبا، وتبدأ المساومات معه للاختصار والحذف، وهكذا رحت أزاوجُ في إعدادي للخطب والتدخلات بين الإلقاء المقروء والتدخل المرتجل على أساس نصوص تعد سلفا، وتصاغ بأسلوب سهل الاستيعاب، يضطرني أحيانا لوضع فقرات بالفرنسية كعناوين لأفكار مكتوبة بالعربية، وهو ما لاحظت أن الرئيس يستعمله لترتيب أفكاره، وكان أمرا ممتازا يؤكد الجهد الذي يبذله.

والواقع أن أخوف ما كنت أخافه هو أن يستسهل الرئيس التعبير بالفرنسية.

(2)

طبقا للدستور يلقي رئيس الجمهورية خطابا سنويا أمام المجلس الوطني عن وضع الأمة، وهو تقليد وطني كان الرئيس بومدين يحرص على القيام به سنويا، وكان يلقيه، قبل إقامة المجلس الوطني الشعبي أمام تجمع كبير لإطارات الأمة وقيادات مؤسساتها السياسية ومنظماتها الجماهيرية[9].

وكان الخطاب قد استبعد في دورة الربيع للأسباب التي سبق أن ذكرتها، وهكذا تم اختيار دورة الخريف، وحُدد لذلك شهر أكتوبر.

---

9 - شيئا فشيئا أصبح الرئيس الشاذلي لا يخفي تبرمه من إلقاء الخطب المكتوبة، وكنت أقول له بأنه ليس حالة فريدة من نوعها، فليس هناك من يحب أن يكون سجين السطور، لكن هناك ضرورات تفرض الخطب المكتوبة، ومن بينها خطاب الرئيس السنوي للأمة، والخطب الداخلية هي تمرين على الخطب في المحافل الدولية والزيارات الرسمية، غير أن المشكل كان وجود آخرين كانوا يواصلون مدح خطبه المرتجلة، ولا أحب أن أرى في ذلك محاولة للتخلص من الشخص الذي احتكر كتابتها وأدت فيما بعد إلى القيام بعملية نفاق سياسي على حساب التقاليد الدولية، عندما عدل الدستور في نهاية الثمانينات ليقول في أحد مواده أن الرئيس "يُمكنه" أن يلقي خطابا عن وضعية الأمة، ومعنى هذا أن الرئيس يمكنه ألا يلقي الخطاب، وكان هذا استمرارا لعملية دفع الرئيس بعيدا عن شؤون الدولة والذي بدأ في نهاية ولايته الأولى وتفاقم في الثانية، حيث زين له البعض التوقف عن الزيارات التفقدية للولايات وأوقف العمل بالهاتف ثنائي الأرقام، أما فيما يتعلق بالخطاب الموجه للأمة فقد أُلغي في دستور 1989، وأسجل هنا للرئيس أنه كان يجيد قراءة الخطب المرتجلة التي كانت تنشر بعد إعادة صياغتها، وباللغتين العربية والفرنسية، وهكذا تزايدت مقدرته على التحكم في اللغة وحسن التعبير عن الأفكار، وهو جهد كبير يستحق التقدير.

وخلال الأيام المشحونة بالنشاط في شهر سبتمبر 1979 كان أول خطاب يوجهه الرئيس للأمة في طليعة القضايا الاهتمامات، وكنت أعرف بأن العملية لن تكون سهلة، سواء في جوهرها أو في تداعياتها وظروفها، وبأنها ستكون من أخطر التحديات في حياتي، حيث لم أتلق توجيها محددا من جانب الرئيس نفسه، باستثناء الأفكار العامة التي كنت ألتقطها خلال الحوار معه، والتي كانت لها فائدتها في تلمس أولوياته.

وكانت العزلة المتزايدة تعقد الأمر، فالمشكلة الحقيقية هي أن خطب الموجهة للأمة لا تبنى على البلاغيات بل يجب، وبدون تجاهل الجانب البلاغي المُناسب، أن تكون طرحا للمعطيات الواقعية على الساحة الوطنية والدولية واستلهامها لتقديم استراتيجية العمل واتجاهات الدولة في كل الميادين.

والذي حدث هو أن التقارير الحكومية التي ترسل إلى الأمانة العامة بعيدة عن متناول اليد، ولم تكن هناك تقارير مباشرة من الوزراء، أو اطلاع على تقارير الأمن، أما ملفات تقييم الموقف التي تقوم بها وزارة الخارجية فترفع إلى الرئيس شفويا، وترسل نصوصها إلى الأمانة العامة وأحيانا، وبحكم التحالفات الناشئة، إلى مواقع أخرى غير مديرية الإعلام [10].

وكان من الخطأ أن يُقحم الرئيس في إيجاد الحلول لهذه القضية، وهو ما كان ينتظره البعض لكي يتقدموا باقتراح تشكيل لجنة لصياغة الخطاب، بحجة أهميته الوطنية والدولية، وكان هذا أمرا مُقلقا، إذ ستكون تلك فرصة لكي يُدخل

---

10 – استعرضت في كتابي : "نظرة في مرآة عاكسة" (موفم) العراقيل التي كانت تواجهها مديرية الإعلام والتي كان من أبسطها فكرة تعيين مدير بجانب المستشار بحجة التخفيف من أعبائه بإبعاد المهام الروتينية عن مجال عمله، وكان الهدف هو عزل المستشار عن واقع الممارسة المباشرة ليكون سجين وضعية بروتوكولية مشلولة ويصبح أسير ما يُقدم له من المدير التابع، ولاء وتسلسلا وظيفيا، للأمانة العامة، والذي سوف يمكنه من أن يخنق المستشار ، ورفضت ذلك واخترعت منصبا أسميته المستشار مدير الإعلام بالرئاسة وهو منصب غير موجود في أي وثيقة رسمية ولكنني فرضته وطلبت صنع خاتم يحمل تلك الصفة، ولم يجرؤ أحد على مساءلتي.

البعض أفكارا معينة يُحاول فرضها بالمناورة أو المساومة، أو يحاول التصدي لأفكار أخرى تتناقض مع ما يراه، وسيكون ذلك سابقة فيما يتعلق بصياغة خطب الرئيس.

وكان من الضروري مواجهة التحدي بفعالية هادئة تتضاءل فيها احتمالات الصراع العقيمة حول من يُقرر ماذا مما قد يتطلب تحكيم الرئيس، وهو أمر بالغ السوء، وكان لا بد بالتالي من غلق الباب أمام كل تفكير في عمل لا تمكن السيطرة المطلقة على معطياته الرئيسية، وهو ما تطلب بذل جهود شخصية مكثفة لضمان الإعداد الجيد للخطاب، ليكون فعلا تجسيدا للتغيير في إطار الاستمرارية.

وكانت المعالم الأساسية للخطاب :

- – أن يكون استعراضا وفيا للنشاط العام، وطنيا ودوليا، يبرز فيه الدور الذي قام به الرئيس على الساحة الداخلية والخارجية، بدون ديماغوجية أو سفسطة أو اختلاقات، وكان يجب أن يكون فرصة للتذكير بمواقف الجزائر تجاه القضايا الجهوية والدولية، وخصوصا القضايا التي عُرفت الجزائر بوقوفها إلى جانبها، بما يؤكد الوفاء لنهج الرئيس الراحل هواري بومدين، وكان لا بد أن يجمع بين دسامة المحتوى وبساطة الطرح وبين الاختصار وعدم الابتسار، ولا بد قبل هذا وذاك أن يكون الخطاب معدا في وقت مبكر، ليتمكن الرئيس من استيعابه والتمرن على إلقائه.

وكان يجب أن يُقال للرئيس بصراحة بأن إلقاء الخطب السياسية فيه جانب مسرحي، وعندما قال لي بضيق ولكن بتفهم : "أنه لا يُحب التمثيل" رويت له ثانية كيف كان يتصرف الجنرال شارل دوغول وقبله أدولف هتلر مع الخطب المكتوبة، وكيف أن الأول استلهم أسلوب الثاني الذي كان يحفظ الخطب ويتمرن على إلقائها أمام المرآة، ولم يكن "الكاسيت" قد اخترع آنذاك ليسهل العملية.

وأمكن، عبر الاتصال بعدد من الوزراء الأصدقاء، التقاط بعض المعلومات الأساسية، بالإضافة إلى الفائدة التي كانت تضمنها النشرة اليومية للمديرية بما تلخصه من معلومات وطنية ودولية، وهكذا وُضع الهيكل الرئيسي للخطاب خلال شهر سبتمبر، وتم إعداد خطوط عريضة للجانب الدولي، وأضاف لي الدكتور طالب أفكارا وتعبيرات تسلمتها منه في عشر صفحات بالفرنسية أعطت الخطاب طعما متميزا، وتوليت بنفسي ترجمة مساهمته، التي اقتصرت على الجانب الدولي، وكان من أجمل ما أضافه الدكتور طالب فقرات بدأت بالعبارة التالية : كان هذا العام انتصار الحقائق على الأكاذيب".

وتمت مراجعة الخطاب مرة ومرتين وخمس مرات للاطمئنان على أن ما يجب أن يقال قد قيل كما يجب أن يقال، بالتوازي مع متابعة النشاط اليومي للمديرية، والمُشاركة في الاستعدادات لاحتفالات الذكرى الخامسة والعشرين لقيام الثورة، حيث كنت عضوا في لجنة التحضيرات.

وكان لا بد، في الوقت نفسه، من التفكير في كلمات يخص بها الرئيس الصحافة الوطنية، قبل أن يُفتح الباب أمام استجوابات الصحافة الدولية، التي بدأت تتهاطل، ومنها ما هو مدفوع من مصالح مخابرات أجنبية معينة تريد أن تعرف إلى أين تسير الجزائر ومن يسيرها.

وهكذا تميزت نهاية سبتمبر باللقاء الذي نظمته مديرية الإعلام بالرئاسة بين الرئيس ومديري ورؤساء تحرير الصحافة الوطنية، والذي استغرق إعداده أكثر من أسبوع من الاتصالات مع من يوثق بهم من الصحفيين لحصر أهم محاور الحوار، ثم جرى تخيل الأسئلة التي ستلقى وخلفياتها، ووضع لها مشروعات الإجابة أو اقتراحات الفرار منها.

ووجد الرئيس ملفا كاملا عن كل الاهتمامات الإعلامية على مكتبه قبل اللقاء بنحو أسبوع.

وكانت النتيجة جيدة، إذ انبهر الصحفيون بالبساطة التي طُرحت بها قضايا شديدة العمق، ولاحظوا أن أسلوب الرئيس الشاذلي كان أسلوبا جديدا يختلف من

ناحية الشكل عن أسلوب الرئيس بومدين، ولكنه لم يكن بعيدا عنه من ناحية المضمون والجوهر، وكان الفضل لله أولا ثم للرئيس التي بذل جهدا معتبرا لاستيعاب كل المعطيات.

....

ومع بداية أكتوبر تمت حركة تعيينات كبرى في القوات المسلحة والسلك الدبلوماسي وتم تحديد موعد لانعقاد الدورة الثانية للجنة المركزية واستكمال لجانها المتبقية[11].

وبدأ في الوقت نفسه التفكير في تقديم الرئيس للصحافة الدولية.

وفجأة يصل إلى الجزائر الصحفي المصري المعروف لطفي الخولي، ويُبلغني الرئيس أنه طلب الالتقاء به عن طريق الأمين العام، وسألته عن المؤسسة الإعلامية التي سيكتب لها لطفي فقال بأنه لا يعرف، وكان مندهشا لأن الصحفي لم يبادر بالاتصال بي، وإن كنت أتخيل السبب، حيث كان لي موقف من هذا الصحفي، الذي كان يتسرب إلى الجزائر تحت مسوح اليسار، ولم يكن موقفي ينطلق من اعتبارات شخصية، فقد كنت أعتبره من الصحفيين المتميزين على الساحة السياسية، وكان يلقى من الجزائر ومن الرئيس بو مدين كل احترام وتقدير، خصوصا وقد ارتبط اسمه بالكفاح الفلسطيني، ولهذا كان الباب مفتوحا أمامه دائما، وكانت فرصة انتهزها البعض للتقرب من الرئيس عن طريقه، ولكنني كنت على يقين من أنه يتعامل مع مصالح مصرية خاصة، وهو ما سيتأكد فيما بعد [12].

---

11 – كانت اللجنة المركزية هي قيادة الحزب بين مؤتمرين وتنعقد في دورتين عاديتين كل عام، ويشكل المكتب السياسي هيئتها التنفيذية، وهذه النقطة كانت تستقطب ضيق بعض أعضاء المكتب الذين كانوا يريدون له أن يكون هو قيادة الحزب.

12– قام لطفي الخولي بدور هام مع المهندس مصطفى موسى في الجمع بين الرئيس الأسبق أحمد بن بله والسفير (آنذاك) علي كافي، عند قيام بن بله بأول زيارة له للقاهرة بعد إطلاق سراحه، وكان علي كافي قد رفض أن يشارك في الاستقبال الرسمي الذي أعدته له السلطات المصرية بحجة أنه لم يخطر بالزيارة من رئاسته المباشرة، أي الحكومة المؤقتة، وكان سامي شرف هو الذي ابلغه بالوصول كما قال لي رئيس الدولة الأسبق.

لكن الأمر تغير إثر آخر زيارات لطفي الخولي إلى الجزائر بعد حرب أكتوبر 1973، حيث كنت قمت، بأمر من الرئيس بومدين، بتنظيم زياراته واتصالاته وحواراته، ومن بينها حوارات مع الرئيس نفسه، حضرتها كلها وسجلت فيها أهم معالم الحديث، كما يحدث في كل اللقاءات الصحفية.[13]

وكانت العادة في التعامل مع الصحفيين، وخصوصا بعد الدرس الذي تلقيته في الحديث الذي أجراه الصحفي الفرنسي روبرت لامبوت، أن أقوم بمراجعة النص النهائي الذي سينشره الكاتب، لكنني لم أكن أتمسك بذلك مع الأوزان الثقيلة مثل محمد حسنين هيكل ولطفي الخولي وجورج مونتارون وجان دانييل وغيرهم من كبار الكتاب[14].

كان بو مدين في أحد لقاءاته مع لطفي الخولي قد قال له، وبحضوري، بأنه كان "يعلم" أن السادات سيقوم بحرب ضد إسرائيل من واقع ما سمعه منه[15].

وكان المتفق عليه أن تصدر المقالات في "الأهرام" و"النهار"، ويعاد نشرها في الجزائر في "الشعب" باللغة العربية"، وتترجم إلى الفرنسية لنشرها في "المجاهد"، وصُدمت عندما وصلتني صحيفة النهار التي تحمل نص الحوار مع

---

13 - قمت فيما بعد بجمع أهم الأحاديث مع الرئيس ليصدرها من بيروت في 1975 عن دار القضايا الصحفي القدير فؤاد مطر تحت عنوان "عن الثورة في الثورة وبالثورة"، وكان من بين الحوارات، التي اشترطت أن أوافق على صورتها النهائية، بعض ما أجراه لطفي مع الرئيس بو مدين إثر جوان 1965.

14 - خلال استقبال الرئيس بومدين لروبرت لامبوت في بداية السبعينيات، وكنت ما زلت أتعلم كيف أواجه متطلبات عملي الجديد إلى جانب الرئيس، تحدث بومدين عن الأخبار التي تناولت علاقات قيادة عربية شقيقة مع بعض تجار المخدرات على ضوء ما نشرته صحيفة بريطانية، ولم أراجع نص الحديث مع الصحفي الذي نقل ما قاله الرئيس، في حين أن الرئيس تصور أن ما قاله كان دردشة لا تدخل في صلب الحوار الصحفي، وغضب غضبا شديدا عندما نشر الحديث كاملا في صحيفة لومانيتيه (L'Humanité) لأنه لم يكن يريد الإساءة للملك الشقيق.

15- كان الرئيس السادات قد أجرى في يوليو من عام 1973 محاولة أخيرة لتحقيق سلام مع إسرائيل، عبر وساطة طلبها من الأمين العام للحزب الاشتراكي الفرنسي فرانسوا متران لدى رئيس الحكومة الإسرائيلية غولدا مائير، وكان المسؤول الذي قام بالوساطة رئيس الوزراء الفرنسي بعد ذلك بيير موروا.

الرئيس، فبدلا من أن يقول الصحفي على لسان بومدين :كنت "على علم" أن الرئيس السادات سيدخل الحرب .... قال : كنت "على ثقة" أن الرئيس السادات سيدخل الحرب، وبين العلم والثقة سور كأسوار الصين، وأحسست يومها أن لطفي دخل في عملية تلميع الرئيس السادات، وكان هذا مثيرا للدهشة من قبل صحفي يساري ناصري، كما كان يقدم نفسه.

ولاحظ الرئيس بومدين الفرق، وتأكد، بسؤال مباشر، أنني لاحظته.

ثم جاءت سلسلة المقالات التي كتبها لطفي الخولي فيما بعد في الصحافة المصرية "، تحت عنوان : "المدرسة الساداتية – نظرة فوتوغرافية"، أي أنه يقدم "مدرسة" السادات وكأنه آلة تصوير محايدة، وكان هذا خداعا كبيرا للقارئ البسيط لأنه إذا كانت الآلة في حد ذاتها محايدة فإن زاويا التقاط الصورة واتجاه الأضواء المسلطة على ما يتم تصويره هي مادة معروفة للتلاعب.

وكمثال بسيط، فإن التقاط الصورة من أعلى En plongé يُقزّم العملاق الذي يتم تصويره، في حين أن صورة تلتقط من أسفل En contre plongé تجعل من القزم عملاقا.

وأحسست بأن الرئيس الراحل يخفي بصعوبة خيبة أمله في الصحفي الكبير.

....

وهكذا، وعندما بدأ لطفي الخولي يجري اتصالاته ليفوز بأول حديث صحفي مع الرئيس الجزائري الجديد، تحفظت على اللقاء وصارحت الرئيس بشكوكي، خصوصا عندما عرفتُ، عبر اتصالاتي الخاصة، أن الحديث سينشر في مجلة "الوطن العربي"[16]، التي كانت مواقفها منّا عدائية منذ انفجار قضية

16 – لم يخف عني مدير المجلة وليد أبو ظهر ورئيس تحريرها نبيل مغربي قواعد اللعبة الإعلامية كما يرونها، ورغم مودة جمعتني بنبيل إلا أنني، وبتعليمات من الرئيس بو مدين، كنت متحفظا في علاقاتي معهما.

الصحراء، ثم بعد الموقف المتزن الذي التزمت به الجزائر في الحرب العراقية الإيرانية، وكان العراق ممولا رئيسيا للمجلة التي انقلبت ضده بعد أغسطس 1990.

وقلت للرئيس بأن الصحفي سيجري حديثه لمجلة "الوطن العربي"، التي أمّنتْ له السفر إلى الجزائر، ولكن الأمين العام لرئاسة الجمهورية، الذي كان حاضرا هذا اللقاء نفى ذلك (وإن كان لم يعترف بأن مصدره هو سفير جزائري لا أثق كثيرا في معلوماته) وقلت للرئيس أنه صاحب القرار النهائي، وإن كنت أفضل، على ضوء التجربة السابقة في عهد الرئيس بو مدين، أن يتم الاتفاق مسبقا على نص المادة التي ستنشر، وهو إجراء عادي معمول به في كل البلدان.

وكان من خلفيات تحفظي هو تأكدي من أن الصحفي يعمل أيضا لمصلحة مراكز نفوذ مُعينة في مصر وربما في غيرها، تريد، عبر الاتصال الأول مع الرئيس، اكتشاف أشياء وزرع أشياء أخرى، خصوصا وأنا أعرف دهاءه وحسن نية الرئيس في التعامل مع الأشقاء، وكان علي أن أحافظ، لأطول مدة ممكنة، على جو الغموض حول الرئيس، حتى يتمكن من الإحاطة بكل شيء، ومرت أيام، وكلمني الرئيس هاتفيا ليقول لي أنه اضطر لاستقبال الخولي بناء على تدخل من مسؤول كبير، قدمه له كمناضل مصري معادٍ لخط السادات، وقال لي الرئيس عندما التقيته في مكتبه بعد ذلك : لقد قبلت لقاءه على ذلك الأساس، ولكنه أحرجني عندما قال خلال اللقاء بأنه لا يستطيع أن ينسى أنه صحفي، وبأنه يستأذن في أن ينقل للقراء العرب صورة عن الرئيس الجزائري الجديد وعن فكر القيادة الجزائرية.

وكانت هي المجلة نفس التي سربت بعد ذلك خبرا أخذته من مصدر حزبي يقول بأنني : "أعطي دروسا في العربية للرئيس الشاذلي"، في محاولة لبذر الشقاق بيني وبينه، وقد نشر نفس الخبر في مجلة جون أفريك بالفرنسية مؤكدا المصدر والهدف، وأطلعت الرئيس بنفسي على الخبرين وأشرت إلى المصدر كما أتصوره، وكان معروفا أنني مقاطعٌ من المجلتين لرفضي التعاون معهما، وبالتالي فلم يكن ممكنا أن أكون أنا مصدر الخبر، وكان موقف الرئيس رائعا إذا قال لي: لا تلق بالا إلى ما يقولون فأنا أعرفك جيدا، وطمأنني هذا إلى حين.

وقلت للرئيس بكل بساطة، وفي حضور سُقراط، بأن ذلك يمكن أن يكون أمرا جيدا إذا نشر كاتب في حجم لطفي الخولي صورة إيجابية عن الجزائر، وفي مجلة الوطن العربي على وجه التحديد، ونفى الأمين العام لرئاسة الجمهورية للمرة الثانية الارتباط بالمجلة، ومرة أخرى أكدت أنا معلوماتي، وقلت له على مسمع من الرئيس : أمامك فرصة زمنية كافية للاطمئنان إلى ما سينشره لطفي الخولي.

وبعد أيام جاءتني برقية إعلامية من باريس، حيث تصدر المجلة، تستعرض خطوط أول حديث يدلي به الشاذلي بن جديد، وأرسلتُ البرقية للرئيس ضمن النشرة اليومية، واتصل بي هاتفيا في المساء ليقول لي : كنتَ على حق، والرجل لم يحترم الاتفاق، وعليك أن تنفي إجراء حديث صحفي معي.

وأجبته بأنني أفضل، بعد إذنه، انتظار وصول المجلة نفسها ثم نتخذ قرارنا على ضوء المادة.

واتصلت بالأخ عبد الكريم غريب رئيس ودادية الجزائريين في أوروبا الذي وافاني، على أول طائرة بين باريس والجزائر، بعدة نسخ من المجلة، أرسلت إحداها للرئيس، ورحت أتأمل الحديث الذي نشر على عدة صفحات من المجلة، وكان الغلاف يحمل صورة الرئيس وعبارة : أول حديث صحفي للرئيس الشاذلي بن جديد، والواقع هو أنه، لو حسنت نوايا لطفي الخولي، لكانت قضية هذا الحديث ضربة قاضية لمكانتي بجوار رئيس الجمهورية، ودعما لكل الخصوم الذين كانوا يريدون، بكل وسيلة ممكنة، زحزحتي عن ميدان سلطة القرار الإعلامي المتعلق بالرئيس، أو مشاركتي فيه على الأقل.

وكان من توفيق الله أنني اتخذت قراري بعد دراسة لكل المعطيات وبعيدا عن أي دوافع شخصية، وكان هدفي الرئيسي أن أكون وفيا لثقة الرجل الذي أعمل معه.

وكان أكبر خطأ وقع فيه الخولي رحمه الله أنه نشر الحديث بتوقيع مستعار، هو مصطفى النديم، وكان الحديث في مجمله جيدا نظرا لأن الخولي صحفي قدير، لكن هناك قضايا نشرت ولم يكن قد حان أوان الحديث عنها، وقال لي الرئيس بشأنها أنه تحدث بقلب مفتوح مع الرجل كمناضل، وأضاف بأن هناك أشياء لم يقلها وأشياء أخرى نشرت محرفة، وقلت بأمانة أنني أتصور أن الصحفي استعان بذاكرته وبالتالي يمكن أن تكون الذاكرة قد خانته، ولعله استعان بأفكار آخرين ممن هم على علاقة به، ولم أحاول إطلاقا أن أنكر بما قلته ضد الرجل وبعدم موافقتي على إجراء حديث معه، بل على العكس حاولت أن أجد له مبررا، مع كل ما قد يبدو في هذا التصرف من تناقض مع موقفي منه، إذ لم أردْ أن أحرج الرئيس بدفعه للبحث عن مبررات لإجراء الحديث، ولعل الرئيس وجد في تبريراتي تأكيدا لموضوعيتي، غير أنه كان ثائرا لأنه كان يحس بنوع من الخديعة، وأعطاني أمرا واضحا بتكذيب الحديث، فرجوته أن يعطيني حقّ التصرف بعد أن أدرس الأمر من كل جوانبه.

وعندما قال لي "دبّر راسك" (أي خذ القرار الذي تريد) أحسست بأنني انتصرت في معركة أخرى، وبدأ إعداد رد الفعل على ضوء المعطيات التالية:

- – نشر حديث صحفي لرئيس دولة باستعمال توقيع وهمي معناه أن الحديث مُفبرك، أو أنه إعلان مدفوع الثمن.
- – إذا عُرف يوما، وهو آت لا محالة، أن الذي أجرى الحديث هو صحفي مرموق فإن هذا سيعني أن الصحفي ترفع عن وضع اسمه على الحديث لأنه لم يقتنع بما قيل له، وبهذا يكون وضعُ الرئيس سيئا (وقد قال الكاتب لبعض أصدقائه فيما بعد أنه اضطر لوضع توقيع مستعار لأنه كان ممنوعا من الكتابة في مصر، وهو تبرير غير مقبول، إذ كان ممكنا أن يتم "نسيان" ذكر الصحفي الذي أجرى الحوار، أو وضع اسم مدير التحرير نبيل مغربي على الحديث، وأظن أن النص قد نقل حرفيا إلى جهات معينة في

مصر، كانت هي التي شجعت على إجرائه، ومنعها الصحفي من التوقيع، إن حدث، يؤكد الظن).

- – يشمل الحديث جوانب إيجابية لا بد من الاستفادة منها.
- – اتخاذ أي موقف ضد صحفي عربي يمكن أن تستغله الدوائر المضادة لكل ما هو عربي.
- – ليس من المصلحة التكذيب المباشر لأنه يفتح الباب للدخول في مهاترات مع مجلة الوطن العربي، خصوصا وأنا أعرف أن للصحفي خصوما في المجلة، وأفضل أن أكسبهم إلى جواري بعدم الإساءة للمجلة.

واستقر رأيي على صيغة تكذيب يمكنها أن تستجيب لكل ما أفكر فيه، وتُمكننا من استثمار الإيجابيات وسحب المصداقية من السلبيات، وهكذا نشرت صحيفة الشعب صباح السبت 13 أكتوبر 1979 على صدر صفحتها الأولى الخبر التالي، الذي قضيت ساعات في صياغته:

"نشرت مجلة عربية أسبوعية تصدر في باريس حديثا منسوبا إلى رئيس الجمهورية، أجراه صحفي يدعى مصطفى النديم، وقد تأكد للشعب، بعد استيضاح الدوائر المعنية برئاسة الجمهورية، أن الرئيس لم يستقبل بتاتا صحفيا يحمل هذا الاسم".

وكنت قبلها قد أجريت اتصالا بدا روتينيا مع مراسل صحيفة لو موند بالجزائر السيد "دانييل جونكا"، (وقد ألفت الاتصال دوريا بأهم المراسلين الأجانب في الجزائر لأسرب لهم معلومات مطلوب إشاعتها، أو لألتقط أخبارا يهمني معرفتها، وهو الدور العادي للمستشار الإعلامي)[17].

وعبر الحوار دفعت الصحفي شيئا فشيئا إلى استدراجي للسؤال عن قصة أول حوار صحفي مع الرئيس، فقلت له أنني سأنشر غدا تكذيبا في الشعب،

---

17 – كانت شبكة الاتصالات مع رجال الإعلام الوطنيين والدوليين ذات فائدة كبرى للبلاد، وبفضلها سربنا أخبارا وبالونات اختبار وعن طريقها أوقفنا نشر مقالات معادية أو تحكمنا في حجم ضراوتها.

وبأن الرئيس استقبل مناضلا مصريا من خصوم الرئيس السادات، وتحدث معه أخويا وعلى الطبيعة، ويبدو أن المناضل نقل إلى المجلة التي تصدر في باريس، وبحسن نية، جوانب من الحوار كما احتفظت به ذاكرته، ولعله أضاف له بعض ما التقطه من أحاديث مع جزائريين آخرين.

ونشر الصحفي الفرنسي محتوى هذه الدردشة في صحيفة "لوموند" في نفس الأسبوع من شهر أكتوبر 1979، لكن هذا كله جرّ علي عداوات كنت في غنى عنها.

....

وكانت قضية "الوطن العربي" رمية من غير رام، سهلت لنا أن نبدأ سلسلة الأحاديث الصحفية للرئيس بصحيفة "لو موند"، حيث لم تكن هناك صحيفة عربية واسعة الانتشار في الجزائر، يمكنها أن تحقق الهدف الإعلامي المطلوب، وهكذا، وفي مرحلة إعداد عناصر الخطاب الموجه للأمة، بدأ تصور السيناريو الذي يُمكن به أن يُعدّ أول حديث للرئيس مع أهم الصحف الفرنسية على الإطلاق، وكنت تلقيت الأسئلة بناء على طلبي، وتم إعداد مشروع للإجابة، ساهم فيه بكفاءته المعهودة الأخ إسماعيل حمداني[18].

وفي الوقت نفسه بدأ عمل مواز لإعداد استجواب للقناة الفرنسية الثالثة، سيقوم به رئيس قسم الأخبار "جان ماري كافادا" مع صحفيين آخرين أحدهما فرنسي ممن ولدوا في الجزائر، أي أنه كان ممن يطلق عليهم اسم : "الأقدام السوداء"، (Pieds noirs) وكانت لي جسوري مع هؤلاء، وصداقات تجمعني بالعديد منهم، وكانوا، في معظمهم، عند حسن الظن.

18- رئيس أول حكومات الرئيس عبد العزيز بو تفليقة والأمين العام للحكومة في عهد الرئيس الشاذلي، وهو يملك ناصية للغتين العربية والفرنسية بجانب الإنجليزية، وهو من خبراء العمل الدبلوماسي، وإنجازاته في هذا المجال في عهد الرئيسين بو مدين والشاذلي تجعلني أجرّمه إذا لم يكتب ذكرياته، لأنه قادر على استعراض جانب بالغ الأهمية من تاريخ البلاد الدبلوماسي بعد استرجاع الاستقلال، وقد قال لي بأن الرئيس هو الذي أصر على وجوده في الزيارة الرسمية لفرنسا عام 1983 حيث، كما قال لي، لم يعد يشعر بالارتياح مع إدريس جزائري.

وكان الإشراف المُباشر على مجموع النشاط الإعلامي ضرورة حيوية لضمان التكامل بين كل ما سيبث أو ينشر باسم الرئيس أو على لسانه، وهي عملية سياسية إعلامية ستنطلق بمناسبة الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين للثورة، وستكون قمتها خطاب الرئيس للأمة.

وتفضل الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي فتأكد من مستوى القسم الدولي من الخطاب، ولم تكن له أي ملاحظات على القسم الوطني من الخطاب، باستثناء تعديل تعبير "الرئيس الراحل" لتكون "رئيسنا الراحل"، وهكذا أصبح الخطاب معدا بعد ليالي طويلة ضاعت في الكتابة والشطب والتمزيق وتخيلِ وقع كل جملة على المستمعين من كل الاتجاهات، وتغيير كل كلمة قد يصعب نطقها أو قد تدفع إلى التلعثم، بل وتصور الترجمة الفرنسية للتعبير العربي حتى لا يكون هناك أي مجال لسوء التفسير.

وأرسلتْ نسخة أولية باللغة العربية مكتوبة بالآلة الكاتبة للرئيس للتعرف على ردود فعله الأولى، فاستدعاني بعد أيام ليراجع معي بعض النقاط التي رأى فيها دخولا في التفاصيل، وتولد لدي الشعور بأن هناك من راجع الخطاب معه، ولم أعرف من هو أو من هم، وإن كنت أحسست بالارتياح لأنه لم يعترض على أشياء جوهرية، وبعد موافقته على النص النهائي قام عبد الحميد اسكندر خطاط الرئاسة بكتابته بخط النسخ الكبير، وتمت مُراجعته ووضع الحركات على كل كلماته (بلون أحمر) وإعداده في أوضح صورة تمكن من قراءته على أحسن وجه، خصوصا بتحديد الفواصل ومواقع التوقف، مع الإشارة برسم جانبي إلى المواقع التي يستحسن فيها خلع النظارة والتوجه بدونها للمستمعين بما يشبه الارتجال، ثم أعد شريط مسجل أرسل مع الخطاب إلى الرئيس، الذي التقيته بعد ذلك أكثر من مرة حيث راجعنا النص سويا، واستجاب الرئيس فقبل أن يسجل شخصيا شريطا بالصوت والصورة، وهو ما قامت به فرقة لستقدمتها من التلفزة، واستعمل الرئيس وحده التسجيل للمراجعة والتمرين.

وبدأ أول خطاب للرئيس الشاذلي أمام المجلس الشعبي الوطني بمقدمة تستعرض كفاح شعبنا ومعاناته ووفائه تقول : "للذين بذلوا أرواحهم من أجل

النصر وللذين ما زالت أجسادهم تحمل أوسمة الكفاح المسلح" (...) "ويعبر عن تقديره لكل الشعوب الشقيقة والصديقة التي دعمت كفاح شعبنا."

ثم يمضي الخطاب ليذكر بالتناقضات التي برزت بعد الاستقلال ليبرز بأن: "التصحيح الثوري في 1965 بقيادة الرئيس الراحل هواري بو مدين قاد الثورة إلى مسارها الصحيح"[19].

ثم تعرض الخطاب للمحنة التي عاشتها البلاد (بوفاة الرئيس بومدين) ثم تعرض للمؤتمر الرابع، واستعرض ما تم إنجازه منذ انتخابه رئيسا، وحدد الخطاب أولويات المرحلة القادمة كما يلي :

– حماية القدرة الشرائية للمواطن وملاحظة ضرورة أن يكون الاستهلاك مرتبطا بالإنتاج، مع ممارسة سياسة التقشف، والتأكيد بأن قيمة الإنتاج ومستوى الإنتاجية يعتمدان على حسن استغلال الإمكانيات أكثر من اعتمادها على حجم هذه الإمكانيات[20].

---

19 – كانت هذه نقطة جوهرية بعد أن أخرج الرئيس الأسبق أحمد بن بله من الإقامة المحددة في فيلا "هولدن" ونقل إلى ولاية مسيلة في وضعية إقامة محددة نسبية، في انتظار إلغاء كل الإجراءات الخاصة المتعلقة به، والذي صدر الإعلان عنه على صورة بلاغ مقتضب قمت بصياغته في مكتب الرئيس، وتعمدت فيه استعمال تعبير "الرئيس الأسبق"، وهو ما تحفظ عليه مسؤول سام آنذاك، وقلت له أمام الرئيس : شئنا أم أبينا فقد كان رئيسنا ولا يمكن أن استعمل في الإشارة له كلمة .. "المدعو "فلان، ولم يعترض الرئيس على رأيي، والمؤسف أن الرئيس الأسبق لم يجد مستشارين يبصرونه بحقيقة الأوضاع، ووقع فريسة لمجموعة من المغامرين قيل آنذاك أنهم مخترقون من جانب بعض المصالح، راحت تصفي حسابها مع بو مدين بشكل أحمق، وهكذا بدأ بن بله حياة الحرية بهجمات شرسة على الرئيس الراحل، ولم يدرك بأن الشارع آنذاك كان "بو مدينيا"، وأن جيلا جديدا لا يعرف شيئا عن بن بله، وأنا أرى أنه لو التزم الرجل الصمت وأمعن النظر في الحقائق الجديدة فإنه كان سيصبح من جديد عنصرا فعالا في اللعبة السياسية، وربما كان الوطن سيلجأ له من جديد، أو أنه سيظل مرجعا وطنيا حتى ولو لم يعد للسلطة.
وقد قال لي "جونكا" يوما، وهو يعلق على تصريحات الرئيس الأسبق، أن مأساة الرجل : أن "عميمور يوجد في الطرف الآخر"، وكان مديحا داعب غروري، ولكنني أقول بأنني، كمستشار للشاذلي بن جديد، لم أحاول استغلال أخطاء بن بله لتعميق الهوة بينه وبين الرئيس ولكنني كنت قادرا، لو كنت بجوار بن بله، على حماية الرئيس الأسبق من نفسه، وربما المساهمة في أن تكون له، في مستقبل قد يكون منظورا، وضعية الجنرال ديغول في كولومبي الكنيستين"

20 – أرجو أن ألاحظ هنا أن أفكارا ذات عمق مؤكد تمت صياغتها في أبسط عبارات ممكنة.

– "محاربة المظاهر السلبية والآفات الاجتماعية"، وهنا استلهم الخطاب نبض الجماهير وهو يؤكد بأن "الشعب مستعد لبذل كل ما يُطلب منه من تضحيات" .."ولكنه في مقابل هذا يطالب بالقدوة الحسنة، وبأن يأخذ كل ذي حق حقه، وأن نعمل أكثر ونتكلم أقل" [21].

– أكد الخطاب بأن: "الذي يجمع بيننا هو الميثاق الوطني" .."وإذا كان هناك من يعيش على أحلام الماضي وأوهام المستقبل فإن شعبنا هو سيد مصيره"[22].

ثم تناول الخطاب الجانب الدولي فألح في البداية على أن الجزائر تمثل عمقا تاريخيا تبلور بفضل الحضارة العربية الإسلامية، وبفضل الكفاح من أجل الحفاظ على الشخصية الوطنية[23].

وفي مجال التنديد باتفاقيات "كامب دافيد" والتركيز على عزلة نظام الرباط استعملتُ التعبير البلاغي الممتاز الذي اقترحه الدكتور طالب يقول .."شهد عام 1979 عام انتصار الحقائق على الأكاذيب"، ويضيف بأن: "تشجيع النظام المغربي على مواصلة سياساته العدوانية هو خطر على المنطقة كلها، بما في ذلك المغرب نفسه، ومن مصلحة الجميع، داخل المنطقة وخارجها أن تزول الأسباب الحقيقية للتوتر والصراع"[24].

---

21 – كان لا بد من إعداد المواطن والعالم الخارجي لحجم أقل من الخطب، وكانت الأفواه قد بدأت في تداول نكتة تقول بأن الجزائر عرفت ثلاثة رؤساء، أولهم مسجون (بن بله) والثاني مدفون (بو مدين) والثالث عقون (أي أخرس) وكان يجب أن يحس الجميع بأن الرئيس يتابع كل شيء ويعلق عليه بأسلوبه الخاص (ولم أبلغ الرئيس بسبب اختياري لهذه الفكرة وإن كانت النكتة قد نقلت إليه، كما رواها لي العربي بلخير شخصيا، بالقول أن ثالث الرؤساء .. منصور، وهو ما لا يستقيم مع الوزن)

22 – الإشارة واضحة للرئيس الأسبق، ولكن بعفة وبدون ابتذال، وكانت تحذيرا له ممن يشيرون عليه.

23 – هذه نقطة بالغة الأهمية كما ستثبت الأحداث ذلك، خصوصا عندما أشعلت الوضعية الإرهابية وفرضت ثلاثية الهوية في دستور 1996، والواقع أن القنابل الموقوتة ستبدأ في الانفجار في أبريل المقبل، بعد الزيارة العربية للرئيس، وأولها القضية البربرية، وتلاحظ دقة التعبير فيما يتعلق بالعمق التاريخي (أي الأمازيغي) وربط الانتماء العربي الإسلامي بالجانب الحضاري، أي ثنائية الهوية ووحدة التاريخ.

24 – كان هناك حرصٌ على تأكيد المبادئ بدون أي سوقية أو إساءة للمغرب الشقيق، وعلى أساس ترسيخ أمر واقع بكلمات الرئيس نفسها، بحيث لا يمكن التراجع عنه.

ثم يمد غصن الزيتون في اتجاه المغرب ويقول: "إن الدماء التي تسيل في الصحراء الغربية هي دماء لأشقاء لنا وجيران، ويعز علينا أن تراق هذه الدماء نتيجة حرب ظالمة أو أحلام توسعية".

وبعد أن استعرض الخطاب، في عبارات بالغة البساطة، وجهة نظر الجزائر فيما يتعلق بالقضايا الاقتصادية الدولية أكد التزام الجزائر بسياسة عدم الانحياز وميثاق الأمم المتحدة وقراراتها وميثاق منظمة الوحدة الإفريقية وتوصياتها، اختتم بالقول... "إن عدونا الرئيسي هو التخلف وأملنا الوحيد هو أن نحقق لشعبنا السلام الدائم والازدهار."

وكان خطاب الرئيس للأمة هو أول خطاب كُتب أساسا بالعربية منذ أن أقيم المجلس الشعبي الوطني في 1977، وذلك باستثناء الملاحظات التي أعطاها الدكتور طالب، حيث كان المشروع الأولي لكل من خطابي 1977 و 1978 للرئيس بومدين قد أعد بالفرنسية، وقمنا بترجمتهما للعربية.

وبذل الرئيس مجهودا كبيرا في استيعاب النص وقراءته، غير أن أداءه في المجلس الوطني كان متوسطا، وتلعثم أكثر من مرة، ولكنني قمت بالمونتاج اللازم في النص التليفيزيوني، الذي أذيع عشية الاحتفال بالذكرى الخامسة والعشرين لثورة نوفمبر.

وأعتقد أن المعاني الذي تضمنها الخطاب كانت مادة للتأمل في الداخل والخارج، وتقبل المواطنون الخطاب تقبلا حسنا، لأن أهم ما نجح الرئيس في إبرازه هو نبرة الإخلاص في كلماته.

وانتهت معركة وبقيت معارك أخرى.

(3)

احتفلت العاصمة في اليوم التالي لإلقاء الخطاب بعيد الثورة، وكان الاحتفال رائعا من عدة أوجه، وتميز بالعرض العسكري الكبير الذي حضره كل

من الرؤساء وليم تولبير (ليبيريا) وحافظ الأسد (سوريا) والقذافي (ليبيا) والزعيم الفلسطيني ياسر عرفات، كما حَضَرَتْهُ شخصيات عالية المستوى، من بينها بريزنسكي الأمريكي وبازرجان الإيراني وراؤول كاسترو الكوبي وأورتيغا النيكاراغوي وآخرون من مستويات أقل، ولم يكن سراً أن هناك سباقا للتعرف على شخصية الرئيس الجزائري الجديد.

وارتبطت الاحتفالات بمشكل جديد مع العقيد القدافي، حيث تعمد الوصول صباح أول نوفمبر، رغم أنه أبلغ مسبقا بأن المجال الجوي سيغلق في وجه الملاحة الجوية ابتداء من الثامنة صباحا.

ونظرا لأن الرئيس كان في تلك الأونة يتفقد القوات المشاركة في العرض العسكري فقد كلف الرئيسُ رابح بيطاط باستقبال العقيد، وعندما لاحظ القذافي أن الشاذلي لم يكن في الاستقبال عند سلم الطائرة تأخر في النزول فترة طويلة، وإلى درجة أن بيطاط فكر جديا في ترك موقعه عند السلم، ولكن العقيد نزل عندما أبلغه مرافقوه بالتحركات التي بدأوا يحسون بها وتشير إلى اتجاه بيطاط إلى مغادرة المطار، واضطر إلى إتباع التنظيم الذي حددته التشريفات الجزائرية، حيث انتظر في القاعة الشرفية إلى أن انتهى الرئيس من تفقد القوات، وعندها اصطحبه بيطاط إلى العرض في شارع جيش التحرير .

وبانتهاء العرض برزت هموم أخرى، فقد أرسل إليّ الرئيس مشروعا لكلمة ستنشرها مجلة "الجيش" بتوقيعه أرسلت بها وزارة الدفاع، ووجدت أن الكلمة، رغم جودتها، مطولة، وتتناول قضايا لا أتصور أن مكانها هو مجلة "الجيش"، بالإضافة إلى أنها لا تنسجم مع أسلوب الرئيس نفسه، الذي يعتمد الجمل القصيرة، في حين أن النص كان يعتمد الجمل الطويلة الجزلة.

وقلت للرئيس قناعاتي بصراحة، وكان الرجل كريما فقال لي بأسلوبه المعروف : "..دبّر راسك"، وقلت له، وأنا أعرف أن هذا سيحملني عبئا جديدا، إذ أن نشر كلمة باسمه في مجلة الجيش يجب أن يتزامن مع كلمة أخرى

تنشرها مجلة "المجاهد"، اللسان المركزي لحزب جبهة التحرير الوطني، حتى لا يُفتح الباب أمام تأويلات لا مجال لها، وأعطاني الرئيس، مشكورا، حرية العمل، فقمت باختصار النص الأول وتطويره، كما أعددت نصا آخر لمجلة "المجاهد"، جاء فيه أن "الحزب ومنظماته الجماهيرية هو رأس الحربة في العمل الضخم الذي ينتظرنا" (...) "فلنترك أعمالنا تتحدث عن نفسها ولنحذر من أن تكون أقوالنا أضخم من أعمالنا"، وكانت النتيجة العامة جيدة، لكن بعض المعنيين في القطاعين رأوا فيما قمت به اعتداء على اختصاصاتهم.

وعبر لي الأمين العام لوزارة الدفاع الوطني العقيد قاصدي مرباح عن ضيقه لما قمت به، وقال لي بأنه "كان المفروض أن تستشيرنا في نص وزارة الدفاع"، وقلت له بكل هدوء أن النص يفقد انتمائه للوزارة بمجرد وصوله إلى رئاسة الجمهورية، وبالتالي لم تعد القضية قضية عسكرية، وقد كلفني الرئيس بعمل محدد، وقمت بواجبي بدون أي خلفية إلا أداء الواجب الذي يكلفني جهدا كبيرا.

وأشهد للرجل، وهو في دار الحق، بكياسته وبتفهمه، خصوصا عندما أقارن رد فعله، وهو في هرم المسؤولية العسكرية، مع رد فعل من كانوا أقل منه في ظروف أخرى.

وبالطبع فقد جاءتني أصداء عن ردود فعل سلبية من قصر زيغود يوسف، حيث لم أستشر أي مسؤول حزبي فيما يتعلق بكلمة "المجاهد"، ولقد تعمدت ذلك لسبب جوهري هو أنني كنت أتوقع أن يقوم "الجماعة" بإعداد نص يُذكر بنص خطاب أول مايو، وأجد نفسي في وضعية حرجة حيث أنني لن أقبل أي نصّ على علاته، ومن المؤكد أنه لن يكون، بحكم تعدد المصادر، منسجما مع النصوص التي ستصدر عن الرئيس، سواء منها حديث "لوموند" أو التلفزة الفرنسية أو افتتاحية "الجيش"، وكان يجب أن يكون أسلوب كل ما يصدر عن الرئيس واحدا ومُنسجما، لكن هناك من كان يريد استعراض عضلاته، ولم أكن مستعدا لإخفاء عضلاتي، هكذا ببساطة ووضوح، فقد بدا أن القضية أصبحت ليّ ذراع بيني وبين بعض عناصر المجموعة المحيطة بمنسق الحزب.

ورغم أنني كنت أحس أحيانا بنوع من الأسى لأن الصراع يحدث بين أحق الناس بالتكامل والانسجام فإنني كنت أؤمن بأن السلطة لا تقتسم، والعلاقات الأخوية لا تحتمل الابتزاز، وكان الجانب الذي يُشعرني براحة نفسية أنني لم أكن المبادر بالخصومة، بل حاولت جاهدا تجنبها، ولكنني لم أتوقف كثيرا عند هذه الاعتبارات لأن بالي كان مشغولا بالاستجواب الذي سيدلي به الرئيس لصحيفة "لوموند Le Monde"، وهي إنجيل الفرانكوفونية والدليل الفكري للمتحدثين بالفرنسية والمفكرين بها عبر العالم.

وأرسلت أسئلة الصحفي للرئيس، ولم يكن مضمون الإجابات وحده هو الذي يشغلني، بل كان الأسلوب الذي ستقدم به الإجابات هاجسا أقلقني طويلا، وكنت أعرف أن "دانييل جانكا" التقى مطولا بالرئيس الراحل، وكان، من جهة أخرى معروفا بالتعاطف مع الرئيس الأسبق أحمد بن بللا، ومعنى هذا أنه سيتعامل مع كل شيئ بخلفية متشككة، ولم أكن أريد أن أترك شيئا للظروف [25].

وكان في الذهن، خلال عملية إعداد مشروع الإجابة، رصيد من التساؤلات التي كنا نسمعها من الصحفيين في الداخل والخارج، وتحتاج إلى إجابات مقنعة، وكان هناك، في الوقت نفسه، إدراك بأن "لوموند" صحيفة تتميز بأنها تتجه

---

25 - خلف دانييل جنكا الصحفي الفرنسي المعروف بول بالطا، الذي ولد في مصر، وهو متزوج من السيدة كلودين رولو أخت الصحافي المشهور وسفير فرنسا بعد ذلك إيريك رولو، وكانت علاقتنا جيدة وتمكنا من إقامة جسور تفاهم وتفهم معه اعتمدت على احترام كل منا لالتزامات الآخر، وكان متعاطفا معنا بحيث كان البعض يسميه : محمد بالطا، والمؤسف أن بعض الصحفيين الجزائريين لم يتفهموا حاجتنا لقنوات خارجية معتبرة، فكانوا يأخذون عليّ اهتمامي بالصحافيين الأجانب، وهو أمر صحيح ولكنه لم يحدث أبدا على حساب الصحافة الوطنية التي كان الرئيس يستقبل رؤساء تحريرها دوريا، وكان وراء التعليقات السلبية بعض صغار الصحفيين وبعض الذين يستهدفون الإساءة لي شخصيا من كبارهم، ولقد تمكنت بفضل أولئك الأصدقاء من تمرير رسائل كثيرة تهم الجزائر ومن التلطيف من حدة تعليقات حادة في وضعيات معينة، من بينها قضية المرحوم رشيد زقار ومشاكل كندا.
وعندما استقبل الرئيس بو مدين بول بالطا بمناسبة انتهاء مهمته قال له بمجاملة رقيقة : كنا نفضل لو بقيت معنا، ونقل بول هذا التعبير إلى إدارة الصحيفة ، وسمع بالأمر خلفه، جنكا، فأساء فهم الأمر، وكان هذا أساسا لعقدة أصابت الصحفي الجديد، كلفتني محو آثارها وقتا وجهدا وصبرا.

للخاصة، وكان من الضروري أن تكون عناصر الإجابة ذات رنين خاص، سواء بالنسبة للمضمون أو حتى بالنسبة للتعبير، وكان هذا يفرض عبئا مضاعفا، فقد كان لابد، عند صياغة التعبيرات، تخيلُ ترجمتها إلى الفرنسية، ليكون لها نفس الرنين والأثر.

وبالطبع فقد كانت هناك جمل تستعرض إيجابيات المرحلة الماضية، استعدادا لمواجهة الذين بدءوا يعدون السهام لضرب إنجازات الرئيس بو مدين، وبالأسلوب الذي يؤكد وفاء القيادة الحالية.

وكانت هناك جملة تقول ردا على سؤال يتعلق بالزراعة : "هناك من يزعم أننا ضحينا بالزراعة لحساب الصناعة الثقيلة، وأنا أتساءل عمّا إذا لم تكن خلفية هذا النقد نوع من التفكير الذي يستكثر على بلد من بلدان العالم الثالث أن يسيطر على مواده الأولية ويصنعها".

وكان اختيار هذه الجملة ضروريا من ناحية المضمون نتيجة للحملات ضد الصناعة الثقيلة، وكان مطلوبا أن يسمع الصحفي الفرنسي من يذكره بأن الألمان كانوا يقولون للفرنسيين في عهد "فيشي" : أن عليهم أن يعكفوا على الزراعة ويتركوا الصناعة لقلعة الصناعة في "الروهر" الألمانية.

وكانت هناك أسئلة تحتاج إلى ردود تبدو كردود فعل سريعة، ولكنها يجب أن تكون عميقة المعنى والدلالة ولا يبدو منها أي تهرب عبر الاختصار والتركيز أو التلاعب بالألفاظ مثل : "لا أتفق معكم على الفصل بين الماضي والحاضر"، أو : "إن سياستنا ليست سياسة فرد أو جماعة ولا يمكن أن تكون كذلك"، أو "مستقبل الجزائر ليس في البترول" .."ونحن نفرق بين الثروات الدائمة والثروات الزائلة التي لا تتجدد".

وبالنسبة للقضايا الدولية التي طرحها الصحفي كانت هناك إجابات تتعلق بمفهوم عدم الانحياز ونظرة الجزائر لقضية الصحراء الغربية، وتقديمها على حقيقتها كصراع بين النظام المغربي والشعب الصحراوي، مع التمسك باحترام

الحدود الموروثة والتحذير من أخطار تجاهلها، بما سيجعل كل واحد : "يحاول البحث في الماضي عن الحجج التي تسمح له بالمطالبة بأرض ما، وسيكون القانون الوحيد الذي يفرض نفسه هو قانون الغاب" (..) "وقد تختفي دول كاملة من الخريطة" [26].

وبعد إعداد مشروع الإجابة، والذي احتوى بالطبع على استعراض لقضايا الهجرة وقضايا التعاون ولقضية الصحراء الغربية، بعثت به إلى الرئيس، وأتيحت لي الفرصة لكي أناقشه معه، وكان سيناريو الحوار مع الصحفي يتطلب أن تكون الردود باللغة العربية، ويتولى الأخ إسماعيل حمداني مهمة الترجمة، وهو ما حدث بالفعل، وكان على الرئيس، وهو ما أخطر به حمداني تفاديا لأي مفاجأة، أن يتدخل مرات محدودة بالفرنسية ليوضح للمترجم فكرة معينة أحس بأن ترجمتها لا تعبر تماما عن أفكاره، وكانت العملية نجاحا هائلا إلى درجة أن الصحفي الفرنسي كان مبهورا باللقاء، "وشرِبَ" كل ما أعددناه بفضل الجهد الذي بذله الرئيس لاستيعاب للنصوص المعدة، وبفضل كفاءة إسماعيل حمداني وذكائه وتجاوبه مع كل موقف بما يناسبه، والواقع أن أهمية هذا الحديث بالذات (والتي سأحاول تأكيدها فيما بعد في الحوار مع التلفزة الفرنسية) هو أن أحبب للرئيس اختيار هذا الأسلوب في لقاءاته مع الرؤساء الأجانب، خصوصا في الأشهر الأولى لممارسته الحكم.

وكان من بين التعليقات التي كتبها دانييل جنكا قوله : "كان الرئيس يبدو حريصا على تفادي أي تأويل لكلماته (حيث كان يتحدث بالعربية) فكان يتابع المُترجم، ويتدخل أحيانا بالفرنسية ليوضح ما يقصده بالضبط أو يؤكد بعض عباراته" ثم يُضيف : "كان صوت الرئيس حازما وهو يضغط على الكلمات ليُعطيها كل معانيها".

---

26 – أتصور أن هواة الوثائق التاريخية سيرون في هذا التعبير تنبؤا بما سيحدث للكويت.

(4)

كان الحديث مع التلفزة الفرنسية واحدا من التحديات الكبرى.

وأنا أتحمل المسؤولية الكاملة لإدلاء الرئيس بأول حديث صحفي للتلفزة الفرنسية وليس للتلفزة الجزائرية، وقد أحس الصحفيون الجزائريون بالضيق، وأشارت للقضية، معاتبة، صحفية جزائرية عضو في المجلس الشعبي الوطني ، وتفهمتُ ذلك، ولكنني كنت آمل أن يتفهم الصحفيون الأذكياء الموقف، وأن يدركوا أن الهدف الأول كان اختراق الساحة الدولية والفرنسية أولا، لمصلحة البلاد والرئيس في وقت واحد، ولم أكن مستعدا لإضاعة الوقت في المجاملات، رغم أنه كان هناك، عشية الانتخابات، حرصٌ على إعطاء سبق التصريح الصحفي لوكالة الأنباء وللتلفزة الجزائرية، كما أن الرئيس، بعد الانتخابات، توجيه بكلمة شكر وتقدير للمواطنين عبر التلفزة الجزائرية، ومع أن بعض فرسان التعريب سلقوني بألسنة حداد، فإنني تحملت مسؤولياتي كاملة، وكنت أؤمن بأن نجاحا عبر قناة تلفزة أجنبية سيكون نجاحا مضاعفا، ولم أكن مسؤولا عن العقد النفسية التي تتحكم في الجنوب، وربما كان مما شجعني على اختيار المركب الصعب النجاح الذي حققه حديث الرئيس لصحيفة لوموند، والذي أعيد نشره بالطبع، مع تعليقات الصحفي الإيجابية، في الصحافة الوطنية باللغتين.

وكان أمامي ثلاث طلبات استجواب، اخترت من بينها القناة الفرنسية الثالثة، لأنها تهتم بشؤون المهاجرين وتقدم لهم برنامجا أسبوعيا، وهو ما كان دعما لموقفي المرتكز على أن الرئيس توجه للمواطنين عبر التلفزة الوطنية، ويتوجه لأبناء الوطن في الغربة عبر قناة تقدم لهم برنامجا خاصا.

ولم يرهق البعض أنفسهم في دراسة خلفية الاختيار، بالإضافة إلى قضية الهجرة، وهكذا تزايد تنديد بعض من يُحسبون على قطاع الإعلام عندنا أو من يقدمون أنفسهم كذلك ومن بينهم ناطق سابق باسم الحكومة المؤقتة شن عليّ حملة شعواء مستعملا في الحديث عني ساخرا صفة "أمير الإعلام"، وهكذا لم

يدركوا أهمية استعمال نقطة الضعف التي أخذت عليّ كمصدر قوة، فحقيقي أن القناة الثالثة هي أقل انتشارا، وكان هذا على وجه التحديد هو نقطة الضعف التي رأيتها نقطة قوة في المساومة مع الصحفيين الفرنسيين، حيث لوحت لهم بطلبات قنوات أخرى، ومن بينها القناة الأولى (والتي لم أكن جادا في التعامل معها لأن الذي طلب إجراء الحديث باسمها لم يكن من العاملين الدائمين بها)[27].

وبالإضافة إلى بث اللقاء في أكثر من تلفزة فرانكوفونية في وقت واحد، من بينها بلجيكا وكندا، فقد كان يعطيني إمكانية الضغط على الصحفيين لانتزاع ما أريده، وهو ما تركز في النقاط التالية التي لم أتزحزح عنها في نقاشات مطولة مع واحد من ألمع الصحفيين الفرنسيين وأكثرهم ذكاء، وهو جان ماري كافادا J.M.CAVADA، والذي استعملت معه منطق غير الخبير بشؤون التلفزة وهو يتعامل مع حجة في هذا القطاع، وإلى الدرجة التي جعلت البعض يزعمون بأنني خدعته وحولته إلى دمية في أيدينا، وهو أمر مبالغ فيه، وكانت النقاط كما يلي :

- سيتحدث الرئيس باللغة العربية، وستترجم الإجابات فوريا للصحفيين، (وسيكون المترجم جزائريا وموجودا في صورة العملية كلها).
- يتم التقيد بالأسئلة المقدمة مسبقا (ولم يحترم كافادا هذا تماما وهو أمر طبيعي ويجب التساهل معه، خصوصا وقد كنت محتاطا لذلك)
- يتم التصوير بأجهزة تابعة للتلفزة الجزائرية وبإخراج جزائري، ويمكن أن أقبل مشاركة مخرج فرنسي، على أن تكون لي الكلمة الأخيرة.

---

27 – أذكر بأنني قمت بالعمل الذي يجب أن يقوم به أي مستشار إعلامي كفؤ ومدرك لالتزاماته، لا أكثر ولا أقل، وهو ما أرد به على من لا يعرفون التزامات المنصب ويتصورون أن ذكري لهذا هو تضخيم لدوري، وهو نوع من الناس كانوا دائما عالة على المسيرة وكانوا يخفون عجزهم وقصورهم بمحاولة تعقيد العاملين والمجتهدين، وقد حاول بعضهم تعقيدي في هذا المجال وكان منهم من نسب إلى نفسه ما لم يقم به، ولهذا أسجل ما عشته.

- لا تستعمل أي مساحيق على وجه الرئيس (وقد بالغت في التمسك بهذه القضية كتصلب تاكتيكي رغم أن الرئيس لم يطرحها أساسا).
- توضع الترجمة بالفرنسية أسفل الشريط، ويعد النص الفرنسي للإجابات بالاتفاق معنا، وعلى أساس الترجمة الفورية.

ولم تكن المساومة سهلة، وكنت أتصلب في نقاط معينة لأضمن تساهل الفرنسيين في نقاط أخرى، وكان للنقاش أهميته في كشف خلفيات معينة بالنسبة لبعض الأسئلة، وهكذا وجد الرئيس أمامه تصورا كاملا للعملية، بما في ذلك احتمالات الأسئلة المفاجئة.

واختير للترجمة مدير الإذاعة الأخ محمد العيد بو رغدة الذي قام بالمهمة خير قيام ومن موقع غير بعيد أعدّ على شكل غرفة الترجمة الفورية، وتم وضعه في جو الأسئلة ومشاريع الأجوبة، وأعد مكانان متجاوران بجانب الرئيس مباشرة جلسنا فيهما، إسماعيل حمداني وأنا، ولكن بعيدا عن عين الكاميرا، لنكون بجانب الرئيس ولكن بدون أن نظهر للجمهور.

وفي اليوم المعد للتسجيل كان كلٌ في موقعه ينتظر نزول الرئيس إلى القاعة السفلية من مقر رئاسة الجمهورية، حيث وضعت أجهزة التصوير المرتبطة بالجهاز المتنقل للتسجيل التليفيزيوني، والتي كانت تعليماتها عدم القيام بأي إرسال مباشر إلى غرفة التسجيل المركزية بمقر الإذاعة والتلفزة، احتياطا لأي التقاط من جهة ما، وتم التسجيل بشكل مزدوج احتياطا لكل طارئ، مع الاطمئنان لوجود المولد الكهربائي الذي ينطلق آليا في حالة انقطاع التيار[28].

وذهبت إلى مكتب الرئيس لأراجع معه الرتوش الأخيرة على السيناريو الموضوع، ولأقول له بأن كل شيئ جاهز في انتظاره، وإذا به يفاجئني بالقول بأن وزير الخارجية محمد الصديق بن يحيى ضد إجراء الحديث، بحجة أن

---

28 - واضح أن هذا كان يعكس وضعية الذعر التي كنت أعيشها وأنا أعرف أن السكاكين مشرعة للإجهاز عليّ.

إجراء أكثر من حديث مع مؤسسات إعلامية فرنسية في وقت واحد تقريبا فيه مبالغة، وبالتالي فإن من الخير أن يُترك الاستجواب مع التلفزة إلى توقيت آخر، وسألني برقة: .."هل يقلقك أن نؤجل الحديث ؟ وأجبته بأن : "التأجيل ليس مشكلة، وسأتحمل أمام الصحفيين مسؤوليته، ولكن المشكل أنه لا بد من أن يُدلي الرئيس بحديث تيليفيزيوني مُطول في وقت ما، وأنا أعتقد أن الظروف اليوم مواتية لذلك، بل وتفرض أن نسرع بالإنجاز حيث من المحتمل ألا تتوفر نفس الظروف في المستقبل القريب فنجد مجموعة تقبل شروطنا لإجراء الحديث"، وطلب الرئيس مهلة للتفكير، فخرجت من مكتبه إلى غرفة مدير التشريفات حيث وجدت هناك بن يحيى، وقلت له مباشرة بأنني "لا أجد سببا مقنعا لتأجيل الحديث، وأنني أفهم مخاوفه جيدا (وأعتقد أنه، بذكائه المعروف، فهم تماما ما أعنيه، وربما تذكر ما سبق أن قاله في كوبا للأخ معزوزي) ولكنني أسيطر على العملية جيدا، وعملية التسجيل تتم تحت رقابتي المطلقة، ومن السهل، عند الضرورة، الادعاء بتلف التسجيل".

ودق جرس الهاتف، وكان المتحدث هو الرئيس الذي طلب وزير الخارجية، واتجه بن يحيى نحو باب الخروج وهو يقول لي بهدوء .."أنت تجازف مجازفة كبيرة، وتلعب برأسك..أنصحك..فكر ثانية"، وأجبته وهو يجتاز الباب بأنني أشكره ولكنني أعرف جيدا ماذا أفعل.[29]

---

29 – عندما يقول عضو إضافي في اللجنة المركزية مثل هذا لعضو في المكتب السياسي للحزب الحاكم في بلد مثل الجزائر فلا بد أن العضو الإضافي هو واحد من اثنين، إما أحمق مجنون وإما مناضل يؤمن بما يفعله.
ولعلي أقول هنا بأنني كنت أرى أن الفرار من مواجهة التحديات هو خيانة لكل ما أؤمن به، رغم إدراكي بأنني كنت وحيدا وربما مكروها من عدد من أصحاب النفوذ ممن فشلوا في تحجيمي أو تطويعي، منهم من كان يجاهر بكراهيته ومعظمهم كان يخفيها. لكنني كنت أقول لنفسي بأن هذا هو قدري، وأعتقد أن المولى كان يحيطني برعايته لأنني كنت أبتغي وجهه وخدمة الوطن.
وأعترف في هذه القضية بالذات أنني كنت أخشى أن يصاب الرئيس بنوع من العقدة إذا قبلت التأجيل، في حين أن إصراري، مع ما فيه من مجازفة، جعلته يحس بثقتي المطلقة فيه، وبالتالي ازدادت ثقته في نفسه. ولقد قال كثيرون فيما بعد أن هذا الحوار المتلفز كان استفتاء ثانيا نجح فيه الرئيس.

واستدعاني الرئيس ثانية بعد أن خرج الوزير من عنده، وسألني بهدوء ..."..ماذا قررت ؟" وقلت له وأنا أبذل جهدا كبيرا للتحكم في توتري : " القرار هو قرارك، ولكنني أرى أن نستكمل عملنا"، وأجابني بقوة وثقة رفعت من معنوياتي : "هيا ... بسم الله"، فاصطحبته إلى مكان التسجيل وأنا أتحكم في توتري وأخفي قلقي وقدمت له الصحفيين، ثم جلس حيث كان يجب أن يجلس، وعلى يمينه جلس كافادا ومساعداه، وجلست أنا وحمداني في المكان المُحدد.

وبدأ التسجيل، وكنت أحس بأن ضربات قلبي تتسارع وتعلو، بحيث كدت أتصور أن صوتها سيطغى على صوت الحوار الدائر بين الرئيس والصحفيين.

وكان الرئيس رائعا في استيعابه لكل النقاط، وكان السؤال يطرح بالفرنسية وبمجرد انتهائه يجيب الرئيس بالعربية، ويتابع الصحفيون الإجابة بالفرنسية عبر سماعة الإذن المعدة لذلك.

وبعد انتهاء التسجيل ودع الرئيس الصحفيين، وقدمت له مدير الإذاعة الذي قام بالترجمة ويرجع له فضل كبير في نجاح العملية فحياه وشكره، كما قدمت له الأخ أحمد بو حيرد، المشرف الفني على التسجيل، والذي مكنني من التحكم في كل الجوانب التقنية فشكره أيضا كما حيا التقنيين الجزائريين.

ورافقت الرئيس إلى مكتبه ولم أتمالك نفسي فاندفعت نحوه بمجرد جلوسه على الأريكة لأُقبله، ولعله فوجئ، ولكنه ابتسم قائلا.."مرت الأمور كما تريد" .. وقلت .."بل خيرا مما كنت أريد".

وكانت الساعة تقترب من وقت الغداء، فعدت لقاعة التسجيل لأعرض على "كافادا" التوجه إلى الفندق للراحة، على أن نلتقي في حدود السادسة مساء في دار التلفزة لنفحص التسجيل.

وبمجرد خروجه وزميليه أسرعت وحدي إلى الاستوديو في شارع الشهداء حيث راجعت التسجيل في نحو ساعتين ونصف، وقمت بإعداد نسخة جديدة حذفت منها ما لم يرضني، وساعدني على إخفاء عملية المونتاج، التي قمت بها

عمدا في أضيق الحدود، اتفاقي المسبق مع الفنيين على طريقة التصوير، بحيث لا يبدو أي حذف لأي جملة أو صورة، والواقع أن الفضل في الصورة الجيدة التي ظهر بها التسجيل في صورته النهائية يرجع لمجموع التقنيين الذين فهموا تماما ما أريده وعاونوني على تحقيقه.

ثم عدت مرة أخرى للتلفزة قبل السادسة لاستقبال الصحفيين الفرنسيين، واطلعت معهم للمرة الأولى، رسميا، على التسجيل، وأعطيت موافقتي عليه بتحفظ، موجها اللوم علنا للتقنيين الجزائريين على بعض الهنات، التي قلت أنني أجد نفسي مضطرا لقبولها حتى لا يفقد التسجيل صدقيته.

وكان كافادا يُتابعني بنظراته وهو لا يعرف هل أنا ممثل ناجح أو مسؤول خائف.

وعكفنا في نفس الليلة على إعداد الترجمة النهائية لنص الحوار اعتمادا على تسجيلات الترجمة الفورية التي قام بها محمد العيد، ولكن بإعادة صياغة بعض الجمل، وكان الأخ مصطفى عبد الرحيم، المستشار بالرئاسة آنذاك، عونا كبيرا في إتمام المهمة وإعداد نص الجمل التي ستكتب بالفرنسية أسفل الشاشة، وأرسلت محمد العيد شخصيا إلى باريس ليشرف على العمل.

وأعلنت التلفزة الفرنسية عن إجراء الحديث مع الرئيس الجزائري وعن اعتزامها بثه في نهاية الأسبوع، وقامت ضجة في الأوساط اليمينية بفرنسا، كانت في حد ذاتها أحسن دعاية للعملية كلها.

وتعمدتُ أن تبث التلفزة الجزائرية نفس النسخة الفرنسية للحديث، بالمقدمة التي تحمل شعار القناة الفرنسية الثالثة، والتي رفضتُ، بتواضع كاذب، أن تكتب فيها أسماء الفنيين الجزائريين من مصورين وتقنيين، ضمانا لمصداقية العمل كله، وهو ما تقبله الفنيون الجزائريون بتفهم رائع.

وبالطبع كانت هناك الترجمة الفرنسية أسفل الشريط، والتي كانت فرصة لبعض المتشدقين لكي يعيبوا عليّ عدم بث النسخة الجزائرية للحديث، بدلا من بث النسخة الفرنسية، وبالطبع فقد تركتهم يقولون ما يريدون قوله بدون تعليق، وربما كنت أتلذذ بغبائهم، لأنهم لم يدركوا، وهم يدعون الخبرة الإعلامية، أن النقائص التي يشيرون لها كلها كانت ضرورية لتحقيق المصداقية، ولأنهم تصوروا أنني لم أفهم أن مواقفهم السلبية كانت تعبيرا عن خيبة أملهم، نتيجة لنجاح العملية، وهو آخر ما كانوا يرجونه لها.

والواقع أن الاستجواب حقق نجاحا فاق ما كنت أتوقعه.

وكان فضل النجاح الأول يعود للرجل الذي استوعب العملية كلها واستجاب لمتطلباتها، وهو الرئيس نفسه، الذي أعطاني الفرصة لأقوم بواجبي في جو بعيد عن كل تشنج أو توتر، ومع إعطائي الشعور بأنه قادر على حمايتي من تجاوزات مراكز النفوذ.

ولعلي أتصور أن وزير الخارجية، بذكائه وثقافته، بدأ يراجع نفسه بالنسبة للموقف منّي، فلقد تأكد له أنني أعرف تماما حدود قدراتي، وأتحكم في العمل الذي أتولى مسؤوليته، وبدأت أحس بأنه بدأ يغير وجهة نظره في "المُعربين" من أمثالي، طبقا للتعبير القدحي الشائع.

لكن شخصية بن يحيى المتحفظة وربما المُتسلطة جعلته لا يُظهر، بشكل واضح، أي تغيير سريع في موقفه منّي، خصوصا أمام الرئيس، وهو ما سيتأكد لي فيما بعد خلال رحلة الرئيس الإفريقية.

وكانت صورة الاستجواب التليفيزيوني والطريقة التي ظهر بها الرئيس جزءا رئيسيا متكاملا مع مضمون الحوار، وكان فرصة لصك عبارات جديدة، أصبحت جزءا من الشخصية الجماهيرية للرئيس، وكان من تلك العبارات التي

أخذت وقتا كبيرا لنحتها، العبارة البسيطة التي يقول فيها الرئيس، إشارة للعلاقات الجزائرية الفرنسية، بأننا : "قلبنا الصفحة ولكننا لم نمزقها".[30]

وكان من بين العبارات المستعملة الإشارة إلى الإصلاحات بالتنبيه إلى أن هناك فرقا بين المراجعة والتراجع، ونحن نراجع ولا نتراجع، وكان من النقاط الجديدة التي استثارتها الأسئلة التطرق إلى قضية تحديد النسل للمرة الأولى في خطاب رئاسي، والتي أحسن الرئيس الرد عليها رغم أنها لم تكن ضمن الأسئلة التي قدمها الصحافيون الفرنسيون قبل إجراء الحديث.

(5)

أصبح شهر ديسمبر على الأبواب، وهو ما يعني الاستعداد لحدثين بالغي الأهمية، أولهما اجتماع الدورة الثانية للجنة المركزية، والثاني، بالترتيب الزمني، الاحتفال بالذكرى الأولى لوفاة الرئيس بو مدين، وكان لا بد من أن يكون الخط العام للنشاط هو تحقيق استمرارية روح المؤتمر الرابع للحزب الذي عقد تحت شعار الوفاء لمسيرة الرئيس الراحل.

والواقع أن معارضي ذلك النهج كانوا قد بدءوا يخرجون أنوفهم، وبعضهم كان يتصور أن إدانة الماضي ستجد هوى في نفس الرئيس الجديد، ومنهم من كانوا يتوهمون أو يعتقدون بأنهم لم يحصلوا، في العهد الماضي، على حقوقهم كاملة، بغض النظر عن مشروعية أو منطق تلك الحقوق.

وشمل هذا مدنيين وعسكريين على حد سواء، وربما كان من بين الأمثلة ضابط وطني زعم البعض أن الرئيس بو مدين حدد أعلى رتبة يمكن أن يصل لها، ولم تكن أعلى الرتب العسكرية آنذاك.

---

30 - كان الرئيس بو مدين قد قال في خطابه للترحيب بالرئيس الفرنسي جيسكارد ديستان بأن "الصفحة قد قلبت ونهائيا"، ولم يبد أن الجانب الفرنسي فهم ذلك التعبير. أنظر : أيام مع الرئيس بو مدين.
وأردت أن تكون كلمات الرئيس الشاذلي استكمالا لما قاله بو مدين وتوضيحا له، لأنه يؤكد منطق التواصل والاستمرارية والوفاء، مع استكمال ما يجب استكماله وتوضيح ما يستحق التوضيح.

وسنجد أيضا من بين عناصر المجموعة التي بدأت تقترب من الرئيس الجديد إطارات كانت على تناقض مع بعض شخصيات المرحلة الماضية، وسنجد في مجال الطاقة أو الصناعة أو الإدارة من يحملون كرها كبيرا لبعض المسؤولين الذين احتلوا مواقع في تلك النشاطات تحت رئاسة بو مدين.

وكان من بين هؤلاء من يعتقد أن طريقه للنفوذ هو تلويث ماضٍ لم يكن يملك فيه سلطة القرار، وكان أسوأ من شملتهم هذا الشريحة بعض من يُظن أنهم من رجال بو مدين أو المحسوبين عليه، لأنهم برزوا بفضله وارتقوا نتيجة لتشجيعه، ولكن المشاعر الذاتية الشريرة تغلبت عليهم.

وأذكر من بينهم رجلا أعطاه الرئيس الراحل حجما كبيرا من الثقة والدعم، رغم ما كان يروى عن سوء طباعه، قال لي حرفيا خلال الظروف الصعبة التي مررنا بها في ديسمبر الماضي : "سبب محنتنا هو ذلك الخبيث" .. وكان يقصد الرئيس الراحل الذي كان آنذاك في وضعية الغيبوبة.

وصعقت، ولم أعلق.

وهكذا كنت على يقين بأن كل ثناء على المرحلة الماضية سيثير توتر كثيرين، ربما لن يجرءوا في البداية على كشف كل أوراقهم، وسيلجئون إلى تمييع الأمر بالظهور بمظهر الحكمة، التي تقتضي أن نبتعد عن تأليه الأشخاص ونركز على تقديس المبادئ، وهي الصيغة التي ارتأوها.

غير أن أخطر ما عشناه في 1979 كان وجود حالة انتظار عام تولدت من يقين كثيرين في مستويات متعددة بأن الوضع الذي نتج عن المؤتمر الرابع هو وضع مؤقت، وكان عدد من كبار المسؤولين وراء هذه الأحاسيس، ورافقت عملية الانتظار تلك مناورات كثيرة قامت بها شخصيات أخذت تمارس عمليات استقطاب استعدادا لأي صراع قادم، وكان أذكى الأذكياء آنذاك هم الذين وظفوا ذكاءهم وعلاقاتهم بل وعلاقات أسرهم وزوجاتهم للحصول على منصب

دبلوماسي يبعدهم عن الساحة الداخلية، ويحميهم من الاضطرار إلى أخذ موقف مع هذا أو ضد ذاك [31].

واستحدثت مناصب دبلوماسية جديدة لتبرر تعيين هذا أو ذاك من الأقربين.

وكنت أتابع ما يحدث وأنا أوظف كل قدراتي وعلاقاتي لتدعيم الرئيس الجديد، إيمانا مني بأن الرئاسة القوية هي ضمان لقوة البلاد ولانسجام مسيرتها، وإن كنت أعترف أن ذلك لم يُمكني من تخصيص أي جهد لبعض العلاقات الاجتماعية مع مراكز القوة الجديدة، التي كانت عناصرها في شبه اجتماع مفتوح في المنازل الخاصة وفي بعض النوادي الخاصة جدا والسهرات المنزلية.

ولم أكن مستعدا لتحويل منزلي إلى قهوة أو منتدى ليلي.

وتضاعف حجم عملي بتزايد الالتزامات التي فرضها الوضع الجديد، وكنت أقضي يومي في متابعة النشاط اليومي للمديرية، دراسات وعلاقات مع الصحفيين وتغطية للنشاطات الرئاسية، وأهم من هذا .. متابعة الأخبار الوطنية والدولية بحيث لا يفوت الرئيس خبر واحد هام أو يبلغ به عن غير طريق المديرية المكلفة بذلك، وبذلت جهدا خاصا لتطوير النشرة اليومية بحيث تكون

---

31 - أحدهم فرّ من الجزائر لتفادي اتخاذ مواقف سياسية مع هذا الطرف أو ذاك قال لي في نهاية الثمانينيات ردا على تعليقي بأنه كان أذكانا جميعا : أنا أعرف قدرة الراقصة على الأداء برؤية الحركة الأولى من يديها، وكان يقصد بالراقصة ... الرئيس الشاذلي بن جديد، وهكذا قرر الفرار من الساحة وتوسل لرابح بيطاط رحمه الله لكي يتوسط له عند وزير الخارجية ليعين في سفارة جديدة، وهو ما اعترف به مؤخرا بعد طول إنكار وإن كان تناسى دور محمد الشريف مساعدية في مساعدته، كما تناسى أفضال الرئيس الراحل عليه فكان أول من كتب يهجو مسيرته، واستند في ذلك إلى كتابات فرنسية كان معروفا أنها متناقضة مع الطموحات الجزائرية، ككتابات ميتوت ولو فيغارو، ثم ادعى بعد عقود أنه كان يتخذ مواقف معارضة للرئيس الراحل في حين أن التعبير الوحيد الذي ينطبق عليه، فيما رأيناه منه وعرفناه عنه، هو قول الشاعر : ما قال لا إلا في تشهده، لولا تشهده لكانت لاؤه نعم.
وقد شكاه لي الرئيس الشاذلي عندما كان يحتل موقعا إعلاميا وقال لي أنه سحب أموالا من صندوق المؤسسة، وكان خطئي أنني دافعت عنه وحاولت أن أجد مبررا لما فعله، وهذا هو سر سخطه على من خلفه.

أقل حجما وأقل تعقيدا، وأدخلت مقتطفات بالفرنسية لأهم الأخبار[32]، وكانت لقاءات الرئيس مع القوى الحية للأمة ذات فائدة مزدوجة، فقد كان حضوري إلى جانب الرئيس، بجانب مظهر القوة الذي يمنحه لي، فرصة للاستماع إلى أهم انشغالات المجاهدين والفلاحين والعمال والنساء والشبيبة، وكانت الاتصالات والدراسات التي كانت تقوم بها مديرية الإعلام مادة خصبة تمكن من تقديم أفكار تكون من محاور اللقاء، لتؤكد، عبر استثمارها في البيان الذي يُعدّ عنه، اهتمام الرئيس بهذه الشريحة أو تلك وإدراكه لقضاياها ومشاكلها، مع حثها على بذل نشاط أكثر في الميدان الذي تتحمل فيه مسؤوليتها الوطنية، وتزايد الاهتمام بهذا عندما تأكد أن الرئيس يهتم بقراءة البلاغات التي تصدر عن لقاءاته، ويستعمل بعض معطياتها في أحاديثه، ومن هنا كانت ضرورة المتابعة، بدقة أكثر، للترجمة التي تعطيها وكالة الأنباء للبيانات الرئاسية، والتدخل أحيانا لتعديل تعبير معين لم يكن وفيا للنص بالعربية[33].

وعندما كنت أتحاور مع الرئيس حول تصوره للاحتفال بالذكرى لاحظت استعماله لتعبير : "ضرورة وجود تقاليد ثابتة، بحيث لا نفعل اليوم ما قد لا

32- لا يكفي أي ثناء للتعبير عن تقديري للشباب الذين كانوا عونا لي آنذاك، ولن أستطيع ذكر الجميع ولكنني أترحم اليوم على كل من يحيى ساكي وعلي وناس وسعيدي، وأسجل الجهود الكبيرة لكل من أحمد لو يحيى ومحمد الصالح حمريط وحاجي وعمر حطاب ومهدي حواس وبن عاشور وجبايلي وبو زومة وعمر تجيمي وكذلك عدد من السيدات الفضليات، وكان هناك عدد من الكسالى لا داعي لذكرهم لأن زملاءهم يعرفونهم.

33 – زار الجزائر يوما السيد جورج مارشيه الأمين العام للحزب الشيوعي الفرنسي في زيارة اتفق على أن تكون خاصة، واستقبله الرئيس في ختام زيارته ، وعبّر نص البلاغ عن ذلك،.

وبدلا من أن يستعمل الصحفي بالفرنسية تعبير : "في نهاية زيارته الخاصة" au terme de sa visite privée فضل، كما قال لي، استعمال تعبير "في إطار زيارته" dans le cadre de sa visite، وثرت عليه ثورة كبيرة من بين أسبابها أن يفهم الجميع أنني أعرف الفرق السياسي الشاسع بين التعبيرين، وبالطبع فقد أوقفت بث النص الفرنسي وفرضت إعادة الترجمة، واتهمني البعض بالتشدد ولكنني كنت أرى أن قضايا الدولة مهما قل شأنها يجب أن تؤخذ بكل جدية، ولهذا كنت شديد الحزم فيما يتعلق باحترام النصوص الصادرة عن رئاسة الجمهورية، لكنني كنت أطلب إلى المديرين ورؤساء التحرير الاتصال بي مسبقا في حالة وجود أي ملاحظات، وكنت أتقبل تلك الملاحظات، إذا كانت بالطبع سليمة، بصدر رحب وتشجيع للصحفيين، الذين كنت أرى فيهم مرآة لعملنا.

نستطيع فعله غداً"، ولم يكن أعطاني توجيهات في هذا الصدد من قبل، وتفاديا لأي محاولة قد يقصد بها البعض التأثير على نوعية الاحتفال، على طريقة صيحة الحق التي يُراد بها باطل، قلت بكل أمانة بأن الأمر ليس بالبساطة التي قد يبدو عليها، لأن هناك قضايا يجب أن تترك للزمن ليفعل معها فعله، ولا يمكن أن تكون هناك ثوابت مطلقة.

ولقد كان الاحتفال بذكرى وفاة الرئيس بو مدين يعكس إدراكا واعيا لما حدث في دول أخرى قيل لها أن عليها أن تستبدل الشرعية الدستورية بالشرعية الثورية فأضاعت الاثنين، في حين أن الشرعية التاريخية بالنسبة لنا، ولمدة جيل على الأقل، هي أساس للشرعية الدستورية، وتجاهلها هو قطع لجذور الأمة مع تاريخها، ولعل مرجعية الثورة الفرنسية بالنسبة للفرنسيين هي أقوى دليل.

وكان مشروع الكلمة الافتتاحية لاجتماع الدورة الثانية للجنة المركزية يتضمن إعلان الرئيس عن مقترحات تكريم الرئيس الراحل، وأعترف أنني استعملت حجما من المبالغة في تقديم الاقتراحات لم أندم عليه، لأن ما قَبِلَه الرئيس منها كان هو بالضبط ما كنت أريده، فقد اقترحت إطلاق اسم بو مدين على أربعة منجزات : مطار العاصمة وجامعة باب الزوار ونصف شارع جيش التحرير من المطار إلى تقاطع الحراش وأخيرا القاعة الكبرى لقصر الأمم في منطقة نادي الصنوبر، والتي عرفت بالرئيس الراحل وعرف بها، وقال الرئيس فلنكتف بالمطار والجامعة ونترك ما بقي لمناسبة أخرى.

واحتوى مشروع لكلمة الافتتاح أعدته مجموعة زيغود يوسف على عدد من النقاط أرسلها الرئيس إليّ لتطويرها وصياغتها، ومن بينها إجراءات مرحلية بزيادة الأجور بنسبة 15% للموظفين و 25% للمعلمين، وتعديل الحد الأدنى للأجور في القطاع الزراعي، وإقامة مؤسسات مركزية لرعاية الشيوخ والعجزة والمعوقين، برصيد قدره 50 مليون دينار جزائري، وحرصت على أن أراجع المعلومات مع وزير التخطيط الجديد، عبد الحميد إبراهيمي، الذي قيل

أنه كان يتلقى دعما كبيرا من قيادة الجيش، وهو الذي وقف وراء تطوير جهاز التخطيط من كتابة دولة إلى وزارة [34].

لكن ما كان يصلني من وزارة التخطيط كان يتسم أحيانا بقدر كبير من التسرع، ولهذا كنت أصر على أن أتلقى البيانات والأرقام كتابيا، وأرفض كل اتصال شفوي حول بنود تدخلات الرئيس.

وأذكر أنني تلقيت تقريرا عن حجم العائلات التي ستستفيد من كل تلك الإجراءات، وقال التقرير الوزاري أنها مليونا أسرة، وفي اتصال هاتفي مع وزير التخطيط قال لي بأن هناك خطأ مطبعيا، والصحيح أن الإجراءات ستمس مليوني مواطن، لا أسرة، وطلبت أن يأتيني التصحيح مكتوبا، لأن الخطأ فادح ويضاعف الرقم أكثر من مرة بشكل مضحك.

وقام الجهاز الحزبي بعمل هام ومفيد فيما يتعلق بإعداد بقية ملفات دورة اللجنة المركزية، وأرسلت للرئيس قائمة اللجان التي ستنبثق عن الدورة، مع تحديد أسماء رؤسائها ونواب الرؤساء والمقررين، وهو ما قلت عنه أنه تقليد مؤسف، وكان يمكن أن يكون إيجابيا لو كان الأمر مجرد اقتراح يطرح على الجمعية العامة للجنة المركزية ويمكن تعديله، وضم مكتب الدورة عبد الحميد مهري ومصطفى بللوصيف ومولود قاسم ومحمد سحنون، وكلهم أعضاء

---

34 - الطريف أنه ألغى وزارة التخطيط عندما أصبح رئيسا للحكومة، ثم غادر البلاد في بداية التسعينيات واستقر في بريطانيا وتخصص في الهجوم على الجنرالات، وكان على المستوى الشخصي رجلا فاضلا مهذبا، لكنه كان يتسم ، على المستوى السياسي، بقدر كبير من الحماقة ضد من يخالفونه الرأي، وأتصور أن خلفية العديد من تصرفاته كانت كرهه لعبد السلام بلعيد ولكل سياساته، ولم يكن عبد الحميد عضوا في اللجنة المركزية للحزب آنذاك، ولكنه سيدخلها في المؤتمر الاستثنائي، في حين كان كثيرون يرون أن هذا المؤتمر ليس مؤهلا لقضايا العضوية، التي يختص بها المؤتمر العادي، بالإضافة إلى أن المعني، رغم سابق جهاده، لم يكن مناضلا حزبيا، ولكن إرادة إدخال عبد الحميد إبراهيمي كانت طاغية، وأصبح هو العضو 200، ثم أدخل المكتب السياسي كعضو إضافي حتى المؤتمر الخامس، حيث أصبح عضوا أساسيا وتولى رئاسة الحكومة.
وقد أمر الرئيس بو تفليقة مؤخرا بصرف كل مستحقاته المالية كرئيس سابق للحكومة بغض النظر عن موقعه أو موقفه.

أساسيون في اللجنة، وثانيهم ينتمي للمؤسسة العسكرية، وهو مصطفى بللوصيف.

وتم إعداد "السيناريو" الذي يحدد كل كلمة وكل تصرف يقوم به الرئيس ابتداء من صعوده إلى المنصة، كما حدث تماما في الدورة الأولى.

واستعمل الرئيس بعض النقاط التي كانت موجودة في مشروع التدخل، لكنه لم يستعمل نقاطا أخرى كان من بينها تعبير يقول أن: "أعضاء اللجنة المركزية، بغض النظر عن مناصبهم التنفيذية، يتمتعون أثناء انعقاد الدورة بنفس الحقوق ويتحملون نفس الواجبات، .. بصراحة أكثر أقول بأن المناصب العليا تخلق حول البعض منا هالة وقد تعطي له هيبة معينة، ولكن هذا يجب أن يختفي في اجتماعات اللجنة المركزية، حتى لا نتسبب في تغييب الديموقراطية عن المداولات، بدافع الاحترام أو الرهبة، وقد يؤدي هذا إلى الخروج بقرارات وتوصيات لا يقتنع بها كل أعضاء القيادة السياسية، المطالبون بالسهر على تنفيذها"، ولم أعرف من الذي نصح الرئيس بحذف هذه الفكرة، لكنني كنت أعرف بعض الخلفيات، ومنها أن بعض أعضاء المكتب السياسي يرفضون منطق التعامل مع اللجنة المركزية كقيادة سياسية، وأظن، وبعض الظن فقط هو الإثم، أن من نصح بالحذف كان يعرف أن المقصلة السياسية ستسقط رؤوسا، ولا بد من ضمان ألا تكون هناك اعتراضات قوية ضد اقتراحات تتقدم بها شخصيات لامعة، لكن النقطة التي شعرت بالضيق لأن الرئيس لم يستعملها، ولم أفهم خلفية ذلك، كانت تتعلق بصغار التجار الذين قلت عنهم في اقتراحي أنهم "حلفاء للثورة".

وحاورت الرئيس قبل الاجتماع في قضية احتياجات المواطن وقلت له إن هناك الاحتياجات المادية ولكن هناك أيضا احتياجات نفسية يجب أن نلفت النظر إليها، وهي حسن استقبال المواطنين في الإدارات والمصالح العامة، وأجابني ضاحكا : "هل تريد أن نفرض الابتسامة على المواطن بمرسوم ؟"

وكانت هذه الدورة من أهم دورات اللجنة المركزية، ولا أعتقد أن المجال يسمح هنا باستعراض كل تفاصيلها، بالإضافة إلى أنني أفضل دائما أن أتناول القضايا التي كنت طرفا فيها بشكل أو بآخر، أو التي استثارت اهتمامي بتأثيرها على مجال عملي.

وأقول هنا أن البعض، ومنهم مسؤولون سامون، أخذ عليّ أنني لا أشير في مذكراتي إلى أحداث أخرى هامة عرفتها الساحة آنذاك، وكنت أدرك أن خلفية الاعتراض تكمن في أنني لم أشر إلى وجودهم أو نشاطاتهم بحيث بدا أنني تجاهلت وجودهم، وأعتقد أنهم، من الناحية الإنسانية، محقون في ذلك، لكنني قلت في البداية أنني أكتب مذكرات عن الأحداث التي عشتها شخصيا وأستعرض نشاطات من عملت إلى جانبهم أو كان لهم دور في دعمي وتسهيل مهمتي، وفي غير هذا فلست أرى نفسي مراسلا لوكالة أنباء، مكلفا باستعراض كل شيئ والإشارة لكل شخص والحديث عن كل واقعة.

وانتهت أشغال اللجنة لكن الشيئ الذي لاحظته، وسيستمر خلال كل الاجتماعات التي حضرتها، أنه في الوقت الذي كان كل منا ينتهز أي فرصة للخروج من القاعة وتحريك قدميه أو تدخين سيغارة أو الدردشة مع زميل، كان الوحيد الذي لا يغادر مقعده ابتداء من افتتاح الجلسة وحتى اختتامها كان الرئيس، وكان في هذا صورة للرئيس الراحل الذي لم يكن يغادر مكانه خلال اجتماعات الإطارات، إلا لاستقبال مبعوث خاص عند الضرورة.

وكان الرئيس الشاذلي، مثل سلفه، يأخذ قسطا من الراحة في الفيلا رقم (8) التي كان يستعملها الرئيس بو مدين، وهي الفيلا التي شهدت في 1975 لقاء شاه إيران وصدام حسين.

(6)

انتهت أشغال الدورة الثانية للجنة المركزية كالعادة بخطاب للرئيس قال فيه بأن عملية التقييم لم تكن كافية، ودافع عن إطارات الدولة قائلا بأن جوهر مشاكلنا يكمن في سرعة وتيرة التنمية، كما أكد على أن قضية الاختيار غير مطروحة وأن الميثاق الوطني هو مرجع الجميع.

وكان آخر نشاطات عام 1979 ويوم 27 ديسمبر على وجه التحديد توجه كل أعضاء اللجنة المركزية لمقبرة العالية، وبالطبع فقد صدر البلاغ عن الترحم بنفس النص المعتاد.

وانطلق عام 1980 بتبلور الملامح العامة لأسلوب العمل الذي ينسجم مع متطلبات الرئيس، وتركز العمل الداخلي على متابعة عملية مواصلة تطوير العمل في مديرية الإعلام وإعادة تنظيم النشرة مع تكبير حجم الحروف في النصوص العربية، وواصلت المجموعة المكلفة باستعراض الصحف الأجنبية تقديم ملخصات أكثر اختصارا ، أما قسم الصحافة الوطنية فقد كان يعد دراسات نقدية لما ينشر، كان الرئيس يتابعها باهتمام، وكان هذا يقترن بالطبع بمقتطفات وافية لبعض المقالات والتعليقات.

وتمكنت مجموعة النشاط الرئاسي بالمديرية من استيعاب مهمتها بالنسبة للزيارات الرسمية، وكنت في كل هذا أحتفظ لنفسي دائما بعملية اللمسات والرتوش الأخيرة.

لكن شيئا أساسيا لم أكن أسمح أن يقاسمني أعباءه أحد وهو التصريحات الرئاسية والخطب والبيانات، وكنت أرى ذلك أمرا لا يحتمل أن يشترك اثنان في معرفة أسراره.

وواصلتُ إعداد بلاغات المكتب السياسي طبقا للمعلومات التي كنت أتلقاها من الرئيس شخصيا، وكان وزير الإعلام يتكفل ببلاغات اجتماعات مجلس الوزراء، أما البلاغات التي تتعلق بالقضايا العسكرية فكانت غالبا تتم على شكل خبر مقتضب يملي الرئيس عليّ مضمونه.

وتم اصطياد مناسبات معينة لبث توجيهات للرئيس مقتبسة من الأفكار التي تتبلور خلال الحوار معه وذلك عبر وسائل غير تقليدية، ومن بينها نصوص الوثائق التذكارية لعمليات وضع الحجر الأساسي للإنجازات الجديدة، خصوصا في غياب المناسبات التي يلقي فيها الرئيس خطبا رسمية أو جماهيرية، وكانت فرصة لزرع عدد من الأفكار تحتويها النصوص، وتبث الصحف مضمونها وتكون مادة لتعليقاتها، وكان الهدف من هذا أن يكون للرئيس وجود يومي عبر الإعلام.

وكان هناك جانب آخر يفرض بذل الجهود الذهنية لاعتصار أفكار جديدة تصاغ في أبسط عبارات ممكنة، وهو أن الرئيس كان يقرأ تلك النصوص ويستوعب أفكارها ويستعملها في تدخلاته وتوجيهاته، ومن هنا لم يعد الأمر مجرد إعداد نصوص تعبر عن الواقع المعيش ولكن صياغة أفكار تقود إلى واقع مأمول، بما يؤدي إلى اتخاذ مواقف معينة في قضايا حيوية تستجيب لمطامح المواطنين وتعطيهم الشعور بأن الرجل يتابع اهتماماتهم، وبأن البساطة لا تتناقض مع العمق والنظرة البعيدة.

ويعكس هذا التصور إرادة ألا يكون المثقف ذيلا للسلطة وإنما طليعة لها، بغض النظر عن أن دوره يظل دورا كواليسيا لا يعرف به أحد، وهذا أهم ضمانات النجاح.

وكمثال، فقد كانت لقاءات الرئيس بالسلطات المحلية، سواء في عين المكان أو في اللقاءات العامة بالعاصمة، فرصة لترسيخ عدد من الأفكار كانت تعد على شكل نقاط مركزة قد يستكملها الرئيس على ضوء ما يرده من معلومات أو استيضاحات، ولكن الأفكار الجوهرية تظل دائما مزيجا من عمق المضمون وبساطة الطرح، وكان لهذا آثاره على الساحة [35].

35- كانت البيانات الصحفية التي أعدها عن لقاءات الرئيس تنشر في اليوم التالي في الصحافة الوطنية، ثم تجمع البيانات والتصريحات دوريا في كتيب يحمل عنوان "وثائق

وهكذا كان من بين ما قاله الرئيس في لقائه بالسلطات المحلية لولايات الجمهورية في يناير 1980، وبحضور منسق الحزب والوزير الأول:

- "إن نظرتنا للامركزية هي نظرة شمولية لا تقتصر على اللامركزية الإدارية بل تتعداها إلى لا مركزية الوحدات الاقتصادية، وهذا لضمان التحكم في التسيير والرقابة الفعالة".

- "محاربة الآفات الاجتماعية هي عملية شاملة ومستمرة وليست مجرد حملة مؤقتة"

- " إننا نؤمن بأن شعبا لا يحترم لغته الوطنية يفقد الاحترام، ونحن نؤمن بعروبتنا وإسلامنا واشتراكيتنا ونعمل على هذا الأساس".

وفي لقائه مع السلطات المحلية لولاية تلمسان في فبراير 1980 كان من بين ما قاله الرئيس :

- "من الضروري أن تكون القوانين التي تنظم سير العدالة متماشية مع نظامنا الاشتراكي ومع قيمنا العربية الإسلامية" وذكر بأنه "طلب مراجعة كل القوانين التي لا تتواءم مع اختياراتنا"

- "المستقبل لا يضمنه البترول ولكن الزراعة"

- "اللغة الوطنية هي تعبير عن الشخصية الوطنية"

- أؤكد للشعب الصحراوي دعم الجزائر لمواقفه النضالية من أجل حقه في تقرير مصيره".

إعلامية" على غرار ما كان يحدث مع الرئيس هواري بو مدين، ومع إحداث فرق رئيسي في الحجم الذي تضاءل إلى النصف ليكون مختلفا عن حجم المطبوعات التي كنا نصدرها للرئيس الراحل، وكان عنصر الاستمرارية بين المرحلتين هو اللون حيث أن كتيب الوثائق الإعلامية يطبع باللون النبيذي الغامق وكتيب الحوارات الإعلامية يُطبع باللون الأخضر وكتيب الخطب يُطبع باللون الأزرق أو الأسود، وتطبع الكتيبات في مطبعة الرئاسة بعد مراجعتي للنماذج النهائية وتوزع مجانا على الولايات (عبر وزارة الداخلية) وعلى المؤسسات (عبر وزارات الوصاية) وعلى السفارات (عبر الخارجية).

وكمثال أيضا، فقد شهدت بدايات العام وضع الحجر الأساسي لعدد من المباني السكنية، والذي يتميز بإعداد الوثيقة التذكارية التي يوقعها الرئيس ثم يقوم بإدخالها بنفسه في اسطوانة نحاسية، يضعها في نصب ترتفع عليه لوحة رخامية تشير إلى المناسبة.



تدشينات رئاسية

تدشينات رئاسية



الحجر الأساسي



زيارة تفقدية

وهذا النصب هو الذي يرمز له بالحجر الأساسي، الذي يصبح جزءا من بناء المؤسسة المعنية، وتوضع بجانبه أو بالقرب منه اللوحة الرخامية الدالة على تدشين الإنجاز عند إتمامه.

وكانت مصالح الرئاسة في الستينيات وبداية السبعينيات تكتفي غالبا بوضع مجموعة من الوثائق التذكارية التي تحتوي على معلومات تقنية تشير إلى نوعية الإنجاز وتشير لمن قام بوضع الحجر الأساسي أو التذكاري، وتحدد التاريخ (وهناك دول تضع كومة من الصحف اليومية مع الوثيقة التذكارية للحجر التذكاري، وهناك دول إسلامية تضع مصحفا).

وعندما تحملت مسؤوليتي الرئاسية في مطلع السبعينيات طورت محتوى الوثائق التذكارية، فصارت تحمل أفكارا وتوجيهات تكون مستمدة غالبا من خطب الرئيس أو توجيهاته للسلطات المحلية أو القوى الحية للأمة، بجانب المعلومات التقنية،وكان المحتوى ينشر في الصحف الوطنية باللغتين.

ولم يكن الرئيس بو مدين، بثقة أعتز بها، يطلع على المشاريع إلا عند توقيعه عليها.

ونفس الشيئ بالنسبة لكلمة الرئيس في السجلات التذكارية للزيارات أو للتدشينات الكبرى، وكان الرئيس يتابع النصوص المنشورة بدون تعليق، وهو ما يعني مباركة العمل، ولم يراجعني إلا مرة واحدة في وثيقة تذكارية لإنجاز ما في منطقة بو سفر في وهران، وكنت استعملت التسمية كما سمعتها في عين المكان، وسألني الرئيس بو مدين عما إذا كان الاسم بالسين أو بالصاد، وقلت له أنني أعددت النص بالسين، في حدود معرفتي[36].

36 - كان الرئيس بو مدين يهتم بأسماء المناطق، وأعتقد أنه كان يتلذذ أحيانا بجهلنا ببعض المعطيات، وأذكر يوما أنه سألني عن أصل اسم منطقة "بو طمبل" في الشرق الجزائري، واعترفت بأنني لا أعرف، فأجابني ضاحكا أن الاسم محرف عن الفرنسية، وأصله *Eau* potable" أي ماء صالح للشرب"، حيث كان هناك صنبور مياه نقية يلتقي عندها ويشرب منها المسافرون وسكان الخيام المجاورون، وتحول الموقع إلى منطقة سكنية.

وهكذا كانت فرصة الحجر التذكاري لمجمعات سكنية لإطلاق مجموعة من الأفكار التي ترسم الخلفية، وكان من أهمها[37] :

- حل قضية السكن يتطلب نظرة شاملة، يكون هدفها تلبية الحاجات المدنية والاجتماعية والثقافية للمواطن، وليس مجرد الاستجابة للحد الأدنى من تلك الاحتياجات، أي المأوى : "إن السكن ليس مجرد مكان للنوم" (..) "المواطن يقضي نصف حياته في مكان السكن، وهذا يتطلب دراسة التجارب الماضية والاتجاه إلى بناء مساكن يتمثل الطابع الجزائري في مبانيها"(..) "النظرة الاجتماعية لقضية السكن تستهدف خلق حياة اجتماعية خصبة وروابط إنسانية متينة والقضاء على الفردية والانعزالية".

وانعكست هذه الأفكار ومثيلاتها على كل التوجيهات التي أعطاها الرئيس في قضايا السكن، واتخذت النتائج أحيانا طابعا فولكلوريا، قام به البعض نفاقا لمجرد إرضاء الرئيس، كما حدث عند زيارة الرئيس لمنطقة أدرار، حيث رأى سوقا كبيرا بُني باستلهام الطابع المحلي، وأخذ يؤنب وزير السكن آنذاك على أسلوب البناء المستعمل في منطقة باب الزوار بالعاصمة، التي لم تكن حيا

---

37 – لم يدرك كثيرون أهمية هذه الأفكار البسيطة والعميقة إلا عندما بدأت فرنسا، التي صدرت لنا نموذجا مشوها للمساكن الشعبية، التي أسماها شعبنا عشش الدجاج Cages à poules تعيش مشاكل الأحياء الفقيرة، التي اصطلح على تسميتها Les cités des banlieues، والتي نشأت فيها أمراض اجتماعية ولدت نوعا من الأحقاد أدت إلى تصرفات عدوانية قام بها الشباب. وأضاعت الجزائر فرصة استثمار وجود المهندس المصري اللامع مصطفى موسى، الذي شيد قصر الأمم وفندق الأوراسي، لمجرد أن القائمين على شؤون البناء كانوا يتزعجون من كل إنجاز ينسب إلى المشرق العربي، وكانت الحاجة السريعة لبناء المساكن فرصة لم تحسن المؤسسات المعنية التصرف حيالها، إذ وقعت فريسة لأبناء المدرسة الفرنسية التي لم تحاول أن تستلهم الاحتياجات الحقيقية للمواطن الجزائري، وكانت فرصة لبعض المعماريين المغامرين لكي يجعلوا من بلادنا حقل تجارب لنماذج في البناء، نتجت عنها كوارث كبيرة، كبناء جامعة باب الزوار التي عهد بها إلى "ني ماير"، وهو مهندس مدينة برازيليا، فأقام مباني جامعية أقرب إلى حظائر الطائرات، وكبناء بعض المركبات السياحية التي افتقدت البساطة وعمدت إلى الضخامة المكلفة، وهو ما كنت هاجمته في بداية السبعينيات، وكان التحاقي بالرئاسة فرصة لأدعو للأفكار من موقع يسمح لي بتنفيذها. أنظر : انطباعات ـــ الجزء الثالث ـــ المؤسسة الوطنية للكتاب ـــ الجزائر 1985

سكنيا بقدر ما كانت محتشدا سكنيا، وفي الشهور التالية تم بناء سوق كبير في باب الزوار، كان صورة طبق الأصل من سوق أدرار، الذي يناسب الجو الصحرواي وينسجم مع مبانيه، ولكنه لا يتماشى بالضرورة مع جو العاصمة، واختار وزير السكن الذكي مكان بناء السوق ليكون على جانب الطريق التي يسلكها الرئيس عند توجهه إلى المطار أو عودته منه.

ولا أعتقد أن الأمر يحتاج إلى تعليق[38].

وفي الأسبوع الثاني من يناير أجرى الرئيس تعديلا حكوميا عين بموجبه الدكتور بو علام بن حمودة وزيرا للداخلية وحل محله في اللجنة الثقافية للحزب الدكتور أحمد طالب، الذي كان يشغل منصبا شرفيا هو الوزير المستشار برئاسة الجمهورية، وفهم أن الهدف كان إلغاء المنصب وبالتالي التخلص من الوزير المستشار الثاني وهو عبد العزيز بو تفليقة.

والغريب أن قرارا مشابها حدث في السبعينيات، وقيل أن بو تفليقة كان وراءه، وذلك عندما ألغي منصب وزير الدولة لدى الرئاسة والذي كان يشغله السيد شريف بلقاسم، وأنهي بذلك الدور السياسي للوزير بشكل غير مباشر، وإذا صح هذا فهو يفسر كراهية الثاني للأول، أو أحد الأسباب على الأقل، وعين إبراهيم براهمية خلفا لسيد أحمد غزالي في وزارة الري، وهو ما فهم كتحجيم لعبد السلام بلعيد الذي يعتبر غزالي من تلاميذه [39].

---

38 – هجر الوزير الجزائر خلال الفترة الدموية التي عاشتها واختار العمل في مؤسسة إقليمية في الخليج، وكان الرئيس يُشير له كالنتهازي.

39 – كان براهمية من ضباط جيش التحرير السابقين الذين وضعوا كل ثقلهم وراء الشاذلي بن جديد، وكان رأس الحربة في الهجوم على عبد السلام بلعيد، الذي قال له علنا في اجتماع اللجنة المركزية ..تلقاها يا صياد النعام"، وكان ممن فقدوا مناصبهم بنهاية الولاية الأولى للشاذلي ولقي جزاء سنمار، واستكان منذ إقالته لوضعية التقاعد المطلق تعبيرا عن خيبة أمله.

أما سيد أحمد غزالي، والذي كان معروفا بكفاءته وبأنه امبراطور السوناتراك، فكان مما أخذ عليه توزيع مذكرة على أعضاء اللجنة المركزية عن غير الطريق المعهود، ولم يحقق غزالي الشيئ الكثير في وزارته، وكان إنهاء مهامه الوزارية إشعارا له بضرورة تغيير الولاءات، وقد عين فيما بعد سفيرا في بلجيكا نتيجة لوساطات، وهو ما أعده لمنصب وزارة الخارجية التي لم ينجز فيها شيئا يُذكر، ثم عين رئيسا للحكومة، وأصبح معبرا عن التيار الذي أصبح يسمى التيار الاستئصالي، ثم عين سفيرا في فرنسا وظل شهورا طويلة ينتظر تقديم

وفي فبراير ارتجل الرئيس أول خطاب مطول له، وكان موفقا بشكل عام، واستوعب كل الأفكار التي وضعت تحت تصرفه في مذكرة مكتوبة، وأكد بأن : "قضية الصحراء لم تكن قضية شخصية بين بو مدين والحسن الثاني"، وكنت سعيدا لما قاله لأنني تابعت ما عرفته مصر بعد عبد الناصر عندما شجع السادات، مباشرة أو ضمنيا، الذين يحاولون نبش قبر الزعيم الراحل، وهو ما أثر سلبا على الشرعية التاريخية للنظام.

وقلت يوما للرئيس كلمات أعدت كتابتها عند عودتي لمنزلي وكانت كما يلي : ..

"إنني أعتز بعملي مع سي بو مدين (وكنت أستعمل سي عمدا) زهاء سبع سنوات، وإن كنت أقول بأنني لم أستفد شيئا من عملي معه كما استفاد الكثيرون ممن يزايدون اليوم عليه، وأقصد بالاستفادة ..الاستفادة المادية، وما زال مسكني هو نفس المسكن المتواضع، بل أستطيع أن أقول بأنني خسرت ماليا، فقد كان دخلي كطبيب نحو عشرة أضعاف دخلي كمستشار، وأقول هذا لمجرد أن أثبت لك أن القضية ليست مجرد ولاء لبو مدين أو وفاء له، وإنما هو احترام لمنطق الدولة ووفاء لك أنت شخصيا، وستجد الكثيرين ممن استفادوا من بو مدين على استعداد لمدحك ولعنه هو وتركته المُثقلة، كما يقولون، ولكنهم سيكونون أول من يهاجمك إذا تغيرت الأمور لسبب أو لآخر.."

وقلت له يوما : "أنت وريث بو مدين عن جدارة، وليس من حق أي فرد آخر أن يزعم بأنه وريث سياسي لنظام جوان 1965"، وبالتالي لا مجال لأي عقدة.

أوراق الاعتماد مما أساء لمكانته ولتاريخه، وحاول تكوين حزب سياسي ولكنه لم يستطع أن يكون عنصرا مؤثرا على الأحداث، وأخذ موقفا منددا بما كتبه مسؤوله الأول عبد السلام بلعيد الذي تناقض دائما مع التيار المناهض للانتماء العربي الإسلامي.

ويقول من يكرهونه أنه تجسيد حيّ لمبدأ "بيتر" (Le principe du Peters) الذي يعني أن هناك من الناس من يتفوقون في منصب معين ولكنهم يفشلون إذا رفع سقف مسؤولياتهم

وكان يقيني هو أن "الحفاظ على اسم بو مدين هو حفاظ على العمق التاريخي للسلطة، والذين يحاولون هدمه يستهدفون السلطة ككل"، ومعظم هؤلاء ممن لم يكن لهم دور يذكر في مسيرة الجزائر المستقلة أو جرى تهميشهم، عن حق أو عن افتراء، في السنوات الماضية، بدون أن ننسى شريحة هامة ممن جرى استيعابهم في صفوف المؤسسات الجزائرية ممن لم يكن لهم دور وطني يذكر أو كانوا ممن أسميتهم يوما : "الطلقاء"، إشارة إلى طلقاء مكة، وسيكون من بين هؤلاء من أحاط بهم أشخاص من بقايا الجزائر الفرنسية، كانت مؤهلاتهم هي ادعاؤهم بخبرة إدارية أو تقنية، منتهزين فرصة الخلط الذي يحدث في فكر بعض المجاهدين القدامى بين معرفة الفرنسية والتحكم في العلم والتقنية.

والواقع أن من خلفيات ما كنت أقوله اقتراب الأسبوع الأخير من فبراير، حيث أعد المناضلون في التلفزة، بدعم مني، حصة عن النفط وعملية التأميم التي قام بها بو مدين في 1971، ووضعت الرئيس في الصورة قبل بث البرنامج، لأنني كنت أعرف أن أهل الخير سيتطوعون لنقد البرنامج أمام الرئيس، وهو ما وصل يوما إلى حد القول بأن تأميم 1971 كان ناقصا لأنه لم يستهدف إلا واحدا وخمسين في المائة فقط، وكان هذا بالطبع في معرض الإساءة لبو مدين ولعبد السلام بلعيد، وأذكر أنني قلت لمن كان يروج لهذه الأقوال أن التأميم الجزئي كان عملا بالغ الذكاء، لأنه انتزع السيادة على الثروة الطبيعية الأساسية للبلاد وحافظ على الشراكة مع المؤسسات الأجنبية.

وتواصل انتهاز الفرصة التي تتيحها الأحجار التذكارية للمشاريع لوضع الملامح التفصيلية لشخصية الرئيس، وفي زيارة لقسنطينة يوم 6 فبراير وقع الرئيس وثيقة تذكارية لإنجاز معماري جاء فيها أن "الفن المعماري يجب أن يحظى باهتمام بالغ لأنه عنوان للشخصية الوطنية وللعمق الحضاري، ومن هنا فإن التقدم الذي يجب أن نحققه (...) يجب ألا يكون مبررا لتشييد بنايات ليست لها شخصية ولا تتلاءم مع الطابع الجزائري ومع الاحتياجات الاجتماعية

للمواطن الجزائري (...) وإذا كانت اللغة الوطنية هي أُساس الحفاظ على مقومات الشخصية الوطنية وترقيتها فإن المُحيط الذي يعيش فيه المواطن يتحمل مسؤولية كبيرة في تحقيق هذا الهدف".

واستقبل الرئيس في فبراير 1980 الصحافي اللبناني القومي المشهور الأستاذ فؤاد مطر، الذي كان يومها يكتب في مجلة المستقبل الصادرة في باريس تحت رئاسة نبيل خوري، وكان ذلك بهدف اختراق الساحة العربية إعلاميا، ثم استثمار النص بإعادة نشره باللغتين في الصحافة الجزائرية ليحقق الأهداف التي سبق أن أشرت لها.



الرئيس يستقبل الأستاذ فؤاد مطر

وتم إعداد النص النهائي للحوار مع الرئيس وبالتنسيق مع فؤاد.

وكان من أهم تصريحات الرئيس:

- كان جيش التحرير هو مدرستي العسكرية والسياسية.

- موقعي اليوم (..) يذكرني بشعارنا خلال الثورة : من يطلب المسؤولية خائن ومن يفر منها خائن.
- أثبت شعبنا أنه يكون في قمة وعيه وصلابته في الظروف الصعبة، وهو ما حدث أثناء مرض الرئيس بو مدين وإثر وفاته.
- أثبتت الأزمة صلابة مؤسساتنا.
- العامل الديني كان أساسيا في نجاح الثورة.
- في الجزائر ثورة لكننا لا نؤمن بتصدير الثورات.
- نحن وحدويون، ولكن الوحدة هي مثل الزواج، وليس هناك زواج ناجح على أساس العواطف وحدها.
- سبب خلافنا الرئيسي مع واشنطون هو دعمها المطلق لإسرائيل.
- حركة عدم الانحياز ضرورة لسلام العالم.

ويتوجه الرئيس إلى تلمسان في نهاية فبراير ثم يُصدر في بداية مارس النصوص الأساسية المتعلقة بقانون المُحاسبة، ويتواصل النشاط فيترأس في مارس اجتماعا ضم رؤساء أقسام المكتب السياسي بحضور منسق الحزب وعبد الملك بن حبيلص الأمين العام لرئاسة الجمهورية.

ثم يتوجه إلى باماكو للمشاركة في اجتماع للدول الصحراوية، ضم أيضا ليبيا وموريطانيا وتشاد والنيجر ومالي وغاب عنه المغرب بالطبع.

وتنشر الجريدة الرسمية في الأسبوع الثاني من مارس مرسوما رئاسيا يتضمن تسوية قضية المعاشات بالنسبة لقدامى رؤساء الدولة، وينص على منحهم أعلى مرتب يمنحه صندوق التقاعد الخاص بأعضاء القيادة السياسية، ويُمكن أن يعطى لهم عند الحاجة سكن عائلي، وينطبق نفس الأمر على رؤساء الحكومات السابقين وأعضاء القيادة السياسية، وأتصور أن هذا من أهم إنجازات

العهدة الأولى للرئيس الشاذلي لأنه حقق للبلاد نقلة نوعية وضعتها في مصاف الدول المتقدمة بالنسبة لهذا المجال.

وبعد أيام نشر الحوار الثاني الذي قام به فؤاد مطر، وهذه المرة كان للمجلة التي يُصدرها تحت اسم "الاقتصاد العربي"، ولم يكن لها وجود إعلامي كبير، ولكن المُهم كان نشر المحتوى داخل الوطن، وكان من بين عناصره إجابة على سؤال تم إعداده مع فؤاد تعتبر القطاع الخاص حليفا للثورة، يُساهم في التنمية الوطنية وفي تلبية حاجيات المواطن، ويقول الرئيس حرفيا : " نحن نشجع القطاع الخاص ونرى أن علينا حمايته حتى من نفسه حتى لا يتحول إلى قطاع مُستغِل".

وكنا في نفس هذا الوقت نتابع تطورات العلاقات بين واشنطن وطهران، حيث قطعت العلاقات بين البلدين في بداية الأسبوع الثاني من أبريل (في عهد الرئيس كارتر).

(7)

كان حجم النشاط الداخلي هائلا كما يرى المرء وكان هذا مبعثا لآمال شعبية كثيرة أدركت أن قيادتها تواصل العمل بدون كلل أو ملل لتحقيق الأهداف الكبرى لثورة نوفمبر، وكان الإعلام الجزائري، للأمانة، موصلا أمينا لكل تلك النشاطات التي كانت تثير حماس الصحفيين.

وكانت المؤتمرات الخارجية قد أعطت للرئيس تجربة هامة، سواء في مؤتمر القمة الإفريقي في مونروفيا أو مؤتمر عدم الانحياز في كوبا أو لقاء الدول الصحراوية في باماكو.

وكانت رحلة مالي في مارس 1980 قد ارتبطت بتصرف يعطي صورة عن التحالفات الجديدة، فقد أعطيتُ القائمة الرسمية لأعضاء الوفد كما وصلتني من التشريفات، وحدث أن كان اسمي فيها، كمستشار برئاسة الجمهورية، قبل

اسم ضابط بوزارة الدفاع، وبعد الوصول إلى باماكو عرفت أنه غضب، وهكذا أعطى مولود حمروش مباشرة لمندوب وكالة الأنباء الجزائرية قائمة جديدة لأعضاء الوفد، وُضع فيها اسمي بعد الضابط، وأتصور أن تلك كانت سقطة، فبغض النظر عن تباين حجم السلطات بين الضابط والمستشار برئاسة الجمهورية، ولحقيقة نفوذ وسلطة كل منهما في بلد نامٍ، فإن المستشار يوضع، بروتوكوليا، بعد الوزير وقبل المدير .وربما كانت التشريفات تفكر في التحالفات التي تنعكس بالفائدة على نشاطها وفعاليته، ولعلها رأت أن التحالف معي لم يكن ذا فائدة كبرى.

وبدأنا في الإعداد للزيارة الرسمية للوطن العربي.

والواقع أنني كنت أشعر بالقلق من كل رحلة خارجية، نتيجة لحجم التعتيم الذي كنت أعيشه، وكنت أضطر إلى القيام ببهلوانيات رهيبة لكيلا أكون خارج الصورة، خصوصا بعد أن تزايد التنسيق بين وزير الخارجية ومدير التشريفات، وكان طبيعيا أن يحاول الوزير استثمار علاقات مدير التشريفات مع المؤسسة العسكرية، وكان أملي ألاّ يكون على حساب التنسيق الذي تتطلبه مصلحة العمل وحماية الصورة الجماهيرية للرئيس.

وكان واضحا أن ذلك التعتيم على الناطق باسم الرئيس والمكلف بإعداد النصوص الصادرة عنه، يستهدف التقليل من فائدته وزيادة احتمال ارتكابه أخطاء سياسية تضعف من ثقة الرئيس، أو استثارته لخلق جو توتر يقنعه بضرورة استبعاد الشخص مصدر التوتر.

وهكذا كان المصدر الوحيد للقوة هو الصلة المباشرة مع رئيس الجمهورية.

واعتمدت مديرية الإعلام، في تصور أبعاد الرحلة، على الخبرة الشخصية والإمكانيات المُتاحة، وعلى الحجم المتواضع من الوثائق الذي تمكنت من جمعه، ولم نتلق تقريرا واحدا من وزارة الخارجية أو من المصالح المختصة،

ولم يحاول الوزير، وهو يعرف العبء الإعلامي الذي تحمله المديرية، خصوصا وهو وزير سابق للإعلام، إعطائنا أي معلومات يمكن أن تفيد، على الأقل، في توجيه الصحفيين إلى تسليط الأضواء على ما يخدم الهدف الذي يسافر الرئيس لتحقيقه.

أكثر من هذا، كنّا خلال الرحلة الطويلة نتلقى من سفاراتنا في عين المكان تقريرا بالتلكس عن الأخبار الوطنية والدولية، يُعدّ من ثلاث نسخ، يعطيها رئيس البعثة الدبلوماسية لوزيره، وكانت النسخة الأولى تعطى للرئيس ويحتفظ الوزير بالنسخة الثانية وتسلم النسخة الثالثة لمدير التشريفات الذي كان يقرأها أمامي بتلذذ واضح مع مدير الأمن الرئاسي.

وكثيرا ما كنت أستولي في الطائرة على نسخة الرئيس حتى لا أفاجأ بخبر معين يمكن أن يتساءل الرئيس حوله، وكانت العلاقات مع رجال الإعلام في البلدان التي نزورها فرصة للاستفادة من آخر المعلومات المتوفرة لديهم، خصوصا عندما تأكد لي أن المطلوب هو أن يبدو المسؤول عن الإعلام في صورة من تجاوزته الأحداث.

والأمر معقول عندما يتعلق الأمر بمحاولة الإساءة لشخص ما في إطار الصراع السياسي، ولكنه يصبح عملا إجراميا إذا كان هناك احتمال أن يرتكب رئيس الدولة خطأ ما نتيجة لمعلومة غير صحيحة أو رأي غير سديد يُقدم له، خصوصا خارج الوطن وتحت أضواء الصحافة الدولية.

ولست أحب أن أقول بأن البعض كان مستعدا لتشويه الرئيس إذا كان ذلك سيؤدي إلى الإضرار بأحد مساعديه، ولن أعطي الوصف الجدير بهذه التصرفات، احتراما لهذه السطور.

وكان عذابا رهيبا، ما زلت أشعر بوطأته اليوم وأنا أستعيد تفاصيله بعد نحو ربع قرن، وهو يبرز كيف أن حماقة التمسك بالسلطة وانتزاع النفوذ كانت تجعل البعض على استعداد للتضحية بقضايا جوهرية للتخلص من فرد واحد،

لكنه، في حد ذاته، يعطيني شعورا بالغرور لأنني لم أكن لقمة سائغة، ولأنني لم ألق بنفسي في فخ التحالفات الأفقية التي كانت ستكون، بشكل أو بآخر، على حساب الولاء الرأسي، وأيضا لأن حصاري كان يتطلب كل ذلك الجهد من قبل أكثر من مركز نفوذ.

ولا بد من العودة بالذاكرة إلى الشهور الأخيرة من السبعينيات لنتذكر أن المنطقة العربية كانت تعيش على وقع حدثين رئيسيين، أولهما توقيع الصلح المنفرد بين مصر وإسرائيل في كامب دافيد، الذي جاء كنتيجة منطقية لاتفاقية فك الاشتباك الثانية في منتصف السبعينيات، ثم لزيارة الرئيس أنور السادات إلى القدس المحتلة في نوفمبر 1977، وهكذا أصيب الوطن العربي بشرخ هائل، تكونت على إثره الجبهة القومية للصمود والتصدي في ديسمبر، بدعوة من العقيد القذافي وبمشاركة رؤساء الجزائر وسوريا واليمن الجنوبية ومنظمة التحرير الفلسطينية.



اختتام قمة الصمود في طرابلس

وعقد المؤتمر الثاني للجبهة القومية في دمشق وكان آخر المؤتمرات التي حضرها الرئيس بو مدين، وعقد المؤتمر الثالث في الجزائر برئاسة الرئيس الشاذلي والرابع والأخير في بنغازي.

وكان الحدث الثاني هو الثورة الإيرانية، حيث حقق الخميني انتصاره الكاسح على شاه إيران، الذي لم يجد مكانا في العالم يؤويه، بما في ذلك حليفه الرئيس، واشنطن.

وهكذا استقبلته مصر السادات، التي أخذت موقفا متناقضا مع الثورة الإيرانية وصل إلى حد إصدار فتاوى دينية ضدها[40].

وأغلقت سفارة إسرائيل في طهران، وأهديَ المقر لمنظمة التحرير الفلسطينية التي رفعت عليه العلم رباعي الألوان، الذي اصطلح على تسميته بالعلم العربي، وهو علم الثورة الفلسطينية.

وبدأ العالم العربي يسمع أخبارا استفزازية عن نية إيران في تصدير ثورتها، وكان العراق أعلى البلدان صوتا في التنديد بنوايا حكام طهران الجدد.

وفجأة خرج العراق بفكرة الميثاق القومي، الذي كان يضم ثمان نقاط، وكان جوهره التأكيد على التضامن العربي المطلق مع أي قطر عربي يتعرض لاعتداء بلد غير عربي، ووصل السيد طه ياسين لتقديم المشروع للجزائر، التي توجست منه خيفة إذ بدا أنه يحمل نزعة عرقية، حيث ينادي بالتضامن العربي

40- أنظر كتابات هيكل عن إيران، ومن بينها "مدافع آية الله" وإشارته للعلاقات المصرية الإيرانية خصوصا في "خريف الغضب"، ومن بين ما يقوله هيكل أن الرئيس السادات فسّر دعمه لشاه إيران بأنه الوحيد الذي كان يزود مصر بالبترول خلال حرب 1973، رغم أن العكس هو الصحيح لأنه كان يزود إسرائيل، في حين أن دولا عربية هي التي كانت تزود مصر ومن بينها الجزائر ، التي زودت مصر حتى بالغاز المنزلي.
ويروي مدير التشريفات السابق للرئيس بو مدين الأخ عبد المجيد أعلاهم رحمه الله في تسجيل متلفز، وكان يستعد للسفر إلى كوبا لدعم جهودها في تنظيم المؤتمر السادس لعدم الانحياز، أن بومدين كلفه بأن ينقل إلى الرئيس الكوبي فيديل كاسترو رسالة عن إيران مضمونها أن الولايات المتحدة لن تحرك أصبعا لإنقاذ الشاه.

ضد كل ما هو غير عربي، بالإضافة إلى أن في المواثيق العربية الحالية ما يكفي.

ونشرت الصحف الدولية التي يُمولها العراق نص الميثاق قبل أن يُوزع على رؤساء الدول، وأعلن أحد حكام الخليج مباركته للميثاق بدون نقاش أو حوار، وسارعت صحيفة الشعب الجزائري، بحسن نية، إلى الترحيب بالمشروع، ولُفت نظرُ مديرها إلى تسرعه بكل هدوء.

وقام الرئيس الشاذلي بأول زيارة رسمية له خارج الوطن ابتداء من 22 مارس، وكانت للوطن العربي، وهو اختيار يعود الفضل فيه أساسا للرئيس ولوزير خارجيته محمد بن يحيى، رحمه الله.

وكانت متابعة الأحداث في مرحلة الاستعداد لتنظيم زيارة الرئيس مصدر قلق متزايد، وكان السبب الحقيقي للقلق أن الأخبار التي تتوالى عبر أجهزة التلكس وتنشرها الصحف الوطنية والدولية لم تدفع وزارة الخارجية عندنا لتغيير الأسلوب القديم، وتكثيف كل الجهود لضمان نجاح زيارة الرئيس، بإشراك كل المعنيين برحلة الرئيس في التفكير والتخطيط ثم التنفيذ، لكن الرئيس تحدث معي في الأمر أكثر من مرة، ووضعته في صورة تصوري لكل الخلفيات والأبعاد، وكان اعتمادي الرئيسي على برقيات وكالة الأنباء وتحليل بنود الميثاق العراقي نفسه، والذي أحسست أنه إعداد للهجوم على إيران.

وكانت خطورة التضامن المطروح من العراق تكمن في أنه يستثير العرقيات في البلدان الإسلامية المجاورة للعالم العربي، وهو ما نحس به نحن في الجزائر ربما أكثر من الأخرين، حيث كل الدول الإسلامية الواقعة جنوبا هي دول غير عربية، وهي عمقنا الإسلامي الذي يجب أن نتمسك به.

وأتصور أن مصالح أخرى في الدولة، وربما في وزارة الدفاع، أمدت الرئيس بعناصر تحليلية لا تتناقض مع ما سمعه مني، وهو ما تأكد لي عندما أطلعني الرئيس على التحليل الذي أعدته وزارة الخارجية، وكان متفقا إلى حد

كبير مع الاستنتاجات التي وصلت إليها بالجهد الذاتي، مما أعطى كثيرين اليقين بأن الرئيس ينسق معي بشكل كامل، وبالتالي فقد أحسست بالقوة، وكنت أقول لنفسي وأنا أخوض هذا الصراع بأن الضعف هو أن يُحس الآخرون بأني ضعيف، وبالتالي فإن القوة هي أن يُحس الآخرون بأنني قوي، وهكذا رحت أعد عملي الإعلامي المرتبط برحلة الرئيس بدون أن ألقي بالا للتعتيم الاستفزازي الذي كان مفروضا عليّ.

وكان الجانب الحَرَكيّ من الإعداد الإعلامي قد أصبح عملا روتينيا لا يحتاج جهدا كبيرا، لأن تنظيم الوفد الإعلامي أصبح يتم بشكل آلي، بمجرد إعلام المُساعدين في المديرية.

لكن أهم القضايا التي كانت تشغل البال الاستعداد للتصريحات التي يمكن أن يدلي بها الرئيس، وإعداد ردود الفعل على كل الأسئلة الاستفزازية التي يمكن أن تطرح عليه في المناطق التي يصعب فيها التحكم في صحفيين، سوف يواجهون الرئيس بتعليمات حازمة من قياداتهم بأن ينتزعوا منه مباركة للميثاق القومي وتأييدا للموقف العراقي على حساب تعاطفنا مع طهران.

وكان المخرج بالغ البساطة، ففي حالة طرح أي سؤال حول الميثاق في غير العراق كان الاقتراح أن تكون الإجابة عامة من نوع: " إن كل ما يجمع الصف العربي هو أمر حيوي وجدير بالدراسة المعمقة لضمان الفعالية"، ويمكن أن تكون الإجابة في العراق على وجه التحديد بأن .."المشروع جيد وجدير بالدراسة"، وكان التصور هو أن التعامل مع الفكرة كمشروع إجهاض لمحاولة انتزاع المباركة المطلقة من رئيس الدولة، وقد تبدو تحفظا مؤدبا على بعض الجوانب.

وكان من الممكن في هذا الصدد التذكير خلال المحادثات بأن : "هناك كمّا كبيرا من القرارات العربية، بما فيها ميثاق الدفاع العربي المشترك، وهي كافية لردع كل عدوان".

ويجب التذكير هنا بأن مصر كانت خارج كل جهد عربي، وإن كنّا نحس، منذ إعلان جبهة الصمود، بأن هناك تنسيقا ما بين القاهرة وبغداد.

وكانت المحطة الأولى التي تم اختيارها هي سوريا، وكنت أعرف أن اللقاء مع جماهير دمشق ليس أمرا سهلا، خصوصا وهي تعرف بو مدين جيدا، وقد حملت سيارته في الستينيات ثم في السبعينيات، وتذكر خطبه ومواقفه، خصوصا في موسكو عام 1973، ثم في قمة الصمود الثانية.

وكان الرئيس الشاذلي قد التقى الرئيس حافظ الأسد مرتين منذ بداية ولايته، تمت الأولى خلال تشييع جنازة الرئيس الراحل، والثانية خلال احتفال الجزائر بثورة نوفمبر في العام التالي.

وبدأنا رحلتنا في الأسبوع الأخير من شهر مارس بقضية طريفة كانت لها أهميتها البالغة في تعرفي على أبعاد شخصية الرئيس، فقد كنت أتساءل خلال الرحلة ما إذا كان مدير التشريفات قد أبلغ الرئيس بتفاصيل الاستقبال في مطار دمشق، المحطة الأولى في الجولة العربية.

وقد كنت أذرع الطائرة جيئة وذهابا وأنا أبحث عن فرصة أتأكد فيها من أن الرئيس على علم بأسلوب استعراض حرس الشرف السوري الذي يعزف عادة موسيقى ثلاثية الإيقاع (تشبه الفالس) وتختلف عن الإيقاع المألوف لدينا، وجاءت الفرصة وأنا أمر، للمرة الثامنة أو التاسعة، أمام المائدة التي كان الرئيس يجلس إليها وبجواره الأخ محمد الصالح يحياوي وأمامه العقيد عبد الله بلهوشات، الذي ناداني ليسألني عن الفترة الزمنية المتبقية للوصول إلى دمشق.

ووقفت أمام منتصف المائدة متجها للعقيد بكل جسمي، وبحيث كان الرئيس خلفي من ناحية اليمين، وقلت له ردا على سؤاله بأننا سنصل في حدود نصف ساعة، ثم واصلت محاولا، بصوت عالٍ، شرح أسلوب السوريين في الاستقبال، والموسيقى المُستعملة والتي تختلف عن أسلوبنا.

وأجابني بلهوشات بغمغمة غير متكاملة، وعاجلته بإعادة شرح أسلوب استعراض حرس الشرف عند السوريين والشرقيين عموما، وقضية تحية العلم الموجود في وسط الفرقة التي تقدم التحية الشرفية و.....، ولكنه قاطعني بالقول ... "العرب دائما .." .. ولم يكمل جملته لأن الرئيس تدخل قائلا له بهدوء .. "يا عبد الله ... الدكتور يوجه الحديث لي وليس لك".

وهناك اتجهت له بكل جسمي واستكملت شرح الفكرة، التي لم أشعر أنه كان يعرفها.

ووصلنا إلى دمشق ومرت الأمور على أحسن ما يرام، وكان الرئيس قد استوعب النقاط التي تم إعدادها للحديث مع الصحفيين عند الوصول إلى دمشق، وعبر عنها ببساطة آسرة.

وكان موعدنا في اليوم التالي مباشرة للمشاركة في لقاء جماهيري في العاصمة السورية بمحضر الرئيس الأسد الذي سيلقي خطابا للترحيب بالزائر الكبير.

كان اللقاء في بلد عُرف بأنه قلب العروبة، وقد ألف رجالا طوال الباع في الخطابة، من بينهم الرئيس الأسد نفسه، وكانت لجماهير سوريا فرصة الاستماع للرئيس بو مدين، كما كان تدخله في مؤتمر قمة الصمود في سبتمبر 1978 حدثا لا تنساه القيادات السورية التي شاركت في المؤتمر.

وكان القرار الذكي أن يلتف الرئيس الشاذلي حول الجماهير ويأتيها من حيث لا تنتظر، وهكذا كانت النقاط التي تم إعدادها تتسم بالتواضع الكبير، وكان من بين ما قاله : "ما جئت هنا لأتكلم بل جئت لأعيش مع إخواني وأتعلم منهم دروس الصمود العربي الذي يتمثل في سوريا، وتاريخها كله تاريخ بطولات وتضحيات، وجئت لأؤكد لكم تمسكنا بالالتزامات التي قطعها على نفسه الرئيس الراحل بو مدين" ولم تكن الجماهير تنتظر هذا التواضع وهذه البساطة الأخوية من زعيم بلد عظيم مثل الجزائر، ولعلها كانت تتوقع خطابا

يستعرض ما قدم لسوريا من دعم أو يُعطي توجيهات ثورية تدعو لتحرير الأرض العربية السليبة، إلى آخر تلك الأدبيات التي برع فيها بعض الزعماء العرب..

وانفجرت الجموع في الملعب الرياضي بحماس هائل لعله تجاوز حماسها للرئيس الأسد، وأتصور أن الرئيس سُعد بحسن بتجاوب الجماهير الرائع مع كلماته، وإن كنت لاحظت من جانب العين أن منسق الحزب لم يكن سعيدا، وقال لي فيما بعد أن رئيس الجزائر ليس من حقه أن يقول كلاما كهذا، لكن صبحي فرحات، السينيمائي السوري المعروف، جاءني ليلا إلى الفندق والدموع في عينيه تأثرا بما قاله الشاذلي، ثم قال مستنكرا وهو يسبّ الدين كعادة الكثير من المشارقة : "أنتم تتعلمون منّا الصمود ؟ إنكم أنتم الذين نتعلم منهم كلّ شيئ"، إننا لسنا شيئا بجانبكم يا قمة الصمود والتصدي.

وأحسست أن الرئيس كسب الجولة أمام جماهير دمشق[41].

وزرنا القنيطرة واستُعمل أسلوب الوثائق التذكارية الذي ألفناه في الجزائر، وخطّ اسكندر الكلمات التي سيوقعها الرئيس في السجل التذكاري، والتي كان من بين ما جاء فيها : "إن ما شاهدته اليوم من تخريب وتدمير ذكرني بمعاناة شعبنا في الجزائر أثناء الاحتلال وخلال فترة الكفاح المُسلح".

وبعد سوريا ذهبنا إلى الأردن، وطبقا للتقاليد الأردنية قام الرئيس بري شجرة الشهيد، ووقع في السجل الذهبي على كلمات تقول: "باسم الشعب الجزائري الذي دفع عُشْر سُكانه من أجل الحرية أكتب هذه الكلمات لأحيي رفات شهيد عربي يرمز لملايين الشهداء"، كما وقع في إحدى القواعد العسكرية على السطور التي خطها عبد الحميد وتقول : "لقد عشت معكم لحظات رائعة،

---

41 – ألاحظ هنا أننا لا أقدم كل التفاصيل المتعلقة بهذه الزيارة وبمثيلاتها، وأكتفي بالتوقف عند المحطات التي أراها كافية لتصوير تلك المرحلة، معتمدا في أغلب الأحيان على ذاكرتي، وأحيانا على قصاصات وجدتها في وثائقي، وسيكون هذا شأني في باقي فصول الكتاب المرتبطة بهذه المرحلة.

وأؤكد لكم بأن الجيش الوطني الشعبي سليل جيش التحرير وصانع انتصار نوفمبر هو جزء من رصيد الأمة العربية القتالي وهو سندٌ لكل الطاقات العربية الرائدة."ونشرت الكلمات فيما بعد كتصريحات للرئيس.

بعد ذلك ذهبنا إلى العراق، وأحسست بأن اللقاء كان فاترا، يعكس خيبة أمل العراقيين مما تسرب إليهم من المواقف الجزائرية، وكان مقر إقامة الوفد المرافق للرئيس قصر السلام، وهو بناء ضخم من أربعة أدوار مخصص لإقامة الوفود الزائرة، وقد بنت الجزائر مثيلا له في الثمانينيات، في الحديقة الملحقة بقصر أميرة آنام، الذي أصبح اسمه "إقامة الميثاق" [42].

وكان القصر العراقي تحت حراسة مشددة، ولا يدخله إلا من هو مأذون له، وجاءني مندوب وكالة الأنباء الفرنسية، وهو عراقي ، ليطرح عليّ عددا من الأسئلة، كان من بينها سؤال يتعلق بجبهة الصمود والتصدي، وقلت له ببساطة أن الجبهة قامت بدورها في محاصرة مبادرة الرئيس أنور السادات، ثم سلمت الأمانة العربية لمؤتمر القمة العربية في بغداد عام 1978، ولست أدري ما الذي يمكن أن يطلب منها أكثر من ذلك ؟

وكنت أعرف أن هناك من أعضاء الجبهة من يريد إطالة عمر الجبهة، لأسباب إقليمية في نظري، لكنه، وفي حدود علمي، لم يُتخذ أي قرار جزائري نهائي في هذا الشأن.

وفي اليوم التالي جاءتني أصداء عن زوبعة كبرى أثارها حديثي، ارتجفت لها أسلاك الهاتف بين مقر الوفد الجزائري في بغداد ومقر وزارة الإعلام في

---

42 - كان القصر هو منفى أميرة أنام الفيتامية خلال الحكم الاستعماري، وتحول المبني الملحق بإقامة الميثاق إلى ناد مغلق لكبار مسؤولي الدولة المرتبطين بالرئاسة، ثم أصبح سكنا لمن لا يقيمون منهم بالعاصمة الجزائرية، وكانت تقام به بعض الدعوات الرئاسية في الفترة التي حول فيه قصر الشعب إلى ما سمي متحفا شعبيا، ثم استعاد قصر الشعب وضعه السيادي في عهد الرئيس زروال، وأعتز بالدور المتواضع الذي لعبته كتابتي في هذا المجال، وهو ما يجده قارئ "أيام مع الرئيس بو مدين". لكن إقامة الميثاق ظلت تحتضن أعضاء الوفود الرسمية.

الجزائر، وعلمت فيما بعد أن المُراسل بعث إلى المقر الرئيسي لوكالته في باريس برقية تقول بأن عضوا في الوفد الجزائري صرح له بأن جبهة الصمود ماتت ودفنت Le front est mort et enterré، ولست أريد أن أظلم الرجل، لكنني لم أقل فعلا تلك العبارات، وتصورتُ أنه خلط بيني وبين آخر قال له هذا الكلام، لكن ما حدث كان جديرا بالدراسة، فقد استفسرتُ رئيس القسم العربي لوكالة الأنباء الفرنسية Véronique DECODU فيرونيك ديكودو مراسلها عمن أدلى بهذا التصريح، فقال لها إنه فلان (أنا)، وكان تعليقها، كما نقل إليّ فيما بعد : "مُستحيل، إنه يعرف الملف جيدا"[43]، ثم أعادت الصياغة عندما عجزت عن الاتصال بي في بغداد، ليصبح النص بأن "الجبهة تعيش وضعية احتضار Moribond."

في تلك المرحلة كان وزير الإعلام والثقافة هو الأخ عبد الحميد مهري، فاتصل به وزير الخارجية طالبا تكذيب التعليق، بدون مراجعتي أو الاستفسار مني عمّا حدث، وهو ما يعني أنه أخذ كلام مراسل الوكالة كأمر مفروغ منه، على عكس الصحفية الفرنسية، وأبدى استياء واضحا أمام عدد من أعضاء الوفد، وكانت فرصة انتهزها البعض للغمز واللمز، والحديث مع بعضهم بصوت مرتفع وبأسلوب ساخر مستفز عن أولئك الذين يدلون بتصريحات.

ووضعتُ رئيس الدولة في الصورة، ولم يعلق على الأمر، ولا أعرف ماذا قال له وزير الخارجية، لكنني لم أسمع منه أي لوم أو تساءل أو استنكار.

وربما كانت المشكلة أنني استبقت الأحداث، ولكنني ما زلت، بعد كل هذه السنوات، على يقين من أن سبب الزوبعة هو أن المستشار الإعلامي للرئيس أعطى تصريحا صحفيا عن قضية دولية بدون استشارة وزير الخارجية، وهو ما أعترف هنا بأنه خطأ تنظيمي، لكنني لم أكن أملك القرار من سؤال عابر

---

43 - كانت "فيرونيك" هي نفسها التي غطت مرحلة مرض الرئيس بو مدين ثم وفاته، وكانت تعرف الوضعية الجزائرية ومواقف الجزائريين جيدا.

لمراسل صحفي متعللا بذريعة غير مقنعة، ومعروف أن قاعدة العمل الإعلامي تفترض بأن المكلف بشؤون الإعلام، وخصوصا في اللقاءات والمؤتمرات، مُعرّض في أي لحظة لتلقي الأسئلة، وعليه ألا يتردد في الإجابة عنها وألا يستمهل السائل ليبحث عن الإجابة عند الرئيس أو وزير الخارجية، الذي يفترض أن يُعدّ تقارير عن الموقف تجاه القضايا الهامة توضع تحت تصرف أعضاء الوفد، وفي مقدمتهم بالطبع المكلف بالشؤون الإعلامية.

لكن الأسلوب السائد في العديد من دول العالم الثالث هو أن المعلومات التي توجد تحت تصرف بعض مسؤولي الدولة أو مؤسساتها يتم التعامل معها وكأنها ملكية شخصية، ولا تعطى كلها أو جزء منها إلا للمُختارين، وانطلاقا من بيت الشعر المعروف .."ولا تبولُ، حاشاكم، إلا بمقدار".

وكان أكثر ما أثار ألمي في القضية كلها أن الصُحفيّة الأجنبية كانت أكثر تفهما وإدراكا من رفقاء مسيرة طويلة، تصرفوا وكأنهم فرحوا لما رأوه خطأ قاتلا ارتكبته، وهو لم يكن كذلك.

وبالطبع، فقد كنت أدرك بأن علاقاتي الطيبة بالصحافة الدولية تثير حنق كثيرين، خصوصا وأنها تجعل دوري بجانب الرئيس أكثر فائدة وأبعد أثرا، والمطلوب هو تعقيدي وإثارة حساسيات الرئيس ضدي، ولكن كل مشكلة كانت تدعم عندي إرادة التحدي، ولم تنجح المشاكل في إقناعي بتغيير أسلوبي واللجوء إلى التحالفات الأفقية، وقد فشلت محاولة تعقيدي هذه المرة، ولكنني أخذت منها درسا فيما يتعلق بعلاقاتي مع بعض المسؤولين، وسيثبت تطور الأحداث أن منهم من سيكون وراء كل شنآن عرفناه، حيث بدا أن الهدف كان خلق الفراغ حول الرئيس ثم الانفراد به بأي ثمن.

وتواصلت الرحلة، فبعد العراق ذهبنا إلى جدة، ثم إلى مكة لأداء مناسك العمرة، وفي الطريق، وكنا بملابس الإحرام، كنت في السيارة مع محمد الصالح يحياوي، وكان حديث طويل وعتاب مرير، وقلت له مخلصا : "أقول لك

للأمانة، ونحن على أرض مقدسة وبملابس إحرام تشبه الكفن، بأنني أعرف جيدا حدود الولاء وواجبات الصداقة ولا أخلط بينهما، وأنا أعرف أنني كتلك الحيوانات المؤهلة للانقراض لأنني لا أمارس السياسة بأخلاقيات أعرف أنها هي القانون السائد، وحتى لو مارستها بهذا الأسلوب فلن يكون ذلك مع الذين أقف معهم في نفس الخندق العقائدي والفكري".

ومرة أخرى يأتي ذكر وزارة الإعلام، وعرفت من يحياوي خلال الحديث أن هناك تفكيرا في تغيير وزاري، وفهمت أن وزارة الإعلام معنية بالتغيير.

وسألني عمن أراه، وقلت له بأمانة: "إنني أصلح المرشحين، ولكنني لا أريد هذا المنصب، لمجرد أنني أعتقد أن موقعي الحالي هو أكثر أهمية، للوطن وللثورة وللرئيس".

وكانت استنتاجي من الحديث الذي استكملناه معا عند الوصول إلى مكة، أن الرجل معبأ ضدي بشكل لم أكن أتصوره، وكان على يقين من أنني أوغر صدر الرئيس ضده، وهو ما لم يكن صحيحا على الإطلاق، ولسبب بسيط جدا هو أنني كنت أؤمن بأن ما يجمع بيني وبين محمد الصالح هو رباط استراتيجي قاعدته التمسك بالثوابت الوطنية كما تعلمتها، وكنت أريده أن يفهم أنه، إذا كان قد قال يوما كلمة خير في شخصي، فإن ذلك هو واجب النزاهة الفكرية، وهو أمر يشرفه أولا وقبل كل شيئ، لكنه لا يجعل مني رَجُلَه في المؤسسة التي أدين لها بالولاء السياسي والإداري، ولم يُرد أن يفهم أن السبب الحقيقي وراء سخط الرئيس عليه هو ما ينقل على لسانه، ولا أستطيع أن أجزم بأسلوب النقل ووسيلته.

وسعدتُ في مكة بالصلاة داخل الكعبة، وتفاديت سيارة يحياوي عند العودة، فلم أكن أريد أن أفسد الراحة النفسية والمعنوية التي كنت أحس بها بعد الصلاة داخل جدران الكعبة.

ثم زرنا اليمن والإمارات العربية وقطر والبحرين والكويت، وفي الإمارات حدث أمر طريف.

فالمشرق العربي لم يكن يعرف من قادة الثورة التحريرية بشكل عام إلا الرئيس الأسبق أحمد بن بله، الذي كانت معاناته بعد تغيير نظام الحكم موضع تأثر كل أصدقاء الجزائر الذين لم تتح لهم معرفة كل الحقائق، وعندما استعاد الرئيس أحمد بن بله حريته المطلقة استقبلته الإمارات العربية المتحدة، منطلقة من مبدأ استضافة الشخصيات التاريخية من مختلف المستويات، والذي حرصت عليه منذ قيامها، وهو ما كانت المملكة العربية السعودية قد بدأته، وأساءت جماعات واتجاهات معينة استثماره، وكان وراء الشنآن بين المملكة والعديد من الدول العربية، ومن بينها الجزائر.

وكانت المشكلة مع الرئيس بن بله أنه دفع للقيام بنشاط محموم لتصفية حساباته مع مرحلة بو مدين التي عزلته ثم همشته، وكان، من الناحية الإنسانية، على ألف حق، ولكنه كان مخطأ من الناحية السياسية، حيث أن سعيه نحو مشاركة جديدة في الحياة السياسية الجزائرية كان يفرض عليه حكمة وتبصرا والتزاما بقوله تعالى : "ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألاّ تعدلوا".

لكن الرئيس بن بله بدا متعجلا للانتقام، ولم يستوعب تاريخ فرنسا بعد الحرب العالمية الثانية، ليتذكر أن الجنرال دوغول أنتظر أكثر من عشر سنوات قبل أن يستدعيه الشعب الفرنسي لمواجهة انهيار الجمهورية الرابعة، نتيجة لانتصارات الثورة الجزائرية ولهزيمة العدوان الثلاثي على مصر.

واستثمر ذلك من أحاطوا به، وبعضهم كان يمثل اختراقات مؤكدة، وأرادوا أن يفسدوا بينه وبين خلف بو مدين، وكأنهم يقولون للشاذلي : "لقد أكرمت الرجل فأجابك بالإساءة لك"[44].

44- كنت أشرت لقصة نشر الخبر المتعلق بإنهاء الإجراءات الخاصة، وكان إنسانيا أن يكون بن بله متأثرا بمعاناته، ولكنني كنت أرى أن للرجل السياسي وللزعيم على وجه التحديد يفقد حقه في أن يحب ويكره، ولقد حدث أن الرئيس الأسبق كان ضحية نصائح خاطئة ممن

والواقع أن بعض تصريحات بن بله تجاوزت كل حد معقول، وبدا في بعضها حجم كبير من المبالغات كان كثيرون يدعون أن بعض أعضاء أسرته يقف وراءه، وكان عليّ بالطبع أن أخطر الرئيس الشاذلي بكل ممارسات الرئيس الأسبق، وكنت أشعر بالأسى والرجل يهديني أخطاءه على طبق من فضة، لأنني كنت أريده رصيدا للبلاد ضد انحرافات محتملة، وحليفا للرئيس ضد خصوم الانتماء، فهو رجل لا مجال للتشكيك في وطنيته أو في نزاهته، والصراع السياسي هو جزء من العمل السياسي وقد اجتهد وأصاب وأجتهد وأخطأ وله دائما أجر على اجتهاده[45].

وحدث التقيت يوما بعض أنصار بن بله في باريس، وكان معنا الدكتور محمد العربي الزبيري، وقلت لهم بكل أخوة: "هذا الرجل يمكن أن يكون رصيدا هائلا للبلاد، فحاولوا أن تقدموا له يد العون بالنصيحة المخلصة، وأنا أذكركم بأن الشارع الجزائري اليوم هو شارع "بو مدين" أحب من أحب وكره من كره، ومحاولة تلويث بو مدين ستنعكس سلبا على بن بله نفسه".

لكن ما استنتجته أنا كان آخرون أيضا قد استنتجوه، وكان الفارق هو أنهم كانوا يكرهون بن بله وبو مدين على حد سواء، وكانوا يريدون أن يضربوا

أرادوا استعماله كتجارة، وهكذا نرى أنه، على سبيل المثال، قام بزيارة قبر مصالي الحاج ولم يقم بزيارة مقبرة العالية وفيها عدد كبير من أضرحة قيادات الثورة الأوائل ومن بينهم عبان رمضان وبو مدين ثم فرحات عباس، ولم أكن أريد أن يبدو هذا نفورا من الترحم على قبر بومدين على وجه التحديد لأنه يتناقض مع إرادة المصالحة التي عبر عنها، لكن يبدو أن البعض كان يرسم له صورة غير حقيقية للواقع جعلته يتصور أن الشعب سيهب للالتفاف حوله، وهو ما كان ممكنا لو جلس في داره (وقد أعطيت له فيلا كبيرة) وتصرف بأسلوب الجنرال دوغول بعد 1946، وعندها كان يمكن أن يكون مرجعا وطنيا حتى لرئاسة الدولة نفسها، وهو ما حدث بالفعل في رئاسة عبد العزيز بو تفليقة ولكن بعد أن دفعت البلاد ثمنا غاليا نتيجة للحزازات القديمة.

وقلت له يوما في بيته وبعد أن هدأت الأمور أنني عملت مع الرئيس بو مدين نحو ثمان سنوات ولم أسمعه يوما يتناوله بكلمة مسيئة أو بتعبير جارح وهو ما أقوله له للأمانة التاريخية، وأجاب الرئيس بنبرة حزينة بأن "سي بو مدين" كان وطنيا، وللعلم فإنني، ومنذ 1964، لم أسمعه يوما يذكر اسم بو مدين بدون أن يسبقه بكلمة .."سي".

ولهذا قلت دائما أن كلا الرجلين يمثلان ثروة وطنية حقيقية وبغض النظر عن التناقضات السياسية الطبيعية.

[45] – أذكر هنا أنني كنت من أوائل الطلبة الذين التفوا حول بن بله في 1954 بالقاهرة.

الواحد بالآخر بعد وفاة بو مدين كما قاموا بالعمل نفسه خلال حياته، لأنهم ببساطة، يرفضون مشروع المجتمع الذي يمثله الاثنان.

وحدث، خلال زيارة الرئيس للإمارات، أن التقيت بعدد من الصحفيين العرب كانوا يتساءلون عن الوضعية الحالية للرئيس الجزائري الأسبق، الذين عرفنا أنه كان قد قام مؤخرا بزيارة للإمارات، ولم أرد الخوض في تفاصيل لا تهم غير الجزائريين، ولكن أحد الصحفيين تلفظ بتعبير رأيته مسيئا للرئيس بن بله، وبدون وعي انفجرت فيه قائلا بأن الرئيس أحمد بن بله هو رصيد جزائري نعتز به أيًا كانت الخلافات معه، ولا أقبل أن توجه له أي إساءة في حضوري، وهذا هو موقفي كجزائري وموقفي كمتحدث باسم الرئيس الجزائري، ثم غادرت الجمع غاضبا بأسلوب مقصود، وكان الذي حدث بعد ذلك أمرا عجيبا، فبينما لحق بي البعض ليعبروا لي عن تقديرهم لموقفي، نقل بعض جماعتنا إلى الرئيس الشاذلي بأنني أصبحت من جماعة بن بله، ثم عرفت بأن التفاصيل نقلت أيضا إلى الشيخ زايد، الذي كان يخشى أن يكون استقباله لبن بله مصدر استياء عند ضيفه، وهكذا كان سعيدا برد فعلي التلقائي إلى درجة أنه تحدث في الأمر مع الرئيس الشاذلي، وهو ما عرفته من بعض مساعديه، الذين انتهزت الفرصة لأقول لهم أن موقفي كان يعكس تعليمات الرئيس، رغم أن الرئيس لم يقل لي قبل ذلك كلمة واحدة عن أمر حدث فجأة، وأزعم أن هذه القضية كانت من أسباب تزايد الانسجام بين الشاذلي وزايد.

ثم زرنا الجمهورية العربية اليمنية (الشمالية) ثم جمهورية اليمن الديموقراطية (الجنوبية) والبحرين وقطر، حيث أدلى الرئيس بتصريح تيليفيزيوني قصير، ثم زرنا الكويت ومررنا بليبيا وتوقفنا في تونس، وقلت في البلاغ الذي صدر يومها أنها : "زيارة للاطمئنان على صحة الرئيس بو رقيبة"، لكيلا يسارع البعض بالتعامل معها إعلاميا كأنها كانت زيارة يقدم فيها الرئيس الجزائري عرضا عن مهمته للرئيس التونسي.



الرئيس الشاذلي في الامارات



الوفد الرئاسي في تونس ويظهر بن يحيى ويحياوي

واستقبل الرئيس في مطار قرطاج من قبل السيد محمد مزالي، الوزير الأول، ثم ذهبنا إلى قصر قرطاج، حيث كان الرئيس بو رقيبة وحرمه السيدة وسيلة في انتظار الرئيس، وتعانق الرئيسان، وبمجرد أن وقعت عينا بو رقيبة على يحياوي حتى مد يده له وهو يقول بصوت مرتفع ..".. أنا أعرف أنك لا تحبنا"، ثم واصل مصافحته لبقية أعضاء الوفد الذين انفجروا ضاحكين، بينما أسرعت السيدة وسيلة إلى منسق الحزب لتطيب خاطره، وتعلقت بذراعه لتمسح الآثار التي تركها الرئيس التونسي بتعليقه.

وعدنا إلى الجزائر وهناك، وكالعادة في كل الرحلات الرئاسية سهرت على إعداد فيلم كامل عن الزيارة بكل محطاتها، وأعددت فيلما قصيرا عن قيام الرئيس بأداء مناسك العمرة، كان له، كما سمعت، أثرا هائلا على المواطنين الجزائريين، وأقول هذا اليوم هنا لأن بعض من يعتبرون أنفسهم من المستنيرين نددوا يومها بما رأوه استعمالا للدين لأهداف سياسية، ورأوا في كاتب السطور رمزا للرجعية والظلامية الخ الخ.

وبعد العودة إلى الجزائر عدنا إلى ليبيا ثانية للمشاركة في اجتماع لجبهة الصمود، وكان الهدف هذه المرة تهدئة الصراع الناشب بين العقيد القدافي والمقاومة الفلسطينية.

وفوجئت بالعقيد القذافي يسألني في وسط الاجتماع وعلى مسمع من الجميع عمّا إذا كانت العمليات التي قامت بها مجموعتنا، والتي أدت إلى واقعة "إيسين" في 1957، حدثت على التراب الليبي أو على التراب الجزائري، وأجبته بسرعة، بعد أن اختلست نظرة إلى الرئيس الشاذلي لأستأذنه في الرد: نحن لم نخرج من بلادنا لنحارب في أراضي الغير [46].

46 – كالعادة كنت وضعت الرئيس في صورة كل تعاملاتي مع للبلد المضيف، ويجد القارئ جوانب من هذا خصوصا في كتاب " أيام مع الرئيس بو مدين (موفم – الجزائر).

والتفت العقيد بسرعة إلى الزعيم الفلسطيني ياسر عرفات وركز عليه نظراته، وعندها فهمت خلفية السؤال، لكنني لم أكن أملك أن أفعل غير ما فعلت.

وأتذكر أن الوفد الفلسطيني تعرض لضغوط كثيرة تمكن أبو عمّار من احتوائها بذكاء ومقدرة.

وعدنا إلى الجزائر لنفاجأ بأول أزمة خطيرة يتعرض لها نظام الحكم بعد أحداث 1963، وأول اختبار لصلابة الرئيس الشاذلي.

وتأكد فيما بعد أن من أهم أسباب تفجير تلك الأزمة اختيار الوطن العربي لأول زيارة رسمية يقوم بها الرئيس الجزائر خارج الوطن.

صفحة بيضاء

الفصل الرابع

(1)

عاد الرئيس من زيارته إلى المشرق العربي أكثر ثقة بنفسه وأكثر تحكما في معطيات مهمته الجديدة، وبدأت مجموعة من الظواهر تفرض نفسها على جو العمل بعد العودة من الجولة العربية، وأعترف اليوم أن بعض تلك الظواهر كانت نُذُراً لم أفهم دلالاتها آنذاك كما ينبغي.

وكنت ألفت أن ألتقي بالرئيس مرة في اليوم الواحد على الأقل، وأحيانا أكثر من مرة، وأن أدخل مكتبه مباشرة وبدون المرور على مكتب الأمين العام، تماما كما كنت أتصرف في عهد الرئيس الراحل، وأصبح معروفا أن هناك أفكارا جديدة تأخذ طريقها نحو التنفيذ بدون أن يكون سُقراط على علم بها، وكان واضحا أنه يتعامل مع التزاماته بسلبية غريبة كنت أشرت سابقا لبعضها.

وأعترف بأنني حاولت أن أكسب الرجل ولكنني كنت أصطدم بصخرة من الحجر الأصم، ربما لأننا لا ننتمي لنفس المدرسة ولا لنفس التجربة، وربما لأن هناك من كان يحرص على الانفراد به والتأثير عليه ومحاولة تمرير سياسته من خلاله، وهو، في تصوري، أمر طبيعي في غابة السلطة، وكان علي أن أتخذ للأمر عدته، وأنام مغمضا عينا واحدة فقط .

وواصل الرئيس استقطاب عدد من العسكريين الذين عملوا معه سابقا، وأتصور أن منطق الولاء كان هو الاعتبار الأول، وهو أمر منطقي، وهكذا وبعد تعيين العربي بلخير في منصب الأمين الدائم للمجلس الأعلى للأمن، وهو

أهم مناصب رئاسة الجمهورية، كلف الرئيس المقدم بحري نور الدين بن قرطبي (الذي كان يقف وراءه خلال جنازة الرئيس بو مدين) مسؤولا عن الوسائل العامة، وهو بالتالي الذي يمسك ميزانية الرئاسة، كما عُيّن اثنان من الرواد في سكرتارية الرئيس، وكان كل من يتم تعيينه يلجأ أساسا إلى تعيين مساعدين من العسكريين، نتيجة لطبيعة العمل وأسلوبه، وبالطبع فإن التنسيق سيكون أكثر مع العسكريين القدامى في الرئاسة، وهم أساسا مدير التشريفات ومعظم معاونيه ومدير الأمن وكل معاونيه.

ولاحظت، من بين الظواهر الجديدة، أن المناوبة الرئاسية في غياب الأمين العام تولاها الأمين الدائم للمجلس الأعلى للأمن، وعندما غاب الاثنان تولاها الرائد المكلف بالوسائل العامة، وذات مرة كان الرائد مدير التشريفات هو الذي تولى المناوبة، ولا أجزم بأن الرئيس كان صاحب القرار ولكن عسكرة الرئاسة بدأت تبرز شيئا فشيئا، خصوصا عندما بدأت عملية تعتيم جديدة على التقارير.

وشيئا فشيئا بدأت قطبية جديدة في البروز، وحاولت أن أظل بعيدا عن أي استقطاب، وربما كان هذا خطأ جسيما في التعامل مع ميكانيزمات السلطة إذا تذكرنا أن المحور العسكري كان بالضرورة مرتبطا بقيادة المؤسسة العسكرية، التي أصبح يقف على رأسها الأمين العام للوزارة العقيد قاصدي مرباح، بغض النظر عن أن هناك من كبار الضباط من كان رافضا لترقيته إلى هذا المستوى الذي يجعل منه وزيرا حقيقيا للدفاع، وهو ما سمعته شخصيا من العقيد محمد عطايلية.

واقترنت عودة الرئيس من زيارة المشرق العربي بأكبر هزة سياسية أصابت السلطة الجزائرية بعد أحداث 1963، وهي أحداث ما أطلق عليه بالربيع البربري[1].

1- أذكر بأن التسمية استلهمها الذين أطلقوها من تعبير "ربيع براغ"، حيث واجه المتظاهرون في تشيكوسلوفاكيا حشود الجيش السوفيتي "الأجنبي الدخيل المُحتل"، كما قيل وقتها، والإسقاط

وليس هذا مجال التعرض بالتفصيل لتلك الأحداث ولكنني أسجل بعض الملاحظات التي قد تساعد على فهم ما حدث، وبعضها كنت كتبت عنه منذ سنوات وسنوات.

وأول الملاحظات أن الأحداث وقعت إثر قيام الرئيس بزيارته للمشرق العربي، وقد يرى البعض في هذا الربط تجاوزا أو تزيدا وهذا من حقه، لكنني أذكر بأن صلب الاحتجاجات كانت الادعاءات باضطهاد الشخصية البربرية والمناطق البربرية لصالح الانتماء العربي، وكان من الشعارات التي ارتفعت فيما بعد شعار: "أعيدوا لنا جزائرنا"، والنداء موجه بالطبع للغزاةَ العرب(!) الذين يرى أصحاب النزعة البربرية أنهم احتلوا البلاد ومسخوا شخصيتها.

وثاني الملاحظات هو أن الأحداث وقعت في نفس المرحلة التي تزايدت فيها الانتقادات الموجهة إلى ممارسات منسق الحزب الأخ محمد الصالح يحياوي والمجموعة المحيطة به ومن بينهم بالطبع (وبغض النظر عن الحق والباطل في الانتقادات) بعض محافظي الحزب في الولايات، الذين أعطاهم نظام مكتب التنسيق الولائي سلطات سياسية جعلت الصراع يحتدم أحيانا بينهم وبعض الولاة [2].

والواقع أن الجزائر لم تعرف المشاكل البربرية إلا بعد الغزو الاستعماري، حيث أن الأغلبية العرقية لسكان الجزائر، بل وسكان مناطق شمال إفريقيا الواقعة غرب الدلتا المصري، كانت كلها تضم قبائل بربرية متعددة، احتضنت الدين الإسلامي في القرن السابع على يد عدد محدود من العرب الذين قاموا بالفتح، وإذا تخيلنا أن عدد السكان المحليين في الشمال الإفريقي كان في حدود خمسة أو ستة ملايين نسمة فإن كل من جاءوا من الشرق العربي لم يتجاوزوا

هنا واضح ومشبوه، خصوصا عندما طالب البعض في بداية الألفية الثالثة بسحب الدرك الوطني من المنطقة.

2- يضم مكتب التنسيق الولائي كلا من المحافظ الوطني للحزب، الذي يرأس المكتب، ووالي الولاية ورئيس المجلس الشعبي الولائي وقائد القطاع العسكري للولاية.

ثلاثمائة ألف (الفاتحون في البداية ثم عناصر الغزوة الهلالية بعد ذلك) وهكذا فإن الأغلبية العرقية هي بربرية تماما، وهي التي كانت تشكل الكتلة الرئيسية لجيش طارق بن زياد فاتح الأندلس.

وإذا تذكرنا أن الحرب بين الجزائريين والغزاة الأسبان دامت نحو ثلاثمائة سنة، يمكن أن نتخيل أن الإسبان كانوا ينتقمون من الفتح العربي للأندلس، الذي كان قائده طارق بن زياد أمازيغيا من الجزائر وكان معظم أفراد جيشه من بربر الشمال الإفريقي، وانقض الجيش الفرنسي بعد ذلك في 1830 لاحتلال الجزائر وهو يحلم بأن يستعيد سلطة روما، المحتل القديم، قبل المسيحية ثم بعدها.

ولعلي ألاحظ هنا، وقد استعملت تعبير "الفتح" بالنسبة للأندلس، بأن الغرب يعتبره غزوا (Conquête) لأن لغاته لا تستطيع ترجمة كلمة الفتح، فهي غير موجودة أساسا في كل تلك اللغات، حيث أن الفتح يحمل رسالة أما الغزو فهو يهدم وجودا أصيلا ليقيم على أنقاضه وجودا دخيلا.

ولقد كانت النزعة البربرية قنبلة موقوتة قامت المصالح الاستعمارية بإعدادها لتنفجر في الوقت المحدد، عبر زرع وجهة النظر التي تقدم سكان منطقة القبائل على وجه التحديد كزبدة السكان الأصليين الذين اضطهدهم "الغزو" العربي، وهناك كتابات فرنسية كثيرة تدعو إلى ضرورة الاهتمام المتميز بسكان المنطقة لتكون حصان طروادة بالنسبة للجزائر كلها[3].

3- للمزيد أنظر : "فرنسا والأطروحة البربرية" للدكتور أحمد بن نعمان، وهو من بربر الوسط (القبائل)، و"البربر عرب قدامى" للأستاذ عثمان سعدي، وهو من بربر الشرق الجزائري (الشاوية) وكذلك كتابات الأساتذة محمد علي خشيم (ليبيا) ومحمد علي مادون (سوريا) ومحمد العربلوي (تونس) وكتابات الميلي وهو من بربر الوسط والفصل عن الأمازيغية في كتابي : الجزائر - الحلم والكابوس (دار الفارابي - بيروت). وتورد الشروق العربي - 9 يوليو 2005 ثم البلاد 02 سبتمبر 2007) ما قاله الماريشال نييل وزير الحربية الفرنسي في عام 1864 من أنهم يقيمون "أمالا كبيرة على هذا الجنس البربري أكثر مما نقيم على الجنس الآخر"، وصدرت تعليمات فرنسية انطلاقا من الزعم بأن البربر مسلمون سطحيون تنص على أنه لا يجوز السماح بتعميق إسلامهم أو بتعريبهم عن طريق الشريعة

واعتمد التنظير الاستعماري الخلط المسموم بين البربرية والناطقين بالبربرية،وخلطا مسموما آخر بين العربية والبربرية، وكان من نتيجة هذا الخلط أن ترسخ مفهوم الأقلية البربرية والأغلبية العربية، وهو خطأ مؤكد سبقت الإشارة له، لأن الأغلبية الساحقة هي أغلبية ذات أصل بربري، بمن فيهم سكان مناطق كثيرة لا تعرف كلمة بربرية واحدة، وهذا بالإضافة إلى أن بعض الناطقين باللهجة البربرية هم عرب أقحاح جاءوا مع الفتح الإسلامي ثم عزلوا في المناطق النائية التي ذهبوا إليها لتعليم مبادئ الدين وانتهى الأمر بكثير منهم إلى نسيان لغتهم الأصلية لحساب اللغة المحلية.

ولأن سكان الجزائر قبل الاستعمار كانوا موزعين على قبائل متعددة كقبائل كتامة وصنهاجة وزواوة وزناتة الخ فإن التخطيط الاستعماري جعل وصف القبائل مقصورا على جهة واحدة بعد إغفال الإشارة للأصل، وهكذا قُصر استعمال تعبير "القبائـــل" على سكان المنطقة التي تضم اليـــوم ولايات تيزي وزو وبجاية والبويرة (جزئيا) ثم جرى ترسيخ الفكرة الخاطئة بأن "القبائل"، بالتعبير الذي اعتمده الاستعمار الفرنسي، هم البربر الأصليون الذين يشكلون أقلية تواجه المد العربي الكاسح، في حين أن أكبر تجمع للسكان الذين يستعملون اللغة البربرية هو تجمع الشاوية في الشرق الجزائري.

الإسلامية، كما صدرت تعليمات بالحفاظ على كل ما من شأنه أن يضمن للتمايز والتفرقة بين السهول العربية والجبال البربرية، ويكتب الجنرال بريمون، طبقا لنفس المصدر، بأن البربر من أصل أوروبي (وهو يعني بالطبع بربر منطقة معينة) ويقول الكابيتان لو غلاي بالحرف الواحد : علموا كل شيئ للبربر ما عدا العربية والإسلام. وانطلق هذا من إدعاء استعماري واضح يقول بأن الإسلام استلب من ديانة المسيح أرضا تدين لها الكنيسة الكاثوليكية بفكر أوغستان (وينسى المدعون بأن روما قضت على المسيحية الوطنية التي كانت تسير على هدى الأب دونا) وهو ما يتوازى مع ما يدعيه الكاردينال دو لافيجري من أن منطقة القبائل هي لبنان إفريقيا، ويجب تمسيح سكانها ليكونوا هم موارنة المستقبل، وكان رد منطقة القبائل أنها كانت أكثر المناطق ازدحاما بالزوايا القرآنية وخرج منها واحد من كبار النحاة هو ابن مُعطي الزولوي، وكانت زوايا القبائل بؤرا ثورية متميزة.

ولعبت الكنيسة الاستعمارية دورا كبيرا في خلق الشنآن بنفس منطق "فرّق تسُدْ"، وهذا في مواجهة تجاهل تام من النخب الجزائرية مفرنسة كانت أم معربة، وكانت منطقة القبائل الكبرى من المناطق التي عانت الأمرين خلال الفترة الاستعمارية نتيجة للعزلة وللظروف المعيشية السيئة، بحيث يسميها محمد حربي (Le sanctuaire de la pauvreté) "موطن البؤس" وهو ما يُفسر الحقيقة التي تقول بأن أغلبية هامة من مهاجري الجزائر إلى أوروبا وفرنسا على وجه التحديد هم من منطقة القبائل[4].

وكان هذا على وجه التحديد من خلفيات الأزمة التي قامت في الأربعينيات واصطلح على تسميتها بالأزمة البربرية، إذ رأى بعض المناضلين في الحركة الوطنية (حزب الشعب) أن القبائل غير ممثلين بصفة عادلة في المواقع القيادية للحركة فاتجهوا نحو تأسيس حركة تسمى حزب الشعب القبائلي (PPK) ولكن هذا ووجه بردود فعل رافضة من الوطنيين وعلى رأسهم رجال ينتمون إلى منطقة القبائل نفسها، عملوا على إجهاض الحركة الانفصالية، وكان من تداعيات الأزمة أن انتقلت قيادة المنظمة الخاصة (OS) من ابن منطقة القبائل، حسين آيت أحمد، الذي كان قد تولى قيادتها بعد مرض محمد بلوزداد، إلى أحمد بن بله، ولعل هذا يفسر حركة التمرد التي عرفتها منطقة القبائل بزعامة آيت أحمد ضد الدولة الجزائرية المستقلة برئاسة أحمد بن بله، وذلك في نفس المرحلة التي حدث فيها الغزو المغربي للأراضي الجزائرية، وهو الغزو الذي تسبب في توقف حركة التمرد القبائلية عندما أعلن قائدها العسكري العقيد موحاند أولحاج رفضه لمواصلة الحركة ووضع نفسه تحت تصرف الجيش الوطني الذي كان يتصدى للغزو، وأثبت بذلك وعيا وطنيا متميزا عرف عنه خلال الثورة بل وقبلها.

4- أنظر محمد حربي : جبهة التحرير الوطني السراب والحقيقة (FLN: Mirage et Réalité)

وحظيت المنطقة بأكثر من برنامج تنموي ابتداء من 1966 [5]، وكان أبناؤها يتحملون المسؤوليات الوطنية في كل المستويات وفي كل المناطق بدون تمييز أو إقصاء، ولكن مجموعات نشطة كانت تعمل لإغراق الأرض بالمواد الملتهبة، بادعاءات غير صحيحة عن التعسف الذي يلاقيه أبناؤها والتسلط الذي يتعرضون له، وأصبحت قضية البربرية عاملا في خلق تكتل رافض لبرنامج المجتمع الذي اعتمدته الجزائر المستقلة، والذي تستفيد منه المنطقة على غرار

---

5 - يجب أن نعترف هنا أن إحجام كثير منا عن مناقشة القضية مع أبناء المنطقة كان أحيانا لأننا لم نكن نحس بأن هناك مشكلة وأحيانا لأننا لم لن نكن نعرف انتماء الرفاق الجغرافي، جهلا منا أو تسترا من بعضهم، ولقد بقي مولود قاسم بيننا سنوات وسنوات بدون أن نعرف أنه من قبائل بجاية، وكان هناك من غيروا أسماءهم بما لا يشير إلى أصولهم لأسباب يجب أن تدرس جيدا، ومن بين هؤلاء مثلا عدد من كبار الفنانين من بينهم الحاج محمد العنقا وعبد الرحمن عزيز ومصطفى بديع وغيرهم رحمهم الله، لكن قضية الاضطهاد لم تكن موجودة في قاموس الجزائري وإن كان عادة يُحس بنوع من الريبة تجاه أفراد يتجمعون في شكل "غيطو" يوحي بعزلة اختيارية هدفها خلق تكتل مبني على الكراهية، لكن الجزائر كسلطة وكشعب لم تفرق بين جزائري وجزائري بل على العكس من ذلك حظيت المنطقة بأضعاف ما حظيت به مناطق أخرى وظلت القناة القبائلية منبرا فنيا وثقافيا طوال سنوات الاستقلال، وإن كان القائمين عليها رفضوا تماما في البداية فتح الباب أمام لهجات بربرية أخرى ولم يتغير ذلك إلا مؤخرا ولأسباب بدت تاكتيكية، وكان المشكل الحقيقي أن هناك من أراد أن يعتبر القبائلية مرادفا وحيدا للبربرية أو للأمازيغية، وهذا يُلغي أكبر تجمع بربري وهو الشاوية في الشرق، حيث برز أهم زعماء البربر من ماسينيسا إلى يو غرطة، ويلغي جانبا هاما من شعبنا وهو قبائل الطوارق، ويجب أن أذكر هنا بأن أبناء منطقة القبائل منتشرون في كل مناطق الوطن في حين أن هناك مناطق قبائلية لا ترحب بوجود من ينتمون إلى جهات أخرى.
وكان لأبناء منطقة القبائل وجود بارز في قيادات الثورة بدءا بكريم بلقاسم وديدوش مراد وحسين ايت أحمد ومرورا بعميروش وعبان رمضان ووصولا إلى موحاند أولحاج وحسن محيوز ومولود أومزيان، وإذا استعرضنا أسماء رجال أقوى مؤسسة في البلاد فإننا سوف نجد أن مسؤول أهم مديريات الدفاع وهي الأمن كان قبائليا هو قاصدي مرباح ومسؤول المحافظة السياسية قبائلي هو الهاشمي حجريس وكذلك قائد الطيران وهو السعيد ايت مسعودان ومدير الخدمات الاجتماعية عبد المجيد أوشيش ومدير الهندسة العسكرية رشيد ميدون وقائد المظليين خالد نزار ومدير مدرسة أبناء الشهداء عبد الحميد جودي وغيرهم كثيرون، وإذا استعرضنا أسماء الحكومات المتتالية فسنجد إسماعيل محروق، وهو مسيحي، وعبد السلام بلعيد وعلي يحيى عبد النور وبشير بو معزة والعربي سعدوني وسنجد بعد ذلك مولود قاسم وعلي أوبوزار ومحمد أبركان ثم خروبي وحاج يعلا وسليم سعدي والأخوين شيبان ثم قوميزيان وسيدي سعيد وعلي خديس وأخيرا وليس آخرا علي هارون ونايت جودي وعينوش وأرزقي ايزلي وعشرات آخرون لم تحتفظ الذاكرة بأسمائهم، بالإضافة إلى الأعداد الهامة في كل إدارات الدولة وجنوبا في حقول النفط، وكل هذا يؤكد أن مزاعم الاضطهاد كذبة كبرى نمت ككرة ثلج لأننا لم نقل الحقيقة لمواطنينا وأيضا لأن من بينهم قلة حركتها يد استعمارية وكانت تعمل لتجعل من المنطقة ما يُشبه طائرة مختطفة.

كل المناطق بل وقبلها أحيانا كثيرة. وكانت إلغاء ندوة شعرية للناشط البربري مولود معمري عود الثقاب الذي أشعل النار.

وكان المؤسف هو أن التعنت استعمل حيث كان يجب أن تكون المرونة، واستعملت الليونة حيث كان يجب أن يُستعمل الحزم، وامتزجت قلة الوفاء بافتعال مشاعر الاضطهاد، واشتعلت النار التي ما زالت آثارها حية بل ومتزايدة الحدة إلى يومنا هذا.

وبدأت الإشارة الإعلامية الأولى للأحداث في الأسبوع الثاني من ابريل بنص وزعته وكالة الأنباء الجزائرية يتحدث عن اضطرابات في كل من جامعتي الجزائر وتيزي وزو، ظاهرها الاهتمام بمظهر هام من مظاهر التراث الثقافي الوطني (..) وفي اليوم الثاني نقلت الصحف أنباء عن محاولة تشويش في الجامعتين نددت بها المنظمات الجماهيرية ولم تصدر بشأنها أي بلاغات إخبارية.

وأشار الرئيس للقضية في الملتقى الجهوي للتخطيط فقال إن طرح القضايا الوطنية في الشارع وبشكل فوضوي يُعقد الأمور أكثر مما يُساهم في حلها، ويخلق مشاكل هامشية نحن في غنىً عنها.

وقال الرئيس بأنه لا مجال لطرح القضية وكأنها هل نحن عرب أم لا، ودراسة ملف الثقافة يجب أن تخضع لنفس الأسلوب الذي استعمل في دراسة الملفات الأخرى، ولا مساومة في كل ما يُمكن أن يمس الوحدة الوطنية، ثم قال بوضوح : "لقد ضربنا الاستعمار على رأسه فإذا به يُحرك ذنبه.

وكان يوم 20 ابريل هو اليوم المُحدد لزيارة الرئيس سياكا ستفنس، رئيس جمهورية سيراليون التي ستحتضن القمة القادمة لمنظمة الوحدة الإفريقية، وطلب مني الرئيس، لمعرفتي باللغة الإنغليزية، أن أرافقه إلى عنابة مع وفد هام.

(2)

بدأت معرفتي بما عاشته منطقة القبائل في 20 أبريل بمجموعة متناثرة من المعلومات والإشاعات في اليوم التالي للأحداث، وكان المحور العام هو أن هناك توترا كبيرا تعيشه منطقة تيزي وزو، حيث قام متظاهرون انطلقوا من الجامعة بإحراق مؤسسات عمومية وبالاعتداء على رجال الأمن الذين حاولوا التصدي لهم، وغطت وكالة الأنباء الفرنسية الأحداث بتحيز واضح للمتظاهرين الذين قدمتهم كمدافعين عن قضية ثقافية جوهرها رفع الاضطهاد الواقع على الثقافة البربرية التي تعاني، طبقا لتعليقات الوكالة، والتي تعكس وجهة نظر التيار الفرانكوفيلي، من اضطهاد اللغة العربية.

وكانت حجة التظاهرات قيام سلطات الولاية بمنع محاضرة للكاتب البربري المعروف مولود معمري، (والغريب أنه ليس ممن ينتمون للمناطق البربرية) الذي كان قد أعطى قبل ذلك بنحو أسبوع حديثا لصحيفة "ليبيراسيون" اليسارية الفرنسية تحامل فيه على الانتماء الحضاري العربي الإسلامي.

وكان التعامل مع الأحداث على مستوى الرئاسة يتجه نحو التهدئة، وتكونت خلية أزمة ضمت أساسا الأمين الدائم للمجلس الأعلى للأمن ومسؤولي الأمن الرئيسيين، وكان كل مسؤولي الإعلام الوطني بمن فيهم وزير الإعلام والمكلف بالإعلام على مستوى الرئاسة والحزب غائبين عن اللجنة.

لكن الذين كانوا يحركون المتظاهرين أو من يقف وراءهم عرفوا بالاتجاه الرئاسي، عبر عناصرهم الموجودة في كل مكان وغالبا بحكم التعاطف الفرانكوفيلي، وهكذا اتجهوا نحو التصعيد الأحمق الذي وصل إلى درجة قيام بعض العناصر بحرق العلم الوطني وتحطيم مقبرة للشهداء.

وانعكس ذلك سلبا على الشارع الجزائري الذي بدأ يحس بأن تيارات معينة تحاول أن تفرض إرادتها على الدولة، التي بدت مائعة وسلبية، خوفا من تدهور الأوضاع إلى مواجهات دموية بين قوات الأمن والمتظاهرين، ولم يرتفع صوت واحد من عقلاء المنطقة لكي يحاول تهدئة الأوضاع، بمن فيهم المحسوبون على الفكر العربي الإسلامي.

السيد [illegible] زيد

[illegible] عديدة [illegible]
مع [illegible]
الاخبار [illegible] خاصة فيما يتعلق
[illegible] من الجزائريين [illegible]
[illegible]

رسالة مولود



ثنائي أوراق الاعتماد، مولود وعميمور

وعندما دخلتُ إلى مكتبي بعد الظهر وجدت ورقة بخط مدير التشريفات تبلغني تعليمات من الرئيس بضرورة التوجه إلى وزارة الإعلام لكي أتابع بنفسي مع وزيرها عملية التغطية الإعلامية، ولم يكن في السطور أي توجيه محدد (ولم أكن سمعت صوت الرئيس منذ بداية الأحداث وقررت أن أترك له المبادرة في استدعائي إن أراد) وفي الوزارة حضرت اجتماعا للوزير مع مسؤولي أجهزة الإعلام لم يكن ذا فائدة تذكر، إذ تركزت توجيهات الوزير على ترديد التعليمات التي يبدو أنها وصلته من خلية الأزمة، التي لم يكن يُشارك فيها أي مسؤول إعلامي.

ولأنني لم أكن أحمل تعليمات محددة فقد التزمت الصمت معظم الوقت، واحتفظت بآرائي لأقدمها في اليوم التالي للرئيس، الذي وجدته هادئا تماما ولم يكن يشعر بأي قلق من تطور الأحداث، وهو ما أدهشني لأن ما وصلني من بعض الإعلاميين كان بالغ الخطورة، وقيل لي أن المتظاهرين اقتحموا بيت المحافظ الوطني للحزب وأخرجوه وعائلته شبه عرايا من المنطقة ليعودوا إلى ...بلادهم (!).

وكان محور التصور يتركز على ما يلي.

– القضية البربرية قضية قديمة أسيئ التصرف معها من معظم الأطراف، وتهدئة الأمور مطلوبة ولكن على أساس عقلاني، وليس بالتستر والعمل على إغلاق الجرح الملوث بما فيه من صديد، لأنه سينفجر ثانية وربما بأسلوب أكثر خطورة.

– هناك من أبناء المنطقة شخصيات مشهود لها بالوطنية وهذه هي فرصتها للمساهمة في تهدئة الأوضاع، مع المحافظة على هيبة الدولة وعلى المؤسسات الاقتصادية في المنطقة.

وكان واضحا أن المتظاهرين تلقوا ضوءا أخضر من جهة ما، طمأنتهم بأنه لن يحدث تدخل حاسم من قبل قوات الأمن، فراحوا يصعدون الأوضاع

حتى أحسسنا بأن المطلوب هو سقوط ضحايا يستعملون لصب الزيت على النار، وقيل لي أن أحد أعضاء القيادات الحزبية من أبناء المنطقة توجه إليها للتهدئة (ولعله محمد الشريف خروبي) ولكن المتظاهرين رفضوا التجاوب معه. وكان مما تردد أن بعض القادة السابقين لجيش التحرير وأساتذة جامعيين من المنطقة حاولوا ركوب الموجة للتموقع سياسيا، والمهم أن لجنة الأزمة كانت مغلقة الأبواب فلم نعرف ماذا حدث على وجه التحديد، وفي الوقت المناسب الذي يمكن فيه أن نتعامل مع الأحداث عن معرفة بأبعادها وتفاصيلها وخلفياتها.

وكان أكثر ما يزعجني هو أن تنتشر أخبار ما حدث في منطقة القبائل بشكل قد يستفز جهات أخرى من الوطن ويدفعها إلى مواقف انتقامية من أبناء منطقة القبائل الذين ينتشرون عبر التراب الوطني، وهي كارثة بكل المعاني لأنها ستخلق جروحا لا تندمل، ومن حسن الحظ أن هذا لم يحدث.

وكان مما أسعدني أن معظم المواطنين حملوا مسؤولية الأحداث لعناصر معزولة لا تمثل كل سكان المنطقة، ولست أدري هل كان هذا الانطباع سليما أم أنه كان تناقضا مع الذين أحسوا بأن الدولة تواطأت مع العناصر المتطرفة.

وكانت البلاد تغلي بالإشاعات ولكن خلية الأزمة بقيت، بالنسبة لي على الأقل، موصدة الأبواب والنوافذ، وكان مما يزعجني ما أسمعه عن تصاعد النفور في أوساط شعبية تجاه منطقة حظيت، ربما أكثر من غيرها، برعاية خاصة منذ الاستقلال، وكان أخوف ما أخافه أن تحس شرائح شعبية كثيرة أن الدولة لا تستجيب إلا لمن يرفع ضدها راية العصيان.

وكان هناك زميل قديم يعمل معنا في رئاسة الجمهورية وينتمي للمنطقة، فحاولت أن أعرض عليه القيام بدراسة جماعية لمواجهة القضية سياسيا عن طريق توضيح المعطيات ومحاربة الأكاذيب التي لجأ إليها المحرضون لاستفزاز جماهير المنطقة، لكن تجاوبه معي كان فاترا لدرجة أثارت غيظي، ولأنني كنت أعرف أنه يكشف كل أوراقه إذا استفز فقد مارست معه نوعا من

الاستفزاز عندما رويت ما يقال من أن المنطقة تعيش تطورا متميزا بالنسبة للمناطق الأخرى بفضل أموال الشعب الجزائري كله ونتيجة لدعم الدولة المتواصل وليس بفضل إمكانياتها الهزيلة من زيت وتين، وكان رد فعله عدوانيا لدرجة لم أتوقعها، وسمعت منه سبابا كان كُفرا ضد العروبة والمعربين، وأكد لي ذلك أن كل ما كان يقوله عن التعريب لم يكن أكثر من غطاء براق يدعم به وجوده بجانب صاحب الفضل الأول عليه، وهو الرئيس الراحل، كما أكد ما كنت أسمعه من أنه كان يكره المعربين ولم يقل يوما كلمة خير في أي منهم، إن لم يكن العكس.

وفي هذا الجو بالذات صدر بلاغ من وزارة الإعلام يتناول قضايا المنطقة ويستعمل، للمرة الأولى، تعبير : "الثقافة البربرية"، وعندما تلقى مدير التلفزة الأخ المدني حواس البلاغ أحس بخطورته وبما يمكن أن يثيره، وبغض النظر عن الصحة الثقافية أو التاريخية للتعبير، واتفق مع مدير الشعب آنذاك الأخ محمد بو عرّوج وبمبادرة ذاتية، على استعمال تعبير "الثقافة الشعبية"، وباركت أنا ذلك الاختيار عندما أبلغت به.

وفي اليوم التالي اتصلت بوزير الإعلام الأستاذ عبد الحميد مهري لأقول له، ومتظاهرا بأنني لم أعرف حقيقة ما حدث، بأن المجاهد الناطقة بالفرنسية أخطأت في فهم بلاغه واستعملت تعبير الثقافة البربرية بدلا من الثقافة الشعبية، فأجابني بأن الخطأ جاء من الشعب وأن الأصل هو :"البربرية". وأعترف بأنني لم أفهم ما إذا كان ذلك اقتناعا ذاتيا أو رغبة في تهدئة الأوضاع أو رد فعلي انفعالي على ما تصور أنه تدخل في شؤون وزارته أو تعليمات من جهة ما، مع ملاحظة أن هناك من حاول أن يلقي تبعة تدهور الأوضاع على المسؤولين الحزبيين، وهناك من أشار، ظلما وتعسفا، ليحياوي.

وأمام حملة التشكيك في الرواية الرسمية للأحداث دعوت الصحفيين إلى اجتماع يُعقد بمقر الإذاعة والتلفزة الوطنية، ودعوت أيضا مدير الأمن العسكري

العقيد يزيد زرهوني ومدير الأمن الوطني السيد الهادي خديري (الذي اعتذر عن الحضور وأوفد أحد مساعديه)[6].

وكنت أريد أن يستمع الصحفيون إلى ردود واضحة على أسئلتهم من المسؤولين المباشرين عن متابعة الأحداث، وهو ما حدث وأظن أن الأغلبية كانت مقتنعة بما سمعته.

وكان من القضايا التي تزعجني أن الصفة التي فرضت نفسها عبر التاريخ الطويل، ثم بتأثير الوجود الاستعماري، هي صفة البربرية (Berbère)، وهي صفة محرفة عن الأصل الروماني "البربرية" (Barbare) وتعني التوحش، وكان لا بد أن يكون للرئيس دور تاريخي في تغيير الأمر.

وهكذا دعوت للاجتماع معه عددا من المثقفين الجزائريين من مناطق مختلفة من بينهم المرحوم عبد المجيد مزيان والأستاذين عثمان سعدي وموسى لقبال (وبعد استئذان الرئيس بالطبع، وأكثر من اجتماع تحضيري مع الأساتذة المعنيين) واستعرض الأساتذة كل المُعطيات المُتعلقة بالأمر، وانتهى اللقاء بأن طلب الرئيس مني الحرص على استعمال تعبير "الأمازيغية" إعلاميا والتركيز عليه حتى يُفرض استعماله بشكل آلي، وهو ما حدث بالفعل. وبالتالي فإن الفضل يعود للرئيس الشاذلي بن جديد في التخلص من التسمية الاستعمارية، وإن كانت العناصر الفرانكوفيلية المتعصبة ظلت حينا تتمسك بالصفة القديمة، التي أعطيت فيما بعد لقناة تليفزيونية تبث من فرنسا، ثم راح البعض اليوم يحتكر صفة الأمازيغية ويكاد يقصرها على منطقة جغرافية تضم ولايات ثلاث، أو على الشريحة الفرانكوفونية التي ينتمي لها، ويقصي من الصفة أمازيغيين حقيقيين يتمسكون بالحضارة العربية الإسلامية.

6- كنت اقترحت على مدير الأمن الوطني أن يسجل بالصوت والصورة كل الأحداث مع استجوابات لرجال الأمن والمواطنين الذي أصيبوا في المصادمات لتحديد المسؤوليات عن الاعتداءات، فأبدى شكه في جدوى هذه الأمور وإن كنت أعتقد أنه فعل ذلك لكنني لم أعرف ماذا كانت نهاية التسجيلات، وكيف استعملت.

وظلت تساؤلات كثيرة تطرح نفسها بإلحاح حول أحداث أبريل وهل كان من الممكن تفاديها، أم انه كان للبعض مصلحة في اندلاعها، وبالتالي يمكن أن يُطرح السؤال عمّا إذا كان من الممكن تفادي انزلاقاتها والتحكم في حدتها؟ ويمكن أن يبرز من خضم الأسئلة تساؤلات عمّا إذا كان النظام آنذاك قادرا على اتخاذ مواقف أكثر حزما تجاهها أم أنه كان من الضعف بحيث اضطر للمهادنة، وإذا كان قادرا فلماذا لم يفعل وإذا لم يكن قادرا فما هو تفسير عجزه والحزب الواحد ما زال في عنفوانه؟.

لكن الأمر المؤكد أن الأسباب الحقيقية لأزمة أبريل 1980 وتداعياتها وانعكاساتها لم تعالج جذريا في الوقت المُناسب، وظلت الجمرات كامنة تحت الرماد في انتظار لحظة مناسبة لإحداث شرخ نهائي في البناء الوطني، والذي حدث هو الشعور الذي ساد بضرورة التكتل حول رئيس الجمهورية، وهكذا يمكن ببعض المضاربة أن نقول بأن الأحداث كانت مفيدة للرئيس لأنها جعلت الأغلبية السياسية تقف وراءه، وكان هذا مقدمة لأحداث المرحلة القادمة.

وكانت الأسابيع التالية فرصة لتدخلات الرئيس العلنية التي تعالج نتائج الأحداث.

وللتذكير، فإن النقاط الأساسية للخطاب كانت تكتب بخط واضح جدا ومشكولٍ على شكل فقرات متتالية ومعزولة عن بعضها البعض لتحتل ثلثي الصفحة، ويُكتب في الهامش الأيمن جمل مختصرة جدا وبلون مختلف، وأحيانا باستعمال عبارات فرنسية، تشير إلى محتوى الفقرة المعنية، لتذكر الرئيس بالمحتوى الذي يكون عادة قد راجعه أكثر من مرة.

وكان علي، خلال إلقاء الرئيس لخطابه أن أقوم بكتابة النقاط التي تعرض لها والتي تسجلها بالتفصيل أجهزة التلفزة والإذاعة (وحدها) ولتوقيتها، لسهولة الرجوع إليها عند "المنتجة" فيما بعد، وإثر انتهاء الرئيس من خطابه كنت أقوم

بإعداد بلاغ مقتضب عن المحتوى من واقع النقاط المُكتوبة أو مما التقطته ذاكرتي، وفي الوقت الذي ينكب فيه بعض عناصر المديرية على استعراض التسجيل الصوتي وكتابة الخطاب حرفيا أتجه أنا إلى أستوديو التلفزة لأختار بنفسي الصورة النهائية التي سيقدم عليها الخطاب للمستمعين مستعينا بالتوقيت المكتوب لحسن الاختيار (وقد علمني درس ولاية سعيدة أن أتفادى البث المباشر وهو ما لم أنجح في تطبيقه مع الخطب الموجهة للأمة، ولم أصر على ذلك)

....

كان الرئيس بو مدين يستدعيني عند انتهاء خطابه المرتجل ليسألني عمّا أعتزم عمله وليشدد على حذف كل الجمل الفرنسية التي كان أحيانا يلجأ لها في بعض خطبه للتوضيح[7].

أما بالنسبة للرئيس الشاذلي فقد ألفت في البداية أن أتوجه له عند انتهائه من خطابه لأستأذنه فيما سوف أقوم بعمله، خصوصا عندما كنت أحس بأن عليّ أن أقترح الاكتفاء بتقديم ملخص عن الخطاب المُرتجل على أساس أنه سيُلقي بعد غد خطابا آخر، وكان الرئيس يتفهم بكل مودة ما أعرضه عليه ويؤكد لي يوما بعد يوما أنه قادر على استيعاب كل المواقف والتعامل معها بذكاء وحكمة.

ثم أتفرغ لكتابة النص الرسمي على أساس التفريغ الذي قام به المُعاونون ليُرسل إلى وكالة الأنباء، وأحرص على استعمال نفس كلمات الرئيس مع إجراء أقل حجم ممكن من إعادة الصياغة لملائمة اللغة العامية المستعملة مع اللغة الفصحى المطلوبة للنص الرسمي، والواقع أن عامية الشاذلي كانت أقرب إلى الفصحى مسكنة الأواخر، وهو المألوف في مناطق الشرق الجزائري.

وكنت ألاحظ بالطبع أن هناك محاور مقترحة لم يتطرق لها الرئيس، لضيق الوقت أو لأن السياق لم يضع الفكرة أمامه أو لأنه لم يقتنع بها، ولم

7- أنظر : أيام مع الرئيس بو مدين ، وأيضا : نظرة في مرآة عاكسة (موفم –الجزائر)

أحاول إطلاقا إقحامها في النص النهائي، وكان هذا من فضل الله، إذ عرفت فيما بعد أن الرئيس كان يعيد قراءة النص النهائي أكثر من مرة بعد صدوره، ولو حدث أن وجد عبارات لم يشر لها أصلا في خطابه فإن الثقة كانت ستختل، خصوصا مع وجود من سيحاولون الإيحاء له بأنني أضع على لسانه أفكاري ولا أكتفي بصياغة أفكاره.

وبالطبع فإنني كنت احرص على متابعة الترجمة بالفرنسية قبل نشرها لأنني كنت أعرف أيضا أنه يحاول المقارنة بين اللغتين حيث أن استيعابه للفرنسية في البداية كان أكثر، وبهذا يكتمل معنى الجمل لديه، ويستفيد منها في تطوير أفكار جديدة، والتركيز، بشكل أكثر وضوحا، على أفكار سبق له أن استعرضها أو تناولها في أحاديث سابقة، وكان خطابه أمام المجلس الوطني السابع للعمال في 3 يونيو 1980 صورة لكل ذلك وتتضح الخلفيات في اختيار النقاط التالية[8]:

- – نلاحظ مع الأسف نوعا من الفوضى في طرح المشاكل (..) ولا يمكن الحصول إلى حلول سليمة بوسائل فوضوية.
- – إعادة النظر في هيكلة المؤسسات الاقتصادية لتوازى اللامركزية الإدارية مع اللامركزية الاقتصادية (والفكرة في حد ذاتها جيدة وصاحبها هو عبد الحميد إبراهيمي)
- – رفع الأجور بالنسبة للعاملين لا يحل المشكل الحقيقي وهو حماية القدرة الشرائية (وألاحظ هنا أن الفكرة العميقة قدمت بأبسط الكلمات)
- – الغاز والبترول ثروة زائلة.
- – لا يمكن إلا أن نشعر بالأسف تجاه بعض التصرفات التي تتناقض مع الروح الوطنية، ولا أعني الوطنية الضيقة أو "الشوفينية"، وعندما نقول بأن

[8] – لم يترأس الشاذلي احتفالات أول مايو لهذه السنة كما غاب عنها محمد الصالح يحياوي وترأسها الأخ مولود أومزيان وزير العمل بحضور دمان ذبيح، الأمين العام للعمال.

الجزائر عربية مسلمة فإننا نقول أيضا بأن مصلحة الجزائر هي فوق كل اعتبار.

- – مبادئ الإسلام هي مبادئ تقدمية تستهدف تحقيق المساواة وتكافؤ الفرص بين الجميع.
- – ستطرح قضية الثقافة بمفهومها الشامل بنفس الطريقة التي طُرحت بها بقية القضايا الوطنية والتراث الثقافي الشعبي هو جزء من التراث الوطني ولا بد من إثرائه والحفاظ عليه لأنه يُشكل العمق الثقافي للشخصية الجزائرية وهو مكسب للشعب الجزائري كله (..) ومن غير المقبول أن يعتبر البعض أنفسهم الوحيدين المؤهلين للحديث عنه، أو أن يكون التراث الوطني احتكارا لجماعة أو فئة [9].
- – هل هي صدفة أن يتغنى اليوم بالثقافة الجزائرية الذين نادوا بالأمس بالجزائر الفرنسية (..) أذناب الاستعمار موجودون في بلادنا ولقد ضربنا الاستعمار على رأسه فحرك ذيله [10].
- – دور الجزائر في إفريقيا والعالم العربي يُقلق بعض الدول الكبرى.
- – المناقشة في الأطر النظامية وبكل موضوعية ... نعم، أما طرح القضايا في الشارع فهو أمر مرفوض (..) ومحاولة فرض الرأي بالقوة لا تخدم مصلحة الوطن (..) وهذا الأسلوب هو محاولة لتخريب الديموقراطية باسم الديموقراطية.

9- قال لي أحد الأصدقاء بعد أن قرأ نص الخطاب : "هل تتوقع أن يغفر لك المستفيدون من عمليات الفوضى والذي يقفون وراء الدعوات المشبوهة من أصحاب النزعات البربرية ؟" ولم أجبه لأن النص يفقد ملكيته الجزئية أو الكلية عندما يصدر من المسؤول الأول أو باسمه، وما يتم، كما قلت يوما، ليس بدعة ننفرد بها.

10- عندما أممت الجزائر المناجم في 1966 أنشئت الأكاديمية البربرية في باريس بعد عدة أشهر، وعندما طالبت الجزائر في 1980 بأسعار عادلة للغاز حدث لها ما حدث عند تأميم البترول الجزئي في 1971، والمقصود هو أن إثارة الضجيج الداخلي يقصد به غالبا بعثرة جهود الجزائر الرامية إلى مواجهة الاستعمار الجديد.

* – التزمنا جانب الحكمة إيمانا منا بنقاء الأغلبية الساحقة من شبابنا (..) ولقد أصبح واضحا أن هناك عناصر تقف وراء إثارة الفتنة والبلبلة في أوساط الشباب، وأنا أقول لهؤلاء: حذار، إن للصبر حدودا معقولة.

....

وعرفت هذه الأيام أيضا افتتاح الدورة السابعة والخمسين لمنظمة الدول المُصدرة للبترول، وكان خطاب الرئيس محور نقاش طويل بيني وبين الأخ بلقاسم نابي وزير الطاقة، الذي كان يحاول تسويق فكرة ربط أسعار الغاز مع أسعار النفط، وكان مما قاله الرئيس: "إن المحافظة على موارد الطاقة هي مسؤولية الجميع، بما في ذلك الدول المصنعة، وعلينا تفادي التبذير وتعويم السوق الذي لا تستفيد منه إلا الشركات الاحتكارية، وتنعكس آثاره السلبية بالدرجة الأولى على الدول المُنتجة للنفط، كما تنعكس على المُستهلك بصفة عامة (وكان هذا استنادا للنص الذي اقترحه الوزير).

وتعليقا على الاتهامات المتواصلة التي تنسب هموم العالم لرفع أسعار البترول الخام قال بأن : "كل المواد التي نستوردها قد ارتفعت أثمانها، وكمية القمح التي كنا نستوردها مقابل برميل من البترول في بداية العشرية الماضية انخفضت بالنسبة للكمية التي نستوردها اليوم مقابل نفس البرميل".

ودعا الرئيس في النهاية إلى تضامن دول العالم الثالث وحذر من الوقوع في فخ التقسيم بين دول منتجة للنفط ودول أخرى غير منتجة له.

(3)

بدا واضحا أن هناك اتجاها قويا للتخلص من محمد الصالح يحياوي كمنسق للحزب، وكانت الدورة الثالثة للجنة المركزية هي الإعداد العملي لذلك، وحدثت مناورة أخيرة لكنني أجهضتها بدون أن أعرف في البداية من الذي كان وراءها.

فعندما دخلت إلى قاعة الاجتماع الكبرى بقصر الأمم للمشاركة في أشغال الدورة الثالثة للجنة المركزية يوم الثالث من مايو 1980 كان الجو مكهربا ذكرني بالجو الذي افتتح فيه المؤتمر الرابع، وكان اليقين قد بدأ يسود تدريجيا بأن الرئيس لن يستطيع التحرك ما دام مقيدا بمكتب سياسي يصر على أنه هو القيادة السياسية، وكان هناك من يحاولون الترويج لهذه الصورة التي لم تكن، للأمانة، واقعا عاما بالنسبة لكل أعضاء المكتب السياسي، باستثناء العناصر التي كانت عاملا فعالا في أحداث المرحلة الماضية[11].

وكان جدول أشغال الدورة يضم ملفا عن الفلاحة وآخر عن السياحة وثالثا عن تعميم اللغة العربية، بالإضافة إلى الملف الذي سيصبح مألوفا في دورات قادمة وهو ملف القضايا التنظيمية.

وتم كالعادة إعداد سيناريو الجلسة الافتتاحية على ضوء ملف كان الرئيس قد تلقاه من الجهاز المركزي، كما تم أعداد النقاط المُقترحة للخطاب الافتتاحي للدورة، وتمحورت حول الإجابة غير المباشرة على المطالب "البربرية" بالتركيز على المعالم الوطنية واستثمار تاريخ عقد الدورة بالتذكير بأحداث مايو 1945 ملاحظا بأن "الاستعمار لا ينسانا وإن نسيه البعض، وبأن الاستعمار الجديد ليس تعبيرا خطابيا فالحرب الصليبية ما زالت مستمرة والحضارة العربية الإسلامية تزعج الغرب الاستعماري".

وركز الخطاب على أنه ليس في الجزائر عرب أو بربر وإنما هناك شعب واحد صهره الكفاح المشترك عبر العصور، وأشار إلى القضايا الثقافية فقال بأنها ستدرج في ملف يُعرض على القاعدة مثل بقية الملفات التي تجسد اهتمامات الأمة، ثم عرج، طبقا للنقاط المعدة، على ملفات الدورة، ليتطرق إلى

11- كان المكتب السياسي يضم السادة : رابح بيطاط ومحمد الصالح يحياوي ومحمد بن أحمد عبد الغني ومحمد بن يحيى وبو علام بن حمودة وأحمد بن شريف ومحمد أمير وعبد الله بلهوشات وعبد العزيز بو تفليقة وأحمد درايا وأحمد طالب الإبراهيمي ومحمد الطيبي العربي وبلعيد عبد السلام وقاصدي مرباح وجيلالي عفان ومحمد السعيد معزوزي.

التنظيم الحزبي فحذر من الاتجاه نحو تضخيم الهياكل الحزبية الذي يمكن أن يؤثر سلبا على الأداء الوظيفي (وقد أضيفت النقطة السابقة بناء على ملاحظات الرئيس).

وكنت التقيت منسق الحزب قبل الافتتاح وسألته عن الأمور فأجابني بأن الأمور تسير بنحو جيد وبأن كل شيئ أحْسِنَ تنظيمه وضُبط إعداده، وحاولت أن أعرف منه تفاصيل أكثر ولكنه تهرب من الحديث وأعطاني شعور الواثق من نفسه ومن التحكم في مسيرة الأحداث، لكن تطورات الأمور أثبتت أنه كان يعيش أحلام يقظة بعيدة عن الواقع، ربما نتيجة للصورة التي رسمها له بعض مساعديه.

وقبل بداية الجلسة بدقائق استدعاني الرئيس إلى مكتبه الواقع وراء المنصة الرئيسية للقاعة الكبرى والتي كانت أساسا مكتبا للتشريفات، وأبلغني بأن المكتب السياسي سيتقدم في الجلسة باستقالة جماعية تضع كل شيئ في يد الأمين العام للحزب ليختار مجموعة متناسقة الجهود لتسيير شؤون الحزب، وسيتقدم بالاقتراح رابح بيطاط رئيس المجلس الوطني الشعبي.

وصُعقت، وتذكرت على الفور قصة الاستقالة الجماعية التي قدمها للرئيس المصري أنور السادات كل من الجنرال فوزي ومحمد فائق وبقية المجموعة التي اصطلح على تسميتها بجماعة 15 مايو، والتي قصد منها إحداث فراغ سياسي يؤثر على هيبة القيادة ومقدرتها على التحكم في الأمور.

وتذكرت أيضا أن الجزائر، التي خرجت من محنة كبيرة، ليست هي مصر ذات التقاليد الراسخة في مفهوم الدولة، وحيث الجالس على كرسي الحكم قادر على تحجيم كل من يغادر موقعه.

ولم يقل الرئيس لي من الذي يقف وراء هذا الاقتراح ولم أحاول أن أسأله ولا أعرف إلى يومنا هذا إجابة حقيقية على السؤال، وإن كنت تصورت للحظات أن الوحيد الذي يمكن أن يقوم بذلك هو يحياوي، ربما بسبب الثقة

الكبيرة التي أوحى لي بها في حديثنا قبل دقائق، وقلت للرئيس على الفور بأن هذا عمل بالغ الخطورة ويجب أن يوقف بأي ثمن لأن أخطاره سوف تتجاوز كل الاحتمالات.

ونظر لي الرئيس مليا وهو يفكر بعمق ثم قال: "إذا كنت ترى ذلك فعليك أن تتحرك بسرعة".

وخرجت من مكتبه إلى القاعة مباشرة فإذا بكل أعضاء المكتب السياسي في مقاعدهم في الصف الأول من نصف الدائرة التي تشكل مقاعد النصف الأمامي من القاعة الكبرى، وأحسست بالإحباط ولكنني استرجعت الأمل في إمكانية عمل شيئ عندما لاحظت أن بيطاط لم يكن قد التحق بعد بمكانه، وهكذا جريت إلى مدخل القصر حيث أكد لي أحد رجال التشريفات أنه قد تأخر على غير عادته، وما أن أكمل الجملة حتى وقفت سيارة أمام مدخل القصر ونزل منها رئيس المجلس الوطني الشعبي.

وجريت نحوه لأضعه في الصورة ولأقول له بأن الرئيس يطلب عدم التقدم بالاقتراح المتفق عليه، وهو ما زال في مكتبه إذا أراد أن يطمئن منه شخصيا لصحة ما أقوله.

لكن الرجل العظيم سجل ما قلته له باهتمام واضح ثم دخل إلى القاعة ليأخذ مكانه، وبدون أن يراجع الرئيس، تسجيلا لثقته في شخصي المتواضع، والتي تأكدت طوال المدة التي عملت فيها إلى جانبه وقبلها وبعدها، ورجعت إلى مكتب الرئيس لأبلغه بأن بيطاط في الصورة تماما.

ولم يتقدم رابح بيطاط بالاقتراح في الجلسة الافتتاحية للدورة الثالثة التي سجلت نقلة نوعية بالغة الأهمية في مسيرة الحزب، أتصور أن سلبياتها تجاوزت إيجابياتها.

وتأكد لدي بأن الحبل أخذ يضيق حول رقبة يحياوي [12].

وبدأت الجلسة بوقفة ترحم على الرئيس جوزيف بروز تيتو، الذي علمتُ بوفاته قبل الافتتاح وأبلغت الرئيس بذلك [13].

وبمجرد انطلاق النقاش حول القضايا التنظيمية أعطيت الكلمة للعقيد محمد علاق مدير المحافظة السياسية للجيش الذي ندد بأداء المكتب السياسي الذي يعاني من قلة التنسيق، ثم طالب بإعادة تنظيم الهياكل الحزبية، وكان واضحا أن المقصود الحقيقي بالهجوم على التنسيق هو شخص المنسق نفسه.

وتلا تدخل علاق تدخلات أخرى كان واضحا أنها كانت مرتبة سلفا، إذ كرر جلّ المتدخلين تعبيرا أصبح فيما بعد مصدرا للتندر، وهو تعبير : كما قال الأخ علاّق".

وكان أخطر ما تم في هذه الدورة هو التفويض المطلق الذي أعطي لرئيس الجمهورية الأمين العام للحزب بالنص على أن : "اللجنة المركزية تساند بكل قوة ما يتخذه الأمين العام من إجراءات فعالة لتنظيم هياكل الحزب والدولة، وتخوله كل الصلاحيات لإجراء التعديلات والتصحيحات التي يراها ضرورية، واختيار من يراهم أهلا للمسؤولية، وفقا لمبدأ : الرجل المناسب في المكان المناسب".

وربما كان من الإيجابيات التركيز في قرارات الدورة الثالثة على أن اللجنة المركزية هي قيادة الحزب وأن المكتب السياسي هو هيئتها التنفيذية،

12- ما زلت أقول بأن تعثر الحزب نتج عن التناقض الذي حدث بين الرئيس الشاذلي بن جديد ومنسق الحزب محمد الصالح يحياوي والذي يتحمل بعض المساعدين حول الرئيس وحوله مسؤولية كبيرة في إحداثه والوصول به إلى نقطة اللا عودة، لكنني لا أعفي يحياوي من المسؤولية الأولى

13 - سافرنا بعد ذلك إلى بلغراد للمشاركة في تشييع الجنازة، وكان الرئيس يُعلق ساخرا على أرملة تيتو، التي كانت قد همشت في حياة الزعيم اليوغوسلافي الراحل، وهي تسير وراء النعش وتختلس نظرات نحو المنصة الشرفية، وربما دفعني ذلك إلى إسقاطات لا أرى داعيا لذكرها.

وهو تطور بالغ الأهمية بشرط أن تقوم اللجنة المركزية بدورها كاملا. وهكذا كان من المنطقي والدورة تنادي بعقد المؤتمر الاستثنائي للحزب أن يكون مشروع تعديل القانون الأساسي بندا أساسيا في المؤتمر الذي كان مبدأ عقده قد تقرر في المؤتمر الرابع، حيث كان الرأي آنذاك بأن تتركز أشغاله على نقل السلطة بهدوء وفي ظل الاستقرار.

وتقرر أن تعقد دورة استثنائية للجنة المركزية لدراسة مشروع تعديل القانون.

وعرفت الدورة حدوث شنآن بين بعض الضباط والأخ عبد القادر حجار حول قضية التعريب، التي كان حماس عبد القادر لها يصيب كثيرين بالتوتر، خصوصا وأنه نجح في أن يجعل اسمه بالنسبة لكثيرين مرادفا لكلمة التعريب[14].

وهكذا عقدت الدورة الاستثنائية في منتصف يونيو، واختار الرئيس لإدارة مكتبها إلى جانبه الأخوين محمد الشريف مساعدية ومحمد بجاوي (الخبير القانوني المعروف) وقبل اقتراحي بإضافة كل من السيد موسى أخاموخ (زعيم الطوارق المعروف) والسيدة فاطمة الزهرء جغرود (الأمينة العامة للاتحاد النسائي) كعضوين مُساعدين.

وحدثت إثر الاختيار وحوله مشادة بيني وبين الأمين العام لرئاسة الجمهورية (والذي سبق أن قلت أنه كان مشحونا ضدي) فقد خرجت من مكتب الرئيس عبر الباب الذي يربطه بمكتب الأمين العام حيث وجدت عنده الأخ

---

14 - كان عبد القادر حجار من أشرس المنادين بالتعريب مع زملاء آخرين، ويشهد له أنه حرك القضية أحيانا من سباتها العميق، وأشهد له أنه كان يتفهم متطلبات موقعي بجانب الرئيس والذي كان يفرض عليّ التحفظ في المواقف العامة منعا لإحراجه، ومن منطلق أنني قادر على تسريب أفكار كثيرة بدون نسبتها لي شخصيا، وعمل سفيرا ناجحا في أكثر من موقع، واصطدمنا كثيرا ولكن كان كل منا يعرف قيمة الآخر.

ويقول الحاج يعلا أنه لم يعرف إنسانا في مثل ذكاء حجار وفهمه للأوضاع ومعرفته من أين تؤكل الكتف.

مولود حمروش في انتظار خروجي، وسألني على ما أذكر عن العضوين الثالث والرابع للمكتب فأعطيته الاسمين، وهنا سأل سقراط عمن اقترحهما وقلت له بأنني فعلت ذلك فعبر عن لستيائه للاختيار، وتساءلت عن سبب ذلك فقال بأسلوبه الهلامي المولع بالتعبيرات التي يراها براقة : إنها قضية جمالية (C'est une affaire esthétique) وأغضبني هذا الرد الغبي فرحت أسأله عمّا يقصده بالضبط فأجاب بنرفزة بأن ردّه واضح لا يحتاج إلى تفسير، وتكهرب الجو وراح مولود يحاول تهدئة كل منا، وخرجت أنا من مكتب الأمين العام وأنا أقول له أنه من قلة الذوق أن يتصرف هكذا مع من يوجد في مكتبه.

(4)

تم تكوين لجنة وطنية لإعداد المؤتمر الاستثنائي برئاسة المرحوم عبد المجيد أعلاهم وزير السياحة، وإذا تذكرنا أن المنطقي كان تكليف محمد الصالح يحياوي بهذه المهمة الحزبية فهمنا على الفور بأن عملية تحجيم منسق الحزب قد بدأت.

وشكلت ست لجان فرعية من بينها لجنة الإعلام التي كلفت برئاستها، وكان معي مدير الثورة الإفريقية والتلفزة الأخ الأزهري شريط رحمه الله والأخ عيسى ناجم الأمين العام لاتحاد الفلاحين والسيدة فاطمة الزهراء جغرود الأمينة العامة للاتحاد النسائي، بينما تولى العربي بلخير رئاسة اللجنة الفرعية للوثائق والأمانة التقنية وكلف برئاسة اللجنة الفرعية للقوانين التنظيمية الأخ زيتوني مسعودي رحمه الله، وتولى الأخ مولود حمروش اللجنة الفرعية للتنظيم العام.

وكما سبق فإنه كان مفروضا أن يركز المؤتمر على القضايا الاقتصادية التي لم يتسع لها المجال في المؤتمر الرابع، وهو ما كان يعني أن يتولى المؤتمر دراسة مخطط التنمية الخماسي.

وكان من أهم أشغال اللجنة التي ركزت عليها اهتمامي، وبجانب الأعمال التنظيمية المألوفة في المؤتمرات، اختيار شعار المؤتمر الاستثنائي، وهو ما

شغل بالي ليالي متواصلة لأنني كنت أريد أن أخرج بشيئ جديد يكون عامل تجنيد للمرحلة القادمة وينسجم مع الصورة الجماهيرية لرئيس الجمهورية، ورحت أقضي الليالي في الرسم وإعادة الرسم إلى أن وصلت إلى الصورة النهائية التي أراها لتكون خلفية المؤتمر وعلامته المميزة، وتمثل الشعار في دائرة نصفها ترس يشير إلى الصناعة والنصف الآخر سنبلة تشير إلى الزراعة وفي الثلث الأسفل كتاب مفتوح يشير إلى الثقافة رسمت على صفحتيه صورة العلم الجزائري إشارة لارتباط الثقافة بالوطن، وفوق الكتاب تبرز الشمس بوضوح (وإن كنت فيما بعد قد رفعت رسم الشمس لتبتعد نحو قمة الشعار بعد أن خشيت أن يبدو ما أردته تصويرا للشروق وكأنه إشارة لمغيب، ولهذا اخترت أن يوضع عنوان المؤتمر في منتصف الشعار وبين رسم الشمس وأعلى الكتاب).

وكان الكتاب في البداية أكبر مما شوهد عليه الرسم النهائي، ولكنني، ولكثرة تحديقي في الشعار، خيّل إليّ أنه يبدو على شكل خوذة عسكرية، وربما كان الجو العام هو الذي أوحى إليّ بذلك، ولكنني خشيت أن أتهم بتسريب خلفيات معينة وراء الشعار فعدّلت الرسم ليبدو على ما رآه الجميع بعد ذلك.

لكن الجانب الصعب في الشعار كان في اختيار التعبير المناسب عن طابع المؤتمر والمأمول منه (وكان المؤتمر الرابع قد عُقد تحت شعار الوفاء للرئيس الراحل هواري بو مدين) واستقر رأيي في نهاية الأمر على اختيار تعبير "من أجل حياة أفضل"، ليكتب تحت الشعار وليكون جزءا منه، وعرضت الأمر على زملائي في اللجنة فوافقوا عليه بعد مناقشة لم تطل طويلا[15].

15- كان يقيني أن هذا الشعار هو خير تعبير عن المرحلة، ولكن اتجاهات معينة، خصوصا بعد إقرار المادة 120 من قانون الحزب، والتي سأشير لها فيما بعد، راحوا يسخرون من الشعار وأطلق بعضهم، بالفرنسية طبعا، شعارا مضادا بإضافة Il faut vivre ailleurs إلى Pour une vie meilleur ، أي من أجل حياة أفضل يجب أن نعيش بعيدا.
أما بعد أحداث أكتوبر فقد شنت حملات إعلامية تسخر من الشعار الذي أعتز بأنني أتحمل مسؤوليته كاملة.

[illegible]

حزب جبهة التحرير الوطني

المؤتمر الاستثنائي للحزب



شعار المؤتمر الاستثنائي



منصة المؤتمر الاستثنائي

وكان واضحا حجم التأثر بأحداث أبريل في رسم الشعار الذي أراه من أجمل الشعارات التي عرفها الحزب، خصوصا إذا قورن بالشعار الذي رفع بعد ذلك في المؤتمر الخامس وهو "العمل والصرامة لضمان المستقبل"، والذي بدا لي ديماغوجيا.

واختارت اللجنة الشعارات التي سترفع في كل مكان تقريبا، وكان من بينها ، وبالإضافة إلى الشعارات الحزبية والوطنية المألوفة:

- كلٌ مسؤول في عمله وعن عمله.
- تنمية شاملة منسجمة من أجل حياة أفضل.
- التحرر الثقافي ضمان للتحرر السياسي.
- الرجل المُناسب في المكان المُناسب.
- حماية القدرة الشرائية مرتبط برفع الإنتاج
- الميثاق الوطني = الإرادة الإيديولوجية للشعب
- العمل ..العمل ..العمل ..من أجل حياة أفضل.
- الوحدة الوطنية روتها دماء الشهداء.
- تعميم اللغة العربية هدف استراتيجي.
- البترول ثروة زائلة والزراعة ثروة دائمة.
- دعم كامل للصحراء الغربية.
- مع فلسطين ظالمة أو مظلومة.

وكان المؤتمر الذي افتتح في منتصف يونيو بشكل عام عُرسا كبيرا من ناحية التنظيم والتأطير، لكنه كشف عن ملامح تثير القلق، من أهمها أنه أقحم في القضايا التنظيمية لتعديل القانون الأساسي للحزب، الذي لم يجف الحبر الذي

كتب به بعد، ثم لإدخال العضو رقم 200 في اللجنة المركزية، وهو الأخ عبد الحميد إبراهيمي، الذي كانت أروقة المؤتمر تشير إلى الدور الذي لعبته المؤسسة العسكرية في اختياره.

وكاد حماس العضو الجديد، وهو للأمانة رجل فاضل ووطني صادق، للمخطط الخماسي الذي أشرف على إعداده كوزير للتخطيط، يصل إلى حد الحماقة، حيث كان يريد أن يصادق عليه المؤتمر، في حين ينصُّ القانون على أن دور المؤتمر هو المصادقة على الخطوط العريضة لمخطط التنمية، أما الباقي فهو مهمة المجلس الوطني والحكومة، وقضينا ساعات في اللجنة التحضيرية ونحن نناقش ذلك معه لإقناعه بخطأ رؤيته [16].

وكالعادة تم وضع النقاط التي سيرتجل الرئيس خطابه على ضوئها، وكان من أهمها التركيز على أن المرجع الرئيسي هو الميثاق الوطني (وأعترف بأن صورة انفتاح الرئيس السادات كانت لا تبرح خيالي) وجرت الاستعانة في بعض الجوانب بمذكرة معلومات أعدها وزير التخطيط.

وكما سبق أن قلت فإن أهم ما تمخض عن المؤتمر كان القانون الأساسي للحزب، وخصوصا المادة 105 التي تنص على أنه، باقتراح من الأمين العام، تنشئ اللجنة المركزية الهياكل المركزية الدائمة ويحدد النظام الداخلي للجنة المركزية تكوينها وصلاحياتها وسيرها، ثم المادة 112 التي تنص على أن الأمين العام للحزب يقيم هياكل دائمة لأداء المهام العادية من إدارة وتنفيذ وتنسيق ورقابة، ثم المادة 114 التي تعطي للأمين العام صلاحية اختيار أعضاء المكتب السياسي وعرضهم على اللجنة المركزية للمصادقة، ثم المادة 117 التي تعطيه حق تعيين أمناء المحافظات (وواضح أن النية كانت تجميع السلطات في يد الأمين العام رسميا، وفي يد من سيتولى المسؤولية المباشرة عن شؤون الحزب فعليا، وكانت تلك بداية نكسة الحزب، التي لا يتحمل الرئيس مسؤوليتها الأولى بأي حال من الأحوال).

---

16 – فتر حماس الأخ إبراهيمي لوزارة التخطيط عندما تسلم رئاسة الحكومة فألغى الوزارة.

وتأتي هنا المادة 120 التي كثر الحديث عنها والتنديد بها بعد ذلك وهي التي تنص على أنه لا يتولى المسؤولية في المنظمات الجماهيرية إلا من هو مناضل منخرط في الحزب، وكان واضحا من الحملة المُضادة أن الشرائح اليسارية هي التي تضررت من هذه المادة.

وتجلت حماقة الذين هاجموا هذه المادة في نسيانهم بأنها مستمدة أساسا من الدستور الذي ينص على أنه لا يعهد بالمسؤوليات لغير مناضلي الحزب.

وقدمت لائحة التقييم الصادرة عن المؤتمر نظرة نقدية لمسيرة الجزائر كان واضحا لمن يمعن النظر في بعض فقراتها أن الذين يقفون وراءها يعدون لتصفية الحساب مع المرحلة الماضية، ولكن قليلين هم الذين توقفوا عند هذا الأمر أمام كثرة اللوائح المقدمة للمصادقة وصعوبة مناقشتها بشكل تفصيلي في فترة زمنية محدودة، حتى وإن كانت الوثائق قد وزعت قبل المؤتمر طبقا للأجال المنصوص عليها[17].

ومن هنا كانت أهم نتائج المؤتمر الفعلية وضع كل السلطات الحزبية رسميا في يد رئيس الجمهورية، وسيختفي تعبير المنسق (الذي كان بديلا عن الأمين العام المساعد للحزب) وستصبح قيادة نشاطات الحزب المُباشرة في يد أمانة دائمة يتولاها الأخ محمد الشريف مساعدية، الذي بدا خارج التنظيم الحزبي وخلال وجوده عضوا في الحكومة كسمكة خارج الماء.

17- لم أشارك من قريب أو من بعيد في مناقشة هذه القوانين أو صياغتها انطلاقا من واجب التحفظ الذي يفرضه وجودي بجانب الرئيس، لكنني أتصور أنني لعبت دورا مؤثرا في بعض الجوانب ، وتولى رئاسة لجنة إعداد القانون الأساسي محمد الشريف مساعدية ونائب الرئيس عبد الملك بن حبيلص والمقرر محمد الهادي حمدادو وكان من بين عناصر اللجنة الحاج عزوط ورزقي أيت وازو وبن مصطفى بن عودة (الذي سيتولى لجنة الانضباط الحزبي) وإبراهيم براهيمية (الذي كان رأس الرمح في الهجوم على عبد السلام بلعيد) والرائد (اللواء فيما بعد، مصطفى بلوصيف،وأكثر المتحمسين للرئيس الشاذلي، والذي صفي بعد ذلك) ومصطفى شلوفي (قائد الحرس الجمهوري واللواء فيما بعد) وإسماعيل حمداني (الأمين العام للحكومة آنذاك) ومولود حمروش وعلي كافي (رئيس الدولة بعد ذلك) ودحو ولد قابلية وبشير رويس واليمين زروال (رئيس الدولة ثم رئيس الجمهورية بعد ذلك) والعقداء محمد زرقيني وبن غزيل وحشيشي والعربي سي لحسن وحسين بن معلم وكذلك الهادي خديري (المدير العام للأمن الوطني ووزير الداخلية في أحداث أكتوبر 1988) انظر : وثائق إعلامية - إصدارات مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية لعام 1980

وإثر اختتام المؤتمر عُقدت دورة استثنائية أخرى للجنة المركزية وعُيِّن مكتب سياسي جديد (كان واضحا أن مهمته شرفية) ويضم رابح بيطاط ويحياوي وعبد العزيز بو تفليقة ومحمد السعيد معزوزي وبو علام بن حمودة، وأقرّ القانون الأساسي الذي يركز كل السلطات في يد الأمين العام، وإن كان ترشيحه يظل دائما من صلاحيات اللجنة المركزية ويصادق عليه المؤتمر.

وأعيد تشكيل الحكومة وتولى بوعلام بسايح وزارة الثقافة والإعلام خلفا لمهري وبوعلام باقي خلفا للأحسن السوفي وعُين محمد العربي ولد خليفة، وربما كنيول لأحداث ابريل، كاتبا للدولة للثقافة والفنون الشعبية.

وعين مصطفى بلوصيف أمينا عاما لوزارة الدفاع خلفا لقاصدي مرباح الذي عُيّن نائبا لوزير الدفاع (ولم يُعين في المكتب السياسي وهو ما بدا انتصارا للتيار المُعادي له في الجيش، وعلى رأسه محمد عطايلية) كما عُين الدكتور محمد أمير رئيسا لمجلس المُحاسبة، واختير محمد الشريف مساعدية مسؤولا للأمانة الدائمة للجنة المركزية (وحدثت شبه مشكلة عند اختيار الصفة وكان هناك من يريد استعمال صفة "الأمين العام للجنة المركزية" وهو ما كان يُمكن أن يكون مدعاة للخلط مع صفة "الأمين العام للحزب" أي الرئيس، وهكذا اقترحت الصيغة التي وافق عليها الرئيس).

وستتواصل عزلة محمد الصالح يحياوي، وقال لي يوما بحسرة بالغة : "أتذكر فلانا ؟ لقد ضربت عليه بالبارود (وهو صحيح من الناحية المجازية بالطبع) ولكنه تظاهر أمس بعدم رؤيتي".

والواقع أنني حرصت على أن يظل جسر التواصل مفتوحا بيني وبين محمد الصالح لسببين، أولهما أنه مجاهد كبير وأن جلّ أنصاره انفضوا عنه ولأقول له بأن صديقك هو من صدقك، والثاني هو أن عملية القضاء عليه سياسيا أخذت شكلا مقززا، إذ قدم فيما بعد للجنة الانضباط الحزبي ثم أرسلت مجموعة من الموظفين لفحص سجادة كانت في مكتبه بحجة الاطمئنان إلى أنها

لم تستبدل بأخرى أقل منها قيمة، وطُلب منه بجفاء مُغادرة الدار التي كانت قد وضعت تحت تصرفه كمنسق للحزب، وكان يتعنت في البداية ثم أقنعته بأن القوم جادون في الإساءة له وهو...خارجٌ خارج.

وزارني يوما في بيتي ليبلغني بأن هناك من اقترحوا عليه تقديم استقالته من اللجنة المركزية للحزب مدّعين بأن تلك هي إرادة الرئيس، وقلت له بأن هذا خطأ كبير إذ لسنا نعرف ماذا قيل للرئيس وما الذي سوف يُقال له أيضا إذا حدث أن استقال يحياوي، وزيادة في الاطمئنان طلبتُ الرئيس هاتفيا لأسأله عن الأمر ولم أخفِ عنه وجود يحياوي في بيتي، وأنكر الرئيس معرفته بالأمر وإن كنت أحسست بأنه أحرج من سؤالي، وقيل لي فيما بعد أنه متضايق من علاقاتي المستمرة مع يحياوي.

لكنني لم أتردد في استقبال يحياوي يوما، بل إنني حملت رسالة مطولة منه إلى الرئيس حاول فيها أن يصحح بعض ما قيل له أنه نُسب له، ولما كانت الرسالة طويلة ومكتوبة بخط اليد فقد رأيت من واجبي اختصارها في نحو صفحة، كتبتها بنفسي على الآلة الكاتبة تسهيلا لقراءتها، وسلمتها مع الرسالة الأصلية يدا بيد للرئيس، الذي كنت أعلم أنه يتعرض لعملية تحريض رهيبة ضد المنسق السابق للحزب.

وكنت أحترم الرئيس الشاذلي وأثق في رجولته، وزاد تقديري له يوم نقل لي يوما أن مسؤولا ساميا ردد أمامه أكثر من مرّة عندما ورد اسمي خلال الحديث بأن فلانا (أنا) من جماعة يحياوي [18]، ولما تكرر الأمر رد عليه الرئيس ساخرا : "ولماذا لا يكون يحياوي من جماعة عميمور".

18- كان هو المسؤول نفسه الذي قال لي بأن يحياوي يحرض الرئيس قائلا لا بد من التخلص من عميمور.

كان الصيف قد أصبح على الأبواب وكنت أكتري لأسرتي الفيللا رقم 46 في نادي الصنوبر[19]

وذات يوم هتف لي يحياوي متسائلا عمّا إذا كان يستطيع زيارتي، ورحبتُ بالطبع، وقبل أن يصل بدقائق كنت أمام باب الفيللا أستكمل غسل سيارتي فإذا بالهادي خديري، وكانت له في الجوار فيللا يستعملها طوال العام كإقامة ثانوية، يجتازني بسيارته ثم يوقفها أمام رقم 45 ويعود أدراجه على قدميه لدردشة سريعة قطعها وصول يحياوي، وتواصلت الدردشة دقائق جعلتني أطلب منهما الدخول إلى البيت وتناول بعض المشروبات.

وكان يحياوي بالغ الحِدّة مع الهادي، وكان من بين ما قاله له أن كلا منكم قد يجتاز يوما ما أجتازه اليوم من تجاهل وجحود، فلماذا لا تتذكرون الحكمة : لو دامت لغيرك ما وصلت إليك".

وحاولت تلطيف الأجواء رغم إحساسي بأن محمد الصالح أحرجني بهجومه على ضيفي [20].

وكان استنتاجي الرئيسي هو أن الرئيس الشاذلي قد شُحن تماما ضد يحياوي بحيث أصبح الكل يخشى أن يعرف عنه لقاء به أو حديثا معه أو حتى وقفة سريعة على شاطىء البحر.

وتناقصت نشاطات الرئيس في شهري يوليو وأغسطس بعد الجهد الشاق الذي بذله منذ وفاة الرئيس بو مدين.

19- استعملت تعبير الكراء عمدا حيث كان هناك من يعتقدون أننا كنا نشغل الفيللات مجانا

20 - حدث أنني التقيت بعد ذلك الأخ عثمان سعدي في إحدى دورات اللجنة المركزية ووجدته على علم بما حدث، وكان الغريب أن الهادي قال له بأن الأمر كان فخا نصبته له لكي أضعه وجها لوجه أمام يحياوي، وهو ما لم يكن صحيحا بالطبع، وكان يكفي للتحقق منه أن يتذكر الهادي بأنني لم أكن أعلم بموعد مجيئه إلى قصر الأمم.

وبعد راحة أتصور أنه كان يستحقها توجه الرئيس إلى فريتاون عاصمة سيراليون للمشاركة في أشغال اللجنة الخاصة بقضية الصحراء الغربية، وتم إعداد تصريح سلم كالعادة لوكالة الأنباء الجزائرية، وجاء فيه :

"علينا كأفارقة أن نعمل على دعم منظمة الوحدة الإفريقية (..) وهذا لا يُمكن أن يتم إلا (..) بالعمل على احترام مواثيقها وقراراتها (..) وأذكر بأنه ليس للجزائر أي أطماع ترابية (..) وأنها لا يُمكن أن تساوم على المبادئ (..) ونحن على استعداد تام لإنجاح هذا اللقاء كما ساهمنا في العام الماضي في إنجاح لقاء مونروفيا"، واستمعت اللجنة الإفريقية لتدخلات المُشاركين وأوصت بتنظيم استفتاء عام وعادل يتطابق مع قرارات القمة السادسة عشر لمنظمة الوحدة الإفريقية، ودعوة كل الأطراف إلى وقف إطلاق النار ابتداء من ديسمبر 1980.

وتشتعل الحرب العراقية الإيرانية، ويبعث الرئيس برسالة إلى الرئيسين العراقي والإيراني، كما يتحادث هاتفيا مع عدد من القادة العرب، وتنشر في الصحف الصادرة يوم 27 سبتمبر بأن "الرئيس يتابع باهتمام تطورات الموقف"، وذلك بعد استعراض اتصالاته بالقيادات العربية والإسلامية.

وتحضرني هنا قضية أرى أهمية الإشارة لها وهي محاولات الرئيس الباكستاني ضياء الحق ممارسة وساطة بين الطرفين العراقي والإيراني والاستعانة في ذلك بالجزائر التي كان لها دورها في وساطات ناجحة، ولم تتخذ موقفا يمكن أن يُعتبر انحيازا لهذا الطرف أو ذاك.

وتلقينا أكثر من مكالمة هاتفية من الرئيس الباكستاني، كانت تحوّل لي بتعليمات من الرئيس انطلاقا من أنني أتحدث الإنغليزية، وفهمت على التوّ بأن

الرئيس يتهرب من الحديث مع ضياء الحق، ربما لأنه يحاول أكل الشوك بفمنا، وهكذا شربت أكثر من مكالمة مطولة كنت أستمع فيها بكل أدب لضياء الحق واعدا إياه بأن أنقل كل شيئ للرئيس الشاذلي.

وتوقفت المكالمات بعد أكثر من اتصال لم يثمر بالطبع عن شيئ.

ويُصادق مجلس الوزراء في مطلع أكتوبر على بيع الأملاك الشاغرة للمواطنين، ويبدأ الرئيس خلال الأسبوع نفسه في استقبال قيادات المنظمات الجماهيرية.

(5)

كانت الساعة في حدود الواحدة ظهرا يوم الجمعة العاشر من أكتوبر 1980 عندما أحسست بأن الأرض تميد تحت قدمي والثريات تتراقص في سقف المنزل، وأدركت بأن زلزالا وقع، فأخرجت أسرتي إلى الحديقة المجاورة وأسرعت للهاتف الخاص لأجرى عددا من الاتصالات أعرف بها حقيقة ما حدث، وإذا هناك من يسبقني للاتصال وكان الهادي خنيري المدير العام للأمن الوطني، الذي كان أول مسؤول سام يلتحق بمنصبه إثر الزلزال.

وتبادلنا كلمات سريعة عرفت فيها منه أن الصورة لم تتضح تماما، وعندما أبلغني أنه سيتصل بالرئيس لوضعه في الصورة قلت له بأنني سأعطي خبرا مقتضبا عن الزلزال إلى أن تصلنا كل المعطيات، فوافقني على ذلك.

وبعد دقائق كنت في مكتبي بدون أن ألقي بالا إلى وضعية الأسرة في الحديقة (وبالطبع لم يكن الهاتف المحمول قد اخترع بعد) وفور دخولي دق جرس الهاتف الخاص بالرئيس الذي سألني عن المتوفر من الأخبار فقلت له بأنني، بالاتفاق مع الهادي، قررنا أن نعطي الأخبار بالقطارة إلى أن تتضح الصورة، وعرفت من الرئيس أنه في طريقه إلى مكتبه حيث ترأس بنفسه خلية

أزمة كان من عناصرها العقيد (اللواء فيما بعد) العربي بلخير والرائد (اللواء فيما بعد) نور الدين بن قرطبي والأخ مولود حمروش مدير التشريفات وكاتب هذه السطور.



الرئيس أمام ساحة الرئاسة



العقيد بن غزيل

كانت الهزات الارتدادية تتواصل والأرض ترتجف تحت أقدامنا إلى درجة أننا، في لحظة ما، تجمعنا حول الرئيس، مولود حمروش وأنا، لنفرض عليه بكل احترام التوجه إلى الساحة غير المغطاة المقابلة لمكتبه (والتي بُنيت عليها فيما بعد قاعة مجلس الوزراء الجديدة).

ويقوم الرئيس في اليوم التالي بزيارة الأصنام ويتفقد المناطق المتأثرة بالزلزال على وقع الهزات الارتدادية المتواصلة، ويُكلف الوزير الأول بتشكيل قيادة مركزية على مستوى العاصمة، ويُفتح خط مباشر بين الرئاسة والولاية.

ولا بد من أن أقول هنا أنني أتحمل المسؤولية كاملة عن التعامل الإعلامي في قضية الأصنام، خصوصا بعد أن سمعنا بعد ذلك انتقادات كثيرة لأسلوب التعامل كان من بين عناصره أن الإذاعة الفرنسية أوروبا رقم (1) أعطت الخبر قبل الإذاعة الجزائرية.

ولقد كان أُساس تعاملي في البداية مع قضية الزلزال التشاور مع الأخ الهادي خديري الذي أكد لي بعد ساعتين أو ثلاث بأن القضية هي كارثة وطنية بكل المعايير، وأن أكثر من ثمانين في المائة من الولاية قد دمرت، ويُمكن تخيل أعداد القتلى والمُصابين.

وتم استعمال طريقة الجرعات المتتالية بالنسبة لأسلوب التعامل الإعلامي وبالتشاور مع الهادي ثم مع العربي بلخير، وبالطبع بعد استئذان الرئيس ولكن مع تحملي كل المسؤولية، وهكذا يُنسب أي خطأ إلى اجتهادي ولا يُحسب على المسؤول الأول، وهو أسلوبنا دائما في التعامل على هذا المستوى، قبل أن يأتي زمان يحتكر فيه صغار المنفذين وأحيانا كبارهم كل حسنات إنجاز ما، ويُحمّل المسؤول الأول خطأ التصور أو التنفيذ، وقد شهدت جانبا من هذا الزمان عندما كان مسؤول معين يجيبني، إذا تساءلت أمامه عن أسباب خطأ ما، بالإشارة إلى صورة الرئيس وبدون تعليق، وهو ما قام به مسؤول لجنة انضباط حزبي مع وزير زراعة أسبق، تم إيقاف عضويته في اللجنة المركزية.

وكانت خلفية قراراتي هي أن أي حيوان يستطيع أن يُحس بالزلزال، وبالتالي فإن إبلاغ مراسل أجنبي ما وكالته بالخبر ليس سبقا صحفيا أو عملا خارقا للعادة، لكن إعطاء أخبار الكوارث بالنسبة للإعلام الوطني يجب يسبقه وضع الحقائق والاحتياطات التالية في عين الاعتبار:

- أخطر ما يمكن أن يحدث إثر كارثة ما هو حالة الفزع العام (Panique) التي يُمكن أن تتسبب في وقوع ضحايا قد يتجاوز عددهم ضحايا الكارثة الأصلية، وبالتالي فإن إعطاء الأخبار يجب أن يتم على مراحل تتكامل المُعطيات فيها تدريجيا وبشكل دقيق.

- الكوارث توقظ من سباتها وحوشا بشرية قد تنتهز الفرصة للقيام بعمليات نهب أو سلب أو اغتصاب، وبالتالي فإن الاستعدادات الأمنية هي أول الضرورات قبل إعطاء الخبر الكامل عن الكوارث، ومن هنا فإن من أهم عناصر الحماية الأمنية تجنيد كل الوسائل المتاحة لحراسة البنوك وفروعها ومراكز البريد والأحياء السكنية والمستشفيات وفرض رقابة صارمة على كل التحركات في منطقة الكارثة، يُمكن أن تصل إلى إعلان حظر التجول.

- تجنيد كل الوسائل البشرية والمادية لمواجهة نتائج الكارثة واحتمالات تطورها أو اتساع رقعتها، ويشمل ذلك ضبط اتجاهات السير من كل أرجاء الوطن نحو المنطقة المُصابة وإعطاء الأسبقية المُطلقة للمكلفين بالإنقاذ والحماية.

- تحديد الموقع الرئيسي للهزة الأرضية (Epicentre) وتوقع الهزات الارتدادية.

- إعداد مواقع استقبال للناجين على مراحل تبدأ في المنطقة نفسها وتستكمل في المناطق المجاورة، وإعداد وسائل النقل اللازمة.

- القيام بتنظيم المساهمات الشعبية لرعاية المنكوبين والتأكد من جدية تلك الرعاية ومن فعاليتها.

- تنظيم التغطية الإعلامية لكل الأوضاع الناتجة عن الكارثة وتداعياتها، وتوحيد مصادر المعلومات المتعلقة بها.
- تنظيم شبكة الاتصالات أفقيا ورأسيا لضمان وصول المعلومات وحسن استثمارها.
- أعطاء أسماء الجرحى والمُصابين وأماكن تواجدهم وكذلك أسماء الضحايا أولا بأول.

وهكذا أخذت أعطي المعلومات المتعلقة بالزلزال تدريجيا ابتداء من خبر أولي تحدث عن هزة أرضية، تم استكماله بتحديد الموقع الرئيسي ثم بالحجم الأولي للكارثة ثم بالإجراءات المتخذة تجاهه والتعليمات المطلوب تنفيذها بالنسبة لكل المعنيين.

وأعطيت الخبر الأول بعد حدوث الهزة الأرضية بنحو 22 دقيقة وأعطيت الخبر التفصيلي بعد نحو ست ساعات كانت الاستعدادات الرئيسية، كما أكد لي الهادي، قد اتخذت.

وعرفت الجزائر هبة تضامنية شعبية لم يسبق لها مثيل، وانهمرت المساعدات البشرية والمادية على المنطقة، وأمكن، نتيجة لحسن التنظيم، التعامل معها بما يضمن وصولها في أحسن الظروف الممكنة، كما تعاطف العالم كله وفي مقدمته البلدان العربية والإسلامية والصديقة.

واجتمع المكتب السياسي للحزب يوم 13 أكتوبر لاستعراض الإجراءات المتخذة، وليسجل باعتزاز التضامن الوطني ويقدر حق قدرها كل صور التضامن الدولي، وأعلنت الأصنام يوم 15 أكتوبر منطقة منكوبة، ووضعت تحت قيادة عسكرية تحمل مسؤوليتها العقيد بن عباس بن غزيل.

وتحضرني هنا حادثة طريفة تتعلق بالجانب الإعلامي، فقد سرت إشاعة في الأيام الأولى تقول بأن قوات من الجيش أطلقت النار على بعض من حاولوا اقتحام فرع بنكي فأردتهم قتلى، وكنت أعرف بأن ذلك لم يحدث لكنني اتصلت بالعقيد في عين المكان وتم الاتفاق بيننا على ألاّ نكذب الإشاعة، وأتصور أنه كان لذلك دور كبير في ردع من يُفكر في القيام بأي اعتداء.

ويقضي الرئيس صبيحة عيد الأضحى الموافق 19 أكتوبر في الأصنام مع المنكوبين وبرفقته السيد محمد علي رجائي الوزير الأول الإيراني الذي أبى إلا أن يرافق الرئيس ويسجل تضامنه مع الشعب الجزائري، وكانت تلك لفتة رائعة سجلت للمسؤول الإيراني الذي قضى نحبه بعد ذلك في بلاده إثر انفجار مشبوه.

وتمت عملية التغطية الإعلامية بما رسّخ الشعور لدى المواطنين بأن الرئيس يُتابع كل شيئ ويتحمل مسؤولياته بشكل مُباشر ولا يكتفي بأن يعهد بها لآخرين، وهي نقطة بالغة الأهمية في ربط القاعدة بالقيادة.

ويتزامن كل ذلك مع حدث أكد الشعور بأن "الحياة تسير"، وهو وصول الملكة إليزابيث ملكة بريطانيا وزوجها الأمير فيليب بالجزائر على متن اليخت فيكتوريا في زيارة رسمية كان موعدها قد تحدد منذ مدة، ويبدو أن الملكة فوجئت بالوضعية الطبيعية التي تعيشها الجزائر رغم أنها خرجت لتوها من كارثة زلزال رهيب.

وتألق في هذه الزيارة وزير الخارجية محمد الصديق بن يحيى، وبدا الرئيس متميزا ، كرئيس لم يستكمل عامين في ولايته المفاجئة، وهو يستقبل ملكة عريقة الأصل مضى على حكمها نحو نصف قرن، غير أن في مقدمة من يستحقون تحية التقدير لدورهم في إنجاح الزيارة الأخ إدريس جزائري، الذي

تولى الترجمة بين الرئيس والملكة بلغته الراقية (وهو ما سجلته ولجأت إليه فيما بعد)

وتسلم الرئيس من الملكة نسخة من المعاهدة المبرمة بين مملكة الجزائر والمملكة البريطانية في القرن الثامن عشر، ولست أدري ما إذا كان مستشارو الملكة قد أبلغوها وهو يختارون لها الهدية بردود الفعل السلبية التي قابل بها الجزائريون خطاب الرئيس الفرنسي جيسكارد ديستان في منتصف السبعينيات، عندما قال في مطلع خطابه : "فرنسا التاريخية تحيي الجزائر المُستقلة" بما فهم على أنه اعتبر ميلاد الدولة الجزائرية قد تم في 1962، أي أن الجزائر لا تستحق صفة "التاريخية".

لكنني كنت أعيش خلال الأسابيع الماضية وعلى وجه التحديد مع بداية شهر أكتوبر وضعية همّ متزايد، برغم الجهد الذي أخذته عملية الأصنام والعديد من النشاطات وفي مقدمتها زيارة الملكة.

فقد كان عليّ أن أقوم بإعداد خطاب الرئيس للأمة، والذي سيحدث أنني سأتحمل مسؤوليته كاملا هذا العام، وهكذا كثفت اتصالاتي مع عدد من الوزراء بمن فيهم وزير التخطيط للحصول على المعلومات الضرورية لإعداد الخطاب الذي تقرر أن يلقيه الرئيس أمام المجلس الشعبي الوطني يوم 30 أكتوبر، طبقا للمادة 156 من الدستور.

وكانت البداية بالطبع مرتبطة بكارثة الأصنام، وسجل الرئيس اعتزازه بهبة التضامن الوطني، وطلب فيها من الحضور التزام دقيقة للترحم على الضحايا (وكان من بين من قضوا في الزلزال زميلنا الأخ محمد مفتاحي) ثم تناول عددا من الإنجازات التي تم تحقيقها ومن بينها المؤتمر الاستثنائي للحزب، وقال من بين ما قاله إن "عدد السنوات الذي يفصلنا عن تحقيق التقدم والازدهار مرهون بالجهد الذي نبذله في رفع الإنتاج الوطني وبالتحكم في النمو الديموغرافي والاستثمار العقلاني للإمكانيات المتاحة، بشرية أم مادية".

ثم تناول الرئيس الاتجاه نحو تطبيق اللامركزية في المجال الاقتصادي بحيث تتخصص الهياكل المركزية في التخطيط والتوجيه والمتابعة والتنسيق بالنسبة لوحداتها الإنتاجية عبر التراب الوطني والتي تصبح كل منها بمثابة مؤسسة جهوية يتم تسييرها في عين المكان، "وهكذا لا يكون الرأس أكبر من الجسم، ولا تتحمل وحدات الإنتاج عبء تكاليف لا علاقة لها بالإنتاج، وتتمكن المجالس المحلية المنتخبة من القيام بدورها"[21].

وبعد أن أشار إلى تكوين مجلس المُحاسبة قال بأنه "إذا كان كشف الانحرافات والتنديد بها يُعتبر شجاعة أدبية فإن الشجاعة الأدبية الأكثر سُمواً هي ألاّ نندفع في توزيع التهم يمينا ويسارا، وننسى أن البناء الضخم الذي أنجزناه كان بفضل الرجال المؤمنين بالوطن وبالثورة، وهم كثر، والحمد لله، في كل المُستويات" (..) وإذا كنت أحرص على أن نحفظ للمواطن النزيه كرامته فإنني لن أتردد في اتخاذ أي إجراء تتطلبه مصلحة الوطن والثورة، ودائما في إطار القانون"[22].

وتحدث عن رفع الحدّ الأدنى للأجور فقال بأن "المرتب ليس منحة أو هبة ولكنه جزء من مال الشعب يجب أن يكون مقابل جُهد يبذل من أجل الشعب، وكل مكافأة إضافية لا يمكن أن تكون إلا نتيجة لجهد إضافي مبذول في الإنتاج وتحسين نوعيته" (..و) "إغراق السوق باستيراد المواد الاستهلاكية لا يكفي وحده كحل لسد احتياجات المواطن بجانب آثاره السيئة على عملية التنمية ورصيد البلاد من الثروات الزائلة" (وقد قيل لي أن بعض من استفادوا من

---

21 - تحولت العملية الرائعة إلى تفتيت للمؤسسات وإهدار للمال العام وتلويث لمسيرة السنوات الماضية، واستفاد من كل هذا عدد من الموظفين ومن بذور الطبقة الرأسمالية الطفيلية، التي نمت وكانت، مع الاحتكار السياسي الذي تميز به العمل الحزبي بعد المؤتمر الاستثنائي ثم انهيار أسعار النفط في منتصف الثمانينيات، بداية الانزلاق نحو أحداث أكتوبر 1988.

22 - واضح هنا الحرص الشديد على مواجهة المد المتزايد من محاولات تلويث مسيرة الجزائر في الستينيات والسبعينيات، إنجازات ورجالا، وكان المنطلق هو أن الأمة التي تفقد احترامها لماضيها تفقد ثقتها في مستقبلها.

برنامج محاربة الندرة ".P.A.P" الذي امتص حجما ماليا كبيرا تصوروا أن هذه الملاحظة انتقاد لهم، وكانت عداوتهم نتيجة منطقية)

وأضاف الرئيس بأن زيادة الأجور والمرتبات لا تكفي وحدها لحماية الطاقة الشرائية للمواطن (..) ذلك أن القوة الشرائية لعملة أي بلد كان ترتبط ارتباطا مباشرا بطاقته الإنتاجية".

وتناول الخطاب مطولا القضايا المُرتبطة بالحزب وقال بأن "قوة الحزب لا تكمن في ضخامة الهياكل وتضخم التنظيمات وافتعال النشاطات بل تتميز بالفرز الإيديولوجي الذي يحدده الميثاق الوطني وفي عقلانية التنظيم الهيكلي، كما تتمثل في التكامل والانسجام بين القيادة السياسية والقاعدة الحزبية (..) وتتطلب أن يكون المناضل قدوة للمواطن قولا وعملا".

وتناول الخطاب القضايا الدولية فلاحظ أن قضية تهويد القدس الشريف تراجعت إلى الصفوف الخلفية من الاهتمام العالمي باندلاع الحرب بين الأشقاء (العراق وإيران) وذكر أن "الجزائر جزء من الأمة العربية ومن العالم الإسلامي وعبر عن أمله في أن يلتقي الأشقاء في المغرب وفي الصحراء الغربية لوضع حد للوضعية الخطيرة التي تعيشها المنطقة".

وبعد أن ذكّر الخطاب بضرورة الاهتمام بالجيل الصاعد قال بأنه "من غير المقبول أن نعيش، سياسيا، عالة على شهداء حربنا التحريرية ونعيش، اقتصاديا، عالة على ثروة زائلة هي رصيدنا من البترول والغاز"، وأضاف بأن "الماضي المجيد بالنسبة للأمة هو رصيد يتآكل يوما بعد يوم إذا لم يدعمه نضال يومي لا يقل عظمة عن كفاح الماضي وتضحياته، والثروة الدائمة للأمة هي الإنسان بفكره وبجهده وبالتزامه مع آمال شعبه".

وكان واضحا أن الخطاب يُمثل خطوة إلى الأمام سواء تعلق الأمر بالمضمون أو بالأسلوب، وبالرغم من بساطة التعبيرات المستعملة فإن عمق دلالاتها لم يخف على أحد، وعبر الكثيرون من أعضاء السلك الدبلوماسي عن عميق تقديرهم للخطاب الذي يُشكل أسلوبا متميزا للرئيس الجزائري.

وكان من أهم المواقف التي اتخذت في الشهر التالي، وبناء على تقرير قدمه وزير الخارجية الأخ محمد بن يحيى، قرار عدم مشاركة الجزائر في القمة العربية الحادية عشرة، التي كان مُقررا أن تحتضنها العاصمة الأردنية، ورأى المكتب السياسي في اجتماعه برئاسة الأمين العام للحزب ورئيس الجمهورية أنه من غير الممكن أن يُناقش الملوك والرؤساء القضية الفلسطينية في غياب منظمة التحرير الفلسطينية، والتي تضامنت معها سوريا ولبنان.

وقيل يومها أن من بين الخلفيات أيضا ما راج عن احتمال مشاركة الرئيس المصري أنور السادات في لقاء عمّان (وكانت مصر معزولة سياسيا عن معظم البلدان العربية وإن كانت هناك اتصالات في الخفاء وعلاقات متزايدة مع العراق، الذي تلقى من مصر كميات هامة من السلاح السوفيتي الذي حل محله سلاح أمريكي وأوربي) لكن العلاقات الثقافية والإنسانية بين العالم العربي ومصر ظلت على حالها من الازدهار، كما طالب بذلك الرئيس بو مدين في لقاء طرابلس عام 1977.

وتزايد إيقاع النشاط الوطني من جديد فاستكملت اللقاءات مع المنظمات الجماهيرية بعد استقبال الرئيس للمكلفين بتنظيم انتخابات مكاتب المحافظات، وهي، كما قال الرئيس، صلة الوصل بين القاعدة النضالية والقيادة السياسية، وهكذا التقى الرئيس بالشبيبة وركّز أمام ممثليها على ضرورة " أن نعتز بتاريخنا ونتمسك به ونعمل على إبراز أمجاده، لأن الشعب الذي لا يعتز بتاريخه الوطني يفقد شخصيته بل ومقوماته كشعب" (..) ثم استقبل الرئيس المجلس الوطني للفلاحين ثم أعضاء اللجنة التنفيذية للاتحاد العام للعمال الجزائريين (..) ثم حضر جانبا من أشغال مجلس الاتحاد العام للنساء (..) واختتم اللقاءات بالمشاركة في جانب من أشغال المجلس الوطني للمجاهدين.

وتستقبل الجزائر الرئيس الموزمبيقي ساموروا ماشيل الذي لم يفته أن يقول للرئيس وهو يضحك: " أنا اليوم جنرال وأنت وزملاؤك الذين علمتموني ما زلتم عُقداء، وهذا أمر غير مقبول".



مع الرئيس الموزمبيقي سامورا ماشيل



مع الجينرال جياب

ثم تستقبل الجزائر الجنرال جياب الذي التقاه الرئيس بالطبع، وتحدث القائد الفيتنامي المرموق مطولا في ندوة جماهيرية عن الكفاح ضد الاستعمار قال فيها : "لقد اكتشفنا بأن الاستعمار تلميذ غبي لا يستفيد من الدروس التي تلقاها منا"[23].

ورأيت اختتاما لنشاطات هذا العام واستجابة لطلب الصديق فؤاد مطر ليجري حوارا مع الرئيس، تم إعداد بالطريقة المألوفة، واستعرض فيه الرئيس ما تم إنجازه بالنسبة لكارثة الأصنام، وقال إجابة على سؤال الصحفي المُتعلق بالرد الجزائري على برقية التعزية التي تلقاها من العاهل المغربي بأننا: "مسلمون ونحمل للشعب المغربي كل التقدير، ورسالة ملك المغرب كانت تعبيرا عن مشاعر الشعب المغربي الشقيق تجاه الشعب الجزائري، وليس من تقاليدنا تجاهل مشاعر الأخوة النبيلة".

وتناول الرئيس عدم المُشاركة الجزائرية في قمة عمان وتساءل : "كيف يُمكنني أن أقنع الشعب الجزائري بمشاركتي في مؤتمر يهم القضية الفلسطينية لا يُشارك فيها أول المعنيين بالقضية؟".

وقال الرئيس ردًا على سؤال تم إعداده خصيصا مع فؤاد ويتعلق بالقمة الإسلامية المُقبلة: "قراراتنا قرارات جزائرية تتخذ انطلاقا من المبادئ الثابتة للثورة الجزائرية وتعبر عن إرادة شعبنا وتأخذ بعين الاعتبار كل المعطيات

---

23 – فو نغوين جياب (Vo N'guyen Giap) بطل الثورة الفيتنامية، درس التاكتيك العسكري في الصين وارتبط بالزعيم الفيتنامي هو شي منه وتولى تحت قيادته محاربة الغزو الياباني للفيتنام إلى حين استسلامه، وشارك في تكوين حزب الفييت منه ثم في إعلان جمهورية الفيتنام الديموقراطية، وكان هو القائد العسكري للقوات الفيتنامية التي حاربت الإحتلال الفرنسي وانتصرت عليه في عدة معارك كان أهمها معركة ديان بيان فو الشهيرة في 1954، ثم قاد حرب العصابات ضد الوجود الأمريكي حيث أدهش العالم بعبقريته العسكرية، وقام بتنظيم الدفاعات الجوية للبلاد ما جعل القادة العسكريين الأمريكيين يتفادون أي محاولة لاحتلال الفيتنام الشمالي، وتولى بعد التحرير مناصب هامة في الهرم القيادي الفيتنامي على مستوى الحزب والدولة، وقد زار الجزائر وأدهش من استقبلوه بفكره الثوري وبذكائه وبتواضعه.

الأساسية للقضايا المطروحة، ومؤتمرات القمة ليست مجرد مناسبة لالتقاط الصور وتبادل الابتسامات وإصدار البلاغات التي ترضي الجميع مع تسريب أنباء معينة في الكواليس (ويبدو هنا وكأننا كنا ننظر بعين الغيب لما سوف يحدث في اجتماع مكة)

وأشار الرئيس لدور الجزائر في قضية الرهائن الأمريكيين الذين قامت الجزائر بجهود مضنية لإطلاق سراحهم (وعتمت على ذلك معظم وسائل الإعلام العربية الرسمية) فقال: "نحن نرى أن دورنا في القضية كان عاديا، فنحن نمثل المصالح الإيرانية في واشنطن، وهناك مُشكل إنساني موجود بين إيران والولايات المتحدة الأمريكية، والطرفان يطلبان منا المساهمة في إيجاد حل (وكان اختيار أسلوب التواضع هنا أمر مقصودا وأعتقد أنه كان له دور في إحساس كثيرين بالقوة الجزائرية الهادئة والفاعلة في الوقت نفسه) وتناولت الأسئلة بالطبع مأساة الحرب العراقية الإيرانية، واستعرض الرئيس هنا موقف الجزائر منذ 1975 ودورها في احتضان توقيع الاتفاقية بين البلدين، وقال : "نحن لا ننسى مواقف الشعب العراقي النبيلة أثناء كفاحنا المُسلّح، ونؤمن بأن العراق هو عُمق استراتيجي لجبهة المواجهة مع العدوّ الصهيوني، لكننا لا نستطيع أيضا أن نتناسى الوضعية التي نتجت عن قيام الثورة الإيرانية، التي نقلت إيران من الصف المُعادي للأمة العربية إلى الصف المُتعاطف معها (..) ولا يمكن أن أنسى أن العلم الفلسطيني يرفرف اليوم في طهران مكان العلم الإسرائيلي".

ثم قال الرئيس في حديثه لفؤاد مطر : "العالم الإسلامي في آسيا وإفريقيا هو عمق استراتيجي للوطن العربي، وكلاهما يجب أن يكون كلا متكامل في مواجهة التحديات الدولية، ونحن لا يُمكن أن نشجع النعرات التي أطفأها الإسلام أو خلق الأحقاد بين القوميات التي وحد بينها، ومن هنا قدّرنا خطورة الصراع الذي يتحول من نزاع بين بلدين إلى صدام بين قوميتين (..) والبعض

يقول بأننا نسوّى بين المُعتدي والمعتدى عليه، ونحن نقول أننا دُعاة سلام ولسنا قضاة".

ويلتقي الرئيس بالصحافة الوطنية يوم 25 ديسمبر، وترك للصحافيين حرية كتابة انطباعاتهم عن اللقاء، وكانت الكتابات في معظمها جيدة، وكان هذا أسلوبا جديدا وإن كنت أعترف أنني كنت ألاحق بعض الأقلام هاتفيا للتأكد من إيجابية النتائج بالنسبة لهذه التجربة.

وتم إنشاء المجلس الأعلى للغة الوطنية في نهاية الأسبوع الأول طبقا لقرار الدورة الرابعة للجنة المركزية، وكنت أتفهم أن بعض الرفقاء وفي مقدمتهم عبد القادر حجار كانوا يريدون أن يحمل المجلس تعبير "اللغة العربية" بدلا من "اللغة الوطنية" ولكنني كنت مقتنعا برأيي، واتفق معي الرئيس انطلاقا من أن استعمال تعبير اللغة الوطنية يجب أن يشير آليا إلى اللغة العربية.

وكان المؤسف هو أن هذا تغير فيما بعد وفُرض عنوان المجلس الأعلى للغة العربية، ربما ليفتح الباب أمام مجالس عليا للغات أخرى، ولهذا حديث آخر، ويُنصب الرئيس المجلس الأعلى، ويتولى رئاسته الأخ مولود قاسم نايت بلقاسم، ولكن نشاطه لم يعد كما كان في مرحلة ملتقيات الفكر الإسلامي، وكان واضحا أن أحداث ابريل وموقفه منها كان بالنسبة له بداية النهاية.

ويعرف الأسبوع الأخير من 1980 احتضان قصر الأمم للدورة الرابعة للجنة المركزية، وتلقيت خلال الدورة درسا أتصور أنه جاز على ذكائي. فقد كنت مقررا للجنة ملف الصحة، وتصارعتُ حوله كثيرا مع وزير الصحة آنذاك عبد الرزاق بو حارا في محاولة لإقناعه باعتماد طريقة "نصف الوقت" بالنسبة للأطباء العموميين بإلزامهم بالعمل نصف النهار في مؤسسات الدولة مقابل أجر رمزي، ويترك لهم باقي النهار للعيادات الخاصة، وهو في تصوري أحسن النظم المُلائمة للوضعية الجزائرية.

وقلت لوزير الصحة بأن فتح الباب الجزئي أمام الأطباء سيخفف من التزامات الدولة المادية وسيوفر أعدادا هامة من الأطباء في كل التخصصات (وكان هذا هو النظام الذي ناديتُ به منذ منتصف الستينيات وكتبت آرائي المتحمسة له في مجلة الجيش وتم تطبيقه فعلا، وتطبيق نظام مثيل للأخصائيين).

ولكن الوزير رفض رفضا قاطعا هذه الفكرة وتمسك بنظام القطاع العام بالنسبة لجميع الأطباء، وهو ما كانت تنادي به الاتجاهات اليسارية، ودعمه في موقفه أحد كبار المُساعدين السابقين للأخ يحياوي (والذي أصبح فيما بعد وزيرا للتربية والتعليم لعدة شهور) الذي قال لي بوضوح بأنه لو فتح الباب أمام الأطباء لممارسة العمل الخاص فيجب أن نقوم بنفس الشيئ بالنسبة للمعلمين.

والمؤسف أن القطاع الخاص فرض نفسه بعد ذلك نتيجة لتواطؤات كثيرة وبتأثير الفوضى التي عرفتها البلاد في نهاية الثمانينيات، وأصبحت معظم مستشفياتنا اليوم مما يمكن أن يكتب على بابه "الداخل مفقود والخارج مولود"، بينما ازدهرت العيادات الخاصة التي زُوّدت بأحسن التجهيزات وأحدثها، بعد أن أصبحت مصدر دخل مالي هائل نتيجة لبروز طبقة طفيلية جديدة.

ولم يكن حال المدارس بأحسن حظا، وبرزت المدارس الخاصة التي تراوغ في تطبيق قرارات الدولة، خصوصا فيما يتعلق باللغة، وازدهرت الدروس الخصوصية إلى درجة أن هناك من حولوا جوانب من بيوتهم إلى مدارس ليلية، وانهارت وضعية المُعلمين فأصبح منهم من ينتظر شهر رمضان ليفتح حانوتا صغيرا لبيع الزلابية وقلب اللوز، ودخلت الرشوة حتى بعض الأوساط الجامعية، خصوصا بالنسبة لبعض الطلبة العرب الأثرياء ولبعض الدبلوماسيين.

وتلقيت خلال الدورة درسا كان فخا وقعت فيه ثم ندمت عليه فيما بعد، وتعلق الأمر بنص لائحة الصحة التي كان يجب أن تصادق عليها الدورة، فقد

كان النص باللغة العربية وكان طويلا إلى درجة مزعجة، واقترحتُ على رئيس اللجنة (وزير التجارة في عهد الرئيس بو مدين والذي عرف بمبالغته في التمسك بالعربية أمام الرئيس ثم بالسخرية من بعض لهجاتها وراء ظهره) أن نعد موجزا للتقرير الذي يُقدم كاملا للأعضاء، ولكنه رفض واضطررت إلى قراءة النص الطويل المُمل على مسامع أعضاء بلغ منهم اليأس كل مبلغ، وإلى درجة أن الرئيس كان يُشير لي بمحاولة الاختصار، وهو ما لم يكن ممكنا لأن المفروض أن اللجنة المركزية تصادق أساسا على ما تسمعه.

وأعتقد أنني كسبت عداوة كثيرين في ذلك اليوم وهو ما أُسعد كثيرين أيضا.

واختتم عام 1980 بوفاة عبد الحفيظ بوصوف، الشهير بسي مبروك، وكان الغريب أنه مات وهو يضحك بعمق إثر سماعه عبر الهاتف لنكتة من أحدهم[24].

24 – العقيد سي مبروك واحد من عمالقة الثورة التحريرية ويُعتبر والد المخابرات الجزائرية ورائد الإذاعة السرية، وهو من منطقة ميلة في الجزائر التي خرجت منها قيادات الدولة الفاطمية وهي تتجه نحو المهدية في تونس، وكان قائدا للناحية العسكرية الخامسة (وهران) التي تولاها بعده العقيد هواري بو مدين، وأصبح هو وزير للتسليح والاتصالات التي تمثل أهم استثناءات مؤسسات الثورة، إذ ظل أعضاؤها مرتبطين ببعضهم البعض حتى بعد استرجاع الاستقلال، ويحملون الاسم الذي تشير له الحروف الأولى من اسم الوزارة بالفرنسية (مالغ MALG).

وبوصوف واحد من ثلاثي "الباء" (Le trois B) الذي أصدر الحكم بإعدام عبان رمضان، والآخران هما بلقاسم كريم وبن طوبال الأخضر، أو الشينوا، نظرا لملامحه الصينية.

وفضل بوصوف بعد استرجاع الاستقلال، كبعض القياديين الآخرين، الابتعاد عن مناصب الدولة مفضلا عليها الأعمال الخاصة، وتلقى دعم الرئيس بومدين في هذا المجال.

(أنظر عاشور شرفي – الطبقة السياسية الجزائرية– مطبوعات القصبة، والذي استعنت كثيرا به بقاموسه كما استعنت بدليل الجزائر السياسي لرشيد بن يوب، ولهما مني كل التقدير والشكر).

الفصل الخامس

الانطلاقة الجديدة

(1)

بدا الشاذلي بن جديد في انطلاقة عام 1981 أكثر ثقة بالنفس بعد أن تغيرت وضعية الحزب بتقلص نفوذ محمد الصالح يحياوي إثر المؤتمر الاستثنائي في يونيو 1980 وتكوين قيادة جديدة حملت اسم الأمانة الدائمة للجنة المركزية.

واختار الرئيس الأخ محمد الشريف مساعدية لتولي أمر الجهاز الحزبي في قصر زيغود يوسف، وعندما جاء وقت إعداد القرار حدث تردد في وصف المسؤولية التي تسند إليه، فمن قائل باختيار تعبير "الأمين الدائم للجنة المركزية" وهو ما كان يُمكن أن يخلق لبسا مع صفة الأمين العام للحزب، وهي صفة رئيس الجمهورية، وهناك من تحدث عن رئاسة اللجنة أو إدارتها.

وكان الاقتراح الذي أخذ به هو "مسؤول الأمانة الدائمة للجنة المركزية"، ولا أذكر أنني تشاورت مع أحد حوله إذ كنت أخشى المزايدات والمناقصات، وطرحته على الرئيس مباشرة فقبله بحضور محمد الشريف نفسه.

وكان من العوامل التي خلقت جو شعبيا متحمسا المشروع الذي حمل اسم "مشروع ضد الندرة" (*PAP*) أو (*Programme Anti- Pénurie*) الذي قُصد به التخفيف عن المواطنين باستيراد الكثير من المواد التي كانوا في شوق لها وحرمتهم منها أيام التقشف، وبدأ ذلك باستيراد الموز من أمريكا الجنوبية[203]، (وليس من إفريقيا) وتواصل حتى أصبحنا نستورد السمك المُدخن والآلات الموسيقية التي وجدت مكانها في أرفف أسواق الفلاح، بجانب اللحوم والأسماك المُجمدة، ويُقال أن تلك المرحلة كانت مولد ما أصبح يُسمى فيما بعد شركات الاستيراد والاستيراد (وليس التصدير والاستيراد كالمعتاد) وتمكن كثيرون من تحقيق أرباح كبيرة من هذه العمليات، ربما كانت هي التي دفعت عبد الحميد إبراهيمي فيما بعد للحديث عن 25 مليارا نهبت من خزينة الدولة عبر الرشاوى والأثمان غير الحقيقية للبضائع المستوردة، وهو أمر أتصور أن عبد الحميد في صدارة من يتحملون مسؤوليته حتى ولو لم يكن هو من بين المستفيدين ، لأن نزاهة الرجل كانت فوق الشكوك.

ولقد كانت الفكرة استكمالا لمنطق التخفيف على المواطنين الذين عانوا من التقشف سنوات طويلة، وبدأت بإلغاء تصريح الخروج من التراب الوطني وبالسماح بحجم من العملة الصعبة لكل مسافر، وهي فكرة لا جدال في أنها كانت ضرورية لتحسين صورة الحكم الجديد، لولا ما حدث من مبالغات دفع إليها ارتفاع أسعار النفط، وبحيث بدا الأمر كأنه رشوة للجماهير، التي ستدفع الثمن غاليا عند انهيار أسعار الذهب الأسود بعد انتصاف الثمانينيات.

لكن هذه العملية الهامة لم يواكبها عمل آخر يستهدف الاستفادة من أموال الهجرة في الخارج على غرار أشقائنا في تونس والمغرب ومصر وتركيا وغيرها، بوضع قوانين واضحة وعادلة وعملية تضمن للدولة حقوقها وتحفظ للمواطن حقوقه.

لكن المؤسف أن النظام المالي في الجزائر سار في ركاب مدراء المصانع والتكنوقراط والشرائح الطفيلية التي أفرزتها عملية التنمية السريعة وثغراتها، وهؤلاء كلهم كان يهمهم قضاء فترات الراحة في فرنسا، ويلجأون للحصول على حاجتهم من الفرنك إلى عمليات المقاصصة مع المهاجرين هناك، وهو ما قاد إلى عمليات مضاربة حقيقية على الدينار.

---

[203] - اعتبر الموز من الكماليات فلم يكن يستورد، وتفهم الكثيرون هذا الإجراء في مرحلة اتجهت فيها كل الجهود للبناء الصناعي وتشييد القرى النموذجية للفلاحين وتجهيزها بكل الوسائل التي تعرقل النزوح الريفي.

ويروي لي الأخ على تونسي مدير الأمن الوطني وبحضور الأخ عبد القادر بن صالح رئيس مجلس الأمة، أنه كان يمتنع عن أكل الموز في الحفلات التي كان يحضرها خارج الوطن، وبرد فعل شخصي.

أغسطس 2007

الفصل الخامس

الانطلاقة الجديدة

(1)

بدا الشاذلي بن جديد في انطلاقة عام 1981 أكثر ثقة بالنفس بعد أن تغيرت وضعية الحزب بتقلص نفوذ محمد الصالح يحياوي إثر المؤتمر الاستثنائي في يونيو 1980 وتكوين قيادة جديدة حملت اسم الأمانة الدائمة للجنة المركزية.

واختار الرئيس الأخ محمد الشريف مساعدية لتولي أمر الجهاز الحزبي في قصر زيغود يوسف، وعندما جاء وقت إعداد القرار حدث تردد في وصف المسؤولية التي تسند إليه، فمن قائل باختيار تعبير "الأمين الدائم للجنة المركزية" وهو ما كان يُمكن أن يخلق لبسا مع صفة الأمين العام للحزب، وهي صفة رئيس الجمهورية، وهناك من تحدث عن رئاسة اللجنة أو إدارتها.

وكان الاقتراح الذي أخذ به هو "مسؤول الأمانة الدائمة للجنة المركزية"، ولا أذكر أنني تشاورت مع أحد حوله إذ كنت أخشى المزايدات والمناقصات، وطرحته على الرئيس مباشرة فقبله بحضور محمد الشريف نفسه.

وكان من العوامل التي خلقت جو شعبيا متحمسا المشروع الذي حمل اسم "مشروع ضد الندرة" (*PAP*) أو (*Programme Anti- Pénurie*) الذي قُصد به التخفيف عن المواطنين باستيراد الكثير من المواد التي كانوا في شوق لها وحرمتهم منها أيام التقشف، وبدأ ذلك باستيراد الموز من أمريكا الجنوبية[203]، (وليس من إفريقيا) وتواصل حتى أصبحنا نستورد السمك المُدخن والآلات الموسيقية التي وجدت مكانها في أرفف أسواق الفلاح، بجانب اللحوم والأسماك المُجمدة، ويُقال أن تلك المرحلة كانت مولد ما أصبح يُسمّى فيما بعد شركات الاستيراد والاستيراد (وليس التصدير والاستيراد كالمعتاد) وتمكن كثيرون من تحقيق أرباح كبيرة من هذه العمليات، ربما كانت هي التي دفعت عبد الحميد إبراهيمي فيما بعد للحديث عن 25 مليارا نهبت من خزينة الدولة عبر الرشاوى والأثمان غير الحقيقية للبضائع المستوردة، وهو أمر أتصور أن عبد الحميد في صدارة من يتحملون مسؤوليته حتى ولو لم يكن هو من بين المستفيدين ، لأن نزاهة الرجل كانت فوق الشكوك.

ولقد كانت الفكرة استكمالا لمنطق التخفيف على المواطنين الذين عانوا من التقشف سنوات طويلة، وبدأت بإلغاء تصريح الخروج من التراب الوطني وبالسماح بحجم من العملة الصعبة لكل مسافر، وهي فكرة لا جدال في أنها كانت ضرورية لتحسين صورة الحكم الجديد، لولا ما حدث من مبالغات دفع إليها ارتفاع أسعار النفط، وبحيث بدا الأمر كأنه رشوة للجماهير، التي ستدفع الثمن غاليا عند انهيار أسعار الذهب الأسود بعد انتصاف الثمانينيات.

لكن هذه العملية الهامة لم يواكبها عمل آخر يستهدف الاستفادة من أموال الهجرة في الخارج على غرار أشقائنا في تونس والمغرب ومصر وتركيا وغيرها، بوضع قوانين واضحة وعادلة وعملية تضمن للدولة حقوقها وتحفظ للمواطن حقوقه.

لكن المؤسف أن النظام المالي في الجزائر سار في ركاب مدراء المصانع والتكنوقراط والشرائح الطفيلية التي أفرزتها عملية التنمية السريعة وثغراتها، وهؤلاء كلهم كان يهمهم قضاء فترات الراحة في فرنسا، ويلجأون للحصول على حاجتهم من الفرنك إلى عمليات المقاصصة مع المهاجرين هناك، وهو ما قاد إلى عمليات مضاربة حقيقية على الدينار.

---

[203] - اعتبر الموز من الكماليات فلم يكن يستورد، وتفهم الكثيرون هذا الإجراء في مرحلة اتجهت فيها كل الجهود للبناء الصناعي وتشييد القرى النموذجية للفلاحين وتجهيزها بكل الوسائل التي تعرقل النزوح الريفي.

ويروي لي الأخ علي تونسي مدير الأمن الوطني وبحضور الأخ عبد القادر بن صالح رئيس مجلس الأمة، أنه كان يمتنع عن أكل الموز في الحفلات التي كان يحضرها خارج الوطن، وبرد فعل شخصي.

وأضيف إلى أولئك عدد من العاملين في القطاع المالي والاقتصادي وقطاعات أخرى لم يتوقفوا عند حدود التمتع براحة يُمكن أن تكون مُستحقة فبدأت عملية تهريب حقيقي للأموال كانت في واقع الأمر نزيفا أضعف الدولة لصالح أفراد أقاموا مصانع ومتاجر وفتحوا فنادق ومقاهي خارج الوطن، وقيل أن أسوأ ما في الأمر هو أن ذلك تم بتغطية من مصالح الشرطة الأجنبية.

وتكونت بشكل شبه علني شبه بنوك موازية جعلت المواطن الجزائر يتراجع عن تمويل أسرته في الجزائر عن طريق البنوك الرسمية الجزائرية ويكلف بذلك أفراد يعطيهم المبالغ بالعملة الأجنبية ويعطونها لآله بالعملة المحلية.

وشيئا فشيئا بدأ الدينار يتعثر، ثم زاد خلل الوضع الاقتصادي مع انهيار أسعار النفط في منتصف الثمانينيات كما سوف يأتي.

وكان وراء جل عمليات التخريب هذه أعداد من الطلقاء وبقايا القوة الثالثة من حملة الفكر الفرنسي والتجربة التقنية المحدودة، الذين لجئوا بالطبع إلى مستشارين فرنسيين لم يصدقوا المشورة، وراحوا يقتسمون الفوائد.

وكثيرون يُحمّلون الرئيس هواري بو مدين نتائج الاعتماد الكلي على ما تركته لنا الإدارة الفرنسية من إطارات وأشباه إطارات، وهذا ظلم كبير للرجل لأن كثيرا من هؤلاء لم تكن تنقصهم الوطنية، ولقد أعطوا الكثير من الجهد الصادق والعمل الدؤوب، لكن المُشكل هو أن كثيرا من بينهم، وبحكم تكوينهم المحدود الذي لم يكن يتجاوز كثيرا إتقان اللغة الفرنسية، لجئوا إلى تقنيين جزائريين يفتقدون الانتماء أو مستشارين أجانب ينقصهم الولاء أو موظفين عاديين يتقنون فن الانصياع، وتمكن بعض هؤلاء من السيطرة على فكر كثيرين من الوطنيين والمجاهدين، بالكلمات الذليلة وبالسهرات الصاخبة وبالتحالفات السياسية بل وبالمصاهرات العائلية، إلى أن أمكن احتواء كثير منهم، بل وتحريضهم ضد الشق الآخر من الشعب الذي حدث أنه لا يتعامل بالفرنسية.

ولعل صورة أحمد مدغري رحمه الله ممن يُمكن أن تنطبق عليها بعض هذه الملامح، وتسميته باب الإدارة الجزائرية فيها الكثير من الصدق ولكنها ليست نسبة تستحق أن يعتز بها الإنسان كل الاعتزاز، فقد ورثت إدارتنا أسوأ ما في الإدارة الفرنسية من بيروقراطية وفشلت في أن تأخذ عنها ديناميكية الحركة المستقبلية نحو الأحسن.

ومن هنا أدرك الرئيس بو مدين في منتصف السبعينيات مدى ما تمثله الإدارة من عرقلة حقيقية لمسيرة الثورة، وهو ما يُفسر خطبه في قسنطينة وفي تيزي وزو وفي تلمسان، ثم إصراره العنيد على إعداد الميثاق الوطني، ليكون قاعدة إيديولوجية للحزب مستمدة من التجربة اليومية التي يتميز بها الجهد الوطني، وليقود ذلك إلى بناء حزب جبهة التحرير الوطني على أسس سليمة ومتطورة تمكنه فيما بعد من التحول إلى مجموعة أحزاب تلتف حول المبادئ الإستراتيجية للثورة، وإن اختار كل منها تكتيكا مغايرا، وقد سبق أن تطرقت لذلك بالتفاصيل وأعطيت الأدلة والبراهين عليه .

وستعرف سنة 1981 عدد من الانجازات التي مسحت نسبيا آلام زلزال الأصنام، بفضل هبة الشعب الجزائري التضامنية وحسن التنظيم في مجموعه، وسيسجل التاريخ أن الجزائر تمكنت من تلبية متطلبات المتضررين من الزلزال بشكل تفوق إلى حد كبير على ما قامت به دول كُبرى أصابتها الزلازل أو الكوارث الطبيعية ومن بينها إيطاليا .

وكان من أهم نشاطات المجلس الشعبي الوطني الانطلاق في دراسة قانون التنازل عن أملاك الدولة، والذي سيعطي المواطنين فرصة تملك مساكنهم ومتاجرهم بأثمان معقولة تريح الدولة من عبء إدارة تلك الأملاك بكل ما ينتج عن ذلك من إهمال لوضعيتها وضياع لأموال الدولة.

....

كانت أول مرة سمعت فيها بهذا الأمر خلال زيارة الرئيس بو مدين للمدرسة التقنية العسكرية منذ سنوات، عندما تساءل أحد المرافقين للرئيس، وأظنه الأخ عبد المجيد أعلاهم رحمه الله، عمّا إذا لم يكن من المنطقي أن تتخلص الدولة من عبء الأملاك الشاغرة وتقوم بتمليكها للمواطنين، وأذكر أن رد

الرئيس لم يكن متعاطفا مع الفكرة، وقال بأنه ليس متأكدا بأن الأثمان التي ستدفع فيها ستكون فعلا أسعارا حقيقية، وبأن العملية لن تكون فرصة ينتهزها البعض للقيام بعملية نهب تحت ظل القانون.

والواقع أن القانون الذي قدم للمجلس الوطني في 1981، وفي حدود ما أتذكر، كان يشمل عددا كافيا من ضمانات العدالة، ومن الحرص على حقوق الدولة ومكافحة المضاربة وسوء استغلال القانون من قبل من يملكون مقدرة التحايل على القانون.

والذي حدث في البداية هو أن كثيرين استفادوا من القانون، وقلة نادرة لم تقتنع بجديته فقاطعته، لكن الزمام أفلت بعد سنوات وتحققت نبوءة الرئيس الراحل، واشترى مسؤولون بيوتا بالتسهيلات المُتاحة لهم قانونيا ثم أعادوا بيعها بسعر السوق ليشتروا، باسمهم أو باسم أفراد من أسرهم، بيوتا أخرى قاموا بتأجيرها لبعثات أجنبية مقابل إيجار يدفع غالبا في الخارج بالعملة الأجنبية، ثم جاروا على حق المواطنين في المساكن الاجتماعية وفي الحصص التي تبنيها الولايات والبلديات، وكثيرون منهم اليوم من كبار المُترفين الذين لا يدفعون للدولة ضرائب توازي ما يحصلون عليه.

وكان هذا عنصرا من العناصر الرئيسية التي فجرت الأزمة في نهاية الثمانينات.

وكانت أول تحركات الرئيس الميدانية زيارة عملية قام بها لولاية المدية في جو شديد البرودة، وأعدت كالعادة نقاطا لتدخل الرئيس في جلسة العمل التي جمعته بالسلطات المحلية، وكنت سعيدا والرئيس يطلق في كلمته التوجيهية أفكارا جديدة مثل: "ضرورة إعداد خريطة لكل ولاية توضح طاقاتها وإمكانياتها الحقيقية"، وبأن: "التوازن الجهوي لا يعني فقط توازنا بين ولايات الجمهورية ولكن أيضا بين مناطق الولايات الواحدة، أي بين بلديات الولاية الواحدة".

وشهدت المدية تدشين قرية فلاحية نموذجية (لا أدري ماذا حدث بها ولها اليوم) حملت اسم الرائد احمد بن سالم، الذي ربما كان من اختار اسمه للقرية يعرف صلة الصداقة بينه وبين الرئيس[204].

وتم إنشاء المجلس الأعلى للغة الوطنية في نهاية الأسبوع الأول طبقا لقرار الدورة الرابعة للجنة المركزية، وكنت أتفهم أن بعض الرفقاء وفي مقدمتهم عبد القادر حجار كانوا يريدون أن يحمل المجلس تعبير "اللغة العربية" بدلا من "اللغة الوطنية" ولكنني كنت مقتنعا برأيي، واتفق معي الرئيس انطلاقا من أن اللغة الوطنية يجب أن يشير معناها آليا إلى اللغة العربية.

وكان المؤسف هو أن هذا تغير فيما بعد وفُرض عنوان المجلس الأعلى للغة العربية، ربما ليفتح الباب أمام مجالس عليا للغات أخرى، ولهذا حديث آخر.

وشهد منتصف شهر يناير انتقال الشيخ إبراهيم بيوض إلى رحمة الله، وهكذا طُويت صفحة العالم الجليل الذي يعود له فضل أداء الإباضيين لصلاة الجمعة مع بقية الجزائريين، وتزامنت وفاته مع المولد النبوي الشريف [205].

وفي المرحلة التي بدأ فيها الرئيس الشاذلي في تسيير أمور البلاد حدث الكثير مما يبعث على التفاؤل السياسي عبر أنشطة دولية مرتبطة بالقوى العظمى، وأهمها الانتصار المتميز للدبلوماسية الجزائرية الذي دعم من تألق وزيرها محمد الصديق بن يحيى، وهو حل قضية الرهائن الأمريكيين الذين احتجزهم شباب الثورة الإيرانية في السفارة الأمريكية بطهران منذ الانقلاب الذي عصف بالشاه، ولم تحرك واشنطن ساكنا لدعمه ولحمايته بل تركته يسقط كالثمرة المتعفنة، تماما كما تنبأ الرئيس الجزائري الراحل في رسالته التي بعث بها إلى فيديل كاسترو عبر عبد المجيد أعلاهم.

---

204 - أسجل هنا رعاية الرائد بن سالم لي عندما تحملت لعدة شهور مسئولية القسم الطبي لمنطقة الجزائر العسكرية في منتصف الستينيات، بعد أن خرجت من البحرية إثر صراعات مع بعض المسؤولين فيها لم يعد ممكنا معها أن أقوم بنفس النشاط الذي كنت انطلقت فيه.

205 - كان الرئيس هواري بو مدين مهتما كل الاهتمام بهذه القضية التي كلف بها وزير الأوقاف الأسبق الأستاذ العربي سعدوني رحمه الله، والذي أنجزها بفضل تفهم الشيخ بيوض، وهكذا تم توحيد صلاة الجمعة في الجزائر من أقصاها إلى أقصاها، وهو ما أسعد الرئيس بو مدين الذي كان حريصا على تدعيم كل أواصر الوحدة الوطنية، وهو ما يفسر موقفه من قضية اللغة العربية وإصراره على وحدة اللغة الوطنية.

وهكذا أطلقت طهران الرهائن الأمريكيين وعددهم 52 يوم 20 يناير بعد احتجاز مهين لمدة 444 يوما، أي منذ 4 نوفمبر 1980، وقامت الجزائر بدور هام لإطلاق سراحهم مقابل إفراج واشنطن عن الأرصدة الإيرانية التي جمدتها بعد قيام الثورة الإيرانية، والتزام واشنطون بعد التدخل في الشؤون الإيرانية وتجميد أموال الشاه (وكان حجمها مصدر خلاف كبير بين الطرفين) وقام السفير الجزائري في طهران عبد الكريم غريب بدور رئيسي في العملية، التي انتهت بوصول الرهائن إلى الجزائر على متن إحدى طائراتنا، حيث كان في استقبالهم وزير الخارجية محمد بن يحي وكاتب الدولة الأمريكي وارن كريستوفر، وكان ذلك بداية متميزة لعهدة الوزير الجزائري، الذي ألقى كلمة الترحيب بالإنغليزية في القاعة الشرفية لمطار "هواري بو مدين"، كما أصبح يُسمى منذ الدورة الثانية للجنة المركزية للحزب.

وقيل آنذاك أن الجانب الإيراني قد تواطأ مع عناصر أمريكية لتأخير عملية الإفراج، لتتزامن النتيجة السعيدة مع الدقائق الأولى لبدء ولاية الرئيس رونالد ريغان، وكثيرون يزعمون تجاوب الطرف الجزائري في ذلك مع الإيرانيين كانتقام من الرئيس كارتر، عزاب عملية كامب دافيد التي أدانتها الجزائر، ولست أؤكد أو أنفي لكنني أروي ما سمعته شفويا.

وإذا كانت السنة الماضية هي سنة تدعيم العلاقات مع الوطن العربي فإن هذا العام سيشهد مشاركة الجزائر في القمة الثالثة لدول المؤتمر الإسلامي والجولة الإفريقية الكبيرة للرئيس الشاذلي والتي دامت نحو أسبوعين، وبدا واضحا أن من أهدافها تأكيد وضعية الأمن والاستقرار التي تعرفها الجزائر وفتح آفاق جديدة على مستوى الدول الإسلامية.

(2)

عقد المؤتمر الأول للدول الإسلامية في الرباط بالمغرب إثر قيام من قيل أنه مجنون يهودي بإشعال حريق في المسجد الأقصى تسبب في أضرار كبيرة لحقت به.

وتفجرت ردود فعل الشارع العربي إلى درجة رأت فيها القيادات امتصاص الغضب الموجود، وهو أسلوب برعت فيه القيادات العربية وهو ما وصل بالشارع العربي تدريجيا إلى وضعية في بعض كتاباتي بالبرود الجنسي.

لكن المؤتمر حقق أمرا بالغ الأهمية، ونتيجة للضغوط التي مارستها الجزائر، وهو قبول عضوية موريطانيا، التي كان المغرب يرفض الاعتراف بها كدولة مستقلة، وجاراه في ذلك كل العالم العربي باستثناء الجزائر وتونس، وحرمت موريطانيا بالتالي من دخول الجامعة العربي.

ثم كان المؤتمر الثاني في لاهور بباكستان عام 1974، وفيه قامت الجزائر بإزالة بقايا مخلفات الحرب التي كانت قد اشتعلت بين باكستان وجناحها الشرقي بدعم من الهند، وهو ما أدى إلى انفصاله ليصبح دولة جديدة باسم بنغلادش (وعدد سكانها كباكستان، الغربية سابقا، يتجاوز 120 مليون).

وجاء مجيب الرحمان من داكا إلى لاهور على متن الطائرة الرئاسية الجزائرية.

وعرف المؤتمر التجاوب الكبير بين بو مدين وبهوتو وبينه والملك فيصل على وجه الخصوص، وقيل أن فكرة القنبلة النووية الإسلامية ولدت هناك، كما عرف المؤتمر الخطاب الذي ارتجله الرئيس الجزائري الراحل وقال فيه تعبيره الرائع :"لا يمكن أن نطلب من المسلمين دخول الجنة بمعدة فارغة".

صورة وصول بو مدين للاهور *65 B* ثم صورة مع بهوتو *65-C*

....

وكانت مكة المكرمة هي مقر المؤتمر الثالث الذي كان أهم حدث خارجي افتتحت به الجزائر العام الثالث لولاية الرئيس الشاذلي بن جديد، ورافق الرئيس وفد هام ضم الأخوين محمد بن يحيى وزير الخارجية وعبد الحميد مهري وزير الثقافة والإعلام والشيخ عبد الرحمن شيبان وزير الأوقاف، وكذلك عدد من إطارات الخارجية من بينهم الأخ بغلي، والثلاثي الرئاسي بطبيعة الحال.

وجرت محاولة سعودية مغربية لفرض مشكلة الصحراء الغربية على المؤتمر بشكل بدا مسرحيا، وإذا كنت لا أفترض بالضرورة وجود أي درجة من سوء النوايا فإنه كان يُجسد حجما كبيرا من سوء التقدير.

ولا بد هنا من التفاتة سريعة لتلك القضية المعقدة ليمكن أن نفهم خلفياتِ كثير مما جرى في المؤتمر وعلى هامشه، لأن قصة الصحراء الغربية بسيطة لدرجة التعقيد

ولقد قلت يوما، في مجال تبسيط الأمر وتسهيل فهمه، ما أخذه عليّ البعض، وهو أن المأساة الحقيقية للقضية تكمن في أن كل الفرقاء على حق إذا أخذنا بعين الاعتبار منطلقات كل طرف، وسواء اتفقنا معه أم اختلفنا، وكانت نتيجة تعثر حل المشكلة أن تعثر كل شيئ في بناء المغرب العربي الكبير.

فالمغرب دولة عريقة كان لها بريقها الجهوي الذي يروى أنه كان يمتد يوما إلى تخوم السنغال، تماما كما كان نفوذ مصر يمتد إلى الشام والحجاز في عهد محمد علي، ونفوذ الدولة الفاطمية القادمة من شرق الجزائر يمتد إلى مصر ويبني فيها القاهرة ويقيم الجامع الأزهر.

وتفهُّمي للمنطق المغربي واحترامي له لا يمنع إيماني بالمنطق الجزائري والتزامي معه، حيث أنه، على وجه التحديد، يرفض نظرية الحقوق التاريخية التي كانت خلف مآسي المنطقة، ويلتزم بقرارات منظمة الوحدة الإفريقية القاضية باحترام الحدود الموروثة عند الاستقلال، طبقا لقرار منظمة الوحدة الإفريقية في 1963 بأديس أبابا والمدعم بقرارات المؤتمر الإفريقي في القاهرة عام 1964.

وربما كان المغرب العربي يُشكل بالنسبة لجيلنا والجيل الذي سبقنا حلما ضائعا يُشبه "الحب الأول"، الذي عبّر عنه إحسان عبد القدوس بقوله أن: "في حياة كل منا وهمٌ كبير اسمه الحب الأول".

وبدون غرق في ملفات التاريخ القديم، بما في ذلك بدايات المقاومة الجزائرية ضد الاستعمار الفرنسي، أكتفي بأن أذكّر بمدى ارتباط شعوبنا بالكفاح المُشترك ضد الاستعمار.

ولو تجاوزنا عن مرحلة كفاح الأمير عبد القادر بن محي الدين وما تعرض له فلا بد من تسجيل الدور الذي لعبه حفيده الأمير عبد الملك إلى جانب الأمير عبد الكريم الخطابي في سبيل تحرير المغرب العربي من الاستعمار، وربما كان للأمير عبد الملك على وجه التحديد دوره الرائد بالنسبة لرفيقه في الكفاح النبيل على أرض المغرب الشقيق.

وكان هناك الرباط الوثيق بين الشعب الجزائري والحركة الوطنية الليبية بقيادة شيخ الشهداء عمر المُختار.

نفس ذلك الحلم راود رائد الوطنية الجزائرية المعاصرة "مصالي الحاج" رحمه الله وهو يساهم في بناء "نجمة شمال إفريقيا" في أحضان الغربة الفرنسية، ويحرص على أن يُجمع فيها كل أبناء المغرب العربي، بمنطق ذلك العصر، وتعثرت أحلامه فقنع بأن تكون "النجمة" مقصورة على أبناء الجزائر إلى أن تطورت فأصبحت "حزب الشعب الجزائري".

وفي نهاية الأربعينيات كان مكتب المغرب العربي في القاهرة موقفا سياسيا عمليا أكدت فيه الجزائر ارتباطها بالمغرب العربي بجانب تونس ومراكش، حيث التقى الشاذلي المكي مع الجبيب بو رقيبة وعلال الفاسي وغيرهم، تحت رعاية الأمير عبد الكريم الخطابي الذي كان قد استقر في القاهرة.

وبعد أحداث وتطورات وصراعات جلها معروف اندلعت ثورة نوفمبر 1954 لتؤكد التزامها بتحقيق هدف وحدة المغرب العربي بإدراجه في صلب بيانها الأول، ثم جسدته على أرض النضال المسلح، وخصوصا عبر عمليات الشمال القسنطيني في 1955، تضامنا مع الشعب المغربي الشقيق ومع السلطان محمد الخامس رحمه الله، الذي عزله الاستعمار.

وأسهمت الجزائر في لقاء طنجة عام 1958 بحضور الأخ عبد الحميد مهري ، أيام لم يكن تعبير "المغاربية" قد عُرف، وهو تعبير ما زال يرفضه كثيرون لأنه يتجاهل الصفة العربية للمغرب، ويؤكد، بنسبة الصفة إلى الموصوف، خطأ شائعا يستعمل صيغة الجمع التي يرفضها النحويون.

كان المغرب العربي آنذاك ثلاثيا يضم مراكش والجزائر وتونس، ثم تطورت الأحداث بعد استقلال البلدان الثلاثة، وعرفت أواخر الخمسينيات وبدايات الستينيات ابتعادا تدريجيا عن الصورة السابقة، إذ تنامت طموحات إقليمية وتزايدت نزعات شوفينية وحدثت تطورات إقليمية غيرت المعادلة.

وجاءت التطورات، وبغض النظر عن المشروعية أو عدمها، لتخلق شرخا بين الأمل والواقع.
كان الوليد الموريطاني نقلة عددية إضافية للمغرب العربي، واعتبرت المملكة المغربية أن الدولة التي أنشئت في 1961 هي تناقض خلقه الاستعمار، كما قيل آنذاك، وكان أشقاء كثيرون في المغرب يرون في البلد الوليد جزءا من وطنهم.
وسيرا على هذا المنطق حدث ما يُطلق عليه، عفْةً، حرب الرمال، في 1963 (عندما غزت القوات المغربية شمال الغرب الجزائري وأطلق أحمد بن بله صرخته المشهورة ... "حقَرونا")، وقضي على نتائج العمليات العسكرية في لقاء باماكو، وألزمت القوات المتسربة بالعودة إلى نقطة انطلاقها، سواء تلك التي قامت بالغزو أو تلك التي راحت تحاول معادلة وجود بوجود، لكن التوتر الناشئ عن الغزو سيستمر نحو عقد من الزمان.
وللأمانة فإن الموقف المُشرف للرئيس المصري جمال عبد الناصر إلى جانب الجزائر يُسجل له بكل تقدير واعتزاز، فقد كانت مصر البلد العربي الوحيد الذي التزم عمليا مع الجزائر، وقيل يومها أن خصوم عبد الناصر التاريخيين التزموا مع الجانب الآخر.
وقررت المغرب يومها منع إذاعة الأغاني المصرية في وسائل البث المغربية، كرد فعل على موقف الرئيس المصري.
وكان موقف المناضل القبائلي العقيد موحاند أولحاج، كما سبق أن قلت، يستحق التذكير والتقدير، إذ أوقف تمرده العسكري ضد الرئيس بن بله وانضم بقواته إلى الجيش الجزائري.
وعرفت نهاية الستينيات وبداية السبعينيات انطلاقة جديدة تجسدت في تزايد التعاون الثنائي بين بعض الأقطار من جهة وتبلور أول مشروع ثقافي وحدوي عبر البث المشترك لبرنامج تيليفيزيوني شهري مُشترك تعده بالتناوب أقطار المغرب الثلاثي.
ويجب أن نتذكر هنا أن ليبيا لم تكن آنذاك ترى نفسها جزءا من المغرب العربي، فقد كانت اهتماماتها مشرقية بشكل بدا مطلقا، وكانت ترى أن فكرة المغرب العربي هي فكرة استعمارية تشبه فكرة الهلال الخصيب، وهي بالتالي تتعارض مع الانتماء القومي وإرادة الوحدة العربية، في حين أن النظرة الجزائرية المنبثقة من التمسك بروح أول نوفمبر والمتفهمة لمنطق العصر كانت ترى أن طريق الوحدة العربية يمر عبر توحيد الكيانات الجغرافية المتقاربة جغرافيا والمتكاملة اقتصاديا واجتماعيا، وبغض النظر عن الاختلافات السياسية.
غير أنه لا يمكن مقارنة الوضعية هنا بتلك التي عرفها اتحاد دول الخليج العربية (ويلاحظ أن النسبة العربية هناك هي للدول وليست للخليج) بالنظر إلى القطبية التي فرضتها ظروف النشأة وتطور الأوضاع في المنطقة، وخصوصا ببروز الرياض كقوة سياسية مؤثر وبروز الكويت كقوة مالية نشطة.
وهكذا لم يكن الوضع في منطقة المغرب العربي مشابها للوضع في الخليج.
فالمغرب ملكية تقليدية ذات توجه يميني مؤكد جعلها أقرب للغرب، وهي ترتبط بصلات أكثرَ من وثيقةٍ مع كل الملكيات والإمارات العربية، بل ومع بعض المحسوبين على اليسار العربي من أصحاب الطموحات الإقليمية، وتعتمد في تسليحها على المصادر الغربية.
والجزائر نظام ثوري ذو توجه يساري واضح جعلته مسيرته والتزاماته أقرب إلى الكتلة الاشتراكية التي يعتمد عليها أساسا في التسلح، وهو يتعامل مع الغرب من موقع الندية ويتبادل المنافع الاقتصادية مع واشنطن لكنه لا يتنازل عن مواقفه المبدئية خصوصا بالنسبة للصين أو للفيتنام أو لحركات التحرر الوطني بشكل عام.
وتونس نظام براغماتي أضاف إلى القاموس السياسي أثافي جديدة يمكن تسميتها بثلاثية "الدولة - الزعيم - الأمة"، واستفاد النظام من المعطيات الدولية والجهوية، ومن انضباط الشعب وتفهمه للظروف الاقتصادية وللمتطلبات السياحية، كما استفاد من وجود ثروة من الإطارات يتجاوز نسبة ما تعرفه الجزائر وربما المغرب، واختار، في ظروف سياسية معقدة اعتمدت أحيانا التصفية الجسدية، بناء نظام علماني لعله الوحيد من نوعه في الوطن العربي، ربما كان من أهم ركائزه حرية أكثر للمرأة استفادت منها بالدرجة الأولى شرائح بورجوازية معينة.

أما موريطانيا فكانت تحاول الخروج من الوضعية القبلية عبر نظام رئاسي حاول الاستفادة من كل الظروف الجهوية لتحقيق أكبر حجم ممكن من التنمية الوطنية، وكان للجزائر على وجه التحديد دورها الكبير في دعم خطواتها الأولى، خصوصا وأن معظم بلدان الوطن العربي رفضت الاعتراف بها تجاوبا مع الرغبة المغربية.

ذلك هو، بصورة برقية بالغة الاختصار، وضعُ المغرب العربي في مطلع السبعينيات، عندما بدأت أوروبا تحصد نتائج لقاء روما الاقتصادي المنطلق من مجمع الحديد والصلب، والذي ستبنى من خلاله وعلى أساسه الوحدة الأوروبية، مستفيدة من المصالحة التاريخية بين فرنسا "شارل دو غول" وألمانيا "كونراد أديناور"، أي المصالحة التي وضعت الحد النهائي لعداوة تاريخية سالت فيها الدماء أنهارا، وأطلقت عملية تضامن تاريخي جعلت من البلدين المحور الحقيقي للوحدة الأوروبية، وكان هذا هو المثال الذي كان يجب أن تستلهمه كل من الجمهورية الجزائرية والمملكة المغربية، خصوصا وأنه لم يكن بين أكبر بلدين في المغرب العربي عداوات دموية كالعداوات الأوربية.

لكن المصالحة بين فرنسا وألمانيا نجحت ليس لمُجرد أنه كان هناك كونراد أديناور والجنرال دوغول ولم يكن هناك أدولف هتلر والمارشال بيتان، ولكن أساسا لأن ألمانيا تخلت تماما عن أطماعها في الألزاس واللورين وفي دانزيغ، وحذفت من قاموسها منطق "المجال الحيوي"، وبغض النظر عما دفعها وغمّن دفعها إلي ذلك، وتخلصت في الوقت نفسه من أعباء التسليح بالإضافة إلى ما استفادت به من برنامج مارشال، ولست أدري لماذا يتعامى عن ذلك من يقارنون بيننا هنا وبينهم هناك بما يبدو أحيانا جلدا للذات العربية وتضخيما للإنجاز الأوروبي في حين أن الأمر بالغ السهولة لمن أراد أن يستقرئ التاريخ.

فقد كان على رأس كل من الجزائر والمغرب في الستينيات والسبعينيات زعيمان يمكن أن يُقال أن كلا منهما كاد يكون نقيضا للآخر، رغم أن كلا منهما كان بالغ الذكاء غزير الثقافة واسع الاطلاع، وكان كل منهما، إلى حد كبير، محصلة التجربة التي خاضها شعبه في مجال الكفاح من أجل الاستقلال الوطني، لكن المغرب كان أسير منطق لم يستطع الفكاك منه لضروريات داخلية أساسا.

وعليّ أن أسجل هنا للهواري بو مدين أنه كان صاحب الخطوة الأولى في السير نحو الحسن الثاني بعد جفاء الستينيات، الذي حاولت اللقاءات في تلمسان وإيفران التخفيف من حدته.

وهكذا انتزع الرئيس الجزائري المبادرة من التاريخ بوعي كامل لكل الأبعاد والمعطيات والتداعيات، وكان ذلك في يوليو 1971 عندما حدثت محاولة انقلاب الصخيرات [206].

يومها رفض بو مدين كل محاولة لتأليبه على العاهل المغربي (وهي قضايا عشتها شخصيا وسبق أن تحدثت عنها بالتفصيل غير المريح) وظل جالسا نهار السبت في مكتبه لا يبرحه حتى اطمأن على وضعية الملك المغربي وعلى استرجاعه لزمام الأمور، بعد أن أمنت له مصالح الرئاسة الجزائرية الاتصال الهاتفي مع الحسن الثاني، ونقل عنه يومها قوله بأن : "العرش المغربي هو ضمان للاستقرار لا في المغرب وحده وإنما في المنطقة كلها"، وهو بالطبع ما أثار عليه حملات الانتقاد من جنرالات المقاهي ووحدويي الساحات العامة في المشرق العربي ومن يعيشون عندنا شعارات مستوردة بسذاجة من المشرق العربي.

غير أن بو مدين كان يدرك تمام الإدراك بأن وجود المغرب العربي كقوة مؤثرة على الأحداث، وخصوصا بالنسبة للتعامل مع أوروبا، يتطلب استئصال عوامل التوتر بين دول المنطقة، وضمان تفهم كل دولة لاختيارات الدولة الأخرى، ثم تشجيع عمليات التعاون المشترك، ثنائيا وجهويا، مع رفض المنطق الذي يرى في المنطقة دولا كبرى وأخرى صغرى، والذي كان وراء الصراعات في مناطق مجاورة.

وبعد الاعتراف بموريطانيا وقبولها بعد ذلك في الجامعة العربية واصلت الجزائر تقديم الدعم للدولة الناشئة، وإن كان ذلك الدعم قد أخذ غير الطريق الذي كان يفضله البعض في القارة الإفريقية،

---

[206] - أنظر للكاتب : أيام مع الرئيس بو مدين (موفم – الجزائر) وكذلك : نظرة في مرآة عاكسة (موفم)

فالجزائر لم تعتمد تقديم الهبات المالية لكبار القادة بل ركزت على دعم المشروعات التنموية في الدول المعنية، وسيبدو هذا واضحا بشكل جلي بالنسبة لمن وضعوا ثقلهم وراء المواقف المغربية وبالنسبة لمن وجدوا أنفسهم أكثر انسجاما مع الطروحات الجزائرية.

ولم يكن سرّا أن قضايا الحدود من أهم عوامل التوتر التي كانت تشكل قنابل موقوتة يمكن أن تنفجر في أي وقت، وكان منطق الجزائر في التعامل مع هذه القضايا منبثقا من قرارات منظمة الوحدة الإفريقية في أديس أبابا والمستكملة في القاهرة، والقاضية باحترام الوحدة الترابية في إطار الحدود الموروثة عند استرجاع الاستقلال، مع الاعتراف بظلمها أحيانا وعدم منطقيتها غالبا، وهو ما بدا جيدا في تخطيط الحدود العربية الناتج عن "سايكس- بيكو".

وكان المغرب قد تحفظ على قرارات منظمة الوحدة الإفريقية تلك، وكان من مبرراته في ذلك أن الموافقة قد تعرقل جهوده لتحرير سبته ومليلة، وهو منطق معقول إلاّ أنه كان جبل ثلج يخفي أشياء أخرى، وظلت هذه نقطة خلاف كبرى معه، خصوصا بعد أن تم حل قضايا الحدود مع كل الجيران.

(3)

كان الجزء الشمالي من الحدود الجزائرية المغربية، وطولها نحو 1375 كم، قد رُسِم عموديا تقريبا، ولمسافة 136 كم ابتداء من البحر وحتى نقطة " ثنية الساسي"، في إطار اتفاقية "لالا مغنية" (1845) وبقيت الحدود التي تلي ذلك جنوبا، وطولها نحو 1239كم بدون ترسيم.

وراحت الاتصالات بين البلدين تزداد أهمية مع اقتراب موعد انعقاد القمة الإفريقية الثانية عشرة في الرباط في جوان 1972، حيث وُقِّعت، بعد شد وجذب، اتفاقية ترسيم الحدود بين البلدين بمحضر نحو أربعين رئيس دولة وحكومة إفريقية، وانتهى خط الحدود المُرسَمة، وعلى غير رغبة المغرب، مع بداية الحدود بين الجزائر والصحراء الإسبانية سابقا، وهي نحو خمسين كيلومترا.

وتم في الوقت نفسه التوقيع على اتفاقية تتضمن الاستغلال المشترك لمناجم الحديد الغنية في منطقة "غار جبيلات" الواقعة في الأرض الجزائرية، وتتضمن نقل الخام عبر الأرض المغربية نحو مصنع يملكه البلدان مناصفة في الشمال، ويعمل فيه أساسا عمالٌ مغاربة لينتج الفولاذ لمصلحة البلدين، وهذه هي خلفية مزاعم الممر الذي قيل أن الجزائر تساوم به المغرب، في حين أن المشروع يتحدث عن نقل الحديد عبر الأرض المغربية المعتمدة دوليا، تماما كما أنشئ فيما بعد أنبوب الغاز الجزائري الذي يجتاز المغرب اليوم إلى إسبانيا ويستفيد منه الجميع.

وصادقت الجزائر على معاهدة ترسيم الحدود في العام التالي لتوقيعها في الرباط، ولم يصادق المغرب عليها إلا في 1989 ، أي بعد 16 سنة من توقيعها وبعد نحو 144 سنة من توقيع اتفاقية لالا مغنية، ولم تنشر في الجريدة الرسمية المغربية إلا في 24 يونيو عام 1992، أي بعد ثلاث سنوات من المصادقة في الرباط وقبل أسبوع من اغتيال الرئيس الجزائر الشهيد محمد بو ضياف [207]، وبالطبع فأنا أسجل الأحداث ولا أوحي بأي ربط بينها.

ويجب أن أسجل هنا الدور النشط الذي قام به إسماعيل حمداني في المفاوضات مع المغرب.

وكانت الجزائر تعطي اهتماما خاصا لقضية الاستثمار المشترك لحديد غار جبيلات، انطلاقا من أن القواعد الاقتصادية هي الدعامة الرئيسية للعمل الوحدوي (ويلاحظ هنا أن المغرب تجاهل هذه الاتفاقية تماما عند تصديقه على ترسيم الحدود)، وكان هذا كله مصدرا لخيبات أمل متتالية على الجانب الجزائري، الذي تزايد فيه عدد المشككين في نوايا الطرف المغربي.

---

207 - حدث ذلك بعد زيارة خاصة قام بها الرئيس محمد بو ضياف إلى المغرب استقبله خلالها الملك الحسن الثاني، ورأى كثيرون أن المصادقة على الاتفاقية كانت نتيجة للقاء وربما لإغراء رئيس مجلس الدولة باتخاذ موقف جديد من قضية الصحراء الغربية. ويبدو أن موقف خالد نزار إثر عودة الرئيس هو الذي دفع إلى تشبث الجزائر بموقفها.

ورغم كل المناورات، ولا أريد أن أعطيها صفة أخرى، قلت بأنني أتفهم المنطق المغربي، لكنني كنت أرى صدقية وواقعية أكثر في المنطق الجزائري الرافض لنظرية الحقوق التاريخية، خصوصا وقد عشنا مآسيها فيما بعد (حرب الصومال لانتزاع أوغادين والتي قادت إلى حرب أهلية طاحنة تركت وراءها مجاعة رهيبة، ثم غزو العراق للكويت وما نتج عنه مما نعانيه جميعا اليوم، ولعلي أذكر هنا بأن المحرض والداعم والمُموّل كان واحدا)

وهكذا كان التزام الجزائر بقرارات منظمة الوحدة الإفريقية حول الحدود الموروثة عند الاستقلال منطق دولة انتزعت حقها في استرجاع الاستقلال عبر استفتاء تقرير المصير، رغم أنها لم تتوقف عن الكفاح نحو قرن وثلث، توجته بثورة دامت نحو ثمان سنوات.

وكانت الجزائر، وهي تتفهم مطالبة الصحراويين بحقوق تكفلها الشرعية الدولية، تلتزم بتخييرهم بين أمرين، الانضمام إلى المغرب أو الاستقلال، وتنأى بنفسها عن أي مطالب ترابية أو سكانية.

وترك الرئيس بو مدين للقادة في المغرب وموريطانيا حرية إيجاد الحل السلمي لقضية الصحراء، لكنه أحس بأنه وقع فريسة لعملية خداع غير مقبولة عندما عرف، قرب منتصف السبعينيات، بأن البلدين قررا اقتسام الصحراء بينهما، وهو أمر لم يكن ليخطر له ببال كرجل يعرف أهمية التمسك بالتراب الوطني الذي لا يمكن التنازل عن شبر واحد منه، وكان الاتفاق بين الرباط ونواقشوط قد تم في مطلع السبعينيات، وقبل لقاء بشار الشهير بين بو مدين وولد داده بشهور طويلة، والذي قيل أن الرئيس الجزائري هدد فيه ضيفه، في حين أنه حذره من الاستخفاف بالشرعية الدولية.

والواقع أن تواطؤ "المختار" مع "الحسن" لاقتسام الصحراء كان تجاهلا للإرادة الإفريقية وصدمة لبو مدين، الذي لم يكن يتوقع أن يُردّ الخير بالجحود وتواجه الثقة بالخديعة.

وأحدث بروز "البوليزاريو" كعنصر فاعل تغييرا في معطيات المعادلة، فقد كانت أول كفاح معاصر مُسلح يتم ضد الوجود الإسباني بعد إفشال ثورة الأمير عبد الكريم الخطابي في الشمال [208].

وحظيت الجبهة لدى انطلاقها في 1973 بدعم رئيسي من الأشقاء في ليبيا، بينما كانت الجزائر تدعم جماعة نشأت في جنوب المغرب تسمى حركة مقاومة الرجال الزرق "مورهب" (*Morhob*) ثم سحبت دعمها عندما أحست بأن الحركة مخترقة.

وأخذ دعم الجزائر للبوليزاريو يتزايد بعد انكشاف قرار التقسيم ووصل إلى قمته بعد اتفاق مدريد، الذي ظل، من ناحية الشرعية الدولية، اتفاقا غير شرعي، حيث لم يعترف به "الكورتيس[209]" ولم يُسجّل في الأمم المتحدة، وجرى تغيير مدلوله احتيالا وتدليسا فأصبح يُشار له على أنه "نقل للسيادة" وليس "نقلا للإدارة"، وتغير دعم الجزائر للبوليزاريو، فبدلا من اعتبارها حركة تحرير أصبح، وبمطالبة ليبية بالغة التسرع أكدت اتفاقها على ذلك مع الجبهة، دعما لمطالب دولة مستقلة [210].

---

208 - البوليزاريو هي الحروف الأولى لجبهة تحرير الساقية الحمراء و ريو دورو أي وادي الذهب باللغة الإسبانية.

209 - البرلمان الإسباني، وهو ما يعني أن الاتفاقية غير قانونية، وهذا سبب رفض الأمم المتحدة الاعتراف بها.

210 - كان الأخ عبد العزيز بلخادم، رئيس الحكومة الجزائرية اليوم، مكلفا بقضايا التحرر الوطني في رئاسة الجمهورية الجزائرية في منتصف السبعينيات، وكان تعليماته أن يدعو في أديس أبابا لقبول البوليزاريو كحركة تحرير، ولكنه فوجئ بإعلان الجمهورية الصحراوية فأسقط في يده، كما قال لي فيما بعد.

والذي حدث هو أنني استقبلت مبعوثين ليبيين أرسلهما العقيد القذافي ليطالب باعتماد إنشاء الجمهورية الصحراوية بناء على اتفاق له مع السيد مصطفى الوالي، قائد البوليزاريو، واصطحب المبعوثان الليبيان معهما سفير ليبيا في الجزائر الدبلوماسي الفاضل الأخ عبد الفتاح النعاس، وبالطبع فقد قلت لثلاثتهما أنني سأرفع الأمر للرئيس بو مدين، وهو ما حدث بالفعل حيث استقبلهم الرئيس مطولا، وجاءني بعدها إلى مكتبي في الرئاسة كل من الوالي مرفوقا بالعقيد قاصدي مرباح، رحمهما الله، لإعداد اللازم في إطار ما تم الاتفاق عليه.

وكتبت شخصيا مشروع إعلان قيام الجمهورية الصحراوية على ورقة من ورق التذاكر الطبية كنت استعملها كمسودة بعد أن توقفتُ عن استعمالها لصرف الأدوية عندما أغلقت عيادتي، وأتذكر أن الوالي رحمه الله قال لي ضاحكا إنها المرة الأولى التي يكتب فيها إعلان دولة على تذكرة طبية، واحتفظ، رحمه الله، بالوثيقة الأصلية للذكرى، وألقي البلاغ رئيس المجلس الصحراوي، واسمه، على ما أتذكر، خاطري ولد الجوماني، في منطقة عين الحلو بالصحراء الغربية، وألقى مصطفى الوالي نصا آخر في مكتب المدني حواس بالطابق الثامن للتلفيزيون بالجزائر بإشراف الإخوة عبد الرحمن شريط والمدني وبحضوري.

وتزايد تعقد الأمور إلى أن وصلت إلى طريق مسدود أدى إلى انسحاب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية، التي كانت قبلت الحكومة الصحراوية كعضو كامل الحقوق.

وأنا من الذين يتصورون أن المغرب كان يمكن أن يكسب القضية لو قبل في بداية السبعينيات مبدأ الاستفتاء على تقرير المصير الذي كان هو أول من نادى به في الستينيات، وأكاد أقول بأن الصحراويين، أمام بعد الجزائر عن القضية في البداية ومعالم الضعف الموريطاني في مواجهة المغرب من جهة أخرى بالإضافة إلى الوضعية الصعبة التي كانوا يعيشونها في ظل الأسبان، كان يمكن أن يصوتوا بكثافة نسبية للانضمام للمغرب، وهو واحد من اختيارين كانا مطروحين، على حساب الاختيار الثاني وهو الاستقلال، الذي كان فتور كثيرين في الجزائر نحوه في البداية يقينا بأن وجود جار ضعيف هو عبء ثقيل على دولة تريد تحقيق الاستقرار، وتخشى من وجود طرف يبتزها أو يسهل الأمر لمن يزايد عليها.

ولعلي أضيف هنا أمورا لم أكن تطرقت لها قبل اليوم، وأحس بمسؤوليتي أمام القارئ والمواطن للحديث عنها بصفتها وقائع تاريخية عشتها ساعة بساعة، ومن هنا تندرج في إطار الذكريات.

فالذي حدث مع منتصف السبعينيات أن الجنرال فرانكو وقع في غيبوبة تصورها الجميع غيبوبة الموت، ورأى الملك الحسن الثاني بأن إسبانيا يمكن أن تنحو منحى البرتغال بعد غياب سالازار، وتصور أن غياب فرانكو والفوضى التي يمكن أن تحدث نتيجة لذلك ستدفع بها إلى التخلص المُتسرع من الصحراء الغربية، وهكذا اتخذ الملك ما يُمكن أن يُعتبر إعلانا للحرب على إسبانيا، وما زلت أذكر خطابه الذي قال فيه بأن الرئيس هواري بو مدين وعده بأن يكون الجيش الجزائري بجانب الجيش المغربي إذا حدثت مواجهة مع الأسبان.

صورة مع الوالي 66 ومع عبد الفتاح النعاس 66 ب

لكن فرانكو يفيق من غيبوبته ويجد الملك الحسن الثاني نفسه أمام فخ سياسي مُحرج، وأذكر هنا أن الرئيس بو مدين تساءل أكثر من مرة أمامي عن المخرج الذي يمكن أن يلجأ له العاهل المغربي للتخلص من هذه الورطة، بحد تعبيره حرفيا.

ووجد الملك، بثقافته وبدهائه، الحل، فقام برفع الأمر إلى محكمة العدل الدولية في لاهاي، وتجاوبت معه الجزائر بحماس، بل وقبلت اقتراحه بتعيين قاض متخصص (*Juge ad hoc*) كان سنغاليا من أصدقاء الملك على ما أتذكر، ومع ذلك كانت النتيجة لغير صالح مطالب المغرب [211].

وهكذا، وبعد رفضه للاستفتاء، رفض الملك أيضا الالتزام برأي محكمة العدل الدولية الذي كان قد طلبه شخصيا، واكتفى بقراءة مبتسرة له تبرر تحركاته المُستقبلية، وطلع على العالم بفكرة "المسيرة الخضراء"، والتي كانت عملية إعلامية ضخمة رُفعت فيها أعلام بعض الدول العربية المؤيدة للعرش المغربي لأسباب قد لا يطول شرحها، ولكن لم يثبت أن المسيرة اقتحمت أي مدينة صحراوية، علما بأن مدينة العيون كانت على بعد عدة كيلومترات، بل إن هناك من يقول بأنها لم تخرج من حدود المغرب

غير أن الأخ صالح بلقبي سفير الجزائر السابق في موريطانيا ثم في ليبيا روى لي في يوليو 2007 قصتين متناقضتين. الأولى هي أن رئيس النيجر سيني كونتشي قال له بأن دعوة الجزائر للتعامل مع البوليزاريو كحركة تحرير لن تلقى قبولا في إفريقيا والمنطق هو أن تعلن الصحراء كدولة. وهو ما يعني أن الفكرة تلقتها ليبيا من النيجر، أما القصة الثانية فهي أن سليمان هوفمان قال له أن الجزائر هي التي كانت صاحبة فكرة تكوين الحكومة الصحراوية، وهذا يتناقض أيضا مع ما رويته أنا وعشته شخصيا، وأورد كل هذا للأمانة التاريخية.

[211] - ضم نص محكمة العدل الدولية النقاط التالية :

1 - ثبت للمحكمة وجود روابط ولاء قانونية بين سلطان المغرب وعدد من القبائل التي تعيش على الأرض الصحراوية (وتلاحظ دقة الصياغة وتحديد نسبة الانتماء السكاني. فلم يتحدث النص عن قبائل صحراوية بل عن قبائل تعيش على الأرض الصحراوية)

2- ثبت للمحكمة وجود روابط ولاء قانونية مرتبطة بالأرض مع المجموع الموريطاني.

3 – لم يثبت للمحكمة وجود أي روابط سيادة بين المغرب والصحراء الإسبانية

4 – يظل قائما قرار استفتاء السكان لتقرير مصيرهم تمشيا مع نص الجمعية العامة 1514 .

الدولية وبنيت حواجز مؤقتة للمتطلبات التيليفيزيونية (مع ملاحظة أن الجيش الإسباني كان لا يزال موجودا في المنطقة)[212].

وكانت العملية الإعلامية، التي استقطبت الأنظار في الشرق والغرب نتيجة لما سُلط عليها من أضواء، ستارا لتسرب قوات هامة من الجيش الملكي إلى الصحراء الغربية على الجانب الشرقي، أو ما يُسمى بمحور "المحبس"، وكان الهدف هو السيطرة على القبائل الرافضة للوجود المغربي، وقيل يومها أن عمليات إبادة واسعة النطاق أدت إلى فرار الكثيرين نحو الأرض الجزائرية، حيث استقروا في منطقة تندوف التي أصبحت مركز تجمع اللاجئين الصحراويين.

وكان من بين ما قيل آنذاك أن العاهل المغربي، وقد عاش انقلاب الصخيرات في 1971 والهجوم على طائرته الخاصة في 1972، كان يشعر بالقلق من حدوث فوران في الجيش فرأى أن يبعث بأهم قواته العسكرية إلى الجولان في سوريا في بداية السبعينيات (وقد أبلت، للأمانة، بلاء حسنا في حرب أكتوبر 1973) ثم إلى الصحراء في الجنوب للتخلص من وجود قوات مؤثرة في المملكة، ولا أتصور أن هذا أمر صحيح بشكل مطلق بدون أن ينفي أنه ليس هناك دخان بدون نار.

وتفجرت قضية الصحراء الغربية في منتصف السبعينيات، وكان المثير للدهشة أن ذلك حدث في نفس العام الذي تم فيه توقيع الاتفاقية الثانية لفك الاشتباك على الجبهة المصرية الإسرائيلية والذي اعتبره كثيرون خطوة نحو "كامب دافيد"، والعام الذي اغتيل فيه الملك فيصل، والعام الذي انفجرت فيه الحرب الأهلية اللبنانية، والعام الذي فتحت فيه قناة السويس لتفقد مصر أهم ورقة ضغط على أوروبا الغربية (وكان الرئيس السادات قد قال لي شخصيا بأن تطهير القناة هو قرار مصري أما فتحها فهو قرار عربي، ونقلت ذلك للرئيس بو مدين الذي لم يبدُ مطمئنا) وكلها مصادفات تثير أكثر من تساؤل.

وفي تلك المرحلة، وعلى وجه التحديد في 1976، صدر بلاغ عن أربعة من الساسة الجزائريين تضمن مطالبة بالديموقراطية، وتستر بهذا المطلب للتعبير عن الانسجام مع الطرح المغربي لقضية الصحراء، وقيل يومها أن ذلك كان بتأثير واحد من الملاك الجزائريين في المغرب التقى مع أحقاد مرحلة الحكومة الجزائرية المؤقتة [213].

ورأى بو مدين في موقف السياسيين عملية نفاق رخيص يتناقض مع منطق الدولة ويُضعف من موقف الجزائر، ووُضع الأشخاص الأربعة رهن الإقامة الجبرية.

وازداد الوضع تدهورا على ساحة الصحراء، وكاد الجيشان الجزائري والمغربي يشتبكان معا لولا أن القيادة في كل من البلدين استطاعت أن توقف الأمور عند حدود أمغالا (1) وأمغالا (2)، ورُوي أن كلا من القيادتين كانت أمامها، في ظروف مختلفة، فرصة سانحة لإنزال ضربة موجعة للخصم، ولكنها لم تتخذ القرار بذلك.

ولقد أشرت في هامش سابق لرأي الأخ محمد الصديق بن يحيى رحمه الله، لكنني أسمح لنفسي هنا بالقول أن خطأنا الرئيس، وخصوصا منذ نيروبي، هو في نسيان حقيقة تاريخية تقول بأن الملوك الذين يعتنون بالحقوق الإلهية يرفضون كل ما يمكن أن يعتبر تشكيكا في سلطتهم، وكان يجب أن نفهم أن المغرب لن يقبل الاستفتاء على الإطلاق إلا إذا جرده من مضمونه.

ولكن قبول هذا المنطق آنذاك كان صعبا على أي مناضل جزائري لم تعرف بلاده الحكم الملكي قط، ولدرجة أن مؤرخين يقولون أن حكم "الدايات" في الجزائر كان أقرب إلى جمهوريات عسكرية منها إلى الملكيات، حيث كان "الدايْ" يُعيّن بالانتخاب.

---

[212] - أتعفف عن الإشارة إلى نوعية المشاركين طبقا لما أوردته آنذاك صحيفة لو موند وأكتفي بالقول بأن الجسم الرئيس للمسيرة كان أعدادا كبيرة من العاطلين، وكان هناك، طبقا للصحيفة الفرنسية، نسوة يُمكن أن يُقال عن حرفتهن الكثير مما لا يُقال.

[213] - قيل أنه، مع آخر عرف بارتباطاته مع بلد خليجي كبير ولم يكن راضيا على تعيين إبراهيم مزهودي كسفير في القاهرة حيث كان يريد المنصب لنفسه، كانا وراء البلاغ الذي صدر باسم الشيخ محمد البشير الإبراهيمي ضد سلطة الرئيس أحمد بن بله في 1964 وأعاد شنآن الخمسينيات بينهما، وأفقد التيار الإسلامي تعاطف السلطة لمصلحة اليسار المتمسك بوضعية التأييد الناقد (*Le soutien critique*) الذي يضمن الفوائد ولا يلزم بالخسائر.

(4)

قطعت العلاقات بين المغرب والجزائر بمبادرة مغربية إثر قيام الجمهورية الصحراوية واعتراف الجزائر بها، وتزايد الشرخ حول قضية الصحراء الغربية بين من يرونها حقا عادلا لشعب ما زال خاضعا لوضعية استعمارية تحُول بينه وبين ممارسته حقه في تقرير مصيره، وآخرين يرون فيها وجهات ومصالح واتجاهات متناقضة، وترتبط أساسا بتحالفات تعكس تناقضات العالم في الثمانينيات، وطبعا بغض النظر عن دول راحت تناور هنا وهناك لابتزاز الفوائد من أي طرف يريد أن يدفع أو يجد من يدفع بالنيابة عنه.

وكانت منظمة الوحدة الإفريقية هي الواجهة الكبيرة التي تجلى فيها ذلك الشرخ، الذي كان في معظمه انقساما بين بلدان حققت استقلالها عبر الكفاح المسلح وأخرى كانت لها وسائل أخرى.

....

وإذا كانت القيادتان في الجزائر والمغرب قد تمكنتا بجهد كبير من تفادي الانزلاقات العسكرية، فإن المعركة الدبلوماسية تواصلت، ورغم كفاءة الدبلوماسية المغربية وجهودها المُكثفة وإمكانياتها الكثيرة فقد كانت الدبلوماسية الجزائرية أكثر قوة وإقناعا لأنها تصرفت بموضوعية وبرزانة وبحنكة، وتفادت أي مواقف عدائية متشنجة ضد المغرب، وازداد عدد الدول التي اعترفت بحكومة البوليزاريو، وخصوصا الدول الإفريقية التي استقلت إثر كفاح وطني، ولم يشذ عنها إلا غينيا سيكوتوري الذي كان يطبق مفهومه من أغنية لعبد الوهاب تقول: "ما أقصر العمر حتى نضيعه في النضال"

وانسحب المغرب من منظمة الوحدة الإفريقية فيما بدا ضغطا لم يؤدِ إلى النتيجة المرجوة.

وتصدي الأفارقة من أبناء حركات التحرير لطرح المغرب حول الصحراء الغربية بينما تضامنت معه معظم البلدان العربية، وكانت حجة الكثيرين هناك أنهم وحدويون يقفون ضد قيام كيانات مجهرية تضاعف من تفتيت الوطن العربي، غير أن الواقع هو أن الفرز الملكي وشبه الملكي وشبه الجمهوري تكامل مع منطق التحالفات الدولية بين الشرق والغرب ليفرض نفسه على الاختيارات العربية، وقيل يومها أن من بين الدول العربية من كان يفكر في قضم أراضي بعض جيرانه أو يُشجع على ذلك، كما حدث بالنسبة لصومال زياد برّي، الذي اندفع لانتزاع إقليم "أوغادين" من إثيوبيا، تصفية لحسابات دولية وجهوية مع النظام الاشتراكي الذي ورث هايلاسلاسي وفي إطار محاصرة كل حلفاء الاتحاد السوفيتي، وحدث بعد تلك المغامرة، التي ما زال الصومال يدفع ثمنها إلى اليوم، غزو صدام حسين للكويت، والذي قيل أنه فخٌ دُفع نحوه، وارتبط بالتشجيعات التي كان قد تلقاها من جلّ الدول العربية في حربه مع إيران، وكان لكل ذلك آثار مأساوية على الوطن العربي كله، أكدت صحة النظرة الجزائرية المنسجمة مع الموقف الإفريقي الرافض لأحلام الحقوق التاريخية.

وبدا أن المغرب نجح في إقناع البعض بأن المشكل هو مع الجزائر وانتزع بذلك تضامن أطراف عربية فاعلة، بغض النظر عمّا إذا كانت هذه تراه حليفا أو كان يُراد لها كذلك، أو أنها أرادت إبعاد الجامعة العربية عن القضية التي تناولتها كل المحافل الدولية، وخصوصا منظمة الوحدة الإفريقية، وسجلت فيها مواقف واضحة جعلت المؤسسة العربية تقف، كالعادة، في مؤخرة الصفوف.

وتم تكوين "نادي السفاري" في منتصف السبعينيات ليضم مسؤولي المخابرات في فرنسا والمغرب ومصر والسعودية [214]، وكان للقصر الملكي المغربي دوره في ترتيب زيارة الرئيس أنور السادات للقدس المحتلة، بعد أن التقى ممثله حسن التهامي، تحت رعاية العاهل المغربي وفي القصر الملكي بالرباط، بالوزير الإسرائيلي موشي دايان.

---

[214] - ضم النادي الذي أنشأه الرئيس الفرنسي جيسكارد ديستان كبار رجال المخابرات في الدول المعنية. فكان هناك دو مارانش من فرنسا وأشرف مروان من مصر والكولونيل الدليمي من المغرب وكمال أدهم من السعودية، وقد أكد الأستاذ محمد حسنين هيكل وجود النادي ودوره، لكن ليس هناك إشارة واضحة تؤكد الوجود الإسرائيلي.

في تلك المرحلة بالذات، وخصوصا بعد قيام الجبهة القومية للصمود والتصدي في طرابلس في 1977 لمواجهة ما بدا أنه إعداد لصلح منفرد بين مصر وإسرائيل، كانت هناك محاولات لعقد لقاء بين الرئيس الجزائري والعاهل المغربي في بلجيكا، وتولّى الأمر الدكتور أحمد طالب الإبراهيمي مع الأميرة عائشة الشقيقة الكبرى للملك الحسن الثاني، الذي تسرب قول نسب له بأنه : "إذا لم يلتق الرئيس بو مدين هذه المرة فلن يلتقيا أبدا"، وهو ما تناقلته المراجع الجزائرية باستغراب كبير، وراجت يومها شائعات عن أن الملك يعرف شيئا عن محاولة لقتل الرئيس الجزائري بأسلوب مبتكر وغير مسبوق، وهو ما أفسح المجال لمضاربات كثيرة عندما انتقل الرئيس في نهاية العام إلى رحاب الله إثر مرض صاعق لم يُمهله طويلا.

ومع تولي الرئيس الشاذلي بن جديد توقع الأشقاء في المغرب أن يحمل التغيير موقفا جزائريا جديدا من قضية الصحراء الغربية، منطلقين من التصور الخاطئ الذي ربط القضية بالرئيس الراحل بشكل يفترض أن ينتهي الأمر برحيله، لكن الرئيس الجديد التزم بالنهج الذي سار عليه سلفه، وأكد في أكثر من حديث تمسكه بالشرعية الدولية طريقا لحل القضية، ورغم ذلك ساد أوساط المغرب الشقيق شعور مُستغربٌ ولا مُبرر له بقرب انتهاء الأزمة، حيث ظلت في أذهانهم مرتبطة عضويا بالرئيس بو مدين، وكان هذا دائما من أخطاء النظام المغربي التي لم تمكنه من التعرف على أبعاد المعطيات الحقيقية، وتأثرت به كل الأطراف المحلية والإقليمية ذات العلاقة بالقصر الملكي.

غير أن الرئيس الجزائري الجديد، الذي تفضل فطلب مني البقاء إلى جواره مكلفا بنفس القضايا التي كنت مكلفا بها، لم يضيع فرصة واحدة لوضع النقاط فوق الحروف وتحتها (واللغة العربية هي اللغة الوحيدة التي توضع فيها نقاط تحت الحروف أيضا) وكان علي أن أسهر على ذلك.

وهكذا ركّز في أول كلماته للشعب الجزائري عشية إجراء الانتخابات الرئاسية في فبراير 1979 على أن "رئاسته هي استمرار للنظام الذي أقامه جوان 1965"، أي أنه استمرار لنظام بو مدين".

وحمل الخطاب حرصا واضحا على ترسيخ تعبير: "الاستمرارية"، لتجسيد صلة الوصل مع الشرعية الثورية التي تتوج الشرعية الدستورية وتمنحها عمقا تاريخيا يشكل أهم قواعد الاستقرار، انتظارا لمرحلة تقف فيها الشرعية الدستورية على قدميها بدون الاستناد على الشرعية الثورية ولكن بدون التنكر لها، وهي عملية قد تبدو معقدة ولكنني ضرورة تاريخية وسياسية كانت دائما نصب الأعين في كل ما يُعدّ للرئيس وباسمه وعنه وله.

وفي الكلمة القصيرة التي شكر فيها الرئيس الشاذلي بن جديد الشعب على اختياره بعد الانتخابات الرئاسية قال بأننا : "سنسير دائما على الخط الذي رسمه الرئيس الراحل هواري بو مدين".

وعشية مشاركته في مؤتمر القمة الإفريقي في مونروفيا أكد الرئيس في بلاغ بثته وكالة الأنباء الجزائرية ونشر في الصحف : "عزم الجزائر على مواصلة سياستها في سبيل دعم منظمة الوحدة الإفريقية" وبأنها "ستظل وفية لمبادئها ولتضحيات شهدائها، وستبذل كل الجهود لإنجاح مؤتمر القمة، مستلهمة في ذلك روح ميثاق منظمة الوحدة الإفريقية وقراراتها، وحق الشعوب في تقرير مصيرها ودعم استقلالها والسيطرة على ثرواتها الوطنية وتحقيق التقدم والازدهار لأبنائها"، ومذكرا بأن "الجزائر ليست طرفا في أي نزاع كان، وبأنها على استعداد للمساهمة في كل ما من شأنه أن يحقق السلام العادل".

وعندما بدا أن الجانب الآخر لم يلتقط الرسالة رُفعت درجة التنبيه في الخطاب الموجه للأمة خريف 1979، حيث قال الرئيس بوضوح بأن: "تشجيع النظام المغربي على مواصلة سياساته العدوانية هو خطر على المنطقة كلها، بما في ذلك المغرب نفسه، ومن مصلحة الجميع، داخل المنطقة وخارجها أن تزول الأسباب الحقيقية للتوتر والصراع"، ثم مدّ غصن الزيتون في اتجاه الشعب المغربي الشقيق قائلا : "إن الدماء التي تسيل في الصحراء الغربية هي دماء أشقاء لنا وجيران، ويعز علينا أن تراق هذه الدماء نتيجة حرب ظالمة أو أحلام توسعية".

....

وكان واضحا أن الرياض تريد، أو يُراد منها، القيام بدور لحل قضية الصحراء الغربية، ولكن طبقا للمنطق المغربي، وكان هذا هو سر فشلها أمس واليوم وربما غدا.

....

صورة الرئيس رقم 2 صورة 66 ج( )

وكان منطلق الموقف السعودي الذي أحسن الأشقاء في المغرب زرعه ورعايته هي أن قضية الصحراء قضية جزائرية مغربية، وبالتالي فإن حلها رهن باتفاق قائدي البلدين.

ويشهد المؤتمر الإسلامي الثالث في مكة عملية بالغة الطرافة وقف وراءها الأشقاء في السعودية، وكان مهندسها السيد أحمد عبد الوهاب مدير التشريفات الملكية في عهد عاهل السعودية الراحل الملك خالد بن عبد العزيز(وهناك كان اللقاء الأول بين الرئيس والأمير فهد) وعكست بوضوح نجاح النظام المغربي في إقناع السعودية بأن القضية هي جزائرية مغربية، وأن أي لقاء بين الرئيس الجزائري والملك المغربي أيا كانت صورته سيكون بداية حل المشكلة.

(5)

يبدو أن نجاح الجزائر في تحقيق المصالحة المغربية الموريطانية في 1969 ثم المصالحة الباكستانية البنغالية في1974، كانتا، بالنسبة للمضيفين في المملكة العربية السعودية، سابقتين ارتأوا أن يلحقوهما بثالثة، متجاهلين أن المصالحة نجحت في الستينيات والسبعينيات لأنها تمت بين الطرفين المتحاربين فعلا، وليس بتجاهل أحدهما للآخر بأسلوب النعامة التي تدفن رأسها في الرمال لكي لا ترى الحقيقة العنيدة ماثلة أمامها.

وكان منطقيا أن يعمل الأشقاء في السعودية، الراغبين في إنجاح المؤتمر وإعطائه بريقا خاصا كما حدث في الرباط ولاهور، على تحقيق لقاء بين الرئيس الجزائري والعاهل المغربي، يكون أول الغيث، واستعد الجميع لافتتاح المؤتمر الذي غابت عنه كل من مصر (التي ارتبطت بكامب دافيد) وأفغانستان (التي كانت أرض صراع بين واشنطن وموسكو) كما لم تشارك ليبيا لسبب لا أعرفه على وجه التحديد فغاب العقيد القذافي عن المؤتمر، وتغيبت إيران التي كانت علاقتها مع البلد المُضيف مشوبة بالتوتر فلم يُشارك رئيسها أبو الحسن بني صدر.

وجرى تنظيم الافتتاح في المسجد الحرام في الخامس والعشرين من يناير تحت رئاسة الملك خالد رحمه الله بشكل أثار دهشتنا، إذ قيل لنا بأن الحفل سيتلوه أداء العمرة، وطُلب إلينا أن نقوم بالطواف قبل وصول الملوك والرؤساء لتفادي الازدحام، وهو ما قمنا به فعلا بقيادة الأستاذ عبد الرحمن شيبان، ثم جلسنا صفوفا أفقية تحت سقف المسجد المواجه لباب الكعبة، وخصص الصف الأول للملوك والرؤساء، ليجلس كل وفد وراء رئيسه بشكل رأسي ممتد داخل المسجد.

....

كان الرئيس الشاذلي يجلس في منتصف الصف الأول تقريبا وكان العاهل السعودي يجلس على كرسي أعد له، لمرضه، في أقصى اليسار، بينما جلس الملك الحسن في النصف الأيمن، وبدأت مجموعة من التحركات في أوساط المجموعات الإعلامية أثارت فضولنا، خصوصا وقد أخذ بعض المصورين يتجمع بشكل ملحوظ على بعد أمتار أمام مكان جلوس الرئيس الجزائري.

وكان مدير التشريفات الرئاسية آنذاك مولود حمروش في غاية اليقظة والتحفز ورأيته يتشاور مطولا مع وزير الخارجية محمد الصديق بن يحيى، رحمه الله، وأخذنا نتابع ما يحدث وكأنه عرض

سينيماني، وهكذا رأينا الملك الحسن وهو يمر أمام القادة مرفوقا بالرئيس ياسر عرفات رحمه الله ليُقدم، بصفته رئيسا للجنة القدس، نموذجا مجسما لمسجد الصخرة للملك خالد الجالس في أقصى اليسار، وعلى يُسراه جلس أرضا الأمير فهد ولي العهد، وبعد تقديم النموذج ومصافحة الملك خالد اتجه الملك الحسن ليعود من حيث أتى، ولوحظ أنه حدّق وجه أول رئيس جالس أرضا على يمين الملك خالد، فوقف الرئيس بسرعة لمصافحة الملك الذي التفت ثانية نحو الرئيس الجالس بعده فوقف هذا أيضا ليحيي الملك الذي واصل السير بنفس الطريقة عائدا إلى مكانه في أقصى اليمين.

وكان طريفا أن نتابع وقوف الرؤساء لتحية الملك الحسن بشكل بدا عكسيا لحركة سقوط أحجار الدومينو، وكان الملك يرتدي جلابة مغربية ويضع على رأسه عمامة أنيقة، في حين كان جل الرؤساء بملابس العمرة، وكان السبب هو أن الملك كان قد أدى العمرة قبل ذلك مع مرافقيه، وكان بالتالي يمتلك مقدرة أكثر على الحركة بعيدا عن قيود الإحرام.

وأخذ الملك المغربي يصافح على التوالي كل من وقفوا، أدبا، لتحيته، وعندما وصل إلى مستوى الشاذلي "حدث" أن كان الرئيس ملتفتا إلى الخلف في حديث مع بن يحيى لم يسمعه سوى مولود حمروش، ولم يقف بالتالي لتحية الملك، الذي رأيت وجهه، رحمه الله، يزداد سمرة وتتصلب ملامحه بشكل ملحوظ، ثم واصل سيره متطلعا إلى الأمام وبدون أن يصافح عددا من بقية الزعماء (كان على يمين الرئيس الشاذلي على ما أذكر رئيس جزر القمر ثم عبدو ضيوف رئيس السنغال)

مكة – صورة مهري ثم الوصول ثم الجلوس ثم المرور على صفحتين 67-68-69-70

وجاء وقت الطواف، ولاحظنا أن العاهل المغربي توجه مباشرة نحو منطقة الحجر الأسود ووقف هناك، وعندها قمنا جميعا لنلتف حول الرئيس الشاذلي ونرافقه في طوافه مبتعدين به عن منطقة الحجر الأسود، وأذكر أنني طلبت من الشيخ شيبان القيام معنا للطواف فذكرني بأننا قمنا به فعلا، فقلت له ضاحكا بأن ذلك كان طوافا لله أما هذا فإنه "طواف سرفيس" (أي طواف مهمة) وأشهد أن الشيخ الجليل كان بالغ الانضباط، ولعله رأى في الأمر بركة مضاعفة.

ونجحنا خلال الشوط الأول في الابتعاد عن منطقة الحجر الأسود حيث ظل الملك واقفا، وتكرر نفس الأمر في الشوط الثاني والثالث والرابع والخامس، ثم اختفى الملك فأخذنا في الاقتراب من الحجر الأسود خلال الشوط السادس ليُقبّله الرئيس في الشوط السابع.

واتجهنا نحو الكعبة وهناك وعلى بعد أمتار من سلّمها فوجئنا بحواجز حديدية متعددة ومتوالية، ونادى رجال من التشريفات السعودية بأن دخول الكعبة هو للرؤساء فقط، الذين ترك لدخولهم فتحة ضيقة في الحواجز كان حولها عشرات الرجال الأشداء.

ووقفت أغلي غضبا وأنا أتابع تقدم الرئيس نحو سلم الكعبة التي كان بابها مفتوحا، والسيد أحمد عبد الوهاب مدير التشريفات الملكية السعودية يقف أسفل السلم ولا يسمح بالصعود إلا للرئيس الشاذلي وحده، ولمحت الملك الحسن الثاني يقف ساكنا وراء المدخل من الجهة اليمنى للناظر وهو يختلس النظر إلى الأسفل ويبدو وكأنه ينتظر أمرا ما، اتضح بمجرد أن وصل الشاذلي في صعوده على السلم الخشبي إلى منتصفه تقريبا، وهناك خرج الملك ثم مد يده للرئيس الذي نظر له بهدوء وأكمل الصعود ليقف في مواجهته وفي مستواه، وهناك فقط مد يده لمصافحة اليد القلقة الممتدة، ولمعت أضواء العشرات من آلات التصوير (وقال لي الرئيس بعدها أنه واصل الصعود لكي لا تتم المصافحة والملك في موقف أعلى، وأحسست يومها أن الرئيس كان يدرك تمام الإدراك أن صُور المصافحة لن تحفظ في الأدراج بل ستستثمر بكل وسيلة ممكنة، ومن هذا المنطلق أيضا تفادى الرئيس تقبيل الملك الذي بدا أنه كان يرغب في ذلك، وتأكد لي مرة أخرى أن الرئيس يعرف جيدا ماذا يريد وكيف يُحقق ما يريد)

وإذا كانت المصافحة تمت كما أريد لها من الناحية الميكانيكية فإن العملية لم تنته بعدُ من الناحية السياسية، وهكذا، وقبل أن نبدأ السعي بين الصفا والمروة همست في أذن الرئيس متسائلا عن تعليماته

فيما يتعلق بالاستثمار الإعلامي لما حدث، فأجابني بأنه ليس هناك أي بعد سياسي، فالمصافحة تمت من منطلق ديني أساسه احترام البيت الحرام، وكان هذا هو ما أنتظر سماعه.

وكان هناك مصور إيراني قامت بيني وبينه مودة منذ مؤتمر عدم الانحياز في الجزائر وهو المصور الأجنبي الوحيد الذي سمح له بالتصوير في مكة لأنه كان مُسلما، وكان "عباس ميرزا" قد التقط صورة المصافحة فهمست في أذنه بأنني سأعطيه وحده الأولوية في متابعة الرئيس (وكنت عرفت أن صُوَرُهُ تنشر في مجلة "باري ماتش"، فطلبت منه اسم مراسل المجلة في المؤتمر، وقال لي أنها سيدة فرنسية تقيم في الطائف، ولم يسمح لها بالمجيء إلى مكة لأنها غير مُسلمة)

صورة المصافحة على سلم الكعبة ــص 71 صفحة كاملة

وأوصيت مجموعة الحراسة الجزائرية بأن تؤمن له الاقتراب من الرئيس وهو ما حدث فعلا والتقط مجموعة من الصور من بينها التي نشرتها المجلة بعد ذلك تحت عنوان "الحكيم الإفريقي".

ثم اتصلت بجلِّ المراسلين وخاصة مراسلي الصحف والإذاعات الفرنسية التي يستقبلها مواطنونا، وكانت الرسالة باختصار أن الرئيس تصرف كما يجب أن يتصرف رجل مؤمن يتحتم عليه أن يصافح أي شخص ولو كان قاتل أبيه إذا التقاه في مكان مقدس كسلم الكعبة.

وأسرعت صباح اليوم التالي مُبكرا نحو المركز الصحفي بالطائف، حيث يتواصل عقد المؤتمر، لأبحث عن مراسلة "باري ماتش"، وعندما رأيتها في الكافيتريا أحسست بأنني لن أستطيع أن أوحى لها بأي شيء، فهي لم تكن جميلة فقط بل كانت تعرف ذلك ولا تضع أي مساحيق على وجهها، وبدت بطولها الفارع كأنها زرافة وجدت نفسها في حديقة أطفال يتابعونها باهتمام.

ودرت هنا وهناك والتف حولي بعض الصحفيين والتقط لي البعض الآخر صورا، وظللت أتحرك إلى أن أحسست بأنها لاحظت وجودي وراحت تتابع حركتي بعينين يقفز منهما الفضول، ولا أخفي أنني كنت أعتبر الالتزام بالأناقة جانبا من جوانب النضال، وأتصور أنني كنت أنيقا بما فيه الكفاية رغم أن المرتبات كانت محدودة.

ودرت خلف أحد الأعمدة ثم انزلقت لأجد نفسي أمامها وأنا أقول بشكل مباشر: "أنا رجل للبيع فهل تقبلين شرائي ؟"

كان سؤالا غريبا ومفاجئا لكنها أجابتني بسرعة: "ما هو ثمنك؟" وقلت بنفس السرعة: هل تذكرين الملك الذي صاح: "مملكتي مقابل حصان"، أنا أقول اليوم بأنني، قلبا وقالبا، مِلْكٌ لمن يوفر لي فنجالا من القهوة، فليس معي ريال واحد وستنفجر رأسي حتما إذا لم أشرب قهوة.

قلت هذا كله في نفس واحد وبدون أن أنظر في عينيها وأنا أعلم عِلْم اليقين أن القهوة تقدم مجانا في المركز الصحفي، فأخذتني من يدي كطفل صغير إلى حيث تقدم القهوة، وهناك طلبتُ ثلاثة فناجين قائلا أن اثنين لي والثالث لها، وراحت تسألني عمّا إذا كنت أنا مستشار الرئيس الجزائري فهززت رأسي إيجابا بدون أن أنظر لها، وراحت تسألني عن مصافحة الأمس المفاجئة، ولم أبدُ متعجلا للإجابة بل ارتشفت فنجان القهوة الأول وبدأت في ارتشاف الثاني ثم أخذت في الحديث بهدوء، وكأنني لست معنيا بالأمر، وعندما لاحظتُ أنها تكتب ما أقوله جملة جملة ضاعفت هدوني وأنا أحدثها عن "الحكيم" الإفريقي ذي الرأس فضية الشعر الذي يمكنه أن يصافح قاتل والده إذا التقاه في الكعبة، وهو يعرف الفرق بين هذا وبين المواقف السياسية التي لا مجال فيها للمجاملات (ونشر كل ذلك تقريبا في العدد التالي من باري ماتش، بجانب صورة المصافحة وصورة السعي في الصفا والمروة، التي كان فيها المرحوم محمد بن يحيى والشيخ شيبان وعبد الحميد مهري وكاتب هذه السطور وآخرون من بينهم المرحوم بغلي) ولم أدرك الأبعاد الكاملة لما فعلته إلا عندما رأيت السيد أحمد عبد الوهاب مدير التشريفات السعودية في اليوم التالي على بعد أمتار وهو يستعد لركوب سيارته، فأشرت له بيدي محييا وإذا به يهز يده اليمنى رأسيا وأصابعها مضمومة وموجهة إلى أعلى، وعلى وجهه شبح ابتسامة لم تبد كابتسامة (وهي إشارة وعيد في المشرق).

وأصدرت بلاغا نشرته الصحافة الجزائرية جاء فيه ما معناه بأنه : "عُلم" أنه خلال زيارة رؤساء الدول للحرم المكي الشريف تصافح الرئيس الشاذلي بن جديد والملك الحسن الثاني (..) وهذه المصافحة بطبيعة الحال لا تحمل أي مدلول سياسي، وإنما هي واجب إسلامي يلتزم به المُسلم في الأماكن المُقدسة (...) وينبغي التذكير أنه فيما عدا القضايا المرتبطة بتصفية الاستعمار في الصحراء الغربية فليس هناك أي نزاع بين الجزائر والمغرب.

وأغرق الرئيس الشاذلي في الضحك بعد ذلك وهو يقلب صفحات "باري ماتش" عندما رويت له قصة الصحفية الجميلة.

صورة الطواف 72 – الصورة في المدينة 73 على صفحة

....

ولن أختم هذا الفصل المكي بدون أن أشير إلى أمر أتصور أنه يساهم في إعطاء صورة عن شخصية الرئيس الشاذلي بن جديد، فقد ذهبنا إلى المدينة المنورة لزيارة قبر خاتم المُرسلين، وكرّمنا الأشقاء في السعودية ففتحوا لنا غرفة المقام الكريم التي لا يدخلها إلا من كان ذا مقام كبير، ودخلنا رفقة الرئيس في العتمة وبعيدا عن آلات التصوير لنمر بجانب الضريح الكبير المُغطى بقماش لم أتعرف على لونه لضعف الإضاءة، وكنت أسير خلف الرئيس ويسبقنا وزير الأوقاف الذي انحنى على القماش يُقبله، ولم يحذ الرئيس حذوه، فسألته عند الخروج عن السبب في أنه لم يفعل كما فعل الوزير الذي كان دوره أن يُشير علينا بما يجب فعله، وأجابني الرئيس بهدوء : "أنا لا أقبل القماش".

(6)

كانت صحيفة الشعب منذ وفاة الرئيس بومدين تنشر في صفحتها الأخيرة، وبمبادرة منها وتحت عنوان "للتذكير"، مستطيلا يحمل صورة للرئيس هواري بومدين ومقتطفات من خطبه وتصريحاته.

وفوجئت يوم الاثنين 2 فبراير 1981 باختفاء الصورة من العمود وفي اليوم الثالث أو الرابع تقلص العمود إلى ثلاثة أسطر، وكان واضحا أن هناك اتجاها لحذفه صدرت بشأنه أوامر من موقع معين أتخيله ولكني لا أحدده، لكنني ابتداء من هذه اللحظة بدأت أحس بأن هناك اتصالات من مواقع معينة ببعض الأجهزة الإعلامية من وراء ظهر قياداتها، وسيتوسع هذا الأمر فيما بعد إلى أن يصل البعض إلى الادعاء بأن لكل مسؤول سام، مدنيا كان أم عسكريا، صحافته وصحفييه.

....

واحتفل الرئيس الشاذلي في ولاية باتنة بذكرى 24 فبراير التي يتوافق فيها عيد العمال مع ذكرى تأميم المحروقات، وكان مما جاء يومها في خطابه بأننا : "نثق في إطاراتنا ونتجاوز عن الأخطاء التي يرتكبونها في إطار أداء مهامهم وبحسن نية، ونقبل منهم ما لا نقبله من متعاون أجنبي" ثم أضاف قائلا :" أحب أن أكون واضحا، فعندما أتحدث عن الأخطاء أقول بأننا شركاء في المسؤولية عنها، ونتحمل مسؤولية كل قرار سياسي أو اقتصادي تم اتخاذه على مستوى القمة".

وكانت أهمية ما قاله الرئيس هو استنفار رد الفعل الجماهيري الإيجابي الذي برأه فورا من مسؤولية اتخاذ أي قرار خاطئ، وكان التعبير الذي استعمله الرئيس أكثر فائدة له من قوله أنه لا يتحمل أي مسؤولية عن القرارات المتخذة، والغريب أن هناك من اتهمني بدفع الرئيس لكي يقول ما قاله في حين أنه كان بعيدا في وهران وليس مضطرا لتبرير أي شيئ، وكنت أقول لهم أنني أعرف حدود مسؤولياتي وأتحملها كاملة وأن الرئيس يعرف ما يفعله وليس في حاجة لمن يدفعه في هذا الاتجاه أو ذاك.

ثم التقى الرئيس في نهاية الشهر بالإطارات المُسيرة، وكان من أهم ما أكد عليه : "ضرورة الحفاظ على ثروة البلاد وكرامة الأمة عند التعامل مع المؤسسات الأجنبية"، وقال من بين ما قاله أننا "لن نقبل أن تعيش وحدة إنتاجية عالة على الدولة".

وتواصل إعداد النقاط التي يمكن أن تثري المحاور التي يتناولها الرئيس مع التمسك دائما بالمزج بين العمق والبساطة وعدم الانطلاق في الوعود البراقة، وكان هذا يتطلب جهدا فكريا كبيرا بالنظر إلى تزامنه مع كل عمليات التنظيم الإعلامي التي كانت تتحملها المديرية، وكان من حسن الحظ وجود عدد من الشباب تعاونوا معا على حمل العبء وتكفلوا ببعض جوانبه الروتينية.

وافتتح الرئيس في بداية الأسبوع الثاني من مارس أشغال الاتحاد البرلماني العربي، وقمت بإعداد الخطاب بطلب خطّي من الأمين العام للرئاسة، وأتصور أن ذلك تم بتعليمات من الرئيس، الذي افتتح خطابه بفقرة تاريخية عاطفية تقول بأنه : "منذ أقل من ثلاثين عاما كان عقد مثل هذا اللقاء في الجزائر واحدا من المُستحيلات، فقد كانت بلادنا سجنا كبيرا عُزل فيه شعبنا بالحديد والنار، وتعرض لأبشع المحاولات الهادفة إلى طمس هويته الوطنية ومحو تاريخه ولغته وحضارته".

وبالطبع فقد تناول الخطاب عددا من القضايا الدولية وفي مقدمتها القضية الفلسطينية.

صورة الكلمات التي جاءتني من الأمين العام صورة 74 ثم صورة الرئيس مع إدريس 74 ب

....

ويواجه الرئيس ولد هايد الله في موريطانيا يوم 16 مارس انقلابا عسكريا فاشلا اتهمت السلطات المغرب بتدبيره، وأصدرت الجزائر تحذيرا من أي محاولة لزعزعة استقرار موريطانيا.

وتعرف الجزائر حركية ثقافية استعدادا لطرح ملف السياسة الثقافية في الدورة القادمة للجنة المركزية، وكان واضحا أن الخلفيات السياسية كانت أكثر من مؤثرة على كل المواقف والاتجاهات .

....

وكان أهم أحداث هذا العام الزيارة الإفريقية التي قام بها الرئيس لعدد من الدول الإفريقية، بدأت بمالي ثم أنغولا وزامبيا وموزمبيق ومدغشقر والكونغو الشعبية (مع تجاوز الزائير) ونيجيريا وأخيرا النيجر، وهي رحلة دامت نحو أسبوعين وكان من أهم آثارها على مستوى المنطقة تأكيد الشعور لدى الجميع بأن الجزائر تعيش وضعية استقرار مؤكد تسمح لرئيس الجمهورية بالغياب نحو نصف شهر (وأرجو أن ألاحظ هنا أن الفاكس لم يكن قد عرف طريقه بعد نحو الاستعمال العام المنتظم[215]، وبدون التذكير بأن الهاتف النقال لم يكن قد اخترع بعد، ومعظم الاتصالات السلكية تمر كلها أو جلها عبر مواقع أوربية)

وكانت الجولة الإفريقية بعد الجولة العربية وبالتوازي مع القمم الإفريقية وقمة عدم الانحياز والقمة الإسلامية، صورة ترسم مجالات الجزائر الدولية واهتماماتها.

وكان الهمّ الأكبر خلال هذه الجولة هو كيفية التصرف مع الخطب الرئاسية حيث أنه كان على الرئيس أن يلقي ما لا يقل عن 12 خطابا في حفلات العشاء الرسمية، بالإضافة إلى ما تيسر من تصريحات صحفية، ومن رسائل التحية الموجهة إلى رؤساء البلدان الذين تجتاز طائرة الرئيس أجواء بلدانهم، وكانت مشاريع الخطب قد أعدت بنفس الأسلوب الروتيني في الإدارة المختصة بوزارة الخارجية، وباللغة الفرنسية، وكان لا بد إذن من ترجمة كل شيئ إلى العربية وإعداد نسخ منه تظل في الجزائر وترسل إلى وكالة الأنباء بمجرد تلقي ما يُفيد بأن الخطاب تم إلقاؤه طبقا للمتفق عليه، ونفس الشيئ كان يتم النسبة لمشاريع البلاغات المشتركة التي أعدت موادها الأولية كالعادة في الخارجية.

وكانت العقبة الرئيسية هي إمكانية تعامل الرئيس مع هذا الحجم الهائل من الخطب المُطوّلة، البعيدة في معظمها عن أسلوبه ونوعية عباراته، وهو ما يتطلب استعدادا هائلا سيكون على حساب الوقت والجهد المخصصين لدراسة ملف كل بلد تتم زيارته من مختلف الأوجه.

---

[215] - المرة الأولى التي رأيت فيها جهاز فاكس كان نحو منتصف السبعينيات في مكتب الدكتور محمد أمير رحمه الله بالرئاسة، وكان جهازا متخلفا كان يتعامل معه وكأنه يتعامل مع قنبلة نووية ضاع مفتاح أمانها، وكاد يخفيه عندما دخلت عليه، فقد كان رحمه الله مولعا بمرض الأسرار *Mystèrite*

ووجدنا الحل عبر حوار مطول دار بيني وبين الأخ مولود حمروش، ولا أعرف كيف نبتت الفكرة، التي يرجع الفضل فيها إلى مولود، وهكذا استقر الرأي على أن يُلقي الرئيس الكلمات الترحيبية الأولى للخطاب، ثم يتولى الأخ إدريس جزائري بالفرنسية أو بالإنغليزية طبقا للبلد الذي نقوم بزيارته تلاوة النص كاملا ما عدا الفقرة الأخيرة التي يتلوها الرئيس بالعربية، ثم يقدم إدريس ترجمتها.

وهكذا تم حلّ أهم معضلة كانت تواجهنا، إذ أن عبارات الترحيب وعبارات الاختتام متشابهة تقريبا، واستماع الرئيس إلى الخطاب بالفرنسية هو جانب من التعرف على ملف القضايا المطروحة، التي وُضع ملف كامل نها تحت تصرف الرئيس، وتولى بن يحيى تزويده أولا بأول بأهم المُعطيات.

وانطلقت الزيارة من الجار الجنوبي، أي مالي، لتختتم بالجار الجنوبي أيضا وهو النيجر.

ووضعت نقاط كالعادة تحت تصرف الرئيس لاحتمال تصريح صحفي في مطار باماكو وهو ما حدث بالفعل، وركزتْ كلمات الرئيس على أن ما يجمعنا هو أكثر من مجرد الجوار الجغرافي، بل هو أيضا الارتباط المُشترك بالحضارة التي جاء بها الإسلام.

وفي نيجيريا حدث شبه صدام بيني وبين وزير الخارجية، إذ جاءني إدريس ليقول لي بأن الوزير يطلب إضافة فقرة في الخطاب الذي سيلقيه الرئيس هذا المساء أمام الرئيس "شيغو شاغاري"، وقلت له غاضبا بأنني لا أرى سببا طارئا يبرر إضافة جملة جديدة في آخر لحظة، وهو يعرف أساسا مشاكلنا مع الخطب، ويبدو أن إدريس نقل ما قلته للوزير كاملا.

وبعد دقائق جاء من يبلغني بأن الرئيس يستدعيني، ودخلت غرفته فوجدت عنده بن يحيى، وبعد التحية المُعتادة أخذ الوزير الكلمة ليقول لي بكل هدوء بأنه يتحمل مسؤولية الخطب الدولية وقد يجد نفسه مضطرا لأي إضافة أو تعديل إذا رأى ضرورة لذلك، وأجبته بنفس الهدوء بأن هذا أمر طبيعي ولكن غير الطبيعي هو أن تكون الإضافة قبل ساعات معدودة من إلقاء خطاب توجد نسخته المعدة للبث إعلاميا على بعد عدة آلاف من الكيلومترات، وفي غياب وسائل اتصال مضمونة.

ولم ينطق الرئيس بكلمة واحدة واعتبرتُ المقابلة منتهية، وتركت لإدريس مهمة إضافة الجملة المطلوبة. لكن ما حدث بعد ذلك كان أكثر أهمية، ففي اليوم التالي وخلال لقائي المُعتاد مع الرئيس قال لي متبسطا : "بالنسبة لقضية الأمس، أريدك أن تعرف أنه بمجرد خروجك قال لي بن يحيى أنك مُحق في موقفك، ولولا الاضطرار لما لجأ إلى ذلك".

والواقع أنني أحسست بالتقدير والاحترام المُتزايدين لهما، فمن جهة لم يكن الرئيس مضطرا ليروي لي ما حدث مع وزيره للخارجية، وربما كان من الأنسب له أن نظل متنافرين لتكون السيادة له، ولكنه اتخذ موقف الرجولة والأخوة.

أما بالنسبة لبن يحيى فلم يكن مضطرا إلى تزكية موقفي المتنافر مع موقفه، ولقد أكبرت فيه ذلك بالرغم من أن أحد الرفقاء ممن قصصت عليه الأمر إثر عودتنا قال متشككا : "ما كان وزير الخارجية ليفعل ذلك لولا أنه أحس بتقدير الرئيس لك، ومع ملاحظة أن الرئيس لم يقل لك كل ما سمعه منه بن يحيى، لكنك لم تسمع شيئا عن الأمر من الوزير نفسه".

ولم أتوقف عند ذلك بل فضلت أن أظل على احترامي وتقديري للرجلين.

وزرنا بالطبع الكونغو الشعبية لكننا لم نعرج على كونغو موبوتو، وكان من أروع أيامنا تلك التي قضيناها في موزمبيق حيث سعدنا للمرة الثانية بالاستماع إلى خطب ساموار ماشيل التي كانت تترجم فوريا من البرتغالية إلى الفرنسية ثم إلى العربية، وكان بديعا أن نتابع خطاب ساموار، الذي أنهيت حياته فيما بعد بطريقة مأساوية حيث سقطت به الطائرة على حدود بلاده، وهو يستعمل كل جسده في الخطابة ويدور حول نفسه ويعطي الشعور بأنه يكلم كل واحد من الحاضرين على حدة.

وكانت أيامنا في جزر السيشل التي كنت أزورها للمرة الأولى أياما رائعة في بلد خلقه الله للسياحة وللاسترخاء. وأتذكر هنا أنني نزلت إلى قاعة العشاء الذي أقامه رئيس السيشيل، الرئيس ألبير روني وأنا أرتدي زيا صيفيا، وبدون "كرافات" بالطبع، لكنني لاحظت أن الرئيس وصل إلى القاعة الكبرى المجاورة لقاعة العشاء وهو يرتدي ملابسه الرسمية كاملة، وأسرعت إلى غرفتي لاستبدل ملابسي احتراما لتصرف الرئيس وتعبيرا عن التقدير له أمام المضيفين.

ومما أتذكره في هذه الرحلة زيارتنا لمدغشقر وخطاب الرئيس راتسيراكا، الذي كان متيما بالرئيس الجزائري الراحل، وكان مما رواه في خطابه الرسمي قول بو مدين له بأن الناس قد : "يبصقون يوما على قبره ولكنهم لن يجرؤوا على البصق على ما أنجز خلال رئاسته للبلاد".

وكان لطيفا أن يستعرض الرئيس حرس شرف في زيمباوبوي(روديسيا سابقا) كان قائده وعدد من كبار مساعديه من البيض، أدوا التحية العسكرية له وللرئيس بنانا، ولرئيس الوزراء والمسؤول الحقيقي في البلاد روبر موغابي (الذي تناسى تماما أنه لم يكن يحظى بتأييد الجزائر التي كانت تتعاطف أكثر مع منافسه نكومو، والذي وجدناه في صف المستقبلين على أرضية مطار العاصمة).

وعدنا إلى الجزائر في وضعية إرهاق لا يوصف ولكنه كان مقترنا باعتزاز كبير.

على صفحتين سامورا ماشيل 75 وموغابي 76 وراتسيراكا 75ب وقائد الحرس البريطاني 76 ب

....

وتقلص عمود "للتذكير فاصبح مجرد سطرين".

....

وترأس الشاذلي بن جديد احتفال العمال بأول مايو للمرة الأولى منذ توليه الرئاسة، وجمعت نقاط خطابه المُرتجل بين القوة والعاطفة وعكست تزايد ثقته بنفسه، وربما، أقول ..ربما، كان من أسباب ذلك ما اكتشفه من انبطاح كثير من المسؤولين أمامه، وهم الذي كان يراهم، وهو خارج المسؤولية التنفيذية الأولى، أشجارا باسقة لا تنحني.

وكان من بين ما قاله الرئيس في خطابه (الذي تم إعداد نقاطه الرئيسية بالطريقة المألوفة) أنه يحرص على اعتماد سياسة الحوار، وأن الثورة لن تتردد في استعمال العنف الثوري إذا كان هناك خطر يمس الوحدة الوطنية أو يتناقض مع أهداف الثورة، وأن زيادة الإنتاج هي الحل الجذري لمواجهة الارتفاع في الأسعار، وأن على المناضلين أن يحكموا على الشخص من واقع أفعاله لا من منطوق أقواله، ثم قال بأنه : "لا تعايش بين الثورة والثروة، وبأنه لن يسمح بأي تستر على اختلاس أموال الدولة" (وكان واضحا من الحديث عن الثروة أنه يقصد الثراء غير المشروع)

واختتم الرئيس خطابه بجملة عاطفية قال فيها : "فليكن النشيد (الوطني) الذي استمعنا له الآن عهدا بيننا على مواصلة المسيرة، وفاء لأرواح الشهداء وتحقيقا لمطامح شعبنا واستجابة لإرادته.

....

وفي العاشر من مايو أيضا بدأت مناقشة اللجنة المركزية لملف السياسة الثقافية.

وعرفت هذه الأيام محاولة اغتيال ريغان في آخر الشهر، وما أثاره ألكسندر هيغ وزير الخارجية الأمريكية عندما صرح بعد محاولة الاغتيال بأقل من ساعتين بأنه يتولى الأمور في البلاد، في حين لم يكن سوى الخامس في ترتيب من يحق لهم ذلك عند حدوث مانع للرئيس.

وكان من أهم ما حدث فيما يتعلق بنا في العاشر من مايو انتصار فرنسوا متران في الانتخابات الرئاسية الفرنسية على منافسه جيسكارد ديستان الذي أنهى رئاسته بخطاب متلفز استعمل فيه أسلوبا مسرحيا استهجنته، ربما لأنني لا أحب الرجل منذ زيارته للجزائر في السبعينيات، ولاحظت كيف كانت مصافحته لنا تتسم بالاستعلاء، ولم أكن أتصور أن نهاية عمرو قد تضطرني يوما للتحسر عليه.

وأوفد الرئيس الأخ محمد الشريف مساعدية لتمثيله في حفل تنصيب الرئيس الفرنسي الجديد، وكانت إشارة لها معناها، حيث كان هو الذي كلف باستقباله عندما زار الجزائر في منتصف السبعينيات.

وصول ديستان 77 ووصول متران 78 – على صفحة واحدة

ويعرف العال

وعرفت البلاد أيضا عدة نشاطات داخلية كما عرفت عدة زيارات خارجية من بينها زيارة رؤساء غانا ثم السيشيل ورئيس الوزراء الكندي وكذلك ياسر عرفات ثم وزير خارجية بريطانيا، وكان هذا كله

دليل حيوية حقيقية أحس بها المواطنون الذين كانوا يسترجعون دائما شعار المؤتمر الاستثنائي للحزب: "من أجل حياة أفضل" [216].

وقام الرئيس بزيارة ولاية الاصنام للمرة الثانية واتخذ هناك قراره بتغيير اسم الولاية إلى "الشلف" المأخوذ من الوادي الذي يخترقها، وقبل أن ذلك تم بطلب من المواطنين الذين كانوا يتشائمون من الاسم القديم (وكان الاسم خلال مرحلة الاستعمار أورليانزفيل)

(7)

كان يوم العمل الرسمي في نهاية شهر مايو قد انتهى عندما اتصل بي الأخ مولود حمروش مدير التشريفات الرئاسية ليطلب مني أن أوافيه في مكتبه بسرعة، لأن هناك حادثا جللا وقع.

ورحت أحث الخطى نحو الطمب الكبرى حيث مكتب مولود وأنا أتساءل عن ماهية الخطب، وهناك عرفت أننا فقدنا الاتصال بالطائرة الرئاسية التي كانت تقل محمد الصديق بن يحيى، وكانت المعلومات الأولية المتوفرة تقول بأن عضو المكتب السياسي ووزير الخارجية كان متوجها إلى فريتاون على متن الطائرة الصغيرة من طراز ميستير، والتي كنا نستعمل في الحديث عنها اسم "روميو بابا" (الدال على رقمها الدولي"*7T-VRP*" تمييزا لها عن طائرة أخرى من نفس الطراز كان اسمها "روميو إكو *7T-VRE*") وكلتاهما وضعتهما شركة السوناتراك تحت تصرف الرئاسة الجزائرية، التي كانت تلجأ إلى الشركات الوطنية الكبرى لتلبية احتياجات سريعة، حيث أنها تملك إمكانيات هائلة بجانب حرية أكثر في التصرف بأموالها، مقارنة بالرئاسة، المُقيدة باللوائح المالية الإدارية.

نعم ... هكذا كنا نعيش ونعمل.

وكان المفروض أن تحط الطائرة في مطار باماكو للتزود بالوقود لكن المعلومات الأولية التي وصلت عن طريق مركز المراقبة الجوي بالسنغال لم تعطنا أي معلومات ذات قيمة.

وانتقلنا، مولود وأنا، إلى وزارة الخارجية التي كانت على اتصال مستمر بسفارتينا في مالي والسنغال، وأبلغ الرئيس بالخبر الأولي بينما ظللنا نحن نتابع التطورات، مع الأخ محمد الصالح دمبري، الأمين العام للخارجية ، حتى ساعة متأخرة، متكتمين على الخبر حتى تتضح معالمه.

وصدر صبيحة اليوم التالي، بعد استئذان الرئيس الذي كان سيرأس اجتماعا وزاريا، بلاغ يقول:

> "فقدت طائرة جزائرية خاصة كانت تقل الوفد الجزائري المتوجه إلى سييراليون برئاسة الأخ محمد بن يحي (وكنا أيامها ما زلنا نستعمل رسميا صفة الأخ بالنسبة للمسؤولين) عضو اللجنة المركزية ووزير الشؤون الخارجية وذلك أثناء تحليقها فوق الأجواء المالية، ولم تعرف أية تفاصيل حتى الآن حول مصير الطائرة أو ركابها، وتواصل السلطات المعنية عمليات البحث عن الطائرة أو الاتصال بها.

وواصلنا الاتصالات ولكن المعلومات الأولية لم تكن مطمئنة، وكان يجب أن يُعدّ المواطنين للأسوأ، وهكذا صدر البلاغ التالي:

> "تدل المعلومات الأولية بأن الطائرة الخاصة المُقلة للوفد الجزائري برئاسة الأخ محمد بن يحيى والتي كان من المفروض أن تصل صباح اليوم إلى فريتاون بعد توقف في باماكو لم تتمكن من الهبوط في مطار العاصمة المالية لسوء الأحوال

---

[216] - بدأت عناصر اليسار، التي ستتأثر فيما بعد بتطبيق المادة 120 من قانون الحزب، بعملية تشويه تناولت أمرين أولهما تحريف شعار "من أجل حياة أفضل" كما سبق أن أشرت في هامش سابق، أما الأمر الثاني فهو الهجمة الرهيبة على استيراد الجزائر لعدة آلاف من سيارات الهوندا اليابانية بسعر زهيد يقل بكثير عن سعر السيارات الفرنسية، وهكذا انطلقت دعايات تقول بأن السيارات اليابانية ضعيفة ولا تستطيع صعود المرتفعات وأن ألوانها سيئة الصباغة وتحول أو تزول بسرعة وأن هندستها الميكانيكية معقدة وصعبة على عمالنا وأن أثمان قطع الغيار غالية، ووصل الأمر إلى حد كراء بعض المنحرفين لثقب عجلات الهوندا.

وكتبت يومها أقول بأنني لم أكن أعرف أن اللون الأحمر هو في حقيقة الأمر ثلاثي الألوان، فقد كان واضحا أن العملية كلها دفاع عن السيارات الفرنسية خوفا من أن تلتهمها السيارات اليابانية ، وكان السؤال هو عمن أعطى التعليمات بذلك، وهو بالتأكيد فرنسي الولاء.

الجوية. وإثر الاتصالات بكل المطارات الموجودة في المنطقة لم يؤكد أي منها هبوط الطائرة الجزائرية بها"

ثم أعطيت خبرا آخر يؤكد تحطم الطائرة قرب مطار باماكو ولكنه يقول بأن "السلطات الجزائرية لم تفقد الأمل في العثور على ناجين من الطائرة التي تحاول فرق الإنقاذ الوصول إلى مكانها".

وعندما تلقيت تأكيدات بعدم وجود ناجين أعطيت خبرا آخر يقول بأن :

"الرئيس يتابع بقلق المحاولات التي تجري لمعرفة مصير ركاب الطائرة".

ثم أصدرت البلاغ التالي :

تحطمت طائرة جزائرية خاصة على مقربة من مطار باماكو (..) وقد تلقى رئيس الجمهورية النبأ المؤلم أثناء انعقاد مجلس الوزراء، فرفع الجلسة بعد أن أبلغ أعضاء الحكومة بكل المعلومات المتوفرة حول الحادث.

ويبدو من عمليات البحث الأولية عدم وجود أحياء من بين ركاب الطائرة"

وأكدت مصادر مركز المراقبة الجوية بالسنغال ثم مالي وفاة كل الركاب فأعددت خبرا يظل تحت الحظر، مضمونه أن رئيس الجمهورية أوفد الأمين العام لرئاسة الجمهورية لأسرة الفقيد بن يحيى ومسؤولين سامين لبقية أسر الضحايا لإبلاغهم بالكارثة ولتقديم التعازي وذلك قبل إعلان الخبر رسميا في وسائل الإعلام، وأرسلت بالخبر إلى وكالة الأنباء الجزائرية والإذاعة والتلفزة الجزائرية مع التأكيد بأنه تحت الحظر (*Sous embargo*) أي أنه لا يُبث قبل أن أعطي الإشارة بذلك، وهو إجراء مألوف في حالات كثيرة من بينها البلاغات الرسمية المُشتركة، مما يعني أنه لم يكن اختراعا جديدا.

وكلفتُ الإذاعة والتلفزة بالاستعداد لوضعية الحداد الرسمي، وكنا ما زلنا نأمل في حدوث معجزة، وفي الوقت نفسه ظللنا ننتظر تمكن المسؤولين المعينين من الاتصال بكل الأسر المنكوبة [217].

وقبل أن ينتهي اليوم كانت الاتصالات كلها تؤكد ألاّ ناجين، وهنا تسرع المدير العام للإذاعة والتلفزة فأعلن الحداد بدون أن يتلقى من مديرية الإعلام التعليمات اللازمة معتمدا في ذلك على مصدر مُعين أبلغه بأن الأمر انتهى (وستكون تصرفاتٌ من هذا النوع بداية الكارثة الإعلامية حيث تستطيع مراكز نفوذ معينة في أن تبث ما تراه متجاوزة بذلك السلطة المسؤولة مباشرة عن الجهاز، وسيزداد الأمر سوءا في مرحلة العددية ،وليس التعددية، الصحفية ونشوء القطاع الخاص)

وفي نفس اللحظات التي بدأت الإذاعة تبث القرءان الكريم وقعت المُعجزة ووردت إشارة تبلغنا بوجود جسد يتحرك خارج الطائرة، ثبت فيما بعد أنه كان الأخ بن يحيى، الذي نجا من الحادث وتمكن من الزحف خارج الحطام، كما نجا الأخ محمد عبادة، بينما قضى الباقون نحبهم.

وعندها أصدرنا البلاغ النهائي، بادر مدير الإذاعة والتلفزة إلى إيقاف وضعية الحداد الإذاعي والتليفزيوني بعد نحو ساعتين، وكان يُمكن لو حدث تشاور في الأمر أن يستمر الحداد يوما كاملا، وكانت ردود الفعل الشعبية على ذلك بالغة السوء، إذ رأى كثيرون، وعن حق، أن إلغاء الحداد كان نتيجة لنجاة الوزير، وهو ما يعني أن بقية الضحايا لا يستحقون أن تحزن عليهم البلاد.

والغريب، وهو في الواقع ليس مستغرب، أن المدير العام المسؤول ادعى فيما بعد أنه تلقى تعليمات تطلب منه القيام بما قام به، وكان ذكيا فلم يحدد ممن جاءه الأمر بإعلان الحداد أو بإلغائه، ولم نكن آنذاك في وضعية تسمح بالتوقف طويلا عند أمر فضلنا نسيانه لأن الفرحة اختلطت بالحزن والغضب تشابك مع الحلم، وكان ذلك من أخطاء المسيرة، وقضى بن يحيى شهورا في العلاج ولكنه كان مطلوبا منه أن يموت، وهكذا سقطت طائرته مرة أخري في بداية نفس الشهر من العام المقبل، كما سيأتي [218].

صورتان في صفحة – من ملفات إعداد الخبر 79 ثم صورة بريجنيف 80

[217] - أتحمل شخصيا مسؤولية كل ما يتعلق بالجانب الإعلامي في هذه القضية كما أوضحت عاليه. وهكذا أعطيت الأخبار قطرة قطرة، وشاء المولى عز وجل أن تتحقق معجزة، وسأتعامل مع زلزال الأصنام بعد ذلك بنفس الطريقة.

[218] - أنظر المرجع السابق

ويستأنف الرئيس نشاطه الدولي بزيارة إلى بلغاريا استقبله فيها الرئيس جيفكوف استقبالا شعبيا في شوارع صوفيا، كان من بين بنوده أن يرقص الرئيسان مع الجماهير، وكان موقفا محرجا لرئيس لم يألف ذلك، ونظر لي الرئيس الشاذلي بقلق ولكنني اقتربت منه للحظات قلت له فيها أن الوضع تحت السيطرة، وهكذا تركت له أن يرقص كما يشاء، والواقع هو أنني أعددت نفسي لاستبعاد أي بث للصور التي التقطها مصورونا وكنت بالتالي مطمئنا إلى تحكمي في الوضع.

ثم اتجهنا إلى موسكو في اليوم التالي، وكانت هذه الزيارة تتويجا للجهد الذي قام به الرئيس طوال الشهور الماضية، وبينما كان وزير الخارجية يخضع للعلاج الطويل تولى إعداد ملف الزيارة الأخ محمد الصالح دمبري الأمين العام بالوزارة، الذي أعد ملفا ممتازا عن كل ما يمكن أن تشمله المباحثات مع السوفييت، وسلمني صورة من الملف قمت بتلخيصها وبترجمة الفقرات الملخصة وإعدادها بنفس الأسلوب الذي كنت أعد به ملفات اللجنة المركزية، واستوعب الرئيس كل ذلك بجهد رائع وجدير بالتقدير وإلى درجة أنه تصرف في لقائه مع ليونيد بريجنيف بأسلوب يثير الإعجاب، وكان مستواه، وهو يرتجل تدخلاته، أعلى من مستوى الزعيم السوفيتي الذي كان مُهتزا ومرتجفا وهو يقرأ تدخله من ورقة أعدت له، وأتذكر هنا تعبيرا فوجئت وأنا أسمع الشاذلي يوجهه إلى بريجنيف مشيرا إلى أفغانستان (التي بدأ الاتحاد السوفيتي يغرق في أوحالها منذ 1979) حيث قال له حذار من أن تكون أفغانستان هي "فيتنامكم".

ولا أتذكر أننا كنا وضعنا عبارة رائعة كهذه في ملف الرئيس، الذي قالها بهدوء وببساطة، ولكنني أتصور أن الجانب السوفيتي تلقى الرسالة بكل اهتمام، كما تلقى رسالة أخرى غير مباشرة عندما كان الرئيس يسأل في "الكرملين" عن اتجاه القبلة، وأحسست يومها أن الرئيس بدأ مرحلة اتخاذ المبادرات في الاتجاه السليم الذي يضمنه وجود من يضعون المعلومات الكاملة والواضحة أمامه.

ولقد كانت هذه الرحلة من السفرات القليلة التي حدث فيها تنسيق كامل بيني وبين وزارة الخارجية ويعود الفضل في الإنجاز، وبعد المولى عز وجل والرئيس نفسه، إلى الأخ دمبري.

أما ما بقي في ذاكرتي من تلك الرحلة فهي ليلة ليلاء في قصر الكرملين الرائع، الذي منعتني فيه من النوم حركة البندول الإيقاعية الذي يتأرجح داخل الساعة المذهبة هائلة الحجم، ففتحتها وحشرت فيها وسادة أوقفت حركتها، وكنت أمل أن أنتزع الوسادة صباحا ولكنني نسيت، وأتخيل ما صبّه عليّ البعض هناك من لعنات.

وعرف شهر يونيو نشاطات داخلية متعددة، ثم توجه الرئيس إلى كينيا في الأسبوع الأخير من يونيو للمشاركة في مؤتمر القمة الإفريقي الثامن عشر، والذي قيل أن العاهل المغربي الملك الحسن الثاني سيشارك فيه، وتسلم الرئيس الكيني آراب موي رئاسة المؤتمر من الرئيس سياكا ستيفنس، الذي كان لقاؤه مع الرئيس الشاذلي بالغ الودية حيث استذكر زيارته للجزائر في العام الماضي والاستقبال الذي حظي به في مدينة عنابة [219].

---

[219] - لم أتوقف عند زيارة الرئيس سياكا ستفنس إلى الجزائر لأنني لم أجد عناصر عنها في مذكراتي المُختصرة، لكن حديث الرئيس السييراليوني عن عنابة ذكرني بحادث طريف.

فقد أحيا حفل العشاء الذي أقيم على شرف الضيف مغن شعبي معروف قلت له أنني سأقدمه للرئيس سياكاستفنس عند انتهاء الحفل، فركبه الخوف من الحديث مع رئيس ضخم الجثة لا يعرف لغته، وطمأنته قائلا بأننا سنكون إلى جواره، .وزودته ببعض الكلمات ليحشرها في أغنيته، ثم طلبت منه أن يُحسن الحديث مع الرجل الذي سيصبح في العام التالي رئيسا لمنظمة الوحدة الإفريقية، وقال لي الفنان ببساطة أنه يعرف الغناء ولكنه لا يعرف ماذا يمكن أن يقول لرئيس دولة، وقلت بنفس البساطة : ذاك ليس شأنك، عليك أن تتكلم وتكرر كلمة إفريقيا وسييراليون فقط، والباقي علينا نحن.

وبالفعل أعددت تدخلا أعطيته للأخ بن كريتلي الذي كان يتولى الترجمة إلى الإنغليزية، وطلبت منه أن يقدم التدخل إثر كل مجموعة جمل يرددها الفنان، وكانت النتيجة رائعة إذ أعجب الرئيس سياكا ستيفنس بذكاء المغني وبثقافته الواسعة وبحب الشعب الجزائري لسييراليون، وحكى كل ذلك للرئيس الشاذلي فسألني فيما بعد عن الفنان العملاق الذي أثار إعجاب الضيف، ولما ذكرت له الاسم لم يُصدق وانفجر ضاحكا، وشرحت له الأمر بالطبع.

(8)

ويُفتتح مؤتمر القمة الثامن عشر.

وكانت المفاجأة الخطاب الذي ألقاه بالفرنسية عاهل المغرب الملك الحسن الثاني، وأعلن فيه (حرفيا) استعداد المغرب لقبول استفتاء يؤكد "مفهوم" المغرب لحقوقه المشروعة في الصحراء الغربية (*Un référendum qui confirme la Convection qui a le Maroc de ses droits légitimes*)

كان الطرح واضح الديماغوجية إذ أن ما سوف يُطلب من الصحراويين في نهاية الأمر هو تأكيد مفهوم المغرب لحقوقه، ومفهومه واضح وجليّ وهو ضم الصحراء الغربية بشكل أو بآخر.

ورفعت الجلسة وأنا أحس بحجم كبير من "القرف" لأنني شعرت بأن الملك المغربي يسخر منا.

وسألت الرئيس عن نظرته وعن نواياه تجاه الطرح المغربي، وكانت إجابته أن هناك من تحمل مسؤولية إعداد ردّ على ملك المغرب، وعرفت أنه كان الدكتور أحمد طالب، الذي كان قد سبقنا إلى نيروبي مرفوقا بالأخ سليمان هوفمان، المُكلف آنذاك بقضايا حركات التحرير، والذي كان مع طالب في مرحلة إعداد خطاب الرئيس وإن كنت أشك في أنه أعد شيئا ملموسا[220].

وانتظرت أن تستدعيني المجموعة المكلفة بإعداد الرد انطلاقا من أنني المُكلف بخطب الرئيس وبتصريحاته، لكن ذلك لم يحدث، ولم أتحرك أو أحدث ضجيجا فالرئيس هو صاحب القرار الأول، وإن كنت أعتقد أن سليمان قد استعمل معه أسلوبه المعروف في إثبات الوجود، وأن طالب حاول الاستفادة من الوضعية، وقُدّم نص الخطاب للرئيس وكان باللغة الفرنسية ومكتوبا بالآلة الراقنة، وبدا لي من وضع الخطاب أمام الرئيس في الجلسة المسائية أنها محاولة متسرعة لانتزاع موقف لم أدرك آنذاك كل معطياته، ولم تكن لدى الرئيس الفرصة الكافية لقراءة الخطاب أو التمعن في كلماته، واستمعت أنا إليه كبقية الحاضرين وأنا أغلي غضبا وأتميز غيظا.

فقد ألقى الرئيس الجزائري أول خطاب له بالفرنسية في محفل دُوليّ، ولم يكن ما حدث أمرا مُشرفا بأي حال من الأحوال، بل كان مدعاة للأسى من عدة أوجه، فمن ناحية المحتوى وخلافا لكل منطق سليم قال الخطاب ردا على اقتراح الملك المغربي بأنه خطوة إلى الأمام، والواقع هو أن موقف الحسن الثاني كان دورانا حول النفس والتفافا حول الواقع، استعمل كلمة الاستفتاء بما يتناقض مع معنى الاستفتاء، وقد قلت بداية أنه كان أشبه بالسخرية من الجزائر ومن موقفها ومن المنظمة الإفريقية وهيبتها كما كان تعبيرا عن التعنت والغرور والاستعلاء.

ومن ناحية الأسلوب يكفي أن أقول أن الرئيس تعثر أكثر من مرة وهو يتلو خطابه، وقال لي فيما بعد وهو يُشير إلى الخطاب بنوع من القرف أنه كان مليئا بالأخطاء.

ولم أعلق بل كنت أتساءل عن الخلفية التي دعت مجموعة العمل إلى استبعادي من العملية [221].

وكان تصوري في البداية أن القضية صورة من صور الصراع في هذه المستويات من السلطة، حيث يحاول مسؤول معين استبعاد مسؤول آخر ليخلو له الجو، وكنت أعرف كثيرين سيسعدون بتقلص صلاحياتي بل وباختفائي، وكل هذا في تصوري أمرا طبيعيا في غابة السلطة.

---

[220] - هوفمان، ضابط سابق في الجيش الفرنسي التحق بجيش التحرير الوطني وكان في الدائرة المقربة من العقيد هواري بو مدين، وكلف بعد تغيير 19 يونيو بسلاح المدرعات، وقام بدور هام في إجهاض عملية العفرون التي كانت محاولة انقلاب على السلطة وقف وراءها، كما قيل آنذاك، العقيد الطاهر زبيري، ثم عين واليا للعاصمة، وكان من المجموعة التي رافقت وزير الداخلية محمد بن أحمد عبد الغني في منتصف السبعينيات إلى العاصمة الإسبانية حيث خدعوا باتفاقية مدريد المُتعلقة بالصحراء الغربية التي مرت تحت أنوفهم، وكان في هذه المرحلة من مجموعة المستشارين حول الرئيس الشاذلي، ورأيته خبيرا فيما يُسميه الجزائريون "الهف" ويُردد أن المعربين يُفكرون بنصف مخهم فقط، ولم يتوقف عن ترديد هذه العبارة إلا عندما ذُكّر بأن بو مدين هو أساسا مُعرب.

أما الدكتور طالب والذي كان آنذاك وزيرا مستشارا لرئيس الجمهورية فقد قام بدور وزير الخارجية في غياب محمد الصديق بن يحيى للعلاج.

[221] - كان الخطاب كارثة حقيقية إذ أنه أفسد الخطة التي كنا نسير عليها والتي تقول بأن الرئيس كان يتعامل في حياته العملية أساسا باللغة الفرنسية، وكان هذا هو مبرر أي عثرات تحدث معه في خطبه العربية، أما بعد خطاب نيروبي فكان أسخف ما قيل عنها هو ما كتبه حمدي فؤاد في الأهرام من أن الرئيس الجزائري لا يعرف العربية ولا يتقن الفرنسية، وهو ما كرره كاتب مغربي بعد ذلك بسنوات.

لكن تطورات قضية الصحراء الغربية أثبتت أن الأمر أكثر خطورة من ذلك، وربما كان الدكتور أحمد طالب يأمل أن يكون حلّ قضية الصحراء على يديه، بعد أن كاد الأمر يكون كذلك، أو كما كان يظن، في حياة الرئيس بو مدين عبر اللقاء مع شقيقة الملك (وأتصور أن طموحه مشروع).

ولم أبحث قضية الخطاب أبدا مع الرئيس لأنني أحسست بأنه جُرح منها، غير أنه تكتم على الجرح، ولم أرد أن أثير ألمه، لكنني كنت أدرك أن المغرب سجل نقطة على حسابنا حتى ولو كان ردّ الفعل قد اعتبر من أفارقة كثرين تأكيدا لحسن نوايا الجزائر.

والذي حدث هو أن خطاب نيروبي أصبح نقطة فاصلة لم يُعد من الممكن تجاوزها، إذ أصبح هو قاعدة الطرح المغربي في قضية الصحراء الغربية.

....

وعودة إلى الجزائر حيث تعقد الدورة الخامسة للجنة المركزية (وحمل اختيار أعضاء مكتب الدورة كلهم بصمات مساعدية) لتستمع إلى لجنة الانضباط التي قررت إيقاف عضوية كل من أحمد بن شريف (قائد الدرك الوطني السابق ثم وزير الري في آخر حكومات بو مدين) ومحمد الطيبي العربي (وزير الفلاحة المُزمن) ومحمود قنز (وزير المُجاهدين الأسبق) ومصطفى بوعرفة (وهو إطار في الإعلام الآلي ومن المقربين لشريف بلقاسم).

وهكذا بدأت مقصلة التصفيات، واختفى يحياوي وعبد العزيز بو تفليقة من قائمة أعضاء المكتب السياسي الجديد الذي ضم رابح بيطاط وعبد الله بلهوشات وعبد الغني ومساعدية وبن يحيى ومعزوزي وبوعلام بن حمودة وباقي بو علام ومحمد يعلا، وعلّقت بعض الصحف الأجنبية قائلة بأن هذا يشير لبداية مرحلة ما بعد بو مدين.

....

وما زال مربع للتذكير في صحيفة الشعب بدون صورة بو مدين.

....

ويصل إلى الجزائر للمرة الأولى مبعوث خاص للرئيس الفرنسي فرانسوا متران وهو السيد جاك أتالي (أو عطالي، وهو يهودي من فرنسيي الجزائر) وكان اللافت للنظر أن الذي استقبله هو الأمين الدائم للمجلس الأعلى للأمن، في حين أن الضيف لم يكن يُمثل أي صفة عسكرية، وبدا واضحا أن الفرنسيين يحاولون مد جسور عبر المقربين من كل من الرئيسين، وهي جسور ستتدعم تدريجيا.

ثم يزور الجزائر وزير الخارجية الفرنسي كلود شيسون لإعداد زيارة الرئيس الفرنسي الذي تلقى من مبعوثه الأول عرضا شاملا ووافيا عن الرئيس الجزائري يُمكن تخيله من دراسة الواقع آنذاك.

ويتوجه الرئيس إلى نيروبي لحضور أشغال اللجنة المُكلفة بتنفيذ الاستفتاء في الصحراء الغربية، وتضم كينيا وغينيا ومالي ونيجيريا وسييراليون والسودان وتانزانيا، ويُعدّ لقاء نيروبي السُباعي مخططا لتنفيذ الاستفتاء في الصحراء الغربية يطرح الاختيار بين الاستقلال أو الانضمام للمغرب، وذلك في تصويت حرّ وسرّي، وإقامة إدارة مؤقتة لحفظ السلام تابعة لمنظمة الوحدة الإفريقية.

....

وبدت مقتطفات "للتذكير" في الصفحة الأخيرة لجريدة الشعب مشوهة عبر معظم الأيام.

....

عودة بن يحيى صورة على صفحة - صورة 83

ويعود محمد بن يحيى من رحلة العلاج المكثف في 28 أوت.

ويبدأ الإعداد لملتقى الفكر الإسلامي الخامس عشر بإشراف الشيخ عبد الرحمن شيبان وزير الأوقاف، وكنت أنا للتاريخ ممن تحمسوا لترشيحه، في الوقت الذي رشح فيه آخرون لا أعرفهم شقيقهُ الدكتور شيبان (وقد تولى نفس الوزارة فيما بعد في 1989 في حكومة الأخ مولود حمروش).

وذهبت إلى مكتب الشيخ شيبان لأراجع معه بعض الوثائق المتعلقة بالملتقى فاستدعى المكلف بذلك وكنا جلوسا في مكتبه فإذا بالداخل علينا هو الأستاذ الشاذلي المكي، ووقفت له ثم عدت للجلوس

ولكن الأستاذ ظل واقفا لأن الوزير لم يدعه للجلوس، فوقفت ثانية، وظللت واقفا إلى جلس الرجل الذي أسجل له دائما فضله عليّ وعلى الكثيرين من رفاق القاهرة[222].

وأسجل في هذه المرحلة، وبناء على اقتراح من الشيخ شيبان، استضافة الجزائر للعالم الكبير الشيخ محمد الغزالي، الذي كان الرئيس يرتاح كثيرا لتدخلاته عبر التلفزة والتي كانت كلها تجسيدا لمفهوم الإسلام الصحيح، ولقد اتهم الشيخ الغزالي فيما بعد من أشباه المثقفين بأنه أسس للفكر الديني المُتطرف في الجزائر، وهو خطأ فادح، بل إن الصحيح هو أنه تصدى لهذا الفكر، وأدخل في قاموسنا الجزائري تعبيرا طوره الرئيس الجزائري فيما بعد فأصبح : "نحن أمازيغ عرّبنا الإسلام".

وأسجل للشيخ شيبان أيضا جهوده للإفراج عن الشيخ محفوظ النحناح، والذي اتصل معي بشأنه أكثر من مرة، ولم أكن أعرف عنه، رحمه الله، الكثير.

....

ثم نلتفت ثانية إلى النشاط الخارجي، فتعرف مدينة بنغازي المؤتمر الأخير لجبهة الصمود والتصدي، الذي عُقد على هامش عملية إعادة دفن رفات الشهيد العظيم عمر المُختار (للمرة الثالثة) في المكان الذي أعدم فيه [223].

وكان التجمع صورة للفوضى الشاملة وكادت الحشود تجرف بو علام بسايح (وزير الإعلام والثقافة الجديد) لولا أن جنبته نحوي، وابتداء من السبت 5 سبتمبر أصبحت "للتذكير" تضم فقرات من مقررات اللجنة المركزية بدلا من كلمات هواري بو مدين، ورأى البعض في هذا بصمات الوزير الجديد، ولم أتدخل شخصيا في الأمر لأنني رأيت أن أسجل وفائي للرئيس الراحل عبر مقالات مطولة، وهو ما حدث بالفعل في الشهور التالية.

وكانت لزيارة الرئيس للشرق الجزائري أهمية تركزت في جانبين أولها التدشينات والزيارات التفقدية خصوصا في عنابة، والثاني هو تزامن زيارة قالمة مع اغتيال الرئيس المصري محمد أنور السادات في 6 أكتوبر، والذي جاء بعد سلسلة من الاعتقالات شهدها شهر سبتمبر وجمعت اليمين واليسار في السجون والمعتقلات، وحدث الاغتيال خلال الاحتفالات بيوم السادس من أكتوبر.

---

[222] - كانت حياة الشاذلي المكي سلسلة من المآسي، وقد ولد في خنقة سيدي ناجي ببسكرة، وفقد والده في سن العاشرة، وصحبه أخوه الكبير إلى تبسة، حيث عمل في ورشة يملكها للنجارة فقد فيها يده اليمنى.

ودرس الشاذلي في تبسة ثم في الزيتونة في تونس، وأصبح رئيسا للطلبة الجزائريين هناك، وارتبط في بداية حياته بنجمة شمال إفريقيا، واعتقل في 1939 وسُجن في قسنطينة، ثم في الغرب الجزائري، وأطلق سراحه في 1943 ليصبح رئيسا لفرع حزب الشعب بقسنطينة.

ويروى أنه ساهم مع حسين عسلة وشوقي مصطفاي في تصور وتصميم العلم الجزائري (الحالي) وحُكم عليه بالإعدام غيابيا إثر أحداث 1945، فالتحق بالقاهرة حيث ساهم في إنشاء مكتب المغرب العربي، وكان هو الذي قدم أوراق كل من محمد بو خروبة (هواري بو مدين) والمدني حواس وكاتب هذه السطور وآخرين للمدارس المصرية، كما عمل للإفراج عن بو مدين بعد مشاركته في الاعتصام داخل القنصلية الفرنسية، وكان هو من نظم أول زيارة لمصالي الحاج إلى القاهرة، ثم بدأت حياته السياسية تتعثر عندما عزله مصالي وعين مكانه محمد خيضر، ثم انضم في القاهرة إلى مجموعة العلماء والبيان ضد جبهة التحرير الوطني التي كان يُمثلها أحمد بن بله، واعتقل عدة سنوات في مصر مع رفيقه أحمد مزغنة بطلب من ممثل الجبهة عندما كان يحاول السفر إلى باندونغ في 1955، والتي كانت الجبهة قد اختارت لها حسين آيت أحمد ومحمد يزيد، وأفرج عنه في 1960 بتدخل من إبراهيم مزهودي لدى فرحات عباس، وعاد إلى الجزائر بعد استرجاع الاستقلال فعمل في وزارة التربية الوطنية كأستاذ في ثانوية حسيبة بن بو علي ثم مديرا بالوزارة. وكان يسكن في إحدى الشقق زهيدة الإيجار مع زوجه المصرية التي اقترن بها بعد خروجه من السجن، وكنت أراه أحيانا في المنطقة بعد التحاقي بالرئاسة فكنت أوقف السيارة وأنزل لتحيته وكان يرى في هذا موقفا كبيرا في حين كنت أراه أقل من الواجب.

وعمل في آخر حياته مديرا بوزارة الأوقاف وصُفّي في عهد الشيخ عبد الرحمن شيبان.

ولا أعرف السبب الحقيقي وراء تهميشه على الساحة الوطنية بالرغم من وجود واحد من قدامى الحركة المصالية بجانب الرئيس بو مدين وهو الدكتور محمد أمير (وكنت حدثته عنه أكثر من مرة) وإن كنت أتصور أن السبب فيما تعرض له من جحود ونكران وتهميش هو أنه مُعرب، رغم أنه لم يأخذ بعد استرجاع الاستقلال وحتى وفاته في نهاية الثمانينيات موقفا واحدا ضد السلطة أو ساهم بأي شكل في إثارة المشاكل لها، وأعتبر نفسي مُقصرا تجاهه ولكن العين كانت بصيرة واليد قصيرة والعزلة خانقة والغربة قاتلة.

[223] - هناك تفاصيل عن اللقاء في كتابي "أيام مع الرئيس هواري بو مدين" (دار إقرا – بيروت . موفم – الجزائر)

لكن أهم ما ميز شهر أكتوبر هو لقاء كانكون بالمكسيك في بداية الأسبوع الأخير منه، وهي زيارة تم التعامل معها على مستوى الرئاسة بتكتم كبير لم يكن له من مبرر إلا الغموض المرضيّ.

وشارك في لقاء كانكون 22 بلدا (8 بلدان متقدمة والباقي من الدول النامية بالإضافة إلى الصين، ولم يُشارك فيه أي بلد من الكتلة الإشتراكية) وحضره رؤساء الصين والولايات المتحدة وفرنسا والمستشار النمسوي كرايسكي ورئيسة وزراء بريطانيا السيدة تاتشر وولي عهد السعودية الأمير فهد (الذي سمعته بنفسه يقول للرئيس الشاذلي تعليقا على المبادرة التي سُميت باسمه أنها ليست مُبادرة ولكنها مجرد أفكار عامة)

وفي تصوري فإن أخطر ما عرفه المؤتمر كان اللقاء المباشر بين الرئيس الشاذلي وإلى جانبه بن يحيى وبلقاسم نابي والرئيس فرنسوا متران ومعه جاك أتالي وكلود شيسون) وذلك في غياب مترجم، مما فرض على الشاذلي أن يستعمل فرنسيته، التي يجب أن نعترف بأنه كانت عادية، مع سياسي فرنسي مُحنك كمتران، يزن كل كلمة يسمعها وكل كلمة يقولها، ورأيت في الأمر جريمة)

وكان مما عرفه المؤتمر الذي بدا استعراضيا مشروع أعده بن يحيى وقدمه الرئيس تحت عنوان "خطة عمل للقضاء على الجوع"، وحُدد أفقا لها عام 2000، وهو مشروع وُلد ميتا إذ لم يتحدث عنه أحد ولم يرجع إليه أحد ولم يتذكره أحد منذ ذلك اليوم من أكتوبر 1981 [224].

والواقع أن تقديري لوزير الخارجية اهتز منذ هذه اللحظة، لأنني لم أتحمل الخلط بين الفقاعات الإعلامية والإنجازات السياسية في مؤتمر دولي يحضره أمثال ريغان وتاتشر ومتران.

وكان على مديرية الإعلام مواكبة الإنجازات الاقتصادية التي أصبح مرجعها الأول محور عبد الحميد إبراهيمي (التخطيط) وبلقاسم نابي (الطاقة) مع محاولة استباق الأحداث الفكرية والثقافية وأحيانا الاجتماعية، حيث تتزايد الإمكانيات في احتكار العمل وعدم إشراك آخرين فيه.

وعندما اختتم أكتوبر بالمُلتقى الدولي الأول لكتابة التاريخ كان منطقيا أن يقترب تدخل الرئيس في الملتقى أكثر من الجانب الفكري مع التمسك ببساطة الطرح.

وكانت من أهم النقاط التي أعدت :

-التاريخ ذاكرة الأمة وضميرها، وشعب يتجاهل تاريخه ولا يستلهم أمجاده يفقد شخصيته وأصالته، ويصبح عرضة للاستلاب وللاستعمار الفكري.
-التاريخ وحدة كاملة متكاملة، تمتد من أعماق الماضي السحيق وتصل إلى أحداث اليوم المعاصرة، وهناك فرق بين كتابة التاريخ وتسجيل أحداث التاريخ.
-فليكن اللقاء نقطة انطلاق جديدة نحو عملية شاملة لجمع الوثائق المتعلقة بالثورة.
-المطلوب تزويد كتابنا بكل الوقائع.

(9)

عرفت المرحلة التي عاشها الوطن العربي في خريف العام عملية تسويق مبادرة الأمير فهد ، التي دُعي من أجلها لقاء على مستوى القمة في مدينة فاس المغربية في 25 نوفمبر، ولكن اللقاء أجهض لأنه كان في الأمة بعض الهمة وأصبح يُشار للقاء باسم "فاس الأولى"، حيث عقدت فيما بعد "فاس الثانية" وأتصور أن ذلك تم بكثير من الضغوط والمساومات.

وكنا في الأسبوع الأخير من نوفمبر قد أعددنا العدة لحديث صحفي تجريه صحيفة "باري ماتش" الفرنسية مع الرئيس، بعد أن وجدنا مراسلا فرنسيا كان على استعداد لقبول أسلوب العمل الذي نريده، وهو تقديم أسئلة نتشاور حولها معا، ثم استقبالٌ من قبل الرئيس يجري فيه حوار عام حول مواضيع الحوار، ثم يُسلم للصحفي "شارل سان برو" النص الرسمي الكامل للحوار، وهو ما حدث بالفعل وتم في إطاره نشر صورة الرئيس على غلاف المجلة، مع تعليق تم اختياره مع الصحفي.

---

224 - كثيرون أرادوا استثمار تاريخ نهاية القرن فعرفنا بعد ذلك شعارات "شبيبة سنة ألفين" وآفاق 2000 الخ

وأعترف بأن التعامل مع الأمر كله كان من منطلق استباق الزيارة الرسمية التي كان مقررا أن يقوم بها الرئيس الفرنسي فرانسوا متران، حيث يلتقي الرئيس الشاذلي للمرة الثانية، وأمكن تجاوز الإمكانيات المتواضعة بحجم كبير من الإرادة.

وبالطبع فقد حمل الحوار (عدد 4 ديسمبر 1981، والذي قام زميلنا الأخ مصطفى عبد الرحيم بدور رئيسي في ترجمته إلى فرنسية متميزة) عددا هاما من الرسائل كان أولها عنوان الغلاف الذي وضع فوق عناوين أخرى لبريجنيف ودوفير (وزير داخلية فرنسا) وكانت الكلمات التي كتبت تحت اسم الشاذلي:"محكوم على الجزائريين والفرنسيين أن يتفاهموا (*condamnés à s'entendre*....) وهو تعبير أخذ من النص الذي كان يقول "محكوم عليهم أن يتعاونوا (*condamnés à coopérer*) ولم أتوقف كثيرا عند التغيير لأن العنوان حق للمنبر الإعلامي والتعبير نفسه لا يضرنا في شيئ.

وضم الحوار عددا من الصور كان من بينها صورة للرئيس وهو يدعو خلال السعي بين الصفا والمروة، وكتب تحتها الشاذلي"الحكيم" يُصلي، وأذكر بأن هذه هي الصفة التي سربت للمجلة عند نشرها في بداية العام لقصة المصافحة بين الرئيس والعاهل المغربي.

وكان من أهم الرسائل التي استثارتها الأسئلة بالطبع:

- قضية المهاجرين يجب أن توضع في إطارها الصحيح (..) كانت الجزائر خلال الفترة الاستعمارية سوقا للمنتجات الفرنسية ومصدرا لليد العاملة (..) والمهاجرون اليوم هم نتاج تلك السياسة.
- العلاقات بين جبهة التحرير الوطني والحزب الاشتراكي الفرنسي ممتازة، وعندنا علاقات جيدة مع الحزب الشيوعي، وكذلك مع "شخصيات" فرنسية من مختلف الاتجاهات، لكن علينا أن ننظر الآن للعلاقات بين البلدين (الدولتين).
- فرنسيو الجزائر (*Les Pieds noirs*) هم ضحية المواقف الاستعمارية وردود الفعل على القمع الرهيب والتقتيل الذي عانى منه شعبنا، لكن هناك منهم من يعيشون اليوم بيننا باطمئنان ومن يزورون الجزائر من حين لآخر.

  لكن لا مجال لكي يُطلب منا حُسن استقبال من أساءوا لشعبنا.
- "الحركى" أناس اختاروا خندقهم والحكم عليهم هو للتاريخ، وأنا أسألك، كفرنسي، عن موقفك تجاه الفرنسيين الذين تعاونوا مع النازي خلال الاحتلال.

  لكن ليست هناك مشاكل مع أبناء الحركى الذين لا نحملهم مسؤولية مواقف آبائهم.
- بالنسبة للشعب الصحراوي، نحن لا نطلب له أكثر مما طلبنا لأنفسنا وهو حق تقرير المصير، وسنؤيد كل ما يختاره بصورة حرة وتحت مظلة الأمم المتحدة.
- مشكل الشرق الأوسط هو القضية الفلسطينية وحلها قد يكون عبر إقامة دولة لائكية متعددة الديانات على كل الأرض التاريخية لفلسطين، تكون دولة محايدة وواحة للسلام، ونحن نلتزم مع إرادة الشعب الفلسطيني.

  قد يبدو هذا نوعا من اليوتوبيا ولكنني أقول أنه الحل النموذجي [225].
- (ردا على تساؤل) أنا أتصرف طبقا لقناعاتي، وليس لي أن أصدر حكما على نفسي في أن أكون "حكيما" أو لا أكون.
- ديناميكية أي أمة هي تطورها عبر سلسلة من المراحل المُتعاقبة، ثورة نوفمبر مثلا هي نهاية مرحلة وبداية مرحلة جديدة، ونفس الشيئ بالنسبة لاسترجاع الاستقلال .....

---

[225] - بعد أكثر من عقدين طلع العقيد القدافي بفكرة ليست بعيدة عن هذا التصور وهي إنشاء دولة "إسراطين"، وواضح أن الكلمة تضم النصف الأول من كلمة إسرائيل والنصف الثاني من كلمة فلسطين.

لكنني للتاريخ أيضا أقول أن الفكرة ظهرت للمرة الأولى في يونيو عام 1968 على صفحات مجلة الجيش الجزائرية في مقال بتوقيع م..دين وبعنوان "الفصل الرابع" متى يرتفع عنه الستار ؟، وأتصور أن هذا يرسم مفهومي لدور المثقف الفرد في التعامل مع السلطة.

- ليس هناك جزائر بو مدين وجزائر الشاذلي، بل هناك الجزائر فحسب، وهي حصيلة جهد الجميع.
- شعبنا لم يكتف باختيار نظام الحزب الواحد بل تمسك بتسمية جبهة التحرير الوطني.
- أساس الديموقراطية هو الحرية، ولقد اتخذنا خطوات عملية لتحقيقها بعد استرجاع حريتنا، وبدأنا ذلك بالمجالس البلدية.
- لا تناقض بين الإسلام والنهج الاشتراكي لأن الإسلام هو دين العدالة الاجتماعية.
- حل الحرب العراقية الإيرانية هو التفاوض بين الطرفين.

وكان من الرسائل وبعد استعراض للإنجازات المتعلقة بإعادة منطقة الزلازل إلى الوضعية الطبيعية إشارة إلى قضية الثقافة وقضية البربرية وعدد من القضايا الأخرى.

وأستطيع أن أزعم بأن الحديث قد جرت دراسته في فرنسا بكل عناية ودقة، وكان الأمل أن تكون محاوره جزءا من اللقاء بين الرئيسين.

صفحتان صورة الغلاف 84 ثم عنوان الحوار 85 ثم استقبال الصحفي صورة 86

وكان لا بد من الانتهاء بسرعة من عملية الحوار، التي جرى التفاوض بشأن بعض جوانبها، خصوصا المُتعلقة بالغلاف، مع رئاسة تحرير المجلة وبشكل مُضنٍ وعبر عدة أيام خصوصا بالنسبة لفقرة تفلسف فيها الصحفي بالنسبة للحركى ولم تكن في صلب الحوار، حيث كان من أهم الأسبقيات التفرغ لإعداد خطاب الرئيس حول وضع الأمة والذي كان إعداد أهم نقاطه قد بدأ منذ عدة أسابيع، مع أخذ تجربة العام الماضي بعين الاعتبار.

وكانت ثقة الرئيس ودعمه لي الرصيد الأول، وإن كنت قد بدأت أحس، شيئا فشيئا، بأن القوم مشغولون بما رأوه أكثر أهمية من كلمات تضيع مع الأيام، ومن هنا كان الحرص على أن تكون الكلمات المختارة علامات مرجعية على طريق المسيرة.

وشهدت هذه المرحلة التوجه متقد النشاط نحو إقامة رياض الفتح ومقام الشهيد وغيرها من الإنجازات التي سوف تنجز على حساب التخلي عن مشروع المصنع الثالث لتمييع الغاز الطبيعي (GNL-3) وهو الاختيار الذي ارتأته وزارة الطاقة بجانب الدعوة إلى ربط أسعار الغاز بأسعار النفط، ويحمل توقيع بلقاسم نابي.

وكنت اقترحت، وقد عرفت بمشروع تشييد مقام الشهيد، أن يُطلب من المواطنين المساهمة بتبرعات لتنفيذ المشروع، وكنت أريد بهذا أن يحس كل مواطن بأنه شريك في العملية فيتحمس لها ويرتبط بها ويلتزم معها، لكن الرائد بن قرطبي يومها أجابني بكل أدب بأن المشروع ستنفذه الرئاسة بكل جوانبه، وعندها ابتعدت عن العملية كلها.

وعرف قطاع الأشغال العمومية في الوقت نفسه نشاطا حثيثا لتخفيف أزمة المرور في العاصمة والمدن الكبرى، وسيُسجل للشاذلي بن جديد أن عهده عرف الطرق الكبرى التي ربطت منطقة المطار بمنطقة سيدي فرج ونادي الصنوبر وخففت بذلك الضغط على شوارع العاصمة الجزائرية.

وتم تكثيف الاتصالات بالوزراء لتجميع المعطيات الأولية المطلوبة لإعداد خطاب الرئيس للأمة، لكيلا يكون الخطاب مجرد بلاغيات لفظية وتعبيرات مناسباتية تذروها رياح الأيام المتوالية، والواقع هو أن وزراء كثيرين أصبحوا يزودونني بتلك المُعطيات بل وكان منهم من يوصون بالتركيز على إنجازات قطاعاتهم في الخطاب، وكان هذا تسليما منهم بدور مديرية الإعلام في الأمر كله.

....

ووصل الرئيس فرانسوا متران في نهاية نوفمبر ليلتقي للمرة الثانية مع الرئيس الشاذلي بعد كانكون، ورافقته في زيارته الرسمية الأولى زوجه التي صافحت معه المستقبلين على أرض المطار.

وكان من أهم ما قام به مقارنة بسابقه هو وقفة الترحم التي أداها على ضريح الرئيس الراحل هواري بو مدين، والتي قال عنها في خطابه أمام المجلس الشعبي الوطني أنه ذهب لتقديم تحية التقدير

للأبطال الذين جسدوا الثورة الجزائرية، ثم قال بأن زيارته هذه ليست زيارة عادية، ووجه التحية للجزائر التي تمكنت من إقامة دولة أثبتت صلابتها وإرادتها في بناء المستقبل، وأشار إلى المراحل التي جمعت بين الجزائر وبين فرنسا وفيها ما يجمع وما يُفرق، لكن الماضي هو الماضي وعلينا الآن أن ننظر إلى المستقبل لنعمل على بنائه بالثقة المتبادل، وحيا ما أنجزته الجزائر على درب بناء الدولة المستقرة كما أشار إلى طريق الوحدة الإفريقية والسد الأخضر.

وكانت كلماته كله نظرة مطمئنة لمستقبل العلاقات بين البلدين، حتى كدت أحس بأنه أراد أن يقول لنا فلتنسوا زيارة جيسكارد ولتعتبروا أن هذه هي أول زيارة لرئيس فرنسي، وهو ما أنساني، للحظات، ما زعموا أنه قاله لبعض خلصائه من أنه "سيسترجع هذه الجزائر التي أضاعها دوغول".

ولم ينس متران زيارة المقبرة الفرنسية في سانت أوجين مع الوفد المرافق له، وعدت بالذاكرة إلى الوراء فتذكرت مجيئه إلى الجزائر في 1974 حيث استقبله الأخ محمد الشريف مساعدية، واحتفظت من تلك الزيارة بخريطة قديمة أهداها إليّ ولم أعرف إلى يومنا هذا مغزى الهدية.

وعدت بالذاكرة أيضا إلى زيارة جيسكارد ديستان الذي كانت صورته معي تعبير عن نظرته لنا جميعا، فقد كانت يده في يدي وعيناه هناك في الأفق.

واختتمت الزيارة بالاتفاق على قضية أسعار الغاز (وتحدث البعض عن صفقة سياسية) وأفرج بعفو رئاسي جزائري عن ثمانية من الرعايا الفرنسيين.

....

والواقع أن أسلوب مصافحة الضيف لمن يستقبلونه تبقى دائما في ذاكرتهم وتجعل له بالتالي مكانة دائمة في النفوس، ومن هنا لا يمكن أن أنسى مصافحة الرئيس فيدال كاسترو الذي قدمني له الرئيس بو مدين فوقف أمامي باحترام ضاما قدميه إلى بعضهما في شكل التحية العسكرية، ثم هز يدي وهو يحدق في عيني حتى كاد يعطيني الشعور بأنني الوحيد الذي كان في استقباله، رغم أنه قام بنفس الشيئ مع الصف الطويل من المسؤولين الذين كانوا في استقباله.

4 صور: صدام حسين صورة 86/ ماو 86 ب /. السادات 87 /كاسترو 87 ب صفحتان

ومن بين من احتفظ لهم بذكريات مشابهة الرئيسان المصريان جمال عبد الناصر وأنور السادات والسلطان قابوس والملك فيصل والإمبراطور هايلاسلاسي والرئيس صدام حسين والعقيد القدافي في السبعينيات.

....

وافتتح الرئيس خطابه الموجه للأمة يوم 20 ديسمبر بقوله:

نلتقي اليوم بعون الله في جو الاعتزاز بالحاضر والتفاؤل بالمستقبل، وقد قطعنا أشواطا هامة على درب تحقيق الشعار الذي رفعناه في المؤتمر الاستثنائي للحزب "من أجل حياة أفضل".

وتناول الرئيس قضية حماية القدرة الشرائية للمواطن فاستعرض، بالأرقام، ما تم إنجازه (وهي أرقام كان مصدرها وزارة التخطيط) ثم استعرض إنجازات مجال التربية والتكوين وقضايا الأجور والخدمات الاجتماعية كالسكن والنقل والمياه، موضحا أن أزمة السكن نتجت أساسا عن ترتيب الأولويات الوطنية، وأوضح في هذا المجال ارتباط قضية السكن بقضية النقل وضرورة مراعاة ذلك لحل بعض مشاكل الإنتاج، مطالبا بإعطاء الأسبقية لقطاع السكك الحديدية (وهو قطاع لم تحقق فيه البلاد الكثير رغم توجيهات الرئيس لأن القائمين عليه، في تصوري، لم يكونوا يملكون النظرة البعيدة التي عاشتها الولايات المتحدة وهي تصل الشرق بالغرب البعيد أي *Far west*، بواسطة القطار، وحتى مشروع مترو العاصمة دخل في نفق النسيان أو الإهمال، في حين تمكنت مصر مثلا، في نفس المرحلة تقريبا وبالتعاون مع الفرنسيين، من ربط "حلوان" في أقصى جنوب القاهرة بمنطقة "مصر الجديدة" في أقصى شمالها بخط مزدوج للمترو طوله بين أربعين إلى خمسين كيلومترا، نصفها تقريبا يمر في نفق تحت مدينة القاهرة، ذات البنايات القديمة ومنسوب المياه الجوفية المرتفع كما يقولون.

وتناول الرئيس قضية الاستثمارات الوطنية وقضايا الطاقة مشيرا إلى مشروع أنبوب الغاز العابر للشرق الجزائري والمتوجه إلى أوروبا عبر تونس (وهو من أهم إنجازات المرحلة، وتلاه مشروع الأنبوب المتوجه إلى إسبانيا عبر المغرب) وبعد أن تناول قضية إعادة هيكلة المؤسسات الكبرى (والتي أصبحت فيما بعد للأسف عملية تفتيت حقيقي رأى فيها البعض انتقاما من الرجل الذي حملت المشاريع اسمه في ظل الرئيس هواري بو مدين وهو الأخ عبد السلام بلعيد) تحدث عن المشكل المُزمن المتعلق بالفلاحة مؤكدا بأن الفلاح سيستفيد دائما من الإعفاء الضريبي ومن الخدمات التي تقدمها الدولة، ولن يكون هناك مساس بالفوائد التي يجنيها الفلاحون (وأعترف أنني لم أكن لأجرؤ هنا على أن أستعرض أفكاري الحقيقية بالنسبة لهذا القطاع الذي كنت أرى أننا أسأنا التعامل معه منذ الاستقلال وهو ما كتبته فيما بعد في مقالات حملت توقيعي، وكنت أرى أن الأسلوب الإقطاعي، بشريا أو آليا، هو الأسلوب المُناسب للنهضة الفلاحية التي لا تعترف بالعطلات ولا بساعات العمل الرسمية، ولكننا دللنا القطاع أكثر مما ينبغي فراح المتحدثون باسمه يُمارسون نوعا من الابتزاز، لم يواكبه إنتاج حقيقي)

وأكد الرئيس مواصلة تطبيق العلاج المجاني (ويُلاحظ عدم استعمال تعبير: الطب المجاني) كما تناول قضية التطهير المالي والمُحاسبة وقال هنا بأنه "إذا كانت العدالة ستأخذ مجراها بالنسبة لكل المُخالفات فإننا نرفض إطلاق التهم يمينا ويسارا بغير وجه حق"، وكان استعمال هذه الجملة ضروريا لتفادي عملية تصفية الحسابات التي بدأت تطل برأسها وجعلت المواطنين يسمون مجلس المحاسبة مجلس تصفية الحسابات (*Règlement de comptes*).

وتوقف الرئيس عند القضايا المتعلقة بالحزب فقال بأن "الجزائر هي بلد الحزب القائد وليس بلد حزب القيادة"، ثم استعرض لائحة السياسة الثقافية الصادرة عن الدورة الخامسة للجنة المركزية، وأشار إلى أن دورة قادمة ستخصص لملف القطاع الخاص، ملاحظا بأن القطاعات الإستراتيجية تخضع لمبدأ الملكية الجماعية لوسائل الإنتاج، وتبقى للقطاع الخاص مكانته ليكون مكملا للقطاع العام وكحافز له ولكن ليس كبديل عنه، وقال بأن علينا أن نحدد له مجالات العمل ونحميه من نفسه حتى لا ينحرف ويتجه نحو الاستغلال.

وتناول الرئيس وضعية المجالس المُنتخبة فقال بأنه "إذا كان من حقنا أن نفخر بأن الجزائر هي بلد المجالس المنتخبة فإن من واجبنا أن نعترف بأن بعض تلك المجالس لم يكن دائما في مُستوى أهداف الثورة ومطامح الجماهير".

ومر الرئيس على أهم القضايا الدولية فأكد مواقف الجزائر المعروفة، ثم اختتم بالعودة إلى القضايا الداخلية فقال بأننا "في سباق مع الزمن، ومع ذلك فإننا، كشعب، نستهلك أكثر بكثير مما ننتج، ونحن، كأفراد، نشتري أكثر مما نحتاج، بحيث كادت عملية الشراء تصبح حالة نفسية مرضية أكثر منها تعبيرا عن حاجة حقيقية" (..) وإن أمة يتجاوز استهلاكها المستورد الحجم الحقيقي للجهد الوطني هي أمة ترهن استقلالها ومستقبلها (..و) إن على كل منا، أيا كان مستوى المسؤولية أن يسأل نفسه ماذا قدم لوطنه، وهل كان إنتاجه متناسبا مع ما تلقاه من أجر ومكافآت، وهل كانت معاملته لمواطنيه في مجال عمله مثل المُعاملة التي يُحب هو أن يُعامل بها؟" (..) ولا مكان بيننا اليوم لفرد يعيش عالة على المُجتمع.

وواضح هنا أن مستوى العمق الفكري في الخطاب قد تزايد مقارنة بالخطب السابقة مع الحفاظ على بساطة التعبير، ويبقى الفضل الأول للرئيس الذي بذل جهدا رائعا في الاستيعاب وفي الأداء، حتى ولو واصل البعض محاولات دفعه نحو الارتجال.

وتتواصل التصفيات.

ويتخذ في الدورة السادسة للجنة المركزية قرار توقيف أربعة أعضاء آخرين هم عبد العزيز بو تفليقة (وزير الخارجية السابق وأبرز من تصدرت أسماؤهم قائمة المرشحين لرئاسة الجمهورية بعد وفاة بو مدين) وعبد السلام بلعيد (وزير الطاقة السابق والذي ارتبطت باسمه كل الإنجازات الصناعية)

226 وسيد أحمد غزالي (وزير الري السابق ومدير السوناتراك) وعبد القادر غالي (الأمين العام للشبيبة المحسوب على اليسار) وكان عبد السلام بلعيد قد تعرض لهجوم حاد من قبل رفيق كان يتردد أنه من أقرب الوزراء للرئيس وهو الأخ إبراهيم براهمية (مسؤول الخدمة الوطنية ثم وزير الري) والمؤكد أن عبد السلام ارتكب أخطاء كثيرة في مسيرته كانت وراءها العجلة التي كانت طابع المرحلة ولكن أهم أسبابها كانت اعتماده المطلق على إطارات كونتهم المدرسة الفرنسية، ولم يكونوا جميعا في مستوى الخبرة الفنية المطلوبة، وكان الوزير يحميهم جميعا ولكنه لم يجد منهم الكثير عندما دارت عليه الدائرة، وأذكر أن عبد السلام ردّ على مهاجمه بتعبير شعبي يقول : "تلقاها يا صياد النعام"، وقد لقيها براهمية بالفعل ولأسباب غير معروفة، إذ تمت تصفيته بعد المؤتمر الخامس للحزب، واختفى تماما من الساحة السياسية.

---

[226] - كان عبد السلام بالعيد من بين من اختطفهم كارلوس في فيينا مع زملائه من قيادات الأوبيب، وعرض عبد السلام على خاطفه أن يظل هو رهينة مقابل إطلاق سراح زملائه. وفي زيارة للسعودية قال الرئيس بو مدين للشيخ زكي اليماني وزير النفط السعودي (والذي كانت له مواقف في مجال البترول أزعجت الجزائر) ماذا لو كنا تركنا كارلوس يفعل بك ما يريد ؟ وأجابه اليماني على مسمع من الملك خالد : ما كان يفرق يا فخامة الرئيس.

[226] وسيد أحمد غزالي (وزير الري السابق ومدير السوناتراك) وعبد القادر غالي (الأمين العام للشبيبة المحسوب على اليسار) وكان عبد السلام بلعيد قد تعرض لهجوم حاد من قبل رفيق كان يتردد أنه من أقرب الوزراء للرئيس وهو الأخ إبراهيم براهمية (مسؤول الخدمة الوطنية ثم وزير الري) والمؤكد أن عبد السلام ارتكب أخطاء كثيرة في مسيرته كانت وراءها العجلة التي كانت طابع المرحلة ولكن أهم أسبابها كانت اعتماده المطلق على إطارات كونتهم المدرسة الفرنسية، ولم يكونوا جميعا في مستوى الخبرة الفنية المطلوبة، وكان الوزير يحميهم جميعا ولكنه لم يجد منهم الكثير عندما دارت عليه الدائرة، وأذكر أن عبد السلام رد على مهاجمه بتعبير شعبي يقول : "تلقاها يا صياد النعام"، وقد لقيها براهمية بالفعل ولأسباب غير معروفة، إذ تمت تصفيته بعد المؤتمر الخامس للحزب، واختفى تماما من الساحة السياسية.

---

[226] - كان عبد السلام بالعيد من بين من اختطفهم كارلوس في فيينا مع زملائه من قيادات الأوبيب، وعرض عبد السلام على خاطفه أن يظل هو رهينة مقابل إطلاق سراح زملائه. وفي زيارة للسعودية قال الرئيس بو مدين للشيخ زكي اليماني وزير النفط السعودي (والذي كانت له مواقف في مجال البترول أزعجت الجزائر) ماذا لو كنا تركنا كارلوس يفعل بك ما يريد ؟ وأجابه اليماني على مسمع من الملك خالد : ما كان يفرق يا فخامة الرئيس.

الفصل السادس
بدايات التغيير

(1)

.... وتغير محتوى عمود "للتذكير" في الصفحة الأخيرة لجريدة الشعب فأصبح يضم مقتطفات من مقررات اللجنة المركزية وأحيانا أقوالا مأثورة، ولم يضم، فيما رأيت بعد ذلك، أي مقتطفات من خطب الرئيس بومدين، غير أني لم أتدخل إطلاقا في الأمر لمجرد أنني كنت أتوقع أن هناك من ينتظر مني أن أتدخل، ولكنني قلت لنفسي أنني لست الأمين الوحيد على ذاكرة الأمة، وليتحمل كلٌ مسؤولياته، ثم اختفى العمود أياما وعاد من جديد ودائما بالأسلوب الجديد.

وتناول مجلس الوزراء في 10 يناير إعادة هيكلة نحو ثلاثين مؤسسة وطنية، كما رُفعت منحة السفر بالعملة الأجنبية إلى ما يساوي إلى ألف دينار، وكان ذلك يساوي نحو ألف فرنك فرنسي، بعد أن كان يساوي قريبا من الضعف وتناقص بفعل عمليات المقاصة التي سبق أن أشرت لها.

وافتتح المؤتمر الثالث لاتحاد الفلاحين في 11 يناير، وألقى الرئيس خطابا مُرتجلا بكل معاني الكلمة، أي أنه لم تكن هناك نقاط مُعدّة أمامه، ولم تكن انطلاقة الخطاب مُوفقة، وسألني بعد الانتهاء عن انطباعي وقلت له بصراحة بأن الجزء الثاني أكثر حرارة من الأول، ولهذا سأقدم ملخصا عن البداية وأقدم الخاتمة بالصوت، واتفق معي بدون نقاش، وانتهزت الفرصة لأذكره بضرورة إعداد نقاط بنفس الطريقة التي كنا استعملناها في الدورة الخامسة للجنة

المركزية، فقد كان خطابه فيها، والذي دام نحو ساعة ونصف، متميزا، حيث اعتمد على نقاط مُعدة سلفا.

وربما كان تصرفي مُزعجا رغم أنني استعملت ألطف الأساليب الممكنة، ولكنني أحسست بأن واجبي هو ألا أخدعه لأضمن التطور دائما نحو الأحسن، وكنت على يقين من أنه سيأتي اليوم الذي يضيق فيه بأسلوبي ولكنني لم أكن أملك خيارا يجعلني أنام مطمئن البال إلى أنني لم أخن الأمانة.

وتم في اليوم التالي تعديل وزاري نزعت فيه الثقافة من الوزارة التي كان على رأسها بو علام بسايح لتعطى للأستاذ عبد المجيد مزيان الذي تحمست لاختياره، ودافعت عنه ضد الذين كانوا يُحاولون تشويهه بالحديث عن علاقة سابقة متواصلة له مع الرئيس الأسبق أحمد بن بله.

واعترف أنني تواطأت فيما بعد مع الأخ المدني حواس لفرض أمين عام على الوزير الجديد، كنت اقترحته في البداية كاتبا للدولة ولكن صديقا له أجهض الأمر قائلا بأنه سيكون أكثر قدرة في الإذاعة، ولئن كنت أعترف أيضا بأنني ندمت على موقفي هذا وذاك.

وكان الجديد على مستوى الرئاسة تعيين العربي بلخير أمينا عاما خلفا لعبد الملك بن حبيلص، وهو ما كنت طلبته من الرئيس بمحضر العربي نفسه بعد أن فشل سُقراط تماما في الاستجابة لمتطلبات منصبه بالغ الحساسية.

واقترحت اسم عثمان سعدي كمستشار بالرئاسة وأعطى الرئيس بذلك تعليمات للعربي، ولكن العربي ماطل بالنسبة لذلك التعيين إلى أن مللت من ترديد اسمه، وربما كان ما حدث خلال الدورة المركزية الثانية من نزاع بين عثمان وبعض الضباط حول قضية التعريب هو سبب عدم تقبل العربي له، واقترحت اسم مسعود آيت شعلال ولكن يبدو أن ارتباط اسمه بعبد السلام أنقصت من حظوظه.

وكان من أهم التعيينات الوزارية الجديدة تولي للعقيد قاصدي مرباح وزارة الصناعة وهو ما بدا إبعادا له عن قضايا المؤسسة العسكرية، بعد أن تم إبعاده عن القيادة الأمنية، وبدا هنا الدور الهام الذي لعبه الثلاثي عبد الله بلهوشات ومحمد عطايلية ومصطفي بللوصيف، وكان من بين التعيينات تكليف السيدة زهور ونيسي بكتابة الدولة للشؤون الاجتماعية، وكنت قمت شخصيا بالاتصال بها لإبلاغها باختيار الرئيس، وأتذكر أنها طلبت مني أن أنتظر حتى تعرف رأي "سي أحمد"، وهو زوجها.

وعُين كذلك الأخ بشير رويس وزيرا للبريد والمواصلات، وأتذكر أنني اقترحت عليه فكرة البث التيليفيزيوني عبر "الكابل"، وهي فكرة اطلعتُ عليها في بلجيكا وتتلخص في إيصال المنازل بخط كخطوط الهاتف تبث عددا هاما من قنوات التلفزة الأجنبية مقابل مبلغ مالي يدفع سنويا على شكل اشتراك، ولم يأخذ بشير الأمر بجدية رغم إلحاحي عليه، ربما لأنه لم يكن مطلعا على ما أنجز في هذا المجال، ولم أرد أن أبدو كمن يتدخل في عمل غيره، فتوقفت عن الإشارة للأمر بعد مرتين أو ثلاث، رغم إدراكي بأن الشعب متلهف لمتابعة القنوات الأجنبية والفرنسية على وجه الخصوص، وهو ما كان يترجمه العدد الكبير من الهوائيات فوق الأسطح، وخصوصا تلك المطلة على البحر والمرتفعة، ويتزايد الاهتمام خلال أشهر الصيف.

وقد يقول أحدهم هنا أنني كنت أُروّج للقنوات الأجنبية لكنني أقول أن كثيرين من بين النخبة كانوا يستطيعون، بأجهزة وهوائيات خاصة، التقاط تلك القنوات، وكنت أريد أولا أن يكون هذا في استطاعة كل المواطنين وكنت أريد ثانيا أن نتمكن من إدراج قنوات عربية لا يُمكن التقاطها بالهوائيات العادية مهما كان تطورها، وكنت أريد ثالثا تفادي كثرة الهوائيات والتحكم ليس فقط في التقاط الأفلام المبتذلة، ولكن أيضا في حجم الإعلانات المغرية عن البضائع الاستهلاكية التي تثير لعاب الطبقات الفقيرة وتعطي للشباب وللفتيات وجه خاص أحلاما عن مجتمع ليست له نفس قيمنا، لكنني فشلت، وجاءت الهوائيات

المقعرة بعد ذلك لتخترق سمائنا بدون مقدرة منا على مواجهتها، وأصبحت بلادنا من الناحية الفكرية والأخلاقية بلا سقف ولا جدران.

ووجدت في مذكرتي يوم 16 يناير السطور التالية.

تحادثت مطولا مع أحمد طالب الذي قال لي بأن ترشيح بوعلام بسايح للإعلام والثقافة جاء من الوزير الأول عبد الغني، وبأن بسايح كان طلب من مهري إبان توليه للوزارة منصب المدير العام للإذاعة والتيلفيزيون.

وقال لي طالب في معرض الحديث عن مرض الرئيس بومدين أن الرئيس باح له في موسكو بأن "مجموعة بو تفليقة لن تغفر له الخطاب الذي رد به على وزير الخارجية عندما تحدث عن أحمد مدغري بوصفه أب الإدارة الجزائرية"، وأحسست من طالب أنه يخشى التهميش.

وزارني أيضا في مكتبي الحاج يعلا الذي روى لي بأن حديثا جرى بين الرئيس وبينه قال فيه الرئيس بأنه يُقدّر مجهودي وبأنه في حاجة لبقائي إلى جواره، وقال: "بفضل يقظة فلان أستطيع أن أكون مطمئنا"، وأشعرني هذا بارتياح كبير.

وفي 17 يناير وجدت السطور التالية:

تم صباح اليوم التقاط الصورة الرسمية للحكومة وقابل الرئيس الأمر بفتور، ثم استدعاني بعد ذلك وعرض علي كراسة ككراسات الطلبة قال لي أن مرباح أعطاها له بوصفها مذكرات الرئيس بومدين في موسكو، وسألني عمّا إذا كنت أتعرف على خط الرئيس الراحل، وطلبت منه أن يتركها لي وهو ما حدث، فأعددت دراسة سريعة لها أكدت فيها نسبة الخط لبومدين، ولاحظت أن ما كتبه لم يكن يوحي إطلاقا بأي تشاؤم بل سجل شوقه الكبير للوطن، وحدد

بنفسه قائمة المستقبلين في المطار عند عودته. وكان الخطأ الأكبر هو أنني لم أقم بتصوير المذكرات لأنني خشيت أن يسألني الرئيس وأضطر للاعتراف له بالحقيقة فيطلب النسخ، أو أخفي عنه الأمر وهو خيانة للأمانة.

ويوم السبت 23 يناير كانت السطور التالية:

ودعنا القذافي صباح اليوم في نهاية زيارة بدأها الاثنين الماضي وبدت كأنها فرصة لتسجيل خطب وحدوية تبث فيما بعد عبر الإذاعة الليبية (حيث لم تبثها الوسائل الجزائرية لسبب واضح) وعند العودة من المطار استدعاني الرئيس ووجدت عنده العربي وبسايح ثم انضم إلينا الطيبي الأمين العام للحكومة، وقال الرئيس أنه سيسحب قانون الأحوال الشخصية من المجلس الوطني بعد أن ثار حوله جدل كبير (وعرفت أن هذا كان بطلب من بيطاط، ولا أعرف إذا كان الرئيس قد تشاور مع مساعدية وبن يحيى اللذين التقاهما صباح اليوم) وكان على الطيبي أن يُعد رسالة السحب وعلى بسايح أن يُعدّ الفقرة التي ستشير للقضية في بلاغ مجلس الوزراء، وكان علي أن أقوم بصياغة الخبر الذي يُقدم القضية للرأي العام ويفسر خلفيات القرار.

وقال لي الرئيس في هذا الصدد أن : "القرار يفرض نفسه ولا بد من تحول قانون الأحوال الشخصية إلى قانون للأسرة يتم التطرق فيه لكل القضايا التي تهم الأسرة"، وهي فكرة رأيتها صائبة تماما بعد أن تحول المشروع المبدئي من عدة فقرات إلى نحو 200 مادة.

وفي المساء واستكمالا للصورة اتصلت بعثمان سعدي[1]، وهو نائب في المجلس، وسألته عن رأيه، بدون أن أفصح له بالطبع عن القرار المتخذ، فقال بأن المشروع جيد وتقدمي، رغم تراخي مندوب الحكومة ووزير العدل في

1- واحد من رفاق القاهرة وكان من أوائل طلبة بعثة جمعية العلماء، عمل في مكتب الجبهة بالقاهرة ثم كلف بعدد من المهام الدبلوماسية كان آخرها بعد استرجاع الاستقلال كسفير في دمشق بعد مدة قضاها في نفس المنصب بالعراق، وتميز بدوره في حركة التعريب وبكتاباته خصوصا حول قضايا البربرية، ويستقطب كراهية اللوبي الفرانكوفوني.

الدفاع عن المشروع (وألاحظ هنا أن التيارات النسوية Féminisic كانت متشنجة ضد المشروع) وسألته عن إمكانيات التصويت فقال إن الأغلبية موافقة، وأبلغت العربي بلخير بما سمعته فورا واقترحت إيقاف قرار السحب ومراجعة القرار صباح اليوم التالي إذا ثبت أن هناك معطيات لم تكن متوفرة عند اتخاذ القرار.

وصباح اليوم التالي جاءني عثمان إلى مكتبي، وأكد لي أن رئيس المجلس هو الذي يقف وراء فكرة سحب المشروع بتأثير من زوجه، وقبل بداية مجلس الوزراء (والذي أصبح عقده منتظما يوم الأحد) تحاورت مع السيدة زهور وخرجت بنفس الانطباع الذي خرجت به من حديثي مع عثمان.

وبعد نهاية اجتماع المجلس عرضت على الرئيس مشروع الخبر الذي أعددته حول تحويل المشروع إلى ملف يتناول كل قضايا العائلة وتعمدت الإشارة إلى بعض خلفيات الصياغة لترك الباب مفتوحا أمام التطورات المستقبلية، وأحطته بالطبع علما بما سمعته من عثمان ومن زهور وقلت له بأن عدد المواد لم يكن كما سمعنا، وقال لي أن:"الوزير لم يُقدم الأمور بشكل سليم، ولم يطلعني على النص كاملا واكتفى بقراءة فقرات وعدد محدود من المواد، وكان تصوري أن هذا هو كل المشروع"[2].

ويواصل الرئيس: " وعندما ثارت الضجة أحسست بأن هناك خلافا بين الحكومة والمجلس (ويبدو أن هذه هي الصورة التي قدمها رئيس المجلس) وبالتالي فعلى كلٍّ أن يتحمل مسؤولياته".

2- ستعرض قضايا كثيرة على الرئيس بنفس الطريقة المتعجلة أو المغرضة أو المجاملة للخروج بقرار معين وهو أمر بالغ الخطورة لأن الرئيس يجب أن يكون مطلعا على كل المعطيات وأن تتوفر أمامه كل البدائل لكي يحسن الاختيار، وأشهد أن الرئيس كان قادرا على اختيار أحسن البدائل المطروحة أمامه، وسأثبت ذلك في حينه.

وألاحظ هنا أن صحيفة "المجاهد" الناطقة بالفرنسية كانت ممن هاجموا القانون عبر رسائل القراء، وهو ما دفعني للاتصال بعدد من الصحفيين الجزائريين وبمراسل "لوموند" ومراسل وكالة الأنباء الفرنسية لوضعهم في الصورة التي تعبر عن إرادة الرئيس، حتى لا يبدو الأمر هزيمة للحكومة وبالتالي للرئيس (وكان اتصالي الودي بالمراسلين عملا شبه روتيني أحرص على القيام به خصوصا في جو الأحداث الكبرى).

ويتوجه الرئيس في7 فبراير إلى نيروبي للمساهمة في أشغال اللجنة السباعية المكلفة بتنظيم الاستفتاء في الصحراء الغربية، طبقا لقرار القمة الإفريقية الثامنة عشرة، وأصدر بلاغا كالعادة أوضح فيه أبعاد مساهمة الرئيس الجزائر في القمة السباعية.

وترتبط هذه الرحلة بأمر طريف أتوقف عنده لحظات، فقد تشاور معي مدير التشريفات عن الوزير الذي سنطلب منه مرافقة الرئيس إلى نيروبي، واقترح مولود وزيرا جديدا كانت تربطه صداقة بالرئيس، وأتصور أنه كان على حق في اختياره من منطلق أن تعطى للرئيس الفرصة لكي يكون "على راحته" خلال الرحلة الطويلة، لكنني رأيت شيئا آخر، وهو ما تم بالفعل، إذ اقترحت أن يرافقنا الأستاذ عبد المجيد مزيان، وكان ذلك يقينا مني بأنه سيكون في مصلحة الرئيس، الذي سيجد بجانبه نبعا ثقافيا مُفيدا ومصدرا تاريخيا مهما.

وإذا كان الوزير الذي كان قد اقترح في البداية علم بالأمر، فهذا يعني أنني كسبت عداوة جديدة كنت في غنى عنها، وفي الوقت نفسه لم أحقّق ما كنت أرجو تحقيقه.

فقد عُدت من الرحلة وأنا ألعن الثقافة والمُثقفين وصارحت بذلك الصديق المدني حواس، الذي تعرفت بالوزير عن طريقه ودعمته نتيجة لحماسه له، والذي حدث هو أنني كنت خلال الرحلة أتعمّد طرح بعض الأسئلة على مُثقفنا الكبير لأسمع إجابة يسمعها معي بالطبع رئيس الجمهورية، الذي كان قد التقاه قبل ذلك ضمن المجموعة التي قدمتها له وتحاور معها حول قضايا الأمازيغية، وحدثنا عبد المجيد حديث المثقف المتميز عن قضايا تاريخية لها أهميتها.

وكان المعروف أن معظم أبناء الشرق الجزائري، ينطقون السين شينا وبالعكس، أي أنهم يُسمّون الشمس سمشا، وتساءلت بشكل عابر وعادي جدا أمام الوزير عن الاستعمال الصحيح للحرفين، لكن الأستاذ مزيان كان رجلا بالغ الرقة والأدب، وربما ألزمته ظروف حياته بالكثير من التحفظ، ولعله تصور أنني أردت أن أنصب له فخا، فأجابني بدبلوماسية لطيفة بأن الاستعمالين صحيحان، رغم أنني كنت أعرف أنه يعرف أن ذلك ليس صحيحا، وهكذا ضاعت فرصة ثمينة لتصحيح أمر كانت له فائدة لا أتصور أنني في حاجة لتوضيحها [3].

3- كان الأستاذ مزيان مثقفا متميزا ومؤرخا قديرا ومحدثا لبقا، عمل فترة في ديوان الرئيس الجزائري الأول أحمد بن بله، ثم تعرض لمضايقات كثيرة بعد عزله في 19 يونيو وصلت إلى حد إخراجه من منزله، ولكنه تمكن من العمل كأستاذ في الجامعة وفتحت له التلفزة مجال النشاط التليفزيوني في مجال التاريخ وذلك برعاية خاصة من المدني حواس، ولم يتدخل الرئيس بو مدين إطلاقا للتضييق على الرجل، ولكن المنافقين كانوا يعتبرونه دائما من رجال بن بله، وهو ما وجدته أمامي عندما دعمت تعيينه وزيرا للثقافة وكنت قد زرته في مكتبه في بداية الستينيات وإن كان لم يتذكر ذلك ولعله تناساه ولكنني لم أذكره به.
وصدمت ثانية بتمسكه الكبير بالانضباط إلى حد التضحية أحيانا بما أراه ثوابتا وذلك عند غيابي خارج الوطن لسبب طبي، حيث كلف مع مثقف آخر بإعداد النص الذي سيكتب على لوحة برونزية اسم الرئيس الشاذلي توضع في مدخل مقام الشهيد، وهو إنجاز كنت بعيدا تماما عنه.
وعندما عدت من الخارج التقيت الأخ مولود حمروش الذي قال لي بأن علي أن أراجع ما أنجزه الأخوان، وتمنعت في البداية ولكنه قال لي بأن كل ما يصدر عن الرئيس محسوب عليّ، والنص في حد ذاته يحتاج إلى تعديل، وتأكدت من ذلك عندما طلبت النص من عبد الحميد إسكندر الذي كان يستعد للسفر إلى ألمانيا لصب الكلمات على البرونز، فوجدت فيه من بين ما وجدته عبارة تقول بأن " الشعب الجزائري الذي ضحى بحياته وبكرامته من أجل الاستقلال ...الخ"، ولم أسمح لنفسي بالمساس مباشرة بما كتبه الأخوان فاتصلت بالأخ عبد المجيد في مكتبه بالوزارة لأقول له بأن نص مقام الشهيد في حاجة لمراجعة، وعرضت عليه أن أتوجه إليه ولكنه فضل أن يأتيني في مكتبي، وهناك قلت له وجهة نظري وعرضت عليه أن نغير النص معا، ولكنه قال لي بأن الرئيس اطلع عليه وأنه أعجب به، وأجبت على الفور بأن الرئيس ليس متخصصا في هذا الأمر ومهمتنا أن نقدم له ما نقتنع به نحن لأن هذه هي مهمتنا،(وكنت أتساءل ما إذا كان الأمر قد عُرض فعلا على الرئيس ودُرس معه، وكان في ذهني قضية قانون العائلة التي لم يطلع عليه الرئيس بشكل كامل). وهكذا تم تغيير النص في مكتبي ليسلم إلى عبد الحميد الذي اضطر إلى كتابة لوحة جديدة، ويرجع الفضل في صدور النص المُناسب للأخ مولود حمروش.
وعندما تمت تصفيتي فيما بعد من اللجنة المركزية ومن رئاسة الجمهورية لم أتلق هاتفا واحدا من الأستاذ، الذي أصبح يؤمن بأن ثمن الاتصال بمن يبعدهم النظام قد يكون غاليا، وكان الدرس الذي تعلمته أن عبور الصحراء يترك في النفس أحيانا آثارا سلبية من الصعب محوها، وكنت سعيدا لأنني لم أتغير قبل الصحراء، التي عبرتها مرتين، وبعدها.

(2)

تم تكوين مجلس أعلى للبحث العلمي عهد برئاسته للأخ سليمان حاج شريف، وافتتح ملتقى للبحث العلمي في فبراير كان من بين ما قاله الرئيس في الجلسة الافتتاحية أن "عدونا الرئيس هو التخلف" و"التقدم ليس معناه استيراد الآلات والإمكانيات العصرية بل يتعدى ذلك إلى استيعاب هذه الإمكانيات والتحكم فيها". وكان من بين النقاط التي توقف عندها الرئيس أن "الشعب الجزائري ينتمي إلى حضارة عريقة هي الحضارة العربية الإسلامية التي ساهمت في بناء التقدم العلمي"، و"إن أول كلمة نزلت في القرآن كانت : اقرأ"، و"الرسول جعل طلب العلم فريضة وجعل مساحته الزمنية هي العمر كله (من المهد إلى اللحد) ومجاله الجغرافي هو العالم كله (طلب العلم ولو في الصين). وقال الرئيس في كلمته أيضا بأن المواد الطبيعية هي ثروة زائلة والثروة الحقيقية هي الإنسان"، و"الغنى ليس في البترول وإنما في التنمية الشاملة المنسجمة".

والواقع أن الرئيس تمكن شيئا فشيئا من تطوير أسلوبه والتوسع في النقاط المُعدّة سلفا، لكن كان لا بد من الحرص على تفادي أي تقعر في الصياغة قد ينعكس سلبا على تقبله لما يُقدم له، خصوصا وعدد الناقدين يتزايد وعدد الناقمين يتكاثر ولم يكن يواجههم إلا الجهد الذي يُبذل إيمانا واحتسابا.

ويجتمع مجلس وزراء منظمة الوحدة الإفريقية بالعاصمة الإثيوبية في 22 فبراير ويحضر الاجتماع وفد من الجمهورية الصحراوية في المنظمة وهو ما استقبلته دول إفريقية كثيرة بالترحيب بينما رفضه المغرب بطبيعة الحال، وانسحب وزير الخارجية المغربي الأستاذ بوستة من الاجتماع وقال تعليقا على قبول المُشاركة الصحراوية بأنه يعني أن المنظمة (a cessé d'exister) أي لم تعد موجودة ، وتقرر أن تلتقي القمة الإفريقية في أغسطس القادم في طرابلس.

ويشهد الأسبوع الأخير من الشهر زيارة العقيد القذافي إلى تونس بهدف إعادة الحيوية للعلاقات الليبية التونسية التي كانت أصيبت بالفتور بعد إجهاض وحدة "جربة" في يناير 1974 نتيجة للموقف الجزائري منها، ثم أصيبت بالجمود بعد أحداث قفصة في يناير 1980 التي اتهمت بها مجموعات مسلحة قيل أنها دُربت في ليبيا.

وتشهد بداية الشهر أول زيارة يقوم بها رئيس أوروبي للكيان الصهيوني حيث قام الرئيس الفرنسي فرانسوا مترّان بزيارة إسرائيل، وتحدث في الكنيست عن ضرورة الحوار بين الإسرائيليين والفلسطينيين بما يمكن أن يقود إلى تكوين دولة فلسطينية، وهو ما دفع مناحيم بيغين إلى القول بأن هذا الموقف الفرنسي هو عقبة في طريق الصداقة الإسرائيلية الفرنسية [4].

وأتصور أن الموقف الفرنسي أخذ بعين الاعتبار لقاءاته مع الرئيس الجزائري الذي أكد له بأن لب قضية الشرق الأوسط ومحورها هي القضية الفلسطينية، وهو ما كان أشير له في حديث الرئيس الشاذلي لمجلة باري ماتش.

وفي السادس من الشهر يُحكم بالإعدام على المتهمين باغتيال الرئيس أنور السادات.

وعودة إلى الجزائر حيث افتتح المجلس الوطني الشعبي الثاني [5] ثم افتتح المؤتمر الخامس للنساء الجزائريات [6]، وكان خطاب الرئيس المُرتجل متميزا [7]، وركز فيه على النقاط التالية:

4- كان الرئيس الفرنسي، أيام كان أمينا عاما للحزب الاشتراكي، قد أوفد في يوليو 1973 السيد بيير موروا إلى غولدا مائير لمحاولة إيجاد تفاهم بينها وبين الرئيس أنور السادات، وكان هذا بطلب من الرئيس المصري، ولكن رئيسة الوزراء الإسرائيلية رفضت العرض وأعربت عن عدم ثقتها في السادات، وقد سمعت هذا من السيد بيير موروا شخصيا في نهاية التسعينيات خلال حفل عشاء حضره رئيس الوزراء الفرنسي السابق وأقامه القنصل الجزائري في مدينة ليل عنتر داوود على شرف وفد لمجلس الأمة كنت من بين أعضائه.

5- كان المجلس الأول قد افتتح في 1977 في حياة الرئيس الراحل هواري بومدين.

- نحن كمجتمع عربي إسلامي نعتز بدور المرأة في المجتمع، لأننا نعرف كيف كانت وضعية المرأة قبل الإسلام.
- المرأة كانت أول من أسلم وأول من استشهد، وأعطاها الإسلام دورها كاملا حتى كانت تناقش الخليفة عمر بن الخطاب.
- بفضل تكافئ الفرص الذي وفرته الثورة تمكنت المرأة الجزائرية من احتلال مكانتها.
- المطلوب هو التمسك بالمفاهيم الصحيحة لحضارتنا العربية الإسلامية.
- كان لعصور الانحطاط آثارها السلبية (..) بعد أن أصبحت مبادئ الإسلام في خدمة الحكام الفاسدين.
- معركة اليوم معركة حضارية.
- كل القضايا تناقش في الأطر النظامية، ولا مجال للممارسات الفوضوية، وتفسير التسامح بأنه ضعف هو خطأ فادح.

ويتخذ الرئيس مبادرة هامة تحمستُ لها وربما كان هناك آخرون أيضا شجعوه على اتخاذها وهي عقد جلسة مغلقة مع نواب المجلس الوطني، وضعهم خلالها في صورة الأحداث الوطنية والدولية، وخلق ذلك جوا بالغ الحميمية مع الرئيس بالإضافة إلى أنه أحيا تقليدا سبق إليه الرئيس بومدين، وكان الأكثر

6- كان المؤتمر قد افتتح إثر توجه الرئيس بو مدين إلى موسكو في سبتمبر 1978 وافتتحه يومها رجل الحزب الأول محمد الصالح يحياوي وكانت تلك أول إشارة لمرض الرئيس لم نفهمها في البداية.

7- المقصود دائما بالخطاب المرتجل أن الرئيس لا يقوم بقراءة كاملة لنص مكتوب كما هو الحال في خطاب الأمة مثلا وإنما يستند إلى نقاط أمامه يتوسع فيها ويطورها، وهناك من يتولى كتابة نص رسمي نهائي يُرسل لوكالة الأنباء الجزائرية التي تتولى ترجمته وبثه للصحف، ويراجع النص التليفزيوني لاتخاذ اللازم بشأنه، بثا كاملا أو اختصارا، ودائما بعد مراجعته بدقة، كلمات وصورا.

أهمية هو أن الرئيس تحدث بطلاقة وببساطة وبتحليل عميق للأوضاع، وهو ما دعم ثقة النواب به وزاد من التفافهم حوله.

ويقوم الرئيس بزيارة عمل إلى موريطانيا في نهاية الشهر ويُعتبر ذلك بالطبع دعما لنظام الرئيس ولد هيد الله، إثر المحاولة الفاشلة للانقلاب عليه والتي اتهم المغرب بالضلوع في تدبيرها.

وفي منتصف ابريل يتم تنفيذ حكم الإعدام في الملازم الإسلامبولي وزملائه الأربعة المتهمين في قضية اغتيال الرئيس السادات، وذلك بعد أن صادق الرئيس حُسني مُبارك على الحكم ورفض المتهمون تقديم التماس بالعفو له.

وبعد الجولة الإفريقية في العام الماضي يتجه الرئيس نحو آسيا فيزور الهند (وكان قد زار يوغوسلافيا مرتين أولاهما إثر وفاة تيتو) وتعرف الرئيس هناك على جوانب من الحضارة الهندية كما زار ضريح غاندي ثم تاج محل.



صورة أمام تاج محل خلال زيارة الهند

ثم يتوجه الرئيس إلى زيارة الصين، التي كان بومدين قد زارها في 1974 أثناء عهد ماو تسي تونغ، وأمكن تجاوز مشاكل الخطب المُتكررة باستعمال الأسلوب الذي لجأنا إليه في الجولة الإفريقية، واستقبل الرئيس الشاذلي من قبل الرئيس "هو" الذي كان بجانبه رجل الصين القوي دنغ سياو بنغ.



مع الوفد الرسمي للصين

كان العملاق الأصفر بالنسبة لي سبعة أسماء لم أنجح في حفظ غيرها، تمثل سبعة وجوه يُمكن استحضار ملامحها بسهولة في الذاكرة، بينما تختلط بقية الوجوه لتبدو وجها واحدا وتختلط بقية الأسماء حتى لا تعرف هذا من ذاك، وكانت الأسماء هي صن يات سن، تشيانغ كاي شيك، ماو تسي تونغ، شو إن لاي، ليوتشاوشي، لين بياو، وأخير دنغ سياو بنغ.

ولم أكتف قبل الزيارة بالعموميات المعروفة عن الصين، مثل دورها في باندونغ، ومساعدتها لحركات التحرر والجزائر في مُقدمتها، ورفضها حتى اليوم الاعتراف بالكيان الصهيوني، وبالطبع أيام كان العرب عربا، لكن كان علي أن أستذكر بعض المعلومات حتى أكون مُستعدا لكل سؤال مُحتمل.

كانت الصين في مطلع القرن الماضي وجودا يُمكن أن يُسمّى رجل آسيا المريض، فقد كانت تعيش نيول حرب الأفيون التي فرضتها عليها بريطانيا، وكانت هناك تناقضات الحكم الإمبراطوري، وسُلخت منها فورموزا واحتلت ألمانيا جزءا من ترابها الوطني بينما انتزعت فرنسا ميناء كوانغ شيو، واستحوذت دول غربية على امتيازات التنقيب عن المعادن، ثم برزت اليابان، عدوها التقليدي، خصوصا بعد هزيمة روسيا القيصرية.

وبدأ انهيار النظام الإمبراطوري في الصين على يد الحزب الوطني الديموقراطي (الكومنتانغ) بقيادة صن يات سن الذي أعلن الجمهورية في شنغهاي، ثم أعلن حكومة انفصالية في كانتون.

وكان قيام ثورة أكتوبر في روسيا مصدر إلهام للزعيم الوطني الصيني الذي أعاد تنظيم حزبه على غرار الحزب الشيوعي السوفيتي رافعا شعار "الصين للصينيين"، لكن خلافا جوهريا حول المضمون الاجتماعي للحركة الوطنية نشب مع تأسيس الحزب الشيوعي على يد "ماو تسي تونغ" (1921) وبدأت مرحلة جديدة.

وبعد وفاة "صن يات سن" تولى "شيانغ كاي شيك" قيادة الكومينتانغ ودخل بكين (1928) حيث اختير رئيسا للجمهورية، وأيدته الدول الغربية عندما أخذ يُركز على محاربة "ماو" وأتباعه الذين كانوا ينادون بالثورة الاجتماعية، متناسيا احتلال اليابان لمنشوريا وجزءا من الصين الداخلية وإن كان واجهها في شانغهاي. وتزايد سخط الفئات الشعبية عل الرئيس الذي كان غارقا في الفوضى العسكرية وفساد الإدارة والاضطراب المالي، بينما كان ماو يجند الجماهير

خاصة في الريف، حتى تمكن من إعلان جمهورية شعبية في كيانغ سي (1931) ثم بدأ زحفه نحو الشمال في مسيرة تاريخية كبرى طولها نحو 12 ألف كيلومتر، ثم أعلن قيام جمهورية الصين الشعبية (أكتوبر 1949) وتقهقر كاي شيك إلى جزيرة فورموزا، وكانت صفعة لأمريكا، حليفه الأول، التي أخذت على عاتقها مهمة تصفية الحساب مع ماو، وهكذا وقفت واشنطن ضد دخول الصين الشعبية للأمم المتحدة.

وأعطى ماو الأسبقية للتصنيع الثقيل ولكنه، على عكس السوفييت، كان يعتمد على الفلاحين، وخاض تجارب كثيرة كان أخطرها تجربة الثورة الثقافية (وترجمة الاسم من الصينية يظلم التجربة التي كانت في واقع الأمر ثورة فكرية إيديولوجية)

وتفجر الصراع بين بيكين وموسكو بعد وفاة ستالين، ودخلت الصين النادي الذري في 1964.

ووقفت الجزائر بعد استرجاعها للاستقلال بقوة من أجل استرجاع الصين لموقعها في الأمم المتحدة، وبوجه خاص في مجلس الأمن، وكان هذا ردا لجميل الثورة الصينية تجاه الثورة الجزائرية.

ومع مرض ماو يبرز دنغ سياو بنغ (الرجل القصير الذكي الذي فقد ابنه في الثورة الثقافية) ويحاول شو إن لاي أن يضمن التوازن بين القوى المتصارعة لكنه يموت في مطلع 1976، ويُعزل دنغ سياو بنغ، بأمر من ماو كما قيل.

ويموت ماو نفسه في سبتمبر، وتعرف الصين مرحلة جديدة من الاضطرابات الفوقية، استهدفت ما سُمّي آنذاك عصابة الأربعة الذين كانت تقودهم السيدة كيانغ تسنغ، أرملة الرئيس ماو، وحُركت الجماهير للتنديد بالعصابة، وتزداد قوة هوا كو فنغ بتعيينه رئيسا للحزب.

ثم يُردّ الاعتبار لدنغ سياو بنغ في 1977، ويلاحظ المتابعون للصين استعمال تعبيرات التفتح ثم الانفتاح، ويتصور البعض أن الصين ستعيش ردة (تشبه الردة التي حدثت بعد وفاة عبد الناصر) بينما رأى كثيرون أن الصين، التي كانت استقبلت نيكسون في أواخر أيام ماو تسي تونغ، تعيش تطورا طبيعيا انتهت فيه مرحلة بكل التزاماتها وضغوطها وبدأت مرحلة جدية لها متطلباتها وأسلوبها.

ويختفي تعبير"الانحراف العقائدي" عند الحديث عن الحزب الشيوعي السوفيتي ويُستعمل بدلا عنه تعبير "الشجار العائلي"، ويُعاد الاعتبار لكثيرين من أنصار دنغ، الذي يقوم بزيارة لواشنطون.

وتبدأ بكين في الاستفادة من نهجها الجديد حيث يقرر البنك الدولي قبولها كعضو كامل الحقوق بدلا من فورموزا أو تايوان الآن، ثم تعلن واشنطون أنها لن تزود تايوان بطائرات إف-16، وتعلن في أغسطس عن تخفيض حجم الأسلحة الموجهة إليها (وأذكر أن الولايات المتحدة كانت تواصل حصارها للاتحاد السوفيتي وسعيها لإسقاط نظامه وتفتيت الكتلة الاشتراكية المرتبطة به)

وحققت الصين الكثير من أهدافها (وكانت الدولة الشيوعية الوحيدة التي سمح لها بشراء طائرات بوينغ) وكل هذا بدون أن تتخلى عن الحزب الواحد وعن الاختيار الشيوعي، وأتصور أن السبب الرئيسي هو أن الصين تمسكت بتاريخها كله والتزمت به، من كونفوشيوس إلى ماو ومن ماو إلى هوا مرورا بدنغ سياو، وأدركت أن تصفية الحساب مع أشخاص لا يعني تصفية المبادئ والاختيارات التي تجعل من أمة ما دولة بمعنى الكلمة، تأخذ المصلحة العليا للوطن وحدها بعين الاعتبار، وهو ما يجب أن يُقارن دائما بما حدث في الاتحاد السوفيتي.

والواقع هو أنني كنت أتمنى أن تكون زيارة الصين والتعرف على نهجها درسا يحتذي بالنسبة لوفدنا الرئاسي الزائر، ولا أعرف مع انتهاء الزيارة ماذا

كان تأثيرها الحقيقي في النفوس، بجانب الإعجاب والتقدير لكل ما رأيناه وعشناه.

وأتذكر أربع نقاط ارتبطت بزيارة الصين وكان أقلها أهمية بالطبع ما لاحظه الرئيس الشاذلي من أنني كنت قليل الأكل، وهو أمر صحيح إذ كنت أحس بالفزع من المأكولات الصينية منذ زيارتي الأولى لها في 1974 [8]، وعندما توقفنا في الإمارات قال الرئيس للشيخ زايد ضاحكا وهو يُشير إلي : "من حسن الحظ أننا جئنا إلى أبو ظبي وإلا لمات فُلان جوعا.

أما النقطة الثانية فقد حدثت مع الأخ محمد الصديق بن يحيى الذي كنت نقلت له طلب مراسل وكالة الأنباء الفرنسية لإجراء حوار معه، واستقبل الوزير الصحفي بالفعل ولكنه أصرّ على أن أكون إلى جانبه تقديرا لمهمة المُستشار الإعلاميّ للرئيس، وأكبرتُ في الرجل هذا الموقف.

النقطة الثالثة هي ما سمعته شخصيا من بن يحيى نقدا للموقف الجزائري من قضية الصحراء الغربية عند اندلاع المشكلة، وهو ما سبق أن أشرت له.

النقطة الرابعة حدثت عند زيارة الرئيس لمقاطعة جانكسو، فقد كان مُبرمجا أن يلقي خطابا في مدينة "ويكسي"، وقمنا بإعداد نسخة الخطاب كالمعتاد، حيث تولى خطاط الرئاسة عبد الحميد اسكندر كتابتها بالخط النسخ الكبير ثم تم تشكيلها وسلمتُ النسخة لمرافق الرئيس ليعطيها له.

وعندما وصلنا إلى قاعة الاحتفال، وكانت بعيدة عن مقر الإقامة، جاءني مسؤول التشريفات ليسأل عن الخطاب، وقلت له أنه سُلّم كالعادة للمرافق فقال لي أن الرئيس لم يأت بالخطاب معه، وكانت هناك دقائق تفصلنا عن توقيت إلقاء الخطب.

8- للتعرف على تفاصيل زيارتي الأولى للصين ولقائي بالرئيس ماو أنظر كتاب "أيام مع الرئيس بو مدين".

ومرت دقائق ولعلها ثوان وقلت لمحدثي الذي بدأ يحس بما يُشبه الذعر بأنه ليس هناك أي مُشكل لأنني أحمل معي صورة للخطاب، فتنفس الصعداء.

وفيما بعد سألني الرئيس بنبرة عتاب عن السبب الذي جعلنا نعطيه صورة للخطاب وليس النص الأصلي، فقلت له بصراحة : يبدو أن النص الأصلي بقي في غرفة نومك في مقر الإقامة.

وتأكد الرئيس أن من يعملون معه يتابعون كل شيئ ويحتاطون لكل شيئ.

(3)

كانت الساعة قد تجاوزت العاشرة مساء يوم الاثنين الثالث من مايو عندما دق جرس الهاتف الخاص الذي كان يربطني برئاسة الجمهورية وسمعت صوت مولود حمروش يكلمني بصوت كأنه يخرج من بين الأضراس : فلان ؟ هل باستطاعتك الحضور بسرعة ؟، وأجبته بأنني قادم على الفور.

وتساءلت وأنا أرتدي ملابسي عن سبب الدعوة المفاجئة، وكان من أهم ما حيرني هو الأسلوب الجاف الذي استعمله مولود، إذ كنا دائما، ونحن نتحدث هاتفيا، نتبادل بعض التحيات أو المُجاملات أو المداعبات، وعندما يتطرق الأمر إلى الرئيس كنت أستعمل لقب "زيد".

وطاف بذهني أكثر من احتمال كانت كلها توحي بالقلق، فوضعت مسدسي في جيبي الداخلي بعد اطمئناني إلى أنه جاهز للإطلاق، لكنني لم أجد شيئا يثير الريبة عند مروري بمدخل الرئاسة، وكان أول ما لاحظته على وجه مولود عندما دخلت إلى مكتبه قناع الحُزن الشديد على وجهه، وقبل أن أسأله عن الأمر قال : "إنه بن يحيى ثانية"، ولعلي تساءلت بصوت اختلطت فيه الدهشة بالإنكار فقال : "لقد سقطت به الطائرة ثانية.

كانت الجزائر، في عهد الرئيس الراحل هواري بومدين، قد لعبت دورا بالغ الأهمية، وبطلب من القيادة العراقية، لتهدئة الأوضاع بينها وبين إيران، ووفرت الظروف المناسبة لاجتماع شاه إيران مع رجل العراق القوي صدام حسين، نائب الرئيس، وهو ما أدى إلى عقد اتفاق الجزائر عام 1975.

لكن الفتور بدأ يسود العلاقات بين الجزائر والعراق بعد تراجع العراق عن الاشتراك في الجبهة القومية للصمود والتصدي التي أنشئت في طرابلس في نوفمبر 1977، كرد فعل على زيارة الرئيس المصري أنور السادات للقدس المُحتلة، بحجة أن سوريا توافق على قرار مجلس الأمن 242.

وربما ضاعف من الفتور إحساس العراق بالنوعية المتميزة للعلاقات الجزائرية السورية، والتي أخذت بعدا متزايدا إثر موقف الرئيس الجزائري الداعم لسوريا في حرب أكتوبر 1973.

وتزايد الفتور في العلاقات بين الجزائر وبغداد بعد رفض الجزائر المُهذب لفكرة الميثاق القومي العراقي كما سبق أن قلت، وترك الفتور مكانه لنوع من الغضب والمرارة إثر اندلاع الحرب بين العراق وإيران في سبتمبر1980، حين تمسكت الجزائر بوقف الحياد الإيجابي ورفضت الانحياز العرقي لوجهة النظر العراقية، مفضلة التزام موقف متفهم للطرفين.

وربما غاب عن النظر آنذاك بأن إشعال الحرب كان يندرج في إطار جهنمي لعله يعني من بين ما يعنيه أن الذين أشعلوا نارها لن يسمحوا بأن يخمد اللهيب إلا بإشارتهم، وبعد أن تحقق كل الأهداف المطلوبة منها وأهمها استنزاف الطرفين، وبالتالي كان كل مسلم يريد للحرب أن تتوقف.

ومن هذا المنطلق كان موقف الشاذلي بن جديد وفي هذا الإطار اندرج تحرك الوفد الجزائري، الذي كان يضم عددا من خيرة إطارات وزارة الخارجية الجزائرية برئاسة بن يحيى، استقل الطائرة الرئاسية الجديدة من نوع غرومان، والتي حملت رقم : 7-TVHB ووضع في رقمها الحرفان (HB) لتخليد

اسم الرئيس الجزائري الراحل، وأقلعت الطائرة من مطار الجزائر باتجاه طهران التي لم تبلغنا، كما هو منتظر، بوصول الطائرة في التوقيت المُرتقب، وجاءت معلومات عن نزول طائرة بنفس المواصفات في مطار دمشق ولكنها لم تكن طائرة بن يحيى، ويقول برج المراقبة الإيراني بأنه طلب من الطائرة وهي على بعد 37 ميلا من الحدود الإيرانية أن تدخل الأجواء السوفيتية نظرا لوجود طائرات عراقية في الجو، ويؤكد اتصال مع وزارة الخارجية التركية بأن الطائرة سقطت على الأرض الإيرانية في منطقة كوتور (Quottour) على بعد نحو عشرة كيلومترات من الحدود التركية وحوالي 130 كيلومترا من العراق.

كانت هذه هي المعلومات التي جاءتنا وكنا لا نزال نعيش عقدة سقوط "المستير" في باماكو العام الماضي، وما ارتبط بها من تصرفات متسرعة ومن سوء تقدير، ومن هنا كنا بالغي الحذر والدقة ونحن نتحرى الأخبار، وأعطيتُ المعلومات كاملة كما وصلتنا في اليوم التالي، وبعد أن تم الاتصال بأسر الضحايا جميعا، وأرسلت طائرة جزائرية خاصة لإحضار الجثامين، وتقرر أن يُبث الوصول يوم السادس من مايو على الهواء مباشرة عبر التلفزة الجزائرية.

ودخلت مكتب مولود صباح اليوم السابق لوصول الطائرة لأبحث معه بعض التفاصيل، فوجدته يحمل في يده برقية قال إنها من سفارتنا في إيران وتعطي بيانات عن وصول الطائرة الجزائرية الخاصة، وكان مولود، الذي أخذ منه الحُزن كل مأخذ، يُحدق في البرقية وكأنه يُحاول قراءة رسالة مشفرة لم يتم حل رموزها بعد، ثم أعطاني البرقية وهو يقول : "ماذا تفهم من هذا ؟"

كانت البرقية بتوقيع سفيرنا في طهران، وتقول، من بين ما تقوله بعد الإشارة إلى موعد وصول الطائرة، بأن جثمان بن يحيى موضوع في تابوت معدني أما البقية فموضوعة، ربما بحكم السُرعة، في توابيت من الخشب الأبيض، بهذا التعبير".

كان السفير هو عبد الكريم غريب، وهو من الشخصيات اللامعة في المجال الدبلوماسي، وكنت أعرف أنه يستعمل الضروري من الكلمات لإرسال الضروري من المعاني، وهو ما قلته إجابة على سؤال مولود، ثم قلت، وكأنني أفكر بصوت عالٍ، بأنني أتصور بأن عبد الكريم أراد أن يُحذرنا من أن التوابيت الخشبية، وربما كانت من الخشب الحبيبي، هي بدون باطن معدني، وهو ما يعني أنها هشة جدا، خصوصا إذا تسربت إليها سوائل، وهو أمر متوقع الحدوث.

وقلت لمولود، وربما كان ذلك بتأثير التكوين الطبي، بأن سبب الوفاة هو حادث ارتبط بحريق، ويمكننا أن نتخيل الصورة التي ستكون عليها أجساد الضحايا، وهو ما يعني ببساطة أن التوابيت يمكن أن تتفكك عند نقلها لبيوت الضحايا، وتصدم العائلات بالمنظر الرهيب للأجساد المتهرئة.

ولم يضع مولود وقتا في النقاش إذ أصدر تعليمات فورية بإعداد أربعة عشر تابوتا فيها كل المواصفات المطلوبة على أن يتم ذلك في 24 ساعة على أكثر تقدير، وهو ما حدث بالفعل ويعطي صورة عن جدية الدولة وفعالية مؤسساتها وانضباط عناصرها.

ووضعت التوابيت الجديدة بعيدا عن الأنظار في حظيرة معزولة بمطار هواري بومدين الدولي قبل وصول الطائرة، ووقف إلى جانبها مجموعة محدودة من المؤهلين.

وكانت التعليمات هي ألا يطلع على الأمر إلا أقل عدد من الناس.

وتجمع في القاعة الشرفية للمطار عدد من كبار المسؤولين وأسر الضحايا، وعلى بعد نحو كيلومتر وفي الحظيرة المعزولة كان يقف عدد من المسؤولين الذين كانوا يعرفون بالأمر ومن بينهم على ما أذكر العربي بلخير وقاصدي مرباح ومولود حمروش والهادي خديري وكاتب هذه السطور، وكان علي الاتصال بالتلفزة لالتقاط الخط المباشر لبث وصول الطائرة.

وتصل الطائرة ولا يُعلن عن ذلك حتى بالنسبة للموجودين في القاعة الشرفية، وأنزلت التوابيت الخشبية وتابوت بن يحيى المعدني الذي وضع جانبا، ووضع الممرضون كل تابوت قادم بجانب تابوت جديد، ورجوت المسؤولين الموجودين في الحظيرة بأن يتركوا لي الأمر لأنني مؤهل له بحكم تكويني الطبي، واستجاب الجميع باستثناء مولود الذي لم يشأ أن يتركني وحدي ولكنه وقف بعيدا عن التوابيت.

وأكدت نظرة سريعة للتوابيت الخشبية التي وصلت بأن عبد الكريم غريب أحسن صُنعا، فقد كانت مخلخلة لدرجة أنها فتحت بدون أي جهد يُذكر، وتم نقل كل جثمان من التابوت القديم إلى التابوت الجديد، باستثناء تابوت بن يحيى الذي لم يُفتح أساسا، ثم تم لحام الجزء المعدني من التابوت وأغلق فوقه الجزء الخشبي بالمسامير، وكنت، أولا بأول، أكتب على شريط لاصق اسم الضحية لأثبته على التابوت الجديد تفاديا لأي خلط.

ثم وُضعت التوابيت القديمة وكل ما كان فيها من أقمشة على شكل كومة في مكان منعزل حيث تم حرقها، وحملت التوابيت الجديدة بشكل عكسي إلى الطائرة التي كانت متوقفة أمام الحظيرة، والتي تحركت متوجهة إلى الموقف رقم 8 أمام القاعة الشرفية، وبمجرد تحركها أبلغت إدارة التلفزة بوصول الطائرة وبدأ البث المُباشر، وكنت في تلك اللحظة قد وصلتُ قبل الطائرة إلى القاعة الشرفية وكأن شيئا لم يكن، وأنزلت التوابيت بدءا بتابوت محمد بن يحيى، وكان موقفا حزينا غمر فيه التأثر الجميع.

لكن عملي لم يكن انتهى، ففي حدود الحادية عشرة مساء كنت أطرق باب عبد الحميد لسكندر في المرادية ليكتب أسماء الضحايا على قطعة كبيرة من ورق مقوى، وانتظرت حتى أكمل عمله وأخذت البطاقات لتوضع فوق كل تابوت في قاعة الترحم، وعدت إلى منزلي بعد منتصف الليل، وبعد اطمئناني إلى أن كل شيئ تم كما يجب أن يتم.

وأتوقف لحظات لأقول لكل من يرى في هذا السرد تطويلا لا فائدة منه أو استعراضا لجهد شخصي هو أولا وقبل كل شيئ واجب تجاه الوطن وتجاه الضحايا، أقول بأن ما قلته هو واجبي أيضا تجاه كل مواطن وبخاصة الشباب ليعرف الكل بأن جيلنا لم يكن عالة على الثورة أو على الوطن، وهناك كثيرون قاموا بمثل ما قمت به وزيادة ومن حقهم أن يتحدثوا باعتزاز عن الفرصة التي منحهم اياها المولى عز وجل ليكونوا في مستوى طموح أمتهم، ولقد قبل إخوة التعامل مع توابيت قادمة من منطقة حربية بدون أي تردد، وبدون أن يعبروا عن خشيتهم من قنبلة أو من بؤرة مرضية.

ولعل السؤال الذي ما زال مطروحا هو من كان وراء سقوط الطائرة، لأن لجنة التحقيق التي كونها رئيس الجمهورية برئاسة وزير النقل لم تصدر أي بلاغ رسمي عن نتائج عملها، ولم يبق في الأذهان إلا ما ذكرته مصادر تركية بأن المنطقة شهدت معركة جوية بين طائرات عراقية وطائرات إيرانية، ثم تردد فيما بعد أن صاروخا عراقيا هو الذي أسقط الطائرة، لكنني على يقين من أن الذي أشعل نار الحرب بين العراق وإيران كان على يقين من أنها لم تستكمل بعد أهدافها.

ويتسلم الدكتور أحمد طالب وزارة الخارجية بعد يومين من دفن بن يحيى ورفاقه.

ويُفتتح مؤتمر الشباب في 15 مايو ويركز فيه الرئيس على وحدة الفكر والعمل، وعلى أن "شعب الجزائر مُسلم وليس في حاجة لمن يدعوه للدخول إلى الإسلام من جديد"، وكان هذا ردّا غير مباشر على تحركات تيارات إسلامية شاب بعضها العنف، كما كان تحذيرا لكل من يتصور أنه أكثر إسلاما من الآخرين، وأذكر بهذا اليوم لأؤكد تهافت ما ادعته بعض الاتجاهات اليسارية من

أن الرئيس الشاذلي هو الذي شجع الاتجاهات الدينية المتطرفة، فقد كان الرجل دائما مثالا للوسطية بكل معانيها.

ويعود فرانسوا متران لزيارة الجزائر في 19 مايو ثم يواصل سفره إلى عدد من بلدان القارة الإفريقية، ورغم أن مروره في الجزائر كان مجرد توقف إلا أنه فسر كرسالة ودية تقول للجزائر إنها طريقه نحو القارة السمراء.

ويلتقي الرئيس مع الأمانة الوطنية للمجاهدين، ويؤكد في كلمته على "ضرورة الاطمئنان بأن كل المُجاهدين، وخصوصا البسطاء منهم، قد حصلوا على كل حقوقهم".

(4)

في خضم الأخبار المتعلقة بالحرب البريطانية في "المالوين" والتي كانت الأرجنتين تترنح تحت ضرباتها، تقوم إسرائيل في الثالث من يونيو 1982 بغزو سافر للأراضي اللبنانية، وكان المبرر هو اغتيال السفير الإسرائيلي في لندن. وتذكرتُ أن فرنسا شهدت في شهر ابريل الماضي اغتيال السكرتير الثاني في السفارة الإسرائيلية الذي أطلقت امرأة عليه النار وتبنت العملية منظمة ثورية غير معروفة في لبنان، واتهم السفير الإسرائيلي على التو منظمة التحرير الفلسطينية، وكان ذلك قبل أيام من إطلاق النار على بعثة المشتروات الإسرائيلية في باريس، التي شهدت في نهاية الشهر انفجارا هاما في شارع ماربوف (Marbcuf) بجوار مقر مجلة الوطن العربي، التي كان يُمولها العراق، وتصورت أن كل هذا، وهو يتزامن مع انتفاضة الحجارة في الأرض المُحتلة، عملٌ يحمل بصمات المُخابرات الإسرائيلية التي تبذل كل جهد لتشويه النضال العربي في الغرب، بعد كل الضحايا العرب الذين تم اغتيالهم من قبل الموساد في أوربا وغير أوروبا، وسنجد أن الأسلوب نفسه سيستعمل فيما بعد حتى في الدول العربية، حيث تقوم عصابات مأجورة من اتجاه معين بقتل بعض من ينتمون لها لاتهام الطرف الآخر.

وتتابع الجزائر باهتمام أنباء الغزو الإسرائيلي، حتى خلال الزيارات التي قام بها الرئيس إلى كل من جيجل وبجاية، ويُعبر الرئيس عن اهتمامه البالغ بما يتعرض له لبنان فيقطع زيارته لبجاية، ويعود إلى العاصمة الجزائرية بالسيارة ليترأس اجتماعا للمكتب السياسي يُخصص لدراسة قضية الغزو وتبعاته، وهو ما أبرزته وسائل الإعلام الجزائرية.

ويطلب الرئيس الاتصال هاتفيا بقيادة المُقاومة الفلسطينية وبرئيسي الجمهورية السوري واللبناني، ثم يوفد الأخ محمد الشريف مساعدية في اليوم التالي ليطرح على الأشقاء سؤالا واحدا مُحددا : ما الذي يُمكننا عمله بالضبط، وما هي الاحتياجات العاجلة والفعالة لدعم الصمود والمُقاومة ؟

ثم يُستدعى سفراء الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن إلى وزارة الخارجية بتعليمات من الرئيس. ويعود مساعدية بطلبات محددة ويصدر الرئيس تعليماته بالاستجابة فورا لكل تلك الطلبات، ويودع في الوقت نفسه صكا لدى دولة صديقة كبرى لتحويل معدات إلى عين المكان (كما حدث في 1973) وتتلقى رئاسة الجمهورية رسالة من بعثتنا الديبلوماسية في دمشق تؤكد استلام ما أرسل به، ويصل إلى الجزائر مندوب عن أحد فصائل المُقاومة وتصدر التعليمات بالاستجابة السريعة، بقدر الإمكان، لكل الطلبات التي قدمها، وبينما كان الغزو الإسرائيلي يقتحم لبنان ويحاصر بيروت كانت الحرب العراقية الإيرانية تزداد التهابا رغم انسحاب القوات العراقية من الأرض الإيرانية، والذي أعلن الرئيس العراقي أنه يهدف إلى تحقيق تضامن عراقي إيراني ضد إسرائيل، وترد إيران على هذا الموقف بالهجوم على البصرة، وتتواصل الاتصالات العربية كالعادة.

ويغلي الشعب الجزائري وهو يتابع أحداث لبنان والتواطؤ الأوربي مع إسرائيل وتتاح له فرصة طريفة لإعلان تضامنه ضد الغرب المتجبر وذلك خلال مباراة الكرة التي جمعت الفريق الجزائري مع الفريق الألماني، والتي هزم فيها الألمان فتفجرت صيحات الزهو بالانتصار.

وكتبت في الشعب يوم 29 يوليو أقول تعليقا على ذلك: " لم يكن التعبير الصاخب عن الفرحة، كما رأيته وتفهمته، هو لمجرد الإحراز على بطولة رياضية، ولكنها كانت تعبيرا عن إرادة النصر التي تغلي في صدر كل مواطن (..) ونقل لي صديق غير جزائري بأن هناك مواطنين كانوا يلوحون بأعلام فلسطينية متعانقة مع أعلام جزائرية.

وارتبطت المُباراة بحدثين طريفين أولهما أن بعض الكتابات العربية في المكاتب مكيفة الهواء هاجمت حماس الشعب الجزائري لفريقه الوطني ضد الألمان وتساءلت، بغباء متميز، كيف يحدث هذا والإسرائيليون يغوصون في لبنان كالسكين الساخن في الزبد ؟أما الحدث الأكثر طرافة فهو أنني لست من هواة الكرة وكنت خلال المباراة في منزلي أغط في نوم عميق بعد أن أرهقتني نشاطات الأيام الماضية.

ويدق جرس الهاتف الخاص ثنائي الأرقام في غرفة نومي وإذا به الرئيس الشاذلي يُهنئني بالانتصار، ولم أفهم بالطبع أي انتصار في اللحظات الأولى التي لُيقظني فيها الهاتف، وترددت لحظات حاولت فيها أن أجمع شتات أفكاري فعاجلني الرئيس بقوله : "لقد انتصرنا على ألمانيا".

واعترفت للرئيس بأنني كنت نائما، وكانت نكتة الأسبوع.

ويدخل شهر يوليو ونحن نفكر في أحسن الأساليب لتسجيل تضامن الجزائر مع لبنان، واقترحتُ فكرة بسيطة يمكن أن يتولى الإعلام تسليط الأضواء عليها بما يجعلها موقفا متميزا، وكانت الفكرة هي إلغاء كل الاحتفالات التي كانت مقررة بمناسبة عيد الاستقلال، والاكتفاء بكلمة يوجهها الرئيس للشعب على أمواج الإذاعة والتلفزة، وكان هذا هو ما حدث بالفعل بعد أن أعدّ خطاب قصير تم تسجيله في رئاسة الجمهورية وأذيع يوم الاحتفال، الذي كان من أهم مظاهره تدشين مقام الشهيد.

وكان من بين ما قاله الرئيس في خطابه: "عشرون سنة مرت كلحظات ولحظات مرت فيها كسنوات" (..و) إذا كنا بالأمس نددنا بالنظام الاقتصادي

الجديد فإننا اليوم، وبعد أن عشنا ما عشناه، نندد بالنظام الدولي بكل عناصره لأنه يُشكل خطرا دائما على وجودنا ومستقبلنا وكرامة شعوبنا" (..) لقد أردنا باحتفالنا الرمزي هذا، والوطن العربي يجتاز محنة أليمة، أن نستخلص العبرة من كفاحنا المجيد، لنتحدى مشاعر اليأس ونبعث روح الأمل في النفوس وندعم عناصر القوة التي هزمنا بها العدوّ بالأمس وأهمها وحدة الفكر والعمل (..) وأردنا لاحتفالنا هذا أن يكون تأكيدا لإرادة شعبنا في تحمل مسؤولياته التاريخية بجانب أشقائه ورفقائه في معركة المصير(..) وأردنا أن يكون احتفالنا هذا بعيد الاستقلال تذكيرا لكل الذين نسوا أو تناسوا بأن الانتصار هو دائما للشعوب، طال الزمن أم قصر".

وأوردت كلمة الرئيس في مجلة الجيش ترحمه على الآلاف "من رفقاء السلاح الذين سقطوا في المعركة"، وكان الرئيس قد أرسل رسائل لقادة أفارقة من بينهم رؤساء مدغشقر وجزر موريس والسيشل والموزمبيق وفولتا العليا والبنين وغانا ومملك سوازيلاند.

ويزيح الرئيس الستار عن اللوحة البرونزية لنصب "مقام الشهيد" والتي تحمل النص المُعدّل لكلمته التذكارية، والتي سبقت الإشارة لقصته، وجاء في الكلمة : "تكريما وتخليدا للأبناء البررة الذين جاهدوا بأرواحهم على مرّ العصور دفاعا عن الوطن المُفدّى وتحريرا لأرضه من الغاصبين (..) وتأكيدا لهويته الحضارية وتدعيما لمُقومات شخصيته الوطنية".

ويصرح الفريق سعد الدين الشاذلي في الجزائر بأن الهدف هو إقامة نظام ساداتي في لبنان[9].

---

9 – واصل الفريق الشاذلي منذ استقراره في الجزائر النضال الإعلامي دفاعا عن وجهة نظره المتعلقة بانحراف الرئيس السادات عن الخط القومي، وكان في هذا منسجما مع تحركات المجموعة العربية التي رفعت لواء الصمود والتصدي، وأصدر عدة كتب من أهمها كتاب عن حرب أكتوبر كما سيصدر فيما بعد كتابه عن الحرب الصليبية الثامنة ويقصد بها الحرب ضد العراق.

وتحركت قيادات عربية في إطار حركة عدم الانحياز ليعقد مؤتمر طارئ لمكتب تنسيق الحركة في قبرص، شارك فيه عن الجزائر الدكتور أحمد طالب، وتقرر دعوة مجلس الأمن لتطبيق عقوبات إلزامية ضد إسرائيل عقابا لها على عدوانها.

وفي الوقت نفسه يعدل الرئيس التونسي الحبيب بو رقيبة عن طلب انعقاد مؤتمر قمة عربي، وذلك نتيجة لرفض معظم الدول العربية.

(5)

أحسست بأن الوقت قد حان لأحاول نفض الغبار المُتراكم على ذكرى الرئيس الراحل هواري بومدين، واخترت أسلوب التذكير بالمواقف الجزائرية تجاه أحداث الوطن العربي والتي تتكامل بين الماضي والحاضر ، ولست أدري أيهما كان مُبرر الآخر[10].

وكان لا بد أن أكون بالغ الحذر وأنا أمارس الكتابة حتى لا أعطي الفرصة للطيور الجارحة التي كانت تنظر الفرصة لتمزقني إربا إربا.

ونشر الجزء الأول من سلسلة ضمت أربع مقالات متتالية واخترت لها عنوانا : "كلامنا لفظ مفيد ...كاستقم"، ونشر المقال الأول يوم 21 يوليو في الشعب (ونشر أيضا ككل المقالات في النصر الصادرة في الشرق وفي الجمهورية الصادرة في الغرب، كما تولت الإذاعة، بطلب أخوي مني، إذاعة النصوص بعد أخبار الواحدة ظهرا) وأشرت في بداية المقالة لمن يغمزون ويلمزون على الساحة العربية للنيل من مواقف الجزائر، وقلت بأن علينا أن نقول بعض ما يجب أن يُقال، لأن "الأمر لا يصبح مجرد حق نمارسه تجاه

10- سأستعرض هنا بعض عناصر المقالات التي تشير إلى تفاصيل أحداث سبقت الإشارة لها ولم أتوسع في الحديث عنها لأترك المجال لكتابات موثقة وبتواريخ محددة.

أنفسنا، بل واجبا نؤديه تجاه المقاتلين الذين تحالفت عليهم كل القوى (..) لإقناعهم بأنهم وحدهم ... معزولون في الميدان".

ثم استعرضت المواقف الجزائرية قائلا بأن "كل إشارة لدور جزائري في دعم صمود المُقاتلين لا تعني على الإطلاق منّا أو تفاخرا أو مباهاة، بقدر ما تعني حضنًا على الصمود ودعما لروح القتال".

وعدت إلى هزيمة 1967 وما تعلق بها وذكرت بأن قلعة الصمود وقلب الهجوم هو المُقاومة الفلسطينية، وربطت بين غزو لبنان وزيارة الرئيس السادات للقدس المُحتلة وما ترتب عليها، ثم أوضحت خلفيات تكوين الجبهة القومية للصمود والتصدي، وقلت للمتحدثين عن أوهام السلام بأن بيغين كان واضحا وهو يقول بأن إسرائيل لا تقبل الانسحاب إلى خطوط ما قبل يونيو 1967 وأنها لن تسمح بقيام دولة فلسطينية، وهو ما يعني أن الحد الأدنى من المطالب العربية كان مرفوضا من البداية (وأذكر بأن هذا كُتب في 1982) ولخص بيغين الموقف قائلا بأننا : "جعلنا العرب ييأسون من أنفسهم ثم جعلناهم ييأسون من الاتحاد السوفيتي وسنجعلهم يفقدون الأمل في أن تضغط علينا أمريكا، ليدركوا أن أمامهم طريقا واحدا هو قبول ما تعرضه إسرائيل".

وبعد استعراض المواقف ضد نظام السادات قلت بأن الجزائر رفضت دائما المساس بشعب مصر، وهو ما حذر منه الرئيس في أحد الاجتماعات العربية العاصفة عندما قال: "في كل مواقفنا تجاه النظام المصري يجب ألا نتجاهل مشاعر الشعب المصري والضغط السياسي والنفسي الذي يتعرض له ليكفر بكل ما هو عربي، ويسهل تمرير المخطط المرسوم لعزل مصر عن كيانها الطبيعي".

ثم قلت بأنه: "لم يكن من باب الصدفة أن تكون أول زيارة رسمية للرئيس الشاذلي بن جديد بعد انتخابه (..) هي زيارته للوطن العربي [11].

كانت تلك الزيارة تعبيرا عن إرادة الثورة الجزائرية، ومحاولة للوصول إلى موقف عربي منسجم في البداية موحد في النهاية (..) وبصراحة المناضل وضع الرئيس الجزائري تصوره أمام الأشقاء، ملحّا على ضرورة الاستعداد الجماعي للتصدي للوحش اللقيط الذي نتج عن لقاء السادات مع بيغين، ومذكرا بأن التضامن العربي يجب ألا يكون، بأي حال من الأحوال، تكتلا عرقيا يحرم الأمة العربية من عمقها الإسلامي والإفريقي الآسيوي (..) وهناك الكثير مما

11- مثقف جزائري كان هاربا إلى لندن كتب يتهكم في صحيفة عربية على ما كتبته حول أحداث لبنان معتبرا إياه تغزلا في الشاذلي بن جديد، وكان هذا تعبيرا عن خلفية لم يكن لها علاقة لا بالشاذلي ولا بلبنان. وكان مما قاله أنني "حملت التيارات اللائكية، والبربرية بالذات، أزمة الجزائر وتجلياتها المتمثلة في أحداث العنف والتصفيات الجسدية (..) وعددَ ضخم من التصفيات السياسية (كما قال) ارتكبت عندما كان (أنا) مستشارا للرئيس هواري بو مدين (ولم يقل لنا ما هي ومتى؟) ولم يتجرأ الدكتور عيمور يومها على قول "لا" لأنه كان مستفيدا من النظام، بل كان أحد رموزه ، وفي عهد الشاذلي بن جديد كان يتغزل فيه وهو ينتقل من ولاية إلى ولاية (ومن حسن الحظ أن أهم الكتابات منشورة هنا) ثم يدخل في الموضوع الأصلي متسائلا عما أقصده بالاتجاهات اللائكية والبربرية (..) ويقول " أريد أن أعلمه أن بربر الجزائر لا يحكمهم روحيا بابا الفاتيكان"، وثم يقول : "نحن البربر نقف في طليعة من يُنادي بالوحدة العربية (في حين ينادي فرحات مهني البربري بالانفصال عن الجزائر ويستعين بفرنسا، كما قال سعيد سعدي : أعيدوا لنا جزائرنا، ولم يتصدى لهم البربري العروبي في لندن) وأجبت بما معناه أنني كنت أتمنى أن يكون معنا هنا لنرى كيف كان سيتصرف لو كان مكاني ويحمل تاريخي، وقلت بأن من حقه وهو يتحدث عن معاملة سيئة يزعم أنه تلقاها في وطنه أن يشعر بالمرارة وأن يلوكها أو يجترها صباح مساء ولكن ليس من حقه أن يبصقها في وجوهنا في كل مرة تتناقض فيها خلفيته مع ما تكتبه، وأنا لم اتهم الاتجاهات اللائكية بالتعميم بل قلت ببساطة أن الإعلام المتأثر بالطروحات اللائكية تحسر للتعامل الأمني مع الأحداث التي نسبها لجناح سياسي متطرف يلبس جلباب الإسلام، ولن أدافع عن شخصي لكنني كنت أتصور أن ذكاء المُعلق كان يفرض عليه أن يجد حسنة واحدة للكاتب تبرر وجوده في نفس الموقع حوالي 13 سنة، . ثم اكتشفت عندما عرفت أن الخلفية مقال كتبته في الشرق الأوسط وضعت فيه قضية الأمازيغية حيث يجب أن توضع، وقلت له أنه ليس من حقه أن يقول : نحن البربر، لأننا جميعا أمازيغ كما أن المصريين من أصل فرعوني واللبنانيين من أصل فينيقي، وختمت بأن الذين يفرون من المعارك ليس من حقهم مساءلة الجنود المرابطين في الخنادق"

وليس سرا أن أقول بأن ما كتبته خلال هذه المرحلة، والذي كان يُكلفني عناء كبيرا، كان بمبادرة شخصية، وكنت متأثرا بأسلوب الأستاذ هيكل في مرحلة "بصراحة"، وكنت أحاول أن تصل الأفكار الرئيسية لكل مواطن آخذا بعين الاعتبار أسلوب الرئيس في المتابعة.

يجب أن يُقال (..) حتى لا يكون الأسلوب الجزائري في التعامل الرصين الهادئ مع الأحداث والمواقف فرصة لمن لا يريدون لهذا البلد خيرا، ولا يريدون لأمتهم خيرا (..) ذلك أن انتماءنا العربي هو التزام مع منطق التاريخ وحتميته، بالإضافة إلى أنه إيمان بوحدة المصير ووحدة التحدي ووحدة الصراع".

وعدت للكتابة يوم 24 يوليو في نفس الصحف الجزائرية ومع إذاعة النص في القناة الأولى بفضل دعم الرفيقين المدني حواس وعبد العالي بو رغدة، وكتبت تحت نفس العنوان الرئيسي قائلا بأن : "الحديث هو عن مذبحة لبنان عمقا وأبعادا ومُستقبلا، المذبحة التي بدأ الإعداد النفسي لها بعد تحويل انتصار أكتوبر العسكري الرائع إلى هزيمة سياسية بائسة تخدم مصالح الإمبريالية العالمية (..) ولقد كان هجوم إسرائيل على لبنان في 1978 مجرد تجربة دامية للمذبحة التي نفذت هذا العام، بعد أن تمت دراسة التجربة وتحديد دور الرفقاء والفرقاء، وتجريد العالم النامي تدريجيا من مصادر قوته، وعزله عن عمقه الاستراتيجي آسيويا وإفريقيا".

ثم قلت : "كان إيماننا أنه بدون قوة ذاتية تعتمد وحدة الفكر والعمل، وبدون عمق استراتيجي يتكامل مع الوطن العربي ويتفاعل معه، فإن الوطن كله سيتحول إلى بقع ملونة متناثرة على الخرائط، لا تملك مقدرة التأثير الفعلي على مجرى الأحداث، ولا تتمكن من إثبات الوجود بل وحماية الكيان (..) ولعل من أهم ما حرص عليه الرئيس الشاذلي بن جديد عند لقائه بالقادة الأفارقة هو ضمان وحماية العُمق الإفريقي لجبهة الصراع العربي ضد إسرائيل (..) ويقول بعض الذين رافقوا الرئيس الجزائري في جولته الإفريقية (ولن أقول من هُمْ) أن بعض المسؤولين الأفارقة لم يُحاولوا إخفاء حيرتهم أمام ما يحدث، وكاد البعض يصل إلى القول بأن "العالم العربي الذي استنجد بنا في بداية السبعينيات نسينا بعد أن اتخذنا موقف العداء من إسرائيل، برغم كل ما كلفنا ذلك من تضحيات" (..) البعض لم يُخفوا قلقهم من الدور الذي تلعبه أموال عربية في

بعض الدول الإفريقية (..) ومعظم المسؤولين كانوا يُخفون بصعوبة مرارتهم من بعض التصرفات العربية ومن التجاهل العربي للقارة السمراء (..) فباستثناء الرئيس الجزائري لم يقم رئيس عربي واحد بزيارة لمدغشقر أو للسيشل أو لزمبابوي، التي كانت روديسيا، ولم يقم رئيس عربي واحد بزيارة دول المُواجهة مع إفريقيا الجنوبية العنصرية، وخاصة بعد الاعتداءات المُتكررة على زامبيا وأنغولا والتهديدات ضد الموزمبيق ومحاولات إجهاض ثورة الشعب في ناميبيا (..) ولقد بقيت دولة عربية إفريقية مسلمة (المقصود هو موريطانيا) اعترف بها العالم كله كيانا مشطوبا في الخرائط العربية حوالي عقد من الزمان (نتيجة للتواطؤ بين القيادات) هذا تاريخ لا ننساه ويجب أن نذكر به دائما الذين يدعون الجزائر اليوم للدخول في حظيرة الإسلام !! (..) وسيُسجل التاريخ أن الجولة الإفريقية المرهقة للرئيس الجزائري كانت عاملا حاسما للمحافظة على ثقة إفريقيا في العالم العربي (..) ويكفي أن الرئيس استثنى الزائير من زيارته، وقد كان موبوتو الصديق المحظوظ لأنظمة عربية أغدقت عليه الأموال ودعمته بالجيوش (..)

وللتاريخ فإن الجزائر كانت الدولة العربية الوحيدة التي راهنت على فوز "فرانسوا متران"، وتقبلت بارتياح وقور نتائج الانتخابات الرئاسية الفرنسية، في الوقت الذي كادت مناطق عربية معينة تتحول إلى مأتم تتلى فيه الصلوات بالعربية واللاتينية على روح"جيسكارد" (منشط نادي السافاري) وربما كانت "الدوافع الحقيقية خلف بعض المواقف العربية هي أن الرئيس الفرنسي اشتراكي، والاشتراكية بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة في النار".

وفي المقال، الذي التهم صفحة كاملة من الجريدة التي كانت تصدر بالحجم القديم وقبل أن تصغر إلى حجم التابلويد، استعرضت قضايا النفط ودوره السياسي الدولي الذي أجهض في الظروف المعروفة ودوره السياسي الإقليمي الذي يتزايد يوما بعد يوم، وقلت "لم يكن البترول نقمة إلا لأننا لم نحسن استخدامه (..) ولن أحاول أن أغرس السكين في الجرح لأتساءل عن النسبة

المئوية من ودائع البترول التي مولت، بشكل غير مباشر، غزو إسرائيل للبنان، وساهمت بشكل مباشر في تعميق التناقضات الطائفية في ذلك البلد العربي الذي كان مرآة للعالم العربي بكل ما فيه (..) كيف حطمنا القوة السياسية المؤثرة لسلاح البترول (..) وتعرضت بلدان من منظمة الأوبيك، وبالإضافة إلى محاولة لشراء الضمائر باسم مفهوم خاص للدين وللضغط على مسيرتها التنموية، وذلك بإغراق السوق الدولية بالبترول مما يؤدي إلى خفض عائدات البلدان التي تعتمد على النفط أساسا، حتى في إطعام شعوبها وضمان الحياة اليومية لمؤسساتها (..) وهل كنا سنقف هذا الموقف الذليل لو تركنا ما لا نحتاجه من البترول مخزونا في أرضنا، وديعة لأبنائنا، وقوة كامنة تدعم مطالبنا الشرعية، وترغم الآخرين على مراجعة أنفسهم ألف مرة قبل اتخاذ المواقف التي تشجع العدوّ (..) وهذا هو التفسير الأول لحالة العجز التي واجه بها الوطن العربي غزو لبنان".

وكتبت في صحيفة الشعب يوم 27 يوليو، وبعنوان فرعي هو "نظرة إلى الأفق البعيد":

"في نهاية الأسبوع الأول من يونيو الماضي توجه الرئيس إلى شرق البلاد في زيارة تفقدية (..) ويقول لي أحد أعضاء الوفد (ودائما لن أقول من هو) عندما أقلعت طائرة "الفوكر" متجهة إلى جيجل ألقيت ببصري نحو الرئيس الذي كان يُطالع الصحف الوطنية (..ثم) نزع نظارته وأخذ ينظر إلى الأفق البعيد (..) وأحسست، يقول مُحدثي (!!) بأن هناك أمرا هاما يستقطب اهتمامه إلى الدرجة التي جعلته يعتذر للمضيف عن تناول المشروب الذي قدم له (..) واتضح الأمر الذي يشغل باله عندما ترأس جلسة العمل مع السلطات المحلية لولاية جيجل، حيث كان أول ما بدأ به حديثه دعوته الحاضرين إلى الوقوف ترحما على الشهداء وتحية لصمود المقاتلين الذين يقفون ببسالة وشجاعة ضد العدوان الإسرائيلي الذي انطلق في الذكرى الخامسة عشرة لهزيمة يونيو 1967 (وهكذا كانت) النظرة للأفق البعيد تتفحص صورة قاتمة مؤلمة لا تبعث

على التفاؤل أو الارتياح، صورة عالم عربي مُمزق الأوصال وجماهير عربية توالت عليها خيبات الأمل (..) تواجه ما يحدث وكأنها تحت مخدر سحري يجعل العيون تنظر ولا ترى والآذان تسمع ولا تعي والنفوس تغلي ولا تفيض (..) كان المُناضل الجزائري يرى الخطر المقبل واضحا كنار البركان في الليل البهيم، خطر الهزيمة النفسية التي تمكن العدوّ (..) من خلق عقدة النقص الأبدي عند الجماهير العربية (..) ولنسمع اليوم من يقول كما قال بعضهم في فاس : لو كنا تجاوبنا مع كامب دافيد لما اضطررنا إلى الحديث عن مشروع أمريكي قبل أن نطمئن إلى أن إسرائيل ستقبله أو سترغم على قبوله، أو كما قيل بعد زيارة السادات للقدس المُحتلة : لو قبل العرب بقرار اللورد كارادون رقم 242 لكان الحال غير الحال، تماما كما قيل في 1967 : لو قبلنا ما ثرنا عليه في 1956 واكتفينا بالمطالبة بحدود 1947 لما كانت النكسة أو النكبة أو ..."

وأتعرض في المقال للوضعية الطائفية التي يعرفها لبنان ثم استعرض التحالفات العربية ودعم التيارات الانعزالية وأمرُّ عبر تجربة كميل شمعون الدموية في 1958 ثم انفجار الحرب الأهلية في 1975، وصولا إلى إرسال الرئيس الشاذلي للأخ الأخضر الإبراهيمي إلى لبنان بمهمة محددة هي الاتصال بكل الفرقاء والرفقاء، والتعرف على كل وجهات النظر (..) "وبرغم الحكمة والرزانة المعروفة عن المبعوث الجزائري فإن توجيهات صدرت إلى أجهزة الإعلام الجزائرية بتجاهل أي تصريح يُمكن أن يُنسب له وتكذيبه آليا، تفاديا لأي دس يحاول إجهاض التحرك الجزائري".

وأواصل كتابتي.

"ركز الرئيس في افتتاح الدورة السابعة للجنة المركزية على أحداث لبنان (..) وإذا كانت تفاصيل ما قيل بعد ذلك في الجلسة المُغلقة قد وصلت بشكل أو بآخر إلى مجموع المُناضلين فإن المقتطفات التي نشرتها وكالة الأنباء

الجزائرية أعطت صورة مُصغرة صادقة، تمثل الحد الأدنى لما يُمكن أن ينشر والحد الأقصى لما يمكن قوله علانية، وكان من بين الفقرات ما يلي [12]:

- إن أقوى حلفاء الكيان الصهيوني هو الضعف العربي الناتج عن التمزق والتشتت والشعارات الزائفة التي لا تتبع بالتطبيق العملي في الميدان.
- الهزائم لم تكن أبدا هزائم للشعوب العربية التي أعطت بدون حدود وكانت دائما في مستوى الأحداث.
- حالة اليأس التي تتعرض لها شعوبنا ناتجة عن خيبات الأمل المتلاحقة التي منيت بها (..) وبعد أن عاشت أمتنا فترات استعمل فيها اسم فلسطين ضد المصالح العليا لشعب فلسطين والوطن العربي كله (..)
- مجزرة لبنان تندرج في إطار تطبيق "كامب دافيد" (..)
- الشعوب العربية لا تنسى أصدقاءها (..) ولن تنسى أبدا من تسببوا فيما لحق بها من هزائم (..)

وأشار الرئيس لمؤتمر القمة العربية بأن "الجزائر مستعدة للمُساهمة في كل جهد عربي مُشترك (..) ولن نجامل أحدا على حساب الحق العربي (..) وسنضع كل الحقائق أمام شعبنا (..)

وأواصل الحديث في نفس المقال : "كانت فكرة القمة العربية الاستثنائية هي الفكرة السائدة (..) ويتوجه وزير الخارجية الجزائرية للاجتماع مع نظرائه العرب في تونس وهو يحمل ورقة عمل تضم ست نقاط محددة، ويصدر تصريح مأذون من الجامعة العربية يقول بأن الاجتماع درس اقتراحات هامة تقدمت بها الجزائر ومنظمة التحرير والسعودية (..) وكانت النقاط الجزائرية الست كما عرفت من وزير الخارجية عندما سألته هي :

12- واضح بالطبع أنني كنت مصدر أخبار الوكالة لمجرد أن هذا هو عملي، لكنني لا أشير إلى هذا في المقال الذي يفترض أن الذي كتبه هو مجرد مثقف.

- الإدانة الجماعية للغزو الصهيوني والاحتلال الإسرائيلي للأراضي اللبنانية.
- التنديد الواضح بالقوة التي أعطت الضوء الأخضر والدعم المُطلق للكيان الصُهيوني وهي واشنطون.
- الدعم الفعلي والملموس والعاجل الذي يُمكن المقاتلين من مواجهة الغزو.
- التأكيد العلني للموقف العربي من منظمة التحرير الفلسطينية.
- تجاوز الخلافات العربية (..) وإخضاع التعامل الاقتصادي العربي مع الدول الأجنبية لموقفها الفعلي من الكفاح العربي المشروع.
- إرسال وفود عربية لعواصم الدول دائمة العضوية في مجلس الأمن (وهي النقطة الوحيدة التي تمت الموافقة الجماعية عليها، مما يُعطي فكرة عن مجمل النقاش وبقية الاقتراحات المُقدمة)

وينبثق عن الاجتماع تكوين لجنة تضم الشاذلي القليبي الأمين العام للجامعة ووزراء خارجية كل من الجزائر وسوريا والكويت ورئيس الدائرة السياسية لمنظمة التحرير، ويتقرر أن تجتمع بعد يومين في مقر الجامعة العربية بتونس (والذي كان قد نقل إليها بعد اجتماع بغداد الذي تلا كامب دافيد) ويتم عشية اليوم المُقرر للاجتماع اتصال بالجزائر يبلغها بأن الاجتماع سيُعقد في الطائف بالسعودية بدلا من تونس (..) وكانت مفاجأة غير متوقعة بل وغير مفهومة، ويتقرر أن يُمثل الجزائر الأمين العام المُساعد لوزارة الخارجية، بعد أن عُرف أن قائد ميليشيات الكتائب بشير جميل قد يوجد في نفس المكان أيام الاجتماع.

وأواصل الكتابة لأقول في نفس المقال :

"يتجه التفكير الجزائري إلى إطار عدم الانحياز لتأمين وتدعيم العُمق المطلوب للمقاومة البطولية التي يقوم بها أبناء الشعب الفلسطيني ورفاقهم

اللبنانيون، وهكذا برزت فكرة عقد اجتماع طارئ لمكتب تنسيق الحركة اتفق على أن تحتضنه قبرص، وفجأة تنطلق دعوة جديدة لقمة عربية، اختير لها نفس اليوم المُقرر لاجتماع عدم الانحياز (..) وبدأت صيحات ترتفع منادية بإعادة مصر إلى الحظيرة العربية، ولم يسأل أحد نفسه هل المطلوب هو عودة مصر إلى مكانها الطبيعي وإلى دورها الطبيعي أم إدخال كامب دافيد من النافذة بعد أن أغلق دونه الباب العربي ؟، ويبدأ الحديث عن مبادرة جديدة قد يقوم بها قطر شقيق ليس من دول المشرق العربي، لتتكامل مع دور آخر يقوم به محور جديد في المشرق العربي، واختتم سلسلة الأحاديث بالقول :" ولكل حادث حديث".

لكن غزو لبنان ينتهي بتحقيق الهدف الإسرائيلي الرئيسي وهو إجبار المقاومة الفلسطينية بقيادة ياسر عرفات على مغادرة لبنان، بعد نحو 12 عاما على مغادرة الأردن.

وتعرف كينيا "أراب موي" عملية انقلابية يتم إجهاضها.

وانطلاقا مما كان قد تقرر في أديس أبابا توجه الرئيس إلى طرابلس يوم الرابع من أغسطس للمشاركة في قمة منظمة الوحدة الإفريقية، وكان مبعوثو الجزائر قد جابوا القارة الإفريقية لضمان نجاح القمة، وصدر باسم الرئيس قبل المُغادرة، وكالعادة، تصريح يقول فيه بأن على الرئيس الحالي لمنظمة الوحدة الإفريقية (الرئيس دانييل أراب موي) أن يضع النقاط على الحروف ويعلن الأسباب الحقيقية التي عرقلت تنفيذ اتفاق نيروبي.

والذي حدث هو أن 19 دولة إفريقية قاطعت اللقاء، كما أسماه فيما بعد الرئيس متفاديا تعبير "القمة"، بعضها احتجاجا على قبول الجمهورية الصحراوية

والبعض الأخر لمآخذ لها على السياسة الليبية، وهكذا أجهضت القمة الإفريقية للمرة الأولى منذ قيامها في أديس أبابا عام 1963.

ولن أستطيع اليوم أن أعبر عن تلك الأيام كما عبرت عنها آنذاك كتابة ونشر في الصحف الثلاث الناطقة بالعربية، كما بثته الإذاعة الأولى وكان بتوقيع "م..عين" وبعنوان "...ولم يحضر موبوتو"، انطلاقا من أن الصف الغائب هو صف ماريشال الزائير، الذي كان جاويشا في العهد البلجيكي، وأقتطف منه ما يلي:

(..) "كنت أتابع نيريري بشعره الأبيض وكلماته التي يختارها بعناية، وكيريكو بعصاه الرمزية وكلماته التي تشبه السهام الإفريقية، وراتسيراكا بحماسه البالغ وحديثه الفياض، والشاذلي بن جديد بهدوئه المعتاد وبتدخلاته المركزة، وكينيث كواندا بمنديله الأبيض ونظراته الفاحصة، وساموروا ماشيل الذي يتحدث بلسانه وبيده وبكل أعضاء جسمه، وهيد الله الذي يتناقض معه تماما في أسلوب التعبير".

(..) "أكثر من عشرين رئيس دولة وحكومة (23 على ما أعتقد) منهم من يقترب عقائديا من اليسار الماركسي ومنهم من تصنفه الصحافة الأجنبية مع أهل اليمين (..) ثلاثون وفدا يُمثلون تجارب متعددة على طريق التحرر الوطني، تجمعهم الروح الوطنية والتمسك بميثاق الوحدة الإفريقية (..) ولم يكن هناك في القاعة الكبرى ما يُسميه الموسيقيون نشازا يُحول اللحن إلى خليط متنافر من الأصوات المزعجة التي يختلط فيها أداء العازف مع صفير مُكبر صوت يوجد مصدره خارج القاعة أو مع صوت شاحنة أمريكية تذرع الطريق ذهابا وإيابا تحت نوافذ القاعة".

"ويحدث الفرز في إفريقيا، وتتضح معالم الخط الفاصل بين الماء والزيت (..و) القادة الذين اجتمعوا في طرابلس هم الذين يُمثلون الوجه الحقيقي للقارة الإفريقية المناضلة، ويُعبرون عن مطامح شعوبها (..) ولم يحاول الثلاثون

الذين التقوا في العاصمة الليبية اتخاذ مواقف متصلبة تحرم الإجماع الإفريقي من أعضاء لهم وزنهم، لم يحضروا إلى طرابلس لضرورات مرحلية اقتضت الحكمة أن تواجه بالتفهم بدلا من التشنج، واقتضى الذكاء السياسي أن يُترك الباب مفتوحا حتى لا يفقد أحد ماء وجهه، واقتضت الموضوعية أن تحطم "جبهة التخلي" من الداخل بدلا من أن تعزز وتدعم نتيجة مواقف متسرعة ولا مسؤولة، وكان هذا من أهم ما حرص عليه الشاذلي بن جديد".

"ولم يكن من المُستغرب أن يكون القاسم المُشترك للأصابع التي عملت لتخريب المؤتمر التاسع عشر دول لمعظمها تطلعات توسعية إقليمية على حساب جوارها، بالإضافة إلى علاقاتها مع كل القوى المُعادية لحركات التحرر الوطني".

وأتساءل عن سبب امتناع 19 دولة عن المُشاركة في لقاء طرابلس، وهل هو استهداف ليبيا حتى لا يتمكن العقيد القذافي من الحديث أمام الأمم المتحدة بصفته رئيس القمة (..) أم هي قضية جمهورية الصحراء الغربية التي قبلت داخل إطار المنظمة طبقا لقوانينها ؟".

وأتصور أن القضية كلها هي أن قوة عُظمى لبست قفازات إفريقية وحاكت المؤامرة (..) التي تبرز ملامحها عندما نتذكر بأن انقلابا عسكريا حاول الإطاحة بالرئيس آراب موي بعد ثلاثة أيام من النداء الذي وجهه للقادة الأفارقة يحثهم على حضور المؤتمر (ولم تشارك كينيا بعد المحاولة في لقاء طرابلس رغم فشل الانقلاب) وأتذكر هنا أن انقلابا آخر أطاح بالرئيس تولبير (ليبيريا) رئيس الدورة السادسة عشرة الذي وصل إلى اليقين، بعد تجربة لجنة الحكماء، بعدالة القضية الصحراوية (..) ويهمس لي صديق بأن دولة إفريقية نددت صحيفة الحزب الحاكم فيها بعدم مشاركتها في لقاء طرابلس تعرضت قبل اللقاء لمشاكل اقتصادية خطيرة تسببت فيها دولة نفطية كبرى حليف لنظام الرباط (..)

ويُعلق صحفي أجنبي صديق قائلا: "للأسف ... لم يتحقق النصاب"، وأسأله وأنا أفتعل دهشة أتصور أنه لم يُخدع بها: "أي نصاب ؟ ، ويجيب: " نصاب القمة الذي يضمن أن تكون الجمهورية الصحراوية عضوا كامل الحقوق... إن جيرانكم يقيمون الأعراس ويهللون لفشل المؤتمر (ولم أقل له، حياء، أن بجانبنا من أقام الأعراس يوم انتقل الرئيس بومدين إلى رحاب الله، فقد كان الصحفي أجنبيا ولم أرد أن ألوث عرضا هو عرضي)".

"وعدت أسأل محدثي: كم هي الأصوات المطلوبة لطرد الجمهورية الصحراوية من المنظمة ؟، ويفهم خلفية الإجابة التي تؤكد أن الجمهورية الصحراوية دخلت ولن تخرج فيجيب بابتسامة ماكرة قائلا : لابد من 34 صوتا أي الثلثين(..) ولم يكن من الصعب أن أؤكد للصحفي الصديق بأن الجزائر ذهبت إلى طرابلس بدون أوهام، وبفهم كامل للوضعية، وبتفهم كامل لمواقف بعض من كانت المُشاركة بالنسبة لهم موقفا يتجاوز، مرحليا، طاقتهم ومقدرتهم على مواجهة الضغوط"، (..) "وعاد يسألني وكأنه يريد البحث عن انتصار بأي وسيلة: هل كان رئيسكم يعرف قبل وصوله إلى طرابلس بأن النصاب لن يكتمل في العاصمة الليبية ؟، وأجبته على الفور بأن الرئيس الشاذلي استعمل، قبل مغادرته الجزائر في تصريح تم بثه قبل وصوله إلى هنا، تعبير لقاء طرابلس ولم يقل قمة طرابلس"[13] (..) وهو قال في تصريحه بأنه يتوجه إلى العاصمة الليبية (..) ليُعبر عن تقديره للقادة الأفارقة الذين استجابوا للنداء والتزموا بقرار القمة السابقة".

....

وأحسست بأن علي أن استكمل حديثي عن القمة (ودائما بمبادرة شخصية وبدون أي استشارة مسبقة) وهكذا كتبت مقالا آخر في 16 أغسطس (بثته

---

13 - واضح هنا أن اختيار الكلمات لم يكن عشوائيا بل يسبقه تفكير ودراسة موقف.

الإذاعة العربية أيضا) كان عنوانه "نلعب وإلا نفسّد"، وهو تعبير يستعمله طفل يريد أن يفرض منطقه في اللعب على رفاق له.

(..) "وشعرت بأن التركيز حول قضية استكمال النصاب القانوني هو عملية خبيثة هدفها الأساسي خلف انتصار زائف لدى البعض يقترب من حكاية "المسيرة الخضراء"، يكون رد فعلها في جانب قوى التحرر إحباطا وشعورا بخيبة الأمل وتصورا لمدي قوة الدول الكبرى المتواطئة في العملية....ببساطة، هناك مؤتمر قمة يجب لكي يُعقد أن يتوفر له نصاب قانوني عدده 34 عضوا، وإذا تخلف عضو (وكانوا ثلاثة في الواقع) فهو الفشل الذريع، وأنا لله وإنا إليه راجعون، وعلى الوحدة الإفريقية السلام ورحمة الله وبركاته، هكذا بكل بساطة، لكن الخبر، كما يُقال، يجيبوه "التوالا"، وقضية النصاب تحولت بفضل الإرادة إلى إجراء شكلي يُحترم ولكنه لا يعني الكثير وحده".

وأعود فأذكر بفقرة من التصريح الذي صدر باسم الرئيس عند مُغادرة العاصمة الجزائرية، وقال فيه : "يبدو أن هناك من يعتقد بأن مواقف الحكمة والتبصر هي تعبير عن ضعف، وهذا خطأ كبير قد يؤدي إلى عواقب خطيرة (..) وقد تكون اليوم هناك بعض الحساسيات بين بعض الدول الأعضاء وبغض النظر عن أسبابها، فإنني على يقين بأن المنظمة ستجتاز المرحلة بنجاح".

وأوصل حديثي قائلا : "ما فهمته شخصيا من كل هذا هو أن الجزائر توجهت إلى العاصمة الليبية وهي تعرف جيدا كل المُعطيات ، وتقدر المسافة بين المطلوب والممكن".

ولعلي أسترجع هنا بعض ما شهدته العاصمة الليبية من نشاط لم أستطع التعرض له في الحديث الماضي، فقد شهد مقر إقامة الرئيس الشاذلي في الدور السادس من الفندق (ولعله المهاري) نشاطا مكثفا أصابنا جميعا بالدوار، وركز الرئيس على اللقاءات الثنائية، واتضح عبرها وعبر بعض اللقاءات الثلاثية نقاط الاتفاق التام (..) ولن أنسى هنا الإشارة إلى أن رئاسة الاجتماعات أسندت

للرئيس جوليوس نيريري (أو المُعلمو، كما يُطلق عليه) والذي توجه إليه الرئيس في مقر إقامته، بعد أن كان قد بذل معه جهدا مُعتبرا لإزالة الفتور الذي شاب علاقته بليبيا بتأثير نظام أوغندا عيدي أمين دادا".

وتمكنت الحكمة الإفريقية من الانتصار فلم يحدث تشنج ضد كل الغائبين، بنفس الأسلوب الذي يُفرق به المرء، كما كتبتُ، "بين من يُفطر رمضان لأنه كان مريضا أو على سفر، وبين من يستوجب إفطاره القضاء والكفارة"، وكان هذا الموقف صفعة لمن لم يتوقعوا أن يستمر اللقاء خمسة أيام بلياليها وكانوا ينتظرون أن ينفض الجمع في الساعات الأولى كما حدث في قمة عربية، قيل فيما بعد أنها رُفعت لتستأنف بعد نحو سنة، ويزعم البعض أن الموقف من طرابلس كان انتقاما لفاس الأولى..

لكن الموقف النضالي الرائع كان انسحاب الجمهورية الصحراوية طوعا من الاجتماعات لترطيب الأمور وهو ما كان له أثر كبير في تشجيع المدافعين عنها ليتحدثوا باسمها وربما بحماس تجاوز حماس أهل القضية أنفسهم، وذلك بعد أن تحدث محمد عبد العزيز برزانة وبرصانة ولم يوجه أي كلمة مسيئة للشعب المغربي (..) وعبر عن دعمه لدول المواجهة مع الكيان العنصري قائلا: لا يمكن أن أعدكم بأكثر من أهديكم الأسلحة التي غنمناها ممن يحاربونا، وكانت الفضيحة الحقيقية في لقاء طرابلس، كما كتبت يومها، في عدم حضور الأمين العام لجامعة الدول العربية أيا من الجلسات، في حين أنه لم يكن بعيدا، ولم يجد الشاذلي القليبي وقتا ليشكر القادة الأفارقة الثلاثين الذين تضامنوا مع الوطن العربي ليقول لهم : بارك الله فيكم، والله لا يبليكم بلوتنا "[14].

14- كان ممن حضروا للقاء إلى جانب الرئيس الشاذلي والعقيد القذافي للرؤساء نيريري (تانزانيا) وكينيث كوندا (زامبيا) وراتسيراكا (مدغشقر) وسامورا ماشيل (موزمبيق) ودوس سانتوس (الكونغو) ومنجستو (إثيوبيا) وموسى طراوري (مالي) ورولينغ (غانا) وهيدا الله (موريطانيا)

(5)

ويعرف فاتح سبتمبر خروج آخر المقاتلين الفلسطينيين من لبنان، ويُطلق شارون تهديداته ضد سوريا، وفي اليوم التالي، أي 6 سبتمبر، يفتتح في مدينة فاس المغربية مؤتمر للقمة العربية كانت مهمته تبني المخطط الذي عرف باسم مخطط الأمير فهد، والذي كنت أشرت له عند حديثي عن لقاء الرئيس مع الأمير في كانكون.

وعرفت هذه القمة باسم قمة فاس الثانية حيث كانت فاس الأولى قد عقدت لمدة ساعات في نوفمبر الماضي وانهارت لنفس السبب الذي اجتمعت من أجله هذه القمة، وأتصور أن المرحلة الزمنية السابقة على عقدها شهدت الكثير من الضغوط والمناورات والتواطؤات، وكان واضحا أن الجزائر لم ترد أن تعلن مباركة واضحة للمخطط المطروح وهكذا تغيب الرئيس عن القمة التي رأس وفد الجزائر فيها الدكتور احمد طالب، وزير الخارجية.

وغابت تماما عن القمة كل من ليبيا، كموقف سياسي، ومصر التي كانت مقاطعة رسميا من قبل الدول العربية منذ قمة بغداد 1978، ومثل تونس السيد محمد مزالي رئيس الحكومة.

وكان من نتائج قمة فاس الثانية أن اعتمد مخطط فهد بنقاطه الثمانية من القمة بعد أيام ثلاثة من الاجتماعات، وتقرر تكوين لجنة تضم ملوك المغرب والسعودية والأردن ورؤساء سوريا والجزائر وتونس للاتصال بالدول دائمة العضوية في مجلس الأمن، بينما رفضت إسرائيل المخطط بوضوح وقالت أنه يستهدف تدمير الدولة العبرية، وانطلق بناء قصر فاخر للأمير "فهد" في المدينة تكريما لها وذلك باقتراح من الملك الحسن الثاني كما قيل.

ويستقبل الرئيس الشاذلي مسؤولي الصحف الوطنية وكبار محرريها ويضعهم في الصورة بالنسبة للأحداث الوطنية والجهوية والدولية ويجيب على أسئلتهم، وكان على يمين الرئيس في المنصة وزير الإعلام بينما كنت على يساره، ويترك للصحفيين كتابة ما يردونه عن اللقاء [15].

ويجري اغتيال الرئيس اللبناني المنتخب بشير جميّل في الرابع عشر ويتلوه على الفور غزو إسرائيلي للعاصمة اللبنانية بيروت، يدينه مجلس الأمن باقتراح أردني، ويعرف الأسبوع الثالث من الشهر مجزرة صبرا وشاتيلا التي راح فيها سبعة آلاف من الفلسطينيين (والإسرائيليون يتحدثون عن ألف وخمسمائة)على يد ميليشيات يمينية متواطئة مع شارون وعساكره، ويستدعي الدكتور طالب إلى وزارة الخارجية سفراء الدول الدائمة العضوية في مجلس الأمن، الذي يعلن إدانته للعملية الوحشية، ثم تعلن الجمعية العامة للأمم المتحدة بأغلبية ساحقة، وباستثناء واشنطن وتل أبيب، إدانتها للعملية وتطالب بتكوين لجنة تحقيق.

وتنفجر سيارة ديبلوماسي إسرائيلي في باريس وهي فرصة لتنظيم مظاهرة حاشدة متضامنة مع إسرائيل تطغى أصواتها على مأساة لبنان، وفي اليوم التالي يحدث تفجير أمام معبد يهودي في بروكسيل، وتبدو أصابع المخابرات الإسرائيلية واضحة لمن يحاول دراسة الأحداث.

ويُعلن الرئيس الشاذلي إلغاء الاحتفالات الرسمية بعيد الأضحى المُبارك مكتفيا بأداء الصلاة، وذلك حدادا على ضحايا صبرا وشاتيلا.

ورُفضت الورقة الجزائرية التي حملها الدكتور طالب إلى تونس والتي طالبت في البند الثاني بالتنديد الواضح بالقوة الرئيسية التي أعطت الضوء

15- كنا نقدّم للرئيس أهم التعليقات في الصحف وكان يتابع عددا من الصحفيين باهتمام وأتذكر أنني يوما سمعت من سعد بو عقبة أن أحد رؤساء البلديات وجه له ما يشبه التهديد، ونقلت الأمر للرئيس الذي قال لي حرفيا : قل لبو عقبة أن يكتب ما يريد طالما أنه يلتزم الصدق والموضوعية، وعليه أن يبلغك إذا ضايقه أحد ولتبلغني بذلك.

الأخضر والدعم المُطلق للكيان الصهيوني، وكذلك البند الخامس الذي يطالب بإخضاع التعامل الاقتصادي العربي مع الدول الأجنبية لموقف هذه الدول من القضية الفلسطينية.

وعدت إلى الكتابة تحت عنوان "عتاب" وهذه المرة بتوقيع صابر أمين، بعد أن عُرف صاحب التوقيع الرمزي السابق، وذلك يوم 29 سبتمبر لأضع واحدا من المسؤولين الفلسطينيين عند حده بعد أن صرح في صحيفة تصدر في لندن بتمويل خليجي يُطالب الرئيس الجزائري بأن يركب طائرته ويتجه إلى دمشق لكي يُطالب الرئيس السوري بأن يقاتل "ونحن معه".

وكان عنصر المزايدة واضحا في التصريح الفلسطيني، ولم يتضح من طلب منه ذلك.

وعدت في منتصف أكتوبر إلى استعمال توقيع م.. دين الرمزي، وكان عنوان السلسلة الجديدة، التي أعطتها قراءة بن يعقوب الرائعة لها في الإذاعة وقعا خاصا وحضورا لدى من فاتهم قراءتها في الشعب أو النصر أو الجمهورية: "بين الصمود والرفض والتواطؤ" وبدأ نشرها يوم 14 أكتوبر[16].

وعدت في هذه السلسلة إلى مرحلة الصمود العربي التي تلت هزيمة يونيو 1967 وأبرزت دور الرئيس هواري بومدين في تلك المرحلة، ورحت أربط بين موقف الجزائر آنذاك وموقفها في 1982، وكانت الخلفية واضحة تماما، لكن أحدا ممن يشعرون بالتناقض مع الستينيات والسبعينيات لم يقدر على الإساءة للعمل الذي أقوم به، ومن المؤكد أن الرئيس تابعه بكل اهتمام، خصوصا وقد ذكّرت بأن "جنود الجزائر كانوا على جبهة القتال منذ اليوم الأول (..) وطائرات الجزائر كانت أيضا على الجبهة".

16- نشرت فيما بعد في الجزء الثالث من "انطباعات" وفي كتاب حمل عنوان "لله وللوطن" (دار الأمة – الجزائر)

وتطرقتُ في الجزء الثاني يوم 18 أكتوبر لمؤتمر الخرطوم الذي عُرف بلاءاته الثلاثة، وتناولت بعض ما عرفته العلاقات بين الجزائر ومصر من توتر نتيجة لاختلاف تجربة البلدين، لكنني قلت أيضا بأن عرب الستينيات لم يكونوا كعرب السبعينيات والثمانينيات، وكانت المواقف المُتصلبة للجزائر ورقة استعملها الرئيس عبد الناصر في تعاملاته السياسية (وهو ما قاله حرفيا للرئيس بومدين الذي سمعته منه شخصيا) وذكّرتُ بما كنت كتبته في مجلة الجيش في فبراير 1968 بأن " القضية فلسطينية أولا عربية ثانيا، وكل مُحاولة تعكس هذا الترتيب سينظر لها كمحاولة لسلب الشعب الفلسطيني حقه في تقرير مصيره" (..) ثم ذكرتُ باستقالة الشقيري الذي خلفه يحيى حمودة (..) وسجلت أنه سيطر على المنطقة شعار إزالة آثار العدوان (..) وتناولتُ وقائع حرب الاستنزاف ثم مبادرة روجرز (..) وأشرت إلى أحداث الأردن، أو ما سُمّي بسبتمبر الأسود، وكانت الخاتمة الحزينة هي وفاة عبد الناصر.

وكتبت في 21 أكتوبر، ودائما تحت نفس العنوان، تذكيرا بكتاب "لعبة الأمم" لمايلز كوبلاند لأقول بكل بساطة أن الهدف الاستراتيجي للولايات المتحدة هو إخضاع المنطقة العربية سياسيا واقتصاديا للإرادة الأمريكية (وهو ما يشير إليه الرئيس بومدين بتعبير : باكسا أميريكانا)

وذكرت في المقال باستقبال الرئيس الراحل للفريق سعد الدين الشاذلي في إطار الاستعداد لحرب أكتوبر 1973، واستعرضت بعض ما كتبه بطل حرب أكتوبر عن اللقاء وقال فيه بأن "الرئيس أنصت للعرض الذي قدمه وعبر عن استعداده للاشتراك بكل جندي وبكل قطعة سلاح يُمكن أن تقدم للمعركة، ولكنه، أي الرئيس، أعرب عن شكوكه بأن هناك نوايا جدية لاستئناف القتال" وقال أنه "اتفق مع الرئيس على أن ترسل الإمدادات والقوات في حدود ثلاثة أشهر من تاريخ طلبها".

ونشرتُ في المقال صورة تقرير سري حمل عنوان مركز الدراسات الإستراتيجية، وكان تقريرا قمت بفبركته (وأوضحت أكثر من مرة أنه مفبرك والغريب أن أحدا لم يصدقني) لأشير إلى أنه كان مطلوبا من الرئيس السادات أن يوقع سلما منفردا مع إسرائيل، وتخيلت كل المواقف التي يمكن أن يتخذها أعداء الوطن العربي، ومن بينها تشجيع السادات على القيام بعمل عسكري محدود لتسخين القضية ولخلق قائد عربي منتصر يستطيع أن يُوقع قرار الصلح مع إسرائيل.

وتواصلت الأحاديث حتى وصلت إلى ثمان مقالات استعرضت فيها المسيرة العربية ومواقف الجزائر، وكنت أعرف أن هناك كثيرون يقرؤون، لكن دوري كمثقف في موقع معين جعلني أتصور أن الأسبقية هي لقارئ واحد هو صاحب القرار، وهكذا حاولت أن أضرب عصفورين بحجر واحد.

وعرفت الجزائر في شهر نوفمبر العديد من الزيارات الرئاسية كان من بينها زيارة رؤساء جزر الرأس الأخضر ومالي وموريطانيا وساوتومي وبرنسيبي وبوتسوانا والكونغو الشعبية وكذلك رئيس الوزراء التشيكي وكلها زيارات كانت تحمل مصالح الرئاسة أعباء كثيرة، وخصوصا في المجال الإعلامي تنظيما ومتابعة وتوجيها للصحفيين [17].

ويُعلن عن وفاة ليونيد بريجنيف في 11 نوفمبر، ويظن البعض أنه مات قبل ذلك، حيث كانت حياته في السنوات الأخيرة أقرب إلى الحياة النباتية (وكان حديثه في بداية العام مع الرئيس الشاذلي صورة تمثل أرذل العمر) ويقول الذين كانوا قرب مكان الدفن أن التابوت انزلق من حامليه فبدا وكأن الزعيم السابق للكرملين قد رُمي به في القبر تخلصا منه.

17- قبل كل زيارة رسمية لرئيس دولة بعدة أيام أعقد اجتماعا برئاسيتي يضم الصحفيين المكلفين بتغطية الزيارة وأضعهم في الصورة بالنسبة لأهدافها وما نتوقعه منها، وتوزع عليهم غالبا ملفات تعدها المديرية مع بعض المصالح المعنية، ويحضر الاجتماع دائما ممثل الإدارة المختصة بوزارة الخارجية، وبعد هذا تعد الشارات بالتعاون مع مصالح الأمن الرئاسي، كما تعد اللافتات وصور الضيف التي تلصق متوالية مع صور الرئيس على أمكنة معدة لذلك في أمدة الإضاءة العمومية أو على لافتات الإشهار

ويذهب الرئيس الشاذلي إلى السفارة السوفيتية ليوقع على سجل التعازي.

ويتولى رئيس المخابرات السوفيتية (KGB) مقاليد الأمور في العاصمة الحمراء ليختفي بعد عامين تاركا وراءه السؤال الذي طرحه محمد حسنين هيكل : "لو أن أندروبوف لم يمُت بهذه السرعة لاستطاع أن يجد وسيلة إلى حوار حقيقي مع ريغان، فكلاهما يُعبّران عن نفس الحقائق الجديدة في بلديهما، ربما" .

وأتذكر هنا ما رواه هيكل في زيارته الجديدة للتاريخ، عمّا يقوله السوفييت نقدا للتعامل العربي مع موسكو :"أنتم تأتون إلى الاتحاد السوفيتي بعد أن تذهبوا إلى الغرب ثم تصلون معه إلى حالة اليأس (..) وتحاولون مخاطبة الغرب من وراء رؤوسنا، كل واحد منكم يبدأ كلامه العلني بالضغط على اختلاف عقائده مع عقائدنا (..) إنكم من عندنا توجهون رسالة اعتذار للغرب عن وجودكم عندنا (..) لماذا تحدث اعتقالات الشيوعيين في العالم العربي بعد زيارات يقوم بها زعماؤه إلى الاتحاد السوفيتي (..) عندما يزورنا زعيم عربي يخطر بباله الاطمئنان إلى أحوال المُسلمين في الاتحاد السوفيتي (..) إنه تدخل في شؤوننا الداخلية (..) إن بعضكم يتصور أنه يستطيع أن يتعامل مع الاتحاد السوفيتي وكأنه تاجر سلاح، وهذا نزول بعلاقتنا عن مستواها المطلوب (..) إنكم تصورون لأنفسكم ولغيركم وكأن السلاح السوفيتي هو المسؤول عن التفوق الإسرائيلي (..) لماذا حارب سلاحنا في الفيتنام وانتصر؟ (..) إن بعض الوحدات العربية ألقت سلاحها أمام الإسرائيليين فحصلوا عليه بدون قتال وحاولوا أن يحلوا أسراره ويستكشفوا قدراته ليستعملوه ضدكم وضدنا أيضا (..) الرئيس السادات أمر بتسليم طائرتين من طراز ميغ 23 للولايات المتحدة، ونفس الشيئ بالنسبة لصواريخ "سام -6"- و"سام 7" وصاروخ "مولتكا" المُضاد للدبابات (..) كنتم تحاولون فهم الغرب وأنتم تتعاملون معه (..) معنا لم يكن الأمر كذلك (..) فنجد أنفسنا ملزمين بالنتائج بدون أن نكون طرفا في المقدمات (..) الاتحاد السوفيتي قدم كل ما قدم للعرب ولكفاحهم ولم يستفد من ثرواتهم،

وكان هناك دائما فيتو عربي على أي استثمار أو توظيف للأموال في الاتحاد السوفيتي (..) أنت قلت (والكلام لأندروبوف عن هيكل) : بعض دول العالم الثالث تصنع معجزة تغيير الطائرات في الجو، فهي تقلع مع الاتحاد السوفيتي وتنزل إلى الأرض مع الولايات المتحدة".

ويقوم الملك فهد بن عبد العزيز بأول زياراته الرسمية للجزائر، ليلتقي الرئيس للمرة الثالثة بعد مكة ثم كانكون، وترتبط تلك الزيارة في ذاكرتي بأمرين لا يمكن أن أنساهما، وأستعرضه هنا لأنه يصوّرُ كيف كانت الأمور تَسيرُ وتُسيّر في الجزائر أنذاك وكيف كانت النظرة لنا.

فقد قمنا، الأخ مولود حمروش والسفير السعودي الفقيه، رحمه الله،وأنا باستعراض تنظيمي لبنود الزيارة، وكان من بينها وضع إكليل من الزهور على مقام الشهيد، حيث أن المذهب السعودي الرسمي يمنع القيام بأي إجراء احتفالي في المقابر، لكن السفير رفض تماما قبول هذا البند، وكان واضحا أنه تلقى تعليمات محددة بالنسبة للأمر، ولأننا كنت نعرف أن بعض التيارات الإسلامية أخذت تطلق على مقام الشهيد اسم "هبل"، إله الجاهلية المعروف، فقد أدركنا خلفية الرفض، ولم نصر عليها [18].

أما الأمر الثاني فكاد يكون أكثر خطورة، فقد كان من بين عناصر إعداد أي زيارة رسمية وضع صور للرئيس أو الملك الزائر وأخرى للرئيس الجزائري في الأماكن المعدة لذلك على جانبي الشارع الذي يخترقه الموكب الرسمي، بجانب الأعلام ولافتات الترحيب التي كنت أتولى إعدادها بنفسي غالبا.

18- سيلاحظ القارئ هنا بعض التناقض فقد كنت من غير المتعاطفين منذ البداية مع هذا النصب التذكاري، من جهة لأنني أعرف خلفية إقامته ومن جهة أخرى لأن المسؤول عن المشروع رفض فكرة الدعوة إلى تبرعات جماهيرية للمساهمة في بنائه، لكنني وقد تم البناء وأصبح واحدا من معالم الدولة التزمت بكل ما يتطلبه قبول الأمر والتعامل معه بل والحماس له كما حدث في المناقشات مع السفير السعودي، وأتصور أن هذا هو منطق الدولة الذي يجب أن يحترمه كل من يرى نفسه من رجال الدولة، حيث يختفي الرأي الفردي أمام القرار الجماعي.

وكلفتُ من يتصل بالسفارة السعودية للحصول على الصورة الرسمية للضيف وإرسالها فورا، وكسبا للوقت، إلى الأخ صلاح الدين بمطبعة الرئاسة.

وكالعادة، وفي حدود الواحدة بعد منتصف الليل يوم وصول الضيف الكبير، ركبت سيارتي مع سائقي على زرقوق، شفاه الله، من مطار هواري بومدين، لتفقد الطريق الذي سيسلكه الموكب الرسمي للملك الضيف، وفوجئت في الأمتار الأولى بأمر بدا لي كارثيا، إذ بينما كانت صورة الرئيس الشاذلي هي الصورة رقم (2) التي خصصتها للأماكن العامة، وكانت صورة نصفية بدون علم ويبدو فيها الوجه على اتساع الصورة، كانت صورة الضيف (التي لم أكن رأيتها قبل اليوم) تصوره جالسا، ويبدو فيها نحو ثلاثة أرباع الجسم (أو ما يُسمى باللقطة الأمريكية Plan américain) ونظرا لأن مساحة ورق الملصقات كانت موحدة فقد بدا حجم وجه الملك صغيرا مقارنة بالرئيس.

وبمجرد عودتي إلى منزلي فجرا رحت أحاول إصلاح الأمر فاتصلت هاتفيا بكل المعنيين بهذه القضية وخاصة صلاح الدين، وطلبت استخراج صورة نصفية للملك الزائر من الأرشيف تطبع منها الملصقات التي توضع في الأماكن المُعينة قبل وصول الضيف (الذي كان متوقعا بعد ظهر نفس اليوم) بدلا من الصورة القديمة، وقال لي صلاح الدين بأن هذا مستحيل لأن حبر الطباعة يحتاج وقتا لكي يجف، واستعملتُ كل وسائل الضغط لكي انتزع الوعد بتعليق الصور الجديدة بعد الظهر، مع إعطاء الأسبقية للمسافة الواقعة بين رئاسة الجمهورية وقصر الشعب ومكان إقامة الضيف.

ويصل الضيف ويستقبله الرئيس طبقا للبروتوكول المعروف، ثم يرافقه إلى مقر إقامته ويعود إلى رئاسة الجمهورية لينتظر مجيئه فيما كان يُسمى بالزيارة البروتوكولية.

ويصل فهد ويستقبله الشاذلي ثم يخترقان معا جموع المصورين الصحفيين إلى حيث مكتب الرئيس (وكنا أحيانا نكثر من عدد المصورين لإعطاء الضيف

شعورا بالاهتمام الزائد بشخصه) وسمعت الزائر يقول لمضيفه ضاحكا : "هؤلاء المصورين مزعجون، أنهم يتكاثرون ويتدافعون لالتقاط الصور، ثم لا ينشرون إلا أسوأها"، وابتسم الرئيس ونظر لي متسائلا ولكنني لم أتمكن من إجابته إلا بعد خروج الضيف، وكان صلاح الدين قد تأخر قليلا في الوفاء بوعده فلم يتمكن من تعليق الصور الجديدة قبل مغادرة الضيف الكبير لمقر إقامته، ولكنه قام بتعليقها بين مقر الرئاسة وقصر الشعب حسب الاتفاق خلال فترة استقبالنا للملك ومرافقيه، وأبلغتُ بذلك بعد خروج الضيف فوضعت الرئيس في الصورة، وأذكر أنه سألني مرتين عن مسؤولية السفارة بالنسبة للصورة الأولى، وأكدت له أنها الصورة الرسمية للملك والتي بعثت بها السفارة، وكان مرتاحا للتأكيد.

وهكذا وجد الملك عند خروجه صورة جديدة له معلقة على الأعمدة، تقدم وجهه في نفس حجم وجه الرئيس، وفهمت من السفير أنه كان مبهورا بسرعة الإنجاز، فقد ظن، على ما يبدو، أن تغيير الصورة تم بناء على ما قاله للرئيس منذ نحو ساعة، وكان المهم أن الجزائر أحسنت استقبال الضيف وأعطته أحسن الصور عن أداء أجهزتها.

ويصل ياسر عرفات إلى الجزائر وتعقد قمة ثلاثية كان من المؤكد أن الزعيم الفلسطيني حاول استثمار وزن الرئيس الجزائري لدى الملك فهد ليستعرض مطالبه من المملكة.

وكان المهم في البلاغ الجزائري السعودي المُشترك المناداة بإيجاد حل لقضية الصحراء الغربية على أساس قرارات نيروبي.

وقبل أن نلتقط أنفاسنا من الزيارة كان على الرئيس أن يتوجه إلى العاصمة الليبية لإجراء محاولة جديدة لعقد القمة الإفريقية التاسعة عشر، وتقرر تأجيل القمة للمرة الثانية.

وعاد الهاجس السنوي وهو خطاب الرئيس للأمة، والذي تقرر أن يكون في شهر نوفمبر، وكان الأسلوب الذي تم التعامل به في إعداد الخطاب هو نفس أسلوب العام الماضي العام الماضي، وبعد اختصارات كثيرة طلبها الرئيس، ولم تتم استشارة أحد في الخطاب بأي حال من الأحوال.

ولقد كانت مشكلة الخطب الرسمية العثور على أفكار متألقة تخرج به عن الروتين العادي وتسجل نقاطا بارزة تكون مجالا للحوار وللتعليقات، وهكذا بدأ الخطاب بتسجيل النتائج الباهتة للقاء "كانكون"، وبإدانة النظام الاقتصادي الدولي الذي أدى إلى وضعيات من التدهور وارتفاع نسبة البطالة حتى في العالم المتقدم، مع خفض لقيمة العملة الوطنية في أكثر من بلد.

وجرى استعراض عدد من الإنجازات خاصة في مجال السكن ثم ركز على الأهمية التي تكتسيها المدرسة الأساسية التي "يجب أن تأخذ مقوماتها من التسمية نفسها" وبالنسبة للتكوين الجامعي طلب أن "يتم توزيع الطلاب على التخصصات الجامعية المختلفة طبقا لتخطيط علمي سليم (..) حتى لا تصاب بلادنا بما أصيبت به بعض البلدان من بطالة في أوساط المتخرجين من تخصص معين".

واستعرض الرئيس تجربة البناء الجاهز في منطقة الشلف (وإن كان هناك من قال بعد ذلك أنها كانت مصدرا لثراء كثيرين، وهو ما لم أتمكن من التأكد منه لأنه كان أمامي ما هو أهم).

وأعترف الرئيس بأن التنظيمات الجديدة في مجال الزراعة لم تعط بعد النتائج المرجوة (ولا أتصور أن أي تنظيمات ستعطي أي نتائج لأن منطق رشوة الفلاح كان هو المنطق السائد بدلا من التعامل مع الأمر تعامل سلطة تؤمن بالأخذ والعطاء) وهو ما دفع الرئيس يومها إلى طرح السؤال الواضح : أين تكمن نقطة الضعف وكيف يُمكن إعادة الاعتبار للفلاحة؟ (وواضح أنني كنت لا أجرؤ على الخلط بين أفكاري وما يقوله الرئيس ولهذا اكتفيت بطرح السؤال).

وذكر الرئيس بارتفاع حجم المبلغ المخصص لدعم أسعار المواد الأساسية وهو 400 مليار سنتيم (وقد أخذ الرقم من وزارة التخطيط) لكن الرئيس يقول بوضوح أن "القضية ليست قضية استثمارات أو مشكل إمكانيات ولكنها قضية التحكم في التسيير وضمان أحسن استعمال ممكن للإمكانيات المادية وللطاقات البشرية"(..) والمطلوب هو أن يخضع تسيير المؤسسات الاشتراكية أكثر فأكثر لمقاييس الفعالية الاقتصادية.

ثم يتطرق الرئيس إلى قضية العمل فيذكر بما قاله في العام الماضي من أن "توفير وظائف العمل هو هدف اقتصادي يندرج في إطار تنمية البلاد لصالح كل المواطنين ولا يُمكن بأي حال من الأحوال أن يكون صدقة مُقنعة أو ستارا زائفا للبطالة (..) ذلك أنه من غير الممكن أن ينخفض معدل الإنتاج في وحدة معينة بما يجعل منها عالة على ميزانية الدولة في الوقت الذي يرتفع فيه عدد العمال وبالتالي حجم الأجور والمرتبات".(..) إن التضخم الذي تعاني منه معظم البلدان النامية وضعية أو استيرادا هو حلقة مفرغة لا يُمكن الخروج منها إلا إذا ارتفع مستوى العرض عن مستوى الطلب انطلاقا من زيادة الإنتاج الوطني نفسه وتحسين نوعيته وتسويقه وليس عبر الاستيراد بكل أخطاره على القرار السياسي وعلى الاقتصاد الوطني (وواضح هنا أن الأفكار الاقتصادية العميقة تمت صياغتها بأسلوب شعبي يتناسب مع الجميع، ويرسم الخط السليم للاتجاه الاقتصادي، لكن المعنيين، في تصوري، كانوا يُفكرون في أشياء أخرى، إذ كانت الطبقة الطفيلية الجديدة تسعى بكل نهم إلى افتكاك مقاليد الأمور الحقيقية من الشخصيات السياسية التي سيطلب منها، بكل هدوء، أن تكتفي بواجهة الأحداث، ومن هنا كان يجب أن يختفي من الساحة السياسية كل من يجرؤون على وضع كل البدائل أمام صانع القرار الذي أثبت أنه قادر على اختيار أحسنها وأقدرها على تلبية الاحتياجات).

ويتناول الرئيس قضية القطاع الخاص فيرسم تصوره لدوره ويقول بأن : "الشيئ الذي يبعث على الأسف هو أن هناك في هذا القطاع اتجاه نحو تحقيق

الربح السريع وعلى حساب نوعية المواد المنتجة أو الخدمات المقدمة للجمهور، وهناك من يُساهم في خلق التوتر الاجتماعي عبر عمليات المُضاربة وممارسة الاستغلال في مجال بيع المواد الغذائية".

ويتوقف الرئيس بالطبع عند قضايا الحزب والمنظمات الجماهيرية وهو ما لا أرى ضرورة لتكراره هنا، ثم يتناول الجانب الدولي قائلا بأن "عام 1982 تميز بهجمة امبريالية شرسة لستهدفت إخضاع العالم كله لإستراتيجية الهيمنة السياسية والتبعية الاقتصادية والسيطرة المالية".

واستعرض الرئيس زياراته لكل من يوغوسلافيا والهند والصين الشعبية، كما أشار إلى نشاط الجزائر على الساحة الإفريقية، مجددا تضامن الجزائر مع كفاح الشعب الصحراوي،وقال بأن "المشرق العربي في حاجة اليوم أكثر من أي وقت مضى لعمقه الاستراتيجي في المغرب العربي"، ونكر بالأحداث الدامية التي عرفتها لبنان والتي كانت دليلا جديدا على الطبيعة التوسعية للكيان الصهيوني.

وأكد الرئيس أن شغلنا الشاغل يبقى العمل من أجل السلام، خصوصا في "البحر الأبيض المتوسط الذي كان عبر التاريخ "قارة سياسية وجسرا حضاريا متميزا".

واختتم الرئيس خطابه قائلا بأننا أنجزنا الكثير " ولكننا لم ننجز بما فيه الكفاية" (..) ولقد قلت في العام الأسبق أنه "من غير المقبول أن نعيش، سياسيا، عالة على شهداء حربنا التحريرية، ونعيش، اقتصاديا، عالة على ثروة زائلة هي رصيدنا من البترول والغاز، وأقول اليوم بأن علينا أن نحارب التلوث البترولي الذي يصيب الفكر والسلوك، ويجعل من النفط مرادفا للتواكل والسلبية والاعتماد المُطلق على الدولة".

وأترك التعليقات للقارئ.

ويفتتح الرئيس غداة الاحتفال بأول نوفمبر اللقاء الوطني حول التنمية، ويتابع الأشغال ثم يقول في الاختتام : "نسمع اليوم من يُعطي للدين الحنيف مفاهيم تتناقض مع نصوصه وتعاليمه وتجعل منه سداً يحول بين مجتمعنا والتقدم (..) إن هناك من يدعو إلى شل المجتمع بحرمان المرأة من العمل، ولست أدري هنا أهو رأي المرأة المجاهدة التي حاربت بجانب الرجال (..) وهناك من يُزايدون بحجة أنهم وحدهم تقدميون، وكأن الرجال الذين عرفوا محنة البلاد أثناء الاستعمار وخلال الكفاح التحريري (..) في حاجة إلى دروس في التقدمية (..) ولكن شعبنا الذي انتزع حريته واستقلاله بأغلى الأثمان لن يتردد في الدفاع عنها"

ويتضح في كلام الرئيس هنا مدى تمسكه بالوسطية التي ترفض التطرف يمينا أو يسارا، وفي الوقت نفسه يحمل الشعب مسؤوليته في عدم الانجراف وراء دعوات التضليل مهما كان مصدرها.

وتعرف الجزائر زيارة الرئيس البرتغالي الجنرال دوس سانتوس (وأنا أعدد الزيارات هنا لأعطي صورة عن الأعباء التي تحملها الجميع ابتداء من رئيس الجمهورية بكل التزاماته إلى أبسط رجال الشرطة أو الدرك وأصغر رجال البروتوكول أو الإعلام، وأذكر أيضا أن كثيرا من هذه الزيارات كانت تتجه إلى قصر الشعب كإقامة رسمية للدولة في وقت لم تكن الطرق الكبيرة قد فتحت ولم تكن إقامة الميثاق ثم قصر الثقافة ثم إقامة زيرالدا قد استكمل إعدادها للضيوف.

وهو ما يفرض هنا تحية لشعبنا البسيط الذي تحمل الكثير خلال هذه الزيارات ولكنه تقبل ذلك معتزا بأهمية بلاده وبنشاط قيادته.

(6)

تقرر أن تكون الرحلة الرسمية الأوروبية الأولى لرئيس الجمهورية الجزائرية إلى بلجيكا، تتلوها زيارة عمل تستغرق يومين إلى فرنسا[19].

ولقد كان اختيار بلجيكا كأول بلد يزوره الرئيس الجزائري ضربة معلم حقيقية أتصور أن الفضل الأول فيها يعود إلى الرئيس نفسه، ولم أسمع أحدا يدّعي أنه اقترح ذلك، وأثار الأمر حماسي رغم أنني أعرف الماضي الاستعماري القذر لبلجيكا ولكنه على كل حال لم يكن أكثر سوءا من الماضي الاستعماري الفرنسي، وكنت سمعت أن إيطاليا اختيرت أولا ولا أعرف صحة ذلك أو خلفياته، لكن الاستعمار الإيطالي لم يكن أقل بشاعة، وتدخلت الرواسب القديمة والمعطيات الوطنية لكي تؤخر الزيارة الفرنسية، ولم أسمع من الجانب الفرنسي تأففا من ذلك، فقد كان همهم أن تتم الزيارة بأي وجه كان، وهو ما أعطانا فرصة أن "نبيع غالي" كما سيأتي.

وبدأنا في إعداد الزيارة في نهايات نوفمبر، وتم تكوين لجنة في وزارة الخارجية لإعداد الخطب الرسمية ومشاريع الردود الصحفية، بينما تولت

19- الزيارة الرسمية لرئيس دولة تستغرق ثلاثة أيام على الأقل ويصدر عنها بلاغ رسمي في عاصمتي البلدين يتفق على نصه وتوقيت إذاعته، وتحاط طائرة الضيف عند دخولها إلى البلد المضيف بتشكيلة من الطائرات الحربية ويستقبل الضيف في المطار من قبل الرئيس أو الملك المضيف رفقة أغلبية أعضاء الحكومة وكبار ضباط القوات المسلحة والسلك الديبلوماسي المعترف به من البلد الزائر، وتقدم له ولمضيفه باقة ورود، ويعزف للزائر نشيده الوطني ثم نشيد البلد المضيف، ثم يستعرض حرس شرف يختلف تكوينه باختلاف البلدان (وهناك من ينظم استعراضا عسكريا للرئيس الضيف) كما يرفع علمه الوطني على طول الطريق الرسمي التي يسير فيها موكبه وترفع صوره في أماكن معدة لذلك، وترافقه طيلة وجوده في البلد لجنة شرفية مكونة من مسؤول سام وعدد من مرافقيه، ثم يضع باقة من الزهور على ضريح الجندي المجهول أو يقوم بما يرمز لذلك ويلقى خطبة رسمية في عشاء رسمي أو يتوجه بخطاب إلى المجلس النيابي أو يقوم بالأمرين معا ، ويمكن أن يزور إحدى المقاطعات أو الولايات وذلك قصرا باستعمال وسائل النقل المحلية سواء طائرات أو سيارات، وقد يرافقه الرئيس المضيف كبادرة تكريم إضافية، ويمكن أن يستقبل مواطنيه القاطنين في البلد المضيف وتجرى مباحثات يصدر عنها بيان رسمي أو بيان صحفي ويُمكن أن تعقد اتفاقيات يوقعها الوزراء المعنيون بحضور الرئيسين، ويدلي كل من الرئيسين أو الزائر وحده بكلمات للصحافة عن الزيارة. ويُودع الزائر بمثل ما استقبل به.

مديرية الإعلام، وعلى أساس وثائق سياحية تسلمناها، إعداد كلمات مناسبة للبلديات التي سوف يزورها الرئيس أو للسجلات الشرفية التي سيوقع عليها هو والسيدة حرمه، التي تقرر أن ترافقه في الزيارة.

وعشية الزيارة وطبقا للاتفاق السابق نشرت صحيفة "لو سوار" البلجيكية حديثا للرئيس، أعدت محاورة اللجنة المكلفة بذلك من إطارات الخارجية وربما تحت إشراف الدكتور طالب، قال فيه على وجه الخصوص بأن " الجزائر عبرت عن إرادتها في ألا يكون النظام الاقتصادي الجديد شعارا أجوف" (..) جوهر مشكلة الشرق الأوسط هي القضية الفلسطينية (..) الإسلام عامل تقدم وعدالة اجتماعية (..) وأحسن وسيلة لمكافحة التعصب تشجيع الشبيبة على إدراك أحسن لقيمنا وإعادة الاعتبار للأخلاقيات التي أسسها حضارتنا العربية الإسلامية".

واستقبلنا في المطار من قبل الملكة بودوان والملكة فابيولا ورأيت هناك كيف يكون الاستقبال الملكي، ولاحظت أن جل البلجيكيين الذين يحيطون بنا كانوا ممن عملوا في الجزائر كدبلوماسيين،

وكان أول ما لاحظته الصورة التي بدت عليها السيدة حرم الرئيس وكانت صورة مُشرفة راقية، فبدت وقورة الجمال وكان لباسها الأوروبي أنيقا وماكياجها منضبطا بدون أي تجاوز، وكان تسير بجانب الرئيس وأحيانا متأخرة عنه ببعض الخطوات، وكان هذا مصدرا لاعتزازي.

وكانت مصافحتها للملكة فابيولا مصافحة رصينة لقرينة واحد من أهم رؤساء الوطن العربي والعالم الثالث، تدرك أنها تمثل تاريخا عريقا وشعبا مكافحا ودورا سياسيا يُحسب له ألف حساب، وذكرتني بمصافحتها لملكة بريطانيا في الجزائر والتي لم يكن فيها أي شعور بالنقص، وأراه أمرا مشرفا للرئيس وحرمه، ودخلنا إلى القصر الملكي تحيط بنا كوكبة من الفرسان، وكان الرئيس يبدو واثقا من نفسه متمكنا من تصرفاته كلها، وكان هذا أيضا مصدر اعتزاز بالمجاهد الجزائري الذي يزور ملكية عريقة فيبدو كأنه وُلد فيها.

ولأن بلجيكا تعمل بلغتين فقد تقرر أن يلقي الرئيس خطابه، أو على الأصح جانبا منه، بالعربية، وبنفس الأسلوب الذي مارسناه في إفريقيا، ثم يكمل إدريس جزائري الخطاب بالفرنسية في المنطقة الوالونية وبالإنغليزية في المنطقة الفلامانكية، وهو ما سجله البلجيكيون بكل اهتمام.



تلاوة نص وثيقة تذكارية (جزائري)



حرم الرئيس توقع على السجل التذكاري للبلدية

وقامت مصالح التشريفات الجزائرية بدورها بشكل ممتاز فلم تكن بأي حال من الأحول أقل من نظيرتها البلجيكية، وكان تعامل الرئيس وحرمه مع أعضاء الوفد دافئا وودودا.

وأعطينا للسجلات التذكارية اهتماما كبيرا فكان لسكندر يسبقنا إلى الموقع الذي سيزوره الرئيس حاملا النص الذي يتسلمه مني ثم يقوم بكتابته بخط جميل يوقعه الرئيس وحرمه، وفي أماكن معينة يقوم أحد أعضاء الوفد بقراءة ترجمة الكلمات، ومن هنا تأتي ضرورة حسن اختيارها.

وأكدت كلماتُ السجل التذكاري في بلدية بروكسيل إيمان الجزائر بالسلام وبالتعاون من أجل التنمية، وكذلك في بلدية نامور، أما في مدينة بروج فقد اهتزت قلوب الحاضرين من الفلامان وهم يسمعون الرئيس يكرر حكمة شعبية تقول : "إذا كانت الحياة بدون شاعرية هي حياة بدون طعم، فإن العالم كان سيفقد الكثير من طعمه إذا لم تكن هناك "بروج"، التي ترتبط بتاريخها الألفي مع مدينة الجزائر".

ولعلي أتذكر هنا أمورا جعلت من الرحلة بالنسبة لي حدثا لا يُنسى، أولاها عند توقيع السيدة حرم الرئيس على واحد من السجلات الذهبية، فقد نظرت لي وسألتني بمنتهى الرقة والرصانة : أين تريدني أن أوقع ؟ وأشرت لها بالطبع إلى المكان، وكنت في الواقع أتابع خطواتها لأطمئن إلى أنها لا تعاني من أي حرج كان، وأسجل بأنها كانت في مستوى بالغ الرقة وقوة الشخصية.

وكان الأمر الثاني هو التحية الحارة التي تلقيتها من الملك بودوان وهو يودعني عند المغادرة ويصافحني بمودة ملكية أدهشتني ويقول : شكرا على كل ما بذلته لإنجاح الزيارة.

ولم أعرف هل قال له مساعدوه شيئا يتعلق بهذا الأمر أم أنها كلمات روتينية يقولها الملك لكل زائر، وهو على كل حال مشكور، فلم أتلق طوال حياتي من مسؤول جزائري سام واحد كلمة: "يعطيك الصحة" إثر جهد مؤكد بذلته لإنجاح عمل معين أو تظاهرة هامة، ويعلم الله كم بذلت من جهود.

وتأكدت من صدق عبارة قرأتها في أحد الكتب، التي تتحدث عن المدينة، والتي تقول ما معناه "بأنه إذا كانت الحياة بدون شاعرية، هي حياة" بدون طعم، فإن العالم يفقد الكثير من خصبه إذا لم تكن هناك بروج [illegible]

خطاب بروج

إن هذه المدينة الجميلة، التي تفتخر مع أكثر من مدينة جزائرية، في العمق التاريخي الذي يتجاوز الألف سنة، تجسد في وقت واحد عراقة التاريخ، وقمة الإبداع الفني والثقافي، كما تجسد الجهود المبذولة لتبقى المدينة دائما كنزا حضاريا حيا تزداد قيمته التاريخية والجمالية يوما بعد يوم.

Translation

اشكركم على الفرصة.



توقيع السيدة حرم الرئيس على سجل تذكاري

وتبقى في زيارة بلجيكا قضية لا بد أن أشير لها، فقد حدث في لقائنا، مولود حمروش وأنا، بمسؤول التشريفات البلجيكي المكلف بإعداد مأدبة العشاء الرسمي التي سيقيمها الملك والملكة على شرف الرئيس وحرمه أن طرح المسؤول البلجيكي وهو في غاية الحرج سؤالا عن الوضعية تجاه سفيري المغرب ومصر (وكانت علاقاتنا مقطوعة مع البلدين) وقال الأخ مولود لسبب لم أفهمه أن الرد على هذا السؤال سياسي وأحال المهمة إليّ فقلت ببساطة وبدون أن أعود لأحد بأن مصر والمغرب بلدان شقيقان وسيسعد الرئيس أن يستقبل ممثلي البلدين، ولم يعترض مولود على ما قلته، وأعتقد أن موقفنا قوبل بارتياح كبير من الطرف البلجيكي ومن الدبلوماسيين المصري والمغربي.

وفي اليوم السابع عشر من ديسمبر اتجهنا إلى فرنسا في زيارة أسميناها زيارة عمل وأسمتها مراجع فرنسية "توقف" (Escale) ولم تصحب حرم رئيس الجمهورية زوجها رسميا.

وكانت المناقشات التي تمت حول عناصر الزيارة بين الطرفين الجزائري والفرنسي في منتهى الصعوبة، إذ كان لا بد من الاستجابة لإرادة الرئيس الشاذلي بالنسبة لبروتوكول الزيارة، وشارك في عملية الحوار بين العاصمتين مع الطرف الفرنسي، في حدود ما أعرفه، أحمد طالب وزير الخارجية ومولود حمروش مدير التشريفات، وفهمنا أن الطرف الفرنسي يعمل بتوجيه مباشر من فرانسوا متران، لأن النتائج ما كان ليُتخذ فيها قرار بغير إذنه ناهيك عن علمه، وتمسك مولود حمروش بأهم الجوانب البروتوكولية على اعتبار أن هذه ليست زيارة عمل عادية.

وهكذا، وللمرة الأولى في تاريخ العلاقات الجزائرية الفرنسية، عُزف السلام الوطني أمام القاعة الشرفية لمطار العاصمة الفرنسية "أورلي"، وكان

الرئيس الفرنسي في استقبال نظيره الجزائري، وكانت لفتة رائعة من الجانب المضيف لأن العنصرين هما جزء من الزيارات الرسمية [20].



كلمة الرئيس الشاذلي للصحافة على باب الإليزيه



نتائج الزيارة الرسمية على الوجوه في بلدية باريس

[20]- لكي يتأكد الفرنسيون من أن الجزائر دولة لا تنسى عُزف النشيد الوطني الفرنسي في زيارة العمل التي أداها الرئيس نيكولا ساركوزي إلى الجزائر في يوليو 2007 وكان الرئيس الجزائري في استقباله على أرض المطار.

والتقى الرئيسان على انفراد نحو نصف ساعة وتقرر أن تتم الزيارة الرسمية لفرنسا في الخريف القادم، ثم اجتمع الوفدان على ما سُمّي غداء عمل.

وكالعادة، أعد مشروع كلمات يُصرح بها الرئيس عند خروجه من الإليزيه، وكنت أتابعه وأكاد أكون ملتصقا به عند خروجه فلاحظت أنه نزل الدرجات بسرعة ورحت أرجوه همسا بأن يصعد ثلاث درجات ليكون في مستوى محاوريه وأمام الميكروفون، وقام بذلك ببساطة صاعدا بظهره، وكان تصريحه هادئا ورصينا وذكيا، وتولى إدريس جزائري ترجمته كالعادة، ووقف وزير الخارجية بعيدا يدردش مع سفيره في انتظار انتهاء الرئيس من تصريحه القصير.

وقال الرئيس : "هناك من يتحدث عن غيوم في العلاقات بين البلدين، وأنا أقول بأنه قد يوجد هناك بعض الضباب، ولكن الإرادة السياسية لتجاوز العقبات متوفرة.

وقد تعمدت أن يُقال في التغطية بأن إجابات الرئيس كانت تترجم فوريا إلى الفرنسية، أي أنها ألقيت بالعربية

ونعود إلى الجزائر لنستكمل العام وأفاجأ بأمر ثبت فيما بعد أنه بداية النهاية لعملي بجانب الرئيس، فقد ألفت في كل المؤتمرات والزيارات الدولية لرئيس الجمهورية أن أعد، لدى العودة، فيلما وثائقيا يضم أهم عناصر الزيارة ونشاطاتها، ويعرض الفيلم في التلفزة ثم يُحفظ في الوثائق ليستثمر كليا أو جزئيا فيما بعد، وهكذا قمت بإعداد فيلم وثائقي عن زيارة كل من بلجيكا وفرنسا كانت أقوى لحظاته عزفُ "قسما" في المطار الفرنسي وتصريح الرئيس بالعربية عند خروجه من "الإيليزيه"، وبالطبع فقد كانت هناك وقفات مناسبة عند زيارة بلجيكا سواء في مدخل القصر الملكي أو في زيارة البلدية أو زيارة مناطق خارج بروكسيل مثل بروج.

وعرض فيلم زيارة بلجيكا وفرنسا في الجزائر وأتصور أنه كان جيدا، وسُعد به الجميع.

وبعد أيام يطلب مقابلتي رائد اسمه "واضح" قيل لي أنه المرافق العسكري لحرم رئيس الجمهورية، وكان الرائد مُحرجا وهو يتحدث معي وينقل لي أن السيدة غير مرتاحة للصورة التي ظهرت عليها في الفيلم الوثائقي، وبأن كثيرات قالوا لها بأنها لم تظهر بما فيه الكفاية، وبالطبع فإن المسؤول عن هذا هو الدكتور عميمور.

وقلت للمبعوث بمنتهى الصراحة أنني أتخيل مصدر التعليقات وقد ألفتها من كل من رافقوا رئيس الجمهورية، لكنني أحب للسيدة أن تفهم بأن الفيلم الوثائقي، ومدته لا يجب أن تتجاوز 50 دقيقة، هو فيلم رئيس الجمهورية والتركيز أساسا يتم على نشاطه هو، وفيما يتعلق بالسيدة فقد قدمتها على الصورة التي ارتضيها لموقعها السامي، كزوج كريمة لزعيم عربي، وقول البعض بأنها لم تظهر بما فيه الكفاية هو مدح وليسا ذما، فالسيئ في هذه المناسبات أن يقال أنهم رأوها أكثر مما يجب، والذكاء يكمن في أن تظل السيدة "عزيزة" ولا تحرقها كاميرا التلفزة.

قلت له هذا بكل إخلاص وموضوعية لأن أحدا لا يتفهم أن تكون تصرفات السيدة تقليدا لتصرفات وسيلة بو رقيبة أو جيهان السادات، وكنت عشت تجربة مريرة في مرحلة سابقة أكد فيها الرئيس الراحل مفهومه لدور حرمه، ولم يبد أن الرائد مستعد لا للاقتناع ولا للمناقشة، كعادة كل مكلف بمهمة، ولهذا ختمت الحوار معه بالقول أن وضعية الجزائر تختلف عن وضعية مصر أو تونس، ولكل بلد أسلوبه، وأنا أتحمل مسؤولياتي أمام الرجل الذي وضع ثقته في شخصي، وأرجو من السيدة الفاضلة أن تثق بي.

وخرج واضح وعلى وجهه غضب واضح.

ولم أعرف ماذا نقل الرائدُ للسيدة لكنني بدأت أحس بأن هناك تيارا لا يتردد في نقد تصرفاتي، وأن أصهار الرئيس بدءوا يتخذون مني مواقف فاترة،

وعرفت فيما بعد أن الرئيس كانت تنقل إليه أشياء لا أعرف عنها شيئا، والتقى العداء داخل الرئاسة مع العداء خارج الرئاسة.

وكان الخطأ الأكبر الذي ارتكبته هنا هو أنني لم أبلغ الرئيس تفاصيل ما حدث، ولكن المؤكد أنه كان هناك كثيرون يهمهم تسميم الجو بيني وبين حرم رئيس الجمهورية، وهكذا، وشيئا فشيئا، يتكامل ما يسمعه خارج المنزل مع ما يسمعه داخل المنزل، وفي غياب دفاع يعرض وجهة النظر الأخرى.

وبدأت قطرات الماء تثقب الرخام.

وينتهي العام بالدورة الثامنة للجنة المركزية

صفحة بيضاء

الفصل السابع
تغيير واضح واستمرارية صورية

(1)

سيتغير أسلوب ومحتوى الفصلين التاليين حيث سأستبعد استعراض النشاطات الروتينية المتكررة وسوف أكتفي بالتوقف عند الأحداث أو المواقف أو التصرفات التي أرى لها دورا في مسيرتي بجانب الرئيس وفي تصرفات الرئيس نفسها وتطورها والاتجاه الذي يأخذه ذلك التطور.

وعرف عام 1983 نشاطات مكثفة خصوصا في الزيارات الداخلية أو في مجال العلاقات الدولية بدأت تتقلص تدريجيا عندما اقترب العام من نهايته التي اختتمت بحركة تصفيات واسعة في اللجنة المركزية للحزب، ومع مرور الأشهر بدأت أشعر بأن هذا العام سيشكل نقلة بالغة الأهمية في المسيرة التي كانت قد بدأت في 1965، وتواصلت في 1979، وكان هذا مبنيا على رصد تحركات بدأت تبرز في الشهور الماضية، على استحياء في البداية، كان من بينها، بالنسبة للمشاريع الكُبرى، التوقف عن بناء مركب تمييع الغاز الثالث وتخصيص الأموال التي كانت مرصودة لإنجازه لبناء مرافق اجتماعية وثقافية من بينها مقام الشهيد، الذي حل محل مقبرة الشهداء بالعالية في الاحتفالات الرسمية، ولم يبق من التذكير بالرئيس بو مدين إلا التجمع الذي يلتف حول ضريحه في السابع والعشرين من ديسمبر.

وكان من بينها تواصل عملية تفتيت كبرى للمؤسسات الوطنية، قيل بداية أنها لتسهيل التحكم في المؤسسة ولتخفيف العبء على الإدارة ولتنشيط

اللامركزية، وهو ما لا أستطيع أن أبدي فيه برأي لعدم تخصصي لكني قد أخذ من تفتيت الإذاعة والتلفزة مقياسا نسبيا للأمور.

كانت المؤسسة قد أقيمت على بقايا الإذاعة والتلفزة الفرنسية ابتداء من أكتوبر 1962، وتم تطويرها من محطة رئيسية ومحطتين جهويتين في قسنطينة ووهران.

وكان على رأس المؤسسة مدير عام واحد (كان أول مدير عام هو عيسى مسعودي وكان آخر مدير عام هو الأزهري شريط رحمهما الله) وكان للإذاعة بالطبع مدير عام وكذلك للتلفزة، كما كان هناك مدير تقني ومدير إداري، ولكل مجموعةٌ عملِه من المساعدين والسائقين والتقنيين الذين يتبعون جميعا الإدارة العامة للمؤسسة تماما مثل الموسيقيين والصحفيين والمخرجين والممثلين وغيرهم، وكانت الشكوى العامة التي يتناقلها الجميع هي تزايد حجم التشغيل (Pléthore du personnel) بدون مردود حقيقي على الإنتاج، الذي كان، للأمانة صورة نشطة لإعلام صاعد يُغطي عجز المؤسسات السياسية ويمثل نقطة التقاء وجداني لكل المواطنين.

وبإعادة الهيكلة قسمت المؤسسة إلى أربع مؤسسات اختصت الأولى بالتلفزة والثانية بالإذاعة والثالثة للإنتاج التلفزي والرابعة لشبكات البث، وأصبح لكل مؤسسة جديدة مدير عام ومعه عدد من المدراء والسكرتارية والمساعدين، وقسّمت حظيرة السيارات وتعدد بالتالي المسؤولون عنها ثم قسّم الصحفيون والموسيقيون والممثلون والتقنيون ووزعوا على المديريات الجديدة[1].

1- كان المدير العام السابق للإذاعة والتلفزة يريد إقامة قناة ثانية للبث ووضع الرئيس في الصورة بالنسبة لكل المُعطيات، ونوقش الأمر في اجتماع عام للصحفيين في مقر الرئاسة ترأسه الرئيس، وطرحت على المدير سؤالا محددا عن نسبة البرامج المُستوردة مقارنة بالإنتاج المحلي فقال أن النسبة هي 65 في المائة، وقال له الرئيس : إذن في حالة إقامة قناة ثانية ستكون نسبة ما نستورده هو 165 في المائة.
وكان واضحا أن المطلوب كان زيادة الإنتاج أولا وهذا يفرض وحده تعدد القنوات، وبالطبع فإن قناة ثانية في الوضعية الحالية سيكون معناها أساسا زيادة البرامج المقدمة بالفرنسية.

وحقيقي أن التلفزة والإذاعة حققتا طفرة هامة من ناحية الحجم وتعميم البث في بلد كأنه قارة، لكن هذا ارتبط بتكاثر الموظفين الذين أضيفت إليهم في السنوات الأخيرة أعداد من الموظفين المعينين لمجرد التعيين والمسؤولين عن الأمن، ومعظمهم لم يتلق تدريبات علمية وعملية حديثة في هذا المجال، بحيث بدا الأمر كمجرد حل لأزمة البطالة.

ولعلي أتصور أن معظم الشركات عانت من نفس الأمر، وإذا كانت القلعة البترولية "السوناتراك" قد أفلتت من التفتيت الكامل بعد تكوين ابنتها "نفطال" واحتفظت بوجودها الدولي، تماما كشركة الخطوط الجوية الجزائرية بعد تجربة فاشلة لتقسيمها إلى خطوط داخلية وأخرى خارجية، لكن عملية التفتيت أصابت أكبر المؤسسات الصناعية حيث ضاعت "السوناكوم" وحلّت "الأوناكو" وذابت شركات كبرى بحجة تشكيل شركات أقل حجما، وكل هذا أعطى الفرصة لبعض المسؤولين لكي يستفيدوا من المباني والمساكن والفيلات التي كانت تتبع بقايا الشركات الأجنبية، وقام بعضهم بتحويل أمواله إلى الخارج ليستقر هناك (والأسماء معروفة) وانتهى مركب الحجار إلى يد هندية بعد أن كان فخر الصناعة الجزائرية الثقيلة [2].

2- يقول عبد السلام بلعيد وزير الطاقة الأسبق ورئيس الحكومة في عهد علي كافي في حديث نشرته صحيفة الشروق العربي تباعا أن: تلك "المرحلة عرفت تواصل فتح الاقتصاد الوطني للخواص والتنازل لهم عن أملاك الدولة (التي كانت موجهة أساسا للمواطنين في إطار حل أزمة السكن) ثم استيلاء الخواص تدريجيا على الأنشطة التجارية الرئيسية خصوصا عند التعامل مع الخارج" وللتوضيح البسيط هنا فإن السكر مثلا كانت تستورده مؤسسة "أوناكو" التابعة للدولة، وتحقق أرباحا مهما ارتفعت فقد ظلت الأسعار في متناول المواطن البسيط ولكن فتح باب الاستيراد على مصراعيه بدون رقابة حقيقية خلق احتكارات ضخمة يديرها الخواص (ومنهم بالطبع مسؤولون سامون سابقون في مواقع معينة يتعاونون مع مسئولين سامين حاليين في نفس المواقع) وتزايدت أرباح المستوردين، ثم لجأ بعضهم إلى ممارسة الاحتكار بالنسبة لمادة مُعينة ليترك المجال لآخر كي يحتكر مادة أخرى، والتهبت الأسعار وتم التخلص من إمكانيات المنافسة الحرة الشريفة، وهكذا كان الباب يُفتح تدريجيا أمام طبقة رأسمالية طفيلية جديدة ستكون، كما حذر الرئيس بو مدين قبل وفاته، أسوأ من الكولون السابقين وأكثر جشعا وأقل رحمة، وهو ما جعل كثيرين منهم أقرب إلى الارتباط بالمؤسسات الخارجية على حساب المصالح الوطنية.

وبدأت أحس تدريجيا بمحاولات متزايدة لحصاري وإبعادي شيئا فشيئا عن الاتصال المُباشر بالرئيس، وأتصور أن هذه كانت أيضا وضعية الزميل المتميز والدبلوماسي القدير الأخضر الإبراهيمي الذي كانت مهمته كسفير للجزائر في المملكة المُتحدة قد أنهيت وعُين مستشارا في الرئاسة، وكنت ممن أكدوا للرئيس كفاءته وقدرته انطلاقا مما عرفته عنه، وكان هذا بمجرد أن سمعت عن نية إنهاء مهمته.

وقالت ألسنة السوء بأن وزير الخارجية الجديد لن يهدأ له بال قبل أن يتخلص من كلينا، وقيل أيضا أن ذلك كان برعاية مؤكدة من الأمين العام للرئاسة، وسوف يُقترح على الرئيس استبدال منصب المُكلف بمهمة بمنصب المستشار، وروى البعض أنه قيل للرئيس بأنه "ليس محتاجا لمستشارين يتفلسفون عليه ولكن إلى رجال ميدان (Des hommes d'action) مهمتهم تنفيذ المهام التي توكل إليهم"، وكان هذا جزءا من مخطط تفريغ الساحة حول الرئيس وحرمانه من إمكانية التعرف على البدائل المحتملة عند اتخاذ القرارات، ويقال أن الأخ عبد الحميد إبراهيمي الوزير الأول كان صاحب الفكرة، أو الذي نقلها إلى الرئيس عن صاحبها أو أصحابها، وينسبها البعض للدكتور أحمد طالب، والمهم أنها بقيت سنوات لقيطا لا يتبناه أحد، إلى أن حدث التراجع عنها بكثافة ملحوظة في السنوات الأخيرة.

ولا أملك معلومات متكاملة عن تفاصيل العلاقات بين الدكتور أحمد طالب والأخ الأخضر الإبراهيمي، لكنني أعرف مثلا بأن الأخضر من رواد الدبلوماسية الجزائرية وكان من أحسن السفراء الذين عرفتهم مصر خصوصا في عهد الرئيس عبد الناصر، كما عرفته آسيا قبل استرجاع الاستقلال وبريطانيا في نهاية السبعينيات دبلوماسيا قديرا، وكان معروفا بصداقته المتينة مع وزير الخارجية الجزائرية الراحل محمد الصديق بن يحيى، الذي لم تكن له صلات مودة معروفة مع أحمد طالب، وإلى درجة أن بعض الموسوسين زعموا أن وزارة الخارجية في عهده عرقلت تسمية الميدان المواجه للوزارة باسم بن

يحيى إثر استشهاده، وهو ما لم يتأكد، كما تقول قناة الجزيرة، من مصدر مُحايد.

وكانت الأقوال قد ترددت عن أن بن يحيى أعد مشروعا جديدا لتنظيم وزارة الخارجية لإعطائها مقدرة أكبر على القيام بدورها الدولي، لا أعرف شيئا تفصيليا عنه بعد أن قبر بالطبع في المرحلة الجديدة، لكنني أذكر هنا بأن كثيرين من المنتمين لمدرسة التكوين الفرنسي عرفوا بدفاعهم عن بعضهم البعض وتقديم كل منهم الآخر كفارس الزمان والعصر والأوان، ولقد أثبتُ، عبر روايات كثيرة عشت بعضها، أنه إذا كان بعض هؤلاء وطنيين مخلصين يتمتعون بمقادير متباينة من الكفاءة والخبرة والفعالية فإن كثيرين كانوا طبولا جوفاء قيمتها الحقيقية انتماؤها لمدرسة عاشت سنوات متتالية حالة رعب خبيث التوجيه من زحف المدرسة العربية، وكان تألقها في الستينيات والسبعينيات منبثقا من أمرين أولهما أن صاحب القرار كان يريد أن ينطلق في عملية البناء بأسرع وقت ممكن وعلى أوسع نطاق ممكن، وخيل له أن الذين يملكون ناصية الفرنسية يملكون معها ناصية العلوم الحديثة والمتطورة، أما الثاني فهو الصورة التي كان عليها أبناء الثقافة العربية والتي جمعت بين العجز عن العمل الجماعي نتيجة للتناقضات الشخصية والطموحات الفردية وفي الوقت نفسه نتيجة لحرمانها من فرص التكوين المناسب والمطلوب، وكان كثيرون من المحسوبين على الفكر العربي أشد إساءة لرفاقهم من معظم المُفرنَسين (بفتح النون لا بكسرها) الذين كانت من بينهم مجموعة كبيرة متفتحة إلى حد ما على الصف المعرب، وخصوصا في مجال التربية والتعليم.

ويزداد البرود بين الأخضر وكاتب السطور من جهة ووزير الخارجية من جهة أخرى، إذ نشر الصحفي الكبير قصي صالح الدرويش في مجلة "الحوادث" مقالا عن النشاطات الجزائرية وكان مما قاله أن المستشارين يلعبون دورا هاما بجانب الرئيس خصوصا في المجال الدبلوماسي.

ولم يكن في الرئاسة من مستشارين غير الأخضر وأنا، بعد أن أرسل مولود قاسم لرئاسة المجلس الأعلى للغة الوطنية، حيث لم يتمكن من تحقيق الكثير بعد أن اختفى مصدر الضوء الحقيقي في حياته العامة وهو الرئيس بو مدين، وبعدما عجز عن التصرف كرائد من رواد الثقافة العربية الإسلامية في بداية الثمانينيات، وهكذا ركز جهده على كتابات ومحاضرات كانت لها فائدة كبيرة على المستوى الفردي لكنها لم تحقق ما تمكنت من تحقيقه ملتقيات الفكر الإسلامي التي كان الرئيس الراحل يحرص على إقامتها بشكل منتظم، ولم يستطع أن يخلق تيارا ثقافيا حقيقيا يفرض نفسه سياسيا.

والمهم أن تلك العبارات الصحفية العادية التي كتبها قصي، وكما نقل لنا، لاقت غضب وزير الخارجية، وصب الزيت على ناره عدد من المُساعدين، خصوصا من عملوا معه في وزارة التربية ثم الإعلام، وهذا الأمر يرتبط بي بشكل خاص.

وكنت عرفت الدكتور طالب في القاهرة عندما قام بزيارة والده المغفور له الشيخ البشير الإبراهيمي هناك قادما من باريس حيث كان يُتابع دراسته الطبية، وتعرف طالب بأفراد بعثة جمعية العلماء هناك، ولكن التطور السريع للأحداث وتكون جبهة التحرير الوطني وموقف الشيخ منها ومن ممثلها أحمد بن بله، وتضامن عدد هام من الطلاب مع الرئيس الأسبق والتفافهم حوله ثم انضمامهم جميعا لجيش التحرير الوطني بعد ذلك كل هذا ترك في نفس الطبيب الشاب آثارا سلبية ستزداد حدة فيما بعد، حيث قيل أن الدكتور ظل يعتقد بأن موقف الطلبة لم يكن كما كان يجب أن يكون تجاه والده.

وتوفي الشيخ البشير في منتصف السبعينيات بالعاصمة الجزائرية بعد أن تعرض لغضب الرئيس بن بله الذي حدد إقامته[3]، واحتضن العقيد هواري

3- كنت أشرت إلى قصة النداء الذي أصدره الشيخ البشير في أواخر أيامه وجلب عليه غضب بن بله، أو أحيا الغضب الذي كان كامنا منذ مرحلة القاهرة، ورويت ما يردده البعض من أن وراء البلاغ تقف ثلاث شخصيات من رجال الجمعية يقال الكثير عن الارتباطات العقائدية والمالية لاثنين منهما بجهات معينة، وأولهما مقرب من بلد خليجي كبير وهو الوحيد

بومدين ابن الشيخ وعينه، إثر تغيير يونيو 1965، وزيرا للتربية والتعليم واستمر فيها إلى مطلع السبعينيات حيث عين وزيرا للثقافة والإعلام، والتي بقي فيها إلى 1977 حيث عين وزيرا مستشارا بالرئاسة.

وكان طالب مثقفا متميزا يمسك بناصية العربية والفرنسية، وله حضور واضح على الساحة الثقافية في الجزائر وخارجها، لكن يبدو أن تعييني مستشارا للرئيس لشؤون الإعلام انتزع بعض صلاحياته إن لم يكن الكثير منها، وتوسعت أنا في تنظيم مديرية الإعلام برئاسة الجمهورية إلى أن أصبحت أسيطر على التعامل الإعلامي لكل نشاطات رئيس الجمهورية الداخلية والخارجية، وكان هذا أحيانا يؤدي إلى احتكاك مصدره مستصغرّ لشررٍ ينحصر أحيانا في اختيار قوائم الصحفيين المشاركين في النشاطات الرئاسية والذي كان لي رأيي في اختيارهم بعيدا عن أي ضغط من أي مكان.

وتكفل بعض المساعدين في الوزارة، كما قلت، بصب الزيت على النار، وبعضهم لأنه كان يأمل في السفر مع الوفود الإعلامية الرئاسية، والبعض الآخر لأنه كان يريد تملق الوزير أو لأنه يُمثل اتجاها فكريا أتناقض معه، ولكنني لم أكن أجد سببا مقنعا لإرضاء هذا أو ذاك على حساب نوعية العمل، ولذا كنت أرفض، مثلا، أسماء ترشحها الوزارة وأنا على ثقة أحيانا من أن اقتراحهم جاء غالبا من الحاشية ولكن باسم الوزير، وكنت أقول إن السلطة لا تقتسم.

واستجاب الوزير للأسف لعمليات تسميم الأجواء وبدا شبه أسير لمجموعة محدودة من المريدين (وهو الوصف المُناسب، وكان بعض هؤلاء وراء أكثر

الذي تلقى وسام "جوقة الشرف" (Légion d'Honneur) من الرئيس فرنسوا متران والثاني كان من كبار ملاك الأراضي في المغرب، وكان واحدا من أربعة وقعوا البيان المندد بسياسة بو مدين في 1976.

أما الثالث فقد بقي في الجزائر طوال مرحلة الثورة ولم يتعرض لأي أذى ولم ينل وزارة الأوقاف كما كان يرجو، ونقل عنه رفضه لاعتبار من ضحوا بأنفسهم خلال الثورة شهداء لأنهم، كما نقل عنه، لم يموتوا في سبيل الله، وكتب في المغرب كتابا ضد النظام، ويقال أن ثلاثتهم كانوا من خصوم الشهيد الشيخ العربي التبسي رحمه الله.

من خسارة مُنيَ بها فيما بعد، وعندها تخلوا عنه بعد أن استفادوا منه إلى أقصى الحدود الممكنة)

لكنني أشهد أن الوزير ظل دائما متزن التصرفات عفيف التعامل عف اللسان، بدون أن يمنعه هذا من فرض حصار كامل على كل نشاطاتي التي أصبحت تتطلب التعامل مع وزارة الخارجية.

وكان يجب أن آخذ بعين الاعتبار الثقة التي منحها الرئيس للوزير الجديد، وأتخيل ما يُمكن أن يقوله له، خصوصا وأنا أزعم أنه لم يعد يحتفظ للرئيس بو مدين بنفس الحب القديم منذ عين الرئيس الراحل كلا من مصطفى لشرف ورضا مالك وبن يحي وعبد السلام بلعيد وبو تفليقة في لجنة إعداد الميثاق الوطني في منتصف السبعينيات، واستبعد الوزير الذي كان يرى نفسه أحق من كثيرين بحكم فكره وثقافته، وقال كثيرون أن مما أقلقه كان وجود بن يحيى على وجه التحديد في اللجنة، ثم بعد أن فقد وزارة الإعلام والثقافة لصالح رضا مالك في التغيير الأخير الذي أجراه الرئيس بو مدين.

وأدرك الرئيس الراحل الأمر فعيّن الوزير مع محمد الشريف مساعدية لمتابعة اللقاءات الشعبية التي تولت مناقشة الميثاق، ولكنني لا أتصور أن هذا لطف من مشاعره.

وهكذا تجمعت لدي وزير الخارجية كل مبررات التنافر "المستتر" مظهرا والبارز تأثيرا مع كثيرين ممن ارتبطوا بالرئيس الراحل ومن بينهم شخصي المتواضع، وأضيف إلى عملية استبعادي من النشاطات الرئاسية، التي كنت أتصور أنني جزء منها لأنني كنت في السابق جزءا منها، وكان في مقدمتها عدم تعييني في اللجنة الوطنية لإعداد المؤتمر الخامس، ولم يُعين معي رسميا كل من مدير التشريفات ومدير الأمن (بحجة أن ثلاثتنا مشغولون بنشاطات الرئيس اليومية) ولكنهما ظلا على تواصل عضوي متين مع الأمين العام للرئاسة من جهة ومع مسؤول الأمانة الدائمة للجنة المركزية من جهة أخرى.

وكنت عرفتُ أن الرئيس نُصح بألا يُجهد نفسه في الاستقبالات أو اللقاءات التي توصف بالروتينية، ويمكن أن يُكلف بها احد كبار المساعدين، على أن يترك له التعامل فقط مع القضايا الكبرى ذات الطبيعة المتميزة (تم هذا مع الرئيس السادات الذي أصبح يقول أنه لا يتعامل إلا مع القضايا الإستراتيجية) وتم الحفاظ على الموعد الأسبوعي لاجتماع مجلس الوزراء مع ضغط الملفات واختصار التقارير، أما الباقي فقد ترك للرئيس حرية الاستفادة بيومه كما يريد (وهو ما سيأخذ صورة واضحة في السنوات التالية) وحدث أكثر من مرة أن المكتب السياسي للجنة المركزية لم يجتمع في مواعيده المُحددة، وألغي الخط الهاتفي المُباشر بين الرئيس والعديد من الوزراء وكل المستشارين، وأصبح كل هاتف يصب آليا في البدالة الهاتفية (Standard) ليُستأذن من يجب أن يُستأذن (!!) في توصيل المكالمة، وسيصبح الاتصال بالرئيس أكثر صعوبة، سواء لأنه لن يتردد كثيرا على مكتبه أو لأن هناك من سيقول لك برقة واحترام بأن الرئيس مشغول في استقبال أو في اجتماع.

وعرفت بداية العام إنجازا متميزا يُحسب دبلوماسيا لصالح الدكتور أحمد طالب، والذي سيتزايد نشاطه الدبلوماسي، وكان الإنجاز هو توقيع اتفاقية معالم الحدود المُشتركة مع النيجر.

وتستقبل الجزائر رئيس وزراء زمبابوي روبرت موغابي ثم رئيس اليمن الجنوبية علي ناصر محمد وبينهما تستقبل وزير خارجية النمسا، وهكذا نجد أن أكثر من نصف رؤساء العالم زاروا الجزائر بين عام 1980 وعام 1983، بالإضافة إلى أن عددا كبيرا من المسؤولين الجزائريين وعلى رأسهم رئيس المجلس الوطني الشعبي ومسؤول الأمانة الدائمة للجنة المركزية والوزير الأول ووزير الخارجية وعدد من الوزراء توجهوا إلى معظم بلدان العالم مبعوثين شخصيين للرئيس، الذي كان يستقبلهم قبل الذهاب وبعد العودة.

وستبذل جهود كثيرة لإقناع الرئيس بتخفيف نشاطاته ولكنه لن يُمارس ذلك إلا في الأعوام التالية، وأعيدت تهيئة جناح الصيد (Le pavillon de chasse) في

"زيرالدا" ليتحول إلى شبه قصر منيف، واقترِحتْ على الرئيس سياراتٌ من أحدث طراز (وكان هو من عشاق قيادة السيارات) وقيل أيضا أنه خصص له يخت فاخر، وهو ما سمعته يوما من أحد بحارة سيدي فرج كان يُعرب عن دهشته من رؤيته الرئيس على متن "فوجة بابور".

وكان الرئيس في السنوات الماضية يستقبل بشكل منتظم مبعوثيه إلى نظرائه في الدول الأجنبية عند المغادرة ولدى العودة، ولكن هذا بدأ يتغير تدريجيا، وعرفت به مصادفة يوم نشرت خبرا جاءني من الديوان عن استقبال الرئيس لمسؤول سام وعرفت في اليوم التالي أن المسؤول لم يُستقبل في ذلك اليوم، وعندما طرحت الأمر على مدير التشريفات أخذه بكل بساطة قائلا : إذا لم يُستقبل الوزير اليوم فسوف يُستقبل غدا، وقلت له بمرارة : "... وقد يأتي يوم لن يستقبل فيه مبعوث خاص على الإطلاق إلا على أعمدة الصحف، وهذا خطر على هيبة الدولة وعلى إحساس الرئيس نفسه بجدية العمل"

وعرف شهر يناير 1983 جانبا من الأثر الإيجابي لعلاقة الجزائر الجديدة مع الرئيس فرانسوا متران، وكان ذلك في البرلمان المغربي الذي استقبل الرئيس الفرنسي في إطار زيارته الرسمية للمملكة، وألقى متران خطابا ركز فيه على ضرورة تمتع الشعب الصحراوي بحقه في تقرير مصيره.

ويترك الدكتور محمد أمير مجلس المُحاسبة ليتولى رئاسته الأخ مسعودي زيتوني رحمهما الله، ويفهم كثيرون أن مقصلة التصفية السياسية ستبدأ عملها بشكل نشط في أقرب الأوقات، وربط الناس بين هذا وبين بداية نشر الصحف معلومات عن القضية التي عرفت بقضية رشيد زقار[4].

4- مجاهد معروف من منطقة العلمة، عرفته الحدود الجزائرية المغربية وأنشأ في المغرب أول مصانع للأسلحة الجزائرية، وفضل بعد استرجاع الاستقلال التخلي عن رتبة رائد في الجيش ليتجه نحو الأعمال الخاصة التي حقق فيها نجاحا كبيرا، واستطاع في مرحلة معينة أن يكون صلة الوصل بين عدد من كبار الأمريكيين والرئيس الجزائري، وهو ما سهل فيما بعد توقيع اتفاق "الباسو" المشهور لتصدير الغاز الجزائري المميع، والذي ضمنه البنك المشهور "إكسيم بانك"، وكان رشيد زقار أو رشيد كازا كما كان يُسمّى نسبة إلى مدينة كازابلانكا

ويُنصب العربي بلخير رئيس المجلس الذي يُلقي كلمة ذات دلالة قال فيها بأنه يتسلم مهامه تحت الوصاية السامية لرئيس الجمهورية الأمين العام للحزب، وهو تحذير واضح .

ويروي لي هنا أحد المقربين من الأخ الطيبي العربي رحمه الله أن رئيس مجلس المحاسبة استقبله في إطار الاتهامات المُوجهة له ورحب به ثم قال بلهجة المُعتذر وهو يُشير بأصبعه إلى صورة رئيس الجمهورية : "أنت عارف الأمور ياسي العربي"[5].

وتعرف الجزائر حدثا هاما قمنا، الأخ مولود حمروش وأنا، بتنظيم ما يتعلق بالجانب الجزائري منه، وكان الحدث هو انعقاد الدورة السادسة عشرة للمجلس الوطني الفلسطيني، وكان كثيرون من بينهم الفلسطينيون يريدون أن

المغربية، من الأصدقاء المقربين للرئيس بو مدين الذي كان يكلفه بعمليات خاصة، ومن بينها رعاية مسؤولين جزائريين سابقين وحاليين في الغربة، وكان من الشخصيات التي قالت كلمة الخير في كاتب هذه السطور عندما كان الرئيس يفكر في استدعائي للعمل في الرئاسة، ثم اختلت صداقتنا عندما أحسست بأنه يتوقع مني في موقعي ما هو أكثر من الصداقة، ووصل الأمر إلى العداء في قضية "ماسكينو"، وهي قضية معروفة ولا أريد أن أستعرضها، والذي قيل له أنني وراء تسريبها للصحف الأجنبية وهو عكس ما حدث على طول الخط.
وبعد وفاة الرئيس بو مدين حوصر في نشاطه ثم وجهت له اتهامات وصلت إلى مستوى الخيانة العظمى، وقيل أن للمخابرات الفرنسية وراء الأمر، ورأيت أن هذا كثير فذهبت إلى الأمين للمجلس الأعلى للأمن لأطلب مراجعة اتهام ظالم كهذا ولكنه قال لي بكل أخوة : الموضوع كبير فابتعد عنه، وطلبت للشهادة في المحكمة العسكرية بالبليدة بعد تصفيتي من الرئاسة وشهدت لصالحه، وكان أول ما فعله عندما أفرج عنه قبوله لدعوة عشاء في منزلي وهو يقول : الآن فقط عرفت من هم الرجال الحقيقيون، ومات بعد سنوات، رحمه الله.
5- مجاهد من الغرب الجزائري عمل في الجيش الفرنسي (40-1945) ويقول من كتبوا تاريخ حياته أنه كان في الوقت نفسه عضوا في حزب الشعب ثم في المنظمة الخاصة، قبل أن يلتحق بجيش التحرير في الولاية الخامسة، وأصبح عضوا في المجلس الوطني للثورة الجزائرية ووقف إلى جانب العقيد بو مدين في صراعه مع الحكومة المؤقتة، وتولى بعد استرجاع الاستقلال سفارات كوبا والبرازيل كما عمل مديرا للأمن الوطني، وأصبح بعد يونيو 1965 عضوا في مجلس الثورة ليعين، بعد سنوات في اللجنة التنفيذية للحزب، وزير للزراعة، وخرج من المؤتمر الرابع بعضوية لمكتب السياسي ولكن ذلك لم يستمر طويلا، وهو رجل فاضل على المستوى الشخصي وإن كان البعض يرون فيه إحياء لوضعية "الباش أغا" قبل الثورة، ويتهمه كثيرون بأنه من أسباب تدهور الزراعة وما يرتبط بها في الجزائر، ورعايته لرؤساء المؤسسات التي أنشأتها الثورة الزراعية فأسيئ استخدامها ومنها الأوفلا (مؤسسة تسويق الفواكه والخضر) وغيرها.

يجلس الرئيس على المنصة الرسمية، لكننا أصررنا على أن يجلس الرئيس في القاعة مع المدعوين، وهو ما كان له أثر بالغ على الجميع، وخصوصا على المدعوين العرب وعلى الفلسطينيين بوجه خاص، وخصصت الصحف العربية لهذه اللفتة فقرات كثيرة.

ورحنا بعد ذلك نستعد لمشاركة الجزائر في لقاء حركة عدم الانحياز في نيودلهي، وأدلى الرئيس بحديث لوكالة الأنباء الهندية تم التعامل معه بالشكل المألوف، ثم أدلى بحديث آخر لوكالة "تانيونغ" اليوغسلافية، ذكر فيه بأن "دول عدم الانحياز تشكل أغلبية سكان المعمورة، وأكد أن عدم الانحياز ليس عملا ظرفيا وأن الحركة هي تجسيد لضمير الإنسانية".

وكان من أهم ما قاله أن "مهمتنا، في وضعية المواجهة بين الدول العظمى، هو العمل للحيلولة دون تفاقم الأخطار وتردي الأوضاع وتزايد العنف، أما في وضعية الوفاق فإن دور حركتنا هو السهر على أن تعم فوائد الوفاق العالم كله ولا تقتصر على مناطق معينة".

ويتوجه الرئيس إلى نيودلهي في السادس من مارس.

(2)

شيئا فشيئا أصبحت مجموعة العمل الجديدة المحيطة بالرئيس أقرب ما تكون إلى شلة (Clan) متماسكة لا ينفذ منها شيئ يُذكر (Hermétique) وهكذا فوجئنا، ولعلي أقصد الأخضر الإبراهيمي معي، بلقاء الرئيس الشاذلي مع الملك الحسن الثاني على الحدود المغربية الجزائرية يوم 26 فبراير، والذي لم أكن أعرف عنه شيئا باستثناء جملة سمعتها عرضا من الرئيس قبل اللقاء، الذي لم أكن أعرف موعده أو جدول أعماله. ولن أتوقف كثيرا عند نتائج هذا اللقاء الذي كان الأول من نوعه منذ مصافحة مكة التي سبق أن أشرت لها، ورُوي الكثير عن قصور التنظيم وهزال النتائج لدرجة أن الموسوعة العالمية، في استعراضها لأحداث العام، لم تخصص للقاء تاريخي كهذا أكثر من ستة أسطر ونصف.

وبدت بصمات وزير الخارجية والأمين العام واضحة على العملية[6]، وكان علي أن أفهم أن هذه بداية النهاية لعملي في الرئاسة، وبقي أن أكون مستعدا لذلك نفسيا، وإن كان هذا لم يُغيّر شيئا في أسلوب عملي وطبيعة نشاطي.

وأجد في مذكراتي ليوم 17 مارس السطور التالية :

اجتمع الرئيس بالوفد الذي سيرافقه في زيارته الرسمية إلى تونس (وكانت الزيارة الرسمية السابقة هي تلك التي قام بها الرئيس بو مدين في 1972) وكانت الملاحظة الأولى تضخمُ عدد الوفد الذي وضع فيه اسم بوعلام بسايح قبل عبد الحميد إبراهيمي، رغم أن الأخير يسبقه في الالتحاق بالوزارة، وكان ترتيب كليهما في القائمة قبل عبد الحميد مهري وهو رئيس لجنة حزبية وكان وزيرا في الحكومة المؤقتة ثم وزيرا للإعلام في أول حكومات الشاذلي، وكانت القائمة متوجة باسم المديرية العامة للتشريفات، وبعد كلمة افتتاحية قصيرة أعطى الرئيس الكلمة لأحمد طالب (الذي أتصور أنه كان وراء الاجتماع تجسيدا لبصماته على العمل الخارجي، وهي سابقة ممتازة) وقال طالب بأننا:

– "نذهب إلى تونس بعد فترة فتور في العلاقات، وأسلوب التعامل سيكون متدرجا فلا ننتقل من درجة الصفر إلى درجة مائة، ونقاط الخلاف الرئيسية هي ثلاث، الحدود والسواح والصحراء".

– " بالنسبة للحدود، الاتفاقية مع الباهي الأدغم تركت كثيرا من النقاط الغامضة، وهذه الزيارة ستمكن من توقيع نص مرفق بخرائط وتفاصيل لا

---

6 – أذكّر هنا بما سبق أن قلته من أن الدكتور طالب هو الذي أعد خطاب الرئيس بالفرنسية ردًا على خطاب الملك الحسن في نيروبي وقال فيه، تعليقا على اقتراح العاهل المغربي إجراء استفتاء تأكيدي، بأنها خطوة إلى الأمام، وكنت قلت بأنني كنت أرى أن طالب يسعى إلى أن يكون الرجل الذي جاء إلى منطقة المغرب العربي بحل لأعوص قضاياها وأكثرها تعقيدا، وهو، للأمانة، أمر مشروع.

تسمح بأي تأويلات، وهناك وفد جزائري في عين المكان يتابع كل التفاصيل، ويضم عبد القادر بن قاسي[7].

- بالنسبة للسوّاح، كان قرارنا بمنع الجزائريين من التوجه إلى تونس حكيما حيث لم يكن التوانسة يعتقدون بأننا قادرون على اتخاذ قرار كهذا، وفرضنا عليهم بالتالي التفكير جيدا في الموضوع.

- أما بالنسبة للصحراء، فهذه نقطة أساسية في سياستنا، حيث لا يمكن أن يقوم تعاون إذا لم يتم حل هذا المشكل.

- اللقاء بين الرئيس والملك الحسن لم يحل المشكل (وهو ما أكد ظنوني عن لقاء الحدود) والرئيس قدم للملك اقتراحا بحل القضية في إطار فكرة المغرب الكبير وعرض عليه فكرة عمل شيئ خماسي يضم الجزائر وتونس وموريطانيا والمغرب والصحراء (يُلاحظ أن ذِكر ليبيا لم يرد)

- إننا أشركنا تونس في العملية، وهذا بالنسبة لها هدية سياسية نتغاضى بها عن مواقفها السابقة، وهدفنا هو تحقيق المغرب العربي، ومن واجب تونس الآن أن تضغط على المغرب.

- اقتراح متران (لقاء الدول غرب المتوسط) نتحفظ عليه وكان يُمكن أن نقبله في السبعينيات، لأن القضية الرئيسية بالنسبة لنا هي تنشيط الحوار شمال جنوب، ثم إن خمسة من المشاركين مرتبطين بالحلف الأطلسي، ونحن لا نقبل تقسيم البحر الأبيض إلى شرق وغرب لأن هذا يعزلنا عن حلفائنا الطبيعيين (العالم العربي وقبرص..) ومعنى هذا أننا نستبعد قضية فلسطين.

7 – لم أعرف السبب في غياب إسماعيل حمداني عن الوفد وهو الذي يعرف ملف العلاقات الجزائرية التونسية بكل تفاصيلها وخصوصا قضايا الحدود الذي كان ساهم في إعداد ملفها والتعامل معها في عهد الرئيس بو مدين، وكانت يقظته عاملا هاما في نجاح المفاوضات.

ويتدخل الرئيس ليقول بأننا :

- "لا نريد أن ندخل في الصراع التونسي الداخلي، لكننا نريد أن نعرف من هم أصدقاؤنا الذين يريدون العمل معنا" ويجب أن ندرك بأن "أول زيارة لا يُمكن أن نعمل فيها كل شيئ"، "والبداية هي إقامة الثقة، ولا يُمكن بناء المغرب الكبير إذا كانت هناك مشاكل سياسية عالقة (الصحراء)"، وأشار إلى أن "الأمور مع ليبيا متوترة، ونحن نحتفظ بأوراقنا".

وتطرق الرئيس أيضا إلى قضية "التعاون التونسي الأمريكي واحتمال تحوله إلى مصدر ضغط".

وفي نهاية الاجتماع ذكّرتُ الرئيس بمشروع الإدلاء بتصريح قبل الزيارة (وكان الأخضر الإبراهيمي يرى بأنه لا داعي للتصريح الذي يجب أن يُعطى للصحافة التونسية، لكنني تمسكت برأيي لأنني لم أكن مقتنعا بأن الصحفيين هناك سينشرون كل شيئ، وهناك رسالة يجب أن ترسل للأشقاء)

وناقشنا مشروع البيان الذي كنت قمت بإعداده، وأضاف طالب نقطة الاستقلال إلى جملة تقول بحق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره، وتعمدت أن أناقشه في تلك النقطة لأطمئن إلى الخط.

وأعطيت التصريح لوكالة الأنباء الجزائرية، وكان اللقاء سابقة إيجابية تحسب للدكتور طالب.

وتحدث الرئيس في تصريحه لوكالة الأنباء الجزائرية عن الآفاق الواسعة التي يُمكن أن تفتحها أمام البلدين الإرادة المُشتركة المبنية على الثقة المُتبادلة (..) نريد أن تكون الحدود جسورا بين الشعوب لتأخذ مناطق الحدود بُعداً إنسانيا حضاريا يجعل منها، أرضا وبشرا، ميدانا فسيحا للتعاون الواسع وصرحا متينا للعلاقات الأخوية (..) من هذا المنطلق نحرص على أن تجد قضية الصحراء الغربية حلاً عادلا على أساس احترام حق الشعب الصحراوي في تقرير مصيره.

وتتم زيارة تونس من 17 إلى 20 مارس، ويُوقعُ الرئيسان في اليوم التالي للوصول "اتفاقية أخوة ووفاق" مدتها عشرين سنة، لم أكن أعرف شيئا عنها إلى أن وجدناها في البرنامج الرسمي للزيارة.

ونصت الاتفاقية على أنها مفتوحة لانضمام أقطار أخرى من المغرب العربي، وانتهى بها مشكل الحدود الجزائرية التونسية بمنطقة قفصة، وحمل الأمر كله بصمات الدكتور طالب من الجانب الجزائري ومحمد مزالي الوزير الأول من الجانب التونسي، وبدا الرئيس بو رقيبة شبه غائب عن الوعي طوال اليوم تقريبا، يصحو ساعات قليلة يجتر فيها لقطات من تاريخ حياته ثم يغيب عن الوجود مفتوح العينين ساعات أخرى، وأتصور أن الزيارة الرسمية إلى تونس كانت بداية النهاية بالنسبة لنوعية العلاقة الودية مع الرئيس، فقد سمع فيها أكثر من مرة أن الصورة الرسمية (التي صممتها أنا) تظهره بشكل أكبر سنا، وهو يبدو، ما شاء الله عليه، شبابا.

وكان الرئيس قد أدلى بتصريح عند الوصول جاء فيه بأنني جئتكم بقلب مفتوح وبيد مفتوحة، وتناسيت أنا حكاية اليد المفتوحة عند بث النص إلى الوسائل الجزائرية، لمجرد أن هذا التعبير قد يُقدم في صورة سيئة هنا وفي الخارج لمن لا يعرفون أن اليد الجزائرية كانت دائما يدا عليا.

ولم أورد المقارنات التي عقدها الرئيس مع الوحدة الأوربية لأنني رأيت أن التصريح لم يأخذ حقه في الإعداد، وكانت هذه النقطة وتلك التي سبقتها محل غضب من الرئيس كرره أكثر من مرة، مما أعطاني الشعور بأن هناك من وضع هذه النقاط للرئيس وغضب لأنها لم تستثمر إعلاميا، وبدأت أحس بأن الرئيس قد صبر طويلا على تعنتي وجاء التحريض لكي يبرر تحجيمي وتقزيم دوري.

ومما أكد لي وجود شخص ثالث أو أكثر في الأمر أن الرئيس استعمل في خطابه صفة "المجاهد الأكبر" وهو يتوجه بالحديث إلى الرئيس التونسي،

وأتصور أنه لم يحدث أن استعمل مسؤول جزائري سام هذه الصفة، أو على الأقل، لا أتذكر أنني سمعتها من رئيس جزائري، وهو ما يعني أن هناك من قدم نقاطا للرئيس الذي استعمل بعضها، وكان تعتيمي على بث لبعض الآخر مبعث غضب المصدر (وسيشير الرئيس بغضب إلى قضية أوروبا في اجتماع اللجنة المركزية الذي سبق المؤتمر بما رأيته مبررا لموقفي، حيث أنه اعتبر أن الصحفيين التونسيين لم يحسنوا فهم العبارة.)

ونعود إلى الجزائر لنستقبل عرفات ثم جلود في نهاية الشهر.

ويطلق رئيس الجمهورية فكرة رائعة في بداية شهر أبريل تمثلت في تسليمه لكل الهدايا الثمينة التي تلقتها رئاسة الجمهورية في عهد الرئيس بو مدين وفي عهده إلى وزير المالية بحضور كبار المسؤولين في الهيئات المالية، وكان الرئيس قد سلم لمركز البحوث التاريخية كل الوثائق والمخطوطات التي كانت قد أهديت له، كما يسجل سابقة مهمة باستقباله للأخ الأزهري شريط رحمه الله، الذي عُيّن مديرا عاما للإذاعة والتلفزة الجزائرية.

ويعود الرئيس للزيارات الداخلية فيتجه إلى شرق البلاد بعد زيارة لجنوبها (وسيتجه في الشهر التالي إلى ولايات الوسط ثم لولايات للغرب) وكان المُهم هنا، وبموازاة للنشاطات الدبلوماسية الكبرى التي عكف على تنظيمها أحمد طالب، أننا عدنا إلى استعمال التوجيهات الرئاسية في مجال الوثائق التدشينية للإنجازات، وأحس اليوم بألم كبير لأن أجهزة المتابعة المعنية لم تقم بدورها في التأكد من تنفيذ تعليمات الرئيس، وهو ما تزامن مع وضعية الارتخاء التي بدأت تعرفها البلاد فيما بعد.

ففي ولاية المسيلة وفي إحدى الوثائق المتعلقة بوضع الحجر الأساسي لمجموعات سكنية جديدة ألح الرئيس على "ضرورة وجود المرافق الضرورية في كل مجموعة سكنية، بحيث تكون مجموعة المساكن حيا سكنيا كاملا لا مجرد محتشدات سكنية" وسيقول في دلس : "ألاحظ بالنسبة للمساكن الجماعية

ضرورة إقامة هوائي جماعي لتزويد سكان المبنى بالإرسال التليفزيوني حتى تختفي ظاهرة وجود عشرات الهوائيات فوق مبنى واحد، وهو منظر بشع يوحي بالفردية ويُشوه المبنى، بالإضافة إلى ما يُمثله من أخطار وما يترتب عنه من إزعاج لسكان الأدوار العليا"

وسمعت مواطنين يتحدثون عن كلمات الرئيس بتقدير كبير ويقول أحدهما للآخر : "عنده حق، ولكن من أين وجد الوقت ليرى كل ذلك ؟" ويقول زميله: "إنه يدور وحده في الليل وبدون حراسة أو بروتوكول"، واصطنعت الصمم، فهذا نوع من الإشاعات الإيجابية ليس من حقي أن أقمعه.

ويوقع الرئيس في منطقة سكنية تبنى في البويرة وثيقة يقول فيها : "المساحات الخضراء يجب أن تكون جزءا من كل حي سكني، والاهتمام بالتشجير يجب أن يكون اهتماما مُشتركا بين المسؤولين المحليين والمواطنين المستفيدين من المنطقة السكنية".

وتعرف الجزائر في 8 مايو استكمال جهودها في مجال ترسيم الحدود مع الدول المُجاورة فيتم توقيع اتفاقية وضع علامات الحدود مع جمهورية مالي.

وشهد يوم 9 مايو حدثا هاما تمثل في استقبال الجزائر للملك خوان كارلوس ملك إسبانيا، وكان تألقه الدولي قد تزايد بعد موقفه من الانقلاب الذي حاول أن يستثمر اسمه وصفته كقائد أعلى للقوات المسلحة لقلب النظام القائم، واستقبل الملك والملكة صوفيا كما استقبلت الملكة إليزابيث ودوق أدنبرة قبلهما بما هما جديران به.

وكنا ندرك بأن فتح آفاق جديدة في الدول الأوروبية هو دعم لسياسة تنوع العلاقات التي تدعم استقلال الجزائر وتحول بينها وبين أن ينفرد بها أحد، ومن هنا كان كل منا في مجاله وفي حدود مسؤوليته يفكر في الأسلوب الذي يُمكن به أن يعود الملك إلى بلاده وهو يحمل للجزائر أطيب الذكريات (ولم يكن غائبا عنا أن الملك يملك ولا يحكم لكن خوان كارلوس لم يكن ملك الكريزانتيم).

ويحمل لي المصور نور الدين زياني صورة قال بأنه وجدها في أرشيف الثورة الإفريقية وتمثل خوان كارلوس شابا في نادي اليخت الذي تحتضنه الأميرالية الجزائرية اليوم، وبجواره أخته التي توفيت فيما بعد وكان يحمل لها محبة خاصة، خصوصا وقد كان فقد أخاه نتيجة طلقة نارية طائشة انطلقت من سلاح كان يُنظفه، ويعود تاريخ الصورة إلى منتصف الخمسينيات.



خوان كارلوس

كانت تلك معلومات أولية في ذاكرتي ولم يكن أمامي ما يمكن أن يؤكدها أو ينفيها، وفكرت طويلا ثم أعددنا نسخة مكبرة من الصورة وقدمناها للرئيس بعد أن أبلغته بالقصة من أولها إلى آخرها.

وكنت أقف على بعد عدة أمتار والرئيس يقدم الصورة إلى الملك الإسباني وأنا أرتجف خوفا من رد فعلي سلبي سيجعل من اليوم آخر أيامي في العمل مع الرئيس، ولكنني رأيت الملك يستقبل الصورة بتأثر كبير، أكده لي الرئيس فيما بعد وقال عنه أنه كاد يرى دموعا في عينيه.

وكان يمكن أن يكون هذا كله وهما أو خيالا ولكن الملك خوان كارلوس أكد تأثره العميق بما وجده في الجزائر وما استقبل به وذلك عند عودته إلى بلاده، فلم يكتف برسالة الشكر الكلاسيكية للرئيس ولكنه حادثه هاتفيا، وهذا يحدث، في حدود معلوماتي، للمرة الأولى.

وكسبت الجزائر الرهان مع إسبانيا.

ويصدر مرسوم رئاسي بإنشاء ديوان لرئيس الجمهورية ولكنه لا يدخل إلى مجال التنفيذ إلا في بداية العهدة الثانية.

ويبدأ مجلس المُحاسبة في تنفيذ علة وجوده ويقدم رئيسه مقدم الالتزام بإدانة عبد العزيز بوتفليقة في ما سمي بقضية التسيير المالي لصندوق العملات الصعبة في السفارات (Rcliquats) ويصدر حكم ضد العقيد أحمد بن شريف فيما أطلق عليه قضية السد المثمر، ولن يتأخر تسلم الثمن.

ويردّ الرئيس بورقيبة الزيارة إلى الجزائر في نهاية مايو ويلحق بهما الرئيس الموريطاني المقدم خونا ولد هايد الله ويغيب عن اللقاء الملك الحسن الثاني وبهذا لا تكتمل قمة مغاربية، ويعكف المجتمعون في الجزائر على دراسة مشاكل المنطقة وفي مقدمتها قضية الصحراء الغربية والإعداد لقمة الوحدة الإفريقية التاسعة عشرة في أديس أبابا بعد أن أجهضت قمة طرابلس العام الماضي.

وبدأت محاولات عقد القمة في بداية يونيو لكن الشرخ الذي أحدثته القضية الصحراوية عرقل اللقاء، واتخذت جبهة البوليزاريو موقفا ذكيا بانسحابها الطوعي ليُمكن عقد المؤتمر، وانتخب مانجستو هايلي مريام لرئاسته بدلا من العقيد القذافي الذي لم يُشارك فيه رغم أنه كان تأجيلا لمؤتمر طرابلس.

ويخرج المؤتمر بلائحة توصي بمفاوضات مباشرة بين المغرب والبوليزاريو، ليمكن إيقاف إطلاق النار والوصول إلى تحقيق استفتاء لتقرير المصير خلال ستة أشهر.

لكن المؤتمر يفشل في اختيار خلف للأمين العام آدم كوجو.

ولأن جلسات المؤتمر كانت مغلقة كان لا بد من تسريب النقاط التي يهمنا أمرها لمجموع الصحفيين، وهكذا بثت وكالة الأنباء الجزائرية خبرا يقول بأنه : "عُلم من أوسط المؤتمر بأن رئيس الجمهورية الجزائرية تدخل في حدود الثالثة من صباح أمس (وقال بأن) مشروع اللائحة المقدم يُشكل الحد الأدنى لما هو مطلوب (..) وموافقة الجزائر على اللائحة دليل على النية الصادقة والإرادة المخلصة في تحقيق الوفاق وضمان الاستقرار، وأشار إلى لقائه بالملك الحسن الثاني (فقال بأنه) لقاء تميز بالصراحة وكنت واضحا كل الوضوح فيما يتعلق بموقف الجزائر من قضية الصحراء الغربية حيث أكدت للعاهل المغربي أنني لست موكلا للحديث باسم الصحراويين ولا أعطي لنفسي الحق في التحدث نيابة عنهم أو الوصاية عليهم ونحن على استعداد للمساهمة في كل جهد ممكن لتقريب وجهات النظر بين طرفي النزاع[8].

ويصل العقيد القذافي إلى الجزائر في زيارة عمل، ويستقبل الرئيس عدد من المبعوثين الخاصين للاستماع إلى وجهات نظرهم [9].

8- التسريب الإعلامي أسلوب معروف ولكنه لا يمكن أن يتم إلا بتواطؤ أحد الحاضرين في الجلسات المغلقة، والمصدر هنا واضح والهدف أكثر وضوحا.

9- كان استقبال المبعوثين قبل المغادرة وبعد الوصول ربطا حقيقيا للرئيس بالقضايا الدولية، وسيتكون هناك فيما بعد محاولة لافتعال الاستقبالات تسهيلا على الرئيس، كما قيل، وهو في تصوري خطوة نحو عزله عن الأحداث وعن الرجال.

ويواصل مجلس المُحاسبة تأدية الدور المطلوب منه، فيحكم على عبد العزيز بو تفليقة بتسديد مبالغ مالية تمثل ما قيل أنه ثغرات في الصندوق الخارجي من 65 إلى 1978 (أي من تغيير يونيو إلى وفاة الرئيس بو مدين، في حين أن بو تفليقة كان وزير للخارجية قبل ذلك، وكان منطق تصفية الحسابات واضحا[10]).

وتواصل تفتيت المؤسسات الوطنية الكُبرى وهكذا قسمت شركة الخطوط الجوية الجزائرية إلى شركتين تتكفل الأولى بالطيران الدولي وتحتفظ بالاسم وتتولى الثانية الطيران الوطني وتسمى الخطوط الجوية الداخلية، وثارت فيما بعد مشاكل كثيرة خصوصا على مستوى اختيار الطيارين وطواقم الطائرة وتحديد مكافآتهم، وأُلغي ما تم عمله بهدوء بعد شهور من الممارسة العرجاء، وكانت هذه صورة من صور عملية إعادة الهيكلة التي كانت محورا من أهم محاور وزير التخطيط آنذاك.

وتتواصل الزيارات بشكل يثير الدوار ويؤكد حيوية العمل الدبلوماسي بقدر ما يضيف إلى أعباء مديرية الإعلام بالرئاسة، فيزور الجزائر جورج بوش (الكبير) نائب الرئيس الأمريكي، ثم بيير موروا رئيس الوزراء الفرنسي ثم باتيست باغازا رئيس بورندي، كما سيزورها في الشهر التالي ساسو نغسو رئيس الكونغو الشعبية وجوليوس نيريري رئيس تانزانيا وزايد آل نهيان رئيس دولة الإمارات المتحدة ثم موسى طراوري رئيس مالي وسانكارا (الذي اغتاله

10- كان عبد العزيز بو تفليقة قد حوكم من قبل لجنة الانضباط الحزبي التي أدانته ثم حولته لمجلس المُحاسبة للإجهاز عليه، وتشاء الأقدار أن يكون رئيسها هو نفسه في 1999عميد مصف الاستحقاق الوطني الذي قلد الرئيس بعد الانتخابات الرئاسية أعلى درجات الوسام وهي صدر مصف الاستحقاق وهو يبكي قائلا : سبحان الله، كم من رجال ظلموا ثم ثبتت براءتهم مما نسب إليهم، والغريب أن الرجل ظل في منصبه سنوات وسنوات رغم أنه لم يعد قادرا على ممارسة التزاماته، وكنت عرفته في القاهرة عندما أعادني إليها العقيد عمران بطريق الخطأ في نهاية الخمسينيات حيث اعتقد أنني من الضفادع البشرية، ورفض صاحبنا هنا أن يتخذ موقفا قد يفهم منه أنه يرفض قرار أقوى شخصيات الجزائر العسكرية آنذاك، وهو ما يُبرز شخصية الرجل المُهادنة تجاه السلطة.

رفاقه بعد ذلك) رئيس فولتا العليا (التي أصبحت فيما بعد بوركينا فاصو) ثم الرئيس عبد ضيوف رئيس السنغال (الذي كان لا بد من إعداد سرير على مقاسه لطوله)

وكان اقتراب شهر سبتمبر من نهايته جرس إنذار يذكرني بضرورة الانتهاء من إعداد خطاب الرئيس للأمة، وكان هذا في ظروف تتميز بالحصار والضغوط وأحيانا الاستفزازات.

وأمكن في منتصف سبتمبر إعداد المشروع الأولي للخطاب، وتم الاعتماد في الجانب الاقتصادي على نقاط مكتوبة أعدها عبد الحميد إبراهيمي، وكانت بالفرنسية، وكان الحرص شديدا على أمرين أهمهما التأكد من صحة الأرقام الواردة في الخطاب، والثاني الحفاظ على بساطة الصياغة وعمق المعاني والبحث عن أفكار جديدة.

أما الجانب الدولي للخطاب فقد أرسل مشروعه الأولي إلى أحمد طالب بعد إبلاغ الرئيس بذلك، وكلمني وزير الخارجية هاتفيا ليعترض على تعبير استعملته وقلت فيه أن عاصمتين عربيتين حُرمتا من احتضان قمم دولية (أول العواصم طرابلس التي حُرمت للأسباب التي سبق ذكرها من احتضان القمة الإفريقية التاسعة عشر في العام الماضي، والثانية بغداد التي لم تتمكن من عقد القمة السابعة لحركة عدم الانحياز نتيجة للحرب العراقية الإيرانية) ولم أجد سببا منطقيا لاعتراض طالب، الذي أرسل لي يوم الاثنين، وعن طريق الأمين العام لرئاسة الجمهورية، مشروعا للجانب الدولي أحسست بأنه يصلح كمجرد مقال، ولم تكن فيه مواقف جديدة أو تعبيرات متميزة.

وفي صياغة خاتمة الخطاب كانت هناك محاولة لإيجاد فكرة تصلح شعارا يُمكن تقبله وترديده واستقر الرأي على تعبير كنت أردته شعارا للمؤتمر الخامس، وهو "التقدم في ظل الوفاء" ولكن العملية فشلت لأن الشعار الذي تم اختياره اعتمد على تعبير استعمله الرئيس أكثر من مرة في خطبه وهو العمل

والصرامة، ولم يكن في الكلمتين ما يُمكن أن يفرز شعارا يستقطب حماس الجماهير كذلك الذي تم اختياره للمؤتمر الاستثنائي، أي "من أجل حياة أفضل"، والذي أتحمل مسؤوليته كاملة.

وأتذكر أنني ذكرت لمسؤول أمني كبير اقتراحي بالنسبة لشعار المؤتمر، ولكنه كرر مرتين كلمة .."الوفاء" ثم قال مستنكرا: "آواه! !..".

وعقدت في 19 سبتمبر دورة استثنائية لإعداد المؤتمر وانهمكت في إعداد الخبر المتعلق بها وتدخلات الرئيس، الذي طلبني هاتفيا فقلت له رأيي في الشعار الذي كنت أريد اقتراحه، وقلت له إنني أعتزم صياغة خاتمة الخطاب للأمة لتتلائم معه، وقد كان.

وفي نهاية الشهر طلبني الرئيس هاتفيا ليستدعيني إلى مكتبه بأسلوبه الذي ألفته : "محي الدين ...تجي ؟"، وقضيت معه في مكتبه نحو ساعتين ونصف، وكان طول المُدة مفاجأة للجميع وأنا في مقدمتهم، وكان المحور الرئيسي للحوار هو الخطاب، الذي شعرت بأن الرئيس قرأه أكثر من مرة.

ولأنني لم أكن تلقيت منه تعليمات محددة كالعادة فقد رحت أحاول استعراض نقاط المشروع لتعديلها أو تطويرها بما ينسجم مع المعطيات الكاملة التي يملكها.

قلت (وأنا أنقل هنا من سطور كنت كتبتها إثر اللقاء):

"سأبدأ بالجديد، هناك نقطتان في خطاب الحسن الثاني في نيو يورك، الأولى تتعلق بالصحراء واتسمت بالديماغوجية بل والكذب، خصوصا عندما قال بأنه سيقبل نتيجة الاستفتاء انطلاقا من أن محكمة العدل الدولية أقرت بحق المغرب.

أما الثانية فكانت تعليقه على الاتفاقية بين إسرائيل ولبنان ووصفها بأنها اتفاقية بين ذئب وحمل، وكان الخطير هو أنه قارن بينها وبين الاتفاقية التي وقعت في الجزائر عام 1975 بين العراق وإيران.

عندها قال لي الرئيس إننا لا نتبنى هذه الاتفاقية وليست لدينا أي عقدة تجاهها حيث أن دورنا كان احتضان اللقاء مكانا بطلب من العراقيين.

ثم استعرضت معه فقرات الخطاب فقرة فقرة، وأشرت في النهاية متسائلا عن المطلوب مني إعلاميا بالنسبة لزيارة فرنسا المُقبلة، خصوصا وأن هناك طلبات إعلامية، وهناك مجموعة أفكار، لكنني أحس بأنني لست في الصورة ومن الصعب عليّ أن أنجز شيئا وأنا في وضعية عُزلة.

وسألني هل من جديد آخر؟ وأحسست أنه يريد أن يتبسط في الحديث، ولهذا تركت له ناصيته وأمسكت عن طرح الأسئلة، فراح يسترجع بعض الذكريات القديمة، وروى لي بأن "الرئيس الراحل كان يُعاني من ضغوط يتعرض لها من بعض أعضاء مجلس الثورة، وروى عن بو تفليقة قول هذا الأخير بأنه لم يرَ بو مدين منشرحا كيوم عُين بعضهم في الحكومة (وأكد لي هذا ما كنت أتصوره عن الضغوط في مرحلة حكومة 1977) وقال بأنهم كانوا يدفعونه ثم ينتقدونه".

وقال لي وهو يسترجع بعض ذكرياته (وهو ما كنت كتبته في مذكرتي في نفس اليوم) :

قال : "استقبلتُ بن بله في وهران (قبل يونيو 1965) وتجاهلت الصحف الإشارة إلى اسمي، وكنا نفكر في اعتقاله عندما وصل عندي ولكننا وجدنا أن القيام بهذا العمل في الملعب الرياضي فيه مجازفة كبيرة"، ويوم 19 يونيو كانت هناك طائرة معدة في حالة الفشل ليركبها بو مدين إلى وهران ويواصل العملية من هناك (..) وكان هذا دليلا على الثقة التي كان بو مدين يضعها فيّ، وكان يعرف أنه سيجد الدعم اللازم في الناحية الثانية، وكانت علاقاتي به حميمية

وأصارحه دائما على انفراد (..) وفي اجتماع لقيادة الأركان (قبل أحداث 1967) أخذت الكلمة وقلت بأنني متفق مع موقف سي بو مدين ومع قراراته للنهاية، وأطبّــقُ حرفيا" (..) وذهبت للزبيري في منزله وقلت له بأنني ضد استعمال العنف، وبأنني لا أقبل أن يكون جيشنا جيش انقلابات مثل سوريا والعراق (..) وفي منزل عبد الرحمن بن سالم وبحضور العقيد عباس والعقيد الزبيري قال لي السعيد عبيد، وبطريقة استفزازية : "كلهم ماتوا، هل أنت راض عن نفسك بالموقف الذي اتخذته ؟ (تأييدا لبو مدين)"

ويقول : "لقد أنقذتُ أناسا من الوقوع في الفخ" (كان يقصد يحياوي على الأرجح) [11].

11- العقيد الطاهر الزبيري آخر قائد للولاية التاريخية الأولى (أوراس النمامشة) خلال الثورة وآخر ثلاثة أحياء من قادة الولايات التاريخية (الآخران هما يوسف خطيب قائد الناحية الرابعة – المدية ، وعلي كافي قائد ناحية الشمال القسنطيني) وهو مجاهد ووطني حتى النخاع، عُرف بالبساطة والتواضع، وارتبط بحركة 19 يونيو وكان هو الذي ألقى القبض على بن بله، ثم شحن في 1967 ضد بو مدين ووضع اسمه فوق عملية انقلاب العفرون، التي أجهضت في أيام قليلة لأنها كانت سيئة الإعداد ولتدخل الطيران ضدها، وحُكم على الزبيري بالإعدام ولكنه استطاع الفرار إلى قطر شقيق مجاور (ويقال أن بو مدين نفسه هو الذي أمر بتسهيل عملية الفرار حتى لا يُضطر إلى إعدام رفيق سلاح ويكرر قضية شعباني الذي أعدم في عهد بن بله) وحاولت مخابرات البلد الشقيق أن تضغط على الزبيري ليتخذ مواقف ضد بو مدين ولم تنجح، وعُين في السنوات الأخيرة عضوا في مجلس الأمة بأمر من الرئيس بو تفليقة. وألاحظ هنا أن الزبيري كان مُعربا تماما مثل محمد شعباني ومحمد العموري وعباس الغرور ومحمد الطاهر زعروري وعبد الكريم عباس الذين أعدموا قبله، مما يُعطي الإحساس بأنهم دفعوا دفعا للتناقض مع القيادة ، وهو ما يُذكرني أيضا بالشاذلي المكي الذي عاش مُهمشا بعد الاستقلال، ربما أيضا لأنه كان مُعربا.
أما السعيد عبيد فقد كان من شباب مجلس الثورة المرموقين وقائدا للناحية العسكرية الأولى (البليدة) وكان متعاطفا مع منتقدي بو مدين ولكنه كان رافضا لفكرة الانقلاب العسكري، ومن هنا عاش مرحلة تمزق رهيب انتهت بانتحاره إثر فشل الانقلاب في 1967.
أما العقيد عباس فهو أيضا من العقداء المعربين واسمه الحقيقي بو جنان أحمد، كان في شبابه من مناضلي حزب الشعب ودرس في القرويين بالمغرب وكان من أهم عناصر مجلس الثورة وقائدا للأكاديمية العسكرية في شرشال ، وتلقيت منه، ومن مساعده العقيد يحياوي، دعما كبيرا في صراعي مع وزارة الصحة لانتزاع التصريح بفتح عيادة طبية، وتوفي في حادث سيارة في 1968، والرائد بن سالم من قدامى ضباط الصف في الجيش الفرنسي الذين حاربوا في الهند الصينية وانضم إلى الثورة وارتبط بالعقيد هواري بو مدين وكان عضوا في اللجنة المركزية الأولى للحزب بعد استرجاع الاستقلال، ثم أصبح عضوا في مجلس الثورة، وكان في آخر أيامه قائدا لمنطقة الجزائر الكبرى حيث عملت تحت إمرته في منتصف الستينيات، وخرج من الجيش على وقع أحداث الستينيات.

وواصل الرئيس حديثه : "اقترح عليّ الطيبي العربي منصب وزير الداخلية في فترة الصراع بين بو مدين ومدغري (كتبتها هكذا، وأتصور أنه كان يعني مرحلة بداية السبعينيات التي تضامن فيها أحمد درايا وعبد العزيز بو تفليقة ضد بو مدين، وانزووا في عنابة كما تردد آنذاك) [12].

وقال الرئيس : "تألمت لأنني كنت أتساءل لماذا لم يُكلمني بو مدين شخصيا" وتدخلت لأقول له مطيبا خاطره : "لعل بو مدين أراد أن يجس نبضك بدون أن يُحرجك باقتراح مُباشر قد ترفضه فيصيب الحرج كلا منكما"، ولم يُعلق، ولكنه واصل حديثه راويا الكثير عن بعض الأحلام التي كان يراها، وقال بأن كثيرا مما عاشه، ومنها قضية الرئاسة، كان يراها بشكل رمزي في أحلامه.

12- أحمد مدغري أو سي الحسين كما كان يسميه المقربون منه ولد في وهران ولكنه عاش جل حياته في سعيدة في إطار عائلته الكبيرة، حيث عمل مدرسا، وهو ابن الشهيد وارتبط في شبابه بحزب البيان (عباس فرحات، وهو حزب النخبة الفرانكوفونية) وكان من أهم أعضاء المجموعة التي سُميت مجموعة وجدة والتفت حول العقيد بو مدين وتكاملت، في مرحلة معينة من مراحل الثورة، في مدينة وجدة المغربية، وعين وزيرا للداخلية في عهد الرئيس أحمد بن بله وكان دفعه إلى الاستقالة من حكومته أهم أسباب حركة 19 يونيو 1965 التي تولى بها العقيد بو مدين رئاسة الدولة، ويسميه أنصاره أب الإدارة الجزائرية، والواقع أنه أنشأ الإدارة مستفيدا من كل العناصر الفرانكوفونية التي وجدها أمامه أو دفعت بشكل ما ليجدها حوله، وقام خلال عمله الوزاري بتنظيمات إدارية هامة وأنشأ المدرسة العليا للإدارة ووضع على رأسها واحد من أعداء حركة التعريب، كان يفخر بأن العربية لم تلوث مدرسته، وانتهت حياته بالانتحار في 1974 لأسباب يُقال أنها شخصية، وأحسست قبيل انتحاره أنه مصاب بشبه انهيار عصبي وكنت لاحظت شخصيا في تعاملي معه أن وزنه نقص مؤخرا بشكل ملموس.
أما أحمد درايا فهو من مواليد سوق أهراس وكان قبل الثورة محصلا في شركة للحافلات، وانضم للثورة في بداياتها ولكنه أوقف في 1958 بتهمة اتخاذ مواقف معادية للحكومة المؤقتة ثم أرسل إلى الحدود المالية مع محمد الشريف مساعدية وعبد العزيز بو تفليقة، وعهد إليه بعد استرجاع الاستقلال بقيادة قوات الأمن الوطني CNS التي كانت شبه رديف للأمن الوطني بقيادة مختلفة، واستمر وجوده في هذه القوات لدعم حركة 19 يونيو، ليصبح عضوا في مجلس الثورة وواحدا من أهم عناصره المؤثرة بحكم تعيينه على رأس مديرية الأمن الوطني التي جعل منها شبه دولة وذلك حتى 1977 عندما عُين وزيرا للنقل في آخر حكومات بو مدين، ثم عين بعد وفاة بو مدين سفيرا في البرتغال وتوفي في عام 1988 إثر مرض عضال لم يذع عنه شيئ.

"في 1979 (بعد توليه الرئاسة) حلمتُ بأنني أسود اللون ويداي مقيدتان بحلقات حديدية صدئة كنت أحاول نزعها، وهناك من عرض علي المُساعدة فرفضت وقلت بأنني سأنزعها وحدي، وعندما نجحت في ذلك وجدتني أبيض اللون" (ربما كانت القيود أعضاء مجلس الثورة الذين تخلص منهم)

وكنت طوال الجلسة أسمع صامتا، وأعتني الرئيس للجلسة المطولة بأن أعطاني سيغارا كوبيا طويلا واصلت تدخينه حتى تحول ثلثاه إلى رماد.

(3)

في منتصف يوم الخميس 29 سبتمبر يتصل بي مولود حمروش ليسأل ما إذا كنت أستطيع أن أمر بمكتبه لدقيقة، وصعدت إلى الطمب الكبرى ليقول لي أحد رجال التشريفات بأن الجميع في انتظاري بمكتب الأمين العام العربي بلخير، وهناك وجدت مولود وجمال حوحو سفيرنا في باريس وشيتور مدير قسم أوروبا، وكانت زيارة فرنسا هي محور اللقاء.

وكنت عرفت أن وزير الإعلام بو علام بسايح سوف يُسافر إلى باريس لإعداد اللقاءات الإعلامية للرئيس هناك، ولتنظيم المؤتمر الصحفي الذي يختتم الزيارة، ولم أعلق بشيئ على الأمر لأن القضية لم تطرح للمناقشة أمامي أو معي.

وعندما بدأنا في استعراض بنود الزيارة لفرنسا كان من بينها وضع إكليل من الزهور على نصب الجندي المجهول في ساحة النجمة "شارل دو غول"، وكان السؤال الأول المطروح هل يزور الرئيس النصب، علما بأن رفات الجندي المجهول لحرب الجزائر قد نقلت إليه في عهد جيسكارد.

ولم أجد مبررا للاعتراض لأنني لم أكن أملك معلومات مؤكدة عن أن الرفات الأصلية للحرب العالمية قد تم استبدالها، ولكنني قلت بأن هذا يجب أن يكتمل بزيارة للرئيس يقوم بها إلى إحدى مقابر الجزائريين الذين قضوا في

الحرب العالمية، وهنا انتفض سفيرنا في باريس ساخطا على الفكرة وقال لي : أنك كنت في المشرق ولم تعرف صور الجنود الجزائريين وهم يرصعون صدورهم بالنياشين الفرنسية، كأنك باقتراحك ضربتني بخنجر (c'est comme tu m'a poignardé) وأجبته، بحدة قصدتها عندما أحسست بأنه يريد أن يُعايرني بدراستي في المشرق أمام آخرين يعتزون بدراستهم الأوروبية، بأن "أولئك الجنود هم جزائريون أولا وقبل كل شيئ، وقد جُندوا رغم أنوفهم في الجيش الفرنسي، ثم إن لفتة من هذا النوع يقوم بها الرئيس الجزائري هي تذكير بالدور الذي قام به أبناؤنا في تحرير فرنسا نفسها، وهو دين يجب أن نذكر به الفرنسيين في كل مناسبة".

وشارك شيتور في المُناقشة ولم يتدخل مولود ولكن السفير قال في النهاية معترفا جزئيا بخطئه : " أنك، سياسيا، على حق، ولكن الأثر هنا في الوطن سيكون سلبيا".

ولم أعلق، وكانت فرصة لكي أعرف أفكار سفيرنا في باريس ونظرة المدرسة التي ينتمي إليها نحو طلبة المشرق بشكل عام، وأدركت أنه ما كان ليجرأ على مهاجمتي بهذه الطريقة لو لم يلق تشجيعا أو تحريضا، وكان علي أن أكون على حذر منه[13].

والتحق بنا العربي بلخير والأمين العام للخارجية الحاج عزوط.

وقلت للسفير بأنه طرح علي عدّة أسئلة تتعلق بالصحافة وسأعطيه الإجابات عليها (وكنت أعتمد في قوة موقفي على لقائي المُطول مع الرئيس والذي لم يعرف أحد ما دار فيه، بل إنني لم أعرف أساسا خلفية الرئيس بالنسبة للقاء وإن كنت بدأت أتخيل هدفه من ذلك من إدراكي لأثره على محيطنا).

13- كان الرئيس بو تفليقة أكثر حكمة وذكاء عندما ترحم في فرنسا على الضحايا الجزائريين، أما السفير فقد شغل بعد ذلك في حكومة الشاذلي وزارة الشبيبة والرياضة ثم اختفى من الساحة تماما بعد أن زمجر ضده المتفرجون في مباراة رياضية حضرتها شخصيا.

قلت : هناك اقتراح من صحيفة لوموند (Le Monde) بالاشتراك مع إرتي إل (RTL) لإجراء حوار إذاعي مع الرئيس في إطار برنامج "هيئة كبار المحلفين" (Le Grand Jury) وأنا لا أوافق على الفكرة لأن الحديث سيجري بالفرنسية (ما لم يعرفه الحضور أني كنت ناقشت القضية مع الرئيس واقتنع بضرورة تفادي عملية لا نستطيع السيطرة عليها بشكل مطلق كما حدث مع القناة الفرنسية الثالثة) وكان تعليق مولود بالفرنسية " Dommage" وقال السفير على الفور " Grand dommage".

وقال الأمين العام بأن المفروض في زيارة كهذه أن نحقق أوسع اتصال بالصحافة ولا نكتفي بالاتصال بمن يعرفون بأنهم أصدقائنا (وفهمت على الفور أنه يقصد بول بالطا) ولم أعلق لأنني لم أرد الدخول في مناقشة أمر حُسم مع الرئيس تماما، وإن كنت لم أقل ذلك حتى الآن.

وتناول السفير الكلمة ليقول بأنه تحدث هاتفيا مع العربي واتفقا بأن أمرا كهذا هو أمر مطلوب، وصدّق العربي على كلامه، وكان ردّي أنني لست على استعداد للمجازفة بالدخول في عملية لا أتحكم في كل معطياتها، وعلى كل حال فالقرار النهائي ليس قراري.

وعند الخروج قال لي العربي بأنه "من المستحسن ألاّ يعمل الإنسان بصفة فردية، لقد عقدنا ثلاثة اجتماعات لدراسة قضية زيارة فرنسا"، وكان في هذا متناقضا تماما مع نفسه، إذ أنني لم أحضر تلك الاجتماعات، وبدت مشاركتي اليوم كأنها محاولة لانتزاع موافقتي على الحوار المشترك بين لوموند وإر تي إل RTL، الذي بدا أن هناك من أحس بأن الرئيس ليس متحمسا له، وهكذا تم تسجيل نقطة لصالحي لمجرد أن مصلحة الصورة الجماهيرية التي أتحمل مسؤوليتها، حتى الآن، تقتضي ذلك.

ويتصل بي صباح الثلاثاء 18 أكتوبر الأخ إسلام ابن الأستاذ أحمد توفيق المدني ليبلغني بوفاة والده، وشعرت بحزن كبير.

فقد عرفت الفقيد عن بعد كاتبا سياسيا لامعا قبل الثورة في جريدة "البصائر" التي كانت تصدرها جمعية العلماء المسلمين الجزائريين، ثم عرفته في القاهرة مباشرة في الخمسينيات،ممثلا لجمعية العلماء ثم جزءا من مكتب المغرب العربي، وبفضله أمكنني تنظيم المشاركة الجزائرية في المؤتمر الثاني للكشافة العربية الذي احتضنته الإسكندرية في 1956، واخترت له الأخوين أحمد ذراعو وبن قاسي.

وعين وزيرا للشؤون الثقافية في الحكومة المؤقتة، كما تولى بعد استرجاع الاستقلال منصب وزير الأوقاف الذي قيل أن الشيخ عبد اللطيف سلطاني كان يريده، وشغل في السبعينيات منصب سفير الجزائر في باكستان وإيران وتركيا، حيث تولى في الوقت نفسه البحث عن المخطوطات التركية عن الجزائر، وهو ما مكنه من بعد من تولي منصب سام في دار الوثائق الجزائرية التابعة للرئاسة.

وأبلغت على الفور الأمين العام لرئاسة الجمهورية والمدير العام للتشريفات ووزير الأوقاف الشيخ عبد الرحمن شيبان كما أبلغت عبد الحميد مهري بصفته الوزارية السابقة والحزبية الحالية.

وطلبني وزير الأوقاف ليسألني : "كيف ترون العمل ؟" وسألته : "لماذا تسألني بصفة الجمع ؟ وقال : "للاحترام"، ثم أعاد السؤال وعندها قلت له إن دوري ينتهي عند إبلاغ الخبر.

لكنني أحسست أن كلا يريد ضوءا أخضر للتصرف، واقترحت إرسال برقية تعزية موقعة من الرئيس، وهو ما حدث بالفعل، وأرسلت نص البرقية لوكالة الأنباء وللإذاعة، وعندها فقط زال التحفظ، وتهاطلت البرقيات على أسرة الفقيد، وعرفت جنازته في اليوم التالي مشاركة هامة من شخصيات كثيرة، وأحسست بالرضا عن النفس لأنني سجلت وفائي للرجل.

وفي نفس اليوم علمت من مولود بصدور مرسوم رئاسي بتغيير صفة "المُستشار" إلى صفة "مكلف بمهمة"، واستقبلت الخبر بهدوء، إذ كان عنصرا الدهشة وخيبة الأمل أقوى من عنصر الغضب، فلم أكن أتصور أن الرئيس يُمكن أن يُخدع باقتراح من هذا النوع، كما سبق أن أشرت.

والواقع أن القرار كان يمس شخصين، الأخضر الإبراهيمي وأنا، وانضم لنا عبد القادر بن قاسي الذي تردد أن هناك من يُعدّه لخلافتي[14] وكان مصطفى عبد الرحيم قد غادرنا بعد مولود قاسم.

وأعتقد أن خلفية من أشار أو من أشاروا على الرئيس بهذا الاقتراح كانت ببساطة أنه ليس من حق "المُكلف بمُهمة" الاتصال المُباشر بالرئيس، إذ يصبح عليه المرور إلزاميا بمسؤول أدنى، والهدف الحقيقي هو التحكم في عدد ونوعية الذين يتصلون بالرئيس مباشرة، أي أنها كانت خطوة واضحة لعزل الرئيس عن واقع الرئاسة ثم عن واقع البلاد.

والواقع أنني بدأت أحس بالخوف على الرجل، وقال لي المدني الذي زارني مساء إثر سماعه بالخبر أنها إساءة للرئيس قبل أن تكون إساءة لي، بينما قال الأزهري شريط الذي رافقه بأنها ضربة موجهة لي شخصيا[15].

واتصل بي الرئيس يوم الأربعاء ليسألني في غضب عن نص الخطاب الذي سيوجهه للأمة، وقلت له بأن : "الجزء الوطني جاهز منذ 15 يوما وأنا أنتظر الجزء الدولي الذي أعطيته، بطلب منك، لعبد القادر بن قاسي"، وقال : "لماذا تتركونني لآخر لحظة لأجد نفسي أمام خطاب مُطول ؟"

14- والواقع الأمر أنه عين ثلاثة أشخاص لخلافتي منهم من عينه الحزب ومن اختارته الخارجية ومن ارتآه الأمن، ومن الطريف أن العقيد أحمد بن شريف استوقفني يوما في الطريق بعد تصفيتي ليقول لي : هل عرفت بمن أتوا ليخلفك في منصبك" وقلت له بصدق " لم يخلفني أحد في منصبي لأنه بدأ معي وانتهى بخروجي من الرئاسة.

15- كان المدني مديرا للتلفزة الوطنية ثم نقله بوعلام بسايح إلى الوكالة لجزائرية للنشر والإشهار كمدير عام، أما الأزهري، وهو من قدامى العاملين في التلفزة وكان في الوقت نفسه مديرا لمجلة الثورة الإفريقية الصادرة عن الحزب، فقد اقترحته مديرا عاما للإذاعة والتلفزة الوطنية وتفضل الرئيس فقبل استقباله شخصيا ليعهد له بالمهمة.

وبدا لي الجانب الدولي الذي أعد في الخارجية باهتا كما سبق أن قلت، ورفض بن قاسي، وأنا أفهم تصرفه، مناقشة الأمر وقال إن الوزير راضٍ عنه.

ورحت أتساءل في غيظ وألم : "ماذا كنت سوف أخسر لو تركت كل شيئ على حاله، وأدمجت المشروع المُرسل من الخارجية مع ما أعددته عن النشاط الوطني وأرحتُ نفسي من عملية الشد والجذب التي أرهقتني وحولتني إلى كتلة أعصاب متحركة.

لكن مصيبتي الكُبرى كانت تمسكي بالوفاء للرجل الذي وضع فيّ كل ثقته، وهو ما كان يجعلني أسهر على كلمة ينطق بها وكل فكرة يعبر عنها وكل صورة أو لقطة تصوره حتى لا ينجر عن ذلك إساءة له، في حين أعرف أن كثيرا من الآخرين "يكعورون".

وليس في هذا أي مبالغة، فقد أرسلت لي الخارجية يوما مشروعا لخطاب يلقيه الرئيس في الطائف في مطلع العام الأسبق، وكان من بين الفقرات استشهاد بمقولة : "لا يضيع حق وراءه طالب"، ونُسب القول في النص إلى النبي، كحديث شريف، وهو أمر غير صحيح، فأرسلت الخطاب إلى زميل من كبار المثقفين المتخصصين في القضايا الإسلامية للاستشارة، وأعاد إلي الخطاب وعليه عبارة : "لا بأس"، بعد تصحيحات هامشية بالقلم الرصاص لم تتعرض لصلب الموضوع، ولم يُعلق على المقولة.

ويطلبني الرئيس، الذي أرسلت له القسم الوطني من الخطاب المُوجه للأمة، ليقول لي برقة أنه طويل، ومرة ثانية أخذت قلمي ورحت أحاول إعادة الصياغة لاختصار عدد من النقاط بدت أقل أهمية من نقاط أخرى، ثم أرسلت له الخطاب مرفقا بورقة زرقاء تحمل في أعلاها شعار رئاسة الجمهورية وتحته كلمة المستشار، وهي الأوراق التي ألفنا العمل بها، ولكنني هذه المرة شطبت كلمة المُستشار باللون الأحمر.

خلال تلك اللحظات كان المكتب السياسي مجتمعا (ولم يجتمع المكتب خلال شهري يونيو ويوليو) وعندما انتهى الاجتماع أُبلغتُ بأن مساعدية وطالب

يبحثان عني لإعداد البلاغ الرسمي عن الاجتماع، ووجدتهما في مكتب مولود حمروش مع الحاج يعلا.

وفهمت من الحديث الأوليّ أن طالب يريد تمرير فقرة متعلقة بنشاطه في الأمم المتحدة ومقابلته لعدد من الرؤساء ووزراء الخارجية، وبدأ حديثه معي قائلا بأننا : "سنبدأ بالإشارة إلى النشاط الحزبي وأشغال اللجنة الوطنية للمؤتمر الخامس"، وتوسع في الحديث عن النشاط الحزبي بينما كان مساعدية يستمع له صامتا، بدون أن يخفي إدراكه بأن الكلام موجه له لإعداد شيئ آخر مطلوب منه.

وقال لي مساعدية : "ما رأيك ؟" وأجبت ببرود : "ليس عندي رأي، عليكم أن تقوموا بالإملاء وعلي الكتابة فقط لا غير"وكنت أستعمل، آسفا، هذا الأسلوب للمرة الأولى، ويدخل العربي بلخير ومساعدية يقول لي : "لا بد أن تعطينا رأيك في الصياغة [16].

كنت أمسك بالقلم وأكتب ما يمليه طالب، الذي يطلب رأيي فأنظر له بعينين أشبه بعيني سمكة ميتة ولا أعلق، ويقول طالب، وهو ينظر إلى ورقة أمامه تحوي نصا مكتوبا بالفرنسية وبخط اليد، وهو ما يعني غالبا أنه هو الكاتب : "الجانب الدولي كبير ولا بد من أن نقول شيئا عن الجانب الوطني لخلق توازن في البلاغ... ما رأيك ؟

وأصمت ثانية والعيون تتابعني، ووصلت إلى اليقين بأن الرئيس طلب إليهم مراجعتي في نص البلاغ، ولم يكونوا قادرين على الخروج عن إرادته، وأحسست هنا بالقوة التي جعلتني أقول ببساطة : " تريدون رأيي، حسنا، يُمكن القول أن المكتب السياسي درس عددا من القضايا من بينها أو في مقدمتها

16- كان المألوف أن أقوم بإعداد مشروع للبلاغ على ضوء جدول الأعمال وما أسمعه من الرئيس الذي يعطيني بعد الاختتام أفكارا عما دار في الاجتماع أعد على أساسها النص النهائي، وكنت أحيانا أعرضه عليه أو أستشير محمد الشريف مساعدية في بعض عناصره.

التحضيرات الجارية لعقد المؤتمر الخامس وتضاف بقية النشاطات على شكل رؤوس أقلام.

غير أنني حرصت على عدم إعطاء أي أفكار جوهرية واكتفيت بكتابة ما أملي عليّ، وعندما كنت أخط الفقرة الأخيرة في البلاغ أبلغت بأن الرئيس يبحث عني، فتباطأت حتى تلوت الفقرة على الحاضرين، ثم دخلت على الرئيس بدون أن أضع أي قناع يخفي غضبي على ما حدث ويحدث.

ووجدت الرئيس على مكتبه، وكان قد انتقل إلى الجناح الجديد للرئاسة منذ عدة شهور، بينما حُوّل المكتب القديم الذي كان مكتب بو مدين إلى جزء من قاعة انتظار مجلس الوزراء، الذي تم بناؤه على الساحة المواجهة لمدخل مبنى الرئاسة.

وقال لي الرئيس وأمامه نص الخطاب الأصلي والأوراق الإضافية التي تضم التعديلات : "قلت لك لست أريد التطويل، أريد نقاطا محددة بدون فلسفة"، وقلت له بصراحة بأنه ليست هناك أي فلسفة، هناك أفكار واضحة ومحددة (ولم أقل له أنني أقضي ليالي طويلة أبحث عن الأفكار العميقة وأحاول صياغتها بما يجعل من خطاب الرئيس مزيجا من العمق والبساطة، وهي عملية بالغة الصعوبة) ثم قلت بأن : " خطب الرئيس هي المصدر الرئيسي لإثراء الوثائق السياسية للبلاد، ولا يُمكن أن تكون بلاغيات في الهواء أو سردا للأرقام، وعلى كل فقد أرسلت لك اقتراحات لحذف عدد من النقاط، وكلها أمامك ويمكنك أن تختار بنفسك".

وقال الرئيس (ومرة أخرى أنا أسرد هنا ما كنت كتبته في حينه) : "أنا مرهق، أكاد لا أرى شيئا أمامي، ونحن في اجتماع منذ الصباح"، وأعترف بأنني شعرت بالتعاطف البالغ معه، خصوصا وأنا أتخيل الضغوط التي يتعرض لها داخل الرئاسة وخارجها.

وقال الرئيس : "سأترك لك الأمر، فابذل جهدك"، وذكرته هنا بأننا لم نتفق، بن قاسي وأنا حول بعض نقاط الجانب الدولي، ثم بقيت صامتا في انتظار أن يستأنف هو الحديث.

وسألني : "هل هناك شيئ آخر ؟" وقلت له بأن هناك بلاغ المكتب السياسي، فقال : "هل ناقشته مع الجماعة" وقلت له وأنا أضغط على كل حرف أنطق به : "لقد أملاه علي طالب ومساعدية".

وسأل من جديد: "ما رأيك؟"، وبقيت ساكتا على غير عادتي، إذ أردته أن يفهم أن هناك تغييرا في أسلوب العمل كان هو الذي فرضه، وواجبي هو أن أطيع، فقال : "اقرأ لي النص"، وقرأته له فقال ما هي ملاحظاتك، ومرة أخرى لم أشأ الإدلاء بأي رأي، وأردته أن يعرف ذلك.

لقد قرأت له البلاغ كمكلف بمهمة، وقرأته بكل هدوء وتأنٍ، وعليه أن يكتشف بنفسه إذا كان البلاغ كما يُريد أم لا، وكنت أعرف أنني كنت أجازف بإغضابه وهو يرى تغير أسلوبي في التعامل معه، لكنني لم أعد أستطيع التراجع، وكان عليه أن يُدرك مدى العبء الذي أحمله على كتفي لأكون وفيا له وحريصا عليه.

وبقيت صامتا في انتظار أن يصرفني بقوله، كالعادة: "أتركك لعملك"، ولكنه لم يفعل رغم إرهاقه الواضح، ثم سألني : أين وصلت قضية الاستجوابات الصحفية بمناسبة زيارة باريس ؟، وقلت له بصراحة أنني أوقفت كل اتصالاتي بعد أن سمعت ما يشبه اللوم من الأمين العام الذي تحدث عن ضرورة ألا أعمل بصفة فردية، أي كما كنت أعمل منذ سنين وسنين.

وقلت للرئيس بأنني أتعرض لضغوط كثيرة من أجل إجراء الأحاديث والاستجوابات، وأنا شخصيا في ظلام لا أرى فيه أين اتجاه المسير من جهة، ومن جهة أخرى أحس بضرورة أن تذهب إلى فرنسا من دون كشف لكل الأوراق، وقال لي أنه طلب من وزير الإعلام بسايح أن يُجري اتصالات هناك

لإعداد الجو، (والواقع أن هذا كان اقتراحا قدم له لاستبعادي نهائيا عن العملية كما سبق أن قلت) ولكن هذا، كما واصل الرئيس حديثه، لا يتناقض مع عملك".

وقلت: "المهم أن أعرف ما هو المطلوب مني بالضبط، والواقع أنني في حيرة من أمري" ثم أفلتت مني الجملة .."إنني في حيرة من أمري بعد حكاية المُكلفين بمهمة".

وبدا وكأنه كان ينتظر مني هذا التعبير حيث قال على الفور: "إنها عملية تنظيمية، ولن يكون هناك بعد اليوم منصب مستشار الذي تعرف به الدول المُتخلفة (!!) سيكون هناك منصب مُكلّف بمُهمة، وليس الأمين العام هو الذي قرر هذا (ولم يكن قد ورد في حديثي أي إشارة للأمين العام) والقضية ليست محصورة فيك فهناك آخرون، ولا تغيير بالنسبة للرتبة أو للمرتب".

وقلت له أنني: "لا أهتم بهذا ولا بتلك (وقد هبط دخلي عندما توقفت عن ممارسة الطب والتحقت بالرئاسة من عشرة إلى واحد) وقد عملت معك على أساس الحب والثقة، واعتبرت نفسي مرتبطا معك بعقد أخلاقي (Contrat moral) وسألتزم به إلى آخر دقيقة، ولكنها لم تكن مفاجأة سارة"، قال : "إنه تنظيم خاص بالرئاسة ولم يكن مطلوبا أن يُعلن هذا على الجميع (ولم أفهم ماذا يقصد بالضبط بالرئاسة وبالجميع، وبدا لي للحظات غير ثابت الرؤية) واستمعت له وأنا صامت مكفهر الوجه، وازداد يقيني أنه خدع تماما في هذه القضية، وهو أخف ما يُمكن أن أقوله، لكنني أستطيع القول أنه، إذا لم يكن فهم الأمر في حينه فسيفهمه فيما بعد عندما يكتمل حصاره وتحكم الغمامة حول عينيه وتفلت الأمور من بين يديه، وأظن أن هذا هو ما حدث في أكتوبر 1988، بعد أن "فبركت" الأحداث المعروفة واختلت وضعية الدولة، حيث نقل إلي أنه قال أمام عدد من العاملين في الرئاسة وموجها حديثه لبعضهم : "وَخّنتوني في عميمور" (والعهدة على الرواة وكانوا أكثر من واحد، ولا أؤكد لكنني لا أنفي) وخرجت عائدا إلى مكتبي وتركته في وضعية خيل لي أنها أقرب إلى اختلال التوازن، حتى خشيت أن تكون وضعيتي النفسية تجعلني أشبه بمخمور ينحرف شمالا ويمينا ويظن أن الآخرين هم الذين يترنحون.

ويتصل الرئيس بي صباح الخميس 20 أكتوبر ليسألني عن الخطاب مرة أخرى وقلت بأنني بعثت به إليه عن طريق الديوان كالمألوف، ولم أكن أعرف أن الأمين العام ومدير التشريفات وعدد من معاونيهم قد سافروا إلى باريس لإعداد الزيارة، وكان المألوف أن أسافر أنا أيضا للمشاركة في عملية الإعداد، ولكن حكاية الخطاب استعملتْ مبررا لإبعادي (وقد يبدو الأمر أنني أصبت بالبارنويا ولكنني أروي الأحداث كما وقعت وأترك الاستنتاج للقارئ).

وبقي على نهاية الشهر عشرة أيام، وسيعقد غدا 22 أكتوبر مجلس وزراء، وأنا بالغ القلق لأنني أريد أن يتفرغ الرئيس للتدرب على خطابه الرابع أمام المجلس الوطني الشعبي.

ويقر مجلس الوزراء مشروعين يتعلق الأول بوسام الاستحقاق الوطني والثاني بوسام المجاهدين (وتسلمت فيما بعد وسام المجاهدين من الوزارة المعنية لكن اسمي لم يكن موجودا في قائمة الذين أعطي لهم الوسام الأول) وأسجل هنا أن الرئيس أكد مطولا على ضرورة دراسة كل المُعطيات المتعلقة بمنح الأوسمة واختيار من تمنح لهم وتفادي كل تسرع يؤثر على العملية كلها.

ولكن التسرع حدث لأن هناك من كان يريد تحقيق أرباح معنوية من وراء العملية وكسب عدد أكبر من المريدين، ثم أعطيَ الوسام لأجانب لم يكونوا كلهم جديرين بحمله، وكانت النتيجة المؤسفة أن تضاءلت قيمة الوسام بحيث نجد قلائل اليوم يضعون "وريدته" في عروة الجاكت في الاحتفالات الرسمية، على عكس وسام جيش التحرير الوطني ووسام المنظمة المدنية لجبهة التحرير.

(4)

استدعاني الرئيس صباح اليوم قائلا : "فلان ... تعال (أرواحْ)"، وهو ما يختلف عن استدعائه لي وهو منشرح الصدر خالي البال إذ يقول : "فلان ؟ هل تأتي (تجي)؟"، وذهبت له ومعي صورة من المشروع الثالث عشر للخطاب،

وأحسست بأنه غير راض عن النتيجة، وتملكني الشعور بأن هناك عيونا كثيرة اطلعت على الخطاب وآراء كثيرة تداولت أفكاره.

وتناقشنا، وقلت له أن مستوى الخطاب عالٍ بالفعل لأنه يعكس تطورات البلاد في أربع سنوات بذلت أنت فيها جهودا مضنية لا بد من تسجيلها بل وتنظيرها، وعندما قال لي أنه لا يريد أسلوب إعطاء الدروس قلت له أن توجيهات رئيس الجمهورية هي جزء من عمله، وهي أكثر من ضرورية.

وعاد ثانية إلى قضية الخاتمة التي كان يرى أن يرد فيها ما يُشير إلى شعار المؤتمر الخامس، وهكذا عدت إلى مكتبي لأقوم بما لست مقتنعا به وهو حشر شعار "العمل والصرامة لضمان المُستقبل" في خاتمة الخطاب إلى الأمة، فقد وصلت إلى وضعية الملل جعلتني غير قادر على أن أناقش ثانية أمرا أراه لا يحتاج إلى نقاش.

وكنت أسأل نفسي في كل لحظة: "ترى من يقف وراء عملية التشويش هذه ؟"، ولم أصل إلى يقين لأن الساخطين يتكاثرون يوما بعد يوم.

وسمعت من مساعدية نقدا للتغطية الإعلامية التي تمت بالنسبة لزيارة الرئيس للجامعة، ولست أنكر ما إذا كان هو موجودا هناك أم لا، حيث أن الزيارة كانت لمعرض جامعي ولم يكن عدد الحاضرين من الطلبة في جامعة تضم الآلاف إلا عدة مئات، من بينهم سعاة وإداريون وفضوليون، وكان الاستقبال في مستوى وزير عاديّ لكيلا أقول رئيس بلدية، وفهمت أن المقصود من النقد الحزبي هو التغطية على عجز الهيئات الطلابية عن تجنيد حمام جماهيري يستطيع الإعلام، وهو ظل لعود، أن يعكس صورته بل وأن يضخمها إلى حد ما، لتبرز حُسن استقبال الشباب للرئيس.

ومررت بالأخضر الإبراهيمي في مكتبه ولاحظت أن نفسيته بالغة السوء، فقد كان يُحس بالإهانة.

وتتواصل عملية الإعداد لزيارة فرنسا.

ويتم اجتماع في مكتب الأمين العام يحضره مولود وعبد الملك كركب (مدير الأمن الرئاسي) وبسايح وبن قاسي والحاج عزوط وكروم (المكلف بالشؤون السياسية في وزارة الخارجية) وشيتور والسفير، وتلا مولود برنامجا بدا أنه نهائي ومصادق عليه.

- – تمت الموافقة على زيارة قوس النصر والجندي المجهول.
- – تم نفس الشيئ بالنسبة لبنود الزيارة.

وعندما طُرحت قضية الندوة الصحفية رفضها كروم، ولم يكن موقف بسايح نهائيا أما جمال حوحو فقد كان متحمسا، وعندما سُئلت قلت بأن الرأي هو لوزير الإعلام الذي قام باتصالاته هناك حسبما فهمت، وإذا أمكن التحكم في الوسائل التقنية وأمكن ضمان الترجمة الفورية المتقنة لكل المشاركين وبأكثر من لغة، ثم أمكن تنظيم عملية طرح الأسئلة وتفادي لحظات الفراغ الناتجة عن تأخر الترجمة أو عدم وضوحها فيمكن آنذاك الحديث عن مبدأ الندوة.

ويظل القرار لصاحب القرار.

واستمر الاجتماع حتى السابعة مساء واستبعدتْ خلال المناقشة فكرة زيارة مسجد باريس، ولأسباب قيل أنها أمنية وكنت أراها سياسية، وطرح العربي فكرة استقبال الرئيس للشيخ العباس عميد المسجد ولم أتحمس لها ووقف كروم ضدها وكذلك الحاج عزوط، وهنا قال العربي بأن عنده خلفيات جعلته يطرح السؤال، وكان المفروض أن يستعرض الخلفيات في اجتماع على هذا المستوى ولكنه لم يفعل، وكنا مُرهقين فلم نصر على ذلك، وكنا نعرف ارتباطات الشيخ العباس ببلدان خليجية.

وكان واضحا أن دعوة العربي لي لكي أشارك في هذا الاجتماع بالذات هو محاولة استباق أي فلتان في العمل الإعلامي، بعد أن اتضح أن وزير الإعلام لم يحقق الكثير خلال اتصالاته مع الفرنسيين، الذين كانوا بطبيعة الحال

يريدون كشف حساب تفصيلي عن كل عناصر الزيارة وعن خلفيات الرئيس وعن أوضاع الجزائر...أي أنهم كانوا يريدون بصريح العبارة القيام بعمل مخابراتي تحت غطاء إعلامي، وكان هذا هو سر حذري من البث المباشر ومن استعمال الفرنسية في التعامل مع الصحفيين، ومن هنا قلت أن كل شيئ يعتمد على الجهود التي بذلها وزير الإعلام في تمهيد الجو هناك (وكنت أعرف أنه لم يتم شيئ خارق للعادة باستثناء عملية التغطية الروتينية التي تضمنها مصالح رئاسة الجمهورية الفرنسية)

وتأكد لي صدق المثل الشعبي : "حلّ الصرة تلقى خيط" وذلك عندما لقيني وزير الإعلام صباحا وهو يتجه إلى مجلس الوزراء، واقترح علي أن أسافر مسبقا إلى باريس للاطمئنان إلى حسن الاستعداد مؤكدا لي أنه تحدث للعربي في هذا الشأن، ومرة أخرى تذكرت مثلا شعبيا يقول عن ثور هزيل : "لو كان يحرث ما يبيعوه"، أي أن الناس لا تبيع ثورا في قمة قوته ومقتبل شبابه، ولو كانت الأرضية قد تم إعدادها في باريس بالطريقة المطلوبة والمناسبة فإن إرسالي يعني أن كل نجاح سيُنسب لي، وهو آخر ما يمكن أن أنتظره من القوم.

وأبلغني مولود بعد انتهاء اجتماع مجلس الوزراء بأنني مطلوب في مكتب الرئيس مع وزير الإعلام بسايح، وكان الرئيس يريد إضافة فقرة للخطاب تشير إلى موضوع نوقش في المجلس وهو متعلق بتقاعد كبار المسؤولين، وقال بأن هذا، مع اقتراب المؤتمر، يُطمئن كثيرين.

وخرجنا لإعداد فقرة موجزة تضاف إلى خطاب الغد، وقبل الجميع صياغتي الثالثة التي قالت بأن "الجهد الوطني يعتمد على الفرد المؤمن (..) الذي يثق بأن الدولة تحفظ لكل إطار كامل حقوقه وتضمن له مستقبله، طبقا لنصوص رسمية واضحة (وكانت هذه إضافة بو علام) عملا ملائما أو تقاعدا كريما".

وأعدنا بالتالي كتابة الصفحات 37 و 38 بخط النسخ الكبير ليمكن إدخال الجملة بدون تغيير بقية الصفحات، ويُهاتفني الرئيس قائلا بغضب: "ماذا أرسلت

لي؟ "وقلت له "أرسلت لك الفقرة المضافة موضوعة في مكانها الطبيعي في الصفحة المعنية"، وفوجئت به يقول: "ليس هذا ما طلبته"، قلت: "لقد قمت بصياغة ما اتفق عليه كل من بو علام بن حمودة (الذي كان وزيرا للمالية) والعربي بلخير والأمين العام للحكومة".

وبدأ يقرأ نص الفقرة في الهاتف وعاونته في العثور على السياق، فغير موضوع المكالمة وقال : "الم تغير شيئا في الفقرة التالية"، وقلت بأنه ليس هناك تغيير جوهري وإنما تعديل طفيف في الصياغة ليمكن التكيف مع الجملة الجديدة، وقال لي سأكلمك فيما بعد، وأحسست أن أفكاره ليست محددة، ربما لكثرة الآراء وتعددها، وعدت إلى مكتبي لنستكمل ترجمة الفقرة الجديدة، الأزهري شريط وأنا، ولنجدد الصيغة النهائية للخطاب للمرة الخامسة عشر.

وكان يوم 31 أكتوبر يوما عصيبا إذ كان الرئيس سيلقى أكثر الخطب التي تعاملت معها تعذيبا وأشدها إرهاقا وأكثرها إثارة للأعصاب، سواء بالنسبة لي وحتى بالنسبة للرئيس الذي بدا وكأن الآراء تكاثرت عليه، فقد كان هناك ستة عشرة مشروعا لخطاب واحد مدته نحو أربعين دقيقة.

وكنت أكملت بالأمس إشرافي على عملية الترجمة التي قام بها محمد العيد بو رغدة وبدر الدين الميلي وبمتابعة دقيقة من الأزهري شريط، وحظي الخطاب بتصفيق حار، وقبول متميز من الحضور وفي الشارع ولدى الصحفيين، وبدا واضحا أن الرئيس بذل مجهودا كبيرا لاستيعابه وأدائه، وهو ما قام به وحده، وهو، في تصوري، تطور ممتاز يُحسب له.

وكان مما جاء في الخطاب الذي ألقاه الرئيس في 31 أكتوبر :

- – تميزت مسيرتنا بالوفاء بالعهود للوطن وللمبادئ.
- – المنجزات تؤكد أن القيادة كانت تعيش دائما اهتمامات المواطن.

- – الغزو الفكري الذي تعرض له جيلنا سيؤثر أضعافا مضاعفة على الأجيال التي لم تكن لها فرصة مصارعة الغزو الاستعماري.

- – إذا كان التقدم الذي حققناه دليلا على أن كل شيئ مرهون بإرادة الرجال فإنه يُحدد المقاييس التي يجب أن نعتمدها لوضع الرجل المُناسب في المكان المناسب وفي الوقت المُناسب.

- – الدعامة الحقيقية للوزن الوطني المؤثر (..) هي الجهد الوطني على كل المستويات وفي كل المجالات.

- – سهرت الدولة على أن تستعيد للمسجد دوره كمركز إشعاع روحي يُساهم في بناء المجتمع الفاضل (..) وغرس الروح الوطنية والاعتزاز بدور الجزائر في الحضارة العربية الإسلامية [17].

- – على المؤسسات المعنية بالثقافة توضيح المفاهيم حتى لا يكون هناك خلط بين الثقافة بمفهومها الحضاري الشامل وبين صور الفولكلور المختلفة، وهي جزء من كل [18].

- – تسجيل دعم الجزائر للقضية الفلسطينية وللوطنيين في لبنان.

- – بناء المغرب العربي مرهون بإيجاد حل سياسي عادل لقضية الصحراء الغربية.

وخصص الرئيس جانبا هاما من خطابه لاستعراض كل النشاطات الحزبية والملفات التي عالجتها اللجنة المركزية.

17- أرجو أن يقارن المؤرخون بين التمسك بالإشارة إلى الحضارة العربية الإسلامية في كل خطب الرئيس وتصريحاته خلال العهدة الأولى ثم نفس ذلك الأمر خلال العهدة الثانية والشهور التي تلتها.

18- أفكار متميزة ولكنها ذهبت للأسف أدراج الرياح لأن القوم كانوا مشغولين بما هو أهم بالنسبة لمستقبلهم الشخصي كما سبق أن قلت.

واختتم صلب الخطاب بالسطور التالية :

"لقد أثبتت ثورتنا بأنها ثورة خالدة لأنها ثورة متجددة الحيوية، ثورة لا تتوقف ولا تتراجع، تتريث ولا تتردد، تتسامح ولا تتهاون، ثورة أصيلة لأنها تستمد هويتها من القيم النبيلة التي يُجسدها ديننا الحنيف، ثورة تهتدي بأنبل الشعارات ولكنها لا تعيش على الشعارات وبالشعارات، ثورة تؤمن بأن أساس المجتمع الفاضل هو الإنسان المُعتز بقيمه الملتزم بمبادئه المتفتح على عصره المؤمن بأن تكافؤ الفرص مقترن بتكافؤ الجهد، وبأن تكافؤ الامتيازات مرهون بتكافؤ التضحيات، ثورة بالشعب وللشعب، بالإنسان وللإنسان، ثورة لا مجال فيها لصراع طبقي أو لتعصب فكري يُعطي نفسه حق الوصاية ويخفي الأطماع الشخصية تحت رداء أعظم الأفكار".

وقال الرئيس في الخاتمة (التي تم دمج العديد من الأفكار فيها كما سبق أن ذكرت):

إننا ونحن نحتفل بالذكرى التاسعة والعشرين لثورة أول نوفمبر المجيدة في جو الخشوع والترحم ونستعد، في ظل الوضوح والاستقرار، لعقد المؤتمر الخامس للحزب تحت شعار : العمل والصرامة لضمان المُستقبل، نسترجع ما واجهناه فنحس بالفخر والاعتزاز لأن مسيرتنا تميزت بالوفاء، الوفاء للوطن والوفاء للمبادئ والوفاء بالعهود والوفاء للملايين الذين جعلوا من بلادنا عبر العصور أرضا كريمة تختلط فيها التربة برفات الضحايا والشهداء (..) الذين تمثل الجزائر بالنسبة لهم قلعة وذخرا وأملا.

هذا هو قدرنا وتلك هي مسؤوليتنا"

وقال لي مساعدية أن الخطاب ممتاز في نهايته، وسألته ضاحكا "في نهايته فقط"، ولم يُعلق مولود ولا العربي، وكان هذا بالنسبة لي دليل نجاح مؤكد، حيث

لم أسمع نقدا واضحا، وكما يقول الفرنسيون " Pas dc nouvcllc... bonnc nouvcllc".

وكانت هناك بعض العثرات تم التعامل معها كالعادة في النص المتلفز، واستدعاني الرئيس ظهرا ليسألني رأيي وقلت له بإخلاص أن القاعدة والجمهور أعطياك الجواب، ولقد بذلتَ مجهودا مُعتبرا، فقال إن "النص هذا العام خيرٌ من نص العام الماضي"، وقلت له بأن "مجهودا كبيرا قد بُذل لكي يكون الخطاب دسما يجسد كل نواياه وآماله مع الحرص على أن يكون متوسط الطول وبدون أي تفلسف أو تقعر، وأعترف بأنني أزعجتك وكنت عنيدا لأنني كنت أريد نتيجة تشرفك" وقال مبتسما : "فعلا، أنت كنت عنيدا ولكنني تجاوبت معك".

وخرجت من عند الرئيس فالتقيت العربي ومولود، ورغم أنني كنت أتحكم في نفسي والتزم بالحكمة التي تقول " إللي ما شاورك هنّاك (أو أراحْكْ) فقد كان لزيارة فرنسا اعتبار خاص يتطلب الحذر في كل شيئ، وهكذا قلت لهما بأنني سمعت بأن اتفاقا تم مع الفرنسيين يقضي بإعطاء بلاغ الزيارة بحيث يصدر يوم أول نوفمبر (عيد الثورة) وهذا في تصوري أمر يتطلب التفكير جيدا.

وذهبت إلى التلفزة لإعداد النص التليفيزيوني للخطاب كالعادة، وعندما عدت أعاد علي العربي اقتراح وزير الإعلام بالذهاب إلى فرنسا لإعداد الجو، وكان يجب أن أقول له بأن هذا كان يجب أن يتم في اليوم الأول وأنني لا أركب القطار بعد سيره ولست مستعدا لتغطية عجز الآخرين كما فعلت طوال حياتي، لكنني فضلت النوم في الخط، وقلت له إن التزاماتي كثيرة ومن العسير علي أن استكمل عملا بدأه وزير الإعلام.

ولعلي أقول هنا بأن شيئا مما جرى الحديث عنه طويلا بين المكلفين المباشرين بإعداد الزيارة لم يتم، فلم يكن هناك حوار صحفي ولا يحزنون، ولكنني أيضا كنت أعددت العدة لتكون زيارة الرئيس إلى فرنسا عرسا له وتجديدا للثقة به على مستوى الداخل والخارج، وبطريقتي الخاصة.

(5)

اليوم أول نوفمبر.

والرئيس يتوجه اليوم إلى "مقام الشهيد" حيث تتم مراسم الترحم على الشهداء في قاعة الترحم الجديدة أسفل النصب التذكاري، وهو ما توقف العمل به فيما بعد، للتخفيف على الرئيس كما قيل، وأصبح كل شيئ يتم أمام الشعلة، وهو، في تصوري، استهانة بالعملية كلها وتبسيط لها، استجاب لها رئيس الدولة مما أنقص من قيمة المراسم ومن تأثيرها (واستجاب الرئيس لتسهيلات أخرى في مجال ممارسته لمهامه الرئاسية، وهو ما بدا أكثر وضوحا في عهدته الثانية حيث نقصت، مثلا، زياراته للولايات، وكان لهذا كله تأثير سلبي على صورته الجماهيرية).

ومقام الشهيد بناء ارتفاعه 97 مترا يمثل ثلاث سعفات نخيل تمثل، كما قيل، الثورات الثلاث، الصناعية والزراعية والثقافية، تتكئ على بعضها في منطقة الوسط ثم ترتفع فروعها لتضم بينها غرفة تطل نوافذها على الجهات الأربع للعاصمة وترتفع فوقها قبة تحمل هوائيات الاتصالات، أما القاعدة الموجودة بين منطلق السعفات فتشكل مساحة رخامية كبيرة توجد في وسطها قاعدة الشعلة التي لا تنطفئ، وفي الجانب الخارجي لكل منطلق لسعفة تمثال برونزي رائع طوله نحو تسعة أمتار يمثل جنديا ومجاهدا ومواطنا، ووضعت في مدخله صخرة مكعبة تحمل اللوحة البرونزية التذكارية التي كتبت باسم رئيس الجمهورية (وسبق أن أشرت إلى ظروف كتابتها)

وقام مهندسون كنديون وجزائريون ببناء النصب من الأموال التي كانت مُخصصة لمصنع تمييع الغاز الثالث، كما قيل آنذاك.

ورغم أنني أبعدت نفسي عن العملية التي أخذها البعض في المُرادية كتحدٍ شخصي، وخصوصا بعد أن رُفضت فكرتي لجمع تبرعات من المواطنين إشراكا لهم في أبوة الإنجاز كما سبق أن قلت والالتحام المعنوي للجماهير

بالتالي مع الرمز، فقد انتهزت فرصة إقحام مولود لي في قضية اللوحة البرونزية لكي أتدخل في أكثر من أمر انطلاقا من أن العملية هي، في نهاية المطاف، عمل تاريخي سيظل جزءا من إنجازات الأمة.

وهكذا قضيت وقتا طويلا في قبة الترحم ذات الطابع العربي الإسلامي وكان معي خطاط الرئاسة عبد الحميد اسكندر، لنفكر في تزيين جوانب القاعة، وكان اتجاه المهندسين المعماريين في البداية استعمال مزيج من الأشعار والآيات القرآنية، ولم أقتنع أنا بذلك وتواطأت مع عبد الحميد لكي نكتفي بالآيات القرآنية على كل الجدران، ثم اقترحت فكرة وضع سورة الفاتحة لتحديد اتجاه القبلة وهو ما تم تنفيذه، وبالتواطؤ دائما، إذ لم نستشر أحدا.

وعلى جانب الدرجين الذين يصلان القاعة يمينا ويسارا بالجزء العلوي كتبت بالخط المُذهّب على رخام أسود قصيدة للشاعر محمد العيد آل خليفة، وكانت المفاجأة أن تجميع اللوحة، التي كانت في واقع الأمر عدة لوحات رخامية سوداء، لتتسع لثمانية وعشرين بيتا مختارة من شعره، أبرز خطوطا رخامية كانت في مجموعها صورة لخريطة الجزائر، ولم يكن هذا أمرا مقصودا.

وكان المُشكل المطروح هو ما الذي يمكن أن يوضع في منتصف القاعة الكبرى.

وتحدث البعض عن رفاتٍ لشهيد مجهول وتخيل البعض، بدون أن يسفر عما يتخيله، أن يُترك المجال فارغا لرئيس قادم يدفن فيه عند وفاته، واستقر الرأي أخيرا على وضع صخرة كبيرة ترمز إلى جبال الوطن التي اندلعت منها الثورة.

وقبل الحفل ذكّرتُ مولود بضرورة أن يطلب من الرئيس عدم قراءة الفاتحة أمام الشعلة، بل يُكتفي بوضع إكليل الزهور على اللوحة (ويرجع الفضل إلى مولود في عدم كتابة اسم الرئيس الشاذلي على اللوحة بما يوحي أن النصب

هو قبر) ثم يقف الرئيس أثناء عزف الفرقة الموسيقية لنشيد الموتى، ثم يخترق الساحة إلى أسفل النصب عبر الدرج ليدخل قبة الترحم حيث يقرأ الفاتحة.



عند إحدى القواعد الثلاثة لمقام الشهيد مع محمد ومنى عميمور

وتم الأمر تماما كما أردته، لكن القائمين على تنظيم العملية فيما بعد اختزلوها، وهكذا أصبحت الفاتحة تتلى أمام النار، مما أعطى بعض التيارات الدينية الفرصة للمزايدة، ولتطلق على النصب اسم "هُبل"، تذكيرا بآلهة الجاهلية، ووصل الأمر، بشكل أو بآخر، إلى السعودية فرفض المكلفون بإعداد زيارة الملك فهد تماما أن يتوجه إلى مقام الشهيد.

وأعترف أنني كنت أقول لنفسي: "ما ضرني لو قرئت الفاتحة أمام النار أو أمام الصخرة"، وكانت الإجابة الآلية أنني أقوم بما أراه واجبا تجاه الوطن ومن يرمز للوطن وما يرمز للوطن.

والذي حدث فيما بعد أن النار أطفئت لتفادي ردود الفعل السلبية في الشارع، وفقد النصب جانبا من أهميته وحيويته.

وأقيم الحفل التقليدي في قصر الشعب، ولاحظت شيئا يحدث للمرة الأولى، إذ توجه الرئيس نحو المدعوين يصافحهم ووراءه كل أعضاء المكتب السياسي وخلفهم السيدة حرم الرئيس ووراءها أزواج أعضاء المكتب السياسي، في حين كان مفروضا أن يكون الرئيس وحده وبجانبه حرمه في حالة المرور على المدعوين، أو وقوف الرئيس وبجانبه حرمه ثم أعضاء المكتب السياسي ويمرّ عليهم المدعوون، في عودة للنظام الذي كان يسير عليه الرئيس بو مدين.

ولا أعتقد أن أمرا كهذا قد فات على مولود بذكائه، ولكنني أتصور أنه فهم ما لم أرد فهمه، حيث كنت أقول أنه إذا كان انبطاحي أمام الجهلة سيجعل نجمي ساطعا فلتأفل كل النجوم وقبلها نجمي.

ذلك أن القاعدة الآن هي أن الوفاء للالتزام مع الرئيس، أي الولاء الرأسي، يُمكن أن يُغضب الآخرين، ولكي يتحمل المرء نتائج ذلك الغضب يجب أن تتوفر له الحماية الكافية، وإذا لم تتوفر تلك الحماية فلماذا إغضاب الناس وجني الشوك لتبقى الورود للرئيس الذي لا يعرف كل ما يجري حوله.

وبالتالي فإن حجما من الولاءات الأفقية، قد يزيد أو ينقص، يجب أن يكون مضمونا، وتكون المشكلة عندما يطغى الولاء الأفقي على الولاء الرأسي.

وحضر محمد الصالح يحياوي حفل أول نوفمبر، وكان قد زارني قبل أيام وقال لي بأنه مدعوّ ولكنه ليس متحمسا للذهاب، وقلت له بأنه مُخطئ، وبأن له، كمجاهد، حقا في أول نوفمبر.

وسعدت بأنه استجاب لرأيي، وربما اختلف في ذلك مع بعض مريديه الذين نصحوه بالمقاطعة لأنهم، هم أنفسهم، لم يكونوا مدعوين.

ووقع الرئيس مراسيم تكفل حقوق التقاعد لكل رؤساء الدولة السابقين ورؤساء الحكومات الجزائرية منذ كان للجزائر حكومة وكذلك لأعضاء القيادة السياسية والإطارات العليا للحزب والدولة، وهو إجراء تفخر به العهدة الأولى للرئيس الشاذلي وتفخر به الجزائر كلها.

وعلمتُ أن اجتماعا سيُعقد في الثالثة بعد الظهر لبحث خطب الرئيس في فرنسا مع العربي وطالب وبن قاسي ومجموعة الخارجية، واعتبرتُ بأنني لم أسمع شيئا وعدت فورا إلى البيت، حيث لم يدعني أحد للحضور والمُشاركة.

وعقد اجتماع رسمي لأعضاء الوفد يوم السبت الخامس من نوفمبر، وكان رأيي في تغيير يوم الإعلان عن الزيارة قد تم الأخذ به ولم ينشر الخبر يوم أول نوفمبر كما كان مُقررا.

واستدعاني الرئيس في اليوم الثاني لبحث قضية الاستجوابات الصحفية التي تكاثر عددها مما أعطاني اليقين بأن الفرنسيين هم أحرص منا على إنجاح الزيارة ليتم هدم الحاجز النفسي بين البلدين وتسجل للرئيس متران بادرة المصالحة الفرنسية الجزائرية، وسألني عن رأيي في الخطب المُعدّة لفرنسا، ولما قلت له أنني لم أطلع عليها قال لي " إنها لم تعجبني"، ثم أعطاها لي طالبا أن ألقي عليها نظرة، فأخذتها إلى مكتبي وقمت بتصويرها.

وهاتفني الرئيس بعد بدقائق ليسألني عن رأيي في الخطب فقلت له أنني غارق مع الصحفيين ولم أستطع إعطاءها الوقت الذي تستحقه، وأرسلت له الأصول بدون أي تعليق عليها.

وطلعت فكرة اصطحاب الرئيس لمدعوين جزائريين خاصين، تماما كما اصطحب متران في زيارته مدعوين كان من بينهم جول روا (فرنسي من

مواليد الجزائر ومؤلف أحصنة الشمس) وروجي هانان (الممثل المعروف وصهر الرئيس)، وقال لي العربي بأن "الجماعة" رشحوا أسماء وهو يريد معرفة رأيي، فاقترحت الأزهري شريط (المدير العام للإذاعة والتلفزة، وهو صديق وكفاءة ممتازة) وبلقاسم سعد الله (المؤرخ، والذي لم يكن من أصدقائي أو المرتبطين بي بأي علاقة خاصة) وأحمد راشدي (المُخرج السينيمائي، وهو أيضا لم يكن من أصدقائي المُقربين) كلّ بما يُمثله كفرد وكلهم بما يمثلونه كمجموع، ثم عرفت أن الاختيار قد وقع فعلا على الأخضر حامينة (المخرج السينيمائي والذي كان حصل على سعفة "كان" على فيلم "سنوات الجمر" وكنت هاجمته كتابة في عهد الرئيس الراحل وقلت أنه فيلم رائع تقنيا ولكنه سيئ سياسيا ويخدم النظرة الفرنسية) ونور الدين نايت مازي (وهو صحفي ممتاز جعل من صحيفة المجاهد المرجع الإعلامي الأول، بدعم من كل القيادات السياسية والاقتصادية، وأصبحت الصحيفة مشتل الصحفيين الذين يكتبون بالفرنسية، ويحسبه كثيرون على أحمد طالب) وعبد القادر بن قاسي (الذي رشحه وزير الخارجية، كما قيل، لمنصب مكلف بمهمة في الرئاسة) وكان واضحا أن أحمد طالب يبعث برسائل تقول بكل وضوح أن من يلتزم معه يضمن مستقبله (ومن هنا كان إرسال محمد السعيد إلى جدة رغم غضب الرئيس عليه، وكان مدير الشعب السابق من أوفى الأوفياء لأحمد طالب وارتبط به حتى النهاية فكان مستشاره وصديقه)

وكان واضحا أن الحصار يضيق حولي شيئا فشيئا، وهكذا أعد خطاب الرئيس الرسمي والكلمة التي من المفروض أن يلقيها في المطار ولم أُستشر في هذه أو في ذاك من قبل مجموعة العمل المعنية، ولم أبلغهم بما قاله لي الرئيس، لكنني كنت أعرف المثل البريطاني الذي يقول بأن الشجاعة ليست ألا يرتجف قلبك ولكن ألا يُحسّ أحد بأنه يرتجف، ومن هذا المنطلق واصلت عملي واتصالاتي مع الصحفيين بالأسلوب المألوف، وقمت باختيار ممثلي الإعلام الذين سيقومون بتغطية الزيارة (والتي ستتلوها مباشرة زيارة لإيطاليا) ولم أعط

لأحد الشعور بأنني محاصر أو أنني أتعرض لمضايقة من أي نوع، وكان هذا جزءا من متطلبات نجاحي في مهمتي إلى جانب الرئيس ومن أجله.

ولم أحاول أن أطرح الأمر على الرئيس بشكل مباشر لأنني كنت تعلمت أن أسوأ ما يمكن أن يقوم به مساعد لمسؤول كبير هو أن يضعه في موضع الاختيار بينه وبين آخرين، وخصوصا وأنا لم أكن أعرف حجم التأثير المُضاد، بل ولم أكن أعرف كل مصادره.

وركزت عملي على النشاط الإعلامي الذي كانت يداي فيه طليقتان، وهكذا، وبعد حديث الأمين العام عن ضرورة تفادي الانفراد بالعمل، وجدتها فرصة لتخفيف حجم أعبائي، وطلبت أن تقوم مجموعة عمل بإعداد مشاريع الرد على الأسئلة التي وصلتنا، وضمت المجموعة بن قاسي وشيتور وحسين كروم، وكان مبدأ قبول الاستجواب قد تم بالنسبة لصحيفتي لوموند والفيغارو الفرنسيتين ولصحيفة لاستامبا الإيطالية، وكذلك لكل من التلفزة الفرنسية والإيطالية.

واستقبلت يوم الأربعاء 2 نوفمبر بول ناهون ممثل القناة الثانية للتلفزة الفرنسية ليقول لي، ردّا على سؤالي المُتعلق بالوقت الذي سيخصص للرئيس، أنه اتفق مع السفير حوحو على 15 دقيقة تقسم على فترتين، وهو ما أنكره السفير بعد أن رفض أحمد طالب الموافقة على تقسيم المقابلة، ولم أتدخل في الحوار حيث كنت أرى أن يُحترم اتفاق سفيرنا مع الصحفي، وتراجعت عن تأييده عندما أنكر ما قاله ناهون، وقال إنه اكتفى بأن نقل لنا رأي الصحفي الفرنسي.

كانت أعصاب الجميع متوترة مع اقتراب موعد السفر، وقبله مواعيد اللقاءات مع الصحفيين، وظللت متمسكا بدور التحفظ الكامل إلى أن اضطر العربي لكي يقول لي، بعد نقاشات تدخل فيها كثيرون: "افعل ما بدا لك".

والتقيت بالرئيس قبل التسجيل مع القناة الفرنسية الثانية وقلت له إنني وضعت أسئلة جديدة مختصرة مقارنه بالأسئلة التي أعدت مجموعة العمل

مشاريع الإجابة عليها، وسألني باستغراب : "أي محموعة ؟"، وفوجئت بسؤاله ثم أجبت بعد ثوان من الصمت : " المجموعة المُكونة في مستوى الأمانة العامة والتي تضم مسؤولين من وزارة الخارجية"، وقال الرئيس بحزم واضح : "ما يتعلق بي هو مسؤوليتك وحدك، وأنا فعلا أعتقد أن أسئلتك الجديدة أحسن وأقصر بالنسبة للتلفزة".

وراجعت معه الأسئلة وتحاورنا في تصور الرد عليها، وكان اهتمامه واضحا بدور القوات الفرنسية في لبنان وبقضية ازدواج الجنسية، حيث كان مما قاله بخصوص الشباب الجزائري المولود في فرنسا بأنه لا يؤمن بازدواجية الجنسية.

واستقبل الرئيس بول بالطا (لوموند) يوم السبت، وكان الحديث جيدا بصفة عامة خصوصا وأن بول يعرف العربية، وكان مما قاله الرئيس وتم التركيز عليه:

- الجزائريون لا يعيشون على الحقد ولا يحملون أي عقدة تجاه الماضي.
- اللقاء مع ملك المغرب تم بإلحاح من العاهل المغربي لدى بعض الدول الصديقة.

ثم استقبل، واقفا، مراسل "الفيغارو" لالتقاط صورة مع الإجابات التي سلمتها للصحفي الفرنسي، وسجلنا حديث التلفزة الإيطالية يوم الأحد ثم استقبل الرئيس مراسل "لا ستامبا" بنفس طريقة لو فيغارو.

وكان تكوين لجنة العمل المكلفة بإعداد مشاريع الإجابات عملية مفيدة، خاصة بالنسبة لصحيفتي لو فيغارو ولا ستامبا، أراحتني من عبء تحملته وحدي في السنوات الماضية، وأعطتني تعليمات الرئيس حرية التصرف النهائي، ووجدت من مصطفى عبد الرحيم عونا كبيرا في مجال الترجمة.

وبدأت الزيارة يوم الاثنين 7 نوفمبر وكان فيها إلى جانب وزير الخارجية الوزراء عبد الحميد إبراهيمي والسعيد آيت مسعودان وبوعلام بسايح وزهور ونيسي، كما كان هناك إسماعيل حمداني الذي كان مفيدا جدا في ترجمة تصريحات الرئيس [19].

وأعترف بأنني بدأت الرحلة وأنا لست في أحسن حالاتي، بعد مرحلة التوتر التي عشتها والمناورات التي تعرضت لها وعملية الإقصاء التي عانيت منها وإن كانت لم تحقق كل أهدافها عندما وجد كل نفسه أمام ساعة الحقيقة، وأدرك الذين كانوا يتعاملون معي أنني لست لقمة سائغة.

ونسيت معاناتي الشخصية والطائرة الجزائرية تخترق الأجواء الفرنسية وحولها من الجانبين طائرات الميراج الفرنسية في شكل حرس شرف، فقد رأيت في الزيارة انتصارا للشاذلي بن جديد وللجزائر ما بعده انتصار، فالأمر يتعلق بزيارة رسمية تستقبلنا فيها، استقبال الندّ للندّ، دولة كبرى كانت تعتبرنا جزءا لا يتجزأ من ترابها وكلفنا استقلالنا عنها ملايين الشهداء منذ غزو يونيو 1830.

ووصل الرئيس وحرمه إلى باريس وشعرت بالاعتزاز وأنا أراه يصافح فرانسوا متران وقرينته دانييل برزانة وبدون تكلف، ويقدم لهما حرمه التي كانت تثير الإعجاب فعلا كسيدة جزائرية.

وكان لعزف "قسما" في فرنسا، وللمرة الثانية في أقل من عام رنين رائع، وتلا ذلك استعراض الرئيس لحرس الشرف الفرنسي بخطوات واثقة، ثم ألقى خطاب الوصول الذي كان معدا باللغة العربية ردّا على كلمة الترحيب الفرنسية، وكان خطاب عاديا أُعدّ في وزارة الخارجية وترجمهُ، على ما أعتقد،

19- قال لي حمداني في لقاء خلال أغسطس 2007 أن الرئيس كان هو الذي أصر على وجوده بدلا من إدريس الجزائري، ولم أكن أعلم شيئا عن هذا الأمر، لكن إسماعيل تصرف بكفاءة عالية.

الأخ عبد القادر بن قاسي، وكانت المعاني مترابطة والإلقاء جيدا، ولكن لم يكن بالخطاب كلمات ذات رنين تاريخي يُسجل المُناسبة أو تعبيرات يُمكن أن يكون لها صدى دولي أو وطني.

وكان المُهم عندي هو أن الخطاب ألقي باللغة العربية.

وكان استعراض الرئيس لحرس الشرف في الإليزيه جديرا برئيس دولة واثق من نفسه ومن قدراته، وارتجل الرئيس عند الخروج كلمات علق فيها على اللقاء وتوجه للفرنسيين الجزائريين السابقين بقوله أن" الجزائريين يتعاملون مع من بقوا منهم عندنا بعيدا عن الكراهية أو الحقد"، وذكر من غادر الجزائر منهم بأن "الجزائر تحسن دائما استقبال من لم يسئ إليها".

وألقى الرئيس الخطاب الرسمي خلال حفل العشاء بالأسلوب الذي كنا قد اخترناه سابقا، وتولى الترجمة هذه المرة الأخ إسماعيل حمداني، وكانت هناك فقرة أضافها وزير الخارجية تتعلق، على ما أذكر بفرنسيي الجزائر واعتبارهم أصدقاء، لكن الرئيس كان قد حذفها وأشار لها بشكل عابر في تصريح الخروج من قصر الرئاسة الفرنسية.

وكنت أعددت عدة نقاط تتضمنها كلمة موجهة للجالية الجزائرية لا تتجاوز عشر دقائق، وسجلت، بالعربية طبعا، قبل تصريح القناة الثانية في حصة موزاييك (Mosaïqucs) المُوجهة للجالية، وكان استيعاب الرئيس للنقاط وتعامله معها رائعا، ليس فقط في أدائه التليفيزيوني وإنما في استعماله لأفكارها فيما بعد في خطابه أمام الجالية بمحضر الرئيس فرانسوا متران.

وكان أهم ما قاله الرئيس في "موزاييك"، والتي بدت حديثا من القلب تلقته كل القلوب، بأنه يتوجه لأولئك : "الذين يعيشون بأجسامهم في الغربة ولكنهم يعيشون بعواطفهم وأفكارهم مع شعبهم على أرض الوطن"، وأكد أنه يتابع "قضايا المهاجرين التي تشكل جزءا من برنامج زيارته لفرنسا"، وذكر بمقولته في عام 1979 من أن "الجزائر طوت صفحة الماضي ولكنها لم تمزقها" (وربما

عادت إلى البعض ذكرى هذه الجملة ذات الرنين الخاص ومن أضافها لتعبير الرئيس بو مدين في السبعينيات) كما ذكّر بأن "كل جزائري هو سفير لبلده، وبأن عليه احترام المجتمع الذي يعيش فيه ويتذكر دائما أن مستقبله هو في بلده" (وسعدتُ بهذا التركيز لأنه يعني ضمنا رفض سياسة الدمج والإدماج والاندماج) وبعد أن أكد لهم "دعم الجزائر لمطالبهم المشروعة" (واختيار الكلمة له دلالته) طلب من الجميع "الاهتمام بالجيل الصاعد وتنمية الانتماء الحضاري العربي الإسلامي لديه".

وكانت أهمية هذه الكلمة القصيرة التي استوعب الرئيس كل نقاطها مع الكثير من النقاط الأخرى هي أنها شكلت فيما بعد العمود الفقري للكلمة المُطولة التي ألقاها، ارتجالا ومباشرة، أمام الجالية الجزائرية وفي حضور الرئيس متران، الذي أحسسنا جميعا بتأثره من حفاوة استقبال الجالية للرئيس، وكانت كلمة اللقاء مع الجالية والكلمة المسجلة للتلفزة من أهم عناصر الفيلم الوثائقي الذي أعددته عن الزيارة، والذي كان ما قدم فيه مصدر اعتزاز لكل جزائري تابع الأخبار على المباشر وظل ينتظر الفيلم الوثائقي كما عودناه بعد كل زيارة إلى الخارج، ولقد استعرضت قبل أن أكتب هذه السطور نسخة من الفيلم لأسترجع كل الأحداث، وأكد لي ما أعدت رؤيته، للمرة الأولى منذ إعدادي للفيلم في 1983، أن الزيارة كانت انتصارا شخصيا للرئيس أكدت قوة شخصيته واستعداده للتطور ومقدرته الكبيرة على الاستيعاب، ومكنه هذا من تحمل دوره التاريخي بامتياز.

وكان الفيلم مصدر اعتزاز شخصي لي لأنني تمكنت من اختراق الحصار ووضع بصماتي على العملية كلها، وكررتُ تجربة الفيلم الوثائقي عن زيارة بلجيكا، حيث ركزتُ كل الأضواء على نشاطات الرئيس وتدخلاته المباشرة واستقباله للشخصيات الفرنسية التي تهاطلت على مقر إقامته الرسمية في باريس، ولم ألق بالا لأي من الشخصيات الموجودة لأن النتيجة التي كنت أريدها هي أن تكون زيارة فرنسا انتصارا للشاذلي وللشاذلي وحده، ولمجرد ألا

أن يتبعثر اهتمام المُشاهد الجزائري بعيدا عن الرئيس، حتى ولو لم يعرف أحدٌ الدور الذي لعبته في هذا الإطار.

وكنت أعرف أن ما قمت به سيثير سخط الذين همشهم الفيلم، وهو أمر لم يكن فيه أمامي أي خيار، لكنني كنت أردد بيني وبين نفسي : "يا رايح كثر من الفضايح".

صحفي واحد فقط فهم ما أعيشه وأنتظره وهو الأخ مصطفى هميسي الذي يتذكر دائما تعبيرا قلته له في نهاية حفل غداء أقامه على شرف الوفد الإعلامي الجزائري المستشار الإعلامي للرئيس متران، الذي كنت أقمت على شرفه مأدبة مماثلة عند زيارة الرئيس الفرنسي الرسمية إلى الجزائر.

وأقيم الغداء في ناد على ضفاف السين، وذهبنا له من الفندق الذي كنت أنزل فيه في ساحة الكونكورد وهو فندق كريون، وسألني مصطفى وأنا أستعد لركوب السيارة عائدا إلى فندق (Crillon) في نهاية المأدبة قائلا : "إلى أين الاتجاه ؟" فأجبته بالفرنسية : (Je suis un homme de crayon) والتقط مصطفى الرسالة التي أفلتت مني بدون قصد وظل يرددها بعد ذلك في كل لقاء لنا (وكريون بالفرنسية هو قلم الرصاص، والمقصود هو العودة للكتابة بالطبع).

لكنني تركت بصماتي في باريس أيضا إذ همست لمراسل صحيفة "لوموند" تعليقا على وضع الرئيس لإكليل الزهور على قبر الجندي المجهول بأن هذا الجندي قد يكون جزائريا أو مغربيا، ونقلت الصحيفة الخبر في اليوم التالي بدون ذكر الاسم، وسألني صحفي آخر عمّا إذا كانت أول زيارة لرئيس جزائري هي رد على زيارة أول رئيس فرنسي للجزائر (وكان يعني زيارة جيسكارد ديستان) وأجبته بأننا مسحنا تلك الزيارة من ذاكرتنا، والزيارة رد على زيارة الرئيس فرانسوا متران، وقيل لي أن الصحفي روى الحديث لكنني لم أطلع عليه شخصيا.

ولم يعقد الرئيس مؤتمرا صحفيا حيث لم يُمكن تنظيمه ولا حتى تنظيم لقاء مع الصحفيين، وكنت أتوقع ذلك ولهذا رفضت كل محاولة لإقحامي في الأمر.

وأعتقد، وبعد نحو ربع قرن أن الزيارة الرسمية الأولى التي قام بها رئيس جزائري إلى فرنسا، لا يمكن أن توصف بالزيارة التاريخية، إذا أخذنا بعين الاعتبار الرسائل التي أرسلت بها للمجموع الفرنسي، حيث لم تكن زيارة تألقت بتعبيرات بلاغية تبقى في الأذهان، أو مواقف تاريخية تسجل نقلة نوعية في التعامل بين البلدين، ولا أعتقد أن الجزائر استفادت منها بالشيء الكثير، وربما على العكس من ذلك حيث قبل الطرف الجزائري مبدأ تخيير الشباب الجزائري مزدوج الجنسية بين أداء الخدمة الوطنية في فرنسا أو في الجزائر.

وحتى تدشين المركز الثقافي الجزائري لم يقترن بأداء ثقافي جزائري متميز.

لكن الرئيس استطاع أن يتألق ويفرض نفسه، وكان رائعا في بساطته وفي استيعابه لأهم الأفكار التي يريد طرحها سواء أمام الفرنسيين أو أبنائنا المهاجرين، وكانت حرمُه صورة متميزة للجزائرية الأنيقة بدون ابتذال أو تهافت، ولم يزر الرئيس، للأسف مقابر الجزائريين في فرنسا وهو ما كان يُمكن أن يكون رسالة بالغة القوة للمجتمع الفرنسي تذكره بمن ماتوا من أجل حريته، وكانت الخطب الرسمية في معظمها عادية تخلو من معان عميقة كفكرة مصالحة ألمانيا أديناور مع فرنسا دوغول، وربما ملأت التصريحات الصحفية فراغا كان يجب أن يملأه أعضاء الوفد بتحركاتهم في كل اتجاه بتنظيم محكم من وزارة الخارجية، ولكن صورة الوفد في بلدية باريس واتجاه نظرات أعضائه المُذبذبة يكشف الكثير.

ولقد قام الإعلام الجزائري بدور هائل في تقديم أحسن الصور لشعبنا اعتمادا على مظاهر كثيرة قدمها الجانب الفرنسي في بروتوكولات الاستقبال، لكن الزيارة انتهت بتحول فرنسا إلى أول متعامل مع الجزائر، وارتفع حجم المبادلات من 25 مليار فرنك فرنسي في 1981 إلى 45 مليار في 1983،

وقررت الجزائر استيراد 5800 شاحنة من طراز برلييه، وسمعت الرئيس يقول للوزيرة الفرنسية السيدة جورجينا بأن الجزائر ستأخذ طائرتي "إير بوس" (وقالت الموسوعة العالمية بأن الرئيس هو الذي أمر بذلك) وسمعت الوزيرة تعبر للرئيس عن امتنانها، وأتصور أن هناك من أشار بالأمر على الرئيس، وقد يكون طالب أو عبد الحميد، (وكانت إحدى تلك الطائرات مصدر مشاكل لنا بعد الحصول عليها لصعوبات تقنية) ونجح الجانب الفرنسي في إسقاط الحاجز النفسي بين الفرنسيين والجزائر.

واستدعاني الرئيس في نهاية اليوم التالي للزيارة إلى مقر إقامته الرسمي في قصر مارينيي (Marigny) فوجدته في الصالون الشرفي مع أحمد طالب، وخرج الرئيس للحظات سألني خلالها أحمد طالب عن الانطباعات الأولى ولم أعطه أي رد فعل متكامل، وعندما عاد الرئيس أبلغني بسفر بو علام بسايح إلى دمشق، وقلت بأنه ربما كان لا بد من إعطاء تعليق من باريس يقول بأن الرئيس يتابع بكل قلق وألم ما يحدث هناك، وقال الرئيس: "فعلا" ، فقلت إذن أتصور أن يعطي وزير الخارجية تعليماته لمعاونيه لإعداد شيئ مناسب، وقال لي الرئيس : "يُمكنك أن تتصل بهم" وقلت على الفور بأنني أفضل أن يتلقوا التعليمات من سي أحمد.

وقال لي وزير الخارجية: "يمكنك أن تقوم بهذا العمل فأنت متعود عليه، وقلت له على الفور : إذا كنت ترى ذلك فأتصور أنني أعرف الموقف جيدا وسأعمل بسرعة وبالتالي لن أراجع أحدا فيما أكتبه ربحا للوقت"، ولم يعترض، وكان هذا ما أريده، لأن البديل في حالة أي عمل مشترك سيدفعني لكي أترك لمن يُكلف بالعمل حرية الحركة كاملة وأكتفي بنقل النتيجة لوكالة الأنباء كأي ساعي بريد وبدون أي تدخل من جانبي وبدون أن أتحمل أي مسؤولية سياسية، ولم أكن مستعدا لكي أقوم بدور العبد (Le nègre de service) ليأتي أحدهم فيما بعد، وأيا كان، لينتقد أو ليوجه أو ليعتب أو ليلوم.

وسجل البلاغ المشترك الجزائري الفرنسي تقاربا كبيرا في وجهات النظر حول أهم القضايا التي تهمنا ومن بينها القضية اللبنانية والقضية الفلسطينية.

ولاحظ الجميع لفتة جميلة عند المغادرة عندما دعا الرئيس حرمه لكي تتقدمه إلى سلم الطائرة.

وذهبنا إلى إيطاليا في زيارة رسمية وانضم إلينا هناك بلقاسم نابي (وزير الطاقة) وعبد العزيز خلاف (وزير المالية) ، وكان مما لوحظ (وسجله الفيلم الوثائقي) أن الرئيس الشاذلي تقدم لتحية العلم الإيطالي قبل الرئيس "برتيني" ووقف أمامه احتراما بعد انحناءة طويلة واضحة، وكان هذا رداً على الرئيس الإيطالي الكبير الذي قبّل العلم الجزائري في مطار العاصمة الجزائرية، وهو الرئيس الأجنبي الوحيد الذي قام بذلك، وكان الرئيس الشاذلي يغلي غضبا لأن المصورين الجزائريين لم يلتقطوا الصورة، وكنت أكثر منه غضبا.

ولم أكن أتوقع تدخلات رئاسية فلم أقم بإعداد شيئ ولكن الرئيس ارتجل تدخلا في البلدية تناول فيه الحضارة العربية الإسلامية ودورها في المنطقة وتأثيرها على البحر الأبيض المتوسط، واستعاد فيها بعض ما قاله في باريس للجالية.

وانتهت زيارة إيطاليا، التي أطلعنا فيها على مخطوطات وثائقية عن العلاقات القديمة بين الجزائر وإيطاليا قبل الاحتلال الفرنسي، وقبل المُغادرة طلبت من عبد الحميد إبراهيمي وبلقاسم نابي تسجيل انطباعاتهما عن الزيارة، وهو ما حدث فعلا، لكنني لم أطلب شيئا من أحمد طالب الذي أحسست أنه يتجاهلني تماما، وخصوصا بعد أن أدرك أنني أحكم قبضتي على المجموعة الإعلامية، ولعله فوجئ فيما بعد بالفيلم الوثائقي الذي أتصور أنه أعطى لشعبنا دليلا على أن الرئيس يُمسك، وحده، بزمام الأمور، وبكفاءة لا جدال فيها وبصورة تشرف الوطن والأمة [20].

20- كانت ترافق الوزير السيدة حرمه ولم ألاحظ علاقة حميمية خاصة بينها وبين السيدة حرم رئيس الجمهورية.

وكان مسك الختام استقبال البابا بولص يوحنا الثاني للرئيس في 12 نوفمبر.

وسألت نفسي أكثر من مرة عمّا إذا كنت أحسن صنعا وأنا أرسم هذه الهالة للرئيس (وأذكر أن الرئيس بيطاط قال لي يوما فيما بعد مُعاتبا : "لقد أخذت منا وأعطيته") وكانت الإجابة الواضحة هي أتعامل مع رئيس الجزائر، وكل هالة على رأسه هي وسام على جبين الوطن.

ولقد كانت كل تصرفاتي منسجمة مع الخط الذي اخترته لنفسي من جهة ومن جهة أخرى أعطت الرجل، إعلاميا، كل حقوقه كرئيس للدولة أولا، وثانيا لأن معظم الجوانب الإيجابية للرحلة تمت بفضله، وبالتالي فإن الموقف السليم هو أن يكون الرئيس أولا ويكون هو أخيرا.

(6)

في حدود الواحدة والنصف ظهر يوم الاثنين 21 نوفمبر كنت في مكتب مولود حمروش في الطمب الكبرى الجديدة (أي بعد إضافة الجناح الرئاسي الجديد) ودخل مساعدية قادما من مكتب الرئيس يرافقه كل من حمداني ومحمد الميلي ومحمد العربي الزبيري[21].

21- ارتبط اسم محمد الشريف مساعدية بحزب جبهة التحرير الوطني طوال مرحلة ما بعد استرجاع الاستقلال بحيث أصبح مجرد ذكر اسمه يعني الحزب، وكان رجلا بالغ الذكاء استطاع مزاوجة الولاء الرأسي بالتحالفات الأفقية، ويكاد يكون المغرب الوحيد الذي استطاع أن يجتاز كل الشراك، وهو من مواليد سوق أهراس ودرس في الزيتونة ثم التحق بالقاعدة الشرقية خلال الثورة وكان جزءا من عملية العقيد العموري الانقلابية ضد الحكومة المؤقتة، وكان ممن أرسلوا إلى الحدود المالية في بداية الستينيات مع أحمد دراية و بو تفليقة، وتدرج بعد استرجاع الاستقلال في مراكز حزبية واستطاع أن يكون يد النظام في تهميش أحمد قايد، مسؤول الحزب في بداية السبعينيات، وتولى مسؤولية قسم التوجيه والإرشاد في الحزب فكان القسم هو الحزب، وعينه بو مدين وزيرا للمجاهدين في اخر حكومته لإفساح المجال الحزبي أمام محمد الصالح يحياوي، ولكنه عاد بقوة للحزب بعد تولي الشاذلي بن جديد، وعزل من الحزب تحت ضغوط كثيرة جعلته رمزا لما كانت أحداث أكتوبر 1988 المشبوهة تطالب بالتخلص منه، ولكنه عاد ثانية بفضل المؤتمر الاستثنائي الذي دعا إليه عبد الحميد مهري، مسؤول الحزب الجديد، وعين في عهد عبد العزيز بو تفليقة عضوا في مجلس الأمة وخلف البشير بو معزة في رئاسته إلى حين وفاته

كانت مهمة مساعدية هي الإعداد السياسي للنقلة التي تقرر، في مستوى ما وفي موقع ما، أن تتم بعد المؤتمر الخامس لجبهة التحرير الوطني والذي بدأت تتسرب أخبار عن أنه يستهدف إثراء الميثاق الوطني بعد مرور عشر سنوات على إقراره [22].

وكانت هذه هي المجموعة التي تم اختيارها، باسم الرئيس الأمين العام للحزب، لإعداد تقرير الرئيس الذي سيُقدم للمؤتمر، والذي أصبح يُراجع بصفة شبه يومية بمكتب الرئيس، وواضح أن مهمة المجموعة كانت، في تصوري، خياطة ثوب تم تصميمه واختيار قماشه ولونه سلفا.

ثم توجه الرئيس إلى رحلة تفقدية لولاية سطيف، وكان الاستقبال رائعا في برج بو عريريج، وقبل أن نتجه إلى جلسة العمل جلسنا مع الرئيس في مقر الإقامة، وكان الوفد يضم خالد نزار والحاج يعلا وعبد الحميد إبراهيمي وصالح كوجيل (وزير النقل) وغزالي أحمد علي (وزير السكن)

ودار الحديث حول العملية التي تمت الثلاثاء الماضي وجرى فيها تنصيب ستة مفتشين عامين طبقا لمرسوم وقعه الرئيس، وحضر الحفل، الذي تم فيه أداء القسم، عبد الغني (الوزير الأول) ومساعدية وباقي بوعلام (وزير العدل) والأمين العام للرئاسة ومسؤولي الأمن.

وقال الرئيس في معرض تعليقه على القرار: "هذا هو ما نحتاجه، أناس يتابعون العمل في الميدان ويسهرون على التنفيذ، ولست في حاجة لمستشارين وفلسفة، فالخط العقائدي واضح".

وكما يقول نزار قباني "كنت أريد أن أبكي ولكني ضحكت".

---

[22]– اعتمد الميثاق الوطني في عام 1976 باستفتاء عام بعد مناقشة جماهيرية موسعة، ولم تكن قد مرت، بالتالي، عشر سنوات تبرر الإثراء، التي كان هدفها في الواقع التبرير السياسي لتغييرات المرحلة الجديدة، وبدون أي حكم قيمة، وكان اختيار من سوف يعملون مع مساعدية كصف أول يخفي اختيار مجموعة أخرى ظلت وراء حجاب، وكان من بين المبررات التي أعطيت آنذاك أن العملية تتم باللغة العربية على عكس عملية 1975-1976.

والواقع هو أنني قهقهت في سري وربما بدت على وجهي تعبيرات رثاء.

فبعد نحو أربعة سنوات يعتمد الرجل ما قيل له من أنه ليس في حاجة لمُستشارين، وكأن كل ما قام به طوال الفترة الماضية كان وحيا من السماء، وكنت أفهم أن يكون حجم التأثير عليه داخل المكتب وخارجه كبيرا، ولكن الحديث عن الأمر بهذه العلنية يكشف اختلالا في التوازن ناتج عن محاولة التستر على ضغوط أو نفي وجودها، لمجرد أن إعداد مراسيم واختراع وظائف للتخلص من شخص أيا كان هو نكتة سخيفة، وأسخف منها أن يحاول المرء تبريرها بما يعطي الشعور بأن هناك عقدة ما زرعت وتتم رعايتها يوما بعد يوم.

وكانت هذه النقطة على وجه التحديد هي سر ما أعانيه من أسى، لأن الرجل نجح في اجتياز كل العقبات التي يمكن أن تعتبر عقدا نفسية، منذ توليه الرئاسة ضابطا مغمورا حل محل رئيس كان ملء السمع والبصر، وكان اعتزازي به هو أنه تحدى كل ما يُمكن أن يوحي بعقدة ما، وتمكن من اكتساب صورة جماهيرية لائقة به منسجمة مع شخصيته.

وتحدثت في المساء مع الحاج يعلا [23] في غرفته بالفندق، وتناولنا أكثر من موضوع ومنها قضية المُستشارين، فروى لي بأن أحمد طالب قال له بأنه يفهم أن يكون فلان (أنا) غاضبا مما حدث بعد ثلاثة عشر عاما من العمل في

23- محمد يعلا من مواليد القصر ببجاية في 1929، ناضل في خنشلة، ثم عمل في إطار جبهة التحرير ببلغراد وأصبح رئيسا لبعثة للجبهة في براغ، ثم عمل مديرا بوزارة الخارجية فسفيرا بكوناكري بعد استرجاع الاستقلال، وعين واليا للجزائر بعد 1965 ثم واليا لقسنطينة فمستشارا بالرئاسة في أواخر أيام بو مدين، فوزيرا للمالية في أول حكومات الشاذلي ثم وزيرا للداخلية، ثم سفيرا متألقا في موسكو قبل أن يُنهي الرئيس بو ضياف مهامه مع سفراء آخرين كنت من بينهم، وقرأت له دراسة من أحسن الدراسات عن المسلمين في الاتحاد السوفيتي والحاج يعلا، كما تناديه، خبرة إعلامية كبيرة وقارئ متميز وخزانة وثائقية مُتحركة ويتميز بذاكرة قوية ومتابعة دقيقة للأحداث الوطنية والدولية، وهو يعرف مقامه فيجلس دونه، وأتذكر أنه حين توليه وزارة الداخلية كان يقف بجانب الرئيس في السيارة المكشوفة ثابتا كتمثال لا تتحرك فيه إلا عيناه، مقارنة بالأخ بو علام بن حمودة الذي كان في نفس الموقع والموقف يُشارك الرئيس في تحية الجماهير.

الرئاسة (وتذكرت مقال "الحوادث" الذي أغضب طالب كما روى ذلك لمولود حمروش) وأعطاني هذا الشعور بأن وزير الخارجية ليس بعيدا عمّا حدث، والذي يُنهي به عمليا كل من الأخضر الإبراهيمي والمُتحدث.

واجتمعت اللجنة المركزية يوم 18 ديسمبر في دورتها العاشرة، ولم يفتح أحد فمه باستثناء المُقررين الذين قدموا عروضا عن إعداد المؤتمر، وتقرير لجنة الانضباط الذي كان يعده للمؤتمر خبير تصفية الحسابات مصطفى بن عودة، واستدعاني الرئيس إلى مكتبه يوم الأربعاء بعد أن كان العربي قد طلب مني إعداد "سيناريو" افتتاح المؤتمر.

وسألني الرئيس عن أحوال المؤتمر فقلت له بأنني لا أدري، ونظر لي بدهشة فأكملت حديثي قائلا بأنني لست عضوا في لجنة إعداد المؤتمر كما جرت العادة، ولا أعرف على وجه التحديد مجريات الأمور، وكنت أعني بالطبع كل كلمة، ولم يُعلق، وقال بأنه سيفتتح المؤتمر وسوف .. وقاطعته متسائلا : "بأي حق تفتتح المؤتمر ؟"، وأجابني بمزيج من الدهشة والغضب : "أليس من حقي أن أفتتح مؤتمر الحزب وأنا أمينه العام ؟"، وأجبته بسرعة : "لا .. ليس من حقك".

وساد صمت ثقيل، وكنت قررت أن أتحمل مسؤولياتي النضالية إلى أبعد مدى ممكن، وأن أتمسك بأن أقول له رأيي بكل صراحة، وبكل أدب بالطبع، وعاد الرئيس يقول: "اشرح لي الأمر".

وقلت بأن ما ألفه الناس عنك هو أنك رجل يحترم القوانين ولا يُحاول تجاوزها، والمادة 71 من النظام الداخلي تضع تنظيما خاصا لافتتاح المؤتمرات العادية للحزب، حيث تنصّ على أن المؤتمر يفتتحه أكبر الأعضاء سنا يرافقه أصغر الأعضاء سنا، ثم يتم تشكيل مكتب المؤتمر بالانتخاب، ويعطي الكلمة للأمين العام ليقدم تقريره.

وعاد الرئيس يسأل : "أهذا هو ما ينص عليه القانون ؟" وهززت رأسي بالإيجاب.

ويستدعي الرئيس العربي هاتفيا ويطلب منه استدعاء من يُمكن استدعاؤهم من أعضاء اللجنة التحضيرية، وهكذا جاء مساعدية وبشير رويس ومولود، حتى بلغ العدد أكثر من عشرة أشخاص في مكتب الرئيس على ما أذكر، وطرح الرئيس عليّ السؤال من جديد فأعدت الإجابة باختصار.

وتوتر العربي وهو يقول إن النظام الداخلي وُضع في ظروف خاصة، وليس هناك فراغ يبرر اللجوء إلى غير الأمين العام لافتتاح المؤتمر، وقلت بهدوء أن القانون واضح، ويمكن أن يتم تغييره ولكن إلى أن يحدث ذلك لا بد من احترامه حرفيا، ولم ينطق أحد من الحاضرين بكلمة واحدة.

وقلت لمحمد الشريف مساعدية ونحن نخرج من مكتب الرئيس: "لقد تركتني وحدي في المواجهة" وأجاب ضاحكا بأسلوبه المعروف : "كنت أعرف أنك قادر عليها".

ويطلب مني مولود ألا أبتعد لأن الرئيس يريدني، وعندما دخلت عليه بادرني بالقول : " كيف ترى سيناريو الافتتاح ؟"

وقلت: دخول الأمين العام للحزب الذي يتخذ مقعده في مواجهة المنصة، ثم عزف السلام الوطني، ثم صعود أكبر الأعضاء سنا يرافقه أصغرهم إلى المنصة، ثم انتخاب مكتب المؤتمر الذي يُعطي رئيسه الكلمة للأمين العام ليلقي خطابه (وكنت قد أعددت مجموعة من النقاط أخذت بعضها من التقرير الذي أعده حمداني والزبيري والميلي ليكون المبرر أن الخطاب هو مختصر للتقرير الذي سيوزع على الحاضرين، وهو ما حدث فعلا، وبالطبع فقد كانت الأفكار التي أحرص على وجودها مضمونة في الخطاب)

ثم قلت: يُمكن أن يبدأ الأمين العام كلمته بمطالبة الحاضرين التزام دقيقة صمت وترحم.

وقال لي الرئيس بهدوء: إنك لم تعطني هذا التصور من قبل، وقلت له بصراحة أنني لا أتطفل ولم أعد أبادر ولا أتحدث إلا عندما يُطلب مني أن أتحدث (وهو الأسلوب الجديد الذي أصبحت أعتمده منذ حكاية المكلف بمهمة) قال : "يُمكن تنظيم الأمر مع العربي" وقلت "إن مشاركة مولود ضرورية.

لكن قبول الرئيس لوجهة نظري ضد وجهة نظر كبار القوم، إن صح التعبير، يثبت أن مراهنتي على الرئيس كانت صائبة، وأنه يملك واحدة من أهم مميزات القائد وهي المقدرة على فحص البدائل المطروحة أمامه واختيار أحسنها وأكثرها قانونية، ثم إن هذا حدث والرئيس مشحون تماما ضدي ولكنه لم يمنعه من قبول رأيي، وهو، في تصوري، قمة الشعور بالمسؤولية وتعبير واضح عن الذكاء.

ولكن ألا يعني هذا أنني وضعت الكثيرين ممن يسوءهم الأمر في موقع يفرض عليهم محاولة التخلص مني بأي طريقة ممكنة، وهو ما يعني أن الرئيس سيتعرض، بشأني، إلى ضغوط لا أعرف إذا كان سيتمكن من مواجهتها، خصوصا وقد قيل لي أن كثيرا من أقاربه وأصهاره يشنون حملة ضدي.

ولم يكن هذا الأمر يعنيني في شيئ فقد أصبح يقيني أنني "مذبوح في العيد أو في عاشوراء".

وتمر أيام المؤتمر بما فيها وأجد في مذكراتي بتاريخ 25 ديسمبر السطور التالية.

انتهى المؤتمر وخرجنا من المولد، وأكتب الآن في البيت محاولا تسجيل وقائع الأيام التي مرت لتكون، لي على الأقل، دليلا للاستنتاج والحكم والتقييم.

عندما خرجنا من مكتب الرئيس يوم 18 وكنت مطمئنا إلى أن الافتتاح سيكون كما قبله الرئيس (..) عرض مولود فكرة أن نذهب إلى قاعة المؤتمر لنرى كيف يكون الإعداد، وغلبني الفضول فرافقته، ودخلنا قاعة 17 جوان

بمركب 5 يوليو[24]، التي سُميت فيما بعد قاعة محمد بو ضياف، حيث صفت الكراسي في الشرفات وفي القاعة، وأعدت منصة كبيرة على مقدمتها وُضع مكتب وخلفه على الجانبين ارتفع مستطيلان هائلان بمساحة تتجاوز عشرين مترا مربعا، رسم في الأولى شعار المؤتمر وعلقت في الثاني صورة كبيرة بالألوان لرئيس الجمهورية (صُنعت في فرنسا) وشعرت بالأسف لوجود الصورة التي تذكر بكوريا كيم إيل سونغ وعراق صدام حُسين.

ولم أدلِ بأي ملاحظات بل التزمت الصمت.

وفي المساء قدمت التلفزة فيلما وثائقيا أعده بو غرارة (وحده وبدون أي تشاور معي وكان واضحا أن تلك هي تعليماته) تعرض لنشأة الحزب مرورا بمؤتمر الصومام ثم مؤتمر طرابلس ومؤتمر 1964، ولم تكن هناك لقطة واحدة لأي شخصية تاريخية، ثم اختتم الفيلم بالمؤتمر الاستثنائي مع صور للرئيس الشاذلي بن جديد.

وصبيحة يوم 19 (يوم الافتتاح) كان توزيع أماكن الجلوس مدروسا حيث يتصدر كرسي الرئيس القاعة في مواجهة المكتب ووراءه السعيد آيت مسعودان ثم بن غزيل ثم بسايح ثم الهادي خديري ثم عبد الملك كركب ثم مولود (وكانا عضوان إضافيان في اللجنة المركزية بعكس من سبقوهما، وأنا أذكر الأسماء لأبرهن على أن الانتقاء لم يعتمد الترتيب الأبجدي أو الهجائي أو الأبجدي بأي لغة)

24- كنا في بداية السبعينيات قد اتفقنا على التسميات التي تعطى للمنشآت العامة، وكنت اقترحت أن يعطى للقرية النموذجية اسم مزدوج يجمع ما بين اسم الناحية واسم معركة في جهة أخرى من الوطن، وقبل الرئيس بو مدين الفكرة بحماس وهكذا كانت أوراس المايدة أول القرى الفلاحية (والأوراس يرمز إلى الجبل الأشم في الشرق والمايدة ترمز إلى اسم المنطقة في الغرب) وجرى العرف على أن يعطى للملاعب الرياضية تواريخ هامة، على غرار ملعب 20 أوت و 5 يوليو و17 يونيو الخ، ويحتفظ بالشوارع والميادين لأسماء الشهداء والشخصيات.
لكن هذا تعثر فيما بعد عندما سميت قرية اشتراكية باسم مدغري بلغيموز (والاسم الأول تخليدا لأحمد مدغري) ثم أطلق اسم حرشة على قاعة رياضية في العاصمة ثم أطلق اسم بوضياف على القاعة البيضوية.

وبدأ المؤتمر لحسن الحظ كما أردتُ له من ناحية التنظيم، لكن سير العملية كان سيئا إذ تمتم رئيس السن بكلمات لم يُفهم منها الافتتاح، وتلعثم أصغر الأعضاء فبدلا من استدعاء المكتب طلب من الرئيس الصعود إلى المنصة، وهو ما حدث، حيث اضطر هو شخصيا لاستدعاء هيئة المكتب.

واختير لرئاسة المؤتمر مساعدية وكان نائباه العربي سي لحسن رحمه الله (مدير المحافظة السياسية للجيش) وبشير رويس (وزير البريد) وهناك أربعة أعضاء من بينهم سيدة هي بدرة عمامرة، رحمها الله، وبدا مساعدية مشوش الفكر، وطلب المصادقة على قانون داخلي للمؤتمر لم يقرأه كثيرون، ولكن الناس صادقت والسلام.

ودعي الرئيس إلى المنصة فتحدث نحو ساعتين ونصف وكان خطابه مزيجا من النص الذي أعددته ومن مصدر آخر لعله مصدر حزبي، واستعرض بعض الخلفيات التاريخية وقال من بين ما قاله أن الرئيس بو مدين أوصاه في 1977 بأنه : "إذا حدث شيئ فعاهدني أن تسهر على استمرارية المسيرة، وأبلغ الجيش بهذا " (وكنت أسمع هذا الأمر للمرة الأولى)

واحتوى الخطاب على جملة رائعة طلبتُ أن تكون هي العنوان الرئيسي في صحافة الغد، وكانت تقول : ثورتنا شعبية الطابع إسلامية الروح عربية الثقافة عصرية التوجه إشتراكية المنهج.

وقمت بإعداد ملخص سريع ثم ذهبت إلى مركز البث التليفيزيوني المخصص للمؤتمر لإعداد النص المُتلفز، وهناك جاءني العقيد بن غزيل ليبلغني بأن الرئيس يبحث عني، ثم أضاف بأنه يقول : "في كل ما تقدمه عليك تفادي الأشخاص" (وكان هذا أسلوبا جديدا في إعطاء التعليمات بالنسبة للخطب، ولم يكن واضحا من هو المقصود بالأشخاص)

وذهبت إلى القاعة بعد الغداء وجلست في مقعد فارغ بجوار بن غزيل الذي رحب بي بصوت عال، ربما ليُشعر الرئيس بوجودي، وهكذا اقتربت منه فالتفت لي ليقول : " أحب عدم التركيز على الأشخاص"، ولم يكن مرتاحا عندما قلت له أنني أشرت في الملخص للقصة التي رواها عن بو مدين، وقال لي: قدم مقتطفات قصيرة، فقلت له أن الوقت متأخر لعمل أي شيئ (كانت الساعة قد تجاوزت السادسة والنصف مساء)

ورفعت الجلسة ورحت أتابع الأخبار في التلفزة التي أسعدني أنها قدمت وقائع الجلسة كما كنت أحب تماما، وكان النشاز هو وقائع المؤتمر الصحفي الذي قدمه الناطق الرسمي باسم المؤتمر (رغم أن المؤتمر لم ينتخب ناطقا رسميا) في قاعة فندق الأوراسي، وبدا واضحا أنه موجه للرئيس أساسا، وبطريقة ..."هانا نخدمو يا سيدي".

وتأخر الرئيس في الحضور للجلسة الصباحية في اليوم التالي، وكانت تشكيلة اللجان قد أعطيت بالأمس ولكن أضيفت أسماء جديدة بينما كان المقررون يتداولون على المنصة لتقديم تقاريرهم الجهوية التي لم يهتم بها غير بعض مساعديهم في الولايات التي ينتمون إليها.

وكان التوتر يسود الجو إذ كان جوهر التساؤلات هو: من سيكون في اللجنة المركزية الجديدة؟.

وتوالى عرض التقارير في الجلسة الصباحية لليوم التالي، الأربعاء، التي لم يحضرها الرئيس، وكادت القاعة تشبه السوق الأسبوعية للحراش، ومساعدية على منصة المكتب ينظر إلى ما يحدث بنوع من الاستهانة والاستعلاء وقد وضع معطفه على كتفيه.

وفكرت طويلا في الخطاب المُتلفز ثم استقر رأيي على إعداده كما ألفت طبقا لمفهومي الخاص ولكن في إطار ما قاله لي الرئيس من تعليمات، ودعيت مساء لرؤيته فاستقبلني في مكتبه بقصر الأمم، وكان يبدو مرهقا، وقلت له أنني

تفاديت بث الخطاب بالأمس لأنه كانت هناك مباراة رياضية هامة، واقترحت عليه يوم الأربعاء، ولكنه لم يبد متحمسا.

وبدأت أحس بأن الذين انتقدوا أمامه تصرفات معينة (تصرفاتي بالطبع) لم يقدموا له بديلا، وهكذا ظل حائرا، وسألني : "كنتُ تعرضتُ في الخطاب لقضية التاريخ وقلت أنني سأعود للحديث عنها ولكني نسيت... لماذا لم ينبهني مولود ؟ لماذا لم ينبهني أحد ؟" وقلت له وأنا أحاول تهوين الأمر عليه أنه من غير المنطق أن يحاول أحد الاتصال به في منصة الخطابة لغير أمر بالغ الحيوية (ولم أقل له بالطبع أن معظم من تابع الخطاب نسي الأمر، والواقع أن قلقه كان غريبا)

وقلت له أيضا أنني تصرفت فيما يتعلق بالنقطة التي أشار فيها إلى الرئيس الأسبق أحمد بن بله، حيث قال بأنه سيطلب من رئيس مجلس المُحاسبة إبراز الملف في الوقت الضروري، ورأيي، كما قلت له، أن هذا قد يُفسر كتناقض مع ما قاله سابقا من أن المجلس يمارس عمله طبقا للدستور ولا يخضع لإرادة أحد بمن في ذلك رئيس الجمهورية.

لكنه ظل على عدم حماسه بالنسبة لبث الخطاب وتصورت أن ذلك ناتج عن ضغط وقع عليه لاعتماد التقرير الذي طُبخ باسمه بدلا من الخطاب الذي يحمل بصمات أصبحت غير مرغوب فيها.

وعدت إلى القاعة وجاءني أحد عناصر التشريفات ليقول لي، نقلا عن الرئيس، بأنه لا داعي لإذاعة الخطاب.

وجاء يوم الاختتام الحاسم، أي 22 ديسمبر.

وأنقل من مذكراتي اليومية سردا موجزا لأحداث ذلك اليوم.

تذكرت اليوم بأن الرئيس قال لي، وأنا أناقش معه عناصر الخطاب، بأنه لا يريد أي إشارة للمستقبل، وأردف هذا بضحكة تشبه ضحكة طفل ضبط متلبسا بكذبة بيضاء (هكذا كتبت)

تذكرت أيضا أن مجموع تاريخ اليوم، أي 22+12+83 = مجموع تاريخ يوم وفاة بو مدين، أي 27+12+78، وهو المجموع الذي يمثل رقم 117 وهو رقم المادة الدستورية التي تتحدث عن وفاة الرئيس، وسألني مولود، الذي ذكرت له المُفارقة، هل تقصد أن هناك وفاة ثانية لبو مدين، وأجبته على الفور، أنا لا أقصد شيئا، إنها الأرقام تتكلم.

وتعرف القاعة مناقشة عامة ثم تلاوة قصائد الشيخ الشبوكي ثم يعلو صوت التصفيقات لإسكات أحد المتحدثين لا لتأييد ما يقوله، ويبدو واضحا أن هناك محاولة ما لإضاعة الوقت في انتظار اكتمال الطبخة التي تعد في مكتب الرئيس وحوله، ويظل مساعدية يمسح القاعة بنظراته ومعطفه على كتفيه.

وفي نهاية اليوم وبحضور الرئيس صعد الحاج عزوط مقرر لجنة الترشيحات لقراءة قائمة أعضاء اللجنة المركزية الجديدة، وتابعنا القراءة، عبد الملك وأنا، من شاشة تلفزة في أحد المكاتب، وتوالت الأسماء...

ولم يكن اسمي في القائمة، وكذلك عبد الملك.

وأخرجت قلمي بكل هدوء ورحت أكتب موجز الخطاب الختامي الذي كان الرئيس قد أخذ في إلقائه، ودخل علي مساعدي الأخضر ضرباني (وزير السياحة بعد ذلك) ورأيت شبه دموع في عينيه، وكان مندهشا من هدوئي.

وأعدت صياغة كلمة الرئيس كالعادة وأرسلت بها إلى وكالة الأنباء، وقال لي من حملها إليهم أن أحدهم، وهو عميل معروف لبعض المصالح علا شأنه فيما بعد، "أما زال فلان هنا ؟"

وهتفت للمنزل لأبلغ زوجي بأنني لم أعد عضوا في اللجنة المركزية مخافة أن يبلغها أحد وأضطر للتأخر لسبب أو لآخر فيكون الأمر مدعاة للقلق.

والواقع أن الأمر بدا كتصفية سياسية واضحة (ولم يحضر المؤتمر عدد من الذين أوقفتهم لجنة الانضباط لأن الدعوة لم توجه لهم، وهو في تصوري خطأ سياسي سيصيب مصداقية العمل الحزبي في المستقبل، حتى ولو كان المُبرر أن بعض هؤلاء قد يثيرون ضجيجا ويشوشون على أشغال المؤتمر، وهو ما لم يكن محتملا ومجرد وضعه في الحسبان يعني أن لهؤلاء أنصارا لهم وزنهم داخل القاعة، ولكن لم يكن من المعقول أن تلتقي جبهة التحرير في مؤتمر لا يُشارك فيه بوتفليقة أو بن شريف أو عبد السلام بلعيد، وغيرهم كثيرون)

وهكذا كان لي الشرف بأن يوضع اسمي إلى جانب عبد السلام بلعيد وعبد العزيز بوتفليقة والطيبي العربي ومحمد الصالح يحياوي وآخرون، تمت تصفيتهم في هذا المؤتمر.

وسيسجل التاريخ أن ما حدث في المؤتمر الخامس كان استكمالا للانحراف الخطير في المؤتمر الاستثنائي الذي تنازل عن كل السلطات للأمين العام للحزب، أو بمعنى أكثر لمن سيحتكرون الحديث باسمه، ليحملوه فيما بعد كل المسؤوليات، وربما كانت البداية الحقيقية يوم رفض مناضلون لا شك في وطنيتهم عرض الرئيس الشاذلي بأن تقتصر الولاية الرئاسية على عهدتين [25]، وبرروا ذلك بأنه تدخل في إرادة الجماهير التي تفقد حقها في انتخاب الرئيس لعدد المرات التي تريدها، وربما كانت البداية قبل ذلك، ويظل الحكم للتاريخ.

25- كنت عضوا في اللجنة المكلفة بتعديل الدستور وطلب مني الرئيس أن أطرح فكرة الاكتفاء بعهدتين وهو ما فعلته بدون أن أشير إلى أن الفكرة جاءت من المعني الأول، لكن الزملاء رفضوا الفكرة ومنهم من راحوا يشكوني للرئيس الذي قال لهم بكل رجولة أنها فكرته هو، فوجدوا المخرج في الادعاء بأنهم حريصون على الديموقراطية.

وكنت من أخر الذين خرجوا من القاعة البيضوية في ساعة متأخرة من مساء 22 ديسمبر 1983.

ما الذي حدث، وما الذي سيحدث ؟

كان هذا السؤال يطن في رأسي طوال الليل وخلال عطلة نهاية الأسبوع.

وكانت ليلة.

وكانت عطلة.

وأعود للكتابة صباح السبت 24 ديسمبر :

"أمضيت عطلة نهاية الأسبوع في المنزل حيث استقبلت عددا محدودا من الأصدقاء، هم دائما نفس الأصدقاء".

أرسلت أمس نسخة من النص المُتلفز للخطاب (كاسيت) كما أعددته ومعه ورقة تحمل في أعلاها اسمي بدون ألقاب وظيفية، ومعها كلمة كتبتها بالفرنسية وتقول :

Malgré tout, je vous transmet ci-joint Le projet du texte télévisé.

Je me pose toujours la question : Est-ce que le travail que j'ai accomplit avec fidélité, efficacité et discrétion ne me donne pas le droit à une explication ?

وترددت بالطبع قبل الإرسال ولكنني كنت في تلك اللحظات أملك إمكانية الاتصال المُباشر بالرئيس ولم أكن أعلم ماذا سيأتي به الغد، وأرسلتها ثم ندمت على إرسالها، ثم قلت لنفسي بأن الكرة عنده.

لكن المُشكل الذي وجدته أمامي كان الآتي:

ما هي الخطوة التالية التي يجب أن أخطوها وما هي الخطوة التي يجب أن أحجم عنها ؟

ببساطة، هل أظل في بيتي إلى أن يتصل بي الرئيس لأفهم منه ما حدث وما يجب أن يحدث أم أعتبر أن هناك فاصلا بين العمل الحزبي وعمل الدولة، وقد أنهي وجودي في قيادة الحزب مع كثيرين ليسوا أقل مني مقاما أو قدرا أو تاريخا لكن وجودي في خدمة الدولة هو التزام ليس من حقي أن أقر منه.

ثم، ربما كان هذا بالضبط ما هو مطلوب مني أن أفعله ليستريح مني كثيرون، ولكن ربما كان إخراجي من اللجنة المركزية، في وجود كثيرين ممن تفرض عليّ احتياجات عملي ومتطلباته التعامل معهم وبعد تغيير لقب ودور المستشار الذي بدأت به عملي منذ نحو 13 سنة، ربما كان ذلك تقزيما لي لأتحول إلى موظف إداري لا دور له إلا ما يؤمر بتنفيذه، وهو عكس المفهوم الذي جعلني أضحي بالطب من أجل العمل السياسي، أي بتعبير الرئيس بو مدين "تحويل التحدي على مستوى الفرد إلى تحدٍ على مستوى الوطن"، وهو ما يعني أنني أفقد تماما مبرر وجودي في ذلك الموقع ويفرض علي، في لحظة ما، أن أستقيل قبل أن أقال.

ولكن الاستقالة هي كالانسحاب من الميدان أثناء المعركة، فهي قد تكون دليلا على جبن وخوار من أسقط في يده وعجز عن المواجهة، أو على العكس من ذلك قد تكون دليلا على شجاعة ذكية، تتراجع لتنقض من جديد عندما تقدر أن الفرصة سانحة لذلك.

لكن، ما الذي يمكن أن يفعله فرد أعزل في مواجهة مؤسسات ومراكز نفوذ وشخصيات فاعلة.

وأنا أعترف بأنني فقدت أنصارا كثيرين نتيجة لتشددي في ممارسة مهمتي، ولكن هذا في سبيل مفهوم للدولة وللولاء وللانتماء لا أعتقد أن هناك من يستطيع أن يُنكره، بالإضافة إلى أن كل المواقف التي اتخذتها كانت من أجله "هو" ولحماية صورته الجماهيرية ولم يكن لتحقيق أي أهداف شخصية.

وحقيقي أنني كنت أعرف منذ طرحت على الرئيس رأيي في تنظيم المؤتمر أنني ضربت ضربتي الأخيرة وخسرت كل أعضاء اللجنة التحضيرية،

وفيهم من هم طوال الباع أقوياء الكلمة شديدو التأثير، لكنني لم أكن لأستطيع التناقض مع ما أؤمن به.

وعرفت أن كثيرين كادوا يقيمون أعراسا عندما اختفى لسمي من قائمة أعضاء اللجنة المركزية، ومنهم من قال علنا في الجلسة الأخيرة، وكما نقل لي: جابها لو ربي.

ورأيت أن أسأل عددا من الرفاق لعلني أجد لديهم ترجيحا لاتجاه على اتجاه آخر، وأعترف هنا أن مواقف بعضهم كانت بالنسبة لي حجة يُمكن أن أرد بها على بعض من سيحاولون انتقاد موقفي.

هتفت لمولود (وما زلت أنقل من مذكراتي) فقال لي: اذهب إلى العمل وكأن شيئا لم يحدث، ثم قال: إنني لم أنم طوال الليل [26].

وعندما مررت بمكتبه في اليوم التالي قال لي بأنه سمع من الرئيس جملة لها معناها في رأيه، فقد قال له : "في بعض الأوقات يضطر الإنسان للضغط على عواطفه لأن هناك معطيات معينة" وهذه الكلمات، كما قال مولود، تعني في حد ذاتها ضرورة مواصلة العمل.

وهتفت لأحمد طالب أسأله ... ما رأيك ؟ قال: اذهب إلى العمل وكأن شيئا لم يكن، وسنرى عند عودة الرئيس (الذي بدا أنه أخذ عطلة طويلة في بو سفر بوهران حيث أصهاره).

وهتفت لمصطفى بللوصيف (الأمين العام لوزارة الدفاع) وسألته سؤالا محددا : "هل ما حدث يعني سحبا للثقة، وهي أساس عملي مع الرئيس" وأجاب: "أبدا أبدا، ثم حاول في كلمات غامضة أن يفهمني بأنه كانت هناك معطيات وضغوط، ولكن قضية الثقة غير واردة.

26- قال لي مولود يوما في ساعة صفاء : لو علم زيد بكل ما تفعله من أجله ؟ (وكنا نستعمل اسم زيد في الهاتف إشارة للرئيس)

وكنت طلبت من صديق أن يتصل بالهادي خديري لعلي أجد لديه إجابة أتخذ قراري على ضوئها، ولكن الهادي تهرب، أو هكذا نقل لي الصديق المُشترك، أو من كنت أظنه كذلك.

وكان عباس بن غزيل (الأمين الدائم للمجلس الأعلى للأمن) رائعا وهو يستقبلني في مكتبه بالأحضان بإجابة واضحة : "القضية ليست قضية ثقة، وهناك معطيات".

والتقيت الأكحل عياط (مدير المخابرات العسكرية) رحمه الله على سلم المبنى الجديد وكانت إجابته لا تخرج عمّا سمعته.

وأجد في مذكراتي ليوم الاثنين 26 ديسمبر السطور التالية :

أربعة أيام منذ انتهى المؤتمر، كانت أياما مريرة وتزايدت معاناتي فيها عندما أحسست بأنه كان علي أن أذهب إلى مكتبي في الرئاسة وكأن شيئا لم يحدث، وكان مما شجعني على الصمود أن كثيرين لم يخفوا عني ألمهم مما حدث، ومن بينهم العاملون والعاملات معي والذين عاشوا أيام العمل الشاق المتواصل الذي يصل الليل بالنهار..

المدني يزورني يوميا، وينقل لي بعض ردود الفعل، ومنها ما قاله له محمد العربي ولد خليفة " لم أتوقع أن يكون هذا ثمن الوفاء"

وكان من الطبيعي أن أسترجع عملي ومواقفي وتصرفاتي مع الرجل لأفهم ما حدث، ليمكن أن أتنبأ بما يمكن أن يحدث، ورحت أقفز عبر المحطات التاريخية وأحيانا بدون نظام، وهو ما أورده حرفيا تقريبا لأنه كان أصدق صورة عن مشاعري.

ولقد سجلت أنني، في كل تعاملي معه، كنت حريصا على أن أكون متواضعا، وحتى الأفكار التي كنت أضعها في خطبه وفي تصريحاته كنت أقدمها له على أنها مستلهمة من أفكاره.

وكان حرصي الرئيسي هو على استمرارية الخط أكثر من حرصي على أي مكسب شخصي، ولم أكن أنسى أن للنفس البشرية حالات ضعفها مهما كانت درجات المسؤولية، لكنني لم أجد في كل ما قمت به ما يمكن أن يؤخذ عليّ كخطأ سياسي أو مهني.

ولا أذكر على الإطلاق أنني استثمرت منصبي للحصول على أي مكسب شخصي، أيا كان، وكنت أدفع كراء مسكني بالشيك البريدي وكذلك كل مشترواتي من الشركات الوطنية.

وظللت في نفس المسكن الذي كنت أقطنه ولم أقم بتحويله إلى شبه قصر كما فعل كثيرون.

ولم يستفد أي من أقاربي وأصدقائي من أي تدخل لي للحصول على ترقية أو ميزة خاصة.

وفي لحظة ما، وأنا أراجع نفسي ومسيرتي وما هو حولي، وخصوصا الانتماءات الجغرافية للعناصر المسيطرة، تصورت أن للقضية بُعدا جهويا، وكان هذا أمرا لم أفكر فيه قبل اليوم.

شيئ أراه أمامي بكل وضوح ستظهر نتائجه في مستقبل غير بعيد.

فعمليات التصفية الواسعة التي تمت تعني أن الرئيس سلك طريقا لن يؤدي به إلى خير، وأقل القليل هو أنه لن يجد من يلتزم معه الالتزام الرأسي الذي يتطلبه موقعه الحساس، أي أنه لن يجد من يلتزم معه وحده بدون محاولة لاكتساب ولاءات أفقية ومحاور جانبية تلتف حوله إلى أن يجد نفسه وحيدا على القمة، لا يسمع إلا ما يُراد له أن يسمعه، ولا يرى إلا ما يُراد له أن يراه، وبالتالي لا يستطيع أن يفعل إلا ما يُراد منه أن يفعله.

إن كل الأخطاء التي ارتكبتها، إذا كانت هناك أخطاء فعلا، يمحوها أو يُخفف منها الولاء المطلق الذي كنت أتعامل به معه، بل إن الأخطاء، إذا صح أن تعتبر أخطاء، كانت جزءا من متطلبات ذلك الولاء، الذي لا يخجلني أن أقول أنه كان ولاء مطلقا مبنيا على إيمان عميق بمنطقيته وبضرورته.

وعندما أتذكر أنه ترك كل أمور المؤتمر بين يدي مساعديه، بكل ارتباطاته وحساباته، وبحيث بدا المؤتمر الخامس، وبرغم الصورة الضخمة للرئيس، بدا وكأنه مؤتمر مساعدية لا مؤتمر الشاذلي، أطرح تساؤلات كثيرة عن المُستقبل الذي لا يريد هو أن يشير إليه.

وعندما ألقى نظرة على قائمة اللجنة المركزية الجديدة، وبدون أي حكم قيمة، أجد نفسي أتساءل : "كم من هؤلاء يمكنهم أن يلتزموا معه إذا جد الجد وتكسرت النصال على النصال ؟".

وكم من هؤلاء سيجد صورتي أمام ناظريه إذا وُجد يوما في موقع اختيار بين إرضائه هو وإرضاء آخرين، منهم من يتحدث باسمه.

(..) أول أمس كان 27 ديسمبر، ذكرى وفاة بو مدين، لم تكن هناك كلمة واحدة في الصحافة أو في التلفزة (..) مهزلة (..) نقول بأننا نبحث عن تاريخنا منذ **25** قرنا ونتجاهل الأمس وأمس الأول (..) الغريب أنه حتى الذين كانوا يكرهون بو مدين شعروا بالأسف لمحاولة قتله ثانية بالصمت والتعتيم.

وأكتب يوم الجمعة 30 ديسمبر

(ويلاحظ في كل هذه الكتابات التوتر الشديد والبحث المحموم عن إجابة عن السؤال الوحيد ..لماذا..) وأتساءل: من الذي يعمل لتجريد الرئيس من هيبته ولمصلحة من ؟

تحادثت مع نابي بلقاسم الذي قال لي بأن أحمد طالب أبلغه بالسؤال الذي طرحته عليه وقال له بأنه نصحني أن أستأنف العمل بشكل عادي.

جيد، لن يكون في مقدوره بعد اليوم أن يقول بأن فلان طعن وتلقى الطعنة بدون أن يغضب لكرامته، فالسؤال والجواب لم يظلا حبيسي شخصين.

لست أدري لماذا يتملكني الإحساس بأن رحلة تونس شكلت تغيرا في موقف الرئيس مني..

إن تنحيتي، أيا كان مبررها، هي ضربة موجهة لهيبته، تماما مثل تنحية عبد الملك كركب، وكلانا كان يضرب به المثل في الكفاءة والانضباط والولاء.

البعض يقولون: لقد ضحكوا عليه، أعطوه من المؤتمر صورة ضخمة وأخذوا كل شيئ حتى هيبته.

جماعة تقول: لقد تركهم يعملون، وهو يُعدّ شيئا ما.

ماذا بقي لي مع الرجل ؟

لعلي أنجح في اعتزال العمل لسنة أو أكثر بهدوء وبدون أي صدام، لأنظّم حياتي وأبتعد عن مجال المواجهة لأحقق الاستقرار النفسي.

الأخضر الإبراهيمي اقترح عليّ أول أمس أن أطلب سفارة في هولندا، وضحكت.

إخراج درايا ويحياوي من اللجنة المركزية كان أمرا لا يخدم مصالحه، كان يُمكن أن يتركهما ليُساوم بوجودهما، وعبد السلام وبوتفليقة تم التخلص منهما مع بن شريف.

هل كان موقفي النبيل مع يحياوي بل ومع بوتفليقة في قضية منزل الأبيار مما استعمل لاستثارة الرئيس أم هي بقايا زيارة بلجيكا، أم كل هذا معا.

كنت دائما أرى أن عملية التوازن حيوية بالنسبة للرئيس، بحيث لا ينفرد به جناح أو تيار أو مجموعة مصالح هنا أو مراكز نفوذ هناك، ولكن يبدو أن كل هذا قد انهار.

السنة توشك على الانقضاء، والانتخابات الرئاسية حُدد لها 12 يناير.

السبت 31 ديسمبر

دائما في محاولة محمومة لفهم ما حدث.

قضية زيارة تونس تلح على ذاكرتي كألم الأضراس وأحاول استرجاع تفاصيل الزيارة .

كان الترتيب البروتوكولي يضعني، كأي بلد يحترم نفسه، قبل مدير الأمن الوطني الذي له صداقاته الكبيرة في تونس، ولم ينطق الرجل، للأمانة، بأي تعليق، ولكنني تخيلت بأنه لم يكن مرتاحا لذلك، وعندما هاتفته يوم الاثنين بعد العودة بمناسبة رأس العام كان باردا.

وتذكرت هنا يوم اقترحت صديقا مشتركا، أو كنت أظنه كذلك، لمنصب كاتب الدولة للشؤون الثقافية، ويتصل الرئيس به ليستشيره وكان رده بأن المعني يصلح أكثر مديرا للإذاعة والتلفزة، والاستنتاج هنا كان في تقبل الرئيس لاقتراحي، وهو مبرر كافٍ للعمل على إزاحتي.

وقال لي بعدها أن أحمد طالب يتهم من رشحته بأنه يُعاقر بنت الحان وهو لا يُحب ذلك، وأدركت أن الصداقة القديمة مع بن يحيى قد تكون السبب وليس ما يشربه الصديق، أو الذي كنت أعتقد أنه كذلك، من كؤوس الويسكي.

وربما كان من أسباب غضب البعض تعيين الأزهري شريط مديرا للإذاعة والتلفزة، وكان آخر مدير لها قبل تفتيتها، لأن هناك من كان له مرشحه (ولا أعني وزير الخارجية شخصيا).

وعند الوصول إلى تونس أدلى الرئيس بتصريح أكد فيه الرغبة الصادقة في بناء المغرب العربي، وقال بأن هناك إمكانيات كبير، وضرب المثل بأوروبا التي تمكنت من إيجاد صيغة وحدة رغم اختلاف الأنظمة واللغات بل ووجود حروب ضروس بين بلدانها.

عند استثماري للحديث تجاهلت ذكر كلمة أوروبا، ولمجرد أنه لو كان الخطاب معدا سلفا لأمكن إثراء التعبير بالقول أن نجاح الوحدة الأوروبية يرجع أساسا إلى المصالحة الفرنسية الألمانية التي انطلقت من تخلي ألمانيا عن سياستها التوسعية، ولم يكن ممكنا بالطبع أن أضيف كل هذا لتصريح تابعه الجميع، وعند العودة إلى الجزائر أشار إلى الموضوع بأسلوب غاضب أعطاني الشعور بأنه كان هناك تحريض واضح ممن يقف وراء فكرة إقحام أوروبا بالشكل الذي حدث.

أمر آخر.

في اجتماع اللجنة المركزية يوم 19 ديسمبر قال : في زيارتي لتونس تحدثت عن المغرب العربي وكنت أشرت إلى أوروبا كمثال، ولكن هناك من الصحفيين من قارنه بمجلس التعاون الخليجي، وهو ما لا أقصده (القضية إذن لها جذور)

وفي نفس الحديث عند الوصول إلى تونس قال : جئتكم بقلب مفتوح ويد مفتوحة، وحذفت في النص الرسمي تعبير اليد المفتوحة، خشية من سوء تأويلها، وبعد عودتنا عرفت أنه كان متضايقا مما خيل إليه أو نقل له على أنه ممارسة للرقابة، وقال لي غاضبا : إنني أزن كلماتي وأعرف جيدا أين أريد الذهاب وأقف على أرض صلبة.

ثم هناك مقال قصي في الحوادث.

وهكذا بدأت أدرك تدريجيا أن هناك من تمكن من إقناع الرئيس بأنه في حاجة إلى جيل جديد من المساعدين يفعلون ما يؤمرون، ولم يكن هذا مما يُمكن أن أقبله، فأنا لم أضح بمستقبلي الطبي لكي أتحول إلى موظف مسالم ومطيع.

إن الذي اختارني لمنصب المُستشار كان يعرف ما الذي يفعله بالضبط.

وأنا أعرف أن تمسكي باللغة العربية وبالخطب المكتوبة في المُناسبات الرسمية قدم له كأنه عقدة، وهو ما سمعته منه شخصيا في نيودلهي عندما قال

له الدكتور طالب بصوت عالٍ بأن فلان (أنا) يُفضّل ألاّ يستعمل الفرنسية في خطاب عدم الانحياز، وإذا به يقول بأن علينا أن نتفادى العقد، والغريب أنه لم يدرك أن أداءه في العاصمة الهندية لم يكن متميزا كما كان سيئا في نيروبي (ولعل سيره على هذا الطريق الذي زُيّنه له بعض الموسوسين في الظلام هو الذي جعله يقول يوما في إحدى خطبه المُرتجلة: " إن البلد الذي لا يعاني من مشاكل ليس بلدا على الإطلاق"، وثم يواصل : "ونحن ليست لدينا مشاكل"، أو عندما استعمل تعبير "منظمة" في الإشارة لحركة عدم الانحياز)

(..) ويظل السؤال المطروح ...ماذا أفعل ؟

المدني حواس يواصل زياراته اليومية ونضيع الوقت في الدردشة. كلمتُ إبراهيم براهمية هاتفيا (وزير الري ورأس الحربة في الهجوم على عبد السلام بلعيد) ثم ذهبت له وكان تحليله أنني خيرا أفعل باستئنافي للعمل، وكانت معلوماته أن قائمة الباقين في اللجنة المركزية صدرت عن الرئيس شخصيا، لكنه أعطاني صورة المندهش لما حدث.

أتذكر الآن إصرار الرئيس على عدم الإشارة إلى المستقبل عندما كنا نتحدث عن خطاب المؤتمر، وأتذكر أنه رفض شعار "التقدم في ظل الوفاء" مفضلا شعار " العمل والصرامة لضمان المُستقبل".

مولود مزيان (وزير العمل الأسبق) الذي رفض إعطاء مميزات خاصة للأمناء العامين لوزارات السيادة) أخرج من اللجنة.

مدير مجلة الجيش المُجاهد حمودة عاشوري أخرج من اللجنة وبقي صحافيون لم يكن ولاؤهم فوق الشبهات، ومنهم من شكاه لي الرئيس بنفسه متهما إياه بالتلاعب في أموال المؤسسة التي يُديرها، وكنت مغفلا فدافعت عن الرجل انطلاقا بأنه من صفنا.

(...)

وأعترف بأنني لم أعمل مع الرجل كمجرد مسؤول عن شؤون إعلامية بل مددت أنفي في كل اتجاه أحسست بأن واجبي يفرضه علي، وخصوصا في غياب تعليمات واضحة ومحددة، بل وفي أغلب الأحيان غياب معلومات مؤكدة.

كنت أرى نفسي دائرة من دوائر الأمن التي تحميه، وحاولت بالفعل حمايته في المجال الذي أقدر عليه، بالكلمة والصورة وبالتصرف.

لكنني أعترف اليوم بأن الولاء الرأسي هو خطأ مُطلق، وكان يجب أن أفهم هذا منذ تجربتي الأولى كمسؤول في البحرية الوطنية.

صفحة بيضاء

الفصل الأخير

... وأخيرا وليس آخرا

وأعود ثانية إلى ما كنت كتبته يومها لأنه أكثر صدقا في التعبير عن المشاعر والأحاسيس.

....

مرّ أكثر من أسبوع وأنا أواصل ضرب الأخماس في الأسداس محاولا فهم ما حدث واستنتاج ما يمكن أن يحدث ثم اتخاذ القرار الحكيم الذي لن أندم، يوما، على اتخاذه.

وتعود إلى الذاكرة تفاصيل لم أكن توقفت عندها لأن وتيرة العمل كانت أسرع من أن تسمح لي بوقفات تحليلية، لكنني أجد نفسي اليوم مضطرا إلى الغوص فيها لأجد إجابة مقنعة على تساؤلاتي.

كنت أفهم أن كثيرا من قيادات العالم الثالث تنظر بنوع من الاستعلاء لقضية إعداد الخطب الرئاسية، في حين أنها أمر عادي في كل دول العالم المُتقدم مع استثناءات تؤكد القاعدة، ولهذا كنت أقول للرئيس أنني مجرد إنسان يقوم بصياغة أفكار أستمدها، غالبا، من أحاديثي معه، وكنت دائما أصر على أن نراجع الخطاب معا، ليس فقط حرصا على حسن الأداء، ولكن الخوف من أن يجد، إذا كان وحده في البدايات، صعوبات يتمكن البعض نتيجة لها من إقناعه باستعمال الفرنسية في بعض خطبه، أو اللجوء إلى الارتجال بمعناه الحرفي، وهو كارثة حقيقية بالنسبة لرجل سياسي في ظروف كظروفنا، وهو خطأ بالنسبة لكل من يتناول الكلمة علنا.

ومارست ذلك بدون انقطاع في العام الأول، ثم أحسست بأنه بدأ يتهرب منه، فاستجبت فورا لرغبته، وكان مما يُطمئنني أن إرادته في استيعاب خطبه والتحكم في أدائها كانت إرادة فولاذية، وهكذا لم أحاول أن أضغط عليه كثيرا، ربما بتأثير العقدة التي زرعها في نفسي خبران نشرا في "الوطن العربي" وفي "جون أفريك" يقول كل منهما ما معناه أن فلانا يقوم مع الرئيس بدور المُعلم، وهو خبر تم تسريبه بصفة شبه مؤكدة من زيغود يوسف، حيث أنه لم تكن لي علاقات البتة مع المجلتين، وفهمت أنها محاولة للإيقاع بيني وبينه فنقلت له المضمون بنفسي وعبرت له عن شكوكي ولكنه تعالى على الأمر بكل أنفة وقال لي ... "دعك منهم"، وأكبرت فيه ذلك.

وقال لي يوما وأنا أناقشه : "أنتم تعدون الخطب في آخر لحظة وكأنكم تريدون أن أعجز عن استيعابها"، وكنت أقول له بصراحة أن ذلك لم يكن يحدث في البدايات وأن الخطب التي أتحمل مسؤوليتها تتم دائما في وقت مناسب، لكنني لا أستطيع التحكم في النصوص التي يعدها آخرون.

ولست أدري لماذا أتذكر اليوم العقيد قاصدي مرباح، الذي كان دوره رئيسيا في تولية الشاذلي بن جديد، ولكنه أخرج من المكتب السياسي وقلمت أظافره الاستخباراتية التي كانت أساس قوته السياسية، وإن كان أعيد للمكتب في الولاية الثانية، ولم يعد بنفس السلطات، وهو ما يعني أن الرئيس يحاول اليوم أن يتخلص من كل من يُمكن أن يكون لهم فضل معين على مسيرته، وأن يُحيط نفسه بمن يكون صاحب الفضل المُطلق عليهم، وهذا أمر إنساني بالنسبة لمواطن ولكنه ليس كذلك بالنسبة لمن يجلس فعلا على القمة، لأنه يُؤدي، في لحظة معينة، إلى تقلص من يفيدونه وتكاثر من يفيدون منه، وسيلجأ هؤلاء إلى خداعه من جهة وإلى التحالفات الأفقية على حساب الولاء الرأسي من جهة أخرى.

ثم أقول لنفسي أن هذا هو العالم وإعادة صياغته ليس من شأني ولا في مقدوري.

....

ويتصل الرئيس موسى طراوري بالرئيس ويعطي مولود الخبر مباشرة لوزارة الإعلام، وهي سابقة لها معناها.

....

زارني اليوم (الأحد 8 يناير) عبد الملك كركب (مدير الأمن الرئاسي الذي لم تجدد عضويته في اللجنة المركزية، كما حدث معي) وقال لي أن الذين أعدوا العملية يُحسنون بالقلق، كما أكد لي بأن الرئيس هو المسؤول الأول لغاية يعلمها هُو، وقال بأنه يواصل عمله كالمعتاد، وبأنه تلقى تأكيدات من الذين يتعامل معهم (في مناصب أعلى بمؤسسته الأصلية بالطبع) بأن ما فعله هو عين الصواب، ثم قال: إحساسي هو أن الرئيس أدرك، عندما لم يدافع أحد عنا ولم يقترح أسماءنا أحد، أننا استُهلكنا وكسبنا

عداوات كثيرة من الضروري ألا يتحمل وزرها، وقلت له أن العداوات كانت بسبب التزامنا مع متطلبات الولاء المُطلق له.

أمر غريب، لقد جددت عضوية شخص في اللجنة رغم أن رأي الرئيس السيئ فيه معروف، وجددت العضوية لآخر كان الرئيس يسميه "الديماغوجي" ولثالث كان يشير له بصفة "الخبيث".

ولكن، أليس هو صاحب القرار النهائي ؟.

وبدأت أعد نفسي للمغادرة النهائية لموقعي، فلم أعد قادرا على تسميم نفسي بالتساؤلات والتساؤلات المُضادة، وأنفقت صباح اليوم (11 يناير) في تجميع أوراقي وتمزيق ما لا أحتاجه، ولم يبق في المكتب من حاجاتي الشخصية إلا صورة حائطية للرئيس بو مدين وحقيبة يد صغيرة.

وفي حدود الواحدة ظهرا يدق الجرس الحكومي ثلاثي الأرقام وكان العربي بلخير على الخط ليسألني: أين أنت، هل أنت مخاصمنا ؟ لا بد أن أراك إذا كان عندك وقت، وقلت .. الوقت عندي منه الكثير، ويعاود السؤال : لماذا لم تتصل ؟ وأجيب .. الماء يأتي من أعلى ولا يصعد من أسفل.

ونتفق على اللقاء.

ويسألني ... ماذا بك، ماذا حدث ؟ عرفت أنك اتصلت بمولود وبعباس ولم تتصل بي، لماذا ؟

كنت أريد أن أتحدث معك بخصوص العمل ...لم يتغير شيئ بالنسبة لي ... الرئيس سأل عنك ... في تصوري ..."كيما البارح كيما اليوم"، إلا إذا كان عندك رأي آخر.

سيُحدثك الرئيس .. ولي رجاء أخوي عندك ..ألا تحرجه بالسؤال عمّا حدث (ماذا؟ هل الرئيس غير قادر على مواجهتي، وهو الذي طلب هذا من العربي)

دق جرس الهاتف الرئاسي فغادر مكتبه ليعود بعد حوالي عشرين دقيقة.

تساءل من جديد عن رأيي وقلت له أنه لا رأي عندي، ولكن أنت تقول أنه لم يتغير شيئ وأنا أقول أنه تغير كل شيئ، فبالأمس كُلّف بسايح بإعداد نسخة جديدة من خطاب الرئيس، أليس هذا هو عملي الحقيقي؟ لماذا يُكلف به آخر ؟ وقال : هذا خطأ أعترف به، قلت: لقد وفيت بالتزاماتي تجاه المؤسسة التي أعمل بها وعلى هذه المؤسسة أن تفي بالتزاماتها معي، وأهمها أن يُحدد لي مجال العمل وحدوده، وتذكر أنني قلت لك يوما أنني لن أكون حالة اجتماعية (Un cas social)

ثم غادرت مكتبه بعد أن أعطاني مشروعا لكلمة موجهة للأمة بعد الانتخابات، وطلب مني أن أكون موجودا غدا إلى جانب الرئيس في عملية التصويت، وهو ما لم أفهمه.

وعدت إلى مكتبي فوجدت المساعدين في انتظار نتيجة اللقاء، وقلت لهم بأنني مستمر في موقعي بطلب من العربي، وكان شعوري هو أن اتصال الأمين العام لم يكن مبادرة شخصية، وإلا لتمّت خلال الأسابيع الثلاثة الماضية، فما هو الجديد الذي حدث.

وأخذت أفكر من جديد في هذا التناقض الذي نعيشه والذي يُعطي الشعور بأن هناك، فيما يتعلق بي، رأيان يدفع كل منها في اتجاه مضاد للآخر، ويزيد من صعوبة اتخاذي لقرار نهائي.

....

وبالمناسبة، المدني يتصل بي يوميا أما الأزهري فلم يتصل حتى هاتفيا، وعرفت أنه يُعدّ فيلما وثائقيا من خطب الرئيس، وكان شعوري بأن هناك إحساس عامّ بفراغ كبير يحاول كلّ أن يملأه.

الخميس 12 يناير

ذهبت إلى مكتب التصويت بمدرسة الغزالي المواجهة للرئاسة لأطمئن إلى الاستعدادات، ولأكون في استقبال الرئيس كالعادة، ولكنني، وبعد تفكير سريع، عدت ثانية إلى الرئاسة لأنني أردت أن أغير تماما من الأسلوب الذي كنت أعمل به في السابق، وأتفادي مصافحة قد يبدو أنني فرضتها على الرئيس تزلفا، خصوصا وأن حرمه سوف ترافقه، وأنا لم أصافحها في حياتي.

وتوجه العربي إلى مكتب الرئيس ليبلغه بأن كل شيئ جاهز، وكنت أنا مع مولود في القاعة الكبرى خارج المكتب وقرب باب الخروج إلى الساحة، وخرج الرئيس من مكتبه ترافقه السيدة حرمه، وتوجه لي الرئيس بتحية الصباح ومناديا إياي باسمي ورددت عليه، لكنني لم أتحرك من موضعي الذي كان يبعد عنه نحو أربعة أمتار، ورمقتني زوجه بنظرة سريعة وهزت رأسها محيية.

وخرجنا من مقر الرئاسة، الرئيس وعلى يمينه حرمه وعلى يساره العربي وأنا خلفهما وبجانبي الابن الأكبر للرئيس، وتقدم مولود الجميع، ولم يكن هناك أي مسؤول حزبي أو حكومي بمن في ذلك وزير الداخلية، وأعطيتُ الخبر للوكالة على أساس أن الرئيس أدلى بصوته مرفوقا بقرينته، وكان مُحاطا بعدد من المسؤولين في الرئاسة، وأشرت إلى أن ابنه أدلى بصوته في مكتب مجاور.

وأردت بهذه المُناسبة إرسال ثلاث رسائل أولاها أنني أمارس عملي، حتى الآن، بشكل طبيعي، وثانيها التأكيد بأن الرئيس اختار الإطار الرئاسي وهو يصوت في المكتب الذي يتطلبه موقع إقامته، والثالثة وجود زوجه كرسالة للنساء ووجود ابنه كرسالة إلى الشبيبة.

وكان بإمكاني بالطبع أن أختفي عن الكاميرا، ولم أفعل ذلك متعمدا، لكنني ظللت أتساءل : ماذا وراء الإصرار على وجودي، خصوصا وأنا أشعر بأنه لم يكن مبادرة شخصية من الأمين العام.

وعدت إلى مكتبي لمراجعة مشروع الكلمة، ولاحظت أن المشروع الذي أعطاه لي العربي بارد وليست فيه أي إشارة للثورة أو للميثاق الوطني، ببساطة، كان أي كلام.

واتصل بي الأمين العام وأبلغني أن عرفات قد كلم الرئيس هاتفيا ليهنئه بإعادة انتخابه، وذلك لإعطاء الخبر، وتم ذلك فعلا إذ أعطيت الخبر بنفسي للوكالة وللتلفزة والإذاعة، لكنني بدأت أتساءل، وعلى ضوء هذه المكالمة، هل يريد الرئيس أن تكون اتصالات المُستقبل كلها عن طريق العربي، أم أن الأمين العام هو الذي يريد أن تكون اتصالات المستقبل عن طريقه؟ ثم من الذي يقرر ؟

وأرسلت يوم السبت المشروع كما أراه، فلم أكن مستعدا لأي مساومة توحي بأنني أقبل وضعية جديدة تقلص من صلاحياتي، وكنت أعددت اللازم للتسجيل مع تجديد يتمثّل في لوحة قراءة (Téléprompteur) تعكس السطور التي تمر رأسيا على شاشة مثبتة أمام عدسة الكاميرا، يقرؤها المتحدث ولكنه يبدو للمستمع وكأنه يرتجل، وطلبت من مولود أن يأتي بالرئيس للإطلاع على التجهيزات الجديدة، ولتحديد سرعة الشريط الذي كتب عليه الخطاب، وهو ما حدث بالفعل، وقام الرئيس بتجربة الجهاز، ومولود بجانبه لا يُفارقه ولم يقم هو بصرفه، وناقشني في بعض التفاصيل الفنية كما سألني عن النص (الأول) وقلت له أنه يبدو لي باردا، واتفقنا على أن يكون التسجيل في اليوم التالي، وعدت إلى المنزل.

كلمني الرئيس في المنزل وقال إن النص الجديد (الذي اقترحته) عاطفي وأنه يُفضل النص الأول مع بعض الإضافات عند الضرورة (وقلت لنفسي ربما كان هناك من يخشى أن أدس رسالة ما في الخطاب) فقمت بحذف بعض الفقرات وأرسلت له النص وأنا على يقين من أن لعبة القط والفار هذه لا يُمكن أن تستمر، لأن الثقة اهتزت والقرار يبدو متخذا.

وهناك نصان مُعدان له أن يختار بينهما.

الأحد 15 يناير

أبلغني مولود بأن الرئيس يبحث عني فذهبت إلى مكتبه وظللت واقفا، وكان المألوف أن أجلس بمجرد دخولي، وقلت له ردّا على سؤاله بأن النصين أمامه، النص الأول الذي أضفت له "ثورة نوفمبر الخالدة والمجتمع الاشتراكي"، والنص "العاطفي" الذي أعددته أنا .

وكان مصرا على استعمال النص الأول الذي قال لي عنه الأمين العام " أنه نص جيد ولا أقول هذا لأنني أنا الذي أعددته" (Ce n'est pas parce que c'est mon oeuvre) وهكذا تم التسجيل مع بعض المعاناة من كلينا بالنسبة لتقنية غير مألوفة.

وذهبت إلى التلفزة لإتمام الإعداد النهائي للنص الذي سيبث وأنا أتذكر كيف أعددنا أول خطاب له عشية انتخابات فبراير 1979، وأستعرض المسافة التي قطعت منذ ذلك اليوم

وكان قد حُدد يوم الاثنين 16 يناير لأداء القسم، وأنقل من مذكراتي السطور التالية.

كان الناس في القاعة الكبرى لقصر الأمم وقوفا وكأننا في مهرجان شعبي، وكان هناك من يتقافزون للوصول إلى الصف الأول، في عدم وجود الكراسي التي تضع كلا في المكان الذي وصل إليه، وكنت أعددت نصا للقسم الدستوري كتب بالخط النسخ الكبير كالعادة وتم وضع الحركات والسكون على كلماته، واكتشفت أن هناك نصا تم إعداده سلفا، وكان معنى هذا أن هناك من يحاول استباق الأمور.

ويُعزف "الكوبليه" الأول والثاني من النشيد الوطني، ويبدأ الرئيس في تلاوة القسم من النص الذي وُضع أمامه، وهو صورة لنص مأخوذ من إحدى الصحف الناطقة بالعربية، وكنت أتابع التلاوة من نص أمسكه في يدي بشكل لا يلحظه من هم حولي، وكان القسم يذاع مباشرة عبر التلفزة والإذاعة الوطنية بمختلف قنواتها، كترجمة للنص الدستوري بأن القسم يؤدى أمام الشعب.

ويتعثر الرئيس في البداية فيقول "أرواح الشهداء" بدلا من "أرواح شهدائنا" ثم يستدرك التلاوة، ثم أفاجأ بأنه قفز على عبارة .. "وأن أحافظ على الحقوق والحريات الأساسية للشعب" فنسيها تماما.

وتلفتّ حولي فلم أجد هناك من بدا عليه أنه شعر بأي شيئ غير عادي، ثم أحسست بالشك فيما سمعته فجريت بعد انتهاء الكوبليه الرابع من النشيد الوطني نحو شاحنة البث التيلفيزيوني وطلبت الاستماع إلى القسم أكثر من مرة، وتأكدت مما سمعته ومما لم أسمعه.

وفكرت في أن أتناسى الأمر كله، خاصة وأن أحدا لم يبد أنه لاحظ شيئا.

وتنازعتني مشاعر شتى، وكانت خشيتي كبيرة من أن يلاحظ أعداء البلاد أو خصوم الرئيس ذلك اليوم أو غدا فيثيرون الأمر كمخالفة دستورية، قد تقود إلى مزالق كثيرة، أو على أقل تقدير أن يقول بعضهم بأن الرئيس تجاهل ذكر الشعب وحقوقه وحرياته لأنه لا يؤمن بذلك.

ورحت أتساءل عمّا يُمكن فعله وأجري في ردهات قصر الأمم كهاجر تبحث قرب البيت عن الماء لوليدها، ثم تغلبت روح الأمانة والوفاء، فذهبت إلى مولود لأصارحه بمخاوفي مما يمكن أن يحدث إذا لوحظ الخطأ، اليوم أو غدا أو بعد غد، ولم يبد عليه اكتراث كبير بما كنت أقوله، ولعله تصور أنني أحاول أن أؤكد أهمية وجودي في موقعي، وراح يسألني عمّا إذا كنت متأكدا مما أقوله، خصوصا وأن أحدا لم يعط الشعور بأن خطأ ما قد حدث [269].

وقلت له بأن علينا أن نجد حلا لذلك الأمر، وبسرعة، فاكتفي بالقول بأن الرئيس ما زال في مكتبه بقصر الأمم، والمهم هو "ألاّ أحرجه" (أي الرئيس) أو أخبره بالسبب الحقيقي.

وشعرت بالأسى لما سمعته، ودخلت مكتب الرئيس متوترا فوجدته مرهقا، وسألني عمّا ورائي، فقلت له بدون دخول في التفاصيل بأن تسجيل القسم كان سيئا، وبأنني أريد أن يعيد تلاوته من جديد.

وقال لي الرئيس بأنه تلعثم (تلعثم فقط) لأن نص القسم لم يكن واضحا، ولم أرد انتهاز الفرصة لأقول له بأنني لم أكن مصدر ذلك النص، وهو ما ندمتُ عليه فيما بعد، لأن كرم النفس ليس هو أسلوب التعامل الصحيح مع اللئام، ممن يستشري خطرهم لأنهم يحسنون انتهاز مواقف الكرام الذين يسترون خطاياهم ويتسترون على أخطائهم.

وكعادته قال لي الرئيس باستسلام يوحي بأنه يتعرض لضغط نفسي شديد: افعل ما بدا لك.

وكنت قد أعددت مجموعة إذاعية وأصدرت لها تعليمات بالاستعداد لبث مباشر عبر الإذاعة، فأدخلتها إلى مكتب الرئيس بعد أن قدمت له نص القسم الذي كنت أعددته مكتوبا بحروف واضحة، فتلاه أمام ميكروفون الإذاعة، وسألت عن البث المباشر فقيل لي أنه لم يتم، وحمدت الله، فقد كانت التلاوة سريعة وفاقدة لروح القسم، فطلبت من الرئيس أن يعيد التلاوة ببطء، للاطمئنان، ونفذ الرجل آخر طلباتي له بانضباطه الذي كنت عرفته عنه، وهو ما أعطاني الشعور أنه أدرك الأمر.

وأذيع النص الثاني مباشرة من مكتب الرئيس بقصر الأمم، وهكذا يُمكن القول أنني وفيت بالجانب المتعلق بشرعية أداء القسم، أي أنه كان مباشرة للجمهور، لكن الأمر لم ينته عند هذا الحد، فقد كان علي أن أراجع البث التليفيزيوني المُعد لنشرة الثامنة مساء، فتوجهت على الفور إلى مبنى التلفزة واستدعيت أحد كبار الفنيين وهو الأخ أحمد بو حيرد، وطرحت عليه مشكلتي، وهي ضرورة أن يكون نص القسم الذي تبثه التلفزة نصا كاملا غير منقوص.

---

269 - سألت نفسي ألف مرة عما إذا كان الناس جميعا لم يلحظوا فعلا ما حدث، وهو ما يمكن أن يكون مقبولا بالنسبة لعامتهم، ولكنني لا أتصور أنه كان كذلك بالنسبة لخبراء القانون الدستوري وكبار المناضلين الحزبيين والموظفين السامين. وكان يخجلني أن أحس بأن هناك من أدرك ما حدث ولكنه فضل السلامة، وسألت نفسي بعد ذلك ألف مرة عما إذا لم أكن إنسانا ينتمي إلى فصيلة المخلوقات المؤهلة للانقراض. لكنني، في كل هذا، لم أشعر بأي ندم، وشعرت بأنني أقوى من الجميع، وكان هذا مكافأتي الوحيدة.

ورُحتُ في غرفة المونتاج الإلكتروني، بكل ما اكتسبته خلال السنوات الماضية من خبرة في المونتاج، أحاول إرشاد التقني لإدخال الفقرة الناقصة التي أخذناها من النص الإذاعي الثاني في الشريط المسجل تليفزيونيا، ثم تغطية عملية اللصق الصوتية بصورة تليفزيونية، بما يسمى الإدماج Insert، وكانت العملية فشلا ذريعا لمجرد أن الصوت والرنين والصدى ونوعية التسجيل وسرعة الإلقاء في النص التلفيزيوني كانت تختلف تماما عن النص الإذاعي الذي أداه الرئيس في المكتب، بما كان يمكن أن يكون فضيحة تقنية سياسية.

ورحت لمدة لعلها تجاوزت الساعة بكثير أحاول أن أجد طريقة مناسبة، تحت نظرات أحمد بو حيرد المشفقة والمليئة في الوقت نفسه بحجم كبير من الإعجاب.

وألهمني المولى عز وجل بفكرة رأيتها الحل الوحيد، فطلبت من أحمد موافاتي من الأرشيف القديم بتسجيل تيليفيزيوني للقسم الذي ألقاه الرئيس في فبراير 1979، فبحث عنها إلى أن وجدها على الشريط الإلكتروني (2 بوصة كما كان يقال) واستمعت للتسجيل أكثر من مرة وطلبت من التقني، الموجود معنا في غرفة مغلقة لم يكن أحد يعلم ما يدور فيها، انتزاع جملة .."وأن أحترم الحقوق والحريات الأساسية للشعب" من نص 1979 ليضعها حيث يجب أن تكون في نص 1984، وغطيت اتصال النص القديم والجديد بصور من قاعة قصر الأمم بنفس طريقة الإدماج (Insert).

واستغرق الأمر عشرات الدقائق ومئات الثواني لتصحيح خطأ أستغرق نحو عشر ثوان.

ومر التسجيل في نشرة المساء، ولم يلحظ أحد شيئا باستثناء مراسل صوت واشنطن آنذاك، فريد الطرابلسي، الذي جعلته يشك في سلامة أذنيه.

وقال لي بو حيرد بعد ذلك عندما سمع بعزلي بأن ما قمتُ به يوم القسم كان يجب أن يرى فيه الرئيس دافعا لكي يتمسك بي مهما كانت الضغوط، ومهما كانت الأخطاء التي كان يمكن أن تكون قد نُسبت إلي، ولم أقل له أنني، وكالعادة، لم أرو حرفا عما قمت به للرئيس، وبأنه ومساعده التقني هما الوحيدان، بعد المولى عز وجل، اللذان يعرفان تفاصيل ما حدث.

وعدت إلى المنزل وأنا أسأل نفسي مرة أخرى كم من الحاضرين في القاعة ممن لاحظوا ما حدث ولم تكن لديهم الجرأة للتنبيه سوف يحاولون يوما، وفي لحظة ما من تاريخ البلاد، أن يُساوموا أو يُناوروا أو يثيروا القلاقل باسم شرعية ناقصة لم يجرؤا على فضحها في حينها.

ثم ... كم منهم الذين سيتهمونني بتزوير الواقع لصالح النظام إذا اهتزت الأرض تحت أقدامه ؟.

لكنني كنت راضي النفس قرير العين لأنني قمت بواجبي ولم يحدث أي خلل دستوري أو تقني يمكن أن يسيء إلى الرئيس، الرئيس الذي لم تجف بعدُ إساءته لي.

<u>السبت 21 يناير</u>

لا جديد إلا تكوين المكتب السياسي الجديد وخروج محمد السعيد معزوزي منه، وأدخِل، كعضو إضافي، كل من عبد الحميد إبراهيمي ومصطفى بللوصيف وقاصدي مرباح وبشير رويس (والذي كان مفاجأة) ويقال هنا أن بسايح كان مُصابا بخيبة أمل جعلته يوقف برنامجا حول خطب الرئيس كان قد أعده عبد القيوم بو كعباش، طبقا لما سمعته آنذاك.

وزارني الأزهري شريط للمرة الأولى 23 منذ ديسمبر.

لم أذهب إلى الطمب الكبرى منذ الاثنين الماضي، وكنت توقفت عن تناول الغداء مع المجموعة.

<u>الثلاثاء 24 يناير</u>

كلمني العربي في حدود الرابعة مساء بشكل مفاجئ وغير منتظر ليقول لي ببساطة : "دكتور ... مهمتك انتهت".

وتحكمت بسرعة في مشاعري وأجبت الأمين العام بهدوء "هذه قضايا لا يتم التعامل فيها بالهاتف"، وأنا أفضل أن نلتقي لننتهي من الأمر بشكل مشرف لنا جميعا.

والتقينا بعد دقائق في مكتبه وبدا مُحرجا وهو يستقبلني ويبلغني ثانية بالقرار ثم يحاول تبريره بأن هناك عملية تنظيم جديد في الرئاسة، ولكنه بدا لي وكأنه يحاول إقناع نفسه لا إقناعي".

وسألته بكل هدوء : "هل أفهم من هذا أن ألزم بيتي"، وردّ بالإيجاب.

وكان ما يُهمني في هذه اللحظات هو أن أقول له ما أعتقد أنه سيصل، بشكل أو بآخر، إلى أسماع الرئيس ، وبدون أن يكون هناك خلط بين الأسف للأسلوب والأسى لجزاء سنمار.

وركزت حديثي على ثلاثة نقاط.

قلت في البداية أنني أعتقد أنني الإطار الوحيد في الدولة الذي قبل عبودية منصب لم يسع له ولم يجرِ إليه ولم يُقايض عليه، ويُمكنني أن أقول أنه، من الناحية السياسية، فرض علي فرضا، إذ أنني لم أكن أجرؤ على رفض عرض يقدمه الرئيس الجزائري للعمل معه ونحن نعيش تداعيات تأميم النفط.

وذكرته بما كان يعرفه فعلا بحكم علاقاتنا الماضية وهو أنني كنت أمارس عملي الطبي في أحسن الظروف، وصارحت بذلك الرئيس الراحل عندما استقبلني ليدعوني شخصيا للعمل معه، فقد قلت له أنني أرفع، في عملي الطبي، تحديا هائلا حيث فتحت عيادتي الطبية في قلب العاصمة الجزائرية وعلى مرمى حجر من عيادات كبار الأساتذة من خريجي كبريات الكليات الفرنسية بينما أنا مجرد طبيب ناشئ تلقى علومه الطبية في عاصمة عربية، وكنت بهذا أبرر ترددي نحو ستة شهور في قبول المنصب، وقال لي الرئيس بو مدين رحمه الله يومها : " تحديك اليوم هو تحدٍ على مستوى الفرد، وأريدك الآن أن ترفع تحديا على مستوى الدولة"، وأعترف أنني ضعفت أمام ذلك القول الرائع وقبلت منصب المستشار، الذي نزع مني بمبررات لا تقنع أحدا بعد نحو 13 عاما من العمل المتواصل في خدمة الدولة، أثبت فيها كفاءتي ومقدرتي والتزامي.

كان الأمين العام يستمع بهدوء وأشهد أنه لم يُقاطعني، وواصلت قائلا بأن دخلي المادي انخفض من عشرة إلى واحد يوم التحقت بالرئاسة، ولم تكن التضحية بالجانب المادي فقط بل بالجانب الاجتماعي أيضا، حيث كان موقعي، كموقعه هو اليوم، موقعا يجتذب الأعداء والخصوم والانتهازيين كما ينتهز النور الساطع فراشات الليل، في الوقت الذي يتناقص فيه عدد الأصدقاء والحلفاء.

وقلت للعربي أنني، بعد وفاة الرئيس الراحل وأداء واجبي خلال شهر ونصف إلى جوار رئيس الدولة الأخ رابح بيطاط رحمه الله، أعددت نفسي للعودة إلى عيادتي الطبية، لكن الرئيس الجديد رأى أن يحتفظ بي إلى جانبه، وهذا يعني، مرة أخرى، أنني لم أسع إلى منصب ولم أطلب وظيفة، ولست أنتظر اليوم شيئا على الإطلاق إلا الاحترام الذي يفرضه منصبي السابق في الدولة، لأنه احترام للدولة نفسها أولا وقبل كل شيئ.

وقلت في ختام حديثي أن خروجي من الباب الصغير لا يسيء لي بقدر ما يسيء إلى المؤسسة التي عملت بها سنوات طويلة لم يُسجل فيها عليّ خطأ سياسي أو وظيفي ولم يؤخذ علي أي ممارسة تتناقض مع النزاهة والأمانة والالتزام.

وخرجت من مكتب الأمين العام بعد توديعه وذهبت إلى مكتبي حيث حملت ما كان تبقى من حاجاتي الشخصية، وكانت بعض الكتب والأوراق وصورة للرئيس بو مدين لم تبرح مكتبي منذ عرفها الحائط في بداية السبعينيات، ثم غادرت المكان مساء الثلاثاء 24 يناير 1983 ولم أعد له على الإطلاق إلا في 23 سبتمبر 1989، أي بعد خمس سنوات وثمانية شهور على وجه التحديد، وذلك لألتقي بالرئيس الذي عهد إلي يومها بسفارة الجزائر في باكستان.

وهكذا، وبعد نحو ثلاثة عشر سنة، أنهيت مهامي كمستشار برئاسة الجمهورية، والواقع أنها كانت أنهيت قبل ذلك بإلغاء منصب المستشار [270].

وكان المؤسف هو أن الرئيس لم يستقبلني ليبلغني بإنهاء المهام، بل ترك ذلك لأمينه العام، العربي بلخير، ولا أريد أن أعلق على هذا وإن كنت رأيت فيه إخلالا بالعقد المعنوي الذي كان بينه وبيني، ورحت أتخيل أن سنواته المقبلة ستحوله شيئا فشيئا إلى سجين رأي واحد في بيت مغلق النوافذ والأبواب، لمجرد أنني أتصور أنني كنت من القلائل الذين يُصارحونه بما يرون أنه الحقيقة.

---

270 - ربما كان من خلفيات التخلص مني صراعات كثيرة مع مراكز نفوذ متعددة المصالح، ممن كان يزعجهم وجودي بجانب أذن الرئيس وقريبا من قلبه. وأتصور أن من المثالب الكبرى التي أخذت عليّ الفيلم الوثائقي الذي أعددته عن زيارة الرئيس إلى بلجيكا، وإصراري المتواصل على إبراز البعد العربي الإسلامي، وتمسكي بالوفاء للرئيس الهواري بو مدين، وقيل لي أن بعض رجال الزوايا دخلوا على الخط، وربما عناصر من دولة شقيقة ، ولعل الأمر الذي اتفق عليه كثيرون بأن وجودي على مقربة من أذن الرئيس هو خطر يجب أن يتم التخلص منه.

وكانت العادة أن تقام حفلة وداع لمن يغادرون الرئاسة ولكن ذلك لم يحدث معي ولم يحدث مع الأخضر الإبراهيمي.

وكان العرف يقضي بأن تستمر السيارة الرئاسية تحت تصرفي لمدة سنتين ولكنها نزعت مني في نهاية العام، وتوقف بعدها إمدادي بالصحف والمجلات الوطنية والدولية، لكن مرتبي ظل يرسل لي بانتظام ولم أتعرض لأي مضايقة من أي نوع كان.

....

وستكون لديّ الفرصة لألاحظ حجم الخداع الذي يتعرض له الرئيس.

فقد رأيت فيما بعد الصورة الرسمية الجديدة التي أعدت للرئيس في ولايته الثانية وقد اختفى منها الشارب نهائيا، حيث تخلص منه تدريجيا إلى أن أزاله نهائيا، ولم يقل له أحد بالطبع أن ذلك الشارب كان جزءا من شخصيته ومن صورته الجماهيرية، ولم ينقل له أحد بالطبع التعليقات الشعبية على ذلك.

ولأنه لم يكن وراء المصور من يحدد العمق الفكري للعمل فإنه لم يستطع أن يستلهم الصورة الأولى ولم يلحظ وجود رمز الدولة خلف الرئيس، ولم يدرك خلفية الاختيار المتعمد لئلا ينظر الرئيس مباشرة إلى عين الكاميرا، وكان ذلك في 1979، حتى لا يتضح حول بسيط في عينيه.

وكان الجديد في الصورة هو أن الرئيس وضع في عروة جاكيتته وريدة (Rosette) وسام الاستحقاق الوطني (وأعترف أنه كان مما أسعدني، رغم أسفي لحدوثه، هو أن كل الصور التي صممت لكل رؤساء الجمهورية بعد ذلك التزمت بالتصور الذي اخترته في الولاية الأولى للرئيس الشاذلي، وكان المفروض أن تكون لكل رئيس صورته المميزة لشخصيته).

....

وأعترف أن الأسابيع التي مرت عليّ بعد ذلك كانت من أصعب الأيام التي مرت عليّ في حياتي، فبالنسبة لرجل ألف العمل نحو 15 ساعة في اليوم تتجاذبها عشرات الالتزامات، لم يكن سهلا أن يستيقظ صباحا فلا يجد ما يفعله طوال النهار وإلى أن يغمض عينيه ليلا.

كنت أدور في بيتي وأنا أردد ...غير ممكن ...غير ممكن، فقد أحسست وكأنني أعيش كابوسا، وكنت عاجزا عن القراءة وعن الكتابة وحتى عن متابعة التلفزة التي كانت تذكرني بأيام النشاط والحيوية، وبالرغم بأن بعض ما أصبحت أشاهده من نشاطات الرئيس كان يقدم صورة سيئة له، وهو ما كان يفترض أن أشعر بالسعادة وأنا ألاحظ حجم السقطات، لكن ذلك، للغرابة، لم يحدث.

وكان من حسن حظي أنني، وخلال ثلاثة عشر عاما في الرئاسة لم أفتح بيتي لأصدقاء المناسبات وطوابير المنافقين، ومن هنا لم أشعر بفراغ حقيقي من الناحية الاجتماعية.

وكنت أتذكر كلمات نسبت للأخ أحمد درايا رحمه الله قال فيها وهو يجتاز الصحراء وقبل إرساله سفيرا إلى البرتغال في سنواته الأخيرة: "أتمنى أن يدق جرس الهاتف في منزلي ولو بطريق الخطأ".

وزارني بعض المساعدين السابقين في المُديرية واختفى البعض الآخر، وكان مما ألمني أن المصور التليفيزيوني الذي كان يحظى دائما بدعمي ورعايتي لم يُفكر في زيارتي، ورُوِيَ لي أن الأمين العام اجتمع بإطارات المديرية ليدعوهم إلى مواصلة العمل بنشاط لا يتأثر بغيابي، فأجابه المصور بأن وفاة النبي لم تمنع استمرار الإسلام.

وتغلبتُ على المعاناة النفسية فشغلت نفسي بأن قمت ببعض الإصلاحات في المنزل أو بزراعة بعض البقول في حديقته الصغيرة أو بالجولات مع المدني حواس والأزهري شريط على أسواق الفلاح للفرجة أو التبضع، ولدرجة أنني قلت للمدني ضاحكا: سنؤلف كتابا نُسمّيه "دليلُ الفَلاح في أسواق الفلاّح"، وقمت بالاشتراك في بعض المجلات الطبية لاحتمال أن أعود إلى الميدان.

وبعد نحو ثلاثة أشهر فوجئت باتصال هاتفي من العربي بلخير للمرة الأولى منذ خروجي من الرئاسة وقال لي أنه أراد أن يطمئن على أخباري، خصوصا وأنه سمع أنني أعدت فتح عيادتي الطبية.

وقلت له، بدون أي خلفيات، بأنني، كما يعرف، مقيد بقانون الوظيف العمومي الذي يُعطيني عُطلة لمدة عامين، وأنا أحاول أن أستريح.

وقال بأن هناك حركة ديبلوماسية في الأفق وأنه أراد التأكد من أنني لست مرتبطا بأي مشاريع خاصة، وذكرته بما قلته له خلال لقائنا الأخير، فأحسست للحظات أن صدى الصوت قد كُتم بما يوحي

أنه وضع يده على سماعة الهاتف ليحجب صوته، وهو ما جعلني أحس بأنه ليس وحده، وعندما عاد للحديث معي أحسست باختلاف في النبرة وقال : لم يتقرر شيئ بعد، وأردت أن أعرف برامجك.

وتوقعت على الفور أن يكون جليسه هو مصدر خبر إعادة فتح عيادتي، وتصورت أن للجليس دورا معينا في الحركة الدبلوماسية، وفهمت بالتالي إلى أنه ليس متحمسا تماما لكي تشملني تلك التعيينات، التي كان اسمي، كما عرفت فيما بعد موجودا في قوائمها، لأكون سفيرا في بودابست.

....

صورة الأمر بمهمة لإسلام أباد 99

وكان الغريب عندما استدعاني الرئيس في 1989 لأتولى سفارة باكستان، هو أن الأمر بالمهمة كان يحمل في خانة الغاية من السفر : الالتحاق بمنصبه في "بوادبست"، والتي صححت بالقلم إلى إسلام أباد" (وقال لي الأمين العام، الذي كان قد أصبح مديرا للديوان، أن المُبادرة بالتعيين جاءت من الرئيس مُباشرة، وهو ما قاله لي وزير الخارجية بو علام بسايح عندما استدعاني ليبلغني رسميا بالأمر، وليقول لي حرفيا بأن ذلك قرار شخصي من الرئيس، وقال لي العربي حرفيا بأن الرئيس ظل قلقا إلى أن أكد له بأنني قبلت المهمة ففرح فرحا شديدا وبدا كأنه، والتعبير للعربي نفسه، طفل حصل على جائزة.

والواقع هو أنني إذا كنت أحسست بكره للشاذلي بن جديد فقد تضاءل ذلك الكره مع الأيام، لكنني أحسست وما زلت بكراهية أكثر عمقا للشخص الذي تسبب في ضياع أكثر من خمس سنوات من عمري لأنه وقف في طريق تعييني في العاصمة المجرية، وربما لمجرد التلذذ بعقابي.

وهكذا اعتبرت التعيين في باكستان ترضية لي من قبل الرئيس، الذي أتصور أنه كان يتابع نشاطي على الساحة في النصف الثاني من الثمانينات، خصوصا بفضل من كانوا ينقلون له مواقفي الصحفية المعادية للنظام، كما كانوا يقولون، وهو ما أثار فضوله في البداية ثم استفز انتباهه لنوعية ما يكتب بعد ذلك، وهو ما اعتبره كثيرون رسائل أبعث بها إلى الرئيس من وراء ظهورهم وعبر الكتابات الصحفية.

(2)

تمكنت، بصعوبة بالغة وبمعاناة نفسية شديدة، من استرجاع أنفاسي بعد الصدمة التي تلقيتها، والتي كانت فعلا جزاء سنمار.

لكنني أنني لم أندم أبدا على كل الجهود المضنية التي بذلتها، فقد كنت أؤمن بأن ما كنت أقوم به هو عمل وطني أستكمل به جهودا متواضعة بذلتها خلال الثورة المسلحة وسأعتز بها إلى آخر رمق، وهو وفاء لمن وضع فيّ ثقته فأدخلني في معمعة السياسة وأعطاني من رعايته وحمايته الكثير، وأقصد به الرئيس الراحل هواري بو مدين، ثم هو أيضا وفاء للرجل الذي فتح لي قلبه في مرحلة معينة وتعامل معي تعامل الأخ بل والصديق، والذي كان علي أن أتفهم حجم الضغوط التي مورست عليه وأحيانا من نفسه، لأن البشر هم بشر أولا وقبل كل شيئ.

لكن الشيئ الرئيسي الذي ظل يحز في نفسي هو أن التيار المعادي لكل ما أؤمن به هو الذي انتصر في نهاية الأمر، فأنا لم أكن أحمل السماء على كتفي، بالتعبير الشعبي الدارج، ولكنني كنت أضع الرئيس في صورة الأحداث كما أعيشها وأقدم له التصورات كما أراها، ويبدو أن هذا، على وجه التحديد، ما كان يتناقض مع متطلبات مرحلة قادمة ستكون الكلمة فيها لرأس المال الطفيلي والكولون الجدد ومن يتحالفون معهم ويعملون لهم ويستفيدون منهم، وهو ما يعني أنه كان مطلوبا أن تتقلص السلطة السياسية لتصبح مجرد واجهة لسلطة حقيقية لا يراها أحد ولا يستطيع، بالتالي، أن يحاسبها أحد.

وبدأت أفكر جديا في العودة لميدان الطب، وبدأت بالفعل في التردد على مستشفى بني مسوس لاسترجاع العهد بالممارسة الطبية [271]، ثم أعدت طلاء عيادتي القديمة الموجودة في شارع أول نوفمبر،

---

271 - عشت أياما عصيبة، وكان الوحيد الذي يزورني بصفة منتظمة هو الأخ المدني حواس، وكان يومها مديرا لوكالة النشر والإشهار، وكان يمر علي يوميا بعد انتهاء عمله في الوكالة، التي كان قد نقل إليها من التلفزة، بقرار من وزير الإعلام آنذاك، الذي لم يجرؤ على إنهاء مهامه تماما خوفا من الاصطدام معي، لكن خلفه، الذي عين بعد

وبدا لي أن من الممكن وضع المرحلة من أول جوان 1971 إلى 24 يناير 1984 بين قوسين، لكن التفكير العميق في الأمر جعلني أغير الاتجاه.

فقد كنت في الستينيات من أهم ممارسي الطب العام في العاصمة وكنت أحد اثنين في الحي، واستطعت أن أكوّن صورة جماهيرية خاصة بي لدى الكثيرين، كنت بالنسبة لهم طبيب العائلة وصديقها، ولعلي أدعي بأنني كنت من أول من مارسوا هذا النوع من العمل الطبي في العاصمة الجزائرية، وعندما تمعنت في الأمر رأيت أنني لن أتمكن من استرجاع الوضعية المتميزة التي كنت عليها في الستينيات، وسأكون مجرد طبيب من بين عشرات، تلتهمهم العيادات الخاصة، وقد يحققون نجاحا على المستوى المالي، لكن الأمر سيتوقف عند هذا الحد.

وبدا لي أنني سأحس بالندم لو اخترت هذا الطريق، لمجرد أن العمل العام أصبح يستهويني أكثر من العمل الخاص، مهما كانت مميزات هذا الأخير ومردوده المالي.

من جهة أخرى، ولعل هذا هو الهاجس الحقيقي الذي كان يؤرقني، إحساسي بأن معالم المرحلة الجديدة، التي بدأت بالولاية الثانية للشاذلي بن جديد، تتميز باتجاه واضح لتخريب مشروع المجتمع الذي كانت جزائر بو مدين قد وضعت أسس بنائه، وكان مما يثير الشكوك أن تعتيما رهيبا فرض على الرئيس الراحل وعلى إنجازاته، مع انتهاز كل فرصة لتشويهها والإساءة للرجل الذي توارى كل من كان يجب أن يدافع عنه، وهكذا اتضحت في ذهني معالم المعركة التي يجب أن أخوضها، مستكملا ما كنت قمت به خلال وجودي إلى جانب الرئيس الشاذلي في ولايته الأولى، ولكن بدون الحماية والقوة التي كان يوفرها لي المنصب الرسمي آنذاك، والذي مكنني من أن أنشر مقالات متعددة في عدة منابر للتذكير بفضائل الرئيس الراحل وإعطاء التوجيهات ببثها إذاعيا، وهو بالطبع ما أخذ عليّ[272].

وكان تذكيري بذلك اجتذابا لصواعق كثيرة ولكنني كنت وما زلت أعتقد بأن تلويث سمعة قادة الوطن سوف ينعكس سلبا على نفسية المواطنين، وكنت أقول دائما بأن الإساءة للماضي هي إساءة للمستقبل، وبأن الرصيد الحقيقي الذي يدعم ثقة الأمة بنفسها هو رصيدها من الرجال.

لكن المرحلة الساداتية بدأت في الجزائر، بكل سوءاتها وسيئاتها وبالقليل جدا من حسناتها.

ويرتبط العام بالخاص، فقد كانت تصفيتي وآخرين تصفية للوجوه التي ارتبطت بالرئيس الجزائري الراحل، وهكذا كان لا بد أن أنتقم، لا للرئيس الراحل فحسب ولكن أيضا لنفسي ولكل الرفقاء الذين بدأت عملية تصفيتهم في منتصف الثمانينيات.

....

ثم حدث ما ساهم في ترسيخ هذا الاتجاه في نفسي.

فقد دعاني رئيس تحرير الشعب، سعد بو عُقبة، في ديسمبر 1984 لكتابة كلمات تذكارية بمناسبة ذكرى صدور الصحيفة، وترددت في البداية ثم كتبت كلمات عرفت فيما بعد أن صداها كان أكثر مما كنت أتوقع، وهكذا، وبعد أن فكرت طويلا، بدأت أعود إلى الساحة الإعلامية بكثافة متزايدة، جعلتني أقول يوما بأن ما كتبته في الثمانينيات هو أضعاف أضعاف ما كنت كتبته في الستينيات والسبعينيات.

وكان أول ما حرصت عليه هو جمع أهم مقالاتي في كتاب أردته أن يكون الجزء الثالث من مجموعة "انطباعات"، وضم العديد من المقالات التي نشرت بعد صدور الجزأين الأول والثاني عن مطبعة البعث في قسنطينة، عام 1971.

تصفيتي، أنهى مهام المدني، وقال في تبرير ذلك أن هناك صلة قرابة تربطني به، وكان هو نفس الوزير الذي أعطيت رأيا سلبيا بالنسبة لاقتراح مرافقته الرئيس إلى نيروبي، واقترحت بدلا منه عبد المجيد مزيان .

وكان من الذين واظبوا على زيارتي علي وناس، وهو من رجال الحرس الجمهوري الذين عملوا معي، ودفع ثمن ذلك عندما استبعد من الحرس الجمهوري وحورب حربا شعواء إلى أن قضى نحبه قهرا.

272 - أشير بهذا إلى السلسلة التي كنت كتبتها في بداية الثمانينات تحت عنوان ".. بين الصمود والرفض والتواطؤ" ، ولأنني كنت مفتونا بالأسلوب الأمريكي الذي يعتمد النشر المتزامن في أكثر من صحيفة يومية لمقالات كتاب معينين، فقد كنت أنشر المقالات، التي كان جوهرها التذكير بالمواقف الجزائرية، في كل من الشعب في العاصمة والنصر في الشرق والجمهورية في الغرب، بالإضافة إلى البث الإذاعي الذي تم بالتواطؤ مع الأخ المدني حواس وتلاها الأخ بن يعقوب بصوته الرائع، وحاولت العودة لذلك الأسلوب، لكن الجمهورية لم تستجب، والإذاعة لم تتجاوب، بالرغم من عدد الأصدقاء الذين كانوا فيها، وكان هذا هو منطق الحياة خارج السلطة.

وكان الغلاف الذي صممته بنفسي يصور جدارا أصم من الحجر الأحمر فيه فتحة مستديرة كتب فيها عنوان الكتاب، وحمل الكتاب التوقيع الرمزي على صفحة الغلاف الأول، وصورة شخصية بملء الصفحة في صفحة الغلاف الرابع، مع مربع جانبي رسم عليه جانب من رقعة شطرنج عليها بعض بيادق، وكتبتُ مقدمة الكتاب ووقعتها باسمي كاملا.

وكان هذا الكتاب هو هديتي لأبنائي الذين وجدت أنهم كبروا بدون أن ألاحظ ذلك أو أحس به.

ثم أعدت إصدار الجزء الأول والثاني من "انطباعات" وبغلاف جديد لكل جزء، وبنفس التوقيع الرمزي وصورة الغلاف الرابع، ولكن بدون مربع الشطرنج، وتم كل هذا بتعاون كريم من مدير المؤسسة الوطنية للكتاب الأخ محمد الصغير بن عمار ومساعده الأخ نوار جدواني، وبمتابعة أخوية من الرفيق المدني حواس، وبتعاون كبير من مجموعة مطبعة وكالة الإشهار بالرويبة ومديرها العام الأخ بو ضياف ومساعدوه وخصوصا عزيز ومسعودي.

وكانت الفكرة الرئيسية في إعادة الإصدار استظهار النشاط الفكري الذي عرفته مرحلة الستينيات والسبعينيات، بالمقارنة مع تناقص الدعم للنشاط الفكري لحساب مهرجانات الشطيح والرديح، التي كان ديوان رياض الفتح صورة لها تنبئ بعصر جديد ونظرة جديدة للأمور.

وكما عرفت مرحلة الستينيات سلسلة مقالات التعريب وقضاياه، والتي بدأت بمقال : "البواسير" على صفحات مجلة الجيش في ديسمبر 1966، وعرفت السبعينيات المقالات عن حرب أكتوبر وعن الصمود والرفض والتواطؤ، عرفت مرحلة الثمانينات سلسلة المقالات التي اشتهرت بعنوان: "الطلقاء"، والتي اعتبرها كثيرون من أشد ما كتبتُ قسوة، وكانت، في معظمها، دعوة لنظام الحكم كي يُفيق ويراجع مسيرته قبل أن تشتعل نار فتنة قادمة لا تبقي ولا تذر.

وكانت أسعار النفط قد انهارت بعد منصف الثمانينيات، التي عرفت بداياتها سفها استهلاكيا لم يسبق له مثيل، وبدأت الثروات الجديدة في التكون ومعها وبجوارها إقطاعيات سياسية اجتماعية، وعرفت الجزائر وضعية من المحسوبية الشخصية والجهوية لم تعرفها من قبل، وكان وراءها بالطبع كل الحانقين على مرحلة السبعينيات وكل المستفيدين من مرحلة الثمانينيات، وخرجت النكتة التي تقول بأن من لم يتعلم في السبعينيات فلن يتعلم أبدا ومن لم يغتنِ في الثمانينيات فلن يغتني أبدا.

واستعرضتُ في السلسلة، بأسلوب الإسقاط، وضعية الخلافة الإسلامية في عهد كل من أبي بكر وعمر وعثمان وعلي، رضي اللهم عنهم وأرضاهم، وأبرزتُ دور الطلقاء في سرقة الإسلام، بالخديعة وبالترهيب وبالترغيب، وأبرزت دول المال المتزايد في تكوين طبقة جديدة تمكن فيما بعد من الاستيلاء على مقدرات الأمور، وكان التحذير واضحا إلى درجة أن كثيرين كانوا يرددون بأنني، وأنا أتحدث عن أبي بكر وخلافته القصيرة، كنت أقصد أحمد بن بله، أما الحديث عن عمر بن الخطاب وحزمه وتقشفه وبعد نظره فكنت أريد به، كما يرون، الإشارة إلى هواري بو مدين، وكان الحديث عن عثمان ووقوعه تحت تأثير أصهاره وأقاربه وتفريطه في أمور الدولة، في نظرهم، إشارة مؤكدة لمرحلة الشاذلي بن جديد.

والذين يعرفون سخط العائلة والأصهار عليّ وقوتهم المتزايدة آنذاك يدركون حجم المجازفة التي كنت أقوم بها بحذر من يلعب الكرة في حقل ألغام.

وتأكد أنه كان لذلك كله آثار على الساحة السياسية، كان من انعكاساتها أن ضابطا ساميا سأل سعد بو عقبة، سؤالا بالغ الغرابة عن سلسلة المقالات تلك [273].

ولم يكن السؤال عن صحة الإسقاطات بل كان تأكيدا لها، إذ سأل عمن هو معاوية في مفهوم الكاتب، وجاءني بو عقبة يطرح علي السؤال، وأجبته بتسرع أن معاوية لن يكون شخصا واحدا بل

---

273 - قيل لي أنه كان العقيد قاصدي مرباح الذي كان أمينا عاما لوزارة الدفاع آنذاك، وهو ما أكده لي مرباح رحمه الله ضمنيا عندما التقينا صدفة وعرفت منها أنه يتابع المقالات بانتظام ، وكنت أسأل نفسي : من أيضا كان يتابع المقالات بنفس الاهتمام ولكن بخلفيات أخرى ؟.

مجموعة أشخاص، وعرفت فيما بعد أن مقالاتي كانت تترجم في يوم صدورها، وبأن الرئيس كان يحرص كل سبت على أن تأتيه جريدة الشعب، التي تحمل مقالي على صفحتها الأخيرة [274].

وتأكدت لي المُتابعة عندما دعاني إلى مكتبه مدير الأمن الوطني آنذاك، الهادي خديري، لأتناول معه قهوة، وسألني بكل مودة عما إذا لم تكن مقالاتي في الشعب تعريضا بالسلطة، وأجبته بحدة أعترف بأنها لم تكن ضرورية، بتساؤل عما إذا كان وجودي في مكتبه دعوة لقهوة أم استدعاء لتحقيق.

وأجاب الرجل بكل لطف وأخوة : "إنس الأمر كله واشرب قهوتك".

وقلت له عندئذ بأن السلطة قادرة على الاستفادة من هذه المقالات بدراسة لما جاء فيها من تحذيرات مخلصة من فتنة قادمة [275].

وواصلتُ الكتابة في الشعب كما كتبت في مجلة الوحدة التي يصدرها اتحاد الشبيبة، وحققت لنفسي وجودا متزايدا على الساحة الفكرية، رأيت أنه كان يجب أن يستثمر سياسيا، وكانت جبهة التحرير الوطني هي محور ذلك الاستثمار.

وكنت أتصور يومها أن البديل لوضعية الانهيار المقبلة هي في إعطاء نفس جديد للجبهة، يُمكّنها، فيما بعد، من استكمال المسيرة التي كان يجب أن تتم في بداية الثمانينات، أي تكوين أجنة لأحزاب تولد من رحم الجبهة وعلى ضوء مبادئها، وتواصلت لقاءاتي مع محمد الصالح يحياوي، وفي الوقت نفسه حاولت أن أطرق باب عبد العزيز بو تفليقة وعبد السلام بلعيد والطاهر زبيري، متصورا أن هؤلاء يمكن أن يكونوا بديلا جماعيا للحكم السائد.

ولم أحقق أي نجاح مع بو تفليقة، وخيل إليّ أنه لا يريد أن يتخذ موقفا يُحسب عليه، وقال البعض أنه كان ينظر لي ولزملائي كموظفين ليس من حقهم تجاوز الصفوف الخلفية، وتصورت أنه يعتبرني حليفا لخصمه اللدود .. محمد الصالح يحياوي، وإن كان البعض يزعمون بأنه كان يفضل أبناء منطقته الجغرافية، وهو لم يكن وحده في ذلك.

لكن عبد السلام استقبلني أكثر من مرة، واستمع بكل مودة لطرحي عن قيادة جماعية تسترجع أمجاد السبعينيات، وكان زبيري متفهما لضرورة القيام بشيء معين، ولم أكن لأحدثه عن الستينيات والسبعينيات وهو الذي أضير فيهما، وكان يحياوي يبدو أكثر اهتماما [276].

وكان الأمر الذي لم يدركه الكثيرون آنذاك هو أن طبقة جديدة كانت في طور التكوين، هدفها الاستراتيجي هو سرقة نظام الحكم، وكانت مقالات الطلقاء تحذيرا واضحا من ذلك، يبدو أن الخصوم فهموه قبل غيرهم، ولست أدري ماذا ستقول عنا الأجيال القادمة، لكن المؤكد هو أن الوطنيين كانوا يعيشون مرحلة استرخاء كبرى، وكانت الصدمة الكبرى لنا هي أن كثيرين ممن كانوا يلوكون أمامنا شعارات الوطنية انضموا إلى قوافل المستفيدين من الانفتاح الجديد، وتواصلت التصفيات لمصلحة الأخطبوط الإداري، حيث أن الموقع الوحيد الذي لم يعرف تصفيات كان الإدارة الجزائرية.

---

274 - كانت الصحف ترسل له بواسطة الدراجة النارية إلى زيرالدا، حيث إقامته الثانوية، وتعطل وصول الدراجة لحادث أصابها، فأقام الرئيس الدنيا وأقعدها كما قيل لي، وأثار هذا انتباه البعض فراح يبحث في الصحف الصادرة نهار السبت عمّا يمكن أن يستقطب اهتمام الرئيس، وكان أن وجد مقالي الأسبوعي.

وتردد يومها أن الكاتب عاد إلى نفس الأسلوب الذي كان يستعمله مع الرئيس بو مدين، وهو إرسال رسائل برقية عبر سطور المقالات، وكان ذلك صحيحا إلى حد ما، لكن الرسائل كانت كلها، والمقالات موجودة وأعدت نشر بعضها في كتاب لله وللوطن، كانت أمينة على العنوان الذي اخترته للكتاب.

275 - كنت أدخن بشراهة، واستهلك سيغارا أو سيغارين كوبيين في اليوم مع علبة غولواز وأحيانا أكثر من ذلك، وعندما عدت إلى منزلي كان هناك احتمال يتردد في خاطري، وهو الاعتقال، ولأن التدخين كان نقطة ضعفي الرئيسة فقد قررت التوقف عن التدخين، ولم ينته الأسبوع إلا وأنا متوقف عنه تماما بعد أكثر من 35 عاما .

276 - بعد البرود الذي طبع علاقاتي مع يحياوي خلال عمله كمنسق للحزب، أي الرجل الثاني عمليا، أعدت العلاقات من جديد بعد إنهاء مهامه والاضطهاد الذي تعرض له، ولقد واظبت على الاتصال به خلال الظروف الصعبة التي مر بها، إيمانا مني بأن الرجل مجاهد ووطني وهو رصيد للطبقة السياسية في البلاد.

وكنت أرجو أن يكون يحياوي قد استوعب الدروس وأدرك، أخيرا، أن صديقك هو من صدّقك لا من صدّقك.

(3)

كانت أحداث أكتوبر 1988 دليلا على أنني لم أكن أتحدث من فراغ أو أجري وراء خيالات.

وأكدت التطورات أن الأحداث كانت عملا مشبوها هدفه تحطيم مشروع المجتمع الوطني الذي أقامته جبهة التحرير الوطني، بأبعاده الاقتصادية الاجتماعية المرتكزة على دعم الطبقة الوسطى العريضة، وبانتمائه العربي الإسلامي الذي يسترجع للبلاد هويتها الحضارية وفاعليتها الدولية [277].

وإثر الأحداث تمت لقاءات بين مجموعات قيادية ضمت بو تفليقة ويحياوي وأحمد طالب الإبراهيمي وعبد السلام بلعيد وشريف بلقاسم ورشيد بن يلس فيما سمي لقاء "الثمانية عشر"، وكانت هناك أسماء في المجموعة تسلقت الأحداث أو أعطيت لها الفرصة لتسلق الأحداث ولم يكن لها وجود سياسي يذكر، وبدأ تنسيق في العمل بين يحياوي وبن بله والطاهر زبيري في بيت يحياوي، ولم يفكر المُضيف في إشراك مجموعات الشباب التي احتضنته في مرحلة عبور الصحراء، ولم أتوقف شخصيا في البداية عند هذا الأمر، انطلاقا من أن من حقه أن يمارس التكتيك، ويتفادى وجود عناصر قد لا تحقق إجماعا بين كل الموجودين، ولم يكن يحياوي، فيما قيل لي، متحمسا لإشراك بو تفليقة، الذي كنت أنا أحس بأن وجوده ضروري جدا، لأن البديل المطروح للوضع القائم يجب أن يكون بديلا جماعيا يضم وجوها تجسد الاتجاه الوطني، ولم أضع وقتا في الجدل مع يحياوي لأن همي الأول كان العمل لكي نتمكن من اختراق جدار الصمت المفروض عليه من قبل خصومنا في السلطة وفي التجمعات الجديدة التي راحت تعمل لوراثة الطبقة السياسية التي أسقطها أكتوبر.

وكان منطلقي أن الرجل هو أصلح من يمثل التيار الوطني العربي الإسلامي، وأحسن من يمكن أن يقود جبهة التحرير الوطني في المرحلة الجديدة، وكنت أتصور أن أعداءه هم أعدائي، مهما كانت الخصومة أو سوء الفهم بيني وبينه، لأنهم أعداء للاتجاه وللانتماء.

وهكذا تواطأت مع الصديقين مصطفى هميسي والبشير حمادي، وكانا آنذاك على رأس صحيفة الشعب، وأعددنا حوارا صحفيا مع يحياوي أحدث نشره ضجة كبيرة، فقد كان بالفعل حديثا سياسيا متزنا ومتبصرا وعميق الدلالات، وأشهد ليحياوي أنه كان صبورا ومتفهما ومتعاونا.

وكان هذا مقدمة لحديث صحفي آخر أجري مع عبد السلام بلعيد في نفس الصحيفة ونشر على يومين، وتحمل مسؤوليته أيضا كل من مصطفى والبشير، واخترق عبد السلام أيضا جدار الصمت، والغريب أن هميسي وحمادي كانا أول من تعرضا لغضب عبد السلام عند توليه رئاسة الحكومة، إذ كان هو الذي أغلق صحيفة "الجزائر اليوم" التي كانا يصدرانها، بحجة أنها نشرت إعلانا يشجع "الإرهاب"، ولم يكن الأمر يتعلق بمادة إخبارية أو بدراسة سياسية أو بمقال يعكس رأي الجريدة..

ويمكن أن نتخيل حجم الإحباط الذي أحس به اثنان من خيرة الصحفيين الجزائريين، وإن كانت قناعة الجميع هي أن عبد السلام لم يكن صاحب القرار، ولعله فُخخ به كما فخخ عندما أصدر قرار إخراج الساكنين في منطقة نادي الصنوبر لتحويلها إلى منطقة سكن أمني لكبار المسؤولين [278].

---

277 - للتعرف على أحداث أكتوبر بالتفصيل أنظر للمؤلف : **الجزائر الحلم والكابوس – دار هومة – الجزائر / الفارابي بيروت.** وألاحظ هنا أنني أكتفي بسرد الأحداث الهامة التي تشكل معالم على طريق تلك المرحلة المعقدة، ولا أتوقف عند كل التفاصيل التي لا يتحملها كتاب خفيف كهذا الكتاب.

278 - رأى كثيرون بأن فشل بعض القيادات التي تألقت بجوار الرئيس بو مدين بعد انتقاله إلى الرفيق الأعلى كان دليلا على أنهم كانوا كواكب تستمد ضوئها من الرئيس الراحل، ولا ينقص هذا القول من وطنية هؤلاء الرجال أو من كفاءتهم، لكن للقيادة مميزات ومزايا لا يملكها كل الوطنيين بحكم سابقة الجهاد أو مقدرة الإنجاز.

279 - مناضل كبير من الشرق الجزائري التحق في شبابه بحزب الشعب وكان ممثلا له خلال دراسته في الزيتونة بتونس، وتولى عند عودته إلى الجزائر مسؤولية اللجنة الإسلامية في حركة الانتصار للحريات الديموقراطية، وأصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب، واعتقلته السلطات الفرنسية في نوفمبر 1954 وأطلق سراحه في العام التالي فذهب إلى سوريا ممثلا لجبهة التحرير الوطني واختير عضوا في المجلس الوطني للثورة ثم في لجنة التنسيق والتنفيذ وساهم باسم الجزائر في لقاء طنجة الشهير في 1958 وعين وزيرا للشؤون الاجتماعية في الحكومة المؤقتة، وبعد استرجاع الاستقلال تولى مناصب تعليمية كان آخرها الأمانة العامة للوزارة، وأصبح عضوا في اللجنة المركزية للحزب في 1979 وتولى وزارة الثقافة والإعلام، ثم أصبح سفيرا للجزائر في كل من باريس والرباط، وتولى شؤون الحزب بعد أحداث أكتوبر 1988، وعرف بثقافته ورصانته وبشجاعته الأدبية والسياسية، وكان على المستوى الشخصي دمث الأخلاق سريع البديهة، ويؤخذ عليه أحيانا تصلبه واعتداده برأيه.

وخلال لقاء ضم مجموعة من المثقفين في بيت يحياوي انطلقت فكرة جديدة للخروج من حالة الجمود وهي تكوين حزب جديد يضم كل المنسجمين معنا في الأفكار والتوجهات، بعد أن فتح المجال للتعددية الحزبية، وكان من بين من تحمسوا للفكرة رفيق قام بوضع تصور لحزب جديد، في حين قمت أنا بوضع تصور آخر مختلف عن منطلقاته يُبقي على جبهة التحرير الوطني، حيث كنت مترددا في اعتناق فكرة إنشاء حزب جديد، وما زلت محتفظا بالسطور التي كتبها على ورق أصفر.

وهكذا قلت ليحياوي بكل أمانة أننا سوف نخطئ خطأ كبيرا إذا "فعلناها"، لأن معنى هذا ببساطة هي أننا نفقد كل حقوقنا في الانتماء للجبهة ونتركها للدخلاء عليها، وهو ما يعني تسهيل ما كان يدبره البعض لاكتساب شرعية زائفة، وقلت بأن المخرج، في تصوري، هو عودة نشطة إلى صفوف جبهة التحرير الوطني وانتزاع السلطة فيها ديموقراطيا، واختيار قيادة جديدة تستجيب للوضعية التي عرفتها البلاد بعد أحداث أكتوبر 1988، والتي أدت إلى إقالة محمد الشريف مساعدية من قيادة الحزب وإسناد مهمة القيادة مؤقتا لعبد الحميد مهري، وهو رجل فاضل تمكن من أن يعطي للجبهة وضعية المعارضة الصامدة النزيهة، واسترجع بذلك ثقة الكثيرين الذين عبثت بأفكارهم أحداث أكتوبر 1988 [279].

واستطاعت جبهة التحرير الوطني الخروج من الأزمة بأقل حجم من الأضرار، وكان لأمينها العام عبد الحميد مهري دور رئيسي في احتفاظها بتوازنها بعد هزات أكتوبر، والدخول الفوضوي في مرحلة التعددية الحزبية، وكنت، بحجم كبير من السذاجة، أعتقد أن الخروج من الأزمة يمكن أن يتم بإعادة الحيوية إلى جبهة التحرير الوطني.

ويرجع الفضل لعبد الحميد مهري في عقد ندوة الإطارات الحزبية في 1989 ، التي أعادت إلى الساحة السياسية وجوها غابت مند المؤتمر الخامس، وتأكد وجودها في المؤتمر الاستثنائي بعد ذلك، والذي ترددت فيه صيحة بو تفليقة : حاكمونا وبرءونا أو جرمونا، وكان من بين العائدين إلى الساحة محمد الصالح يحياوي وعبد السلام بلعيد والطاهر زبيري، وتلاشت فكرة الحزب الجديد نهائيا.

لكن لا يُمكن نسيان فضل الرئيس الشاذلي الذي تقبل الفكرة وتجاوب معها.

(4)

طوال الثلاثة عشر سنة التي عملتُ فيها مع الرؤساء الهواري بو مدين ورابح بيطاط والشاذلي بن جديد حرصت دائما على أن أتوارى في ظل الرئيس وأمارس نشاطي في الكواليس، بما في ذلك النشاط الفكري الخاص، وواصلت آنذاك استعمال التوقيع الرمزي في كتاباتي، التي كانت مقصورة على الساحة الوطنية، ولم أحاول إطلاقا افتكاك دعوات للقاءات فكرية محلية أو دولية، ليتعرف الناس على عبقريتي ..الخ الخ، وشمل ذلك حتى مجال التصريحات والحوارات الصحفية، وهي أقل من أصابع اليد الواحدة، واكتفيت بالعمل الكواليسي، خاصة خلال المؤتمرات الدولية والجهوية، بل ورفضت أكثر من دعوة من التلفزة الوطنية لكي أشارك في حوارات ثقافية.

وكثيرون هم الأصدقاء الذين اعتبروا هذا التصرف نوعا من الحنبلية أو العباطة، حيث أن قلماً يمارس الكتابة تحت مظلة رئيس دولة هو وسيلة لاستقطاب الأنظار واستثارة الاهتمام، ويضمن درجات متفاوتة من النفوذ الأدبي والمعنوي، بل والسياسي، وخصوصا إذا كان القلم .. قلما لا بأس به، وإذا كان الكاتب موضع ثقة لا مجرد موظف يؤمر فيطيع، وهو ما يمكن أن يُستثمر فيما بعد، عندما تختلف

---

[279] وكانت مشاركته في منتصف التسعينيات في لقاء روما مع أحمد بن بله وحسين أيت أحمد وآخرين مصدر سخط السلطة عليه وهكذا تم الانقلاب عليه فيما أصبح يُسمى بالمؤامرة العلمية ودفع إلى الاستقالة من الأمانة العامة للحزب، ولكنه واصل نضاله بكل السبل المُتاحة.

السبل بين الكاتب وبين موقع المسؤولية، لكنني، مع كل المغريات، قاومت، واعتبرت الأمر كرامة شخصية وولاء كاملا مقابل الثقة الممنوحة.

ولعل هذا هو ما كان يستثيرني عندما كان البعض يعقد لمقارنات بيني وبين الأستاذ هيكل.

وعندما تحررت من قيود الوظيفة الرسمية في منتصف الثمانينيات عدت إلى الكتابة في الصحافة الوطنية، باستعمال التوقيع الكامل، وفي الوقت نفسه رحت أتطلع إلى تحقيق وجود خارج الوطن، وكانت الخلفية أساسا مواصلة النشاط الفكري وعدم الركون لمنطق التقاعد، وفي الوقت نفسه مواجهة وضعية الردة التي بدأت تطل برأسها.

وأسجل هنا، باعتزاز ومودة أخوية، أن الصحفي اللبناني القدير فؤاد مطر، الذي كان يصدر آنذاك مجلة "التضامن" في لندن، فتح لي أبواب المجلة، وهو يعلم جيدا أنني كنت من المغضوب عليهم آنذاك، أو على أقل تقدير، لست من الذين يحظون برضا القائمين الرسميين على شؤون الإعلام، وهكذا بدأت أخترق تدريجيا ساحة الإعلام العربي الدولي (ولا أنسى، في هذه المرحلة، الرعاية الأخوية التي تلقيتها من بكر عويضة، الذي كان ركنا ركينا في "التضامن).

وتفضلت المجلة فأفردت مكانا متميزا لاستعراض أخر كتبي، وهو الجزء الثالث من "انطباعات"، وكان ذلك الاستعراض أحسن ما كتب عن"انطباعات"، وفي الوقت نفسه أقمت اتصالا مع مجلة "العربي" في الكويت، التي كانت قد نشرت أول مقالاتي في فبراير 1987 تحت عنوان "عروبة أم إسلام"، أبرزت فيه النظرة التكاملية للوطنيين الجزائريين فيما يتعلق بالعروبة والإسلام.

ثم رحت مع عدد من الرفقاء ننشط في كل اتجاه.

وربما يندرج في إطار هذه النشاطات الزيارة التي نظمها الدكتور محمد العربي الزبيري[280] لليبيا في 1989، ورافقنا فيها الأخ عبد العالي رزاقي والأستاذ عباسي مدني الناطق باسم الجبهة الإسلامية للإنقاذ، الذي لم يكن معروفا آنذاك خارج الجزائر، ولكن اسمه كان مدرجا في ملفات المعنيين بالأمر، وفوجئ سفيرنا في ليبيا آنذاك، الأخ عبد القادر حجار، واضطر لتسريب خبر لإحدى المجلات العربية الصادرة في أوروبا تتحدث عن المفاجأة، ولم أكن قد عرفت الشيخ معرفة شخصيا وإن كنت لمحته للمرة الأولى قبل أحداث أكتوبر في غرفة انتظار المدير العام للأمن الوطني آنذاك الهادي خديري.

وحدث أن كان الشيخ، والذي كان يرتدي الملابس الأوربية، جاري في الطائرة، فقضينا مدة السفر في حوار متواصل، وأخذت عليه هجومه المتجني على مرحلة حكم الرئيس بو مدين، وأثبت له بالأدلة الواضحة خطأ بعض ما اعتمد عليه في أحكامه.

وأشهد أن الرجل كان متفهما هادئا، وأهداني كتابه "أزمة الفكر الحديث ومبررات الحل الإسلامي، قائلا في الإهداء بأنه "عنوان إعجاب واحترام نسأل الله أن ينفعنا به".

لكن ليبيا كانت المحطة التي تفرقت فيها سبلنا.

والذي حدث هو أنني كنت أتبادل الحديث مع عدد من المشاركين في الندوة الفكرية على هامش الأشغال، وتطرق الحديث إلى مقالاتي، التي كان المثقفون في الجزائر يشيرون لها باسم سلسلة "الطلقاء"، وفسرت الأمر لمن كانوا حولي بأنني أتصور أن بني أمية سرقوا الإسلام، ورغم أنهم أقاموا دولة قوية فإن هذه كانت في واقع الأمر سلطة فوقية قضت على شخصية الفرد المسلم.

وينطلق من خلفي صوت نسائي حازم يعلق قائلا.." لا تنس أن الأمويين هم بناة الشام"، وأجبت على الفور بدون أن أتبين شخصية القائل.."هذا خطأ .. فالشام هي التي بنت الأمويين، ولو كانوا في غير الشام لما كان لهم شأن"،وكنت متأثرا في هذا بكتاب عباس العقاد الرائع "معاوية في الميزان".

وكانت المعلقة هي الفنانة السورية المرموقة منى واصف، التي سعدت، على ما يبدو، بالإجابة، وهنا لحق بنا الأستاذ عباسي مدني وكان يرتدي |القندورة" الجزائرية، ويضع على رأسه طاقية بيضاء.

---

280 - أسجل للدكتور الزبيري نشاطه الدائم في مجال تنظيم المساهمات الجزائرية في النشاطات الفكرية العربية، وخاصة على مستوى المغرب العربي.

وعندما توليت وزارة الثقافة والاتصال في 2000 عرضت عليه تحمل مسؤولية إدارة المكتبة الوطنية، وكانت أعلى مراتب المسؤولية المتاحة أمامي بجانب ما توفره من إمكانيات النشاط الثقافي، ولكنه اعتذر بأدب شديد، ومع ذلك أرسلت اقتراح تعيينه إلى المراجع العليا، كما يقال، مع أسماء أخرى، ولم أتلق إجابة عن مقترحاتي.

وبتلقائية رحت أقدمه للحلقة التي كانت تلتف حولي، فصافحهم واحدا واحدا إلى أن وصل الدور إلى مني واصف فقدمته لها بأنه أستاذنا فلان، ومدت يدها لمصافحته ولكنه وضع يده اليمني على كتفه الأيسر وأحنى رأسه مغمغما بكلمات غير واضحة، ورحت أحاول الاعتذار للفنانة الكبيرة ولكنها أراحتني ببساطة شديدة وهي تقول .. "إنني أفهم الأمر"، وعدنا إلى الجزائر ولكنني لم ألتق الأستاذ مدني بعد ذلك قط ولم أحاول رؤيته، فقد صدمني تصرفه ع سيدة في مستوى منى واصف.

وفي أوت 1989، استدعيتُ لشغل منصب سفير الجزائر في باكستان، وربما كان استدعاء الرئيس لي اعترافا منه بظلم تعرضت له وقبلته لأؤكد هذا المفهوم، لكن الغريب هو أن هناك من ظن أن مهمة باكستان كانت نتيجة لما تصوره البعض عن زيارة ليبيا [281].

وخلال غيابي في باكستان كانت الجبهة الإسلامية للإنقاذ قد بدأت تنتزع مكانا متميزا في الشارع السياسي، واستطاعت أن تكتسح الانتخابات البلدية في 1990، بحجم من الأصوات زاد على أربعة ملايين صوت، ورحت أتابع الأحداث عن بعد، في مرحلة طغت فيها عاصفة الصحراء ضد العراق على كل ما عداها من الأحداث، وحاولت، من إسلام أباد، أن أساهم في العمل النضالي بالأسلوب الذي ارتأيته آنذاك، عبر الكتابات بالتوقيع المستعار (لكيلا أتناقض مع التزامات السفير) في عدد من الصحف الجزائرية، وكان من أهم الكتابات سلسلة "لله وللوطن"، التي احتضنتها صحيفة "المساء"، وكنت أرسل بها بالفاكس وعلى حسابي من العاصمة الباكستانية.

وفي نهاية أكتوبر 1990 استقال رابح بيطاط من رئاسة المجلس الوطني الشعبي في ظروف وملابسات ما زالت غامضة، ولعل الرجل أحس بما يحاك ففضل ألا يُحسب عليه بشكل أو بآخر.

وتعلن حالة الطوارئ في البلاد، إثر دعوة الجبهة الإسلامية لإضراب عام، ويحل سيد احمد غزالي محل مولود حمروش، ولم يحزن على مولود، للأمانة، إلا الذين كانوا مخدوعين فيه أو مستفيدين منه أو محسوبين عليه، ومنهم من أساء وجودهم حوله إليه [282].

وتنظم جبهة الإنقاذ عددا من استعراضات القوة في شوارع العاصمة الجزائرية رفعت فيها شعاراتها الكلاسيكية، وتفكر جبهة التحرير في القيام باستعراضات مضادة، لكن العقلاء تصدوا للأمر تفاديا للمواجهات، وكان من أكثر شعارات "الفيس" إثارة للأسف تلك التي هاجمت الرئيس الشاذلي بن جديد، وأسمته "مسمار جحا"، رغم فضله في فتح الباب أمام الإسلاميين للمشاركة في الحياة السياسية.

ويُعتقل قادة الجبهة الإسلامية في جوان 1991، وتؤجل الانتخابات التشريعية إلى ديسمبر من نفس العام، ويتواطؤ البعض على إقناع رئيس الجمهورية بأن النتائج مضمونة وبأن الأصوات ستتوزع بين جبهة التحرير (40 في المائة) والتيار الإسلامي (30 في المائة) والتيارات التي تسمى ديموقراطية (30 في المائة) وتجرى انتخابات اتفق الجميع في البداية على وصفها بالنزاهة والشفافية، لكن الانتصار الذي حققته الجبهة الإسلامية للإنقاذ قلب كل الموازين.

وتفقد قيادات جبهة الإنقاذ توازنها نتيجة للانتصار الذي حققته في الدور الأول بفضل قانون الانتخابات القائم على مبدأ الأغلبية والذي أعطاها نحو 188 مقعدا في المجلس الوطني مقابل مليوني

---

281 - بعد سنوات قال لي الأخ مصطفى عبد الرحيم، الذي عمل معنا مستشارا في الرئاسة خلال الولاية الأولى للرئيس الشاذلي بن جديد، أن القرار اتخذ عندما وصل إلى مراجع عليا وجودي مع عباسي مدني في الوفد، وهو ما يعني أن الأمر كان إبعادا لي في مرحلة معينة. ولا أعرف مدى صحة هذا الأمر، ورأيت فيه أنه محاولة لحرمان الشاذلي من فضل تعييني في المنصب، بما يعنيه من رد اعتبار واعتذار ضمني.

282 - لا جدال في أن مولود كان مثقفا متميزا وإطارا ساميا وطاقة عالية، وكانت مشكلته هي تصوره بأن بروزه لا يُمكن أن يتحقق في وجود القيادات والشخصيات التي تكبره سنا أو تجربة، والذين كان يسميهم "الديناصورات، وأحاط نفسه بالتالي بمجموعة عمل كلفها، عندما كان أمينا عاما للرئاسة، بإعداد تصوراتها لعملية كان هدفه منها الوثوب إلى السلطة، وأتذكر في هذا الصدد أنني كنت أشترك في وداع نواز شريف رئيس الحكومة الباكستانية وهو يغادر الجزائر، والتقيت مولود الذي سألني، وقد عملنا معا في رئاسة الجمهورية زهاء 13 سنة، عن سبب عدم زيارتي له، وقلت له بأنه اليوم رئيس حكومة وأنا مجرد سفير، وأنا على استعداد بالطبع لتلبية دعوته، وهكذا حدد لي موعدا في الخامسة مساء من اليوم التالي، وكنت في الموعد، وتأخر عن استقبالي، وعندما جلست إليه في مكتبه حاولت أن أستعرض معه بعض النقاط التي كنت أرى ضرورة معالجتها ومن بينها مهزلة المجلس الأعلى للإعلام، وبعد دقائق طرق مدير تشريفاته الباب ليذكره بصوت عالٍ بألا ينسى موعده المتفق عليه، وفهمت بالطبع أن تصرف المدير مطبوخ فاعتذرت لمولود عن الإزعاج الذي سببته له.

وعند عودتي من باكستان حاولت أن أقيم الجسور معه وزرته أكثر من مرة ولكنه بدا متحفظا كالقنفذ، فابتعدت.

صوت ونصف، في حين أن جبهة التحرير الوطني لم تحصل، وطبقا لنفس القانون، إلا على نحو 18 مقعدا مقابل نصف عدد أصوات "الفيس" كما كان يُسمى، وتقع جبهة الإنقاذ في الفخ وتتخذ مواقف اعتبرت انقلابية، حيث نادت بأنه : " لا ميثاق ولا دستور * قال الله وقال الرسول".

ويواجه الأمر بعملية مشابهة اتسمت بالتسرع ويُستقال الرئيس الشاذلي، ويتم استيراد الشهيد محمد بو ضياف من المغرب، حيث كان مستقرا هناك يدير مصنعا صغيرا كان يملكه لصناعة الطوب.

كان بوضياف رحمه الله واحدا من ثلاثة[283] التقوا حول فكرة القيام بالثورة المسلحة وواحدا من الزعماء الأربعة[284] الذين حولت السلطات الفرنسية مسار الطائرة المغربية التي كانوا يستقلونها في طريقهم من المغرب إلى تونس.

وأطلق سراح الزعماء الخمسة باقتراب الاستقلال لكن التيار لم يكن يمر بين بو ضياف وبقية الزعماء، وخصوصا بينه وبين بن بله، نظرا لطبيعة بو ضياف المتحفظة وإحساسه بأن بن بله أخذ أكثر من حقه في الزعامة بدعم المخابرات المصرية، وهو ما لم يكن صحيحا في تصوري.

ولا جدال في أن الرجل كان وطنيا من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وسُجل له قيامه بحلّ حزبه المُعارض، الذي لم يكن له في الواقع أي وجود مؤثر، وذلك عقب جنازة الرئيس بو مدين، ونقل عنه قوله بأن رجلا يُحبه الشعب كل هذا الحب لا بد أنه كان على صواب فيما كان يقوم به.

لكن بوضياف كان في التسعينيات بعيدا كل البعد عن واقع البلاد، وأصبح أسير ما يقدم له من معلومات كان جوهرها النيل من مرحلة ما بعد استرجاع الاستقلال طولا وعرضا، ولعل مما يدل على اندفاعه وتأثره بما كان يقدم له من معاونيه الذين كان معظمهم يعيشون في أوروبا، قوله أنه لم يجد ستين وطنيا يعينهم في المجلس الاستشاري، وإشارته إلى سفرائه بقوله أنهم يعيشون تقاعدا ذهبيا.

وأصبحت السلطة الحقيقية في البلاد، منذ إلغاء المسار الانتخابي في 1992، بيد المجلس الأعلى للأمن، بصفته المؤسسة الدستورية الوحيدة القائمة بعد أن استقيل الشاذلي بن جديد، وأدت ظروف الشغور إلى عدم وجود من يحل دستوريا محل الرئيس [285].

وعرف عهد بو ضياف فتح المحتشدات في جنوب البلاد، كما عرف إنشاء المجلس الوطني الاستشاري، والذي أسماه كثيرون ..المجلس الانكشاري، لأنه كان مخلب قط جسد إرادة أقلية فكرية

---

283 - الاثنان الآخران هما أحمد بن بله وعلي مهساس (الشهير بأحمد محساس)

284 - الزعماء الآخرون هم بن بله وحسين آيت أحمد ومحمد خيضر، أما خامس الزعماء التاريخيين فهو رابح بيطاط، الذي كان سجينا آنذاك ولم يكن على متن الطائرة، التي حملت مع الزعماء الأربعة مناضلا عاديا اسمه مصطفى لشرف، دخل إلى التاريخ صدفة بحكم وجوده في الطائرة، ولهذا اعتبره الناس خطأ من الزعماء الخمسة، ولم يتوقف أحد آنذاك لتوضيح هذا اللبس، لأن الرجل كان كاتبا وطنيا.

285 - عندما "استقيل" الرئيس الشاذلي بن جديد في 1992، كان المفروض أن يحل محله رئيس المجلس الشعبي الوطني عبد العزيز بلخادم (الذي حل محل رابح بيطاط بعد استقالة الزعيم التاريخي في أكتوبر 1990 وسط تساؤلات كثيرة عن الخلفيات والأسباب التي دفعت به إلى الانسحاب من الحياة السياسية بشكل مفاجئ) وكان المفروض أن يرأس رئيس المجلس الشعبي الدولة لمدة شهر ونصف يتم خلالها إجراء انتخابات رئاسية، ولم يكن هذا مما يريح التكتل الجديد الذي حمل اسم لجنة إنقاذ الجزائر (إنقاذها بالطبع من التيار الإسلامي والوطني) وهكذا أعلن في 11 يناير، إثر إعلان استقالة الرئيس الشاذلي، بأن المجلس الشعبي كان محلولا منذ يوم 4 يناير، وبالتالي فإن رئيسه فاقد الحق في القيام بدور رئيس الدولة المؤقت، وثبت تاريخيا أن ذلك كان تلفيقا في تلفيق.

وكان الحل المتبقي هو تكليف رئيس المجلس الدستوري عبد الملك بن حبيلص بنفس المهمة، لكن هذا فرّ من حمل أمانة أثقل منه، أو أوحي له بذلك، وهكذا تولت المسؤولية الهيئة الدستورية الوحيدة القائمة، أو هكذا قيل، وهي المجلس الأعلى للأمن، وكان الرد على ما قدم كعمل انقلابي للإنقاذ عملا انقلابيا مُضادا تم به إلغاء الدور الثاني من الانتخابات التشريعية، وتم استيراد الأخ محمد بو ضياف ليستكمل، كما قيل، عهدة الرئيس الشاذلي، ثم تجرى انتخابات جديدة. وقيل أنه كان مترددا في قبول العرض، ولكن ضغوطا من المُحيط أقنعته بالقبول.

وكان أقوى أعضاء المجلس اللواء خالد نزار الذي كان الشاذلي قد عينه وزيرا للدفاع، وانحاز له على حساب اللواء اليمين زروال قائد القوات البرية، الذي استقال احتجاجا على تحيز الرئيس، وأعلنت حالة الطوارئ لمدة سنة، تم تمديدها لمدة غير محدودة في فبراير 1992 (أنظر: الجزائر الحلم والكابوس) وأذكر أنني قلت يوما لخالد نزار في جلسة خاصة بأنني كنت أتمنى لو أخذ السلطة بشكل مباشر بدلا من استعمال وجوه سياسية هزيلة ومتسلقة استثمرته لمصالحها الخاصة، وكان ذلك بعد أن عبر لي عن خيبة أمله فيمن اختارهم.

متناقضة مع الجبهات الثلاث التي انتزعت الأغلبية في الانتخابات التشريعية عام 1991، وهي الجبهة الإسلامية للإنقاذ وجبهة التحرير الوطني وجبهة القوى الاشتراكية [286].

ويستقبل الرئيس في أيامه الأخيرة الفريق المصري سعد الدين الشاذلي ليقنعه بالبقاء في الجزائر، ولكن بطل حرب أكتوبر يُفضل العودة إلى مصر ويقبل أن يُسجن سنتين طبقا لقرار أصدرته محكمة عسكرية بالتهم التي وجهها له الرئيس السادات رحمه الله، وألا يتعرض للإهانة في الجزائر.

صورة الفريق والمدني وأنا 100 صورة مع عبد الملك كركب 101

ولعل الأمر يحتاج هنا توضيحا يفرضه عليّ منطق الوفاء لمن سيكتبون تاريخ هذه المرحلة.

فقد كان السادات قد عزل الفريق الشاذلي وحاول أن يُلصق به مهزلة الثغرة التي تسللت منها إسرائيل في منطقة الديفرسوار خلال حرب أكتوبر 1973، وعُين الضابط الكبير سفيرا في لندن ثم في البرتغال ولكنه لم يستطع تحمل زيارة الرئيس المصري للقدس المحتلة والتي شقت الصف العربي ومهدت للصلح المُنفرد مع إسرائيل، وحدث اتصالات جزائرية مع الفريق كان من نتيجتها أن استضافته الجزائر وأسرته منذ 1977، وكانت هناك أكثر من دولة شقيقة أخرى عرضت ذلك ولكنه اختار مقر إقامته، وقام هنا بإعداد كتابه عن حرب أكتوبر وكشف الكثير من تفاصيلها مما أدى إلى محاكمته غيابيا والحكم عليه بثلاث سنوات سجنا.

واستقطب الفريق كل الذين كانوا يرفضون موقف الرئيس المصري خصوصا بعد كامب دافيد، وأخذ موقفا واضحا ضد الولايات المتحدة عند الغزو الأول للعراق.

ووضعت الجزائر تحت تصرفه دارا كبيرة في شارع البشير الإبراهيمي، كانت في الأصل فيللا أقامها لنفسه وزير سابق ثم انتزعت منه لأسباب قيل أنها تتعلق بالتمويل، عاش فيها خلال عهد الرئيس بو مدين ثم الرئيس الشاذلي إلى أن عُين الرئيس بو ضياف.

وهناك حدث أمر مؤسف، إذ توجه للفريق من تحدث بأسلوب غير مقبول، كما نقل لي، باسم عائلة الرئيس الجديد وطلبوا منه إخلاء الدار، وعرض عليه مسكنا في إحدى فيللات نادي الصنوبر، وهنا غضب الفريق وقرر العودة إلى مصر برغم معرفته بما سيلقاه هناك.

وللأمانة، فقد حاول الرئيس بو ضياف إقناعه بالعودة عن موقفه ولكن الضابط الكبير رأى في الأمر إهانة غير مبررة واعتذر للرئيس وصمم على المغادرة، ولم يودعه في المطار إلا المدني حواس وعثمان سعدي، ولم يكن في التوديع أي مسؤول جزائري في مستوى الفريق.

ومع ذلك، ظل الفريق الشاذلي دائما وفيا للجزائر في كل مواقفه.

وكنت أنا في إسلام أباد أحاول أن أفهم ما يحدث، وأن أشرحه للبلد المضيف الذي تشكل الجماعات الإسلامية فيه تيارا مؤثرا على الشارع السياسي.

وعشت أياما عسيرة أمارس فيها البهلوانيات اللغوية عبر مقالات كنت أكتبها بالانجليزية في الصحف الباكستانية، وعبر اللقاءات مع أعضاء السلك الدبلوماسي ورجال السياسة الباكستانيين، وخلال اللقاءات مع أبنائنا هناك، ومنهم كثيرون مرتبطون بالجهاد الأفغاني، وهم بالتالي متعاطفون مع الجبهة الإسلامية للإنقاذ، وهذا كله في غياب شبه كامل لأي توجيهات ذات معنى من الوزارة الوصية، وبدون وجود عدد كاف من الإطارات ، وفي غياب ملحق عسكري أو مساعد أمني أو مستشار صحفي.

واغتيل بو ضياف في الظروف المعروفة، فتلقيت العزاء، كسفير للجزائر، في الرئيس الذي لم يكن يعتز بنا كسفراء، واستقبلت رئيس الجمهورية الباكستانية في مقر إقامتي بعد أن أمرت بتنكيس العلم على المقر وعلى السفارة وأعلنت عن فتح سجل للتعازي بمجرد سماعي للخبر من إذاعة البي بي سي (BBC)، وبدون أن أكون قد تلقيت أمرا واحد بذلك من الإدارة المركزية.

---

286 - قلت يوما للعربي بلخير، الذي كان خلال الأحداث وزيرا للداخلية، بأن التاريخ لن يغفر له فتح المحتشدات في الصحراء خصوصا وأن المحتشدات هي مدرسة للتطرف، وقال لي حرفيا: لقد قرأت قضية فتح المحتشدات في الصحف تماما كما قرأتها أنت، وصُعقت.

ويتحمل الرئيس علي كافي[287] عبء رئاسة المجلس الأعلى للدولة، وتولى الشؤون الخارجية السيد رضا مالك [288] خلفا للأخ الأخضر ابراهيمي.

(5)

كان إنهاء مهامي في باكستان في الشهور الأخيرة من حياة الرئيس بو ضياف مفاجأة، إذ أنني لم أكن قد أكملت ثلاثة أعوام، وكنت قمت بعمل جاد في فترة قياسية وفي مرحلة بالغة التعقيد.

وإذا كان تمتين العلاقات بين بلادي وبلد الاعتماد يمكن أن يعتبر مقياسا فقد نظمت زيارتين لكل من بنظير بهوتو ونواز شريف، خلال ترؤسهما للحكومة الباكستانية، بالإضافة إلى زيارات أخرى من بينها زيارة صاحب زاده وزير الخارجية، الذي ارتبطت معه بعلاقات جيدة، تواصلت بعد تعيينه ممثلا للأمين العام للأمم المتحدة لشؤون الصحراء الغربية، وهي قضية تهمنا في المقام الأول.

وكانت باكستان قد تخلت عن التأييد المطلق لوجهة النظر المغربية التي كانت تلتزم بها قبل تسلمي لمسؤولياتي الدبلوماسية، واعتمدت في الأمم المتحدة موقف الامتناع عن التصويت، وهي خطوة أولى أتصور أنه كان لي فيها دور ما، واسترجعتْ للجزائر مكانتها في بلد من أكبر البلدان الإسلامية، واستطعت أن أقيم جسورا مع كل الاتجاهات والتيارات في العاصمة الباكستانية، وكان لي وجود ثابت في العديد من الصحف الباكستانية الصادرة باللغة الإنغليزية.

وكنت أول من لفت النظر إلى أهمية الوجود الجزائري على الساحة الأفغانية، ووضعت تصورا للتعامل معه بعيدا عن النظرة الإقصائية أو الأمنية، بل على العكس من ذلك فتحت أبواب السفارة للجميع، انطلاقا من أنني سفير الجميع، وبالطبع فقد كان كل ما قمت به واجبا لا يستحق شكرا ولكنه لا يبرر العزل، اللهم إلا إذا كان السبب الحقيقي هو ما كنت قمت به.

.. ..

كان عدد السفراء الذين تم استدعاؤهم عددا كبيرا، وكان واضحا أن القرار الذي اتخذ بشأنهم كان بتأثير نفس مراكز القوى التي كانت تؤثر على رأي الرئيس المغتال، ولدرجة أن وزير الخارجية آنذاك

---

287 - علي كافي من مناضلي الشرق الجزائري المُعربين، قتل الاستعمار والده الشيخ الحسين، وكان من طلبة الكتانية في قسنطينة (وكان معه وقتها محمد بو خروبة الذي أصبح هواري بو مدين) وكان من مناضلي حزب الشعب ووقف موقف الحياد خلال صراع 1953 بين قيادة الحزب واللجنة المركزية، وعمل بعد اندلاع الثورة إلى جانب زيغود يوسف ثم أصبح قائدا للولاية الثانية وعضوا في المجلس الوطني للثورة، وحاول تحذير العقيد عميروش من مغبة التصفيات، وكان واحدا من المجموعة التي سميت بمجموعة العقداء العشرة، وشغل خلال مرحلة الاستقلال عددا من المناصب الدبلوماسية اصطدم خلالها مع الرئيس أحمد بن بله، وحظي بدعم العقيد هواري بو مدين الذي قال له، كما روى هو شخصيا، أنه سيقتسم معه مرتبه، وشغل منصب السفير في القاهرة ودمشق وبيروت وليبيا وتونس وبغداد وأخير روما، ثم أصبح أمينا عاما لمنظمة المجاهدين، واختير بهذه الصفة وأيضا كممثل للشرق الجزائري لعضوية المجلس الأعلى للدولة بعد إلغاء الدور الثاني من المسار الانتخابي في 1992، (وكان بقية الأعضاء اللواء خالد نزار والدكتور تيجيني هدام والسيد علي هارون، مهندس تولية بو ضياف ورسول القيادة العسكرية إليه) ودخل بعد تقاعده في صراع إعلامي عندما أصدر مذكراته وتناول فيها عبان رمضان بما صوره البعض كتقليل من موقف الشهيد أو تشكيك فيه، وهو خطأ استغلته عناصر اليسار والمجموعات التي أرادت احتكار عبان.

288 - اختار الوفد الجزائري برئاسة كريم بلقاسم في مباحثات إيفيان رضا مالك ناطقا باسم الوفد برغم أنه لم يكن عضوا فيه، واعتبر أن عمله كمدير لمجلة المجاهد الناطقة بالفرنسية أعطاه خبرة إعلامية ، وعمل بعد استرجاع الاستقلال سفيرا في كل من بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة ويوغوسلافيا، وعين في آخر حكومات بو مدين وزيرا للإعلام، فتحالف مع مصطفى لشرف الذي عين في نفس الحكومة وزيرا للتربية الوطنية

وبعد إلغاء الدور الثاني من الانتخابات في يناير 1992 عُين في المجلس الاستشاري، وتقدم لانتخابات رئاسته فخسرها لمصلحة السيدة خليدة تومي (التجمع من أجل الثقافة والديموقراطية، وهو حزب لم يحصل على مقعد واحد في الانتخابات التشريعية، ويدعي البعض أن الجنرال تواتي كان وراء تأسيسه كما كان وراء تأسيس حزب رضا مالك، طبقا لما رواه السيد عبد السلام بلعيد، وللعلم فقد شهدت المرحلة توالدا قططيا للأحزاب التي أصبح يُطلق عليها "الأحزاب المجهرية") لكن معجزة ما حدثت !! فوضعت مالك على كرسي الرئاسة في المجلس الاستشاري، ليكون أول قرار يقدمه لرئيس المجلس الأعلى، علي كافي، وقبل دفن الرئيس المغتال، هو تجميد قانون تعميم اللغة العربية، ويُحسب رضا مالك على التيار الذي أصبح يحمل اسم التيار الاستئصالي، حيث عرف بتعبيره المشهور، عندما أصبح رئيسا للحكومة : يجب أن ينتقل الخوف إلى الجانب الآخر.

وبعد مقتل بو ضياف عين رضا مالك عضوا خامسا في المجلس الأعلى للدولة.

قال لي، عندما استقبلني في بداية العام وقبل أن أقرأ في صحيفة الشرق الأوسط عن إنهاء مهامي، بأنه يتعرض إلى ضغوط كثيرة.

ولم أسأله عن نوعية الضغوط أو عن مصدرها، فقد كان واضحا لدي أن هناك مرحلة جديدة يجري الإعداد لها، بإصرار عنيد، لتطهير السلك الدبلوماسي من كل الذين ارتبطوا بمرحلة سابقة، وفتح المجال أمام جيل جديد من المحترفين (كما قيل) الذين تخرجوا من المدرسة العليا للإدارة.

والغريب أن إشاعات كثيرة ترددت من أن بعض العائدين سيتم استدعاؤهم لرئاسة الجمهورية للاستفادة من خبرتهم السابقة، وبدا هذا أحيانا كأنه رد إعلامي على الاستهجان الشعبي الذي عبر عنه كثيرون تجاه عملية إنهاء مهام خبرات دبلوماسية هامة، في مرحلة كانت الجزائر فيها محتاجة لتجنيد الأصدقاء حولها [289].

وكان من الأسماء التي تناولتها تلك الإشاعات كاتب هذه السطور والمرحوم عبد المجيد أعلاهم.

ولكن أحدا لم يتصل بي شخصيا حول هذا الأمر، وأكثر من ذلك، لم تستدعني أي مؤسسة لسؤالي أو استجوابي حول ظروف العمل في البلد الذي كان يعتبر مشتل الجماعات الإسلامية، وملاذ ما سمي بالأفغان العرب، والمؤكد أن خبرتي كانت ستكون أكثر من مفيدة، والواقع هو أنني حمدت الله على ذلك، وقلت لنفسي أن تقاريري كانت أكثر من وافية، وإن كان عيبها أنها كانت بالعربية.

وربما كان كثيرون يتوقعون أن أكون أنا في مقدمة من يستدعيهم الرئيس علي كافي، وهو معرب حتى النخاع، ويعرف الإنجازات التي حققتها في الرئاسة لمدة تجاوزت ثلاث عشرة سنة، لكنني لم أكن أنتظر ذلك لأنني كنت أفهم معطيات الساحة، ولا يمنعني هذا من القول، وبدون أي غرور أو إدعاء، بأنني كنت قادرا على أن أكون ذا فائدة كبيرة لرئيس الدولة، وهو ما يمكن أن ينطبق على رفقاء آخرين كان الرجل في حاجة لهم لكي يمارس مهمتهُ بالغةَ التعقيد، في تلك الظروف بالغة التعقيد.

لكنه لم يكن، على ما يبدو، يملك القرار النهائي[290]، ولهذا لم أندهش كثيرا عندما عرفت اسم من عين كمدير لديوانه ، وكان من المعربين المحسوبين على اليسار.

وأتذكر هنا لقاء رئيس الدولة مع عدد من المثقفين المصريين على هامش زيارته لمصر، والذي أسيئ تنظيمه وإخراجه إلى الدرجة التي جعلت منه مهزلة، ويتحمل مدير الديوان وسفيرنا في عين المكان كل المسؤولية، وقد سمعت والدكتور أحمد طالب تعليقات مريرة عن ذلك من مثقفين عرب.

.. ..

عدت من مهمتي كسفير لدى باكستان في يوليو 1992 لأجد في البلاد ملامح تنذر بالخطر، جعلتني أقول لمن أعرف من الأصدقاء أننا سنكون، بعد خمس سنوات، أسوأ من حيث كنا ، وهو ما سمعه مني في القاعة الشرفية لمطار هواري بو مدين الرئيس الأسبق الأخ أحمد بن بله، ورأى في التعليق الكثير من التشاؤم.

وكنت أقصد على وجه التحديد انهيار الطبقة الوسطى لمصلحة رأسمالية طفيلية جديدة، وتحول الأغلبية الساحقة من الشعب إلى مستويات متباينة من الكادحين، قد يكون فيهم كثيرون تحت خط الفقر، وقد يكون منهم من لا يجد قوت يومه. ومعنى هذا أن السلطة المقبلة ستكون أساسا سلطة المال المتواطئ مع مراكز نفوذ تمارس نشاطها في الكواليس.

وأدركت، بعد العودة، بأن علي أن أستعد لعبور الصحراء من جديد، وهكذا تقدمت بطلب إحالتي إلى التقاعد مرة أخرى، بعد أن فهمت من السيد مخالفة، مدير الإدارة العامة في الخارجية والذي كان واضحا أنه لم يكن ينطق عن الهوى، أن ذلك هو المطلوب، ولكنني رفضت أن أستسلم للتقاعد، كمثقف وكوطني يدرك بأنه أعطى الوظيفة كل شيء ولم يأخذ منها الكثير، وبأن الوظيفة ليست بحرا بالنسبة لسمك يموت إذا أخرج منه، وعدت إلى أسلوب الثمانينيات، عندما فرض علي التقاعد للمرة الأولى وأنا لم أتجاوز الخمسينات من العمر وكنت في أوج سن العطاء المبني على النضج والخبرة والتجربة، فقد

---

289 - من بين الذين أنهيت مهامهم أنذاك إسماعيل حمداني من فرنسا ومحمد حاج يعلا من موسكو والهادي خديري من تونس وعبد القادر حجار من سوريا..الخ

290 - حدث أن زرت مكتب مدير المستشفى العسكري بالعاصمة الجزائرية، ودهشت عندما لم أجد صورة علي كافي في المكان المألوف لصورة رئيس الدولة ، ووجدت مكانها صورة الرئيس السابق محمد بو ضياف.

كنت دائما ممن يرفضون اعتبار التقاعد الإداري توقف الإنسان عن أي نشاط، ولعلي كنت أتصور بأن ذلك التقاعد يجب أن يكون فرصة ليسترجع المثقف أنفاسه ويتجه للقيام بدوره الحيوي، الذي تسلبه منه غالبا التزامات الوظيفة، وكنت أراجع في ذهني دائما تعبيرا لهنري كيسينغر يقول فيه بأن قدره هو أن يتصرف كراكب الدراجة، الذي يجب أن يدير عجلاتها لئلا يسقط.

وهكذا عدت إلى الانشغال بوضعية الجبهة ومواصلة الاتصال بيحياوي لتلمس الطريق نحو المستقبل، ووجدت عبد الحميد مهري غاضبا عليّ إثر المقال الذي كنت كتبته وقلت فيه بأن انطلاقة الجبهة بعد المؤتمر كانت انطلاقة عرجاء [291].

والواقع أنه، برغم كل الجهود التي كان مهري يبذلها، فإن أسلوبه في العمل الفردي وفي عدم الاستعانة بكل الكفاءات النضالية الموجودة على الساحة جعله يواجه العواصف وحده، ولقد كانت علاقاته برئيس الحكومة السابق مصدر لوم كبير، لكن الرجل ظل على وفائه إلى أن تلقى الطعنات بعد ذلك في ما سمي بالمؤامرة العلمية، والمؤكد أن الأصوات التي حصلت عليها جبهة التحرير في انتخابات 1991، رغم أنها حُمّلت كل مساوئ المسيرة وعثراتها، كانت أساسا بفضل سياسة مهري.

ولقد كان على الجبهة أن تقوم بصياغة عملية تغيير هادئ للأساليب التي كان يتطلبها نظام الحزب الواحد، لتستطيع استقطاب الطبقة الحقيقية التي تنتمي لها وتستند إليها وهي الطبقة الوسطى.

وقلت في واحد من مقالاتي في السلام[292] بأن هناك يقينا في أوساط العديد من المناضلين بأن "الجبهة لم تتمكن من التكيف مع المستجدات، وهو ما قد يعتبر دليلا على شيخوخة أراها مبكرة، وربما رأى البعض من مظاهر ذلك عجز الجبهة طوال الشهور الماضية عن عقد اجتماع طارئ للجنتها المركزية"، ثم قلت في نفس المقال الذي رآه البعض عنيفا، بأن "الجبهة خسرت رهانها على الانتخابات التشريعية، ثم وقع اغتيال رئيس الدولة، ثم تغيرت المعطيات الشرعية والمؤسساتية، وجمدت قوانين، كل هذا وكثير غيره ولجنة الحزب المركزية في ثلاجة مغلقة بقفل مفتاحه عند علام الغيوب".

ثم قلت، على ضوء ما أعرفه من تطورات وخلفيات، بأن "هناك من يرى أن محاولة اللجنة المركزية القيام بدورها الحقيقي قد يؤدي إلى انفجار كل شيئ، وهنا أتذكر قولا للرئيس الراحل هواري بو مدين، مضمونه، على ما أتذكر، أن الثورة التي تعجز عن مواجهة قدرها ليست ثورة، مما ينسجم مع كلمات العربي بن مهيدي عن احتضان الشعب للثورة، وهو ما يعني أن على الجبهة، إذا رأت أنها ليست في مستوى التحديات، أن ترفع عصاها على كاهلها وترحل".

ثم رحت أفند محاولات البعض تعقيد الساعين لتغيير الأوضاع باتهامهم أنهم يعملون من أجل انتزاع السلطة وقلت بأن العمل السياسي هو أساسا سعي نحو انتزاع السلطة.

ولكي تتضح الخلفيات أذكر بأن محمد الصالح يحياوي كان ساخطا على الأسلوب الذي تسير عليه القيادة ويرى فيه أسلوبا تمييعيا، وكان يرى نفسه، بحكم ماضيه في الجهاد وفي النضال، الأجدر بقيادة جبهة التحرير الوطني، ولم يكن هناك ما يحول بينه وبين ذلك، لكنني قلت له بكل بساطة أن العمل القيادي ليس هدية تمنح ولكنها سلطة تنتزع، ومن هنا فإن اجتماع اللجنة المركزية المقبل في باتنة[293] يجب أن يكون الفرصة التي يتقدم بها إلى القيادة السياسية للجبهة لاقتراح طريق جديد.

---

291 - كان أول مقال كتبته في صحيفة السلام يوم 10 سبتمبر 1992 إثر عودتي من باكستان، وكانت بداية لسلسلة حملت عنوان "السلام عليكم"، وكان محور المقال هجوما على المواقف والكتابات التي تسوّد كل شيء في الوطن لخلق روح الإحباط العام، وبدأت فيه تدريجيا في علاج بعض القضايا الحزبية.

وقلت في نهاية المقال بأن "انطلاقة الجبهة بعد المؤتمر كانت عرجاء".، والتقينا في مناسبة عائلية فعاب علي عبد الحميد استعمال التعبير قائلا بنبرة ساخرة بأننا "كنّا ننتظرك لعلاج تلك العاهة"، وأعطيته ظهري طوال الحفل، وأدرك الرجل الكريم ذلك فجاءني، وكنت جالسا بجوار يحياوي، ليربت على ظهري ويقول موجها الحديث ليحياوي : "لم نتفاهم أنا والدكتور، فهو يرى أن الجبهة عرجاء وأنا أقول أنها كسيحة". وحمدت للرجل ذلك الموقف الأخوي النبيل.

وفي مقال تال بتاريخ 28 أكتوبر قلت بأن من أهم أسباب السقطات السياسية عدم قيام القواعد النضالية بدورها (..) عندما تنازلت عن حقوقها بالنسبة للقرارات المتعلقة باختيار الرجال أو البرامج أو المراحل أو الأسبقيات، تاركة ذلك للقيادة، وأيا كانت القيادة، لأن هذه هي الخطوة الأولى نحو تزوير الإرادة النضالية، وأيا كانت النوايا في البداية، فطريق جهنم، كما يقولون، مفروش بالنوايا الطيبة".

292 - نصوص معظم المقالات موجودة في كتاب "الجزائر : الحلم والكابوس".

293 - أكتوبر 1992

وأعددت مسودة الخطاب الذي كان يجب أن يلقيه على المناضلين، مع إعداد خاتمة يقدم فيها استقالته بأسلوب درامي لانتزاع الثقة على برنامجه أو مغادرة الجبهة.

وظللت في العاصمة الجزائرية أنتظر أخبار باتنة ومعي الصحفي المعروف الأخ قصي صالح الدرويش، وعرفنا في النهاية أن يحياوي لم ينفذ ما اتفقنا عليه.

والتقينا بعد عودته إلى العاصمة، وقال ردا على التساؤلات بأن مجاهدي باتنة طلبوا منه ألا يرتبط اسم ولايتهم بانشقاق الجبهة ، واضطر، احتراما لهم، لقبول طلبهم، ولم يحاول تفجير الأوضاع، لكنني لم أقتنع بذلك، ولعلي شعرت في لحظة معينة بأن القرار النهائي متخذ في كل المجالات، وبأن ما سأقوله لن يغير من الأمر شيئا، وبأن هناك مخططا يجري تنفيذه بدقة بالغة، وبأن يحياوي يعرف الكثير عما يحدث وسوف يحدث، لكنه يحتفظ بما يعرفه لنفسه.

وشعرت بخيبة أمل كبيرة لأن فرصة هامة ضاعت على الجبهة.

وبدت صورة الأوضاع وكأن الأحداث كانت ثورا هائجا مندفعا إلى الأمام لا يوقفه شيء، ولا يجب أن يقف في وجهه عاقل.[294]

(6)

كانت الساحة الوطنية تتشكل من جديد، وكان واضحا أن هناك إرادة في استكمال سحق ما سمي بالجبهات الثلاث، المنتصرة في انتخابات 1991 التشريعية، وخلق واقع سياسي جديد، يخدم النظرة الجديدة التي انبثقت من أحداث أكتوبر أو كانت وراء حدوثها.

كان وزير الخارجية سيد أحمد غزالي قد استطاع، في أواخر عهد بن جديد وقبل الانتخابات التشريعية، القفز إلى منصب رئيس الحكومة، لينتزعه من مولود حمروش، وبخلفية متنافرة مع مولود الذي كان، كما يعتقد، يثير المشاكل له في وزارة الخارجية.[295]

وكان غزالي واحدا من مهندسي المرحلة الجديدة التي ارتبطت بإنشاء لجنة إنقاذ الجزائر ثم استدعاء بوضياف، واضطر إلى ترك رئاسة الحكومة لمسؤوله السابق، عبد السلام بلعيد في يوليو 1992، عندما بدت الحاجة لاسم له بريق، ولكن مهندس اقتصاد الحرب[296] أقيل في أوت من العام التالي لمصلحة صفيه السابق، رضا مالك، في نفس الأسبوع الذي اغتيل فيه رئيس الحكومة الأسبق قاصدي مرباح.

....

294 - مما يؤكد ذلك أن الشهيد الشيخ بو سليماني زارني في بيتي، في نوفمبر 1992، ليبلغني بأن هناك عددا كبيرا من أبنائنا يرون أن مهمتهم في أفغانستان انتهت بخروج القوات السوفيتية وسقوط نظام نجيب الله وبأنهم يريدون العودة إلى الجزائر حتى لا تستغلهم دول معينة في المنطقة لخدمة أهدافها السياسية، وكان كل ما يطلبونه هو الاطمئنان إلى أنهم لن يُجرّموا في بلادهم بدون وجه حق. واتصلت على الفور بالأخ سليمان الشيخ، الذي كان مستشارا بالرئاسة، أطلب لقاءه، واستقبلني الرجل بكل حفاوة في اليوم التالي، فشرحت له الأمر، وقمنا بالاتصال هاتفيا بالمستشار الأمني في الرئاسة الذي جاء إلى مكتب سليمان، وطرحت الأمر مرة ثانية، وعلى ضوء المهلة التي أعطيت أنذاك لكل من يريد من التيارات الإسلامية العودة إلى أحضان الدولة (وكانت المهلة تنتهي في ديسمبر 1992) ووعدني الجنرال بأن يتصل بي لحل القضية، وما زلت أنتظر إلى يومنا هذا

295 - كان عبد الحميد إبراهيمي هو رئيس الحكومة خلال أحداث أكتوبر، وأقيل ليحل محله قاصدي مرباح، الأمين العام السابق لوزارة الدفاع وقبلها مدير الأمن العسكري، وخسر مرباح موقعه بعد ذلك لمصلحة مولود حمروش، الذي تولى تعديل الدستور على مرحلتين، ليفتح باب التعددية الحزبية بشكل همجي لم يحدث في التاريخ، وكان واضحا أن مولود يسعى لخلق واقع جديد يناسبه ويطوع الساحة السياسية لإرادته.

296 - كان عبد السلام بلعيد من خيرة المناضلين، لكنه كان يفتقد مستشارين مؤهلين لمساعدته في وضع الضوابط لتصرفاته ولتصريحاته، وكان تناقضه مع علي كافي أمرا مسيئا لكليهما. وقال عبد السلام فيما بعد أن الجيش هو الذي اختاره والجيش هو الذي أنهى مهامه، ثم، في خطوة أخرى في أكتوبر 2001، اتهم الجنرال تواتي شخصيا بالعمل على التخلص منه، خدمة لاتجاهات عقائدية ومصالح مالية، ورد عليه تواتي ردا عنيفا عبر إحدى الصحف المحسوبة عليه، وعاد كل ذلك إلى الواجهة الإعلامية في أغسطس 2007.

وسوف يروي بلعيد فيما بعد حكايات رهيبة تؤكد ما كنا نتخيل حدوثه استنادا إلى ما نعيشه من تطورات غريبة، وتكشف المناورات التي كان يحيكها من يقفون خلف أحداث أكتوبر أو الذين استفادوا منها لخلق واقع جزائري جديد، اقتصاديا وسياسيا، يحقق لهم الاستيلاء على السلطة الحقيقية في البلاد، وكان من أدوات التغيير قبول إعادة جدولة الديون الجزائرية.

وسوف يكشف وزير الطاقة والصناعة الأسبق في عهد الرئيس بومدين كيف نشأت مراكز النفوذ المالية الجديدة عبر قروض ضخمة لم تسدد وأرباح طائلة لم تدفع عنها الضرائب، وذلك تحت حماية بعض المسؤولين العسكريين الذين كانوا يحركون دمى الأحداث من وراء ستار، تاركين خشبة المسرح السياسي لأخرين، عسكريين ومدنيين.

وسيكون من بين الفصول التي نشرتها الشروق العربي في يوليو وأغسطس 2007 بعض ملامح الدور الذي لعبته بعض الصحف الخاصة في تخريب مشروع المجتمع الذي كان قائما لمصلحة مشروع مجتمع جديد يخدم الطبقة الطفيلية الجديدة، وهو ما يضع علامات استفهام حول مبدأ خلق الصحف الخاصة ثم التخلص من بعضها، خصوصا الناطقة منها باللغة العربية، لتبقى السيادة الإعلامية لعدد محدود يرتبط بفكر معين وباتجاهات محددة وبواقع مالي وسياسي جديد.

لكن هذا كله لم يكن واضحا أمام الجميع آنذاك لأن من بين الوسائل التي استخدمت للتغطية على عناصره الرئيسية تشجيع التواطؤ الساذج من المجموع الوطني الذي لم يفهم أبعاد ما يحدث ولم يكن يتصور ما يُمكن أن يحدث، وكان يتوقف، بسطحية مثيرة للسخرية، عند المُقارنة بين ما عاشته البلاد في نهاية السبعينيات من مشاكل تموينية وما بدأت الأسواق تعرفه من وفرة في المواد الاستهلاكية.

وتولت بعض الأجهزة الإعلامية خلق الضجيج المطلوب للتغطية على عمليات التسلل القائمة.

....

وانغمستُ أكثر فأكثر في النشاط الصحفي، وكان الخط الذي سرت عليه العمل على استرجاع الثقة بحزب جبهة التحرير الوطني، رغم أنني كنت بعيدا عن تنظيماته الهيكلية القيادية منذ 1983، إثر التصفيات التي تمت في المؤتمر الخامس للحزب.

وكان أهم ما في كتابات التسعينيات أنها أصبحت توقع بالاسم كاملا، وبالطبع فقد كانت كتاباتي كلها مجانية، ثم رحت أحاول تنفيذ خطتي الأصلية عبر حلقات كنت أكتبها في أسبوعية "الشروق العربي"، تشكل معظم فصول كتابي : "م..دين ..التجربة والجذور"، ورويت فيه جوانب من عملي مع الرئيس بو مدين، وأعدت إلى الأذهان صورة الرجل بكل البريق الذي كنت أراه فيها، وكان هذا اكتشافا جديدا لشباب لم يعرف بو مدين.

وأتيحت لي في هذه المرحلة فرصة التقدم لجماهير التلفزة، وكان هذا بفضل برنامج بعنوان "ذاكرة الأيام"، سجلته معي السيدة دلال رحمها الله، وكان بابا ولجت من خلاله لمجموع المشاهدين الجزائريين، ولكنه كان أيضا مناسبة اكتشفت فيها حجم العداء الذي تكنه شريحة من العاملين في الصحف الخاصة، وعلى وجه التحديد تلك التي تكتب بالفرنسية أو تفكر بها والتي تنتمي إلى اليسار اللائكي المتبربر، لكل ما يتعلق بالعربية، فكرا واتجاها ولغة.

وكان من نتيجة الهجوم الشديد على ذلك البرنامج أن أصيبت مقدمته بعقدة جعلتها تتوقف تماما عن البرامج التليفزيونية وتتجه إلى نشاطات أخرى، في حين أن الهجوم نفسه على البرنامج خلق تساؤلات حوله، دفعت إلى بثه مرة ثانية، وأنا أعتقد شخصيا أنه كان أول دخول ناجح لي إلى الساحة الإعلامية، كصاحب فكر ورأي، وهكذا عرف الناس من هو م..دين.

وأتصور أن حجما كبيرا من العداء الذي استقطبه البرنامج كان نتيجة لتركيزه على استعادة أمجاد الستينيات والسبعينيات، وكان واحدا من عدة برامج خصصت فيما بعد للرئيس الجزائري الراحل، من أحسنها برنامج "الساعات الأخيرة" الذي أعده حمراوي حبيب شوقي، وزير الثقافة والإعلام بعد ذلك، وقبل ذلك برنامج أعده "مدني عامر" وبعده "أبيض واسود" لصورايا بو عمامة..

والواقع أن عملية إعادة التألق لذكرى بو مدين كانت قد انطلقت في سطيف عام 1990، بفضل مبادرة للاتحاد العام للشبيبة الجزائرية، وأرسلتُ مساهمتي فيه مكتوبة من إسلام أباد، حيث لم تسمح لي

وزارة الخارجية بالمساهمة المباشرة، ولم يساهم في انطلاقة سطيف إلا عدد محدود من رفاق الرئيس الراحل، وكان لكل حساباته.

لكن كل هذا النشاط كان فرصة لإعادة الاعتبار للرجل الذي أراد البعض له أن يموت مرتين، وكانت استعادة الشعب لذكرى بو مدين هي التي أعادت إلى الواجهة بعد ذلك معظم الرجال الذين همشوا لأنهم انتسبوا أو نسبوا له، ومع تزايد وتيرة الأحداث تزايد نشاطي الفكري، وأضيفت له المشاركة في ندوات تاريخية بدأت تعقد عبر التراب الوطني [297].

وتواصل مسلسل الأحداث الدموية، وواصلت تحركي على الساحة الوطنية، وأساسا عبر الكتابات والندوات والمحاضرات، وتضاءل اهتمامي بالقضايا الحزبية، نتيجة للعديد من خيبات الأمل.

وبفضل الدكتور محمد العربي الزبيري شاركت في ندوة عقدت في إيفران بالمغرب، مكنتني من التعرف على العديد من وجهات النظر بالنسبة لأحداث الجزائر.

ونظرا لأنني أحمل جواز سفر دبلوماسي فقد رأيت أن أبلغ وزارة الخارجية قبل سفري، وهكذا طلبت من الزميل محمد الهادي حمدادو، الذي كان على اتصال منتظم بمصالح وزارة الخارجية أن يبلغ مدير الإدارة المعنية بالدعوة التي وجهت إلي، ورأيت في هذا التصرف التزاما حضاريا.

وجاءني حمدادو بعد أيام ليقول لي بأنه اتصل بمدير الإدارة المعنية ليبلغه بما طلبته منه فأجابه بما معناه أن فلانا متقاعد ومن حقه أن يذهب حيث يشاء.

وفي أواخر الشهر قمت والأخوين عبد العزيز بلخادم وعبد القادر حجار بزيارة إلى ليبيا في إطار نشاط كان ظاهره ثقافيا، وتمكنا آنذاك من نزع فتيل قنبلة كانت تعد للانفجار بين البلدين، إثر رفض الرئيس كافي تلقي مكالمة هاتفية من العقيد القذافي (ولا أملك أن أتحدث عن تفاصيل تلك الزيارة التي طلبنا فيها رأي الجهات العليا المعنية، انطلاقا من واجب التحفظ الذي تمليه التزامات الدولة)

وتنتهي عهدة الرئيس كافي ويُعين الأخ اليمين زروال رئيسا للدولة، بعد أن كان عُيّن كلواء متقاعد وزيرا للدفاع.

....

وفي نهاية 1993 تم الاتصال بين المؤسسة العسكرية وعبد العزيز بو تفليقة ليتولى رئاسة الدولة، وأتصور أن الرجل كان جادا في قبوله لذلك الترشيح، ودليلي على ذلك هو أنه بدأ بالفعل في تكوين مجموعة عمل ينطلق بها لأداء مهمته، وكنت ممن اتصل بهم عن طريق الأخ عبد العزيز بلخادم، ثم زارني في منزلي في بداية ديسمبر، وأذكر أنني قلت له آنذاك، وفي ذهني تجربة بنظير في باكستان، أنه ظلم كثيرا ولكنه سيحقق نجاحا كبيرا في مهمته إذا تفادى ما يمكن أن يبدو كتصفية لحسابات قديمة، وقال لي حرفيا بأن ذلك أبعد ما يكون عن تفكيره، وكان جوابي أنني سأكون إلى جانبه.

وكان مما فهمته من بلخادم أن المرشح لرئاسة الدولة يريد تكليفي بقطاع الإعلام، وقلت يومها للصديق والجار بأنني قادر على مساعدة الرئيس المقبل في مجال الإعلام بشرط ألا أعين في مجال الإعلام، لأنني في هذه الحالة سأكون هدفا يستقطب كل السهام [298].

---

297 - كان مصرع الرئيس محمد بو ضياف في عنابة سببا في عقدة أصابت الشعب في العاصمة البحرية للشرق الجزائري، ورغبة في القضاء على تلك العقدة قمت مع الأخ عبد القادر حجار بإعادة افتتاح القاعة التي اغتيل فيها، بعد أن ظلت مغلقة منذ 29 جوان 1992، وكان ذلك في الذكرى الأولى لاستشهاد سي الطيب الوطني، كما كان رفقاؤه يلقبونه. وكان الذي لفت نظري هو التعتيم الكامل على ما قمنا به، إلى درجة أن صحيفة ناطقة بالفرنسية أرسلت بمندوبها إلى القاعة، فلم يجد ما يتحدث عنه إلا ستائر المنصة الشرفية.

وكانت التيارات التي تنسب نفسها ظلما إلى الرئيس المغدور قد أقامت بنفس المناسبة حفلا ساهرا في الملعب الرياضي الكبير، استحضرت له فرق موسيقية وغنائية من فرنسا، وكان الدخول إليه بالمجان، وترددت قصص كثيرة عن فضائح حدثت في تلك الليلة، وفي دورات المياه على وجه الخصوص.

298 - في نهاية الثمانينيات وبعد أحداث أكتوبر المشبوهة قام رئيس الحكومة آنذاك بمنح ثلاث سنوات كعطلة بمرتب كامل للصحفيين الذين كانوا يريدون إنشاء صحافة خاصة، وذلك بعد إلغاء وزارة الإعلام ووزارة المجاهدين، وكان واضحا أن رئيس الحكومة الطموح، والذي أطلق أنصاره عليه لقب رجل الإصلاحات، قد أدرك أهمية الإعلام في صياغة رأي عام مؤيد له، يمكنه من التخلص ممن كان يسميهم "الديناصورات"، وكانت اللجنة المركزية التي انبثقت عن آخر مؤتمرات جبهة التحرير تعبيرا عن توازن بين عدد من الشخصيات السياسية، واستفاد منها مولود بتعيين عدد من أنصاره في المكتب السياسي للحزب، وكما حدث مع الأحزاب، بدأ التوالد القططي للصحف الخاصة، التي حظيت بدعم هائل في الوقت الذي حوصرت فيه الصحف العمومية، بتقليص الإشهار وتخريب عمليات

ولم يكن هذا تنبؤا بما سيحدث بالفعل بعد ذلك، ولكنه كان معرفة بالواقع الذي نعيشه من جهة وإيمانا بأن أول مهام الرئيس المقبل هي تكوين مجموعة العمل الرئاسية، وبأن تكوين الحكومة يجب أن يأتي في المقام التالي، لكن عملية اختيار بو تفليقة أجهضت عمدا، ولمصلحة تكليف وزير الدفاع اليمين زروال بمهمة رئاسة الدولة لفترة انتقالية أخرى [299]، وذلك في يناير 1994.

وبدأ زروال ولايته بتعيين الجنرال المتقاعد محمد بتشين وزيرا مستشارا لدى رئيس الجمهورية، ثم عين مقداد سيفي في أبريل رئيسا للحكومة بدلا من رضا مالك.

وتعرف رئاسة زروال للدولة نكسات لكل محاولات الحوار الوطني، وتزايدا لأعمال العنف، وتهميشا لكل القوى الوطنية التي أثبتت انتخابات 1991 تمثيلها للأغلبية الساحقة، وذلك لمصلحة تزايد نفوذ الأقليات الفكرية، وحدث الشرخ النهائي بتوقيع ممثلي الجبهات الثلاث لعقد روما تحت رعاية مؤسسة سانت إيجيديو الكاثوليكية، ويتم تنظيم عملية انقلابية في إطار جبهة التحرير الوطني تؤدي إلى التخلص من أمينها العام عبد الحميد مهري، الذي نجح في تدعيم وجود الجبهة على الساحة الوطنية، ويتم "انتخاب" قيادة جديدة أدخلت الجبهة إلى "بيت الطاعة"، طبقا للتعبير السائد آنذاك.

وتجرى الانتخابات الرئاسية في نوفمبر 1995، وينتزع فيها اليمين زروال كرسي الرئاسة كما كان مقدرا له من أربعة مرشحين اعتبرهم الجميع أرانب سباق، ثم يجري الاستفتاء على تعديل دستوري في 1996 لم أكن مقتنعا به، وكتبت ذلك وناضلت ضده بدون جدوى.

وتتوالى الأحداث في الجزائر.

(7)

رحت أحاول تأكيد وجودي على الساحة الصحفية العربية، وبتشجيع من قصي وبكر، الذي كان قد انتقل إلى الشرق الأوسط بعد إغلاق "التضامن" إثر حرب الخليج الثانية، وبدأت في كتابة سلسلة من المقالات على صفحات "الشرق الأوسط" حملت عنوان : "الزلزال"، استعرضت فيها أحداث أكتوبر 1988 في الجزائر وأسبابها وتداعياتها، لأصل في خاتمتها إلى رسم ملامح نذر الأزمة الجزائرية.

لكن العمل على المستوى الوطني كان، بالنسبة لي، أسبقية الأسبقيات، وكان الهدف الاستراتيجي هو محاربة روح اليأس والقنوط واسترجاع الثقة بإمكانية خروج الجزائر من الأزمة المأساوية التي أنشبت مخالبها في البلاد منذ بدايات التسعينيات، والحرص على التذكير بأمجاد الجزائر في الستينيات والسبعينيات، وعلى محاربة الاتجاهات التغريبية والبربرية، والتصدي لكل أنواع التعصب الفكري،

التوزيع.(وسيفضح عبد السلام بلعيد كثيرا من مؤامرات تلك المرحلة). وفي لحظة معينة كانت الصحف تعبيرا عن توازن بين مواقع نفوذ في السلطة ومراكز نفوذ مالي، وتضاعف عدد الصحف الناطقة بالفرنسية واحتلت تيارات تغريبية معظم المواقع المؤثرة، وهكذا خلق واقع جديد على حساب التيار العربي الإسلامي، ثم جرت عملية استئصال لجل المواقع الإعلامية المعبرة عن هذا الاتجاه والداعية للمصالحة الوطنية. وأصبح العمل الإعلامي في معظمه بابا للمكاسب المالية وللنفوذ السياسي، وواجهة مرئية لأصحاب النفوذ الخفي.

299 - عين اللواء المتقاعد اليمين زروال وزيرا للدفاع بدون استرجاع صفته العسكرية في يوليو 1993، وألقى خطابا هو الأول من نوعه لوزير للدفاع، وكانت صياغة الخطاب توحي بأنه سيكون هو رئيس الدولة المقبل بعد انتهاء مهمة علي كافي. وكان زروال ممن طلب منهم الاتصال ببو تفليقة لإقناعه بقبول المهمة، لكن ما لفت النظر هو أن أصحاب القرار توسطوا أيضا بأحد أعضاء مجلس الثورة القدامى، وهو شريف بلقاسم، الذي يعرف الجميع حجم الكراهية بينه وبين بو تفليقة، حيث كان يراه مسؤولا عن فقدانه للحظوة في 1973 لدى هواري بو مدين، وأتصور أن مجرد وجوده بين المجموعة التي زارت بو تفليقة في بيته فجرا لإقناعه بقبول المهمة كان سببا في إثارة شكوك كثيرة لديه حول خلفياتها، وربما كان السبب الرئيسي للرفض كما قيل فيما بعد اشتراط تعيين خالد نزار نائبا للرئيس ثم الطلب الذي قدم إلى بو تفليقة بضرورة التوجه إلى قصر الأمم لتلقى المباركة من الأحزاب المجهرية والتي لعبت دور الأحزاب الهامشية التي تتحرك بآلة التحكم عن بعد، وهو كان يريد أخذ السلطة من صاحب القرار.

ومن القلائل الذين فهموا أبعاد ما يحدث دبلوماسي عربي متميز قال لي حرفيا أن كل التطورات التي نعيشها منسجمة مع بعض البعض، إلا حكاية تعيين بو تفليقة، فإنها تبدو نشازا، ولم يرد أدبا أن يقول بأنها كانت مجرد خطة سينيمائية لتسهيل الأمر أمام اليمين زروال، الذي أتصور أنه كان مخلصا في جهوده.

وتنبأ السفير إبراهيم يسري بأن الجزائر ستعيش حصارا غير معلن، وهو ما انطلق فعلا في الساعات الأولى من بداية عام 1995، بحادث اختطاف الطائرة الفرنسية المشبوه في مطار الجزائر.

وتعميق الشعور بالانتماء العربي الإسلامي، بدون أي تناقض مع العمق التاريخي الأمازيغي للأمة، والذي هو حق للجميع، وليس حكرا على الأقلية التغريبية اللائكية.

ورحت، تلبية لدعوات متعددة من جمعيات ثقافية ولائية، أطوف عبر مناطق متعددة من الوطن، وهو ما أعطاني فرصة للتعرف من جديد على الجزائر العميقة، خاصة فيما يتعلق بالطاقات البشرية الشبانية، التي أسجل لها هنا أنها أعادت لي الثقة بأن شعبنا هو شعب عظيم، وأن ما نراه على سطح الحياة في العاصمة من مثبطات ما هو إلا الزبد الذي سيذهب جفاء.

ولم أكن وحدي الذي كان يقوم بتلك الجولات، بل كان هناك آخرون من بينهم الأخت زهور ونيسي والأخوة البشير بو معزة وعبد القادر حجار وعبد العزيز بلخادم، وعدد من أساتذة الجامعة من بينهم الدكاترة ابراهيم فخار وعبد الله ركيبي والعربي الزبيري ومحمد العربي ولد خليفة وعثمان سعدي ويحيى بو عزيز وآخرون [300]، وتتضح أهمية هذه التحركات عندما نعرف بأن دخان أكتوبر خلق، أو هكذا قيل لنا، حاجزا كثيفا بين الشباب وبين قيادات جبهة التحرير الوطني، التي تصاعدت الأصوات بضرورة وضعها في المتحف، ويمكن أن نتخيل أثر هذا على نفوسنا، نحن الذين سخرنا حياتنا وشبابنا لجبهة التحرير، مبادئ وأفكارا وتوجهات أساسية، قاعدتها الإيمان المطلق بأنه لا مستقبل للبلاد خارج جبهة التحرير الوطني، حتى في وضعية التعددية الحزبية، التي تفرض على الجبهة أن تتجدد حتى لا تتبدد، طبقا لتعبير شاعر جزائري شاب، اختار المنفى منذ الثمانينيات.

ولاحظ الشباب أن شخصيات كثيرة ممن اصطلح على تسميتهم بقيادات السبعينيات كانت تتفادى بذل أي نشاطات من ذلك النوع، وكان مؤسفا على وجه المثال أن شخصا كالعبد الضعيف يقف في جموع الشباب مدافعا عن الثورة الزراعية، التي لم يستفد منها لا من قريب ولا من بعيد، في حين أن شخصيات كانت تبشر بالثورة الزراعية وتنظر لها، وتدبج المقالات والخطب تغزلا فيها خلال السبعينيات، أخفت نفسها تماما عندما أصبحت الثورة الزراعية تعامل كعورة وخطيئة وجريمة سياسية.

ولاحظ كثيرون بأن الذين عرفهم الشارع عن طريق بو مدين تنكروا تماما لكل ما يربطهم بالرجل، بل إن بعض من استفادوا منه، كتابا وفنانين، راحوا ينتهزون الفرصة للإساءة لذكرى الرجل الذي تحلل جسده في ثرى الأرض التي أحبها [301].

وليتني كنت قادرا على الإشارة إلى الأسماء، لكن العفة تقتضي الصمت، ما لم يجرؤ أحدهم على التكذيب، وعندها لكل حادث حديث.

وإذا كان من الممكن أن نجد تبريرا للذين ابتعدوا تماما عن المشاركة في أمثال تلك النشاطات، ومنهم من التزم بالصمت حتى لا يقال، كما قيل عنا، أنهم يتاجرون باسم الرئيس الراحل، في حين أن مجرد ذكر اسمه في ذلك الوقت كان يعني اجتذاب الصواعق نحو الرأس.

لكن الشباب لم يقبل أي تبرير لمن كانوا ينتهزون الفرصة لاستعراض بطولات وهمية أمامهم، وبوجه خاص الذين أصبح تنصلهم من مسؤولية إنجازات معينة وفحيحهم المسموم في اتهام خصومهم وحتى أولياء نعمتهم، من الحكايات التي تستعمل للإساءة إلى زملائهم من قدامى الساحة السياسية.

وكان من بين الجمعيات التي حرصتُ على تشجيعها جمعية أدبية شبانية في باتنة، كان ينشطها الدكتور مصطفى بيطام، الذي كان يتصل بي دوما لدعوتي إلى ندوات تقيمها الجمعية ويطلب إليّ أن أختار المشاركين فيها، ثقة منه بأن الأشقاء يحترمون رأيي ويلبون الدعوة إذا كنت من بين المدعوين، وهو ما حدث في زيارة قمت بها رفقة الأخوين عبد العزيز بلخادم وعبد القادر حجار، للمشاركة في ندوة

---

300 - كان من المثقفين من فرّ إلى خارج الجزائر وتسول مناصب جامعية بعيدا عنها، وادعى البعض أنه مستهدف من الإرهاب ووجد آخرون مبررات أخرى، ولكنهم كانوا قلة، وعادوا بعد أن استقرت للأوضاع ليستعيدوا عذريتهم، والمؤسف هو أن هناك من أعطاهم غطاء لمزاعمهم.

301 - واحد من أولئك رعاه بو مدين ودافع عنه وأنقذه من إصابة مرضية خطيرة ولكنه كان أول من كتب محاكما لنظام بو مدين في مجلة كانت تصدر في باريس بالعربية واستعمل في كتاباته ما نشرته صحف اليمين الفرنسي، ثم جمع ما كتبه بعد ذلك في كتاب، وواحد من هؤلاء كان نظام بو مدين هو الذي أعطاه الفرصة ليكون مخرجا سينمائيا مرموقا، بالإضافة إلى ما جمعه من أموال، ولكنه كان يدعي أنه خرج من مكتب بو مدين وصفق الباب وراءه، و أمثال هؤلاء قلت عنهم يوما في حديث تليفزيوني أنهم كانوا يقفون أمام الرئيس كالقطط المبللة، وأصبح هذا التعبير مثلا طاف الجزائر من أقصاها إلى أقصاها.

احتضنتها عاصمة الأوراس، ولكنني فوجئت أن من بين بنود البرنامج زيارة إلى المدينة الجامعية للفتيات، وأعترف أنني ترددت في الذهاب، لمجرد أنني كنت ألفت اللقاءات المحدودة التي تجمع شرائح متباينة من العمر، لكنني لم أكن أتصور نفسي في لقاء جماهيري يضم الشباب فقط، والفتيات بوجه خاص.

وأمام تحمس الرفيقين ذهبنا معا، وعند دخولنا من باب القاعة كنت أتصور أننا، ونحن نمثل جبهة التحرير الوطني التي حُمّلت كل آثام المسيرة، سنستقبل بالتصفير وبالطماطم، أو على أقل تقدير بصمت رافض لاستقبالنا كأنه صمت المقابر.

كانت المنصة الشرفية في الطرف الأخر من باب الدخول، وكان علينا أن نخترق صفوفا متراصة من زهرات الجامعة الجزائرية، وما أن أعلن المنشط عن دخولنا اسما اسما حتى انفجرت القاعة بالتصفيق والزغاريد بشكل لم أعرفه في حياتي، واقشعر جسمي وأنا أخترق القاعة وكادت الدموع تنساب من عيني، وبعد نحو ثلاث ساعات من الحوار كان على المنظمين أن يفتكونا من الشباب الذي كان يطالب بالمزيد، وما زالت أمام ناظري إلى اليوم صورة بلخادم وهو يوقع "أوتوغرافات" الشباب كأي نجم سينيمائي.

وكتبت يومها في المجاهد مقالا بعنوان .."شكرا باتنة"، وكان شكرا من الأعماق لأن ذلك اللقاء أمدني بطاقة متجددة جعلتني أحس بأن كل الجهود التي بذلت لم تذهب هباء منثورا.

ورحت أدق أجراس الإنذار من جديد في مقال نشرته "الشرق الأوسط" تحت عنوان "سنة كبيسة"، حاولت الدعوة فيه إلى دعم حكومة عبد السلام بلعيد، وحذرت ممن يحاولون إقحام الجيش للقيام بدور مباشر، كما حذرت في الوقت نفسه من اعتماد تقارير السفارات الأجنبية في الجزائر على مصادر مشبوهة لا تمثل شيئا في الواقع الشعبي وتحاول التأثير من الخارج على الواقع السياسي.

وكان مجلس الدولة بقيادة علي كافي قد بدأ سلسلة من الحوارات مع قيادات الأحزاب، ومن بينها جبهة التحرير الوطني، التي شهد الحوار معها ملاسنات بين رضا مالك وعبد العزيز بلخادم، عندما شكك رضا في شرعية الجبهة، فشكك بلخادم في شرعيته هو نفسه.

وكان من بين الكتابات سلسلة أسبوعية بدأتها في فبراير 1993 في مجلة الإذاعة حملت عنوان .."صورة وذكريات"، وكان كل مقال عبارة عن استرجاع لحجم من الذكريات ترتبط بصورة فوتوغرافية معينة، كنت أختارها من بين الصور التي جمعتني بالرئيس الراحل هواري بو مدين، وقمت فيما بعد بتجميع هذه المقالات في الكتاب الذي حمل عنوان "أيام مع الرئيس بو مدين"، وصدرت طبعته الأولى في بيروت عام 1996.

وكان من المشاكل التي صادفتني ردود الفعل السلبية من بعض رفاق الرئيس الراحل، الذين استهجن بعضهم عدم إشارتي لوجودهم حول الرئيس، وكان ردي آنذاك أنني أتحدث عن ذكرياتي مع الرئيس الراحل واستعرض ما يرتبط بالصورة، وما يهمني هو التذكير بالرجل الذي يحاول البعض أن يطمس وجوده بينما هو غير قادر على الرد أو التوضيح أو التفنيد.

وقلت لصديق نقل لي تعليقا حادا لأحد رفقاء الرئيس بأنني لست مراسلا لوكالة الأنباء عليه أن يستعرض أسماء المسؤولين في مناسبة معينة، وأضفت بأنني، إذا تناولت اسما معينا، فإنني لن أكتفي بذكره ولكنني سأقول ما له وما عليه، ولست مستعدا لذلك، لكنني على استعداد لنشر أي تعليقات مكتوبة تصلني، مع تسجيل حقي في مناقشتها".

ولم يصلني شيئ مكتوب إلى يومنا هذا.

لكن أهمية هذا الأمر اتضحت فيما بعد عندما كنت أساهم في إعداد برامج متلفزة تتناول حياة الرئيس الراحل، فقد رفض البعض المساهمة وساهم البعض بتدخلات بالغة الأهمية بينما حاول بعضهم استثمار الحصة لتلميع صورته وتضخيم دوره بجانب بو مدين، وكان الرائع في الأمر كله أن الشباب، على وجه التحديد، فهموا الأمر كله، وهو ما تأكد لي عبر حوارات مطولة مع المشاركين في الندوات التي كنت أساهم في تنشيطها.

وتواصلت الكتابات في الصحافة الوطنية، ولعلي أذكر منها هنا مقالا نشرته في المساء، ردا على صحفي كتب مقالا مسيئا للرئيس الشاذلي بن جديد، وسرد معلومات غير صحيحة عن بعض زياراته خارج الوطن، وكان عنوان مقال الصحفي .. "أمة من الأغنام".

وفندت في الرد الذي نشر في 25 فبراير 1993 تحت عنوان .."لسنا أمة من الأغنام" كل الادعاءات التي جاءت في المقال، وكان هدفي الرئيس أن أندد بالذين يهاجمون اليوم رجلا لا يملك فرصة الدفاع عن نفسه، ويتقولون عليه بالأكاذيب لإرضاء الذين "استقالوه" في الظروف المعروفة[302].

وفي مقال آخر نشرته "رسالة الأطلس" تحت عنوان .. "من الحمار ؟" هاجمت واحدا من زعماء اليسار المزعوم، وطالبت في المقال بإجراء انتخابات رئاسية مع انتهاء عهدة الرئيس علي كافي، وكنت بذلك من أوائل المطالبين بالعودة إلى الشرعية الكاملة، بانتخاب الرئيس ثم الاستعداد لانتخابات تشريعية جديدة، لكن السلطة كانت تريد انتخابات على المقياس ولم تكن قد تمكنت بعد من إعداد الخطط اللازمة لذلك، وهو ما يعنى إطالة عمر الإجرام الإرهابي.

وحاولت في مقال نهاية عام 1993 شرح ما يحدث في الجزائر لأشقاء كانت الدهشة تعقد ألسنتهم وهم يتابعون تفاقم الأوضاع على أرض المليون ونصف شهيد، وحمل المقال الذي نشر في 13 ديسمبر عنوان : "من يقتل ويتقدم الصفوف في جنازة القتيل ؟" واستعملت فيه للمرة الأولى في وصف وضعية الجزائر تعبير "الطائرة المختطفة"، كما أشرت، للمرة الأولى، إلى المثال اليوغوسلافي الذي يدفع البعض بلادنا نحوه، وأبرزت في المقال دور المحتشدات في نمو بذرة الإرهاب، وأوضحت خلفيات اغتيال المجاهدين والمحبوبين من رجال الأمن، والتي ألقت بنا في دائرة العنف والعنف المضاد.

ولم أخفِ ما شعرت به من أسى لفشل حكومة عبد السلام بلعيد، الذي سلم المسؤولية لرضا مالك.

وكان من أهم عناصر المقال إبراز دور رأس المال الطفيلي المتحالف مع بعض عناصر السلطة في أحداث أكتوبر، بهدف تحطيم النظام لفائدة نظام جديد يسعى للتحالف مع أرباب العمل الفرنسيين، تصبح الإشارة فيه لثورة التحرير وكل ما ترمز له، إشارة لماض بغيض[303].

وفي نفس الشهر كتبت في مجلة المجاهد، لسان حال الجبهة، مقالا بعنوان "ربع الساعة الأخير"، كان من أهم عناصره رفض الانتقال من سلطة انتقالية إلى سلطة انتقالية أخرى بنهاية عهدة علي كافي، واقترحت عند الضرورة استمرار كافي في مهمته فترة إضافية لنخرج إلى انتخابات رئاسية صريحة ومباشرة، ويمكن أنذاك أن يعين رئيس المجلس الدستوري كرئيس مؤقت، مما يضع كل المرحلة التي جاءت نتيجة للحادي عشر من يناير 1992 بين قوسين، ونعود إلى الشرعية الدستورية طبقا لدستور 1989، لكن الأمور كانت أكثر تعقيدا مما كان يبدو على السطح.

وعدت إلى باتنة في ابريل 1994 لألقي محاضرة عن التاريخ والهوية، أوضحت فيها الفرق بين الوطنية الجغرافية المرتبطة بالأرض Patriotisme، والتي يشترك فيها الإنسان والحيوان، والوطنية القومية Nationalisme التي يختص بها الإنسان، لأنها تعني الانتماء الجغرافي والتاريخي والحضاري والوجداني والفكري والفني والاجتماعي، كل ذلك في وقت واحد.

وكان واضحا أنني أهاجم الذين يحاولون عزل الجزائر عن عمقها العربي الإسلامي بشعارات "الجزائر الجزائرية".

وتزايد الإرهاب الإجرامي بشكل مخيف، لكن ما اكتشفناه في مطلع القرن الجديد هو التطور العمراني الهائل في المدن الكبرى الذي عرفته هذه المرحلة وخاصة في العاصمة والمدن الكبرى،

---

302 - عاش الرئيس بن جديد في وهران في شبه إقامة محددة، ومنع من الذهاب إلى بلجيكا لإجراء مراقبة طبية في المستشفى الذي كان قد أجرى فيه عملية لعلاج الانزلاق الغضروفي، ولم يتمكن من الخروج للعلاج إلا بفضل الرئيس اليامين زروال. ويذكرني هذا بما حدث للأخ عبد الحميد مهري، الذي استقطب عداء السلطة بعد لقاء روما، والذي حرم من حق علاج زوجته التي كانت تعاني من مرض خطير على نفقة الدولة، إلى أن تولى المسؤولية الرئيس عبد العزيز بو تفليقة، الذي أصدر تعليمات بتلبية رغبة المناضل الكبير.

303 - جمعتُ معظم هذه الكتابات في كتاب "الجزائر : الحلم والكابوس" الذي نشر في المغرب ضمن منشورات المجلس القومي للثقافة العربية الذي كانت تحتضنه ليبيا في نهاية التسعينيات ، ثم في دار هومة بالجزائر عام 2004 ثم دار الفارابي في بيروت في 2006.

والثروات الضخمة التي تزايدت في يد عدد من المترفين وما رافق ذلك من تزايد أعداد السيارات الفاخرة التي يقودها شباب من الجنسين، والحفلات التي عرفتها الفنادق وتميزت بالسفه والتبذير.

وكان السؤال الذي أخذ يطرح نفسه بحدة : "من المستفيد الحقيقي من الإرهاب الإجرامي ؟".

....

ويستدعيني الرئيس اليمين زروال في ديسمبر 1997 ليبلغني بأنه اختارني عضوا في مجلس الأمة الذي انبثق عن التعديل الدستوري في 1996.

وتبدأ مرحلة جديدة.

ولكل حادث حديث.

موجز تاريخ حياة

* - طبيب بشري، من مواليد القرن الماضي !!!.

* - أول جزائري يتخرج من المشرق العربي (طب عين شمس -القاهرة)

* - مارس نشاطا كشفيا وطلابيا متعددا خلال المرحلة الطلابية وترأس الفرقة الكشفية الجزائرية في المؤتمر الكشفي العربي الثاني في الإسكندرية عام 1956

* - قطع دراسته الطبية في 1957 ليلتحق بجيش التحرير الجزائري.- استكمل دراسته الطبية عام 1963 في القاهرة ليعود فورا إلى الجزائر - تولى إدارة الشؤون الطبية للقوات البحرية الجزائرية وكان كبير أطبائها، وأسس فيها أول محافظة سياسية بعد استقلال الجزائر، وكان أول محافظ سياسي للقوات البحرية.

* - بدأ الكتابة بانتظام في منتصف الستينيات على صفحات مجلة الجيش، مستعملا بتوقيع "م .. دين"، وكانت رسومه الكاريكاتيرية أول رسوم تعرفها الصحافة العربية في الجزائر، وكان أول من كتبوا الأعمدة النقدية وتطور ب ذلك إلى كتابة الأركان فالمقالات المطولة والسلاسل المطولة، وتخصص في الكتابة السياسية.

* - استقال من البحرية وفتح عيادة خاصة في العاصمة الجزائرية، وفي الوقت نفسه واصل النشاط النضالي في إطار حزب جبهة التحرير الوطني والكتابة في المجاهد الناطقة باسم الحزب وكذلك في الشعب، وبالتوقيع المستعار.

* - اختاره الرئيس الجزائري الراحل هواري بو مدين في 1971 مستشارا إعلاميا، فتوقف عن ممارسة المهنة الطبية، ولكنه واصل الكتابة بكثافة أقل، وبالتوقيع المستعار.

* -رافق الرئيس بو مدين في كل نشاطاته الداخلية والخارجية وحتى وفاة الرئيس في 1978، وتحمل المسؤولية الإعلامية إلى جانب الرئيس رابح بيطاط خلال الفترة الانتقالية، التي انتهت بالمؤتمر الرابع لحزب جبهة التحرير الوطني وانتخاب الرئيس الشاذلي بن جديد رئيسا للجهورية.

*- اختير عضوا في اللجنة المركزية للحزب في المؤتمر الرابع (1979 - 1983) وواصل مهمته في نفس الموقع برئاسة الجمهورية بطلب من الرئيس الشاذلي بن جديد، وإلى عام 1984.

*-كان من بين من تمت تصفيتهم سياسيا وإداريا في منتصف الثمانينيات

* - استدعاه الرئيس الشاذلي بن جديد في ولايته الثالثة مرة أخرى ليعينه سفيرا للجزائر في باكستان في 1989، وظل بها نحو ثلاث سنوات، استطاع خلالها أن يستعيد للجزائر بريقها في المنطقة.
*- أحيل إلى التقاعد مرة ثانية بعد اغتيال الرئيس بوضياف.
* - استدعاه الرئيس اليمين زروال في 1998 وعينه عضوا في مجلس الأمة ضمن الثلث الرئاسي، الذي يضم الكفاءات الوطنية، وواصل الكتابة السياسية، بإذن من الرئيس، خارج الوطن وأساسا في كل من "الشرق الأوسط" و"الأهرام" وداخل الوطن في الصحف الناطقة بالعربية أساسا، وكانت مقالاته تنشر في نفس اليوم على صفحات ست صحف جزائرية عربية، وكتب أيضا للقدس العربي بلندن ومجلة الحدث بباريس
* - في أغسطس 2000 اختاره الرئيس عبد العزيز بو تفليقة عضوا في حكومته الثانية وكلفه بالاتصال والثقافة.
*-عين ثانية في مجلس الأمة * -انتخب في سبتمبر 2002 رئيسا للجنة الشؤون الخارجية والتعاون الدولي.
* - ممثل مجلس الأمة في الاتحاد البرلماني لمنظمة المؤتمر الإسلامي وشارك في عشرات المؤتمرات الدولي.
*- أعد هذا الكتاب بعد انتهاء عهدته البرلمانية الثانية في يناير 2010 ونشر أولا على حلقات.

إصداراته السابقة

انطباعات (ثلاثة أجزاء) المؤسسة الوطنية للكتاب
- م..دين.. التجربة والجذور دار الأمة
- أيام مع الرئيس بو مدين دار اقرأ (بيروت) وموفم - الجزائر
- سفيرا زاده الخيال دار سعاد الصباح في الكويت وموفم (ENAG) بالجزائر
- لله وللوطن
(ثلاث مجموعات في خمسة كتب) موفم – الرغاية - الجزائر
- نظرة في مرآة عاكسة موفم (المؤسسة الوطنية للفنون المطبعية)
- الجزائر : الحلم والكابوس دار هومة - الجزائر . دار الفارابي - بيروت
– أنا وهو وهم. موفم

* - كُرّم أكثر من مرة في عدة عواصم عربية، واختير في الكويت لمرتبة الشخصية الثقافية العربية لعام 2001
*- يحمل عدة أوسمة من دول عربية وأجنبية.